



الكتاب

الكتاب

الكتاب

الكتاب

الكتاب

الكتاب

تفسیر المظہری

تألیف

القاضي محمد ثناء الله عثمانی الحنفی المظہری

النقشبندی

۱۱۴۳ - ۱۱۶۵

تحقیق

أحمد عزو عنایة

الجزء الرابع

ناشر
مکتبہ حنفیہ

کانی روڈ ۰ کوئٹہ ۰ فون: 662510

جميع الحقوق محفوظة للناسر

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة لدار إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو
مجزءاً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على
إسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Copyright @

All rights reserved

All rights of this publication are reserved exclusively to DAR
EHIA AL -TOURATH AL-ARABI Beirut - Lebanon. No part of
this publication may be translated, reproduced, photocopied, pho-
tagraphed, taped on audio cassettes, or stored in a data base or
saved on a retrievable system distributed in any form or by any
means, without the prior written permission of the publisher.

الطبعة الأولى

1425 هـ - 2004 م

دار إحياء التراث العربي - بيروت لبنان

Beirut - Liban - Imm Kileopatra - Rue Dakkache

P.O.Box 11\7957 Postal Code 1107 2250

Tel.Off: 544440 - 540000 Fax: 850717

بيروت - لبنان - بناية كليوبترا - شارع دكاش

ص.ب: 11/7957 الرمز البريدي: 1107 2250

هاتف: 540000 - 544440 فاكس: 850717

سورة الأنفال

آياتها خمس وسبعون وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَانَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقَطَّ دَائِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾

روى ابن أبي شيبة وأبو داود والنسائي والحاكم وابن حبان وعبد الرزاق في المصنف وعبد بن حميد وابن عابد وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما كان يوم بدر قال: النبي ﷺ: «من قتل قتيلاً فله كذا أو كذا ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا^(١)» وفي رواية ابن مردويه من طريق فيه الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس وعن عطاء عن ابن عجلان عن عكومة عنه بلفظ «من قتل قتيلاً فله سلبه» فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات وأما الشبان فسارعوا إلى القتل والغنائم، فقال: المشيخة للشبان أشركونا معكم فإننا كنا لكم ردهاً ولو كان منكم شيء لجنتم إلينا فاختصموا إلى رسول الله ﷺ، وجاء أبو اليسر بأسيرين فقال: يا رسول الله قد وعدتنا، فقام سعد بن

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد، باب: في النفل (٢٧٣٦).

معاذ فقال: يا رسول الله ﷺ أعطيت هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء وإنه لم يمنعنا من هذا زهادة في الآخرة ولا جبن عن العدو ولا ضمن بالحياة أن نصنع ما صنع إخواننا ولكننا رأينا قد أفردت فكرهنا أن تكون بمضيعة وإنما قمنا هذا المقام محافظة عليك أن يأتوك وراءك فتساجروا فنزلت ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يا محمد ﴿عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ يعني أن الغنائم لمن هي، والنفل الغنم لأنها من فضل الله وعطائه ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿الْأَنْفَالُ لِلَّهِ﴾ ملكاً ﴿وَالرَّسُولِ﴾ تصرفاً يقسمها الرسول على ما يأمره الله تعالى يعني أمرها مختص بهما، قال: ابن عباس فيما رواه الأئمة المذكورون: فنزعه الله تعالى من أيديهم فجعله إلى رسول الله ﷺ فجعله رسول الله ﷺ بين المسلمين على بواء أي سواء فكان ذلك تقوى الله وطاعته وطاعة رسوله ﷺ وإصلاح ذات البين كما قال: الله تعالى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الاختلاف والمشاجرة ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ يعني الصفة التي بينكم من المواساة والألفة والمساعدة فيما رزقكم الله تعالى وتسليم أمره إلى الله تعالى ورسوله، قال: الزجاج: يعني ذات بينكم حقيقة وصلكم والبين الوصل ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما أمرتم به في الغنائم وغيرها ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ شرط استغنى عن الجزاء بما مضى، يعني إن كنتم مؤمنين كاملي الإيمان فافعلوا ذلك فإن مقتضى كمال الإيمان الإطاعة في الأوامر والإتقاء عن المعاصي وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان والإيثار، وذكر البيضاوي الحديث بلفظ شرط رسول الله ﷺ لمن كان له غناء أن ينقله فتسارع شبانهم حتى قتلوا سبعين وأسروا سبعين ثم طلبوا نفلهم وكان المال قليلاً فقال: الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات كنا رداءً لكم وفئة تتحاذون إليها فنزلت فقسمها رسول الله ﷺ بينهم على السواء، ثم قال: البيضاوي: ولهذا لا يلزم الإمام أن يفيء بما وعدهم وهو قول الشافعي رحمه الله. وروى ابن أبي شيبه وأحمد وعبد بن حميد وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر وقتل أخي عمير وقتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه وكان يسمى ذا الكتيفة فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله قد شفاني الله تعالى اليوم من المشركين فنفلني هذا السيف فأنا من قد علمت حاله، قال: هذا السيف لا لك ولا لي ضعه فوضعت ثم رجعت، قلت: عسى أن يعطي هذا السيف اليوم من لا يبلي بلائي فرجعت فقال: اذهب فاطرحه في القبض فرجعت وبني ما لا يعلمه إلا الله تعالى من قتل أخي وأخذ سلمي فرجعت به حتى إذا أردت أن أقيه لامتنى نفسي فرجعت إليه، فقلت: أعطني فشد بي صوته فما جاوزت إلا يسيراً حتى نزلت سورة الأنفال فقال: رسول الله ﷺ: «اذهب فخذ سيفك» وفي رواية فجاني الرسول إنك سألتني

وليس لي وإنه قد صار لي وهو لك؛ وروى البخاري في تاريخه عن سعد بن جبير أن سعداً ورجلاً من الأنصار خرجا ينتفلان فوجدا سيفاً ملقى فخرا عليه، فقال: سعد هو لي وقال الأنصاري هو لي لا أسلمه حتى أتى رسول الله ﷺ فأتياه فقص عليه القصة، فقال: رسول الله ﷺ: ليس لك يا سعد ولا للأنصاري فنزلت ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ الآية ثم نسخت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾^(١) وروى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في السنن عن ابن عباس قال: الأنفال المغنم كانت لرسول الله ﷺ خالصة ليس لأحد منها شيء ما أصاب من سرايا المسلمين من شيء أتوه فمن حبس إبرة أو سلكاً فهو غلول فسألوا رسول الله ﷺ أن يعطيهم منها شيئاً فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِي جَعَلْتُهَا لِرَسُولِي لَيْسَ لَكُمْ مِنْهَا شَيْءٌ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ثم أنزل الله ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية ثم قسم ذلك الخمس لرسول الله ﷺ ولذي القربى واليتامى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وجعل أربعة أخماسه للناس فيه سواء للفرس سهمان ولصاحبه سهم وللراجل سهم.

قال محمد بن يوسف الصالحى في سبيل الرشاد: ولما أمر رسول الله ﷺ أن يقسم الغنائم على السواء قال: سعد بن معاذ يا رسول الله أتعطي فارس القوم الذي يحميهم مثل ما تعطي الضعيف؟ فقال: رسول الله ﷺ: «ثكلتك أمك وهل تنصرون إلا بضعفانكم» ونادى مناديه ﷺ: من قتل قتيلاً فله سلبه ومن أسر أسيراً فهو له - كان يعطي من قتل قتيلاً سلبه -.

وروى سعيد بن منصور وأحمد وابن المنذر وابن حبان والحاكم والبيهقي في السنن عن عبادة بن الصامت قال: التقى الناس فهزم الله العدو وانطلقت طائفة إلى آثارهم يأسرون ويقتلون وأكببت طائفة على العسكر يجوزونه ويجمعونه وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل وأفاء الناس بعضهم إلى بعض قال: الذين جمعوا الغنائم نحن جمعناها وحويناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو لستم بأحق منا نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ لستم بأحق بها منا نحن أحدقنا برسول الله ﷺ حفظنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به فنزلت ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ الآية ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الكاملون

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤١.

في الإيمان ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ﴾ خافت وفزعت ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ استعظماً وتهيباً من جلاله وعزة سلطانه، وقيل: هو الرجل يهيم بالمعصية فيقال له اتق فينزح منه خوفاً من عقابه فالمعنى إذا اذكر وعيد الله بحذف المضاف ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ لاطمئنان النفى بنزول البركات عند تلاوة القرآن ورسوخ اليقين بتظاهر الأدلة ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يفوضون أمورهم إليه تعالى ولا يخشون ولا يرجون أحداً إلا إياه ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي يأتونها بحقوقها ويقيمونها كما يقام القداح ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أعطيناهم ﴿يُنْفِقُونَ﴾ في سبيل الله ﴿أَوْلِيَّكَ﴾ الموصوفون بمكارم أعمال القلوب من الإخلاص والخشية والتوكل واطمئنان الأنفس بذكر الله ومحاسن أعمال الجوارح من الصلاة والصدقة ﴿هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ صفة لمصدر محذوف أي إيماناً حقاً أو مصدر مؤكد يعني إيمانه حقاً لا شبهة فيه.

عن الحسن أن رجلاً سأله أمؤمن أنت؟ قال: إن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب فأنا مؤمن وإن كنت تسألني عن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية فلا أدري أمنهم أنا أم لا.

قلت: مراد الحسن أن كمال الإيمان بالإخلاص وتصفية القلب وتزكية النفس وتحلية الجوارح بالطاعات وترك المعاصي وذلك أمر نادر لا أدري اتصاف نفسي به وأما نفس الإيمان فموجود بفضل الله فليس هذا من قبيل أنا مؤمن إن شاء الله، وقال علقمة: كنا في سفر فلقينا قوماً من هؤلاء قالوا: نحن المؤمنون حقاً فلم ندر ما نجيبهم حتى لقينا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فأخبرناه بما قالوا: قال: فما رددم عليهم؟ قلنا: لم نرد عليهم، قال: هلا قلتم أمن أهل الجنة أنتم؟ إن المؤمنين أهل الجنة.

وقال الثوري: من زعم أنه مؤمن حقاً أو عند الله ثم لم يشهد أنه في الجنة فقد آمن بنصف الآية دون النصف، وبهذا يتشبه من يقول: أنا مؤمن إن شاء الله يعني المراد بالاستثناء عدم الجزم بحسن الخاتم الموجب لكونه من أهل الجنة لا الشك في إيمانه الحالي ذات الشك ينافي الإيمان الاعتقاد الجازم، وكان أبو حنيفة رحمه الله يكره هذا القول لكونه موهماً للشك المنافي للاعتقاد الجازم يقول: أنا مؤمن حقاً باعتبار حصول الاعتقاد الجازم في الحال لا بمعنى الجازم بحسن الخاتمة فالنزاع إنما هو في اللفظ دون المعنى لكن الأحوط قول أبي حنيفة.

قال أبو حنيفة لقتادة: لم تستثني في إيمانك؟ قال: اتباعاً لإبراهيم عليه السلام في

قوله: ﴿وَالَّذِي أَلْمَعَ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (١) فقال له هلا اقتديت به في قوله: ﴿قَالَ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (٢) وعن إبراهيم التيمي قال: قل أنا مؤمن حقاً فإن صدقت أثبت عليه وإن كذبت فكفرك أشد عليك من ذلك.

وعن ابن عباس من لم يكن منافقاً فهو مؤمن حقاً. ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ﴾ كرامة وفضل وعلو منزلة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ نظيره قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (٣) وقال عطاء: درجات الجنة يرتقونها بأعمالهم.

عن عبادة بن الصامت قال: قال: رسول الله ﷺ: «في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض والفردوس أعلاها درجة منها تفجر أنهار الجنة الأربعة ومن فوقها يكون العرش فإذا سألتهم الله فاسألوا الفردوس» (٤) رواه الترمذي، وقال البغوي قال: الربيع بن أنس سبعون درجة ما بين كل درجتين الفرس المضممر سبعين سنة ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لما فرط منهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ حسن أعد الله لهم في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر ببال أحد ولا ينقطع أبداً ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ﴾ الذي بالمدينة أو المراد بالبيت المدينة نفسها لأنها مهاجرة ومسكنه فهي مختصة به كاختصاص البيت بصاحبه ﴿بِالْحَقِّ﴾ متعلق بأخرج أي إخراجاً متلبساً بالحكمة والصواب لقتال الكفار ببدر، وقوله كما أخرجك إما مبتدأ محذوف تقديره هذا الحال يعني كون الأنفال لله والرسول وتقسيم رسول الله ﷺ الأنفال بين الناس على السواء وكراهة بعض الناس يعني الشبان المقاتلة ثابت كحال إخراجك الله للحرب وكراهتهم به، أو صفة لمصدر الفعل المقدر في قوله لله والرسول أي الأنفال ثبت لله والرسول مع كراهتهم ثباتاً ثابت إخراجك ربك من بيتك كذا، قال: المبرد: وقيل: تقديره امض لأمر الله تعالى في الأنفال وإن كرهوا كما مضيت أمر الله في الخروج من البيت.

قصة غزوة بدر

والسبب في خروج النبي ﷺ أنه سمع أبا سفيان بن حرب مقبلاً من الشام في ألف بعير لقريش فيها أموال عظام ولم يبق بمكة قرشي ولا قرشية له مثقال فصاعداً إلا بعث به

(١) سورة الشعراء، الآية: ٨٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة الجنة، باب: ما جاء في صفة درجات الجنة (٢٥٣١).

في العير فيقال: إن فيها خمسين ألف دينار وفيها سبعين رجلاً كذا ذكر ابن عقبة وابن عابد.

قال البغوي: قال: ابن عباس وابن الزبير ومحمد بن إسحاق والسدي أقبل أبو سفيان من الشام في أربعين راكباً من كبار قريش فيهم عمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل الزهري فندب رسول الله ﷺ للخروج معه وقال: «هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا لعل الله أن يغنمكوها» فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم وتخلف عنه بشر كثير وكان من تخلف لم يلم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً ولم يحتفل لها رسول الله ﷺ احتفالاً بليغاً فقال: من كان ظهره حاضراً فليركب معنا فجعل رجال يستأذنونهم في ظهورهم في علو المدينة قال: لا إلا من كان ظهره حاضراً.

وبعث رسول الله ﷺ قبل خروجه من المدينة بعشر ليال طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى طريق الشام يتجسسان خبر العير، فبلغا أرض خوار فنزلا على كشد بن مالك الجهني فأجارهما وأنزلهما وكنتم عليهما حتى مرت العير ثم خرجا وخرج معهما كشد حتى أودد هما ذا المروة، فقدموا ليخبرا رسول الله ﷺ فوجداه قد خرج فلما أخذ رسول الله ﷺ ينبع أقطعه الكشد، فقال: يا رسول الله إني كبير لكن أقطعها لابن أخي فأقطعه إياها فابتاعها منه عبد الرحمن بن سعد بن زرارة رواه عمر بن شيبة. وأدرك أبا سفيان رجل من خدام بالرزقا فأخبره أن رسول الله ﷺ ينتظر رجوع العير فخرج أبو سفيان ومن معه خائفين للرصد ولما دنا أبو سفيان من الحجاز جعل يتجسس الأخبار ويسأل من لقي من الركبان نخوفاً على أمر الناس حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمد ﷺ قد استنفر لك ولعيرك فحذر عند ذلك، واستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري بعشرين مثقالاً فبعثه إلى مكة وأمره أن يجده بعيره ويحول رحله ويشق قميصه قبله ومن دبره إذا يأتي مكة ويأتي قريشاً ولستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه فخرج ضمضم مسرعاً إلى مكة وفعل ما أمره به أبو سفيان.

ذكر بنام عاتكة

روى ابن إسحاق والحاكم والبيهقي من طريق عكرمة عن ابن عباس وموسى بن عقبة وابن إسحاق عن عروة والبيهقي عن ابن شهاب قالوا: رأت عاتكة بنت عبد المطلب فيما يرى النائم قبل مقدم ضمضم على قريش بثلاث ليال رؤيا فأصبحت عاتكة فأعظمتها، فبعثت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب فقال: له: يا أخي لقد رأيت رؤيا أفظعتني

ليدخلن على قريش منها شر وبلاء، فقال: ما هي؟ قالت: لن أحدثك حتى تعاهدني أنك لا تذكرها فإنهم إن يسمعوها آذونا وأسمعونا ما لا نحب فعاهدها العباس، فقال: رأيت أن رجلاً أقبل على بعير فوق الأبطح فصاح بأعلى صوته انفروا يا آل عذر إلى مصارعكم في ثلاث صيحات ما رأى الناس اجتمعوا إليه ثم دخل المسجد والناس يتبعونه ثم مثل به بعيره فإذا هو على رأس الكعبة فصاح ثلاث صيحات فقال: انفروا يا آل عذر إلى مصارعكم في ثلاث، ثم أرى بعيره مثل على رأس أبي قبيس فقال: انفروا يا آل عذر إلى مصارعكم في ثلاث ثم أخذ صخرة عظيمة فنزعها من أصلها فأرسلها من أصل الجبل فأقبلت الصخرة تهوي لها حس شديد حتى إذا كانت في أسفل رفضت فما بقيت دار من دور قومك ولا بيت إلا دخل فلقه.

فقال العباس والله إن هذه لرؤيا فاكتميتها لئن بلغت هذه قريشاً ليؤذوننا فخرج العباس من عندها فلقى الوليد بن عتبة بن ربيعة بن عبد الشمس وكان صديقاً له فذكرها واستكتمه إياها فذكرها الوليد لأبيه عتبة فتحدث بها وفشى الحديث بمكة حتى تحدثت به قريش.

قال العباس فغدوت أطوف بالبيت وأبو جهل بن هشام في رهط من قريش يعود يتحدثون برؤيا عاتكة فلما رأني قال: يا أبا فضل إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا فلما فرغت أقبلت حتى جلست معهم، فقال: لي أبو جهل: يا بني عبد المطلب متى حدثت فيكم هذه النبوة، قلت: وما ذلك؟ قال: رؤيا عاتكة، قلت: وما رأيت؟ قال: يا بني عبد المطلب ما رضيتم أن تنبأ رجالكم حتى تنبأ نساءكم ولفظ ابن عقبة أما رضيتم يا بني هاشم يكذب الرجال حتى جتتم بكذب النساء إنا كنا وأياكم كفرسي رهان فاستبقنا المجد منه فلما تحاكت الركب قلت من نبي بقي إلا أن تقولوا منا نبوة فما أعلم في قريش أهل بيت أكذب امرأة ولا رجلاً منكم وأذاه أشد الإذاء، قد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال: انفروا في ثلاث فستربص بكم هذه الثلاث فإن يك حقاً ما تقول فسيكون وإن تمضي الثلاث ولم يكن كتبنا عليكم كتاباً أنكم أكذب أهل بيت في العرب.

قال العباس فوالله ما كان مني إليه كثيراً إلا أنني جحدت ذلك وأنكرت أن تكون رأيت شيئاً. وعند أبي عقبة في هذا الخبر أن العباس قال: لأبي جهل: هل أنت منته فإن الكذب فيك وفي أهل بيتك فقال: من حضرهما: ما كنت جهولاً يا أبا الفضل ولا أحقق خرقاً، وكذلك قال: ابن عابد وزاد مهلاً يا مصفر أسته.

ولقي العباس عاتكة أذى شديداً حين أفشا حديثها لهذا الفاسق، قال: العباس: فلما أمسيت لم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني قالت: أقررتم لهذا الخبيث الفاسق أن يقع في رجالكم ثم قد تناول نساءكم وأنت تسمع ثم لم يكن عندك كبير شيء مما سمعت، قلت: قد والله قد ما نعت ما كان مني إليه كبير شيء مما سمعت ولهم الله لا تعرض له فإن عاد لأكفيكنه، قال: فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا جديد مغضب أرى أني قد فاتني منه أمر أحب أن أدركه منه، قال: فدخلت المسجد فرأيت والله إنني لأمشي نحوه أتعرضه ليعود لبعض ما قال: فأقع به وكان رجلاً خفيفاً حديد الوجه جديد اللسان حديد النظر إذ خرج نحو باب المسجد يشتد، قلت: في نفسه ما له لعنه الله أكل هذا فرقاً مني أن أشاتمته قال: وإذا هس قد سمع ما لم أسمع صوت ضمضم بن عمر يصرخ في بطن الوادي واقفاً على بعيره قد جدع بعيره وحول رجله وشق قميصه وهو يقول: يا معشر قريش يا آل لوت بن غالب اللطيمة اللطيمة أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى تدركوها الغوث الغوث والله ما أرى أن تدركوها ففزعت قريش أشد الفرع وأشفقوا من رؤيا عاتكة فشغله ذلك عني وشغلني عنه ما جاء من الأمر وقالت عاتكة شعر:

ألم تكن رؤيا بحق وجاءكم بتصديقها قل من القوم هارب
فقلت ولم أكذب كذبت وإنما يكذبنا بالصدق من هو كاذب

فتجهز الناس سراعاً وقالوا: يظن محمد وأصحابه أن يكون كبير ابن الحضرمي كلا والله ليعلمن غير ذلك فكانوا بين رجلين إما خارج وإما باعث مكانه رجلاً، وكان جهازهم في ثلاثة أيام ويقال يومين وأعان قويعهم ضعيفهم ولم يتركوا كارهاً للخروج يظنون أنه في صف محمد وأصحابه ولا مسلماً يعلمون إسلامه ولا أحداً من بني هاشم إلا من لا يتهمونه إلا أشخاصهم معهم وكان ممن أشخص العباس بن عبد المطلب ونوفل بن الحارث وطالب وعقيل ابني أبي طالب في آخرين، ولم يتخلف أحد من قريش إلا بعث مكانه بعثاً إلا أبا لهب مشوا إليه فأبى أن يخرج أو يبعث أحداً ويقال: إنه بعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة وأسلم بعد ذلك وكان قد لاط له بأربعة آلاف درهم كانت له عليه فاستأجره بها على أن يجري عنه بعثه فخرج عنه، وتخلف أبو لهب منه من الخروج رؤيا عاتكة فإنه كان يقول: رؤيا عاتكة تأخذ باليد واستقسم أمية بن خلف وعتبة بن شيبه وزمعة بن الأسود وعمير بن وهب وحكيم بن خرام وغيرهم عند هبل بالأمر والناهي من الأزام فخرج القدح الناهي من الخروج فأجمعوا المقام حتى أزعجهم أبو جهل، ولما

أجمع أمية بن خلف القعود وكان شيخاً جليلاً جسيماً ثقيلاً أتى عقبة بن أبي معيط وهو جالس في المسجد بين ظهراي قومه فيها نار ومجمر حتى وضعها بين يديهم ثم قال: يا أبا علي فإنما أنت من النساء، فقال: قبحك الله وقبح ما جئت به ثم جهز وخرج مع الناس.

قال ابن إسحاق وغيره ولما فرغوا من جهازهم وأجمعوا السير وخرجوا على الصعب والذلول معهم القيان والدفوف ذكروا ما بينهم وبين بني بكر بن عبد مناة بن كنانة من الدماء فقالوا: إنا نخشى أن يأتينا من خلفنا فكاد ذلك أن يثنيهم، فبدي لهم عدو الله إبليس في صورة سراقه بن مالك الكناني وكان من أشرف بني كنانة فقال: أنا جار لكم من أن يأتكم كنانة من خلفكم شيء تكرهونه، فخرجوا في خمسين وتسعمائة مقاتل وقيل: في ألف، وكان معهم مئتا فرس وستمائة درع ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بني عدي فلم يخرج معهم منهم أحد فقال: ابن عقبة وابن عابد وأقبل المشركون ومعهم إبليس يعدهم أن بني كنانة وراءهم قد أقبلوا لنصرهم وأنه لا غالب لكم من الناس وإني جار لكم.

قال في الامتناع: فلما نزلوا بمر الظهران نحر أبو جهل عشر جزور فما بقي خباء من أخبية العسكر إلا أصابه من دمها ورأى ضمضم بن عمرو أن وادي مكة يسيل دماً من أسفله وأعلاه ونحر لهم أمية بن خلف بعسيف تسعاً ونحر سهيل بن عمرو بقديد عشراً وأسلم بعد ذلك ثم مالوا من قديد إلى مياه نحو البحر فظلوا فيها فأقاموا بها فنحر لهم يومئذ عقبة بن ربيعة عشراً ثم أصبحوا بالأبواء فنحر لهم نبيه ومنبه ابنا الحجاج عشراً عشراً ثم أكلوا من أزوادهم.

فلما وصلوا النجفة عشاء نزلوا هناك، روى البيهقي عن ابن شهاب وابن عقبة وعروة بن الزبير قالوا: لما نزلت قريش بالنجفة فيهم رجل من بني المطلب بن عبد مناة يقال له جهيم بن الصلت بن مخزومة وأسلم بعد ذلك في حنين فوضع جهيم رأسه فأغفا فقال: لأصحابه هل رأيتم الفارس الذي وقف عليّ آنفاً؟ قالوا: لا إنك مجنون، قال: قد وقف عليّ فارس آنفاً، فقال: قتل أبو جهل وعتبة بن ربيعة وشيبة وزمعة وأبو البخري وأميه بن خلف وعد رجالاً ممن قتل يوم بدر من أشرف قريش ثم رأته ضرب في لبة بعيره ثم أرسله في العسكر فما بقي خباء من أخبية العسكر إلا أصابه من دمه فقال: أصحابه: إنما لعب بك الشيطان، ودفع الحديث إلى أبي جهل فقال: قد جثمت بكذب بني المطلب مع كذب بني هاشم. فخرج رسول الله ﷺ من المدينة واستخلف ابن أم مكتوم

على الصلاة ورد أبا لبابة من الروحاء واستخلفه على المدينة، قال: ابن سعد: خرج رسول الله ﷺ يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان، وقال ابن هشام لثمان وضرب عسكره ببئر أبي عتبة على ميل من المدينة فعرض أصحابه ورد من استصفرهم منهم فرد عبد الله بن عمر وأسامة بن زيد ورافع بن خديج والبراء بن عازب وأسيد بن حضير وزيد بن أرقم وزيد بن ثابت وعمير بن أبي وقاص فبكى عمير، فأجازه فقتل يوم بدر وهو ابن ستة عشرة سنة، وأمر أصحابه أن يستقوا من بئر السقيا وشرب من مائها وصلى عند بيوت السقيا وأمر قيس بن أبي صعصعة حين فصل من السقيا أن يعد المسلمين فوقف بهم عند بئر أبي عتبة فعدهم ثم أخبر رسول الله ﷺ بأنهم ثلاثمائة وثلاثة عشر فرح بذلك، وقال: عدة أصحاب طالوت، ودعا يومئذ للمدينة فقال: «اللهم إن إبراهيم عبدك و خليلك و نبيك دعا لأهل مكة و إنى محمد عبدك و نبيك أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم في متاعهم و مدهم و ثمارهم اللهم حبب إلينا المدينة واجعل ما بها من الوباء بخرم، اللهم إني حرمت ما بين لأبينها كما حرم إبراهيم خليلك مكة» وكان خبيب بن أساف ولم يكن أسلم خرج منجداً لقومه من الخزرج طالباً للغنيمة، فقال: رسول الله ﷺ لا يصحبنا إلا من كان على ديننا فأسلم وأبلى بلاء حسناً راح عشية الأحد من بيوت السقيا، وقال ﷺ حين فصل منها: «اللهم إنهم حفاة فاحملهم و عراة فاكسهم و جياع فأشبعهم و عالة فأغنهم بفضلك» وكانت إبل أصحاب رسول الله ﷺ سبعين بعيراً فأعقبوها.

روى أحمد وابن سعد عن ابن مسعود قال: كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير وكان أبو لبابة وعلي زميلي رسول الله ﷺ قالوا: اركب يا رسول الله نحن نمشي عنك فقال: «ما أنتم بأقوى مني على المشي وما أنا أغنى عن الأجر منكما» قال: في البداية والعيون هذا قبل أن يرد رسول الله ﷺ أبا لبابة من الروحاء ثم كان زميلاه علياً وزيداً وكان معهم فرسان فرس للمقداد بن الأسود وفرس للزبير بن العوام، وعند ابن سعد في رواية كان معهم ثلاثة أفرس فرس لمرثد بن أبي مرثد الغنوي، قال: رسول الله ﷺ لسعد بن أبي وقاص وهو بتربان انظر إلى الظبي فعوق له سهم، وقام رسول الله ﷺ فوضع ذقنه بين منكب سعد وأذنه ثم قال: إرم اللهم سدد رميته فما أخطأ سعد عن نحر الظبي فتبسم رسول الله ﷺ وخرج سعد يعدو فأخذه وبه رمق فذكاه وحمله فأمره رسول الله ﷺ فقسم بين أصحابه ونزل رسول الله ﷺ ذا سنجسج وهي بين الروحاء، ثم ارتحل منها حتى إذا كان بالمنصرف ترك طريق مكة بيسار وسلك ذات اليمين النازية يريد بدرأ فسلك في ناحية منها حتى إذا جزع وادياً يقال زحفان بين النازية وبين مضيق السفراء ثم على المضيق ثم

انصب به حتى إذا كان قريباً من الصفراء بعث بسيس بن عمرو الجهني حليف بني ساعدة وعدي بن أبي الرغباء حليف بني النجار إلى بدر يتجسسان له الأخبار عن أبي سفيان، ولما سار رسول الله ﷺ من الصفراء بيسار وسلك ذات اليمين على واد يقال له ذفران وجزع فيه ثم نزل أتاه الخبر بمسير قريش ليمنعوا غيرهم فاستشار الناس فتكلم المهاجرون فأحسنوا فاستشارهم، فقام أبو بكر فقال: فأحسن ثم قام عمر فقال فأحسن ثم قام المقداد بن الأسود فقال: يا رسول الله ﷺ امض لما أمرك الله فنحن معك والله ما نقول كما قال: قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون. ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون عن يمينك وشمالك وبين يديك وخلفك والذي بعثك بالحق لو سرت بنا برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى نبغته، فأشرق وجه رسول الله ﷺ وقال له خيراً ودعا له ثم استشارهم ثالثاً ففهمت الأنصار أنه يعنيهم وذلك أنه عدد الناس، فقام سعد بن معاذ جزاه الله خيراً فقال: يا رسول الله كأنك تعرض بنا؟ قال: أجل، فقال: سعد: يا رسول الله قد آمننا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهدنا وموآثيقنا على السمع والطاعة فامض لما أردت ولعلك يا رسول الله تخشى أن يكون الأنصار لا ينصروك إلا في ديارهم وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم فاطمن حيث شئت وصل حبل من شئت واقطع حبل من شئت وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت وما أمرت فيه من أمر فأمر فنتبع لأمرك فوالله لئن سرت حتى تبلغ برك من عمدان، وفي رواية برك الغماد من ذي يمن لنسيرن معك ووالله لو استعرضت بنا البحر لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن نلقى عدونا غداً إنا صبر في الحرب لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ولعلك خرجت لأمر فأحدث الله غيره فسر بنا على بركة الله فنحن عن يمينك وشمالك وبين يديك وخلفك ولا نكون كالذين قالوا: لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم متبعون، فأشرق وجه رسول الله ﷺ بقول سعد رضي الله عنه، فقال: رسول الله ﷺ: «سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم» وكره جماعة لقاء العدو كما قال: الله تعالى: ﴿وَإِنَّ قَرِيْبًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾.

قال البيضاوي وغيره هذه الجملة في محل النصب على الحال من كاف أخرجك أي أخرجك من بيتك في حال كراهتهم خروجك، قلت: والظاهر أنه استئناف ولا يجوز أن يكون في موضع الحال لوجوب اتحاد زمان الحال وصاحبه، ولا شك أنهم إنما كرهوا

الخروج إذا اتفق لهم القتال مع النصير وأما وقت الخروج فكانوا راغبين في الخروج إلى العير طمعاً في المال مع عدم القتال.

روى ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: لما سرنا يوماً أو يومين قال: رسول الله ﷺ: «ما ترون في قتال القوم فإنهم قد أخبروا بمخرجكم؟ فقلنا: والله ما لنا طاقة بقتال القوم ولكن أردنا العير، ثم قال: ما ترون في قتال القوم؟ فقلنا مثل ذلك ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ في إيثارك الجهاد إظهاراً للحق لإيثارهم تلقي العير عليه، وجدالهم قولهم: ما لنا طاقة لقتال القوم ولكننا أردنا العير ﴿بَعْدَ مَا بَيَّنَّ﴾ لهم بإعلام رسول الله ﷺ أنهم ينصرون، وذلك أنه نزل جبرئيل عليه السلام حين كان رسول الله ﷺ بالروحاء وقال: إن الله وعدكم إحدى الطائفتين إما العير وإما قريش، ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ﴾ متعلق بقوله ﴿لَكَرِهُونَ...﴾ يعني يكرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت وهو يشاهد أسبابه وذلك بقلة عددهم وعدم تأهبهم، وقال ابن زيد هؤلاء المشركون جادلوا في الحق كأنما يساقون إلى الموت ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ﴾ متعلق بمحذوف يعني اذكر إذ يعدكم الله ﴿إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ إما العير وإما قريش وهذا ثاني مفعولي يعدكم وقد أبدل عنها ﴿أَتَيْتُمْ لَكُمْ﴾ بدل الإشتغال ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ﴾ أي الشدة والقوة والحدة مستعار من الشوك يعني العير ﴿تَكُونُ لَكُمْ﴾ لكثرة المال وعدم القتال، روى ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان الله تعالى وعدهم إحدى الطائفتين وكانوا أن يلقوا العير أحب إليهم لكونهم أيسر شوكة فلما سبقت العير وفاتت رسول الله ﷺ سار رسول الله ﷺ بالمسلمين يريد القوم فكره القوم مسيرهم لكثرة القوة ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ﴾ أي يظهره ويعليه ﴿يَكَلِّمَتِهِ﴾ للوحي بها في هذه الحال يعني بأمره إياكم بالقتال أو بأوامره للملائكة بالإمداد، وقيل: بمواعدة التي سبقت من إظهار الدين وإعزازة ﴿وَيَقْطَعُ دَائِرَ الْكُفْرَيْنِ﴾ أي يستأصلهم حتى لا يبقى أحد من كفار العرب إلا يقتل أو يسلم، يعني أنكم تريدون أن تصيبوا مالا ولا تلقوا مكروهاً والله يريد إعلاء الدين وإظهار الحق وما يحصل لكم فوز الدارين ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾ متعلق بيقطع أو بمحذوف تقديره فعل ما فعل ليشبث الإسلام ﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ يعني الكفر وليس في الكلام تكرير فإن الأول لبيان المراد وبيان ما بين مراده تعالى ومرادهم من التفاوت والثاني لبيان الداعي إلى حمل الرسول إلى اختيار ذات الشوكة ونصرة عليها ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ يعني المشركين ذلك.

رجعنا إلى القصة: ثم ارتحل رسول الله ﷺ من ذفران فسلك ثانياً يقال له الأصافر

ثم انحط منها إلى بلد يقال له الدية وترك الحنان عن يمين وهو كثيب عظيم كالجبل العظيم، ثم نزل قريباً من بدر فركب هو وأبو بكر الصديق حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم قال: الشيخ بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا المكان الذي فيه رسول الله ﷺ وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا فإن كان الذي أخبرني صادق فهم اليوم في مكان كذا المكان الذي فيه قريش، ثم قال: من أنتما؟ قال: رسول الله ﷺ: نحن من ماء. قال: ابن إسحاق: ثم رجع رسول الله ﷺ إلى أصحابه فلما أمسى بعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون الخبر له فأصابوا راوية لقريش فيها أسلم غلام بني الحجاج وأبو يسار غلام بني العاص بن سعيد فاتوا بهما فسألواهما ورسول الله ﷺ قائم يصلي، فقالا: نحن سقاط قريش بعثونا نسقيهم من الماء فكره القوم خبرهما ورجوا أن يكونا لأبي سفيان فضربوهما فلما إذ لقوهما قالوا: نحن لأبي سفيان فتركوهما وركع رسول الله ﷺ وسجد سجديتين وسلم وقال: إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذباكم تركتموهما صدقا والله إنهما لقريش أخبراني عن قريش، قالوا: هم وراء هذا الكثيب الذي يرى بالعدوة القصوى والكثيب العنقل، فقال: لهما رسول الله ﷺ كم القوم؟ قالوا: كثير، قال: ما عدتهم؟ قالوا: لا ندري، قال: كم ينحرون كل يوم؟ قالوا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً، قال: رسول الله ﷺ: ما بين التسعمائة والألف، ثم قال: لهما رسول الله ﷺ من فيهم من الأشراف؟ قالوا: عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبو البختري ابن هشام وحكيم بن حزام ونوفل بن خويلد والحارث بن عامر وطعيمة بن عدي والنضر بن الحارث وربيعه الأسود وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف ونبية ومنبه ابنا الحجاج وسهل بن عمرو وعمرو بن عبدود، فقال: رسول الله ﷺ: «هذه مكة قد ألقت إليكم فلاذ كبدها» قال: ابن عابد: وكان مسيرهم وإقامتهم حتى بلغوا الجحفة عشر ليال وكان بسيس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء قد مضيا إلى بدر فأناخا إلى تل قريب من الماء ثم أخذ أشنانهما يستقيان فيه ومجدي بن عمر الجهني على الماء فسمع هدي وبسيس جاريتين من جوار الحاضر يتلازمان على الماء والملزومة تقول بصاحبتهما إنما يأتي العير غداً أو بعد غد فاعمل لهم ثم أعطيك الذي لك، قال: مجدي صدقت وسمع ذلك عدي وبسيس فجلسا على بعيرهما ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بما سمعا. قال: ابن إسحاق وغيره: وأقبل أبو سفيان بالعيير وقد خاف خوفاً شديداً حين دنوا المدينة واستبطأ

ضمضم بن عمرو النضير حتى ورد بدرأ وهو خائف وتقدم أبو سفيان أمام العير حذراً حتى ورد الماء فرأى مجدي بن عمرو الجهني فقال: له: هل أحسست أحداً؟ قال: ما رأيت أحداً أنكره إلا أنني رأيت راكبين يعني بسيساً وعدياً قد أناخا إلى هذا التل ثم استقيا في شن لهما ثم انطلقا، فأتى أبو سفيان إلى مناخهما فأخذ من أبعاد بغيرهما ففته فإذا فيه النوى فقال: هذه والله علاف يثرب فرجع إلى أصحابه سريعاً فضرب وجه غيره عن الطريق فساحل بها وترك بدرأ بيسار وانطلق وأسرع فسار ليلاً ونهاراً فرقاً من الطلب، فلما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز غيره أرسل إلى قريش قيس بن أمراء القيس إنما خرجتم لتمنعوا غيركم ورجالكم وأموالكم وقد نجاها الله تعالى فارجعوا فأتاهم الخبر وهم بالحجفة، فقال: أبو جهل والله لا نرجع حتى نرد بدرأ وكان بدرأ موسماً من مواسم العرب يجتمع به سوق كل عام فنقيم عليه ثلثاً فننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القينات ويسمع بنا العرب وبمسيرنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها وكره أهل الرأي المسير ومشى بعضهم إلى بعض، وكان ممن أبطأهم عن ذلك الحارث بن عامر وأميه بن خلف وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وحكيم بن حزام وأبو البختري وعلي بن أمية بن خلف وأبو العاصي حتى بكتهم أبو جهل بالجبن وأعانه عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث والحارث بن كلدة وأجمعوا على المسير.

قال الأخنس بن شريق وكان حليف بني زهرة يا بني زهرة قد نجا الله أموالكم وخلص لكم صاحبكم مخزومة بن نوفل وإنما نفرتم لتمنعوه وماله فارجعوا إلى مكة وكانوا نحو مائة، ويقال: ثلاثمائة فلم يشهدا زهري الأرجلين هما عما مسلم بن شهاب الزهري وقتلا كافرين. قال: ابن سعد: ولحق قيس بن امرؤ القيس أبا سفيان فأخبره بمجيء قريش فقال: واقوماه هذا عمل عمرو بن هشام يعني أبا جهل واغتبطت بنو زهرة بعد برأي الأخنس فلم يزل فيهم مطاعاً معظماً وأرادت بنو هاشم الرجوع فاشتد عليهم أبو جهل وقال: لا تفارقنا هذه العصاة حتى نرجع، ومضت قريش حتى نزلت بالعدوة القصوى من الوادي خلف العقنقل وبطن الوادي ونزل رسول الله ﷺ بالعدوة الدنيا وغلب المشركون المسلمين في أول أمرهم على المعاء فظمى المسلمون وأصابهم ضيق شديد وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ فوسوس إليهم تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم مصلون مجنبن فأنزل الله تعالى تلك الليلة المطر، وكان على المشركين وابلاً شديداً منعهم من التقدم وكان على المسلمين طلا طهرهم الله تعالى به وأذهب عنهم رجز الشيطان وطابهم الأرض وصلب الرمل وثبت الأقدام ومهد بن المنزل

وربط به على قلوبهم ولم يمنعهم عن المسير، وسال الوادي فشرب المؤمنون وملأوا الأسقية وسقوا الركاب واغتسلوا من الجنابة وأصاب المسلمين تلك الليلة نعاس ألقى عليهم فناموا حتى أن أحدهم وقفه بين يديه وما يشعر حتى يقع على جنبه.

روى أبو يعلى والبيهقي في الدلائل عن علي قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة حتى أصبح وكانت ليلتا الجمعة وبين الفريقين فوز من الرمل وبعث رسول الله ﷺ عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود فأطافا بالقوم رجعا فأخبرا أن القوم مذعورون وأن السماء تسيح عليهم، وسار رسول الله ﷺ عشاء يبادرهم الماء فسبقهم إليه ومنعهم من السبق إليه المطر حتى جاء أدنى ماء من بدر فنزل به.

فقال الحباب بن المنذر بن الجموح فيما رواه ابن إسحاق: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزكه أنزل له الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والمكيدة؟ قال: بل الرأي والحرب والمكيدة، قال: يا رسول الله ليس هذا بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فتنزله ثم نغور ما وراءه من القليب ثم نبني عليه حوضاً فتملأه ماء فنشرب ولا يشربون فقال ﷺ: «لقد أشرت بالرأي» وذكر ابن سعد أن جبرئيل نزل على النبي ﷺ، فقال: الرأي ما أشار به الحباب، فنهض ﷺ ومن معه من الناس حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه نصف الليل ثم أمر بالقليب فغورت وبنى حوضاً على القليب الذي نزل عليه فملئ ماءً ثم قذفوا فيه الآنية، فقال: سعد بن معاذ يا رسول الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا، فإن أظهرنا الله على عدونا كان ذلك ما أحيبنا وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن أشد لك حياً منهم ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك يمنعك الله عز وجل بهم يناصحونك ويجاهدون معك، فأثنى رسول الله ﷺ خيراً ودعا له ثم بني لرسول الله ﷺ عريش على تل مشرف على المعركة فكان فيه هو وأبو بكر وليس معهما وقام سعد بن معاذ على بابه متوشحاً بالسيف، ومشى رسول الله ﷺ في موضع المعركة وجعل يشير بيده هذا مصرع فلان هذا مصرع فلان إن شاء الله فما تعدى منهم أحد موضع إشارته^(١) رواه أحمد ومسلم وغيرهما، وروى الطبراني عن رافع بن خديج أن

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة بدر (١٧٧٩)، وأخرجه النسائي في كتاب: الجنائز، باب: أرواح المؤمنين (٢٠٦٥)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في الأسير ينال منه ويضرب (٢٦٧٩).

رسول الله ﷺ قال: يوم بدر: «والذي نفسي بيده لو أن مولوداً ولد من أهل الدين يعمل بطاعة الله كلها إلى أن يرد إلى أرذل العمر لم يبلغ أحدكم هذه الليلة، وقال: «إن الملائكة الذين شهدوا بدراً في السماء لفضلاء على من تخلف منهم» رجاله ثقات إلا جعفر بن معلاص فإنه غير معروف. وأصبح رسول الله ﷺ ببدر وارتحلت قريش بحديدها تحاد الله عز وجل وتحاد رسوله وجاؤوا على حرد قادرين وعلى حمية وغضب وحنق على رسول الله ﷺ وأصحابه لما يريدون من أخذ غيرهم وقتل من فيها وقد أصابوا بالأمس عمرو بن الحضرمي والعيبر التي كانت معه وذلك ما ذكرنا قصته في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾^(١) فلما رآها رسول الله ﷺ تصوب من العقنقل وهو الكثيب الذي جاؤوا منه إلى الوادي وكان أول من طلع زمعة بن الأسود على فرس له يتبعه ابنه، فاستجال بفرسه يريد أن يتبوأ للقوم منزلاً فقال ﷺ: «هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تجادل وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني اللهم أمتهم بالغداة». ولما رأى ﷺ عتبة بن ربيعة على جمل أحمر قال: «إن يك في أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا» فقال: هو عتبة ينهى عن القتال ويأمر بالرجوع ويقول: يا قوم اعصبوها اليوم برأسي وقولوا جبن عتبة وأبو جهل يأبى وبعث خفاف بن أيما بن رخصة الغفاري أو أبوه وأسلم الثلاثة بعد ذلك إلى قريش بجزائر أهداها لهم مع ابنه، وقال إن أحببتهم أن نمدكم بسلاح ورجال فعلنا فأرسلوا إليه أن وصلتكم رحم قد قضيت الذي عليك فلعمري لئن كنا إنما نقاتل الناس ما بنا من ضعف عنهم ولئن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد ما لأحد بالله من طاقة، فلما نزل الناس أقبل نفر من قريش حتى وردوا حوض رسول الله ﷺ منهم حكيم بن حزام، فقال: رسول الله ﷺ: «دعوهم» فما قرب منهم أحد إلا قتل إلا ما كان من حكيم بن حزام فإنه لم يقتل وأسلم بعد ذلك وحسن إسلامه فكان إذا اجتهد في يمينه قال: لا والذي نجاني يوم بدر فلما اطمأن القوم بعثوا عمير بن وهب الجمحي وأسلم بعد ذلك فقالوا له احزر لنا أصحاب محمد فجال بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم فقال: ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً وينقصون لكن أمهلوني حتى أنظر للقوم كمين مدد فضرب في الوادي حتى أبعث فلم ير شيئاً فرجع إليهم، فقال: ما رأيت شيئاً ولكن رأيت يا معشر قريش البلياء تحمل المنايا نواضح يثرب تحمل الناقع قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم أما ترونهم حرساً يتكلمون يتلمظون تلمظ الأفاعي والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل منكم فإذا

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

أصابوا منكم أعدادهم فما في العيش خير بعد ذلك فرأوا آرائكم، فبعثوا أبا سلمة الحشمي فأطاف بالمسلمين على فرسه ثم رجع فقال: والله ما رأيت جلدأ ولا عدواً ولا حلقة ولا كراعاً ولكن رأيتهم قوماً لا يرونهم يولوا إلى أهلهم قوماً مسلمين مستميتين ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم زرق الأعين كأنهم الحصى تحت الحجف فرأوا آرائكم، فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس فأتى عتبة بن ربيعة فكلمه يرجع بالناس وقال: يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها هل لك من الأمر لا تزال تذكر منه بخير إلى آخر الدهر، قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس وتحتمل أمر حليفك عمرو الحضرمي، قال: قد فعلت أنت علي بذلك إنما هو حليفي فعلي عقله وما أصيب من ماله فأت ابن حنظلة فإني لا أخشى أن يسحر أمر الناس غيره يعني أبا جهل، ثم قام عتبة خطيباً في الناس فقال: يا معشر قريش إنكم والله ما تضعون فإن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً والله لئن أصبحتموه لا يزال الرجل في وجه رجل يكره النظر إليه قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب فإن أصابوه فذلك الذي أردتم وإن كان غير ذلك ألقاكم ولم تعرضوه منه بما تريدون إني أرى أقواماً مستميتين لا تصلون إليهم وفيكم خير يا قوم اعصبوها اليوم برأسي وقلوا جبن عتبة وأنتم تعلمون أني لست بأجبنكم فانطلقت حتى أتيت أبا جهل فوجدته قد نزل درعاً له من جرامها فهو يهيئها، فقلت له يا أبا الحكم إن عتبة قد أرسلني لكذوا وكذا للذي قال، فقال: أنتفخ والله سجره حين رأى محمداً وأصحابه كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد وما بعثه ما قال: ولكنه قد رأى أن محمداً وأصحابه أكلته جزور فيكم ابنه قد تخوفكم عليه، ثم بعث إلى عامر الحضرمي فقال: والله هذا حليفك عتبة يريد أن يرجع بالناس فقم فانشد حفرتك ومقتل أخيك فقام عامر بن الحضرمي فكشف عن أسنه ثم صرخ واعمراه فحميت الحرب وأحقب أمر الناس واستوسقوا على ما هم عليه من الشر وانسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة، ولما بلغ عتبة قول أبي جهل انتفخ والله سجره قال: سيعلم مصفر أسنه من انتفخ سجره أنا أم هو، ثم التمس عتبة بيضة ليدخلها في رأسه فما وجد في الجيش تسعه من عظم هامته فلما رأى اعتجر بيرد على رأسه وسل أبو جهل سيفه فضرب متن فرسه، فقال: له إيما بن رحضة بنس الفأل هذا. وذكر محمد بن عمر الأسلمي والبلادري وصاحب الامتاع أن قريشاً لما نزلت بعث رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب إليهم يقول لهم ارجعوا فإنه إن يلي هذا الأمر مني غيركم أحب إلي من أن تلوه بني فقال: حكيم بن حرام قد عرض نصحاً فاقبلوه فوالله لا تنصرون عليه بعدما عرض من

النصف، فقال: أبو جهل والله لا نرجع بعدما أمكنا الله منهم، روى ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج أن أبا جهل قال: يوم بدر خذوهم أخذاً واربطوهم في الجبال ولا تقتلوا منهم أحداً فنزل: ﴿إِنَّا بَلَوْتَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾^(١) الآية في سورة ن، يعني أنهم في قدرتهم عليهم كما اقتدر أصحاب الجنة على الجنة. ولما أصبح رسول الله ﷺ صف أصحابه فكانما يقوم بهم القداح ومعه يومئذ قدح يشير إلى هذا تقدم وإلى هذا تأخر حتى استووا ودفع رايته إلى مصعب بن عمير فتقدم حيث أمره رسول الله ﷺ أن يضعها ووقف رسول الله ﷺ ينظر إلى الصفوف فاستقبل المغرب وجعل الشمس خلفه وأقبل المشركون فاستقبلوا الشمس، ونزل رسول الله ﷺ بالعدوة الشامية ونزلوا بالعدوة اليمانية، ولما عدل رسول الله ﷺ الصفوف تقدم سواد بن غزية أمام الصف فدفع رسول الله ﷺ في بطنه وقال: «استوي يا سواد» قال: يا رسول الله أوجعتني والذي بعثك بالحق نبياً أقدني فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه قال: «استقد» فاعتنقه وقبله فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: حضر من أمر الله ما قد ترى وخشيت أن أقتل فأردت أن أكون آخر عهدي بك، وحينئذ قال: رسول الله ﷺ: «إذا أكثبوك فارموهم ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم»^(٢) كذا روى أبو داود عن أبي أسيد وخطب رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه وحث الناس على الصبر في القتال وابتغاء وجه الله وتعبات قريش للقتال والشيطان لا يفارقهم فثبت المسلمون على صفهم وشد عليهم عامر بن الحضرمي فكان أول من خرج من المسلمين مهيجع بن عايش مولى عمر بن الخطاب فقتله ابن الحضرمي، وكان أول قتيل من الأنصار حارثة بن سراقة قتله حيان بن عرفة، وخرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد ودعوا إلى المبارزة فخرج ثلاثة من الأنصار عوذ ومعوذ ابنا الحارث وأمهما العفراء وعبد الله بن رواحة فقالوا: أكفاء كرام ما لنا بكم حاجة ثم نادوا يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا، فقال: رسول الله ﷺ: «قم يا عبيدة بن الحارث قم يا حمزة قم يا علي» فاما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله وأما علي فلم يمهل الوليد أن قتله واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما أثبت صاحبه فكر حمزة وعلي بأسيا فمها علي عتبة فنفقا عليه واحتملا صاحبه وفي الصحيحين أن فيهم نزلت: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾^(٣) في

(١) سورة القلم، الآية: ١٧.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في الصفوف (٢٦٦١).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: قتل أبي جهل (٣٩٦٥)، وأخرجه مسلم في كتاب:

التفسير، باب: في قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ (٣٠٣٣).

سورة الحج. قال: ابن إسحاق: ثم رجع رسول الله ﷺ إلى العريش ومعه أبو بكر وليس معه غيره ورسول الله ﷺ يناشد ربه عز وجل ما وعده من النصر يقول فيما يقول: «اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد في الأرض» وأبو بكر يقول يا رسول الله بعض مناشدتك ربك فإن الله منجز لك ما وعدك.

﴿إِذْ تَسْتَعِينُونَ رَبِّكُمْ فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُعِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُفْلَ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ كُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾﴾

روى ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عن أبي أيوب الأنصاري أن عبد الله بن رواحة قال: يا رسول الله ﷺ إني أريد أن أشير عليك ورسول الله ﷺ أعظم من أن يشار إليه إن الله تبارك وتعالى أجل وأعظم من أن ينشده وعده، فقال: «يا ابن رواحة لأنشدن الله وعده إن الله لا يخلف الميعاد» روى ابن سعد وابن جرير عن علي بن أبي طالب وقال: لما كان يوم بدر قاتلت شيئاً من قتال ثم جئت مسرعاً إلى النبي ﷺ لأنظر ما فعل فإذا هو ساجد يقول: يا حي يا قيوم لا يزيد عليها ثم رجعت إلى القتال ثم جئت وهو ساجد يقول ذاك ثم ذهبت إلى القتال ثم جئت وهو يقول ذلك ثم ذهبت إلى القتال ثم رجعت وهو ساجد يقول ذلك ففتح عليه.

وروى البيهقي عن ابن مسعود حديث المناشدة قال: ثم التفت كأن وجهه القمر فقال: كأنما أنظر مصارع القوم العشية، وروى سعيد بن منصور عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: لما نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وتكاثروا وإلى المسلمين واستقلهم ركع ركعتين وقام أبو بكر عن يمينه فقال ﷺ وهو في صلاة: «اللهم لا تخذلي اللهم أنشدك ما وعدتني».

وروى ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وغيرهم عن عمر بن

الخطاب قال: «لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً فاستقبل نبي الله القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه عز وجل يقول: «اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم آتني ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة من الإسلام لا تعبد في الأرض» فما زال يهتف بربه عز وجل ماداً يديه مستقبلاً القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبه فاتاه أبو بكر فأخذ رداءه وألقاه على منكبه ثم التزمه من ورائه فقال: يا نبي الله كذاك تناشد لربك فإن سينجز لك ما وعدك فأنزل الله تعالى^(١) ﴿إِذْ تَسْتَفِيضُونَ رَبَّكُمْ﴾ يدل من إذ يعدكم أو متعلق بقوله ليحق أو على إضمار اذكر يعني يستجيرون به من عدوكم وتطلبون الغوث ﴿فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي﴾ أي باني فحذف الجار وسلط عليه الفعل ﴿مُعِدُّكُمْ﴾ مرسل إليكم مدداً ورداً لكم ﴿بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾.

روى البيهقي عن ابن عباس وحكيم بن حزام وإبراهيم التيمي حديث دعائه ﷺ وقول أبي بكر نحو ما مر، وفيه وخفق رسول الله ﷺ خفقة وهو في العرش ثم انتبه فقال: أبشر يا أبا بكر هذا جبرئيل متعجر بعمامة صفراء أخذ بعنان فرسه بين السماء والأرض فلما نزل إلى الأرض تغيب عني ساعة ثم طلع على ثناياه النقع يقول: أتاك نصر الله إذ دعوته، وروى ابن إسحاق وابن المنذر عن حبان بن واسع عن أشياخ قومه نحوه بلفظ هذا جبرئيل أخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع.

وروى البخاري والبيهقي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: يوم بدر: «هذا جبرئيل أخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب» ﴿مُرْدِفِينَ﴾ قرأ نافع ويعقوب بفتح الدال أي أردفهم تعالى المسلمين وجاء بهم لهم مدداً والباقون بكسر الدال أي متتابعين بعضهم إثر بعض، وروى ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال: في تفسيره: يعني وراء كل ملك ملك، وروى عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال: متتابعين أمدهم الله تعالى بألف ثم بثلاثة آلاف أكملهم خمسة آلاف، وروى الطبراني عن رفاع بن رافع وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال: أمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف وكان جبرئيل في خمسمائة مجنبة وميكائيل في خمسمائة مجنبة الحديث.

وروى ابن أبي حاتم عن الشعبي قال: بلغ رسول الله ﷺ أن كرز المحاربي يريد أن يمد المشركين فشق ذلك عليهم فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُعِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلْفٍ

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم (١٧٦٣)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأنفال (٣٠٨١).

مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزَلِّينَ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٧٥﴾ فبلغ كرز الهزيمة فرجع ولم يأتهم فلم يمدهم الله بالخمسة الآلاف وكانوا قد أمدوا بألف من الملائكة، وروى أبو يعلى والحاكم عن علي رضي الله عنه قال: بينما أنا من قليب بدر جاءت ريح شديدة لم أر مثلها قط إلا التي كانت قبلها ثم جاءت ريح شديدة قال: وكانت ريح الأولى جبرئيل عليه السلام نزل في ألف من الملائكة إلى رسول الله ﷺ وكانت الريح الثانية ميكائيل نزل في ألف من الملائكة عن يمين رسول الله ﷺ وكان أبو بكر عن يمينه فكانت الثالثة إسرافيل نزل في ألف من الملائكة عن يسرة رسول الله ﷺ وأنا في الميسرة الحديث وروى أحمد والبخاري والحاكم برجال صحيح عن علي قال: قال: لي ولأبي بكر يوم بدر قيل لأحدنا: معك جبرئيل، وقيل للآخر: معك ميكائيل وإسرافيل ملك عظيم يشهد القتال ولا يقاتل يكون في الصف وروى أبو يعلى عن جابر قال: كنا نصلي مع رسول الله ﷺ في غزوة بدر إذ تبسم في صلاته قلنا يا رسول الله: رأيناك تبسمت؟ قال: «مر بي جبرئيل وعلى جناحه أثر الغبار وهو راجع عن طلب القوم فضحك إلي وتبسمت إليه» وروى ابن سعد وأبو الشيخ عن عطية بن قيس قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من قتال بدر جاء جبرئيل على فرس أنى أحمر عليه درعه ومعه رمحه فقال: يا محمد إن الله بعثني إليك وأمرني أن لا أفارقك حتى ترضى هل رضيت قال: «نعم رضيت» فانصرف.

فائدة: وقد ظهر بعض الملائكة لبعض الرجال في صورة الرجال، روى إبراهيم الحرثي عن أبي سفيان بن الحارث قال: لقينا ببدر رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض، وروى البيهقي وابن عساكر عن سهل بن عمرو رضي الله عنه قال: لقد رأيت يوم بدر رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض معلمين يقتلون ويأسرون، وروى محمد بن عمر والأسلمي وابن عساكر عن عبد الرحمن بن عوف قال: رأيت يوم بدر رجلين عن يمين النبي ﷺ أحدهما وعن يساره أحدهما يقاتلان أشد القتال ثم ثالثهما ثالث من خلفه ثم رابعهم رابع أمامه وروى محمد بن عمرو الأسلمي عن إبراهيم الغفاري عن ابن عم له بينا أنا وابن عم لي على ماء ببدر فلما رأينا قلة من مع محمد وكثرة قريش قلنا إذا التقت الفئتان عمدنا إلى عسكر محمد وأصحابه، فانطلقنا نحو المجنبة اليسرى من أصحابه ونحن نقول هؤلاء ربيع قريش فينا نحن نمشي في الميسرة إذا جاءت سحابة فغشتنا فرفعنا أبصارنا إليها فسمعنا أصوات الرجال والسلاح وسمعنا لرجل يقول لفرسه: أقدم خيزوم فنزلوا على ميمنة رسول الله ﷺ ثم جاءت أخرى مثل ذلك فكانت مع النبي ﷺ وأصحابه

فإذا هم على الضعف من قريش فمات ابن عمي وأما أنا فما سكت وأخبرت النبي ﷺ وأسلمت، وكذا روى إسحاق وابن جرير عن ابن عباس عن رجل من غفار وروى البيهقي عن السائب بن أبي حبيش أنه يقول والله ما أسرني أحد من الناس فيقول: لما انهزمت قريش انهزمت معها فأدركني رجل أبيض طويل على فرس بين السماء والأرض فأورثني رباطاً وجاء عبد الرحمن بن عوف فوجدني مربوطاً فنادى في العسكر من ربط هذا فليس يزعم أحد أنه أسرني حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ، فقال: من أسرك؟ قلت: لا أعرفه وكرهت أن أخبره بالذي رأيت فقال: أسرك ملك من الملائكة.

وروى أحمد وابن سعد وابن جرير عن ابن عباس والبيهقي عن علي قال: كان الذي أسر العباس أبو اليسر وكان رجلاً مجموعاً كان العباس رجلاً جسيماً فقال: رسول الله ﷺ: «يا أبا اليسر كيف أسرت العباس؟ قال: يا رسول الله ﷺ لقد أعانني عليه رجل ما رأيت قبل ذلك ولا بعده هيئته كذا وكذا، فقال: رسول الله ﷺ: «لقد أعانك عليه ملك كريم».

وروى ابن إسحاق وإسحاق بن راهويه عن أبي أسيد الساعدي أنه قال بعد ما عمي: لو كنت معكم ببدر الآن ومعني بصري لأخبرتكم بالشعب الذي خرجت منه الملائكة لا أشك ولا أتمارى.

وروى البيهقي عن ابن عباس قال: كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض قال: أرسلوا في ظهورهم ويوم خيبر عمائم حمراء، وروى ابن إسحاق عن ابن عباس نحوه وزاد إلا جبرئيل فإنه كانت عليه عمامة صفراء. وروى الطبراني بسند صحيح عن عروة قال: «نزل جبرئيل يوم بدر على سيما الزبير وهو معتمر بعمامة صفراء» وكذا روى ابن أبي شبة وابن جرير وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير، وروى الطبراني وابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس مرفوعاً قوله تعالى: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ قال: معلمين وكانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم سود ويوم أحد عمائم حمراء، قال: ابن سعد كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم قدار خوايين أكتافهم خضر وصفرة وحمرة من نور والصفوف في نواصي خيلهم فقال: رسول الله ﷺ لأصحابه: «إن الملائكة قد سومت فسوموا» فأعلموا بالصفوف في مفارقهم وقلانسهم وكانت الملائكة على خيل بلق ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ الإمداد بالملائكة الذي دل عليه قوله ممدكم ﴿إِلَّا بُشْرَى﴾ أي الاستبشار ﴿وَلِنُعَلِّمَنَّ بِهِ قُلُوبَكُمْ﴾ فيزول ما بها من وجل نظراً على جري عادة الله في غلبة الكثير على القليل، قلت: نظير حال النبي ﷺ ههنا في اضطراب قلبه ومناشدته ﷺ ربه بعد ما وعده بالنصر حال إبراهيم عليه السلام

حيث قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُنْزِلُ الْمَوْتِ قَالُ أَوْلَمَ تُوْمِنُ قَالُ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾^(١) وكان حالهما عليهما السلام مبنياً على النزول الأتم كما حققناه في سورة البقرة في تفسير ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُنْزِلُ الْمَوْتِ﴾ ولما لم يكن ابن رواحة رضي الله عنه في تلك المرتبة من النزول قال: إن الله تبارك وتعالى أجل وأعظم أن ينشد وعده ولما كان أبو بكر أقرب منزلة من النبي ﷺ لم يقل كما قال: ابن رواحة بل قال: كذاك تناشدك لربك وكان اضطراب النبي ﷺ لحرصه على إشاعة الإسلام وهدم أساس الكفر ونظره على كمال استغناؤه تعالى عن العالمين وعن عبادتهم والله أعلم. ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وإمداد الملائكة وكثرة العدد والأهب ونحوها وسائط في جري العادة لا تأثير لها في نفس الأمر والله أعلم.

فائدة: ولما فرغ رسول الله ﷺ من مناشدته ربه قاتل بنفسه الشريفة قتالاً شديداً، وكذلك أبو بكر وكانا في العريش يجاهدان بالدعاء والتضرع ثم نزلا فحرضاً وحثاً الناس على القتال وقاتلا بأبدانهما جمعاً بين المقامات، كذا قال: محمد بن يوسف الصالحي في سبيل الرشاد، وروى ابن سعد والفريابي عن علي قال: لما كان يوم بدر وحضر البأس أمنا رسول الله ﷺ واتقينا به وكان أشد الناس بأساً يومئذ وما كان أحداً أقرب إلى المشركين منه» ورواه أحمد بلفظ لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ، والنسائي بلفظ: كنا إذا حمي البأس ولقي القوم اتقينا برسول الله ﷺ^(٢) ﴿إِذْ يُغَشِّكُمُ النَّعَاسَ﴾ أي النوم الخفيف، قرأ ابن كثير وأبو عمرو إذ يغشاكم بفتح الياء والشين وألف بعدها ورفع النعاس كما في سورة آل عمران ﴿أَمْنَةً نُّعَاسًا يَغَشِّي طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾^(٣) ونافع بضم الياء وكسر الشين مخففاً ونصب النعاس كما في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ﴾^(٤) والباقون كذلك إلا أنهم فتحوا الغين وشددوا الشين كما في قوله تعالى: ﴿فَفَشَّنَهَا مَا غَشِّي﴾^(٥) الفاعل على القراءتين هو الله والظرف بدل ثانٍ من إذ يعدكم لإظهار نعمة ثالثة أو متعلق بالنصر أو بما في عند الله من معنى الفعل أو بجعل أو بإضمار اذكر ﴿أَمْنَةً مِنْهُ﴾ أي أمناً كائناً من الله مصدر أمنت أمناً أو أمانة وأماناً مفعول له باعتبار المعنى فإن قوله يغشيكم النعاس يتضمن معنى تنعسون ويغشاكم بمعناه، والأمانة فعل لفاعله ويجوز أن يراد به الإيمان فيكون فعل

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

(٢) أخرجه أحمد في المسند، المجلد الأول/ مسند علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.

(٤) سورة يونس، الآية: ٢٧.

(٥) سورة النجم، الآية: ٥٤.

المغشى وأن يجعل على قراءة ابن كثير وأبو عمر فعل النعاس على المجاز لأنها لأصحابه أو لأنه كان من حقه أن لا يغشاهم لشدة الخوف، فلما غشاهم فكأنه حصلت له أمانة من الله لولاها لم يغشاهم، قال: عبد الله بن مسعود النعاس في القتال أمانة من الله عز وجل في الصلاة من الشيطان، روى عبد بن حميد عن قتادة قال: كان النعاس أمانة من الله وكان النعاس نعاسين نعاس يوم بدر ونعاس يوم أحد وقد مر ذكر النعاس في القصة وذكر المطر الذي ذكره الله تعالى في كتابه فقال: ﴿وَيُنزِلُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتخفيف والباقون بالتشديد ﴿عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّطَهْرِكُمْ بِهِ﴾ من الحدث والجنابة ﴿وَيَذْهَبَ عَنْكُمُ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ يعني وسوسته إليهم تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم مصلون مجنبون، ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ يقويها بالوثوق على لطف الله بهم وإنزال السكينة عليها يقال فلان رابط الجأش إذا قوى قلبه وأصل الربط الشد وذلك يقتضي القوة والاستحكام ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ﴾ أي بالمطر ﴿الْأَقْدَامَ﴾ حيث صلب الرمل ولم يذهب الأقدام فيها أو بالصبر وقوة القلب ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ الذين أمد بهم المؤمنين بدل ثالث أو متعلق بيثبت ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ في إعانة المؤمنين وثبتهم وهو مفعول يوحى ﴿فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بمحاربة أعدائهم وتكثير سوادهم وبشارتهم بالنصر قال: مقاتل كان الملك يمشي أمام الصف في صورة الرجل ويقول أبشروا فإن الله ناصركم ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ هو امتلاء القلب من الخوف يعني الخوف من المؤمنين قرأ ابن عامر والكسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قلت لأبي: يا أبت كيف أسرك أبو اليسر ولو شئت لجعلته في كفك؟ فقال: يا بني لا تقل ذلك لقيني وهو في عيني أعظم من الخندق، قلت: وهذا لإلقاء الله الرعب في قلوبهم ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ أي أعاليها التي هي المذابح والرؤوس وقال عكرمة يعني الرؤوس لأنها فوق الأعناق، وقال الضحاک معناه فاضربوا الأعناق وفوق صلة، وقيل: معناه فاضربوا على الأعناق وفوق بمعنى على ﴿وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قال: عطية يعني كل مفصل، وقال ابن عباس وابن جريج والضحاک يعني الأطراف، والبنان جمع بنانة وهي أطراف أصابع اليدين والرجلين في القاموس الأصابع أو أطرافها، والخطاب للملائكة يقتضيه سياق الآية وفيه دليل على أن الملائكة قاتلوا، قال: ابن الأنباري كانت الملائكة لا تعلم كيف يقتل الآدميون فعلمهم الله تعالى.

روى البخاري والنسائي وابن ماجه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: وهو في قبة يوم بدر: «اللهم إني أنشد عهدك ووعدك اللهم إن تشأ لا تعبد بعد اليوم» فأخذ أبو بكر

بيده فقال: حسبك يا رسول الله لقد ألححت على ربك، فخرج وهو يثبت في الدرع وهو يقول: سيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر، وأنزل الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَفِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴿٤﴾﴾ أي متتابعين يتبع بعضهم بعضاً وأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْلِينَ﴾ فأوحى الله تعالى إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان^(١) وروى مسلم وابن مردويه عن ابن عباس قال: «بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوق وسمع صوت الفارس يقول: أقدم حيزوم إذ نظر إلى المشرك أمامه مستلقياً فنظر إليه فإذا هو قد حطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط فأحضر ذلك الموضع أجمع، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال: صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة»^(٢).

وروى الحاكم وصححه البيهقي وأبو نعيم عن سهل بن حنيف قال: لقد رأيتنا يوم بدر أن أحدنا يشير بسيفه إلى رأس المشرك فيقع رأسه قبل أن يصل إليه، وروى البيهقي عن الربيع بن أنس قال: كان الناس يعرفون قتل من قتلوه بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد احترق، وروى ابن سعد عن حويطب بن عبد العزى قال: شهدت بدرًا مع المشركين فرأيت عيراً رأيت الملائكة تقتل وتأسر بين السماء والأرض، وروى محمد بن عمر الأسلمي والبيهقي عن أبي بردة بن ينار رضي الله عنه قال: جثت رسول الله ﷺ بثلاثة رؤوس فقلت يا رسول الله أما رأسان فقتلتهما وأما الثالث فإني رأيت رجلاً أبيض طويلاً ضربه فأخذت رأسه فقال: رسول الله ﷺ ذاك فلان من الملائكة، روى ابن سعد عن عكرمة قال: كان يومئذ ينذر رأس الرجل لا يدري من ضربه وتندر يد رجل لا يدري من ضربه به، وروى ابن إسحاق والبيهقي عن أبي واقد الليثي قال: إني لأتبع يوم بدر رجلاً من المشركين لأضربه فوق رأسه قبل أن يصل إليه سيفي فعرفت أن غيري قتله، وروى البيهقي عن خارجة بن إبراهيم قال: قال: رسول الله ﷺ لجبرئيل من القائل يوم بدر من الملائكة أقدم حيزوم فقال: جبرئيل: ما كل أهل السماء أعرف.

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: ما قيل في درع النبي ﷺ والقميص في الحرب (٢٩١٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم (١٧٦٣).

وروى ابن إسحاق عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال: كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت وأسلمت أم الفضل وأسلمت، وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم وكان يكتنم إسلامه وكان ذا مال كثير متفرق في قومه وكان أبو لهب عدو الله قد تخلف عن بدر وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة فلما جاءه الخبر عن مصاب أصحابه بدر كته الله وأخزاه فوجدنا في أنفسنا قوة وعزة وكنت رجلاً ضعيفاً وكنت أعمل القداح وأنحتها في حجرة زمزم فوالله إني لجالس أنحت القداح وعندني أم الفضل جالسة، إذ أقبل الفاسق أبو لهب يجر رجله حتى جلس على طنب الحجرة وكان ظهره إلى ظهري، فبينما هو جالس إذ قال: الناس؟ هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم، فقال: أبو لهب إل ابن أخي فعندك الخبر فجلس إليه والناس قيام عليه فقال: أخبرني ابن أخي كيف كان أمر الناس فقال: لا شيء والله إن كان إلا أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا ويأسروننا كيف شاؤوا وإيم الله مع ذلك قاتلت الناس لقينا رجلاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض لا والله ما تليق شيئاً ولا يقوم لها شيء، قال: أبو رافع فرفعت طنب الحجرة بيدي ثم قلت تلك والله الملائكة، قال: فرجع أبو لهب يده ففرض وجهي ضربة شديدة فثاورته فاحتملني ففرض بي الأرض ثم برك عليّ بضربني وكنت رجلاً ضعيفاً، فقامت أم الفضل إلى عمود من الحجرة فأخذته ففرضته ضربة فلققت في رأسه شجة منكرة وقالت: استضعفته إن غاب عنه سيده فقام مولياً ذليلاً في الله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله عز وجل بالعدسة فقتله، قال: ابن جرير والعدسة قرحة كانت العرب يتشاءم بها ويرون أنها تعدو أشد العدو، فلما أصابت أبا لهب تباعد عنه بنوه بعد موته ثلاث ولا تقرب جثته ولا يحاول دفنه، فلما خافوا السبة في تركه حفروا له ثم وضعوه بعضاً في حفرة وقذفوه بالحجارة من بعيد حتى واروه، قال: ابن إسحاق في رواية يونس بن بكير إنهم لم يحفروا له ولكنه أسندوه إلى حائط وقذفوه عليه الحجارة من خلف الحائط حتى واروه. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الضرب والأمر به والخطاب للرسول ﷺ وهو مبتدأ خبره ﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعني بسبب أنهم عاندوهما اشتقاق من الشق لأن كلاً من المتعاندین فيشق خلاف الآخر كالمعاد من العدو والمخاصمة من الخصم وهو الجانب ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعاقبه الله عقاباً شديداً ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ تقرير للتعليل أو وعيد بما أعد لهم في الآخرة بعدما حاق بهم في الدنيا ﴿ذَلِكَ﴾ الخطاب مع الكفار على طريقة الالتفات ومحل الرفع الأمر ذلكم أو ذلكم العقاب واقع والنصب بفعل دل عليه قوله تعالى ﴿فَذُوقُوا﴾ يعني ذوقوا ذلكم العذاب في الدنيا فذوقوه أو غير ذلك الفعل مثل باشروا أو عليكم ويكون الفاء

حينئذ عاطفة ﴿وَأَنْتَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ في الآخرة عطف على ذلكم أو الواو بمعنى مع والمعنى ذوقوا ما عجل لكم مع ما أجل لكم، ووضع الظاهر موضع المضمرة للدلالة على أن الكفر سبب موجب للعذاب الآجل والجمع بينهما والمؤمن لو أصابه مصيبة في الدنيا بما كسبت يده كانت له كفارة ولا يعذب في الآخرة أن شاء الله تعالى.

روى البغوي بسنده في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾^(١) الآية عن علي رضي الله عنه قال: ألا أخبركم بأفضل آية من كتاب الله حدثنا بها رسول الله ﷺ ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾^(٢) وسأفسرها لك يا علي، ما أصابكم من مرض أو عقوبته أو بلاء في الدنيا فيما كسبت أيديكم والله عز وجل أكرم من أن يثني عليهم العقوبة في الآخرة وما عفى الله عنه في الدنيا فالله أحكم من أن يعود بعد عفوهِ والله أعلم.

وروى الترمذي وحسنه الحاكم عن عكرمة عن ابن عباس قال: قيل: لرسول الله ﷺ عليك بالعبير ليس دونها شيء فناداه العباس وهو أسير في وثاقه لا يصلح فقال: رسول الله ﷺ لم؟ قال: لأن الله وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدك قال: صدقت^(٢).

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿١٦﴾ وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِنَالٍ أَوْ مَتَحَرِّفًا إِلَىٰ فَتْرٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٧﴾ الْمَصِيرُ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَلِيلُهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِئِذَا لَقِيتُمُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكَمُ وَأَنْتَ اللَّهُ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا﴾ حال من فاعل لقيتم ومفعوله أي متزاحفين بعضكم إلى بعض مختلطين المسلمون بالمشركين والتزاحف التداني في القتال كذا قال: البغوي، قلت: وإنما سمي التداني في القتال تزاحفاً لأنه مأخوذ من زحف

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأنفال (٣٠٨٠).

الصبي إذا دب على أسته قليلاً أو من زحف البعير إذا أعيبى فيسير قليلاً يجر فرسه فإن مزاحمة العدو يمنعهم عن الإسراع في المشي فكأنهم يزحفون كما يزحف الصبي، فالزحف مصدر ولذلك لم يجمع كقولهم قوم عدل، وقال الليث الزحف جماعة يزحفون، إلى عدولهم فهم الزحف بالفتح الإسكان والجمع الزحف بالضميتين، وفي القاموس الزحف الجيش يزحفون إلى العدو واختار البيضاوي هذا المعنى حيث فسر زحفاً بمعنى كثيراً فعلى هذا إما أن يكون حالاً من الذين كفروا يعني إذا لقيتم جماعة كثيرة من الكفار فضلاً من أن يكونوا مثلكم وقليلاً منكم ﴿فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ أي لا تولوا ظهوركم بالانهزام، وإما من الفاعل والمفعول جميعاً، والمعنى إذا لقيتم متكثرين بجماعة كثيرة من الكفار وحينئذ يكون جريان الحال جرياً على العادة فإن الغالب قتال المتكثرين بالمتكثرين وإما من الفاعل وحده ويكون إشعاراً بما سيكون منهم يوم حنين حين تولوا وهم اثنا عشر ألفاً وألا ظهر عندي في تفسير الآية ما قال: البغوي، فإنه يقتضي عموم النهي سواء كان من الفريقين جماعات أو فرادى فإن مقابلة الجمع بالجمع يقتضي انقسام الأحاد على الأحاد.

مسألة

الفرار من الزحف كبيرة من الكبائر وعلى هذا أكثر أهل العلم وبه قال: الأئمة الأربعة من الفقهاء لكنهم قالوا: إن المسلمين إذا كانوا على شطر من عدوهم لا يجوز لهم أن يفروا وإن كانوا أقل من ذلك، جاز لهم أن يولوا ظهورهم ويتجاوزوا عنهم لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾^(١) الآية، قال: عطاء بن رباح: هذه الآية يعني لا تولواهم الأدبار منسوخة بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ وبحديث ابن عمر قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فحاص الناس حيصه فأتينا المدينة فاختمنا بها وقتلنا هلكنا ثم أتينا رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله نحن الفرارون قال: «بل أنتم العكارون وأنا فتكم»^(٢) رواه الترمذي وحسنه في رواية أبي داود نحوه.

وقال محمد بن سيرين لما قتل أبو عبيدة جاء الخبر إلى عمر رضي الله عنهما فقال:

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٦.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الجهاد، باب: ما جاء في الفرار من الزحف (١٧١٦)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب في التولي يوم الزحف (٢٦٤٥).

لو إنحاز إلي كنت له فئة وأنا فئة كل مسلم، ومجمل هذين الحديثين قلة المسلمين من شطر الكفار. قال: البغوي قال: ابن عباس من فر من ثلاثة فلم يفر ومن فر من اثنين فقد فر، وقال بعض الناس لا بأس بالفرار مطلقاً محتجاً بما ذكرنا من حديث ابن عمرو ومحمد بن سيرين، قال: أبو سعيد الخدري هذا يعني النهي عن التولي زحفاً في أهل بدر خاصة ما كان يجوز لهم الانهزام لأن النبي ﷺ كان هناك ولو انحازوا انحازوا إلى المشركين فأما بعد ذلك فإن المسلمين بعضهم فئة بعض فيكون الفار متحيز إلى فئة فلا يكون فرارة كبيرة وهو قول الحسن وقتادة والضحاك، وقال يزيد بن أبي حبيب أوجب الله تعالى النار لمن فر يوم بدر فلما كان يوم أحد بعد ذلك قال: ﴿إِنَّمَا أَسْتَرْزَلَهُمُ الشَّيْطَانُ يَبْعُضُ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾^(١) ثم كان يوم حنين بعد فقال: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾^(٢) ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ يَنْ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾^(٣) قلت: وهذا القول رده إجماع الأئمة على ما ذكرنا وما ذكر من الآيات في يوم أحد ويوم حنين فهي حجة لنا لا علينا حيث قال: الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَسْتَرْزَلَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ وقال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ والعفو يقتضي العصيان وكذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ﴾ بدل على وجود المعصية والله أعلم، وقد ذكر رسول الله ﷺ التولي يوم الزحف من السبع الموبقات^(٤) رواه الشيخان في الصحيحين في حديث أبي هريرة وأصحاب السنن عن صفوان بن عسال، وقد ذكرنا الكبائر في سورة النساء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾^(٥) فالوعيد عام بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْلِمْتُمْ﴾ يعني الذين كفروا ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذا لقيتموهم زحفاً ﴿دُبْرَهُمْ﴾ أي ظهره في أي حال كان ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ﴾ أي متعطفاً يريد أن يرى من نفسه الانهزام وقصده الغرة بالعدو وهو يريد الكر ﴿أَوْ مُتَحَرِّفًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ﴾ أي منضماً صابراً إلى جماعة المسلمين إذا أعبى من القتال يريد العود بعد زوال التعب ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ جهنم وفي القصة ما ذكره البغوي أنه قال: مجاهد فلما انصرف المسلمون عن القتال كان الرجل يقول أنا قتلت فلاناً ويقول الآخر مثله فنزلت ﴿الْمَصِيرُ﴾ ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ بقوتكم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ بنصره إياكم وتسليطكم عليهم

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٥.

(٢) سورة التوبة، الآيات: ٢٥ - ٢٧.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: المحاربين من أهل الكفرة والردة، باب: رمي المحصنات (٦٨٥٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان الكبائر وأكبرها (٨٩).

(٤) سورة النساء، الآية: ٣١.

وإلقاء الرعب في قلوبهم وإمداد الملائكة لكم، وإلقاء جواب شرط محذوف تقديره إن افتخر بقتلهم فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وهذا سبب أقيم مقام المسبب، والأصل في التقدير أن افتخرتم فقد أخطأتم إذ لم تقتلوهم بقوتكم ولكن الله قتلهم من غير تجشم منكم بإمداده على خلاف جري العادة ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ يا محمد بالحصباء رمياً يوصلها إلى أعينهم أجمعين ولم تكن تقدر على ذلك ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ أتيت بصورة الرمي ﴿وَلَكِنَّكَ اللَّهُ رَمَى﴾ أتى هو غاية الرمي فأوصلها إلى أعينهم جميعاً حتى انهزموا. قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بتخفيف لكن في الموضعين ورفع ما بعده، والباقون بالتشديد ونصب ما بعده، روى ابن جرير وابن المنذر والبيهقي عن ابن عباس والأموي عن عبد الله بن ثعلبة بن صفيان أن رسول الله ﷺ قال: يعني في مناشدته ربه: «إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً» فقال: له جبرئيل خذ قبضة من تراب فرمى بها في وجوههم فما بقي من المشركين من أحد إلا وأصاب عينيه ومنخره وفمه فولوا مدبرين فقال: رسول الله ﷺ لأصحابه: احملا فلم يكن إلا الهزيمة فقتل الله من قتل من صناديد قريش وأسر من أسروا أنزل الله تعالى: ﴿الْمَصِيرُ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ الآية.

وروى الطبراني وأبو الشيخ برجال الصحيح عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: لعلي رضي الله عنه ناولني قبضة من حصباء فرمى بها رسول الله ﷺ في وجوه الكفار فما بقي أحد من القوم إلا امتلأت عيناه من الحصباء، وروى أبو الشيخ وأبو نعيم وابن مردويه عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت صوت حصيات وقعن من السماء يوم بدر كأنهن وقعن في طست فلما اصطف الناس أخذهن رسول الله ﷺ فرمى بهن وجوه المشركين فانهزموا، وروى ابن أبي حاتم عن ابن زيد أن رسول الله ﷺ أخذ بثلاث حصيات فرمى بحصاة في ميمنة القوم وحصاة في ميسرة القوم وحصاة بين أظهرهم، وقال شامت الوجوه فانهزم القوم وروى محمد بن عمرو الأسلمي أمر رسول الله ﷺ فأخذ من الحصباء كفاً فرمى به المشركين وقال: شامت الوجوه اللهم أرعب قلوبهم وزلزل أقدامهم فانهزم أعداء الله لا يلوذون على شيء والقواد روعهم والمسلمون يقتلون ويأسرون وما بقي منهم أحد إلا امتلأ وجهه وعينه ما يدري أين يوجه والملائكة يقتلونهم. وروى الطبراني وابن أبي حاتم وابن جرير بسند حسن عن حكيم بن حزام قال: لما كان يوم بدر سمعنا صوتاً وقع من السماء إلى الأرض وكأنه صوت حصاة وقعت في طست ورمى رسول الله ﷺ بتلك الحصاة وقال شامت الوجوه فانهزمنا. وفي شأن نزول الآيات روايات أخر غريبة منها ما روى الحاكم عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: أقبل أبي بن

خلف يوم أحد إلى النبي ﷺ فخلوا سبيله فاستقبله مصعب بن عمير ورأى رسول الله ﷺ ترقوة أبي من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة قطعته بحربته فسقط من فرسه ولم يخرج من طعنه دم فكسر ضلعاً من أضلاعه فأتاه أصحابه وهو يخور خوار الثور فقالوا ما أعجزك إنما هو خدش فذكر لهم قول رسول الله ﷺ بل أنا أقتل أياً قال: «والذي نفسي بيده لو كان هذا بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعين» فمات أبي قبل أن يقدم مكة فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ إسناده صحيح لكنه غريب، ومنها ما أخرج ابن جرير عن عبد الرحمن بن جبيرة أن رسول الله ﷺ يوم خيبر دعى بقوس فرمى الحصن فأقبل السهم بهوي حتى قتل ابن أبي الحقيق وهو في فراشه فأنزل الله ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ وهذا مرسل جيد لكنه غريب والله أعلم ﴿وَلِيُسَبِّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لينعم الله عليهم ﴿مِنَهُ﴾ أي ما فعل ﴿بَلَاءٌ حَسَنًا﴾ نعمة عظيمة قوله تعالى ليبلي معطوف على محذوف يعني فعل ما فعل ليظهر دينه ويقهر أعدائه ويبلي المؤمنين أي يعطيهم نعمة عظيمة النصر والغنيمة وتقوية الإيمان بمشاهدة الآيات وأجر الجهاد والشهادة ودرجات القرب وعرفات الجنان ومرضاة الله تعالى، قلت: كان جواب سؤال مقدر وهو أن الله تعالى كان قادراً على أن يهلك الكفار أجمعين من غير مجاهدة المؤمنين وقتالهم حتى قتل بعضهم، ومن غير إمداد الملائكة وأيضاً كان ملك الملائكة كاف في إهلاكهم كما فعل بأشباعهم من قبل حيث قال: ﴿﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾﴾ (٢٨) إن كانت إلا صيحةً وجدةً فإذا هم خبيدون ﴿﴿﴾﴾ (٢٩) فأي فائدة في إمدادهم بثلاثة آلاف من الملائكة وقاتل الملائكة وغير ذلك فيقول الله سبحانه فعلنا هذا كله لإظهار دينه وإعطاء المؤمنين من الأنس والملائكة نعمة من الله من الأجر والثواب والنصر والغنيمة، ولو أهلك كلهم بقدرته أو بصيحة ملك واحد ولم يبق من المشركين أحد لم ينل أحد منهم فضل الإيمان بالله تعالى وقد آمن كثير ممن بقي منهم بعد ذلك ما نال المؤمنون أجر الجهاد والشهادة والغنيمة والفضل ما نال الملائكة ذلك الفضل.

فصل

فيما ورد في فضائل أهل بدر

روى البخاري عن رفاعه بن رافع الزرقي قال: جاء جبرئيل إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: أفضل المسلمين أو كلمة نحوها قال: جبرئيل: وكذلك من

(١) سورة يس، الآيات: ٢٨ - ٢٩.

شهد بدرأ من الملائكة»^(١) وروى أحمد وابن ماجه عن رافع بن خديج نحوه، وروى أحمد بسند صحيح على شرط مسلم عن جابر قال: قال: رسول الله ﷺ: «لن يدخل النار رجل شهد بدرأ والحديبية» وروى أبو داود وابن ماجه والطبراني بسند جيد عن أبي هريرة قال: قال: رسول الله ﷺ: «اطلع الله على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»^(٢) وروى أحمد عن حفصة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني لأرجو أن لا يدخل النار إن شاء الله أحد شهد بدرأ والحديبية قالت: أليس الله يقول: ﴿وَإِنْ مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال: أما سمعته يقول: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾^(٣) وروى مسلم الترمذي عن جابر أن عبد الله بن حاطب جاء إلى رسول الله ﷺ يشكو حاطبأ إليه فقال: يا رسول الله ﷺ ليدخلن حاطب النار قال: «كذبت لا يدخلها فإنه شهد بدرأ والحديبية»^(٤) وفي الصحيحين عن علي قصة كتاب حاطب بن بلتعة وقول عمر: «يا رسول الله اضرب عنقه فقال: رسول الله ﷺ: «أليس من أهل بدر ولعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم وقال: فقد وجبت لكم الجنة»^(٥) وقد ذكرنا الحديث في سورة الفتح وسورة الممتحنة.

وروى البخاري عن أنس قال: أصيب حارثة بن زيد يوم بدر فجاءت أمه إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ﷺ عرفت منزلة حارثة مني فإن يك في الجنة أصبر وأحتسب وإن يك الأخرى فترى ما أصنع؟ قال: «ويحك أو جنة واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة وإنه في الفردوس»^(٦) وفي رواية عند غير البخاري عن أنس أن حارثة كان في النظارة وفيه: «إن ابنك أصاب الفردوس الأعلى» ففيه تنبيه عظيم على فضل أهل بدر فإنه

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: شهود الملائكة بدرأ (٣٩٩٢).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في الخلفاء (٤٦٤١).

(٣) أخرجه أحمد في المسند المجلد السادس / حديث حفصة أم المؤمنين بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أهل بدر (٢١٩٥)، وأخرجه الترمذي

في كتاب: المناقب، باب: في من سب أصحاب النبي ﷺ (٤٠٢٨).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: فضل من شهد بدرأ (٣٩٨٣)، وأخرجه مسلم في

كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم وقصة حاطب بن أبي بلتعة (٢٤٩٤).

(٦) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: من أتاه سهم غرب فقتله (٢٨٠٩)، وأخرجه

الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة المؤمنون (٣١٧٤).

لم يكن في بحبحة القتال ولا في حومة الغوائل بل كان من النظارة من بعيد وإنما أصابه سهم وهو يشرب من الحوض ومع هذا أصاب جنة الفردوس التي هي أعلى الجنة وأوسطها ومنها تفجر أنهار الجنة فإذا كان هذا حاله فما ظنك بمن كان في نحر العدو ووهم على ثلاثة أضعافهم عدداً وعدداً، واستشكل قوله ﷺ: «اعملوا ما شئتم» فإن ظاهره الإباحة وهو خلاف عقد الشرع فقيل: إنه إخبار عن مغفرة الذنوب الماضية يدل عليه قوله: «قد غفرت لكم» بصيغة الماضي ورد هذا القول بأنه لو كان للماضي لما صح الاستدلال في قصة حاطب بن بلتعة لأنه ﷺ خاطب عمر منكرأ عليه ما قال: في أمر حاطب فإن هذه القصة كانت بعد بدر بست سنوات فدل على أن المراد مغفرة الذنوب المستقبلية وإنما أورد بلفظ الماضي مبالغة في تحقيقه والصحيح أن قوله ﷺ: «اعملوا» للتشريف، والتكريم والمراد عدم المؤاخذه بما يصدر عنهم وأنهم خصوا بذلك لما حصل لهم من الحال العظيم التي اقتضت محو ذنوبهم السابقة وتأهلوا لأن يغفر لهم للذنوب اللاحقة إن وقعت.

فائدة: اتفقوا على أن البشارة المذكورة فيما يتعلق بأحكام الآخرة لا بأحكام الدنيا من إقامة الحدود وغيرها والله أعلم. ﴿أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لاستغاثتهم ودعائهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم وأحوالهم ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى البلاء الحسن أو القتل والرمي ومحل الرفع أي المقصود أو الأمر ذلكم أو ذلكم إلا بلاء حق ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ معطوف على ذلكم يعني المقصود إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين وإبطال حيلهم. قرأ نافع وابن كثير وأبو عمر بفتح الواو وتشديد الهاء والباقون بإسكان الواو وتخفيف الهاء، وقرأ حفص موهن بغير تنوين مضافاً إلى كيد بالجر والباقون بالتنوين ونصب كيد روى ابن إسحاق وأحمد عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير بالمهملتين العذري وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال: لما التقى الناس ودنا بعضهم من بعضهم، قال: أبو جهل اللهم أينما كان أقطع للرحم وأتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة اللهم من كان أحب إليك وأرضى عندك فانصره فكان هو المستفتح على نفسه فأنزل الله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا﴾ أي تستنصروا لأحب الناس وأرضاهم عند الله ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ الذي طلبتم فقتل أبو جهل يوم بدر. وروى أحمد والشيخان وغيرهم عن عبد الرحمن بن عوف قال: إني لواقف في الصف يوم بدر فنظرت عن يميني وعن شمالي فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثه أسنانهما فتمنيت أن أكون بين أضلع منهما فغمزني أحدهما سراً من صاحبه فقال: أي عم هل تعرف أبا جهل؟ قلت: نعم فما حاجتك إليه يا ابن أخي؟ قال: أخبرت أنه يسب النبي ﷺ والذي نفسي

بيده لئن رأيت لا يفارق سوادى سواده حتى يموت الأعجل منهما قال: وغمزني الآخر من صاحبه فقال: مثلها فعجبت لذلك فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس وهو يرتجز.

شعر:

ما تنقم الحرب العوان منى بأزل عامين حديث سني
لمثل هذا ولدني أمي. فقلت: ألا تريان هذا صاحبكما الذي تسألان عنه فابتدراه
بسيهما فضرباه حتى برد ونصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه فقال: كلاكما قتله وقضى
رسول الله ﷺ سلبه لمعاذ بن الجموح والرجلان هو ومعاذ بن عفراء^(١). وروى البخاري
عن أنس قال: قال: النبي ﷺ يوم بدر: «من ينظر ما فعل أبو جهل؟ قال: فانطلق ابن
مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد فأخذ بلحيته، وقال: أنت أبو جهل؟ قال:
وهل فوق رجل قتله قومه أو قتلتموه»^(٢) وفي مسند أحمد عن أبي عبيدة بن عبد الله بن
مسعود عن أبيه أنه وجد أبا جهل يوم بدر وقد ضربت رجله وهو صريع وقد ندب الناس
فيه بسيف له فأخذته فقتلته به فنفلني رسول الله ﷺ سيفه، قال: الحافظ هو معارض لما
في الصحيح أنه ﷺ أعطى سلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح ويمكن الجمع بأن يكون نفل
ابن مسعود سيفه الذي قتله به فقط.

وروى ابن إسحاق عن معاذ بن عمرو بن الجموح، قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من
غزوة أمر بأبي جهل بن هشام أن يلتمس في القتلى وقال: اللهم لا يعجزنك، قال: فلما
سمعتها جعلته من سابق فصمدت نحوه فضربته ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه قال:
وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي فتعلقت بجلدة من جنبي وأجهضني القتال عنه
فلقد قاتلت عامة يومي هذا وإني لأصحابها خلفي فلما آذنتني وضعت قدمي ثم تمطيت بها
عليها حتى طرحتها، قال: ابن إسحاق وعاش بعد ذلك إلى زمن عثمان، قال: القاضي
زاد بن وهب في روايته فجاء معاذ يحمل يده فبصق عليها رسول الله ﷺ فلصقت كذا نقل

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فرض الخمس، باب: من لم يخمس الأسلاب ومن قتل قتيلاً فله سلبه
من غير أن يخمس وحكم الإمام فيه (٢١٤١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب:
استحقاق القاتل سلب القتيل (١٧٥٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: في قتل أبي جهل (٣٩٦٣)، وأخرجه مسلم في كتاب:
الجهاد والسير، باب: قتل أبي جهل (١٨٠٠).

عن القاضي في «العيون»، وفي الشفاء قطع أبو جهل يوم بدر يد معوذ بن عفراء فجاء يحمل يده فبصق عليها رسول الله ﷺ وألصقها فلصقت رواه ابن وهب قال: إسحاق ثم مر بأبي جهل وهو عفير معوذ بن عفراء فضربه حتى أثبتته وبه رمق وقاتل معوذ حتى قتل ثم مر عبد الله بن مسعود بأبي جهل، قال: ابن مسعود وجدته بآخر رمق فعرفته فوضعت رجلي على عنقه ثم قلت هل أخزأك الله يا عدو الله؟ قال: وبماذا أخزاني؟ هل أعمد من رجل قتلتموه أخبرني لمن الدابرة؟ قلت: لله ولرسوله. وروي عن ابن مسعود أنه قال: قال: لي أبو جهل لقد ارتقيت يارويعي الغنم مرتقاً صعباً ثم أخرجت رأسه ثم جئت به رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله هذا رأس عدو الله أبي جهل فقال: الله الذي لا إله غيره، قلت: ونعم والذي لا إله غيره ثم ألقيت بين يدي رسول الله ﷺ فحمد الله، وفي رواية: خر رسول الله ﷺ ساجداً وفي رواية صلى ركعتين. وروي ابن عابد عن قتادة أن رسول الله ﷺ قال: «إن لكل أمة فرعون وفرعون هذه الأمة أبو جهل قاتله الله قتله ابنا عفراء أو قتله الملائكة وتدافه ابن مسعود» يعني أجهز عليه وأسرع قتله وقال عكرمة قال: المشركون والله ما نعرف ما جاء به محمد فافتح بيننا وبينه بالحق فأنزل الله تعالى ﴿إِن تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ أي إن تستقضوا فقد جاءكم القضاء، وقال السدي والكلبي: كان المشركون حين خرجوا إلى النبي ﷺ أخذوا بأستار الكعبة وقالوا اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم الحزبين وأفضل الدينين ففيه نزلت فعلى هذه الروايات الخطاب لكفار مكة، وقال أبي بن كعب هذا خطاب لأصحاب رسول الله ﷺ قال: الله تعالى للمسلمين إن تستفتحوا أي إن تستنصروا فقد جاءكم الفتح والنصر والظفر.

روى البغوي بسنده عن قيس بن حباب، قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تدعوا الله لنا ألا تستنصر لنا فجلس محمراً لونه أو وجهه فقال: لنا: «لقد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفرها له في الأرض ثم يجاء بالمنشار فيجعل فوق رأسه ثم يجعل بفرقتين ما يصرفه عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم وعصب ما يصرفه عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب منكم من صنعا إلى حضرموت لا يخشى إلا الله ولكنكم تعجلون»^(١) ﴿وَإِن تَنَّهُوا﴾ أيها الكفار عن الكفر بالله والقتال مع نبيه ﷺ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فإن فيه صلاح الدارين لكم ﴿وَإِن تَعُدُّوا﴾ الحرب ومعاداته ﴿نَعْدُ﴾ بمثل الواقعة التي وقعت بكم يوم بدر ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ﴾

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام (٣٦١٢)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في الأسير يكره على الكفر (٢٦٤٧).

أي لن يدفع ﴿عَنْكُمْ فِتْنَتَكُمْ﴾ أي جماعتكم شيئاً من الإغناء أو شيئاً من المضار ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ فنتكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قرأ نافع وابن عامر وحفص بفتح الهمزة وحينئذ عطف على محذوف يعني لن تغني عنكم فنتكم شيئاً لأجل شؤم كفركم ولأن الله مع المؤمنين وقيل: هو عطف على قوله ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين وأن الله مع المؤمنين.

وقرأ الباقون بالكسر على الاستئناف والعطف على لن تغني وإن كان قوله تعالى إن تستفتحوا خطاباً للمسلمين فالمعنى إن تستنصروا فقد جاءكم الفتح النصر وإن انتهوا عن التكاثر في القتال والمجادلة في الحق والرغبة عما يستأثره الرسول فهو خير لكم وإن تعودوا بعد بالإنكار وتهيج العدو ولن تغني حينئذ كثرتكم إذا لم يكن الله معكم بالنصر فإن الله مع المؤمنين الكاملين ويناسبه قوله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمْ النَّاسُ فَفَاوَنَكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصَرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَقَوُّوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أي لا تعرضوا عن الرسول يعني عن إطاعته، أفرد الضمير لأن المراد من الآية الأمر بإطاعة الرسول الله ﷺ والنهي عن الإعراض عنه، وذكر الله تعالى للتوطئة والتنبيه على أن طاعة الله تعالى في طاعة الرسول الله ﷺ، وقيل: الضمير للجهاد أو للأمر الذي يدل عليه الطاعة ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ القرآن والمواظع وتصدقونه ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ يعني المنافقين الذين ادعوا

السمع والتصديق ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماع اتعاظ وقبول ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ أي شر ما يدب على الأرض أو شر البهائم ﴿عِنْدَ اللَّهِ أَلْظَمُ الْبُكْمِ﴾ عن الحق لا يسمعه سماع قبول فلا ينطق به ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الحق عدّهم من البهائم وجعلهم شرها لإبطالهم ما امتازوا به من البهائم وفضلوا لأجله .

قال ابن عباس هم نفر من بني الدار بن قصي كانوا يقولون نحن صم بكم عمي عما جاء به محمد فقتلوا جميعاً بأحد وكانوا أصحاب اللواء ولم يسلم منهم إلا رجلان مصعب بن عمير وسويط بن حرملة ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ يعني استعداد قبول الحق وكانوا من أهل السعادة من مريبات اسم الله الهادي ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ سماع قبول وتفهم ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ سماع انتفاع وتفهم وقد علم أن لا خير فيهم ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ بعد الإيمان والتصديق والانتفاع وارتدوا لما سبق عليهم الكتاب ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ بعد ظهور الحق عناداً، قال: رسول الله ﷺ: «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل أهل النار فيدخلها»^(١) الحديث متفق عليه عن ابن مسعود، قال: البغوي وقيل: إنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ أحي لنا قصياً فإنه كان شيخاً مباركاً حتى يشهد لك بالنبوة فنؤمن بك فقال: الله تعالى ولو أسمعهم كلام قصي لتولوا وهم معرضون ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ يعني أجيبوهما بالطاعة ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ الرسول أفرد الضمير لما ذكرنا ولأن دعوة الله يسمع من الرسول ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال: السدي أي الإيمان لأن الكافر ميت، وقال قتادة: هو القرآن فيه الحياة وبه النجاة والعصمة في الدارين، وقال مجاهد الحق وقال ابن إسحاق هو الجهاد حيث أعزكم الله به بعد الذل .

وقال القتيبي هو الشهادة قال: الله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ﴾^(٢)، قلت: والأولى أن يقال: هو كل ما دعى له الرسول ﷺ والتقيد ليس للاحتراز بل للمدح والتحريض فإن طاعة الرسول في كل أمر يحيي القلب وعصيانه يميته، والمراد بحياة القلب طرد الغفلة عنه بخرق الحجب ودفع الظلمة .

روى الترمذي والنسائي من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ مرّ على أبي بن كعب وهو يصلي فدعاه فعجل أبي في صلاته ثم جاء فقال: رسول الله ﷺ ما منعك أن تجيبني

(١) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة (٣٢٠٨) وأخرجه مسلم في كتاب: القدر، باب: كيفية خلق آدمي في بطن أمه (٢٦٤٣).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩ - ١٧٠.

إذا دعوتك؟ قال: كنت في الصلاة، قال: أليس الله تعالى يقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، فقال: لا جرم يا رسول الله لا تدعوني إلا أجبته وإن كنت مصلياً^(١) وهذا الحديث يؤيد ما قلت بوجوب الإجابة لكل ما دعى رسول الله ﷺ.

مسألة

قيل: إجابة الرسول لا يقطع الصلاة وقيل دعائه إن كان لأمر لا يحتمل التأخير فللمصلي أن يقطع الصلاة لأجله والظاهر هو المعنى الأول وإلا فقطع الصلاة يجوز لكل أمر ديني مهم يفوت بالتأخير كالأعمى يقع في البئر وهو يصلي لو لم يقطعها ولم يرشده والله أعلم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ أي يميتة فيفوت الفرصة التي هو واجدها بالطاعة الله تعالى فاغتنموا هذه الفرصة وأخلصوا قلوبكم لله وسارعوا إلى الخيرات.

أو المعنى أن الله يحول بين الإنسان وبين ما يتمناه قلبه من طول الحياة فيفسخ عزائمه فلا تسوفوا في أمور الدين وقيل: هو تمثيل لغاية قربه من العبد كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^(٢)، وتنبه على أنه مطلع على مكنونات القلب ما عسى أن يغفل عنه صاحبه فعليكم الإخلاص وقيل: هو تصوير وتخيل لتملكه على قلب العبد فيفسخ عزائمه ويغير مقاصده يحول بينه وبين الكفر والعصيان إن أراد سعادته وبينه وبين الإيمان والطاعة إن أراد شقاوته فلا بد من دوام التضرع والالتجاء إليه وخوف الخاتمة.

عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ «يكثر أن يقول: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قالوا: يا رسول الله ﷺ آمنة بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء^(٣) رواه الترمذي وابن ماجه، وعن ابن عمر مرفوعاً: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء» ثم قال: رسول الله ﷺ: «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل فاتحة الكتاب (٢٨٧٥)، وأخرجه النسائي في كتاب: الافتتاح، باب: تأويل قول الله عز وجل (٩٠٧)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: فاتحة الكتاب (١٤٥٧).

(٢) سورة ق، الآية: ١٦.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: القدر، باب: ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن (٢١٤٠)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الدعاء، باب: تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء (٢٦٥٤).

طاعتك»^(١) رواه مسلم، عن عمر بن الخطاب أنه سمع غلاماً يدعو: اللهم إنك تحول بين المرء وقلبه فحل بيني وبين الخطايا فلا أعمل بسوء منها فقال: رحمك الله ودعا له بخير ﴿وَأَنَّهُ إِنِّي مَحْشُرُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾ أي معصية ﴿لَا تُصِيبَنَّ﴾ الضمير راجع إلى فتنة بتقدير حذف المضاف أي لا يصيبن وبالها ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ لا تصيبن صيغة نهي مؤكدة بالنون صفة لفتنة على إرادة القول، يعني اتقوا فتنة يقال فيها: لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة بل تعم الظالم وغيره أو صيغة نفي دخلها النون لتضمنها معنى النهي فمعنى الآية الأمر بالإلتقاء عن فتنة موصوفة بعموم وبالها من ارتكبتها ومن لم يرتكبتها.

واختلفوا في ذلك الفتنة ما هي؟ فقال: قوم هي ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال: ابن عباس أمر الله المؤمنين أن لا يقرؤا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بعذاب يصيب الظالم وغير الظالم واستدلوا على ذلك بحديث أبي بكر الصديق قال: «يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أو شك أن يعمهم الله بعقاب من عنده»^(٢) رواه أصحاب السنن الأربعة، وقال: الترمذي حسن صحيح وصححه ابن حبان، وحديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس مروا بالمعروف وانهاوا عن المنكر قبل أن تدعوا الله فلا يستجيب لكم وقبل أن تستغفروه فلا يغفر لكم إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يدفع رزقاً ولا يقرب أجلاً وإن الأحبار من اليهود والنصارى لما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لعنهم الله علي لسان أنبيائهم ثم عموا بالبلاء». رواه الأصبهاني وله شاهد من حديث ابن مسعود وحديث عائشة. وعن عدي بن عدي الكندي قال: حدثنا مولى لنا أنه سمع جدي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرائهم وهم قادرون على أن ينكروه فلم ينكروه فإذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة»^(٣) رواه البغوي في شرح السنة والمعالم، وعن النعمان بن بشير قال:

(١) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء (٢٦٥٤).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر (٢١٦٨)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الملاحم، باب: الأمر والنهي (٤٣٢٩).

(٣) رواه الطبراني ورجاله ثقات، انظر مجمع الزوائد في كتاب: الفتن، باب: في ظهور المعاصي (١٢١٤٣).

قال: رسول الله ﷺ: «مثل المدخن في حدود الله والواقع فيها مثل قوم استهموا سفينة فصاروا بعضهم في أسفلها وبعضهم في أعلاها فكان الذي في أسفلها يمر بالماء على الذين في أعلاها فتأذوا به، فأخذ فأساً فجعل ينقر أسفل السفينة فأتوه فقالوا: مالك؟ قال: تأذيتم بي ولا بد لي من الماء فإن أخذوا على يديه أنجوه وأنجوا بأنفسهم وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم»^(١) رواه البخاري، قلت: والاستدلال بهذه الأحاديث لا يصح فإن مقتضى الأحاديث أن معصية أحد لا يعذب بها غيره إلا إذا عمل بها بين أظهر الناس وهم قادرون على الإنكار فلم ينكروا، فحينئذ يعم عذاب تلك المعصية فاعلها ومن لم يفعلها بل ترك النهي عنها، ولا شك أن النهي عن المنكر فريضة تاركها ظالم فشموله عذاب المعصية إصابة عذاب الظالم وليس ذلك العذاب شاملاً للظالم وغيره ألم تسمع قصة القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت يعني طائفة منهم وطائفة كانت ناهية عن المنكر وطائفة لم يأتوا بالمنكر لكنهم تركوا النهي عنه فقال: الله تعالى: ﴿وَأَنْجِينَا الَّذِي يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِقَابٍ﴾^(٢) فهذا صريح في أن وبال ترك النهي لم ينل غير الظالم، وهذه الآية تدل على فتنة ينال وبال الظالم وغيره وقال قوم: هي البغي والفساد في الأرض فإنه ينال وبال في الدنيا رجال معصومون يعني يقتل الناس وينهب.

عن قتادة في الآية قال: علم والله ذوو الألباب من أصحاب محمد ﷺ حين نزلت هذه الآية أنه ستكون فتن، ومن ههنا قال: ابن زيد أراد بالفتنة افتراق الكلمة ومخالفة بعضهم بعضاً، وقال الحسن نزلت الآية في علي وعمار وطلحة والزبير، عن مطرف قال: قلنا للزبير يا أبا عبد الله قد ضيعتم الخليفة حتى قتل ثم جئتم تطلبون بدمه؟ قال: الزبير لقد قرأنا هذه الآية زماناً وما أرانا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها يعني ما كان منه يوم الجمل من البغي على علي رضي الله عنه، وكذا قال: السدي والضحاك وقاتدة، قلت: وعندى أن المراد بالفتنة المذكورة ترك الجهاد خصوصاً عند النفي العام إذا دعاهم الإمام إليه والتولي يوم الزحف بقريظة سياق القصة قال: الله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُوا يُجَادِلُوكَ فِي الْحَقِّ﴾^(٣) وقال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الشهادات، باب: القرعة في المشكلات (٢٦٨٦).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٦٥.

(٣) سورة الأنفال، الآيات: ٥ - ٦.

رَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾^(١) قال: عز من قائل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾^(٢) والمراد من إصابة الوبال للظالم وغيره وصول المكروه لجميعهم، ألا ترى أن ترك القتال يوجب غلبة الكفار وقتل المسلمين ونهب أموالهم من الصغار والكبار والنساء والفرار من الزحف يوجب قتل المجاهدين الصابرين ألا ترى أن المسلمين إذا استزلهم الشيطان يوم أحد نال وباله سائر المسلمين حتى نال بعض المكروه للنبي المعصوم شج وجهه وكسر ربايعته والله أعلم.

وجاز أن يكون قوله تعالى: ﴿لَا تُصِيبَنَّ﴾^(٣) نهياً بعد أمر باتقاء الذنب والمعنى اتقوا كل فتنة ولا يرتكبوا أحد منكم فتنة ما فإن وباله يصيب الظالم خاصة ويعود عليه.

وفائدته أن الظالم منكم أقبح منه من غيركم وهذا معنى ما قال: البغوي ليس بجزء محض ولو كان جزء لم يدخل فيه النون لكنه نهى وفيه طرف من الجزء كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمٰنُ وَجُنُودُهُ﴾^(٣) تقديره اتقوا فتنة إن لم تقوها أصابتم خاصة، فلا تصيب الذين ظلموا منكم خاصة ومثله ادخلوا مساكنكم إن لم تدخلوها يحطمنكم سليمان وجنوده والله أعلم، وليس قوله تعالى: لا تصيب جواباً للأمر لأن المعنى حينئذ اتقوا فتنة إن تقوها لا يصيب الذين ظلموا منكم خاصة وليس المعنى إن تقوها إلا يصيبكم إذ نفي المقيد يرجع إلى القيد فالمعنى بل يعمكم وغيركم وفساده ظاهر، قال: البيضاوي جواب للأمر على معنى إن أصابتمكم لا تصيب الظالمين منكم خاصة، قلت: لا بد في جواب الأمر من تقدير شرط مأخوذ من الأمر كما في قول القائل أسلم تدخل الجنة يعني إن تسلم تدخل الجنة وقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ﴾ يعني إن تدخلوا لا يحطمنكم فتقديره إن أصابتمكم لا يتصور إن كان جواباً للأمر بل يكون الشرطية صفة لفتنة ويؤول التأويل إلى ما ذكرنا أولاً وأيضاً لا يجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ جواب قسم محذوف ويكون تقدير الكلام اتقوا فتنة والله لا يصيب الفتنة الذين ظلموا منكم خاصة بل يعمكم لأن الفتنة المأمورة بالإتقاء عنها على هذا فتنة منكرة والنكرة إذا أضمرت في قوله تعالى: ﴿لَا تُصِيبَنَّ﴾ صارت عامة فيلزم عموم وبال كل معصية للظالم وغيره وفساده ظاهر لأنه خلاف الإجماع وخلاف منطوق قوله

(١) سورة الأنفال، الآية: ١٥.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

(٣) سورة النمل، الآية: ١٨.

تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾^(١)، اللهم إلا أن يقر المراد بالفتنة ما ذكرنا من ترك الجهاد والفرار من الزحف بقريظة السياق والمراد بإصابتها إصابة وبالها في الدنيا والله أعلم. ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فاحذروا عقابه بالالتقاء من الفتنة ﴿وَأَذْكُرُوا﴾ أيها المهاجرون ﴿إِذَا أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾ في العدد ﴿مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مكة ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ يعني كفار قريش وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قيل: يا رسول الله من الناس؟ قال: أهل فارس ﴿مَأْوَانِكُمْ﴾ المدينة ﴿وَأَيُّدِكُمْ﴾ يوم بدر ﴿يَنْصُرُوهُ﴾ على الكفار ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من المغانم أحلها لكم ولم يحلها لأحد قبلكم ﴿لَمَلَكِكُمْ﴾ تشكروا.

وقيل: الخطاب للعرب كافة فإنهم كانوا أذلاء في أيدي فارس والروم كانوا جميعاً معادين لهم متضادين فجعل لهم الله مأوى يتحصنون به عن أعدائهم، يعني جوار نبيه ﷺ وأيدهم بنصره على جميع أهل الملل والله أعلم. روى سعيد بن منصور وغيره عن عبد الله بن أبي قتادة وذكره البغوي أن النبي ﷺ حاصر بني قريظة إحدى وعشرين ليلة فسألوا رسول الله ﷺ الصلح على ما صالح عليه إخوانهم من بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أذرعات وأريحا من أرض الشام فأبى رسول الله ﷺ أن يعطيهم ذلك إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأبوا وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر وكان مناصحاً لهم لأن ماله وعياله وولده كانت فيهم، فبعثه رسول الله ﷺ فاتاهم فقالوا: يا أبا لبابة ما ترى أنزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار أبو لبابة إلى حلقه أنه الذبح فلا تفعلوا، وذكر في سبيل الرشاد أنه أرسل رسول الله ﷺ أبا لبابة فلما رآه قام إليه الرجال، وجهش إليه النساء والصبيان يكون في وجهه فرق لهم، فقال: كعب بن أسد: يا أبا لبابة إنا قد اخترناك على غيرك إن محمد أبي إلا أن ننزل على حكمه يعني حكم رسول الله ﷺ أفترى أن ننزل على حكمه؟ قال: نعم وأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح، قال: أبو لبابة والله ما زالت قدماي مكانهما حتى عرفت أنني قد خنت الله ورسوله فندمت فاسترجعت وإن لحيتي لمبتلة من الدموع والناس ينتظرون رجوعه إليهم حتى أخذت من وراء الحصن طريقاً أخرى حتى جئت إلى المسجد ولم آت رسول الله ﷺ فارتبطت إلى اسطوانة المخلفة التي يقال لها: اسطوانة التوبة وقلت: لا أبرح من مكاني حتى أموت أو يتوب الله علي.

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

قال البغوي: قال: والله لا أنحل ولا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله علي فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره قال: «أما لو جاءني لاستغفرت له فأما إذا فعل فإني لا أطلقه حتى يتوب الله عليه» فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى خر مغشياً عليه ثم تاب الله عليه كذا قال: البغوي.

وفي سبيل الرشاد قال: ابن هشام أقام مرتبطاً ست ليال تأتيه امرأته كل صلاة فتحله حتى يتوضأ ويصلي ثم يرتبط، وقال ابن عقبة زعموا أنه ارتبط قريباً من عشرين ليلة، وقال في البداية وهذا أشبه الأقاويل، وقال ابن إسحاق خمساً وعشرين ليلة، وروى ابن وهب عن مالك عن عبد الله بن أبي بكر أنه ارتبط بسلسلة ربوض بضع عشرة ليلة حتى ذهب سمعه فما يكاد يسمع وكاد يذهب بصره وكانت ابنته تحله إذا حضرت الصلاة أو أراد أن يذهب لحاجته فإذا فرغ أعادت الرباط والظاهر أن زوجته كانت تباشر حله مرة وابنته مرة، وأنزل الله تعالى في توبته: ﴿وَأَخْرَجْنَا لَهُمْ لِيَوْمِ تَوْبِهِمْ مَخْرُجًا وَمَأْتِيَهُمُ اللَّهُ بِتُوبَةٍ وَأَمَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا فَهُمْ لَنْ يَرْضَىٰ﴾ (١) قال: ابن إسحاق حدثني يزيد بن عبد الله بن قسيط إن توبة أبي لبابة نزلت على رسول الله ﷺ وهو في بيت أم سلمة قالت أم سلمة فسمعت رسول الله ﷺ من السحر وهو يضحك قالت فقلت يا رسول الله مم تضحك؟ أضحك الله منك، قال: تيب علي أبي لبابة، قالت: قلت: أفلا أبشره يا رسول الله؟ قال: بلى إن شئت، فقامت علي باب حجرتها وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب، فقالت: يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك، قالت: فثار الناس ليطلقوه فقال: لا والله حتى يكون رسول الله هو الذي يطلقني بيده، فلما مر عليه خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه.

قال السهيلي وروى حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان عن علي بن الحسين رضي الله عنهما أن فاطمة رضي الله عنها جاءت تحله فقال: إني حلفت أن لا يحلني إلا رسول الله ﷺ، فقال: رسول الله ﷺ: «إن فاطمة بضعة مني» وعلي بن زيد بن جدعان ضعيف، ورواية علي بن الحسين مرسله، ثم قال: أبو لبابة من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالي كله فقال: النبي ﷺ: «يجزئك الثلث إن تصدقت به» فنزل في أبي لبابة قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ وأصل الخون النقص كما أن أصل الوفاء التمام واستعماله في ضد الأمانة لتضمنه إياه ﴿وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ﴾ فيما بينكم مجزوم بالعطف على الأول أو منصوب على الجواب بالواو

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٢.

والظاهر هو الأول لأن في الثاني يشترط معنى الجمعية وكل واحد من الخيانتين محرمة برأسها لا الجمع بينهما كما في لا تأكل السمك وتشرب اللبن ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنها أمانته أو أنتم تعلمون أن ما فعلتم من الإشارة إلى الحلق خيانتته وأنتم علماء تميزون الحسن من القبح، قال: السدي إذا خانوا الله والرسول فقد خانوا أماناتهم.

قال ابن عباس لا تخونوا الله بترك فرائضه والرسول بترك سنته وأماناتكم هي ما يخفى عن أعين الناس من فرائض الله تعالى والأعمال التي ائتمن الله عليها عباده، وقال قتادة اعلموا أن دين الله أمانة فأدوا إلى الله ما ائتمنكم عليه من فرائضه وحدوده ومن كانت عليه أمانة فليؤد إلى من ائتمن عليها، قلت: حاصل قول ابن عباس وقاتادة أن سبب نزول هذه الآية وإن كان ما فعل أبو لبابة لكن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص المورد، فيحرم الخيانة في دين الله من فرائضه وحدوده كلها ومنها ما فعل أبو لبابة والله أعلم.

فإن قيل: «المستشار مؤتمن»^(١) حديث صحيح رواه أحمد من حديث أبي هريرة مرفوعاً والترمذي عن أم سلمة وابن ماجه عن ابن مسعود، وقد استشار اليهود من أبي لبابة فلو لم يفعل أبو لبابة ما فعل لزمه الخيانة في المشورة فكيف كان له التقصي؟ قلت: كان له التقصي بالسكوت وبأن يقول لست أشير لكم قد بدا بيني وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله ورسوله والله أعلم.

وأخرج ابن جرير عن السدي قال: كانوا يسمعون من النبي ﷺ الحديث فيفشونه حتى يبلغ المشركين فنزلت فيه، وروى ابن جرير وغيره عن جابر بن عبد الله أن أبا سفيان خرج من مكة فأتى جبرئيل النبي ﷺ فقال: إن أبا سفيان بمكان كذا وكذا، فقال: رسول الله ﷺ: «إن أبا سفيان بمكان كذا وكذا فاخرجوا إليه واكتموا» فكتب رجل من المنافقين إلى أبي سفيان إن محمداً يريدكم فخذوا حذرکم فأنزل الله هذه الآية وهذا غريب جداً في سنده وسياقه نظر ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَوْلَكُمُ وَأَوْلَدَكُمُ فِتْنَةٌ﴾ أصل الفتن إدخال الذهب النار ليظهر جودته ومنه استعمل في الاختبار والامتحان قال: الله تعالى: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾^(٢) ويستعمل أيضاً في العذاب قال: الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾^(٣) يستعمل أيضاً في الكفر والمعصية والفساد وكل ما يفضي إلى العذاب قال: الله

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الآداب، باب: ما جاء المستشار مؤتمن (٢٨٢٢)، وأخرجه أبو داود في

كتاب: الأدب، باب: في المشورة (٥١١٩)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الأدب، باب:

المستشار مؤتمن (٣٧٤٥).

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.

(٣) سورة الذاريات، الآية: ١٣.

تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾ وقال ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾^(١) والفتنة أشد من الكفر، وتسمية الأموال والأولاد بالفتنة لأنها سبب الوقوع في الإثم والعقاب أو لأنها امتحان من الله تعم فلا يحملنكم حبهم على الخيانة، قيل: هذا أيضاً نزلت في أبي لبابة لأن أمواله وأولاده كانت في بني قريظة، فقال: ما قال: خوفاً عليهم، عن عائشة أن النبي ﷺ أتني بصبي فقبله فقال: «أما إنهم مبخلة مجبنة وإنهم لمن ريحان الله» رواه البغوي، وروى أبو يعلى عن أبي سعيد: «الولد ثمر القلب وإنه مجبنة مبخلة محزنة» وروى الحكيم عن خولة بنت حكيم «الولد من ريحان الجنة» ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لمن نصح لله ورسوله وأدى أمانته ورعى حدوده وآثر رضا الله تعالى على حبهم، ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَشَقَّوْا اللَّهَ﴾ بطاعته وترك معصية ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي بصيرة في قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل وهو المعنى بقوله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»^(٢) رواه البخاري في التاريخ والترمذي عن أبي سعيد والطبراني وابن عدي عن أبي أمامة وابن جرير عن ابن عمر، وقوله ﷺ: «استفتت نفسك وإن أفتاك المفتون»^(٣) رواه البخاري في التاريخ عن وابصة بسند حسن، قلت: هذا بعد فناء القلب وتزكية النفس عن الرذائل وحينئذ يتحقق حقيقة التقوى، ويسمى هذا في اصطلاح الصوفية بالكشف، والمراد بالفرقان نصراً يفرق بين المحقق والمبطل بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين وقال مجاهد يجعل له مخرجاً في الدنيا والآخرة عما يحذرون، وقال مقاتل بن حبان: مخرجاً في الدين من الشبهات وهذا يناسب الأول، وقال عكرمة نجاه يفرق بينكم وبين ما تخافون، وقال الضحاك ثباتاً وقال ابن إسحاق فصلاً بين الحق والباطل يظهر الله به حقكم ويظفي بطلان من خالفكم، والفرقان مصدر كالرجحان والنقصان ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي يمحو عنكم ويستر لكم ما سلف من ذنوبكم ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ نعمانه روى البزار عن أنس عن النبي ﷺ: «يخرج لابن آدم ثلاثة دواوين ديوان فيه العمل الصالح وديوان فيه ذنوبه وديوان فيه النعم من الله يقول الله لأصغر نعمه في ديوان النعم خذي منك من عمله الصالح فتستوعب العمل الصالح، فيقول: وعزتك ما استوفيت وتبقى الذنوب والنعم وقد ذهب العمل الصالح كله، فإذا أراد الله أن يرحم عبداً قال: يا عبدي قد ضاعفت لك حسناتك وتجاوزت عن سيئاتك ووهبت لك نعمتي».

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٩.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحجر (٣١٢٧) وقال عنه: غريب.

(٣) ورواه أحمد والدارمي في مسنديهما، وقال النووي، إسناده حسن. انظر: فيض القدير (٩٩١).

وأخرج الطبراني عن واثلة بن الأسقع يبعث الله يوم القيامة عبداً لا ذنب له فيقول الله تبارك وتعالى إي الأمرين أحب إليك أن أجرى بعملك أو بنعمتي عليك، قال: يا رب أنت أعلم أني لم أعصك قال: خذوا عبيدي بنعمة من نعمي فما تبقى له حسنة إلا استغرقتها تلك النعمة فيقول بنعمتك ورحمتك»، ومن ههنا قال: رسول الله ﷺ: «إنه لا ينجي أحداً منكم عمله قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»^(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة، وفي الصحيحين عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لا يدخل الجنة أحداً عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»^(٢) وإليه أشار الله سبحانه بقوله: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ يعني ما وعدتكم على التقوى ليس مما يوجب ذلك علينا تقواكم بل إنما هو تفضل وإحسان كالسيد إذا وعد إنعاماً لعبده على عمل واجب عليه وإن لم ينعم السيد ذلك، وقيل: معنى يكفر عنكم سيئاتكم يعني الصفات ويغفر لكم يعني ذنوبكم الكبائر.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ إِلَّا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُمْ إِنْ أَوْلِيَائُهُمْ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عطف على قوله إذ أنتم قليل يعني اذكر إذ يمكر بك الذين كفروا إذ قالوا: اللهم فإن هذه السورة مدنية وهذا المكر والقول كان بمكة.

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: القصد والمداومة على العمل (٦٤٦٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله (٢٨١٦).
(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: القصد والمداومة على العمل (٦٤٦٧).

روى ابن إسحاق وعبد الرزاق وأحمد وابن جرير وأبو نعيم وابن المنذر والطبراني عن ابن عباس وعبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة أن قريشاً لما أسلمت الأنصار رأت رسول الله ﷺ قد كانت له شعبة وأصحاباً من غير بلدهم ورأوا خروج أصحابه المهاجرين إليهم عرفوا أنهم نزلوا داراً وأصابوا جواراً ومنعة فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم فاجتمعوا له في دار الندوة، وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا يتشاورون فيها فاجتمعوا لذلك واتعدوا وكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل عليه له فوقف على باب الدار، فلما رأوه واقفاً على بابها قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا تعدموا منه رأياً ولا نصحاً، قالوا: أجل ادخل فدخل معهم واجتمع فيها أشرف قريش عتبة وشيبة ابنا ربيعة وطعيمة بن عدي والنضر ابن الحارث بن كلدة وأبو البختري بن هشام وزمعة بن الأسود وأبو جهل بن هشام ونبيه ومنبه ابنا حجاج وأمية بن خلف وأبو سفيان بن حرب وجبير بن معطم وحكيم بن حزام، وأسلم الثلاثة الأخيرة بعد ذلك وغيرهم من كان منهم ومن غيرهم ممن لا يعد من قريش، فقال: بعضهم لبعض إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم وإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن اتبعه من غيرنا فأجمعوا فيه رأياً. فتشاوروا فقال: قائل منهم - نقل السهيلي عن عبد السلام أنه أبو البختري بن هشام - احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله زهير والنابغة ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم، فقال: الشيخ النجدي لعنه الله: والله ما هذا لكم برأيي والله لئن حبستموه في بيت ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه فيوشك أن يشبوا عليكم فيقاتلوكم ويأخذوه من أيديكم قالوا: صدق الشيخ، فقال: قائل منهم - ذكر السهيلي أنه أبو الأسود ربيعة بن عمر أخو بني عامر بن لؤي - نخرجه من بين أظهرنا فلا يضرنا ما صنع وأين وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا وألفتنا فقال: الشيخ النجدي لعنه الله: ما هذا لكم برأيي ألم تروا إلى حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبة قلوب الرجال بما يأتي به والله لئن فعلتم ذلك فيذهب فيستميل قلوب قوم ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم به فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد فراوا فيه رأياً غير هذا، فقال: أبو جهل: والله إن لي فيه رأياً ما أراكم وقفتم عليه بعد، قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة شاباً جلدأً حسيباً وسطاً ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ثم يعمدوا عليه بأجمعهم فيضربوه بها ضربة

رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً فرضوا به بالعقل فعقلناه لهم، فقال: الشيخ النجدي: القول ما قال: هذا الرجل هذا الرأي لا رأي غيره وقال شعر:

الرأي رأيان رأي ليس يعرفه هاد ورأي كئصل السيف معروف
يكون أوله عز ومكرمة يوماً وآخره حمد وتشريف

فتفرق القوم على ذلك وهم مجتمعون له فأتى جبرئيل عليه السلام رسول الله ﷺ فقال: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي تبيت عليه وأخبره بمكر القوم وأذن الله تعالى في الخروج، فلما كانت العتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيبيتون عليه فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال: لعلي رضي الله عنه: نم على فراشي وتسج بردائي الأخضر الحضرمي فتم فيه فإنه لن يخلص إليك منهم أمر تكرهه وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذاك إذا نام، فلما اجتمعوا قال: أبو جهل إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم كجنان الأردن وإن أنتم لم تفعلوا كان له فيكم ذبيح ثم بعثتم بعد موتكم فجعل لكم النار تحرقون فيها.

فخرج رسول الله ﷺ ومعه حفنة من تراب ثم قال: «نعم أنا أقول ذلك وأنت أحدهم» وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلا يرونه فجعل يذري التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ إلى قوله ﴿فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ﴾ ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع رسول الله ﷺ على رأسه تراباً وانصرف إلى حيث أراد أن يذهب فأتاهم آت ممن لم يكن معهم، فقال: ما تنظرون ما هنا؟ قالوا: محمداً، قال: خيبتكم الله عز وجل قد والله خرج عليكم محمد ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً وانطلق لحاجته فما ترون ما بكم ووضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب ثم جعلوا يظلمون فيرون علياً رضي الله عنه على فراش رسول الله ﷺ متسجاً برداء رسول الله ﷺ فيقولون: والله إن هذا محمد نائم عليه برده فلم يزالوا كذلك حتى أصبحوا فقام علي عن فراشه فقالوا: والله لقد صدقنا الذي كان حدثنا وذهب رسول الله ﷺ إلى غار ثور، وسيجيء باقي قصة خروجه ﷺ في سورة التوبة إن شاء الله تعالى.

روى الحاكم عن ابن عباس قال: شرى علي نفسه ولبس ثوب النبي ﷺ ثم نام مكانه وكان المشركون يرمون رسول الله ﷺ فجعلوا يرمون علياً ويرونه النبي ﷺ وجعل

عليّ يتضور فإذا هو عليّ فقالوا: إنك للثيم إنك لتتضور وكان صاحبك لا يتضور ولقد استنكرناه فيك.

وروى الحاكم عن علي بن الحسين قال: إن أول من شرى نفسه ابتغاء رضوان الله عليّ وقال في ذلك شعر:

وقيت بنفسي خير من وطى الحصى ومن طاف بالبيت العتيق وبالبحجر
رسول إله أخاف أن يمكروا به فنجاه ذو الطول الإله من المكر
وبات رسول الله في الغار آمناً موقى وفي حفظ الإله وفي ستر
وبت أراعيهم وما يتهمونه وقد وطنت نفسي على القتل والأسر

قال ابن إسحاق: وكان مما نزل في ذلك اليوم وما اجتمعوا له قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ أي يحبسوك ويوثقوك كما قال: به أبو الحقيق ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ كما قال: به أبو جهل وارتضى به إبليس لعهما الله سبحانه ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ كما قال: به أخو بني عامر ﴿رِيْمَكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ المكر صرف الغير عما يقصده بحيلة وذلك ضربان مكر محمود وهو أن يتحرى بذلك فعل جميل ومذموم وهو أن يتحرى به فعل قبيح لكن إسناده إلى الله تعالى إنما يحسن للمزاوجة، ولا يجوز إطلاقها ابتداء لما فيه من إيهام الذم والمعنى أنهم احتالوا لإبطال أمر محمد وإطفاء نور الله والله تعالى احتال لإتمام أمره ونوره وإهلاك أعدائه ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ﴾ فإن فعله تعالى خير كله وحسن جميل.

وقيل: معنى مكر الله أنه يرد مكرهم، وقيل: معناه يجازيهم على المكر، وقال بعضهم من مكر الله إمهال العبد وتمكينه من أعراض الدنيا ولذلك قال: أمير المؤمنين من وسع عليه دنياه ولم يعلم أنه مكر فهو مخدوع عن عقله.

وأخرج ابن جرير من طريق عبيد بن عمير عن المطلب بن وداعة أن أبا طالب قال: للنبي ﷺ: ما ياتمر بك قومك؟ قال: «يريدون أن يسجنوني أو يقتلونني أو يخرجوني» قال: من حدثك بهذا؟ قال: ربي، قال: نعم الرب ربك فاستوص به خيراً، قال: أنا استوصي به بل هو يستوصي بي فنزلت ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، قال: ابن كثير ذكر أبي طالب فيه غريب بل منكر لأن القصة ليلة الهجرة وذلك بعد موت أبي طالب بثلاث سنين. أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبيرة قال: قتل النبي ﷺ يوم بدر صبراً عقبه بن أبي معيط وطعيمة بن عدي والنضر بن الحارث وكان المقداد أسر النضر فلما أمر

بقتله قال: المقداد: يا رسول الله أسيري فقال: رسول الله ﷺ: «إنه كان يقول في كتاب الله ما يقول» قال: وفيه أنزلت ﴿وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ مَائِنْتَنَا قَالُوا﴾ يعني النضر بن الحارث وإسناد الفعل إلى جميعهم لكونهم راضياً بقوله كما أسند عقر الناقة إلى ثمود في قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾^(١) وكان العاقر أشقاها قذار بن سالف ﴿قَدْ سَمِعْنَا﴾ يعني القرآن ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ وهذا غاية مكابرتهم وفرط عنادهم إذ لو استطاعوا ذلك فما منعهم أن يشاؤوا وقد تحداهم وقرعهم بالعجز عشر سنين ثم قارعهم فلم يعارضوه سورة مع الفهم وفرط استنكافهم أن يغلبوا خصوصاً في باب البيان يعني ﴿إِنَّ هَذَا﴾ يعني القرآن ﴿إِلَّا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ﴾ يعني ما سطره وكتبه الأولون من أخبار الأمم الماضية جمع أسطورة وهي المكتوبة.

قال البغوي: كان النضر بن الحارث تاجراً إلى فارس وحيرة فيسمع أخبار رستم وأسفنديار وأحاديث العجم ويمر باليهود والنصارى فيراهم يقرؤون التوراة والإنجيل ويركعون ويسجدون فجاء مكة فوجد محمد ﷺ يصلي ويقرأ القرآن فقال: النضر: قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا الآية ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ آيَةُ الْقُرْآنِ هُوَ الْحَقُّ مِنِّي فَمَطِرٌ عَلَيْنَا حِجَارَةٌ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ كما فعلت بأصحاب الفيل وقوم لوط ﴿أَوْ أَتَيْنَا بِعَذَابٍ آَلِيمٍ﴾ مؤلم على إنكاره قالوا: ذلك استهزاء وإيهاماً بأنهم على بصيرة وجزم ببطلانه، أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير أنها نزلت في النضر بن الحارث وهو القائل بذلك، قال: البغوي: قال: ابن عباس: لما قص رسول الله ﷺ شأن القرون الماضية قال: النضر لو شئت قلت مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين في كتبهم قال: له عثمان بن مظعون اتق الله فإن محمداً يقول الحق، قال: فإنا أقول الحق، قال: عثمان: فإن محمداً يقول: لا إله إلا الله، قال: فإنا أقول لا إله إلا الله ولكن هذه بنات الله يعني الأصنام ثم قال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك إلخ وفيه نزل: ﴿سَأَلْنَا سَأَلُوكَ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾^(٢) ومعناه إن كان القرآن حقاً منزلاً فامطر الحجارة علينا عقوبة على إنكاره أو أتتنا بعذاب أليم سواه.

والمراد منه التهكم وإظهار اليقين على كونه، باطلاً، قال: عطاء لقد نزل في النضر بضعة عشر آية فحاق به ما سأل من العذاب يوم بدر قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ

(١) سورة الشمس، الآية: ١٤.

(٢) سورة المعارج، الآية: ١.

لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴿ اختلّفوا في معنى هذه الآية فقال: محمد بن إسحاق: هذا حكاية عن المشركين أنهم قالوها وهي متصلة بالآية الأولى، ذلك أنهم كانوا يقولون إن الله لا يعذبنا ونحن نستغفر ولا يعذب أمه نبياً معها فقال: الله تعالى لنبية ﷺ يذكر جهالتهم وغرتهم واستفتاحهم على أنفسهم، ثم قال: ردأ عليهم ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمْ﴾ الله ﴿ وإن كنت بين أظهرهم وإن كانوا يستغفرون ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمْ اللَّهُ﴾ .

وقال الآخرون هذا كلام مستأنف، روى البخاري عن أنس قال: قال: أبو جهل بن هشام: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو إتنا بعذاب أليم فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾^(١) إخباراً عن نفسه فاختلفوا في تأويلها؟ فقال: الضحاك وجماعة وكذا أخرج ابن جرير عن ابن أبيزى تأويلها وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم مقيم بين أظهرهم بيان لموجب إمهالهم والتوقف لإجابته دعائهم واللام لتأكيد النفي والدلالة على أن تعذيبهم عذاب استئصال والنبى بين أظهرهم خارج عن عادة الله تعالى غير مستقيم في قضائه خصوصاً حال كونك فيهم وقد بعثت رحمة للعالمين وفيه إشعار بأنهم يرصدون بالعذاب إذا هاجرت من بينهم، قالوا: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ وهو مقيم بمكة ثم خرج من بين أظهرهم وبقيت بها بقية من المسلمين يستغفرون الله فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يعني فيهم من يستغفرون وهم المسلمون ثم خرج أولئك من بينهم فعذبوا وأذن الله في فتح مكة، وهو العذاب الأليم الذي وعدهم، ويدل على أن كون المؤمنين بينهم واستغفارهم منعهم من العذاب قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمَّ تَعَلَّمُوهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(٢).

قال ابن عباس: لم يعذب الله قرية حتى يخرج النبي منها والذين آمنوا ويلحق بحيث يؤمر فقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ يعني المسلمين فلما خرجوا قال: الله تعالى ما لهم أن لا يعذبهم الله أي ما لهم مما يمنع إذا زال ذلك وكيف لا يعذبون وهم يصدون الناس عن المسجد الحرام وحالهم

(١) أخرجه البخاري في كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو إتنا بعذاب أليم﴾ (٤٦٤٨).

(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٥.

ذلك، ومن صدهم إلقاء رسول الله ﷺ إلى الهجرة فعذبهم الله يوم بدر، قال: أبو موسى الأشعري كان فيكم أمانان وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون فأما النبي ﷺ فقد مضى والاستغفار كائن فيكم إلى القيامة، وأخرج الترمذي وضعفه عن أبي موسى قال: رسول الله ﷺ: «أنزل الله عليّ أمانين لأمتي وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة»^(١) وقال بعضهم هذا الاستغفار راجع إلى المشركين. أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون غفرانك غفرانك فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ الآية، وأخرج ابن جرير عن يزيد بن رومان قالت قريش بعضها لبعض: محمد أكرم الله من بيننا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء فلما أمسوا ندموا على ما قالوا: فقالوا غفرانك اللهم فقال: الله سبحانه ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقال قتادة والسدي: معنى ما كان الله معذبهم وهم يستغفرون أن لو استغفروا لم يعذبهم الله لكنهم لم يستغفروا ولو أقروا بالذنب واستغفروا لكانوا مؤمنين نظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾^(٢) وقيل: معنى الآية أن الله تعالى يدعوهم إلى الإسلام ومصاحبة الرسول والاستغفار بهذا الكلام كالرجل يقول لغيره لا أعاتبك وأنت تطيعني أي أطعني حتى لا أعاتبك، وقال مجاهد وعكرمة وهم يستغفرون أي يسلمون يقول لو أسلموا ما عذبوا.

وروى الوالبي عن ابن عباس أن معناه وفيهم من سبق له من الله أنه يؤمن ويستغفر وذلك مثل أبي سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو وحكيم بن حزام وغيرهم.

وروى عبد الوهاب عن مجاهد وهم يستغفرون يعني وفي أصلابهم من يستغفر وقيل: أراد بالعذاب في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ عذاب استئصال وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَلَّا يَعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ العذاب بالسيف، وقيل: أراد بنفي العذاب عذاب استئصال في الدنيا وبوقوع العذاب عذاب الآخرة ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَ﴾ قال: الحسن كان المشركون يقولون: نحن أولياء المسجد الحرام فنصد من نشاء وندخل من نشاء فرد

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأنفال (٣٠٨٢).

(٢) سورة هود، الآية: ١١٧.

الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُمْ﴾ أي أولياء البيت ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُمْ﴾ أي: البيت ﴿إِلَّا الْمُنْفُونَ﴾ من الشرك الذين لا يعبدون فيه غير الله وقيل: الضمير لله تعالى ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه لا ولاية لهم عليه كأنه نبه بالأكثر أن منهم من يعلم ذلك ويعاند أو أراد بالأكثر الكل كما يراد بالقللة العدم ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ﴾ أي دعائهم وما يسمونه صلاة ﴿إِلَّا مَكَاةً﴾.

قال ابن عباس والحسن المكاء الصغير وهي في اللغة اسم طائر أبيض بالحجاز له صغير كأنه قال: الأصوات مكاء ﴿وَتَصَدِيَةٌ﴾ وتصفيفاً، قال: البغوي: قال: ابن عباس كانت قريش تطوف بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون وكذا أخرج الواحدي عن ابن عمر، قال: البغوي: قال: مجاهد: كان نفر من بني عبد الدار يعارضون النبي ﷺ في الطواف ويستهلون ويدخلون أصابعهم في أفواههم ويصفرون فالمكاء جعل الأصابع في الشدق والتصديّة الصغير ومنه الصداء الذي يسمعه المصوت من الجبل.

وفي اللغة الصداء صوت يرجع من كل جانب، وأخرج ابن جرير عن سعيد قال: كانت قريش يعارضون النبي ﷺ في الطواف يستهلون به يصفرون ويصفقون فنزلت هذه الآية، وقال البغوي قال: جعفر بن أبي ربيعة سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن قوله تعالى: ﴿مَكَاةً وَتَصَدِيَةً﴾ فجمع كفيه ثم نفخ فيهما صغيراً، وقال مقاتل كان النبي ﷺ إذا صلى في المسجد قام رجلان عن يمينه فيصفران ورجلان عن يساره فيصفقان ليخلطوا على النبي ﷺ صلواته وهم من بني عبد الدار، وقال سعيد بن جبير: التصديّة صدهم المؤمنين عن المسجد الحرام وعن الدين وعن الصلاة فالتصديّة مشتق من الصد بالدالين قلبت حرف التضعيف بالياء، وعلى هذه الوجوه معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ﴾ ما وضعوه موضع الصلاة فإنهم أمروا بالصلاة في المسجد فجعلوا ذلك مكانه ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ يعني القتل يوم بدر وقيل: عذاب الآخرة واللام يحتمل للعهد والمعهود العذاب المطلوب بقولهم: ﴿أَتَيْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ اعتقاداً وعملاً وهذه الآية متصلة بما قبلها لتقرير استحقاقهم العذاب وعدم ولايتهم للمسجد فإنها لا يليق بمن هذه صفة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُفْقَرُنَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ لِيَمِزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكَبُكُمْ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ

أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ
 يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٨﴾ وَقَلِيلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ
 الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ فَإِنَّ آتَهُمْ فَأَيُّ الْفِتْنَةِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ
 اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ يَغْفِرُ الْمُؤْمِنِينَ وَيُغْفِرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٠﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا﴾ أي ليصرفوا الناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني
 عن دين الله، قال: البغوي: قال: الكلبي: نزلت في المطعمين يوم بدر وكانوا اثنا عشر
 رجلاً أبو جهل بن هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد الشمس ونيبه ومنبه ابنا الحجاج وأبو
 البختري بن هشام والنضر بن الحارث وحكيم بن حزام وأبي بن خلف وزمعة بن الأسود
 والحارث بن عامر بن نوفل والعباس بن عبد المطلب وكلهم من قريش وكان يطعم كل واحد
 منهم كل يوم عشر جزور، وقال ابن إسحاق حدثني الزهري ومحمد بن يحيى بن حبان
 وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين بن عبد الرحمن قالوا: لما أصيبت قريش يوم بدر
 ورجعوا إلى مكة مشى عبد الله بن أبي وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من
 قريش أصيب آبائهم وأبنائهم فكلموا أبا سفيان ومن كانت له في ذلك العير من قريش تجارة
 فقالوا يا معشر قريش إن محمداً قد وترككم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربته فلعلنا
 أن ندرك منه ثأراً ففعلوا فففيهم كما ذكر ابن عباس أنزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ
 أَمْوَالَهُمْ﴾ إلى قوله ﴿يُحْشَرُونَ﴾ وأخرج ابن أبي حاتم عن الحكم بن عتبة قال: نزلت في أبي
 سفيان أنفق على المشركين أربعين أوقية من ذهب، وأخرج ابن جرير عن أبي سفيان وسعيد ابن
 جبيرة قالوا: نزلت في أبي سفيان استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش ليقاتل بهم
 رسول الله ﷺ عليهم، قلت: واللفظ عام يشتمل كلهم ومن فعل فعلهم ﴿نَسَبْنَاهُمْ لِمَا كَانُوا
 عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾، ندماً وغمماً في الدنيا لفواتها من غير حصول مقصود جعل وإنها حسرة
 وهي عاقبة إنفاقها مبالغة ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ آخر الأمر والكان الحرب سجلاً قبل ذلك
 ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ثبتوا على الكفر منهم إذا أسلم بعضهم ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ يساقون
 ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ الكافر من المؤمن أو الفساد من الصلاح.

واللام متعلقة بيحشرون أو يغلبون أو ما أنفقه المشركون من عداوة الرسول ﷺ مما
 أنفقه المسلمون في نصرة واللام متعلقة بقوله ثم تكون عليهم حسرة، قرأ حمزة والكسائي
 ويعقوب ليميز بالتشديد من التفعيل وهو أبلغ من الميز ﴿وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ
 فَيَرْكَبُكُمْ﴾ أي يجمعه ويضم بعضه إلى بعض ومنه السحاب المركوم ﴿جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي

﴿جَهَنَّمَ﴾ كله ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الخبيث لأنه مقدر بالفريق الخبيث أو إلى المنافقين ﴿هُمْ﴾
 ﴿الْخَيْرُونَ﴾ الكاملون في الخسران حيث اشتروا بأموالهم عذاب الآخرة ﴿قُلْ لِلَّذِينَ
 كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا﴾ عن الكفر ومعاداة الرسول وقاتله ﴿يُغْفَرَ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ من الكفر
 والفساد والذنوب وقد أسلم جماعة كثيرة منهم أبو سفيان بن حرب وصفوان بن أمية
 وعكرمة بن أبي جهل وعمرو بن العاص وغيرهم خلق كثير، وأسلم من أسارى بدر
 عباس بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب ونوفل بن حارث وأبو العاص بن الربيع وأبو
 عزيز عمير العبدي والصائب بن أبي حبيش وخالد بن هشام المخزومي وعبد الله بن أبي
 السائب والمطلب بن وأبو وداعة السهمي وعبد الله بن أبي خلف ووهب بن عمير الجمحي
 وسهيل بن عمر العامري وعبد الله بن زمعة أخو أم المؤمنين سودة وقيس بن السائب مولى
 أمية بن خلف والسائب بن عبيد أسلم يوم بدر بعد أن فدى نفسه وعدي بن خيار أسلم يوم
 الفتح والوليد بن الوليد بن المغيرة أفتكه هشام وخالد فلما افتدى أسلم فعاتبوه في ذلك
 فقال: كرهت أن يظن بي أنني جزعت من الأسر ولما أسلم حبسه أخواله فكان عليه
 السلام يدعو له في القنوت ثم أفلت ولحق بالنبي ﷺ عام القضاء.

روى مسلم عن عمرو بن العاص قال: أتيت النبي ﷺ فقلت ابسط يمينك فلأباعدك
 فبسط يمينه فقبضت يدي فقال: مالك يا عمر؟ قال: أردت أن اشترط، قال: تشترط ماذا؟
 قلت: أن يغفر لي، قال: «أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة
 تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله»^(١) ﴿وَإِنْ يَوَدُّوا﴾ إلى قتاله ﴿فَقَدْ مَضَّتْ
 سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ الذين تحادوا الأنبياء بالتدمير كما جرى على أهل بدر فليتوقعوا مثل
 ذلك ﴿وَقَتْلُهُمْ﴾ يعني الكفار أيها المؤمنون ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ أي: فساد في الأرض
 يعني حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴿وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَكُمْ
 لِيْسَ الْمِرَادُ بِالذِّينِ هَا هُنَا مِلَّةَ الْإِسْلَامِ وَمَا يَتَعَبَّدُ اللَّهُ بِهِ وَإِلَّا يَلْزِمُ التَّعَارُضَ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ
 وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾^(٢) بل المراد منه القهر والغلبة والاستلاء والسلطان
 والملك والحكم ذكر تلك المعاني للدين في القاموس . . .

عن المقداد بن أسود أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى على ظهر الأرض بيت
 مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعز عزيز أو ذل ذليل، / إما يعزهم الله فيجعلهم

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج (١٢١).

(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٩.

أهلها أو يذلهم فيدينون لها فيكون الدين كله لله»^(١) رواه أحمد، ومعنى قوله عليه السلام: فيدينون لها أي يطيعون لأحكامها ويكونون من أهل الذمة ﴿فَإِنْ أَنْتَهُوا﴾ عن الكفر وأسلموا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيهم على حسب أعمالهم.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال: رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصم مني دماهم وأموالهم إلا بحق الإسلام و حسابهم على الله تعالى»^(٢) متفق عليه، إلا أن مسلماً لم يذكر «إلا بحق الإسلام».

ورواه أصحاب الكتب الستة عن أبي هريرة قال: السيوطي حديث متواتر، والمعنى انتهوا عن القتال إما بالإسلام أو بإعطاء الجزية فإن الله بما يعملون بصير يعني لا تقاتلوهم أنتم لكن الله يجازيهم على إسلامهم وكفرهم وأعمالهم الحسنة والسيئة، وعن يعقوب أنه قرأ تعملون بالتاء على الخطاب للمؤمنين يعني اعملوا بهم ما تعاملون بالمؤمنين ولا تظلموهم فإن الله يجازيكم على حسب أعمالكم، عن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ عن آبائهم عن رسول الله ﷺ قال: «ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة»^(٣) رواه أبو داود، هذا التأويل لقراءة يعقوب يصح على كلا التقديرين سواء كان المراد بالانتهاء الانتهاء عن الكفر بالإسلام أو الانتهاء عن القتال بأحد الأمرين إما بالإسلام أو بإعطائه الجزية، وقال البيضاوي: تأويل قراءة يعقوب أن الله بما تعملون أيها المؤمنون من الجهاد والدعوة إلى الإسلام والإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان بصير يجازيكم ويكون تعليقه بالانتهاء دلالة على أنه كما استدعي إثابتهم للمباشرة يستدعي إثابة مقاتليهم بالتسبيب، وهذا التأويل يختص بما إذا كان الانتهاء بمعنى الانتهاء من الكفر ومع ذلك بعيد جداً فإن قوله بما تعامون يعم الحسنة والسيئة والله أعلم.

(١) رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح، أنظر مجمع الزوائد في كتاب: المغازي والسير، باب: علو الإسلام على كل دين خالفه وظهوره عليه (٩٨٠٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان باب: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ (٢٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله (٢٢).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الخراج والفيء والإمارة، باب: في تفسير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارة (٣٠٥٠)، قال عبد الحق: في إسناده اختلاف ولا أعلمه من طريق يحتج به.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الإسلام ولم ينتهوا عن الكفر أو تولوا عن الانقياد ولم ينتهوا عن القتال ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانِكُمْ﴾ ناصركم فثقوا به وقاتلوا الكفرة ولا تبالوا بمعاداتهم متكاثرين ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى﴾ الله لا يضيع من تولاه ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ هو لا يغلب من نصره.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافْتُمْ فِي الْمِيْعَدِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيْنِهِ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيْنِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرْنَكُهُمْ كَثِيرًا لَفَسِلْتُمْ وَلَنَنْزَعُنَّ فِي الْأَمْرِ وَالْكِنَازِ اللَّهُ سَلَمٌ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَاقُتِ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي آعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَىٰ اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

ما بمعنى الذي..... وغنمتم صلته والعائد محذوف يعني الذي غنمتموه ولا يجوز أن يكتب ما موصولاً لأنه يكون حينئذ كافة والغنيمة مال حربي أخذ قهراً وغلبة، ومن ههنا قال: أبو حنيفة إذا دخل واحد أو اثنان في دار الحرب بغير إذن الإمام وأخذوا من مال أهل الحرب شيئاً لا يجب فيه الخمس وإن دخل أربعة يجب الخمس فيما أخذوا، وفي المحيط عن أبي يوسف أنه قدر الجماعة التي لا منعة لها بسبعة والتي لها منعة بعشرة.

ومذهب الشافعي ومالك وأكثر أهل العلم أنه يخمس ما أخذه واحد تلمصاً لأنه مال حربي أخذ قهراً فكان غنيمة فيخمس بالنص، وقال أبو حنيفة وأحمد في رواية عنه إنه ليس بغنيمة لأنه لم يؤخذ قهراً بل اختلاساً وسرقة والمتلصص إنما يأخذ بحيلة فكان اكتساباً مباحاً من المباحات كالاختطاب والاصطياد، ومحل الخمس الغنيمة بخلاف ما لو دخل واحد أو ثنان بإذن الإمام فإنه غنيمة اتفاقاً لأن على الإمام أن ينصره حيث أذن له، كما أن على الإمام أن ينصر الجماعة الذين لهم منعة كالأربعة أو العشرة وإن دخلوا بغير إذنه تحامياً عن توهين المسلمين والدين فلم يكونوا مع نصرة الإمام متلصصين والله أعلم.

﴿بَيْنَ شَيْئَيْنِ﴾ بيان لما الغرض به التعميم يعني عليه اسم الشيء حتى الخيط

والمخيط، عن عبادة بن الصامت أن النبي ﷺ كان يقول: «أدوا الخياط والمخيط وإياكم والغلول فإنه عار على أهله يوم القيامة» رواه الدارمي، ورواه الشافعي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وفي رواية لأبي داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده نحوه وفيه فقام رجل في يده كبة من شعر فقال: أخذت هذه لأصلح بها بردعة فقال: النبي ﷺ: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فلك»^(١) ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ دخلت الفاء لما في ما من معنى المجازاة وما بعده في محل الرفع مبتدأ محذوف الخبر يعني فحق أن لله خمسه أو خبر مبتدأ محذوف يعني فالحكم أن لله خمسه أبقى الله سبحانه خمس الغنائم على ملكه ولم يجعلها في ملك الغانمين، ولذا قالت الحنفية أن خمس الغنيمة حق قائم بنفسه ليس واجباً في ذمة الغانمين كالزكاة فإنها وجبت في ذمة المكلفين حيث أمروا بإتيانها ولذلك صار الزكاة من أوساخ الناس ولم يحل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لشرافته وحل له الخمس، ثم بين الله سبحانه حيث يصرف خالص حقه تعالى فقال: ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ يعني أقارب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واختلفوا فيهم؟ فقال: قوم هم جميع قريش وقال مجاهد وعلي بن الحسين هم بنو هاشم وقال الشافعي هم بنو هاشم وبنو المطلب ابني عبد مناف وليس لبني عبد الشمس وبني نوفل منه شيء مع أنهم كانوا ابني عبد مناف أيضاً.

روى الشافعي عن الثقة عن ابن أبي شهاب عن ابن المسيب عن جبير بن مطعم قال: قسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سهم ذوي القربى بين بني هاشم وبني المطلب ولم يعط أحداً من بني عبد الشمس ولا بني نوفل شيئاً، وكذا روى البخاري عنه في «صحيحه»، وفي رواية للشافعي عنه قال: لما قسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذوي القربى بين بني هاشم وبني المطلب أتيتنا أنا وعثمان بن عفان فقلنا: يا رسول الله هؤلاء إخواننا من بني هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي وضعك الله فيهم أرأيت إخواننا من بني المطلب أعطيتهم وتركتنا أو منعتنا وإنما قرابتنا وقرابتهم واحدة؟ فقال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد. هكذا»، وشبك بين أصابعه^(٢).

(١) أخرجه النسائي في كتاب: الهبة، باب: هبة المشاع (٣٦٨١).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الخراج والفيء والإمارة، باب: في بيان مواضع قسم الخمس وسهم ذي القربى (٢٩٧٦)، وأخرجه النسائي في كتاب: قسم الفيء (٤١٣٥).

وكذا روى أبو داود والنسائي، قال: البرقاني: وهو على شرط مسلم، وفي هذا الحديث إشارة إلى شأن الصحيفة القاطعة التي كتبها قريش على أن لا تجالسوا بني هاشم ولا تبايعوهم ولا تناكحوهم وبقوا على ذلك سنة ولم يدخل في بيعتهم بنو المطلب بل خرجوا مع بني هاشم إلى شعب أبي طالب كذا في السنن والمغازي، وروى البيهقي في السنن والدلائل، قال: الخطابي وكان يحيى بن معين يرويه إنما بنو هاشم وبنو المطلب سبي واحد بالسين المهملة والياء المشددة أي مثل وسواهم يقال سيان أي مثلان، قلت: هذا الحديث يدل على أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ألحق بني المطلب ببني هاشم وعدهم منهم لكمال موافقتهم ومؤازرتهم في الجاهلية والإسلام لا لكونهم من بني عبد مناف وإلا فبني عبد الشمس وبني نوفل كانوا مثلهم في ذلك، وما قال: صاحب الهداية أن هذا الحديث يدل على أن المراد قرب النصره لا قرب القرابة فليس بشيء لأنه لو كان المراد قرب النصره لكان عثمان بن عفان أولى به من العباس فإن عثمان أسلم في بداية الإسلام وعباس بعد قتال بدر بل لزم أن يكون غير قرياء النبي من المهاجرين والأنصار مستحقين لذلك السهم ﴿وَأَلْيَتَى﴾ جمع يتيم وهم صغير لا أب له وفي القاموس اليتيم فقدان الأب وإنما قيدنا بكونه صغيراً لما رواه أبو داود وعن علي في حديث: «لا يتم بعد الاحتلام»^(١) وقد أعله العقيلي وعبد الحق وابن القطان والمنذري وغيرهم وحسنه النووي، ورواه الطبراني بسند آخر عن علي ورواه أبو داود الطيالسي في مسنده، وفي الباب حديث طلحة بن حذيفة عن جده وإسناده لا بأس به وهو في الطبراني الكبير وغيره وعن جابر رواه ابن عدي في ترجمة حزام بن عثمان وهو متروك وعن أنس ﴿وَالسَّكِينِ﴾ جمع مسكين وسنذكر تحقيقه في مصارف الصدقات في سورة التوبة ﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾: المسافر البعيد عن منزله نسب إلى السبيل لممارسته إياه أجمع الأئمة على أن هذه الأصناف الثلاثة يستحقون لفقرهم وحاجتهم فلا يعطى للأغنياء من اليتامى وأبناء السبيل، وكذا قال: بعض الناس في ذوي القربى أنهم يستحقون لفقرهم وحاجتهم وهذا القول مردود لأن لفظ ذوي القربى لا يشعر بالفقر أصلاً بخلاف لفظ اليتيم وابن السبيل، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعطي العباس وكان كثير المال، وأجمع الأئمة واتفقت الرواة على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقسم الغنيمة على خمسة أسهم أربعة أخماسه للغانمين ويجعل الخمس على خمسة أسهم فيجعل سهماً لنفسه فينفق منه

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الوصايا، باب: ما جاء متى ينقطع اليتيم (٢٨٧٠).

على نفسه وأهله ويعطي منه أهله نفقة سنة وما فضل جعله في السلاح و الكراع عدة في سبيل الله وفي مصالح المسلمين، وسهماً يقسهما في بني هاشم وبني مطلب يعطي منها الغني والفقير والذكر والأنثى منهم وثلاثة أسهم يقسمها في اليتامى والمساكين وأبناء السبيل، فليُنظر هل كان هؤلاء الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه من الأصناف الخمسة هل كان كل واحد منهم مستحقاً لحصته منها لا يجوز منعه عنه ولا صرفه إلى غيره أو كان الأصناف المذكورة مصرفاً لها جاز للإمام أن يصرفها إلى صنف واحد منها أو إلى شخص واحد منه ولا يجوز له التجاوز عنها إلى غيرها، وبالشق الثاني قال: أبو حنيفة، قال: ابن همام إنه ذكر في التحفة أن هذه الثلاثة يعني اليتامى والمساكين وابن السبيل مصارف الخمس عندنا لا على سبيل الاستحقاق حتى لو صرف إلى صنف واحد منها جاز.

وقال الشافعي وجماعة من السلف والخلف بالشق الأول قالوا: لا يجوز للإمام أن يصرفها إلى صنف أو صنفين بل يجب صرفها إلى جميعها، فإن كان كل صنف منها جماعة محصورين لا يجوز منع واحد منها وسوى بينهم بالقسمة كما يقسم الأسهم الأربعة بين الغانمين لا يجوز منع واحد منهم إجماعاً، وألحق الشافعي سهم ذوي القربى بالميراث الذي يستحق باسم القرابة غير أنهم يعطون القريب والبعيد فقال: يفضل الذكر على الأنثى فيعطي للذكر سهمين والأنثى سهماً وإن كانوا غير محصورين لا يمكن استيعابهم لا بد عنده أن يعطي من كل صنف ثلاثة لأن الله تعالى ذكر لام الاختصاص وذلك يقتضي الملك أو استحقاق الملك وذكر كل صنف بلفظ الجمع وأقله ثلاثة، وقال أبو حنيفة ومن معه اللام لمطلق الاختصاص ومن الاختصاص أن لا يجوز الصرف إلى غير تلك الأصناف واللام ليس للاستفراق بل للجنس ولام الجنس يبطل الجمعية، والحجة لهذا القول أن الأصناف المذكورة متداخله بعضها في بعض فإن من ذوي القربى اليتامى والمساكين وابن السبيل ومن اليتامى ذوو القربى والمساكين وابن السبيل ومن المساكين ذوو القربى واليتامى وأبناء السبيل ولو كان كل صنف منها مختص بسهم، ولا يجوز صرفها إلى صنف آخر لزم ذكر كل صنف منها بحيث لا يصدق عليه عنوان صنف آخر، وأيضاً إذا كان شخص واحد داخلاً في الأصناف كلها لزم حينئذ أن يعطي له لأجل كل وصف سهماً كما يعطي من الميراث للزوج إذا كان ابن عم لها لأجل الحثيتين سهمين مختلفين فرضاً وعصوبة.

ومن المنقول ما في الصحيحين عن علي رضي الله عنه: «أن فاطمة رضي الله عنها أتت النبي صلى الله عليه وآله وسلم تشكو إليه ما تلقى في يدها من الرحي وبلغها أن جاءه

رقيق فلم تصادفه فذكرت ذلك لعائشة فلما جاء أخبرته عائشة، قال: فجاءنا وقد أخذنا مضاجعنا فذهبنا نقوم فقال: مكانكما فقعد بيني وبينها حتى وجدت برد قدمه على بطني فقال: «ألا أدلكما على خير ما سألتما؟ إذا أخذتما مضاجعكما فسبحا ثلاثاً وثلاثين واحمداً ثلاثاً وثلاثين وكبراً أربعاً وثلاثين فهو خير لكما من خادم»^(١) وفي رواية لمسلم: «ألا أدلك على ما هو خير من خادم تسبحين الله ثلاثاً وثلاثين وتحمدين ثلاثاً وثلاثين وتكبرين أربعاً وثلاثين عند كل صلاة وعند منامك».

وروى الطحاوي عن عليّ بلفظ أنه قال: لفاطمة رضي الله عنهما ذات يوم قد جاء الله أباك بسعة ورقيق فأتيه فاستخدميه فأتته فذكرت ذلك، فقال: «والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة ليطوون بطونهم ولا أجد ما أنفق عليهم ولكن أبيعها وأنفق عليهم ألا أدلكما على خير مما سألتما علمنيه جبرئيل كبراً الله دبر كل صلاة عشرأً وسبحاً عشرأً واحمداً عشرأً وإذا أتيتما إلى فراشكما».

وزوى الطحاوي عن الفضل بن حسن بن عمر بن الحكم أن أمه حدثته أنها ذهبت هي وأمها حتى دخلن على فاطمة فخرجن جميعاً فأتين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد أقبل من بعض غزواته ومعه رقيق فسألته أن يخدمهن فقال: «سبقكن يتامى أهل بدر» فإن هذه الأحاديث تدل على أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان قد يعطي بعض الأصناف ولا يعطي بعضاً آخر وإلا لما منع فاطمة عن حقها وقد كان لها حظ من الخمس ولما صرف حق فاطمة إلى فقراء أهل الصفة ويتامى أهل بدر فإن سهم ذوي القربى لا يجوز صرفها عند الشافعي إلى الفقراء واليتامى بل لكل من الصنفين عنده سهم من الخمس غير سهم ذوي القربى، ويؤيد ما قلت ما روى أبو يوسف في كتاب الخراج قال: حدثني أشعث بن سوار عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله أنه كان يحمل من الخمس في سبيل الله ويعطي منه نائبة القوم فلما كثر المال جعل في اليتامى والمساكين وابن السبيل، قلت: عندي معنى الآية أن لله خمسة يعني ملكاً حيث أبقاه سبحانه على ملك نفسه ولم يعطه أحداً غيره وأمر رسوله صرفه كما أمر وللرسول ذلك الخمس استحقاقاً وتصرف على نفسه وفي ما صرفه كيف يشاء ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل مصرفاً ولذلك ذكر الصنفين الأخيرين عطفاً على ذي القربى بلا لام وذكر

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الدعوات، باب: التكبير والتسبيح عند المنام (٦٣١٨) وأخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: التسبيح أول النهار وعند النوم (٢٧٢٧).

الأصناف الأربعة بلام واحد لكون كلها من جنس واحد مختصاً باختصاص المصرفية ولم يعطفها على الرسول كما عطف الآخريين وأورد اللام على الرسول ولم يعطف على الله لكون كل اختصاص منها نوعاً على حدة فالاختصاص بالله اختصاص الملك وليس بالرسول اختصاص الملك.

لما روي أنه صلى الله عليه وآله وسلم: أخذ وبرة من جنب البعير ثم قال: «لا يحل لي من غنائمكم مثل هذا إلا الخمس والخمس مردود فيكم»^(١) رواه أبو داود، ومن حديث عمرو بن عبسة وكذا من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بلفظ: «ليس لي من هذا الفيء شيء» ولا هذا يعني وبر البعير إلا الخمس والخمس مردود فيكم ولم يقل إلا خمس الخمس فاللام في الأنواع الثلاثة من الاختصاصات المذكورة كالمشترك أو كالحقيقة والمجاز ولا يجوز الجمع بين المشترك ولا بين الحقيقة والمجاز فلذلك أورد اللام ثلاث مرات والله أعلم.

مسألة

اختلف العلماء في سهم الرسول ﷺ بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم؟ فقال: الشافعي هو اليوم لمصالح المسلمين وما فيه قوة الإسلام لأنه ﷺ كان يجعل ما بقي من نفقة في السلاح والكراع، قال: البغوي: روى الأعمش عن إبراهيم قال: كان أبو بكر وعمر يجعلان سهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الكراع والسلاح.

وقال قتادة هو لخليفته بعده لأنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يستحقه بإمامته، وقال أبو حنيفة أن سهم الرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سقط بموته ولم يكن سهم لإمامته بل رسالته فإن الحكم إذا علق بمشتق دل على عليه مأخذه ولا رسول بعده وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حق الصفي، اصطفى ذو الفقار سيف منبه بن حجاج حين أتى به على يوم بدر بعد أن قتل منبهاً ثم دفعه إليه، واصطفى صفية بنت حي بن أخطب من غنيمة خبير رواه أبو داود في سننه عن عائشة والحاكم وصححه، وقد أجمعوا أن سهم الصفي ليس لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأن حكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك خلاف حكم الإمام من بعده فكذا أسهمه من الغنيمة لا يكون لأحد بعده.

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في فداء الأسير بالمال (٢٦٩٢).

مسألة

واختلفوا في سهم ذوي القربى بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ ذكر الحنفية لسقوطه وجوهاً، قال: صاحب الهداية لأن النبي ﷺ كان يعطيهم النصره لما مر من حديث جبير بن مطعم أنه صلى الله عليه وآله وسلم أعطى بني المطلب ولم يعطي بني نوفل وبني عبد الشمس، وقال: «إنهم يعني بني المطلب لم يزالوا هكذا في الجاهلية والإسلام» وشبك بين أصابعه، وبهذا يظهر أن المراد بالنص قرب النصره لا قرب القرابة ولما مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يبق النصره وهذا التوجيه ضعيف وقد ذكرنا تضعيفه من قبل، وقال الطحاوي: وجه سقوطه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما أعطى ذلك السهم بعض القرابة يعني بني المطلب وحرم من قرابتهم منه صلى الله عليه وآله وسلم كقرابتهم، يعني بني نوفل وبني عبد شمس ثبت بذلك أن الله عز وجل لم يرد بما جعل لذوي القربى كل قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإنما أراد خاصاً منهم وجعل الرأي في ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يضعه فيمن شاء منهم فإذا مات وانقطع رأيه انقطع ما جعل لهم من ذلك كما قد جعل الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يصطفي من المغنم لنفسه سهماً أي سهم الصفي فكان ذلك ما كان حياً يختار لنفسه من المغنم ما شاء فلما مات انقطع ذلك.

وقال الطحاوي مرة أخرى كان الله عز وجل قد جعل كل قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله ولذي القربى فلم يخص أحداً منهم دون أحد ثم قسم ذلك رسول الله ﷺ فأعطى منهم بني هاشم وبني مطلب خاصة وحرم بني أمية وبني نوفل، وكانوا محصورين معدودين وفيمن أعطى الغني والفقير وفيمن حرم كذلك فثبت أن ذلك السهم كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يجعله في أي قرابته شاء فصار حكمه حكم سهمه والذي كان يصطفيه لنفسه فلما كان ذلك مرتفعاً بوفاته غير واجب لأحد بعده كان هذا كذلك أيضاً مرتفعاً بوفاته غير واجب لأحد من بعده.

قال: وهو قول أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد، قلت: وهذين التوجيهين أيضاً ضعيفان لما ذكرنا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنما أعطى بني مطلب لما جعلهم تبعاً لبني هاشم وعدمهم منهم لمؤازرتهم وموانستهم معهم كما حرم الصدقة على موالي بني هاشم تبعاً لهم لا لكونهم من بني عبد مناف قوله حرم من قرابتهم منه صلى الله عليه وآله وسلم كقرابتهم ممنوع فإن بني هاشم كانوا أقرب من غيرهم ولو نسلهم أن الله سبحانه ذكر ذوي القربى وأراد بعضها منهم لا كلهم ولم يدر منهم فحينئذ كان مجملاً فإذا ألحقه البيان

من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث أعطى بني هاشم وبني المطلب دون بني أمية وبني نوفل زال الإجمال والإجمال لا يقتضي البيان كل مرة، ولو نسلم الله تعالى جعل الرأي في ذلك إلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فقله إذا مات انقطع رأيه ممنوع إذ بعد موته الرأي لخلفائه كما في سهم المساكين واليتامى وأبناء السبيل في المغانم والصدقات كان تخصيص بعض دون بعض إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم صار لخلفائه وأيضاً كون تخصيص بعض دون بعض من ذوي القربى إلى رسول صلى الله عليه وآله وسلم لا يقتضي كون ذلك السهم له صلى الله عليه وآله وسلم فإن تخصيص بعض من المساكين واليتامى وأبناء السبيل أيضاً كان إليه صلى الله عليه وآله وسلم ولم يكن ذلك الأسهم له صلى الله عليه وآله وسلم إجماعاً ولم يسقط شيء منها بموته فكذا هذا والله أعلم.

ثم استدل كلا الفريقين بعمل الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، قال: صاحب الهداية لنا أن الخلفاء الراشدين قسموه على ثلاثة أسهم على نحو ما قلنا وكفى بهم قدوة، وقال أيضاً إنه لم ينكر عليهم أحد مع توافر الصحابة مع علمهم فكان إجماعاً، وقال البغوي: الخلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانوا يعطون ذوي القربى ولا يفضل فقير على غني لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كانوا يعطون بعده كانوا يعطون العباس بن عبد المطلب مع كثرة ماله، فلا بد من الكلام في عمل الخلفاء فنقول: قال أبو يوسف في كتاب «الخراج» أن الكلبي محمد بن السائب حدثني عن أبي صالح عن ابن عباس أن الخمس كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على خمسة أسهم لله وللرسول سهم ولذوي القربى سهم ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم، ثم قسمه أبو بكر الصديق وعمر الفاروق وعثمان ذي النورين رضي الله عنهم على ثلاثة أسهم وسقط سهم الرسول وسهم ذوي القربى وقسمه الثلاثة على الباقيين ثم قسمه علي بن أبي طالب على ما قسمه عليه أبو بكر وعمر وعثمان.

وقال أبو يوسف وحدثني محمد بن إسحاق عن الزهري أن كتب إلى ابن عباس يسأله عن سهم ذوي القربى لمن هو؟ فكتب إليه ابن عباس رضي الله عنه كتبت إلي تسألني عن سهم ذوي القربى لمن هو؟ وهو لنا وإن عمر بن الخطاب دعانا إلى أن ينكح منه أيما ويقضي عنه عن مفرنا ويخدم منه عائلنا فأبينا إلا أن يسلم لنا فأبى ذلك علينا. وقال أبو يوسف: وحدثنا قيس بن مسلم عن الحسن بن محمد بن الحنفية قال: اختلف الناس بعد وفاة رسول الله ﷺ في هذين السهمين سهم الرسول وسهم ذوي القربى فقال: قوم: سهم الرسول للخليفة من بعده.

وقال آخرون: سهم ذوي القربى بقراءة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقالت طائفة: سهم ذي القربى لقراءة الخليفة بعده فأجمعوا على أن يجعلوا هذين السهمين في الكراع والسلاح وروى الطحاوي بسنده عن قيس بن مسلم عن الحسن بن محمد بن الحنيفة نحوه وزاد دكان ذلك في أمانة أبي بكر وعمر.

وروى الطحاوي حدثنا محمد بن خزيمة قال: حدثنا: يوسف بن عدي قال: حدثنا عبد الله بن المبارك عن محمد بن إسحاق قال: سألت أبا جعفر قال: رأيت علي بن أبي طالب حيث ولي العراق ما ولي من أمر الناس كيف صنع في سهم ذوي القربى؟ قال: سلك به والله سبيل أبي بكر وعمر، قلت: كيف وأنتم تقولون ما تقولون؟ قال: إنه والله ما كان أهله يصدرون إلا عن رأيه قلت: فما منعه؟ قال: كره والله أن يدعى عليه خلاف أبي بكر وعمر.

قلت: وهذه الآثار لو ثبتت لثبت أن الخلفاء قسموا الخمس على ثلاثة أسهم ولم يعطوا ذوي القربى سهمهم ولما تقدم ما ذكرنا أنه يجوز للإمام أن يصرف الخمس إلى صنف واحد منها، وبه قال: أبو حنيفة رحمه الله، لا يثبت بعدم إعطاء الخلفاء سهم ذوي القربى سقوط سهمهم وعدم جواز إعطائهم كيف وقال أبو يوسف في كتاب الخراج حدثني محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه قال: سمعت علياً رضي الله عنه يقول قلت: يا رسول الله إن رأيت أن توليتني حقنا من الخمس فاقسم في حياتك كيلا ينازعنا أحد بعدك فافعل ففعل قال: فولانيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقسمته حياته ثم ولانيه أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقسمته حياته ثم ولانيه عمر رضي الله عنه فقسمته حياته حتى إذا كانت آخر سنة من سني عمر فأتاه مال كثير فعزل حقنا ثم أرسل إلي فقال: خذ فاقسمه، فقلت: يا أمير المؤمنين بنا عنه العام غني وبالمسلمين إليه حاجة فرده عليهم ذلك تلك السنة ولم يدعنا إليه أحد بعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى قمت مقامي هذا فلقيني العباس بن عبد المطلب بعد خروجي من عند عمر بن الخطاب فقال: يا علي لقد حرمتنا الغداة شيئاً لا يرد علينا أبداً وكذا روى أبو داود عنه.

فهذا الحديث يدل على أن أبا بكر وعمر كانا يعطيان ذوي القربى كما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعطيهم إلا أن عمر منعهم آخر خلافته بإشارة عليّ ولعل قول ابن عباس إن عمر دعانا إلى أن ينكح منه أيتاما ويقضي عنه مغرماً ويخدم منه عائلنا فأبينا إلا أن يسلمه إلينا فأبى ذلك علينا حكاية عما بعد قول عليّ لعمر بنا العام عنه غني وبالمسلمين حاجة، وهذا وجه توفيق الآثار وبهذا يثبت أن سهم ذوي القربى لم يسقط

ويجوز دفعه إليهم غنيهم وفقيرهم لكن جاز للإمام أن يدفع ذلك السهم إلى غيرهم إن كان بهم عنه غنى وبالناس إليه حاجة كما فعل عمر بإشارة عليّ وسلك عليّ ذلك السبيل في خلافته وكره في ذلك مخالفتهم لما رأى فيه مصلحة، وقال أبو يوسف: حدثني عطاء ابن السائب أن عمر بن عبد العزيز بعث سهم الرسول وسهم ذوي القربى إلى بني هاشم، قلت: ولعل ذلك لما رأى عمر بن عبد العزيز في بني هاشم حاجة كثيرة بعث إليهم سهمين والله أعلم.

وروى أبو داود عن سعيد بن المسيب عن جبير بن مطعم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يقسم لبني عبد الشمس ولا لبني نوفل من الخمس شيئاً كما قسم لبني هاشم وبني المطلب، قال: وكان أبو بكر يقسم الخمس نحو قسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما كان يعطيهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان عمر يعطيهم ومن كان بعده منه^(١)، وهذا الحديث يدل على أن الخلفاء منعوا تارة وأعطوا تارة فروى كل على ما علم وهذا يؤيد ما قلنا والله أعلم.

فصل

واعلم أن الآية كما تدل بعبارتها على أن ما غنتم فخمسه خالص لله تعالى يصرف في سبيله في الأصناف المذكورة تدل بإشارتها على أن الباقي يعني الأخماس الأربعة جعلتها لكم أيها الغانمون فكون الأخماس الأربعة للغانمين مسكوت في حكم المنطوق كما أن قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَّلَدٌ وَوَرِثَةٌ أَبَوَاهُ فَلِأُمَّهِ الثُّلُثُ﴾ تدل على أن الثلثين للأب وهو مسكوت في حكم المنطوق فهذه الآية بهذا الاعتبار ناسخة لقوله تعالى: ﴿يَسْتَلُونَكُ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^(٢) حيث لم يجعل الله فيها شيئاً لغيره إلا ما أراد رسوله كما ذكرنا من رواية البخاري في تاريخه عن سعيد بن جبير، قيل: هذه الآية نزلت في غزوة بني قينقاع بعد غزوة بدر بشهر للنصف من شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة أخرج البيهقي في الدلائل من طريق ابن إسحاق عن أبيه عن سعيد بن كعب ومن طريق سعيد بن المسيب نحوه، والصحيح أنها نزلت في غزوة بدر بعد ما نزلت ﴿يَسْتَلُونَكُ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ والله أعلم.

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الخراج والفيء والإمارة، باب: في بيان مواضع قسم الخمس وسهم ذوي القربى (٢٩٧٧).

(٢) سورة الأنفال، الآية: ١.

مسألة

أجمعوا على أن أربعة أخماس الغنيمة للغانمين لا يجوز للإمام منع واحد منهم عن نصيبه.

واختلفوا في سلب المقتول؟ فقال: الشافعي وأحمد هو للقاتل وحده ولا يجب فيه الخمس بشرط أن يعرض نفسه على القتل في قتل مشرك وأزال امتناعه فإن رمى من بعيد وقتل السهم رجلاً من صف المشركين لا يجب للقاتل سلبه، ويشترط عند الشافعي كون القاتل من أهل السهم، وقال أحمد وإن كان من أهل الرضخ أيضاً، وقال أبو حنيفة ومالك وهي رواية عن أحمد لا يستحق القاتل السلب إلا أن يشترط الإمام فحينئذ يحسب عند أبي حنيفة من أربعة الأخماس وعند مالك من الخمس.

عن أبي قتادة قال: خرجنا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم عام حنين فلما التقينا كانت للمسلمين جولة فرأيت رجلاً من المشركين قد علا رجلاً من المسلمين فضربته من ورائه على جبل عاتقه بالسيف فقطعت الدرع فأقبل عليّ فضممني ضمة وجدت منها ريح الموت ثم أدركه الموت فأرسلني فلحقت عمر بن الخطاب فقلت: ما بال الناس؟ قال: أمر الله ثم رجعوا وجلس النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «من قتل قتيلاً له عليه بيعة فله سلبه» فقلت: من يشهد لي؟ ثم جلست، فقال: النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثله، فقلت: من يشهد لي؟ ثم جلست، ثم قال: النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثله، فقمت فقال: مالك يا أبا قتادة؟ فأخبرته فقال: رجل: صدق وسلبه عندي فأرضه مني، فقال: أبو بكر لاها الله إذا لا يعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله فيعطيك سلبه، فقال: النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «صدق فأعطه» فأعطانيه فابتعت منه مخرفاً في بني سلمة فإنه لأول مال تأثنته في الإسلام»^(١) متفق عليه، وفي رواية للطحاوي عن أبي قتادة أنه قتل رجلاً من المشركين فنقله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سلبه ودرعه فباعه بخمس أواق، وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال يوم حنين: «من قتل قتيلاً فله سلبه» فقتل أبو طلحة يومئذ عشرين فأخذ سلبهم»^(٢) رواه الدارمي والطحاوي

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فرض الخمس، باب: من لم يخمس الأسلاب ومن قتل قتيلاً فله سلبه من غير أن يخمس وحكم الإمام فيه (٣١٤٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: استحقات القاتل سلب القتيل (١٧٥١).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في السلب يعطى للقاتل (٢٧١٦).

وأبو داود، وعن سلمة بن الأكوع قال: غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هوازن قتلت رجلاً ثم جئت بجمله أقوده وعليه رحله وسلاحه فاستقبله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والناس معه فقال: من قتل هذا الرجل؟ قالوا: ابن الأكوع فقال: «له سلبه أجمع» رواه الطحاوي، وعنه قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عين من المشركين فجلس يتحدث عند أصحابه ثم انسل فقال: نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اطلبوه فاقتلوه» فسبقتهم فقتلته وأخذت سلبه فنقلني إياه رواه الطحاوي، وروى الحاكم بإسناد فيه الواقدي ضرب محمد بن مسلمة ساقى مرحب فقطعهما ولم يجهز عليه فمر به عليّ فضرب عنقه وأعطى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سلبه محمد بن مسلمة، والصحيح أن علي بن أبي طالب هو الذي قتله لما ثبت في صحيح مسلم، وعن عوف بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «جعل السلب للقاتل» رواه الطحاوي.

وفي رواية له عنه وعن خالد بن الوليد نحوه، وكذا روى أحمد وأبو داود والطبراني، وروى أحمد عن عوف بن مالك وخالد بن الوليد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يخمس السلب، وكذا روى أبو داود وابن حبان والطبراني بلفظ قضى بالسلب للقاتل ولم يخمس، وروى أحمد عن سمرة بن جندب مرفوعاً: «من قتل قتيلاً فله سلبه» وسنده لا بأس به، وروى الطحاوي عن ابن عباس قال: انتدب رجل من المشركين فأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم الزبير فخرج إليه فقتله فجعل له النبي صلى الله عليه وآله وسلم سلبه، قال: ابن همام لا خلاف فيه فإنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: ذلك يعني قوله: «من قتل قتيلاً فله سلبه» إنما الكلام أن هذا منه نصب الشرع على العموم في الأوقات والأحوال كلها أو كان تحريضاً بالتنفيل قاله في تلك الواقعة، فعند الشافعي نصب الشرع لأنه هو الأصل في قوله لأنه إنما بعث لذلك قلت: سياق حديث أبي قتادة صريح في أن قوله صلى الله عليه وآله وسلم ليس على سبيل التنفيل بل هو بعد أن قتل أبو قتادة مشركاً وكذا حديث سلمة بن الأكوع وما ورد في الحديث أنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يخمس السلب حجة للشافعي وأحمد على مالك حيث قال: إن السلب يحسب من الخمس.

فائدة

روى الطحاوي عن أنس بن مالك أن البراء بن مالك أخا أنس بن مالك بارز مرزبان الزارة فطعنه طعنة فكسر القربوس وخلصت إليه فقتلته فقوم سلبه ثلاثين ألفاً فلما صلينا الصبح غدا علينا عمر فقال: لأبي طلحة إنا كنا لا نخمس الأسلاب وإن سلب البراء قد

بلغ ما لا أرانا إلا خامسيه فقومناه ثلاثين ألفاً قدفعنا إلى عمر ستة آلاف .

وروى الطحاوي من وجه بلفظ أن البراء بن مالك بارز رجلاً من عظماء فارس فقتله فأخذ البراء سلبه فكتب فيه إلى عمر فكتب عمر إلى الأمير أن قبض إليك خمسه وادفع إليه ما بقي فقبض الأمير خمسه، قلت: وهذين الأثرين يدلان على أن السلب للقاتل وأنه لا يخمس غير أنه يجوز للإمام إن استكثر المال أن يخمسه، واستدل أبو حنيفة على أن السلب ليس للقاتل خاصة إلا أن يكون الإمام قاله في وقت يحتاج إلى تحريضهم بما رواه الطبراني في الأوسط والكبير أنه بلغ حبيب بن سلمة أن صاحب قبرص خرج يريد طريق أذربيجان ومعه زمرد وياقوت ولؤلؤ وغيرهما فخرج إليه فقتله، فجاء بما معه فأراد أبو عبيدة أن يخمسه فقال: له حبيب لا تحرمني رزقاً رزقنيه الله فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جعل السلب للقاتل فقال: معاذ: يا حبيب إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «للمرء ما طابت به نفس إمامه» وهذا معلول فإن فيه عمرو بن واقد، وروى إسحاق بن راهويه بسنده عن جنادة بن أمية قال: فذكر الحديث أنه بلغ حبيب بن سلمة إلى أن قال: فجاء بسلبه على خمسة أبغال من الديباج والياقوت والزبرجد فأراد حبيب أن يأخذ كله وأبو عبيدة يقول بعضه فقال: حبيب لأبي عبيدة قد قال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من قتل قتيلاً فله سلبه» قال: أبو عبيدة إنه لم يقل ذلك للأبد وسمع معاذ ذلك فأتى وعبيدة وحبيب يخاصمه، فقال: معاذ ألا تتقي الله وتأخذ ما طابت به نفس إمامك فإن مالك ما طابت نفس إمامك وحدث بذلك معاذ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاجتمع رأيهم على ذلك فأعطوه بعد الخمس فباعه حبيب بألف دينار وفيه رجل مجهول .

وبما في الصحيحين من حديث عبد الرحمن بن عوف في مقتل أبي جهل يوم بدر فإن فيه أن قال: عليه السلام لمعاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء بعد ما رأى سيفهما «كلاهما قتله» ثم قضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح وحده^(١) ولو كان للقاتل لقضي به لهما، وبما رواه مسلم وأبو داود عن عوف بن مالك الأشجعي قال: «خرجت مع زيد بن حارثة غزوة مؤتة ورافقني مددي من أهل اليمن فلقينا جموع الروم وفيهم رجل

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فرض الخمس، باب: من لم يخمس الأسلاب ومن قتل قتيلاً فله سلبه من غير أن يخمس وحكم الإمام فيه (٣١٤١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: اسحقاق القاتل سلب القتل (١٧٥٢).

على فرس أشقر على سرج مذهب وسلاح مذهب وجعل يغري بالمسلمين وقعد له المددي خلف صخرة فمر به الرومي فعرقب فرسه فخر فعلا فقتله فحاز فرسه وسلاحه فلما فتح الله على المسلمين بعث إليه خالد بن الوليد فأخذ منه بعض السلب، قال: عوف فأتيت خالداً فقلت له يا خالداً أما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قضى بالسلب للقاتل قال: بلى ولكني استكثرت، قلت: لتردن أو لأعُرْفُتُكُما عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأبى أن يعطيه قال: عوف فاجتمعنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقصصت عليه قصة المددي وما فعل خالد فقال: عليه السلام: «يا خالد ردّ عليه ما أخذت منه» قال: عوف قلت: دونك يا خالد ألم أوف لك فقال: صلى الله عليه وآله وسلم وما ذاك؟ قال: فأخبرته، قال: فغضب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: «يا خالد لا ترد عليه هل أنتم تاركو لي أمراء لكم صفوة أمرهم وعليهم كدره»^(١) وجه الاستدلال أنه منع خالداً من رده بعدما أمره به ولو كان شرعاً لأن ما لم يمنعه من مستحقه.

قال الخطابي إنما منعه أن يرد على عوف سلبه زجراً لعوف لثلا يجترىء الناس على الأئمة وخالد كان مجتهداً فأمضاه عليه الصلاة والسلام والضرر اليسير يتحمل للنفع الكثير، قال: ابن همام: وهذا غلط وذلك لأن السلب لم يكن للذي تجراً وهو عوف وإنما كان للمددي ولا تزر وازرة وزر أخرى، فالوجه أنه صلى الله عليه وآله وسلم أحب أولاً أن يمضي شفاعته للمددي في التنفيل فلما غضب عليه رد شفاعته بمنع السلب لا أنه لغضبه وسياسته زجره بمنع حق من لم يقع منه جناية فهذا يدل على أنه ليس شرعاً لازماً، قلت: حديث حبيب كما سمعت معلول وضعيف ولو ثبت للإمام حق التخميم من السلب لما أراد أبو عبيدة أن يخمسه ولا يثبت منه أنه لا حق للقاتل في السلب بل هو كسائر الغنائم وحديث سلب أبي جهل منسوخ، قال: البيهقي إن غنيمة بدر كانت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بنص الكتاب يعني بقوله تعالى: ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ يعطي من يشاء وقد قسم لجماعة لم يحضروا ثم نزلت آية الغنيمة بعد بدر فقضى السلب للقاتل استقر الأمر على ذلك، وقول عوف أما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قضى بالسلب

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: استحقاق القاتل سلب القتيل (١٧٥٣)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في الإمام يمنع القاتل السلب إن رأى والفرس والسلاح من السلب (٢٧١٧).

للقاتل وقول خالد بلى، وتسليم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك حتى أمر خالداً برد ما أخذ من سلبه دليل على التشريع عموماً وجرأة عوف كان لأجل المددي وكان المددي راضياً به، فهو يستحق الزجر والمنع، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «هل أنتم تاركو لي أمراء لكم صفوة أمرهم وعليهم كدره» يدل على أن الإمام وإن ظلم ومنع أحداً حقه فعليه كدره لكن يجب على الناس إطاعته.

مسألة

التنفيل يعني إعطاء الإمام رجلاً فوق سهمه جائز إجماعاً إن شرط الإمام في حالة القتال قبل الإصابة لأنه نوع تحريض على القتال وهو مأمور به، قال: الله تعالى ﴿حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾^(١) فجاز للإمام أن يقول من قتل قتيلاً فله عشرة دراهم أو من دخل هذا الحصن فله كذا وقال لسرية جعلت لكم النصف أو الربع بعد الخمس، أو قال: من أصاب جارية فهي له.

عن ابن عمر: «أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان ينفل بعض من يبعث من السرايا لأنفسهم خاصة سوى قسمة عامة الجيش»^(٢) متفق عليه، لكن لا يجوز للإمام أن يقول من أصاب شيئاً فهو له لأنه يستلزم بطلان الخمس الثابت بكتاب الله تعالى وبطلان الأسهم المنصوصة للراجل والفارس في الأحاديث وبطلان حق من لم يصب من المجاهدين، وفي بعض روايات الحنفية لو نفل بجميع المأخوذ جاز إذا رأى الإمام المصلحة فيه، روى الحاكم من رواية مكحول عن أبي أمامة عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين التقى الناس ببدر نفل كل امرأ ما أصاب، وأجيب بأن هذا منسوخ وآية الخمس نزلت بعد ذلك.

مسألة

ثم محل التنفيل أربعة الأخماس قبل الإحراز بدار الإسلام وبعد الإحراز لا يصح إلا من الخمس عند أبي حنيفة وأحمد، وعند مالك والشافعي لا يصح مطلقاً إلا من الخمس لأنه المفوض إلى رأي الإمام وما بقي للغانمين، زوى مالك عن أبي الزيات عن سعيد بن المسيب كان الناس يعطون النفل من الخمس، وروى ابن أبي شيبة عن سعيد بن

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٥.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: الأنفال (١٧٥٠).

المسيب ما كانوا ينفلون إلا من الخمس، وعن ابن عمر قال: نقلنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نفلاً سوى نصيبنا من الخمس فأصابني شارف والشارف المسن الكبير^(١) متفق عليه، وأبو حنيفة يحمل هذه الآثار على ما بعد الإحراز بدار الإسلام وأما قبل ذلك فيعطي النفل من أربعة أخماس الغانمين لأن المعطي له من الغانمين لا من المساكين واليتامى وابن السبيل، وقال البغوي: النفل من خمس سهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو قول سعيد بن المسيب وبه قال: الشافعي رحمه الله وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «مالي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس والخمس مردود فيكم»^(٢) إعطاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم النفل أحداً من خمس خمسه هبة منه صلى الله عليه وآله وسلم وذلك لا يستلزم عدم جواز النفل من أربعة الأخماس كيف وقد روى الترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه عن عبادة بن الصامت أنه صلى الله عليه وآله وسلم نفل في البداية الربع وفي الرجعة الثلث^(٣) وكذا روى أبو داود عن حبيب بن سلمة الفهري، ومعنى الحديث على ما قال: الخطابي: أن السرية إذا ابتدأت السفر نقلها الربع فإذا قفلوا الربع فإذا قفلوا ثم رجعوا إلى العدو ثانية نفلهم الثلث لأن نهوضهم بعد قفولهم أشق عليهم، قلت: وهذا الحديث يرد قول من قال: لا يجوز النفل إلا من الخمس أو من خمس الخمس لأن إعطاء الربع والثلث لا يتصور من الخمس بل لا يكون إلا من أصل الغنيمة كما قال: بعضهم: أو من أربعة الأخماس. فإن قيل: جاز أن يكون معنى الحديث نفل في البداية الربع من الخمس وفي الرجعة الثلث من الخمس كذا قال: الطحاوي؟ قلنا: الحديث لا يدل على هذا التقييد وليس هو إلا تسوية الحديث على مدعاه وأيضاً قد روى حديث حبيب بن سلمة عند الطحاوي بلفظ الرابع بعد الخمس والثلث بعد الخمس، وكذا روى أحمد واستدل به ابن الجوزي على جواز إخراج النفل من أربعة الأخماس.

مسألة

جاز للإمام أن يعطي بعض الغانمين فوق سهمه بعد القتال بلا شرط سبق منه إن رأى اجتهاد منه فوق اجتهاد غيره، وقال أبو حنيفة رحمه الله لا يجوز ذلك إلا من الخمس

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في فداء الأسير بالمال (٢٦٩٢).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: السير، باب: في النفل (١٥٦٤)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد،

باب: فيمن قال الخمس قبل النفل (٢٧٤٨)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الجهاد باب: النفل

(٢٨٥٢).

لأن بعد القتال تعلق به حق الغانمين فلا يجوز إبطال حقهم، والحجة عليه حديث سلمة بن الأكوع قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بظهره مع رباح غلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنا معه فلما أصبحنا إذا عبد الرحمن الفزاري قد أغار على ظهر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقامت على أكمة فاستقبلت المدينة فناديت ثلاثاً يا صاحبا ثم خرجت في آثار القوم أرميهم بالنبل، وأرتجز أقول أنا ابن الأكوع واليوم يوم الرضع، فما زلت أرميهم وأعقر لهم حتى ما خلق الله من بعير من ظهر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا خلفته وراء ظهري ثم اتبعتهم أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردة وثلاثين رمحاً يستخفون ولا يطرحون شيئاً إلا جعلت عليه أراماً من الحجارة يعرفها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه حتى رأيت من فوارس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولحق أبو قتادة فارس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعبد الرحمن فقتله قال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «خير فرساننا اليوم أبو قتادة وخير رجالتنا سلمة» قال: ثم أعطاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سهمين سهم الفارس وسهم الراجل فجمعهما إلي جميعاً ثم أردفني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وراءه على العضباء راجعين إلى المدينة»^(١) رواه مسلم.

والجواب لأبي حنيفة أن الحديث رواه ابن حبان وقال: كان سلمة بن الأكوع في تلك الغزاة راجلاً فأعطاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم من خمسه لا من سهمان المسلمين، ورواه القاسم بن سلام وقال: قال: ابن مهدي: فحدثت به سفيان فقال: هذا خاص بالنبي ﷺ، قال: القاسم وهذا عندي أولى من حمله على أنه أعطاه من سهمه وإلا لم يسم نفلًا بل هبة قلت: ولا وجه للحمل على ذلك ولا على القول بالتخصيص، وسنذكر حديث آخر لسلمة بن الأكوع أنه غزونا فزاره مع أبي بكر في مسألة جواز فداء أسارى المشركين بأسارى المسلمين وفيه نفل أبو بكر سلمة امرأة.

واستدل بعض العلماء في هذه المسألة بما ذكرنا من حديث عبادة بن الصامت وحبيب بن سلمة: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نفل في بدأته الربع وفي رجعتة الثلث على معنى أنه صلى الله عليه وآله وسلم نفل في رجعتة يعني بعد الرجوع من القتال بالثلث، وحمل الطحاوي هذا الحديث بهذا المعنى على أنه صلى الله عليه وآله وسلم نفل في الرجعة الثلث مما يجوز له النفل وهو الخمس ليوافق مذهبه ومذهب أبي حنيفة والله أعلم.

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة ذي قرد وغيرها (١٨٠٧).

وكان إعطاء بعض الغانمين شيئاً زائداً من الغنيمة على سبيل النفل أمراً معروفاً في الصحابة لكنهم كانوا مختلفين في محله، روى الطحاوي بوجوه عن أنس أنه كان مع عبيد الله بن أبي بكرة في غزوة غزاها فأصابوا سبياً فأراد عبيد الله أن يعطي أنساً من السبي قبل أن يقسم فقال: أنس لا ولكن أقسم ثم أعطني من الخمس قال: قال: عبيد الله لا إلا من جميع الغنائم فأبى أنس أن يقبل منه وأبى عبيد الله أن يعطيه من الخمس شيئاً، وروى الطحاوي عن سليمان بن يسار أنهم كانوا مع معاوية بن خديج في غزوة المغرب فنفل الناس ومعنا أصحاب النبي ﷺ فلم يرد ذلك غير جبلة بن عمرو وعن خالد بن أبي عمران قال: سألت سليمان بن يسار عن النفل في الغزو فقال: لم أرَ أحداً صنعه غير ابن جريج نفلنا بإفريقية النصف بعد الخمس ومعنا أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم من المهاجرين الأولين أناس كثير فأبى جبلة أن يأخذ منها شيئاً.

مسألة

يقسم الأخماس الأربعة بين الغانمين للراجل سهماً وللفارس ثلاث أسهم سهم له وسهمان لفرسه، قال: القاضي عبد الوهاب به قال: من الصحابة: عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب ولا مخالف من الصحابة وبه قال: من التابعين عمر بن عبد العزيز وابن سيرين ومن الفقهاء مالك والأوزاعي وليث بن سعد وسفيان الثوري والشافعي وأحمد بن حنبل وأبو ثور وأبو يوسف ومحمد بن الحسن، ولم يخالف في هذه المسألة غير أبي حنيفة وحده حيث قال: للفارس سهمان وللراجل سهم، وقال ابن الجوزي: قال: خالد الحذاء لا يختلف فيه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن للفارس ثلاثة أسهم.

احتج الجمهور بأحاديث منها: حديث المنذر بن الزبير بن العوام عن أبيه: «أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أعطى الزبير سهماً وفرسه سهمين»^(١) رواه أحمد، وكذا روى الدارقطني عن عبد الله بن الزبير عن الزبير والدارقطني أيضاً عن جابر، وأخرجه أيضاً من حديث أبي هريرة وأيضاً من حديث سهل بن حثمة، وفي حديث عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم من طريق ابن إسحاق في غزوة قريظة أنه صلى الله عليه وآله وسلم جعل للفارس وفرسه ثلاثة أسهم له سهم وفرسه سهمان.

(١) رواه أحمد ورجاله ثقات. انظر مجمع الزوائد في كتاب: الجهاد، باب: قسم الغنيمة (٩٧٦١).

وفي الباب حديث ابن عمران صلى الله عليه وآله وسلم: «جعل للفارس سهمين ولصاحبه سهمان»^(١) رواه البخاري وأصحاب السنن إلا النسائي، وفي مسلم عنه قسم في النفل للفارس سهمين وللراجل سهماً وفي رواية بإسقاط لفظ النفل، وفي رواية أسهم للرجل ولفرسه ثلاثة أسهم سهم له وسهمان لفرسه وحديث ابن عباس نحوه رواه إسحاق بن راهويه، وكذا أخرج أبو داود من حديث ابن أبي عمرة عن أبيه وكذا أخرج البزار من حديث المقداد وحديث أبي كبشة الأنماري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عام الفتح: «إني جعلت للفارس سهمين وللفرس سهماً فمن نقصها نقصه الله عز وجل» رواه الدارقطني والطبراني.

قال ابن همام فيه محمد بن عمران العبسي أكثر الناس على تضعيفه، وحديث أبي دهم غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنا وأخي ومعنا فرسان فأعطانا ستة أسهم أربعة لفرسينا وسهمين لنا رواه الدارقطني.

وروى أبو يوسف في كتاب الخراج بسنده عن أبي حازم قال: أبو ذر الغفاري شهدت أنا وأخي مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم حنين ومعنا فرسان لنا فضرب لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ستة أسهم أربعة لفرسينا وسهمان لنا فبعنا ستة أسهم بحنين ببيكرين.

واحتج أبو حنيفة بحديث مجمع بن جارية الأنصاري، قال: قسمت خيبر على أهل الحديدية فقسمها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ثمانية عشر سهماً وكان الجيش ألفاً وخمسمائة فيهم ثلاثمائة فارس فأعطى الفارس سهمين وللراجل سهماً^(٢) رواه أبو داود، وقال أبو داود: وهذا وهم إنما كانوا مائتي فارس فأعطى الفارس سهمين والرجل يعني صاحبه سهماً كذا قال: الشافعي، قلت: وكذا ذكرنا في سورة الفتح في قصة غنائم خيبر وحديث المقداد بن عمر: «أنه كان يوم بدر على فرسه يقال له سنجه فأسهم له النبي صلى الله عليه وآله وسلم سهمين لفرسه سهم وله سهم» رواه الطبراني وفي سننه الواقدي ضعيف، وأخرج الواقدي أيضاً في المغازي عن جعفر بن خارجة قال: قال: الزبير بن العوام شهدت بني قريظة فارساً فضرب لي بسهم ولفرسي بسهم، وأخرج ابن مردويه في تفسيره حدثنا محمد بن محمد السري حدثنا المنذر بن محمد حدثني أبي حدثنا يحيى بن محمد بن هانيء عن

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: سهام الفرس (٢٨٦٣).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: فيمن أسهم له سهماً (٢٧٣٤).

محمد بن إسحاق وحدثنا محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة عن عائشة قال: أصاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سبانيا بني المصطلق فأخرج الخمس منها ثم قسم بين المسلمين فأعطى الفارس سهمين والراجل سهماً.

وروى ابن أبي شيبة في مصنفه ومن طريقه الدارقطني حدثنا أبو أسامة وابن نمير، قال: حدثنا عبيد الله عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جعل للفارس سهمين وللراجل سهماً، قال: الدارقطني قال: أبو بكر النيسابوري هذا عندي وهم من ابن أبي شيبة لأن أحمد بن حنبل وعبد الرحمن بن بشير وغيرهما رووه عن ابن نمير خلاف هذا على ما تقدم يعني ثلاثة أسهم للفارس، ثم أخرج الدارقطني عن نعيم حدثنا ابن المبارك عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر كما روى ابن أبي شيبة، قال: ابن الجوزي لعل الوهم من نعيم لأن ابن المبارك من أثبت الناس، قال: ابن همام ونعيم ثقة، وأخرج الدارقطني أيضاً عن يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يسهم للخيال للفارس سهمين وللراجل سهماً وتابعه ابن أبي مريم وخالد بن عبد الرحمن عن عبد الله بن عمر العمري، ورواه القعنبي عن العمري بالشك في الفارس أو الفرس، ثم أخرج عن حجاج بن منهال حدثنا حماد بن سلمة حدثنا عبيد الله بن عمر عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قسم للفارس سهمين وللراجل سهماً وخالفه النضر بن محمد بن حماد، قال ابن همام وممن روى حديث عبيد الله متعارضاً الكرخي لكن رواية البيهقي عنه أثبت، قال: ابن الجوزي عبيد الله بن عمر ضعيف، وروى الدارقطني بسنده عن عبد الرحمن بن أمين عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقسم للفارس سهمين وللراجل سهماً.

وروى أبو يوسف عن الحسن بن عمارة عن الحكم بن عيينة عن مقسم عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قسم غنائم بدر للفارس سهمان وللراجل سهم، قال: أبو يوسف في كتاب الخراج أنه كان الفقيه المقدم أبو حنيفة تغمده الله برحمته يقول للراجل سهم للفارس سهم وقال: لا أفضل بهيمة على رجل مسلم. ويحتج بما حدثناه عن زكريا بن الحارث عن المنذر بن أبي حمصة الهمداني أن غلاماً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه قسم في بعض الشام للفرس سهم وللرجل سهم فرفع ذلك إلى عمر رضي الله تعالى عنه فأجازه، وكان أبو حنيفة يأخذ بهذا الحديث ويجعل للفرس سهماً وللرجل سهماً وما جاء من الآثار والأحاديث أن للفرس سهمين وللرجل سهماً أكثر من ذلك وأوثق والعامّة

عليه وليس هذا على وجه التفضيل وما كان ينبغي أن يكون للفرس سهم وللرجل سهم لأنه قد سوى بهيمة برجل مسلم إنما هذا على أن يكون عدة الرجل أكثر من عدة الآخر وليرغب الناس في ارتباط الخيل في سبيل الله، ألا ترى أن سهم الفرس يرد على صاحب الفرس ولا يكون للفرس دونه والمتطوع وصاحب الديوان في القسمة سواء، قال: ابن همام: إذا تعارض الروايات ترجح النفي بالأصل، ويحمل رواية الثلاثة على التنفيل، وما ورد في حديث جابر أعطى الفارس منا ثلاثة أسهم ونحو ذلك ظاهر في أنه ليس الأمر المستمر كذلك وإلا يقال كان عليه السلام وقضى عليه السلام وحديث أبي كبشة إني جعلت للفرس سهمين وللفرس سهماً فمن نقصهما نقصه الله لا يصح كما مر.

مسألة

لو كان مع رجل فرسان؟ فقال: أبو حنيفة ومالك والشافعي لا يسهم إلا لفرس واحد، قال: مالك في الموطأ لم أسمع بالقسم إلا لفرس واحد، وقال أبو يوسف وأحمد يسهم لفرسين ولا يسهم لأكثر من فرسين إجماعاً، والحجة لأبي يوسف ما رواه الدارقطني من حديث بشير بن عمر بن محسن قال: أسهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لفرسي أربعة أسهم ولي سهماً فأخذت خمسة أسهم.

وروى عبد الرزاق أخبرنا إبراهيم بن يحيى السلمى عن مكحول أن الزبير حضر خبير بفرسين فأعطاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم خمسة أسهم وهذا منقطع، وقال الواقدي في المغازي حدثنا عبد الملك بن يحيى عن عيسى بن عمر قال: كان مع الزبير يوم خبير فرسان فأسهم له النبي صلى الله عليه وآله وسلم خمسة أسهم وقال أيضاً حدثني يعقوب بن محمد عن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي صعصعة عن الحارث بن عبد الله بن كعب أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قاد في خبير ثلاثة أفراس لزاز والضرب والسكب وقاد الزبير بن العوام أفراساً وقاد حراس بن الصميت فرسين وقاد البراء بن أوس فرسين وقاد أبو عمرة الأنصاري فرسين فأسهم عليه الصلاة والسلام لكل من كان له فرسان أربعة أسهم وسهماً وما كان أكثر من فرسين لم يسهم له، وروى ابن الجوزي بسنده عن سعيد بن منصور عن ابن عياش عن الأوزاعي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يسهم للخيل ولا يسهم للرجل فوق فرسين وإن كان معه عشرة أفراس وقال: سعيد بن منصور ثنا فرج بن فضالة ثنا محمد بن الوليد عن الزهري أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي عبيدة بن الجراح أن أسهم للفرس سهمين وللفرسين أربعة أسهم ولصاحبهما سهماً فذلك خمسة أسهم وما كان فوق الاثنين فهو جنائب، وقال أبو يوسف في كتاب «الخراج»

حدثنا ابن يحيى بن سعيد عن الحسن في الرجل يكون في الغزو معه الأفراس قال: لا يقسم له من الغنيمة لأكثر من فرسين، قال: وحدثني محمد بن إسحاق عن يزيد بن يزيد بن جابر عن مكحول قال: لا يقسم لأكثر من فرسين، قال: صاحب الهداية ما روى لأبي يوسف وأحمد محمول على التنفيل كما أعطى سلمة بن الأكوع سهمين وهو راجل، قلت: ما قال: صاحب الهداية إن إعطاء سهمين لفرس وأربعة أسهم لفرسين محمول على التنفيل إنما يتصور صحته لو قيل: جاز للإمام أن يعطي بعض الغانمين فوق سهمه بعد القتال من غير شرط سبق منه وإلا فلم يروا في شيء مما ذكر من الأحاديث أنه صلى الله عليه وآله وسلم شرط ذلك.

مسألة

إذا لحق المدد في دار الحرب قبل إحراز الغنائم بدار الإسلام بعد انقضاء القتال لا يسهم لهم عند الأئمة الثلاثة وعند أبي حنيفة يسهم لهم.

احتجوا بما رواه ابن أبي شيببة والطحاوي بسند صحيح عن طارق بن شهاب الأحمسي، أن أهل بصرة غزوا نهاوند فأمدتهم أهل الكوفة وعليهم عمار بن ياسر فظهروا فأراد أهل البصرة أن لا يقسموا لأهل الكوفة فقال رجل من بني تميم، وعند الطحاوي من بني عطارد أيها العبد الأجدع تريد أن تشاركنا في غنائمنا وكانت أذنه جدعت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: عمار خير أذني سبيت ثم كتب إلى عمر فكتب عمر أن الغنيمة لمن شهد الواقعة، وأخرج الطبراني: «الغنيمة لمن شهد الواقعة» مرفوعاً وقال الصحيح الموقوف، وأخرجه ابن عدي من طريق بختري بن مختار عن عبد الرحمن بن مسعود عن علي موقوفاً.

وروى الشافعي من طريق زيد بن عبد الله بن قسيط أن أبا بكر بعث عكرمة بن جهل في خمسمائة من المسلمين مدداً الزيادة بن لبيد فذكر القصة، وفيها فكتب أبو بكر أن الغنيمة لمن شهد الواقعة لكن في أثر أبي بكر انقطاع، وبحديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «بعث أبان بن سعيد بن العاص في سرية قبل نجد فقدم أبان بعد فتح خيبر فلم يسهم»^(١) رواه أبو داود وأبو نعيم موصولاً والبخاري في صحيحه تعليقاً، وأجاب الحنفية

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: فيمن جاء بعد الغنيمة لا سهم له (٢٧٢١)، والبخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة خيبر (٤٢٣٣).

عن هذا الحديث أن خير بعد ما فتحت صارت دار الإسلام فقدمهم بعد الفتح لحق بعد إحراز الغنيمة بدار الإسلام ولا خلاف في أنه من لحق بعد الإحراز لا سهم له في الغنيمة فإنهم ملكوها بالإحراز قبل لحوقهم، وأما إسهامه لأبي موسى الأشعري على ما في الصحيحين عنه أنه قال: «وإنا رسول صلى الله عليه وآله وسلم حين افتتح خير فأسهم لنا ولم يسهم لأحد غاب عن فتح خير إلا لأهل سفينتنا^(١)»، فقال: ابن حبان إنما أعطاهم من خمس الخمس والله أعلم.

مسألة

ولا حق لأهل سوق العسكر ولا لسائسة الدواب عند أبي حنيفة رحمه الله إلا أن يقاتلوا، وقال الشافعي يسهم لما مر من قوله صلى الله عليه وآله وسلم «إن الغنيمة لمن شهد الوقعة» وهم قد شهدوا الوقعة وقد مر أنه لم يصح رفعه بل هو حديث موقوف ومعناه لمن شهد الوقعة على قصد القتال، وذلك إنما يعرف بأحد أمرين إما بإظهار خروجه للجهاد والتجهيز له لا لغيره وإما بحقيقة قتاله ولو كان من شهد الوقعة على عمومه لزم أن يسهم للنساء والأطفال والعبيد أيضاً، وقد أجمعوا على أنه لا سهم لهؤلاء.

روى مسلم وأبو داود عن ابن عباس أنه سأل عن النساء هل كن يشهدن الحرب مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهل كان يضرب لهن سهم؟ فقال: «كن يشهدن وأما أن يضرب لهن سهم فلا^(٢)».

وفي رواية لأبي داود وقد كان يرضخ لهن، فإن قيل: يعارضه حديث حشر بن زياد عن جدته أم أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أسهم لهن أسهم للرجال^(٣) أخرجه أبو داود والنسائي، قلنا: حشر مجهول.

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فرض الخمس، باب: ومن الدليل على أن الخمس لنواب المسملين (٣١٣٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل جعفر بن أبي طالب وأسماء بنت عميس وأهل سفينتهم رضي الله عنهم (٢٥٠٢).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: المرأة والعبد يحذيان من الغنيمة (٢٧٢٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: النساء الغازيات لا يرضخ لهن ولا يسهم، والنهي عن قتل صبيان أهل الحرب (١١٩٢).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب المرأة والعبد يحذيان من الغنيمة (٢٧٢٧).

مسألة

إن أطاق الصبي القتال وأجازه الإمام يكمل له السهم عند مالك وقال الجمهور: لا يسهم له بل يرضخ، روى أبو داود من طريق مكحول أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أسهم للنساء والصبيان والخيل وهذا مرسل لو صح فلعل المراد بقوله: أسهم أعطى لهم شيئاً وهو الرضخ.

مسألة

اختلفوا في العقار التي استولى عليها المسلمون عنوة؟ فقال: الشافعي يجب أن يقسمها الإمام بين الغانمين بعد التخميس كالمقول كما قسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خيبر وهي رواية عن أحمد، لعموم هذه الآية إلا أن يطيب أنفس الغانمين ويسقطوا حقوقهم فحينئذ يوقفها على المسلمين كما فعل بسواد العراق.

وقال مالك: ليس للإمام أم يقسمها بل يصير بنفس الظهور عليها وقفاً، وهي رواية ثانية عن أحمد، وقال أحمد وهي رواية عن مالك أن الإمام مخير بين أن يقسمها على الغانمين بعد التخميس لله وبين إيقافها على جماعة المسلمين.

وقال أبو حنيفة: الإمام مخير بين قسمتها بين الغانمين بعد التخميس لله وبين إقرار أهلها بالخراج وبين أن يصرفها عنهم إلى قوم آخرين يضرب عليهم الخراج وليس له أن يوقفها.

والحجة لأحمد حديث سهل بن حشمة قال: «قسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خيبر نصفين نصف لنوابه وحاجته ونصف بين المسلمين قسمها بينهم على ثمانية عشر سهماً» رواه ابن الجوزي.

وروى الطحاوي عن ابن عباس قال: أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خيبر بالشرط ثم أرسل ابن رواحة فقاسمهم، وعن ابن عمر أنه صلى الله عليه وآله وسلم عامل أهل خيبر بشرط ما يخرج من الزرع، وعن جابر قال: ما أفاء الله خيبر فأقرهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما كانوا وجعل بينه وبينهم فبعث عبد الله بن رواحة عليهم، ثم قال: الطحاوي ثبت بذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن قسم خيبر بكمالها لكنه قسم طائفة منها وترك طائفة يقسمها، قلت: قد ذكرنا في سورة الفتح في قصة فتح خيبر قول ابن إسحاق كانت المقاسم على أموال خيبر على الشق

والنظأة والكثيبة كانت الكثيبة في الخمس والشق والنظأة أسهم الغزاة ثمانية عشر سهماً
النظأة خمسة أسهم والشق ثلاثة عشر والوطيح والساليم كانت لنواب المسلمين عامله
فيها اليهود بالنصف وكان ابن رواحة يأتيهم كل سنة فيخربهم، فأجلاهم عمر لقوله صلى
الله عليه وآله وسلم: «نقركم على ذلك ما شئنا» قلت: قد جرى الخلاف بين الصحابة في
خلافة عمر حين افتتح العراق، قال: أبو يوسف في كتاب «الخراج» حدثني غير واحد من
علماء المدينة قال: لما قدم على عمر جيش العراق من قبل سعد بن أبي وقاص شاور
أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم في قسمة الأرضين التي أفاء الله على المسلمين
من أرض العراق والشام، فتكلم قوم فيها وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم وما فتحوا فقال:
عمر فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الأرض بعلوجها قد قسمت وورثت عن الآباء
وحيزت ما هذا برأي؟ فقال: عبد الرحمن بن عوف: فما الرأي بالأرض والعلوج إلا مما
أفاء الله عليهم؟ فقال: عمر ما هو إلا كما تقول ولست أرى ذلك والله لا يفتح بعدي بلد
فيكون فيه كبير نيل بل عسى أن يكون كلا على المسلمين فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها
وأرض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره وأن
أهل الشام والعراق أكثروا على عمر، قالوا: تقف ما أفاء الله علينا بأسيا فإنا على قوم لم
يحضروا ولم يشهدوا ولأبناء قوم ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا فكان لا يزيد على أن يقول
هذا رأي، قالوا: فاستشر، قال: فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا فأما عبد الرحمن بن
عوف فكان رآه أن يقسم لهم حقوقهم، ورأى عثمان وعلي وطلحة رأي عمر رضي الله
عنهم أجمعين فأرسل إلى عشرة من الأنصار خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج من
كبرائهم وأشرفهم، فلما اجتمعوا حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ومستحقه ثم قال: إني
لم أزعجكم إلا لأن تشركوا في أمانتي فيما حملت من أموركم فإني واحد كأحدكم وأنتم
اليوم تقرون الحق خالفني من خالفني ووافقني من وافقني، ولست أريد أن تتبعوا الذي هو
هواي معكم من الله كتاب ينطق بالحق فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أردت به إلا
الحق، قالوا: قد نسمع يا أمير المؤمنين قال: قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أنني
أظلمهم حقوقهم وإني أعوذ بالله أن أكره ظلماً لئن كنت ظلمتهم شيئاً هو لهم وأعطيته
غيرهم لقد شقيت ولكن رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى وقد غنمنا الله
أموالهم وأراضيتهم وعلوجهم ف قسمت ما غنموا ورثة بين أهله وأخرجت الخمس ووجهته
على وجهه وأنا في توجيهه ورأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج
وفي رقابهم الجزية يؤدونها فيكون شيئاً للمسلمين للمقاتلة والذرية ولمن يأتي بعدهم رأيتم

هذه الثغور بدلها من رجال يلزمونها، أرايتم هذه المدن العظام والشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر بدمن أن تشحن بالجيوش وإدراار العطاء عليهم فمن أين يعطي هؤلاء إذا قسمت الأرضين والعلوج فقالوا جميعاً الرأي رأيك فنعم ما قلت وما رأيت إن لم يشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال ويجري عليهم ما يقوون به رجع أهل الكفر إلى مدنها فقال: قد بان لي الأمر فمن رجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعنا ويضع على العلوج ما يحتملون، فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف وقالوا له تبعه إلى أهم ذلك فإن له بصراً وعقلاً وتجربة، فأسرع إليه عمر فولاه مساحة أرض السواد فأدت جباية سواد الكوفة قبل أن يموت عمر بعام مائة ألف ألف والدرهم كانت يومئذ وزن المثقال.

قال أبو يوسف وحدثني محمد بن إسحاق عن الزهري أن عمر بن الخطاب استشار الناس في السواد حين افتتح فرأى عامتهم أن يقسم، كان بلال بن رباح من أشدهم في ذلك وكان عمر أن يتركه ولا يقسمه قال: اللهم اكفني بلالاً ومكثوا في ذلك يومين أو ثلاثاً أو دون ذلك، ثم قال: عمر إني قد وجدت حجة قال: الله عز وجل في كتابه: ﴿وَمَا آفَاةَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾^(١) الآيات من سورة الحشر قال: فكانت هذه عامة لمن جاء بعدهم فقد صار هذا ألفي على هؤلاء جميعاً فكيف تقسم هوة وتده من يخلف بغير قسم فأجمع على تركه وجمع خراجه، قال: أبو يوسف: وحدثني الليث بن الليث بن سعد عن حبيب بن أبي ثابت أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجماعة المسلمين أرادوا عمر بن الخطاب أن يقسم الشام كما قسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خيبر وأنه كان أشد الناس في ذلك الزبير بن العوام وبلال بن رباح فقال: عمر: أذن أترك من بعدكم من المسلمين لهم ثم قال: اللهم اكفني بلالاً وأصحابه قال: ورأى المسلمون أن الطاعون الذي أصابهم لعمواس كان من دعوة عمر.

قال: وتركهم عمر يؤدون الخراج إلى المسلمين، قلت: فثبت انعقاد الإجماع على جواز ترك الأرض في أيدي أهلها يؤدون الخراج فإن قيل: كيف يجوز نسخ الآية بالإجماع والإجماع لا يكونان ناسخاً ولا منسوخاً، وما استدلل به عمر من قوله تعالى: ﴿قَدِيرٌ آفَاةَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ ليس بحجة لأنه فيما قال: الله تعالى: ﴿مَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾^(٢) وكلامنا فيما أوجف عليه المسلمون خيلاً وركاباً.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٦.

(١) سورة الحشر، الآية: ٦ - ١٠.

قلنا: أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا يجتمع على الضلالة فإجماعهم على هذا يدل على أن قوله تعالى: ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ﴾ ليس على عمومه كيف وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصف وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم السلب للقاتل ولم يخمس السلب وجاز أن يعلف العسكر في دار الحرب ويأكلوا ما وجدوه من الطعام، عن محمد بن أبي المجالد عن عبد الله بن أبي أوفى قال: هل كنتم تخمسون الطعام في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال: أصبنا طعاماً يوم خيبر فكان الرجل يجيء فيأخذ منه مقداراً ما يكفيه ثم ينصرف، وعن ابن عمر أن جيشاً غنموا في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طعاماً وعسلاً فلم يؤخذ منهم الخمس، وعن القاسم مولى عبد الرحمن عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: كنا نأكل الجزور في الغزو ولا نقسمه حتى كنا لنرجع إلى رحالنا وأخرجتنا منه مملوءة^(١) روى الأحاديث الثلاثة أبو داود.

فائدة

حمل أصحاب الشافعي ما فعل في سواد العراق والشام على أنه وقف الأرض برضاء الغانمين وإسقاطهم حقوق أنفسهم، قلنا: لو كان كذلك لا خرج منها أولاً خمس الله تعالى إذ ليس الخمس للإمام ولا للغانمين ولا يسقط بإسقاطهم، وأيضاً وضع عمر على جريب الكرم شيئاً معلوماً وعلى جريب الحنطة شيئاً معلوماً فلا يجوز أن يكون الأرض مملوكة للمسلمين موقوفة ولا يلزم المعدوم وبيع ما ليس عندك بل يظهر بهذا أن الأرض مملوكة للكافرين عليهم خراج الأرض كما وضع عليهم الجزية وهم أحرار ولا يجوز أن يكونوا عبيداً للمسلمين ويكون الجزية ضريبة للمسلمين عليهم بعلة الملك لأنه أهمل نسانهم ومشايخهم وصبيانهم وإن كانوا قادرين على الاكتساب أكثر مما يقدر عليه بعض الرجال البالغين فظهر أنه ليس بعلة الملك على وجه الضريبة والله أعلم.

﴿إِن كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللّٰهِ وَمَا ءَاتٰىكُم مِّنَّا﴾ عطف على بالله ﴿أَزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الملائكة والنصر والآيات المعجزة منها: أن الله تعالى تحقق ما وعدهم إحدى الطائفتين وأنه أخبرهم بميلهم إلى العير دون الجيش وأنه جاء المطر بحيث كان للمسلمين نعمة وعلى الكافرين نقمة وأن أمر الله تعالى بالملائكة حتى سمعوا أصواتهم حين قالوا: أقدم حيزوم ورأوا الرؤوس تتساقط من الكواهل من غير قطع وأثر

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في إباحة الطعام بأرض العدو (٢٦٩٩).

سياط في أبي جهل وأنه رمى النبي صلى الله عليه وآله وسلم المشركين بالحصباء حتى عميت أبصار الكفار أجمعين، وإنه قتل المشركين في أعين المسلمين لتشجيعهم وإنه أشار النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى مصارع المشركين هذا مصرع فلان هذا مصرع فلان فرأى المسلمين ذلك على ما أشار وأنه تعالى حقق قوله صلى الله عليه وآله وسلم بعقبة بن أبي معيط: «إن وجدتك خارج جبال مكة قتلتك صبراً» وإنه صلى الله عليه وآله وسلم أخبر عمه العباس بما استودع أم الفضل فزالت شبهة العباس في نبوته وأن الله تعالى تحقق وعده للمؤمنين بقوله: ﴿إِن يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾^(١) فأعطى العباس بدل عشرين أوقية عشرين غلاماً يتجرون بماله وأن الله سبحانه اطلع نبيه صلى الله عليه وآله وسلم على أيتمار عمير بن وهب وصفوان بن أمية بمكة على قتله فعصم الله وجعله سبباً للإسلام عمير بن وهب وعاد داعياً إلى الإسلام ومنها: انقلاب العرجون سيفاً. روى ابن سعد عن زيد بن أسلم ويزيد بن رومان وغيرهما والبيهقي وابن عساكر عن عمر أن عكاشة بن محصن قاتل يوم بدر بسيفه حتى انقطع فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأعطاه جزلاً من حطب وقال: «قاتل بهذا يا عكاشة» فلما أخذه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هزه فكان سيفاً في يده طويل القامة مديد المتن أبيض الحديد، فقاتل به حتى فتح الله على المسلمين وكان ذلك السيف يسمى العيون ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى قتل في أيام الورد قتله طلحة بن خويلد الأسدي.

وروى البيهقي عن داود بن الحصين عن رجال من بني عبد الأشهل عدة قالوا: انكسر سيف سلمة بن أسلم بن الحرش يوم بدر فبقي أعزل لا سلاح معه، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قضيباً كان في يده من عراجين نخل بني طابة فقال: «اضرب به» فإذا هو سيف جيد فلم يزل عنده حتى قتل يوم خيبر أبي عبيدة. ومنها: ما روى البيهقي أنه ضرب حبيب بن عدي يوم بدر فمال شقه فتفل فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولأمه ورده فانطبق، ومنها ما روى البيهقي عن قتادة بن النعمان أنه أصيب، عينه يوم بدر فسالت حدقته على وجنته فأرادوا أن يقطعوها فسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: لا فدعاه به فغمز حدقته براحته فكان لا يدري أي عينه أصيب ومنها ما روى البيهقي عن رفاع بن رافع قال: لما كان يوم بدر رميت بسهم ففقت

(١) سورة الأنفال، الآية: ٧٠.

عيني فبصف فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودعا لي فما آذاني منها شيء، ومنها ما روى ابن سعد من طريق إسحاق عن عبد الله بن نوفل عن أبيه قال: أسر نوفل يوم بدر فقال: له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أفد نفسك برماحك التي بجدة» قال: والله ما علم أحد ليعلم أن لي بجدة رماحاً بعد الله غيري أشهد أنك رسول الله ففدى نفسه بها وكانت ألف، رمح ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ أي يوم بدر فرق الله فيه بين الحق والباطل حيث أعز الله الإسلام ودفع الكفر وأهله ﴿يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ﴾ حزب الله وحزب الشيطان وكان يوم الجمعة بسبع عشرة مضت من رمضان بعد ستة عشر شهراً من الهجرة ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ إِذْ أَنْتُمْ﴾ بدل من يوم الفرقان يعني إذ كنتم أيها المسلمون نازلين ﴿بِالْعُدْوَةِ﴾ أي شط الوادي ﴿الذُّنْيَا﴾ تأنيث الأذنى يعني العدو الشامية القريبة إلى المدينة ﴿وَهُمْ﴾ يعني المشركين ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ تأنيث الأقصى وكان قياسه قصياً بقلب الواو ياء كالدنيا والعليا تفرقة بين الاسم والصفة فجاء على الأصل كالقود وهو أكثر استعمالاً من القصيا، يعني العدو اليمانية البعيدة من المدينة، قرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر العين فيهما والباقون بضمها فيهما وهما لهنّان ﴿وَالرَّكْبُ﴾ يعني العير يريد أبا سفيان وأصحابه ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ أي في موضع أسفل منكم إلى ساحل البحر على ثلاثة أميال من بدر منصوب على الظرف مرفوع المحل على أنه خبر مبتدأ، والجملة حال من الظرف قبله، وفائدتها الدلالة على قوة العدو واستظهارهم بالركب وحرصهم على المقاتلة وتوطين نفوسهم على أن لا يخلوا مراكزهم ويبدلوا منتهى جهدهم وضعف شأن المسلمين واستبعاد غلبتهم عادة ولذا ذكر مركز الفريقين فإن العدو الدنيا كانت رخوة تسوح فيها الأرجل ولا يمشي فيها إلا بتعب ولم يكن بها ماء بخلاف العدو القصوى ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ المؤمنون أنتم مع الكفار الاجتماع للقتال ثم علمتم وكثرة عدوكم وقوتهم ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ﴾ أنتم ﴿فِي الْمِيْعَادِ﴾ هيبة عنهم ويأساً من الظفر عليهم ﴿وَلَكِن﴾ الله تعالى جمعكم من غير ميعاد حيث خرجتم للعير وخرج الكفار ليمنعوا غيرهم فالتقوا على غير ميعاد ﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ﴾ أي صار ﴿مَفْعُولًا﴾ من نصر أوليائه وإعزاز دينه وإهلاك أعدائه وقوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنَّا بَيْنًا وَيَبْحَىٰ مَنْ حَىٰ عَنَّا بَيْنًا﴾ بدل من ليقضي الله أو متعلق بقوله مفعولاً.

والمعنى ليموت من مات منهم عن بينة رآها وعبرة عاينها وحجة قامت عليه ويعيش من عاش منهم عن حجة شاهدها لثلا يكون من كفر بعد حجة قامت عليه ويؤمن من آمن على مثل ذلك استعارة للهلاك والحياة للكفر والإسلام يعني من لهذا حاله في علم الله وقضائه قرأ ابن كثير برواية البزي ونافع وأبو بكر ويعقوب حبي بفك الإدغام حملاً على

المستقبل ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَسَعِيحٌ عَلَيْهِمْ﴾ بكفر من كفر وعقابه وإيمان من آمن وثوابه، ولعل الجمع بين الوصفين لاشتغال الأمرين على القول والاعتقاد ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ مقدر باذكر أو بدل ثان من يوم الفرقان أو متعلق بعليم أي يعلم المصالح أن يقللهم في عينك في رؤياك حتى تخير به أصحابك فيكون تثبيتاً لهم وتشجيعاً على عدوهم.

وذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: لأصحابه يوم بدر في أول الأمر: «لا تقانلوا حتى أؤذنكم وإن كذبوكم فارموهم بالنبل ولا تسلوا السيف حتى يغشوكم» فنام في العريش نومة فقال: أبو بكر يا رسول الله قد دنا القوم وقد مالوا منا، فاستيقظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد أراه الله عز وجل إياهم في منامه قليلاً فأخبر بذلك أصحابه، وروى ابن إسحاق وابن المنذر عن حبان بن واسع عن أشياخ من قومه انتبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله هذا جبرائيل أخذ بعنان فرسه يقوده على ثنياه النقع» قال: الحسن معنى في منامك في عينك لأن العين موضع النومة، ﴿وَلَوْ أَرَادْتُمْ كَثِيرًا لَفِشَلْتُمْ﴾ لجبنتم ﴿وَلَسْتَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أمر القتال وتفرقت أرائكم في الثبات والفرار ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ مَكِّمٌ﴾ أي سلمكم المخالفة والفضل ﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَدَاتِ السُّدُورِ﴾ يعلم ما يكون فيها وما يتغير أحوالها وقال ابن عباس علم ما في صدوركم من الحب لله ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾.

قال ابن مسعود لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي أتراهم تسعين؟ قال: أراهم مائة فأسرنا رجلاً منهم فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفاً ﴿وَقَالُوا كَذِبًا﴾ يا معشر المؤمنين ﴿فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ كيلاً يهربوا قال: أبو جهل: إن محمداً وأصحابه أكلة جزور، روى ابن المنذر بن أبي حاتم عن ابن جريج أن أبا جهل قال: يوم بدر: خذوهم أخذاً واربطوهم في الجبال ولا تقتلوا منهم أحداً فنزل ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَمْصَبَ الْبَنُو﴾^(١) قال: وذلك قبل التحام الحرب فلما التحم أراهم إياهم مثلهم رأي العين كما في آل عمران ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ كرره لاختلاف الفعل به أو لأن المراد بالأمر ثمة الالتقاء على الوجه المحكي وههنا إعزاز الإسلام وأهله وإذلال الشرك وحزبه ﴿وَاللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورَ﴾ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

(١) سورة القلم، الآية: ١٧.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيْتُمْ فِيكُمْ فَاقْتَبُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ
 تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنزَعُوا فَنفْسُلُوا وَتَذَهَبَ رِيحَكُمْ وَأَصِيرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ
 الصَّادِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِيشَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّوكَ عَنْ
 سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ
 لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ
 إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ
 يَكْفُرُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ
 اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ حَكِيمٌ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ
 وُجُوهُهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ
 بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَذَابٍ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ
 بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغْتِرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ
 حَتَّى يُفْعِرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَذَابٍ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
 كَذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالِ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيْتُمْ﴾ للمحاربة ﴿فِيكُمْ﴾ يعني جماعة كافرة ولم يصفها
 إشعاراً بأن المؤمنين لا يقاتلون إلا الكفار ﴿فَاقْتَبُوا﴾ لقاتلهم فإن الفرار من الزحف كبيرة
 كما ورد في الصحاح من الأحاديث ﴿وَأَدْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ داعين له بالنصر مستظهريين
 بذكره مترقبين لنصره ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تظهرون بمرادكم من النصر والمثوبة، وفيه تنبيه على
 أن العبد ينبغي أن لا يشغله شيء عن ذكر الله وأن يلتجئ إليه عند الشدائد ويقبل عليه
 بشراً شره فارغ البال واثقاً بأن لطفه لا ينفك عن عبده المؤمن في شيء من الأحوال
 ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في قتال أعدائه وإعزاز دينه ﴿وَلَا تَنزَعُوا﴾ باختلاف الآراء كما
 فعلتم يوم بدر في أول الأمر ويوم أحد ﴿فَنفْسُلُوا﴾ أي تجنبوا منصوب بإضمار أن جواب
 للنهي، وقيل: عطف عليه ولذلك قرئ ﴿وَتَذَهَبَ رِيحَكُمْ﴾ الجزم والريح استعير للدولة ونفاذ
 الأمر وجريانه على المراد وكذا قال: الأخفش كأنها في تمشي أمرها ونفاذه مشبهة بالريح
 في هبوبها ونفوذها، وقال السدي: جراتكم، وقال مقاتل: حدثكم، وقال النصر بن
 شمير: قوتكم، وقال قتادة وابن زيد: المراد به الحقيقة قالوا لم يكن النصر قط إلا بريح
 يبعثها الله يصرف وجوه العدو، وكذا أخرج ابن أبي حاتم عن أبي زيد، ومنه قوله صلى

الله عليه وآله وسلم: «نصرت بالصبا وأهلك عاد بالديور»^(١) متفق عليه من حديث ابن عباس، وعن النعمان بن مقرن قال: شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكان إذا لم يقاتل أول النهار، انتظر حتى تزول الشمس وتهب الرياح وينزل النصر رواه ابن أبي شيبه ﴿وَأَصْبِرُوا﴾ على الموت والجراح ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالنصر والإثابة.

روى البخاري في صحيحه عن سالم أبي النصر مولى عمرو بن عبد الله وكان كاتب له قال: كتب عبد الله بن أبي أوفى كتاباً، فقرأته أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتى مالت الشمس ثم قام في الناس فقال: «يا أيها الناس: لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف» ثم قال: «اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب هازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم»^(٢) ولما أمر الله سبحانه بالجهاد والصبر عليه أمر بإخلاص النية إذ لا عبرة بالأعمال إلا بالنيات.

عن أبي هريرة قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(٣) رواه مسلم، وفي «الصحيحين» في حديث ابن عباس قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ولكن جهاد ونية»^(٤) فقال: عز وجل: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ في المجاهدة والقتال ﴿كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ يعني أهل مكة حين خرجوا منها لحماية العير ﴿بَطْرًا﴾ أي فخراً أو أشراً، قال: الزجاج: البطر الطغيان في النعمة وترك شكرها، قيل: البطر أن يشغله سكر النعمة عن شكرها ﴿وَرِثَاءَ النَّاسِ﴾ وهو إظهار الجميل ليرى وإبطان القبيح، يعني متكبرين بكثرة العدد والمال ورياء الناس ليشنوا عليهم بالشجاعة والسماحة ويعترفوا لعظمتهم ﴿وَيَسُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الاستسقاء، باب: قول النبي ﷺ: «نصرت بالصبا» (١٠٣٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: صلاة الاستسقاء، باب: في ربح الصبا والديور (٩٠٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس (٢٩٦٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير باب: كراهة تمنى لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء (١٧٤٢).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله (٢٥٦٤).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: لا يحل القتال بمكة (١٨٣٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: تحريم مكة وصيدها وخلها وشجرها ولقطتها (١٣٥٣).

عن الإيمان به وبرسوله، وذلك أنه لما رأى أبو سفيان أنه أحرز غيره أرسل إلى قريش أنكم خرجتم لتمنعوا غيركم فقد نجاها فارجعوا، فقال: أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد بديراً فنقيم بها ثلاثاً فننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان ويسمع بها العرب ولا يزالون يهابوننا أبداً فوافوها فسقوا كأس المنايا مكان الخمر وناحت عليهم النوائح مكان القيان فنهى الله سبحانه أن يكون المؤمنون مثلهم بطرين مرائين وأمهم بإخلاص النية والحسبة في نصر دينه ومؤازرة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، ﴿وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ مقدر باذكر ﴿أَعْمَلَهُمْ﴾ يعني عداوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإرادة قتله وقتاله.

وقد ذكرنا في القصة حضور الشيطان عند قريش في دار الندوة وحين أرادوا المسير فذكرت التي بينهم وبين بني بكر من الحرب جاءهم إبليس في صورة سراقه بن مالك بن جعشم ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ ولكم خبر لا يعني لا غالب كائن لكم وليس ليس صلته وإلا انتصب كقولك لا ضارباً زيد عندك.

﴿الْيَوْمَ مِنْكَ الْيَوْمَ﴾ لكثرة عددكم ومالككم وأوهمهم أن ما يفعلون قربان مجيرة لهم حتى قالوا: اللهم انصر إحدى الفتيين وأفضل الدينين ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ من كنانة ﴿فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئْتَانِ﴾ المسلمون والمشركون ورأى إبليس الملائكة نزلوا من السماء وعلم أنه لا طاقة له بهم ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقَبَيْهِ﴾ ولى مدبراً هارباً. روى الطبراني عن رفاعه بن رافع وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس، قال: أمد الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين بألف وكان جبرئيل في خمسمائة وميكائيل في خمسمائة مجنبة وجاء إبليس في جند من الشياطين معه رأيت في صورته رجال من بني مدلج والشيطان في صورة سراقه بن مالك بن جعشم، فقال: الشيطان للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم من الناس وأقبل جبرئيل إلى إبليس فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده ثم ولى مدبراً وشيعته فقال: الرجل: يا سراقه ألسنت تزعم أنك جار لنا ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

فذلك حين رأى الملائكة فتشبت به الحارث بن هشام، وأسلم بعد ذلك وهو يزعم أنه سراقه لما سمع كلامه فضرب الشيطان في صدر الحارث فسقط الحارث، وانطلق إبليس لا يلوي حتى سقط في البحر ورفع يديه وقال يا رب وعدك الذي وعدتني اللهم إني أسألك نظرتك إياي وخاف أي يخلص إليه القتل، فقال أبو جهل: يا معشر الناس لا يهمنكم خذلان سراقه فإنه كان على ميعاد من محمد ولا يهمنكم قتل عتبة وشيبة فإنهم قد

عجلوا فواللات والعزى لا نرجع حتى نقرن محمداً وأصحابه بالجبال ولا ألفين رجلاً منكم رجلاً منهم ولكن خذوهم أخذاً نعرفهم سوء صنيعهم، ويروى أنهم رأوا سراقه بمكة بعد ذلك فقالوا يا سراقه أحرمت الصف وأوقعت فينا الهزيمة، فقال: والله ما عملت شيئاً من أمركم حتى كانت هزيمتكم وما شهدت وعملت فما صدقوه حتى أسلموا وسمعوا ما أنزل الله فيه فعلموا أنه كان إبليس تمثّل لهم.

قال البغوي: قال قتادة قال: إبليس إني أرى ما لا ترون وصدق وقال: إني أخاف الله وكذب والله ما به مخافة الله ولكن علم أنه لا قوة به ولا منعة فأوردتهم وأسلمهم وذلك عادة عدو الله لمن أطاعه إذا التقى الحق والباطل، أسلمهم وتبرأ منهم، وقال عطاء: معناه إني أخاف الله أن يهلكني فيمن يهلك، وقال الكلبي: خاف أن يأخذه جبرئيل ويعرفهم حاله فلا يطبعوه، وقيل: إني أخاف الله أي: أعلم صدق وعده لأوليائه لأنه كان على ثقة من أمر الله، وقيل: معناه أخاف الله عليكم والله شديد العقاب، وقيل: انقطع الكلام عند قوله إني أخاف الله ثم قال: الله شديد العقاب.

عن طلحة بن عبيد الله بن كريب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ما رأى الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدهر ولا أحقر ولا أغيظ منه يوم عرفة وما ذلك إلا لما يرى من تنزل رحمة الله وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما كان يوم بدر فقيل: وما رأى من يوم بدر قال: أما إنه قد رأى جبرئيل عليه السلام وهو يزع الملائكة» رواه مالك مراسلاً والبغوي في شرح السنة والمصابيح والمعالم، واذكر ﴿إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ﴾ بالمدينة حين خرج المسلمون وهم ثلاثمائة وبضعة عشر وسمعوا خروج أبي جهل وغيره في زهاء ألف لقتالهم اغتروا بدينهم حيث خرجوا المقاتلة من لا يدلهم بهم ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ يعني الذين لم يطمثوا إلى الإيمان بعد وبقي في قلوبهم شبهة، وقيل: هم المشركون. وقيل: المنافقون، والعطف لتغاير الوصفين، وقال البغوي: هؤلاء يعني الذين في قلوبهم مرض قوم كانوا بمكة مستضعفين قد أسلموا وحبسهم أقربائهم عن الهجرة فلما خرجت قريش إلى بدر أخرجوهم كرهاً فلما نظروا إلى قلة المسلمين ارتابوا وارتدوا وقالوا ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ﴾ يعني المؤمنين ﴿بِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ فقتلوا جميعاً منهم قبيس بن الوليد بن المغيرة وأبو قيس بن الفاكهة بن المغيرة المخزومي والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب وعلي بن أمية بن خلف الجمحي والعاص بن منبه بن الحجاج، وروى الطبراني عن أبي هريرة بسند ضعيف أنه قال: عتبة بن ربيعة وناس معه من المشركين غر هؤلاء دينهم فقال: الله سبحانه جواباً لهم: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَابْتَغِ

اللَّهُ عَزِيزٌ ﴿١﴾ غالب لا يذل من استجار به وإن قل ﴿حَكِيمٌ﴾ ﴿٢﴾ يفعل بحكمته البالغة ما يستبعده العقل ويعجز عن إدراكه ففعل بالكفار ما لم يكونوا يحتسبون، ولما ذكر الله سبحانه سوء عاقبة الكفار في الدنيا بالقتل والهزيمة أردفه بما صنع بهم بعد الموت فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ ﴿٣﴾ يا محمد يعني ولو رأيت فإن لو نقيضه أن تجعل المضارع ماضياً ﴿إِذْ يَتَوَفَّى﴾ ﴿٤﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٥﴾ ببدر وغير ذلك طرف لترى والمفعول محذوف يعني ولو ترى الكفرة أو حالهم حين يتوفهم ﴿الْمَلَائِكَةَ﴾ ﴿٦﴾ فاعل يتوفى يدل عليه قراءة ابن عامر تتوفى بالتاء، وجاز على قراءة الجمهور أن يكون فاعل يتوفى ضمير الله تعالى والملائكة مبتدأ خبره ﴿يَضْرِبُونَ﴾ ﴿٧﴾ وُجُوهَهُمْ ﴿٨﴾ والجملة حال من الذين كفروا واستغنى فيه بالضمير عن الواو وهو على الأول حال منهم أو من الملائكة أو منهما لاشتماله على الضميرين ﴿وَأَذْبَرَهُمْ﴾ ﴿٩﴾ ظهورهم بسياط النار ومقامع من حديد، أراد تعميم الضرب أي يضربون ما أقبل منهم وما أدبر، وقال سعيد بن جبير ومجاهد: يريد بأدبارهم استاهمهم ولكن الله حيي يكتنى ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ﴾ ﴿١٠﴾ الْحَرِيقِ ﴿١١﴾ عطف على يضربون بإضمار القول أي يقولون ذوقوا بشارة لهم بعذاب النار المؤبدة فعلى هذا بيان لعذابهم في عالم البرزخ، وقال ابن عباس كان المشركون ببدر إذا أقبلوا بوجوههم إلى المسلمين ضربت الملائكة وجوههم بالسيوف وإذا ولوا أدركتهم الملائكة وضربوا أدبارهم فقتلوا من قتل منهم، وكانت تقول الملائكة ذوقوا عذاب الحريق، قيل: كان مع الملائكة مقامع من حديد يضربون بها الكفار فتلتهب النار في جراحاتهم فذلك قوله تعالى: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ﴿١٢﴾ وقال ابن عباس يقولون لهم ذلك بعد الموت وجواب لو محذوف يعني لرأيت أمراً فزيعاً مهولاً ﴿ذَلِكَ﴾ ﴿١٣﴾ الذي وقع لكم في الدنيا والآخرة كائن ﴿بِمَا﴾ ﴿١٤﴾ أي بسبب ما ﴿فَدَمَّتْ أَيْدِيكُمْ﴾ ﴿١٥﴾ أي كسبتم من الكفر والمعاصي عبر باليدين لأن عامة الأفعال يزاول بهما ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ﴿١٦﴾ عطف على ما كسبت للدلالة على أن سببية مقيدة بانضمامه إليه إذ لولاه لأمكن أن يعذبهم بغير ذنوبهم لا أن لا يعذبهم بذنوبهم فإن ترك التعذيب من مستحقه ليس بظلم شرعاً ولا عقلاً بل هو رحمة ومغفرة فلا يتنهض نفي الظلم سبباً للتعذيب، وظلام للتكثير لأجل العبيد وهذا بقية كلام الملائكة للكفار ﴿كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ ﴿١٧﴾ خبر مبتدأ محذوف يعني دأب هؤلاء الكفار يعني عملهم وطريقهم الذي دأبوا فيه أي داموا عليه كدأب آل فرعون ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ﴿١٨﴾ قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ﴿كَفَرُوا بِفَايْتِ اللَّهِ﴾ ﴿١٩﴾ تفسير لدأبهم ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ ﴿٢٠﴾ بالعذاب ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ ﴿٢١﴾ كما أخذ هؤلاء ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿٢٢﴾ لا يغلبه شيء ولا يدفع عذابه شيء ﴿ذَلِكَ﴾ ﴿٢٣﴾ الذي حل بهم ﴿بِأَنَّ﴾ ﴿٢٤﴾ أي بسبب إن ﴿اللَّهُ لَمَّ يَكُ﴾ ﴿٢٥﴾ أصله يكون حذف الحركة

للجزم ثم الواو لالتقاء الساكنين ثم النون لشبهه بالحروف اللينة تخفيفاً ﴿مُغْفِرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ﴾ مبدلاً إياها بالنعمة كما بدل نعمته بأهل مكة من الأمن والرزق والعزة وكف أصحاب الفيل عنهم بالقتل والأسر يوم بدر ﴿حَتَّىٰ يَغِيرُوا مَا بَأْنفُسِهِمْ﴾ أي يبدلوا ما بهم من حال إلى حال أسوء منه كتغير قريش حالهم من إتباع دين إسماعيل وملة إبراهيم وصلة الرحم وسدانة البيت وإطعام الضيف وسقاية الحاج بمعاداة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه وصددهم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محله والسعي في إراقة دماء من قال: لا إله إلا الله والتكذيب بالآيات والاستهزاء بها إلى غير ذلك مما أحدثوه بعد البعثة.

قال أصحاب التاريخ: إن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي جد عبد مناف جد جد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن قبل كلاب كانوا على دين إسماعيل عليه السلام كابر وكان كل واحد منه ومن آبائه وصياً لأبيه قائماً مقامه في الرياسة بالوصية عن أبيه وموسوماً بالخير والجود وما ظهرت عبادة الأصنام، وتبديل دين إبراهيم عليه السلام في أولاد إسماعيل إلا في زمن قصي كلاب وكان كعب بن لؤي أول من جمع العروبة وكانت تجمع إليه قريش في هذا اليوم فيخطبهم ويذكرهم بمبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويعلمهم بأنه ولده ويأمرهم بإتباعه والإيمان به وينشد أبياتاً منها قوله:

يا ليتني شاهداً فحواى دعوته إذا قريش يبغى الحق خذلانا

وكان قصي يصنع طعاماً كثيراً للحاج أيام منى وعرفات، وهذه هي الرمادة، ويصنع حياضاً من آدم فيسقي فيها من المياه التي بمكة ومنى وعرفات ويقال لها: السقاية يجري ذلك بأمره في الجاهلية حتى قام الإسلام ثم جرى في الإسلام على ذلك وأحدث قصي وقود النار بالمزدلفة حتى يريها من دفع من عرفة ولا يضل الطريق ولم يزل ذلك الوقود وكانت النار توقد بالمزدلفة على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان وأول من غير دين إسماعيل وعبد الأصنام وسب السواثب عمرو بن لحي الخزاعي، قال: السدي: نعمة الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنعم الله تعالى على قريش وأهل مكة فكذبوه وكفروا به فنقله الله إلى الأنصار. وقيل: لم يكن لأهل مكة وآل فرعون حالة مرضية لكنهم تغيروا الحال المسخوطة إلى أسخط منها فإنهم كانوا قبل البعثة كفرة عبدة الأصنام وبعد البعثة كذبوا الرسول وسعوا في قتله وصدوا عن سبيل الله فغيروا حالهم إلى أسوء مما كانوا عليه فغير الله الإمهال بتعجيل العذاب في الدنيا وليس السبب عدم تغير الله ما أنعم عليهم حتى يغيروا حالهم بل ما هو المفهوم له وهو جرى عادة الله

على تغييره نعمائه بالنقمات إذا غيروا حالهم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يفعلون ﴿كَذَّابٍ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ فيه زيادة دلالة على كفران النعم وجحود الحق ﴿فَأَهْلَكْتَهُمْ بَدُوءِهِمْ﴾ أهلكنا بعضهم بالغرق وبعضهم بالرجفة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالمسخ وبعضهم بالريح ﴿وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ كذلك أهلكنا كفار بدر بالسيف لما كذبوا بآيات ربهم وكرر الله سبحانه قوله كذاب آل فرعون إلخ للتأكيد، وقيل: الأول بسببية الكفر والأخذ به والثاني: بسببية التغبر في النعمة بسبب تغييرهم ما بأنفسهم.

ولأن الأول الأخذ بالذنوب بلا بيان وههنا بين أنه الهلال والاستئصال ﴿وَكُلٌّ﴾ من الأولين والآخرين ﴿كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرْوَةٍ وَهُمْ لَا يُتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فِيمَا تَثَقَفْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدَ بِهَمَّ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكَرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنُصْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَالْفَتْحَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أصروا على الكفر ورسخوا فيه ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ احترز به عن الذين كفروا ثم آمنوا وحسن إسلامهم أو هو إخبار عن قوم طبعوا على الكفر بأنهم لا يؤمنون، والفاء للعطف والتنبيه على أن تحقق المعطوف عليه يستدعي تحقق المعطوف يعني الذين كفروا واستقر في علم الله تعالى كفرهم فهم لا يؤمنون وهذا عام يشتمل كل من يموت على الكفر، وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال: نزلت ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية في ستة رهط من اليهود فيهم ابن التابوت وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ بدل من الذين كفروا إما بدل البعض للتخصيص بدمهم وإما

بذل الكل على رواية سعيد بن جبير والمعنى عاهدتهم وكلمة من لتضمن المعاهدة معنى الأخذ، يعنى أخذت منهم العهد ﴿ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرْزَأَةٍ﴾ عاهدتهم وهم بنو قريظة كتب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كتاباً بين المهاجرين والأنصار ووادع فيه يهود وعاهدتهم واشترط لهم وعليهم وأقرهم على دينهم وأموالهم لما امتنعوا عن الإسلام كذا قال: ابن إسحاق وذكر نسخة الكتاب نحو ورقتين، ثم هم نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأعانوا المشركين بالسلاح على قتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ثم قالوا: نسينا وأخطأنا فعاهدتهم ثانياً فنقضوا العهد ومال الكفار على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم الخندق وركب كعب بن الأشرف إلى مكة فوافقهم على مخالفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَهُمْ لَا يَنْقُضُونَ﴾ الله حيث يكفرون برسوله بعد ما عرفوه كما يعرفون أبناءهم وينقضون العهود منه كل مرة، روى عبد بن حميد وابن جرير وأبو نعيم أنه قال: لليهود معاذ بن جبل وبشر بن البراء وداود بن سلمة يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل الشرك وتخبرون أنه مبعوث وتصفون بصفته جعلهم الله تعالى شر الدواب لأن شر الناس بل شر الخلائق الكفار وشر الكفار والمصريون وشر المصريون الناكثون العهود فهم شر الدواب. ﴿فَأَمَّا تَثَقَفْتُمُ﴾ تدركنهم ﴿فِي الْحَرْبِ﴾ ناسرتهم ﴿فَشَرَّدَ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ أصل التشريد التفريق على اضطراب، قال: ابن عباس معناه فنكل بهم من وراءهم يعنى أفعل بهؤلاء الذين نقضوا عهدك فعلاً من القتل والتنكيل تفرق منك ويخافك من خلفهم من أهل مكة واليمن، يقال شردت بفلان أي فعلت به فعلاً شرده غيره أن يفعل فعله، ومن ههنا لما أمكن الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم على بني قريظة قتل رجالهم كل من أنبت وسبي نسائهم وذرايرهم وقسم أموالهم.

روى الطبراني عن أسلم الأنصاري قال: جعلني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أسارى بني قريظة فكنت أنظر إلى فرج الغلام فإن رأيت أنه أنبت ضربت عنقه ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي لعل من خلفهم ﴿يَذْكُرُونَ﴾ يتذكرون ويتعظون فلا ينقضون العهد ﴿وَأَمَّا تَخَافَتْ مِنْ قَوْمٍ﴾ معاهدين ﴿خِيَانَةً﴾ أي عهد يظهر لك منهم آثار الغدر ﴿فَأَيُّذُ إِلَيْهِمْ﴾ أي اطرح إليهم عهدهم ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ أي على عدل وطريق قصد أو على سواء منك وهم في العلم بنقض العهد، يعنى أعلمهم قبل الحرب أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم حتى لا يكون خيانة منك، روى أبو الشيخ عن ابن شهاب قال: دخل جبرئيل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: قد وضعت السلاح وما زلنا في طلب القوم فاخرج فإن الله قد أذن

لك في قريظة وأنزل فيهم: ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ الآية، قلت: وذلك بعد غزوة الأحزاب، وقال الحافظ محمد يوسف الصالحى في سبيل الرشاد: كانت قينقاع أول يهود نقضوا العهد وأظهروا البغي والحسد وقطعوا ما كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من العهد فبينما هم على ما هم من إظهار العداوة ونبذ العهد قدمت امرأة من العرب يجلب لها قناعها بسوق بني قينقاع وجلست إلى صائغ بها لحلي فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فلم تفعل، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها من ورائها فخله بشوكة وهي لا تشعر فلما قامت بدت عورتها فضحكوا منها فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وكان يهودياً وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ونبذوا العهد واستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود وغضب المسلمون فوق الشر بينهم وبين بني قينقاع وأنزل الله سبحانه: ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ﴾ فقال: صلى الله عليه وآله وسلم: «إنما أخاف من بني قينقاع» فسار إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بهذه الآية، وحمل لواء حمزة بن عبد المطلب واستخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر فتحصنوا في حصنهم فحاصرهم أشد الحصار خمسة عشر ليلة حتى قذف الله في قلوبهم الرعب، فنزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أن لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أموالهم وأن لهم النساء والذرية وأمرهم أن يجلووا من المدينة فخرجوا بعد ثلاث فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صفية والخمس وقسم أربعة أخماسه على أصحابه وكان أول خمس بعد بدر ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ﴾.

روى البغوي بسنده عن رجل من حمير قال: كان بين معاوية وبين الروم عهد وكان يسير نحو بلادهم حتى إذا انقضى العهد غزاهم فجاء رجل على فرس وهو يقول: الله أكبر الله أكبر وفاء لا غدر فإذا عمرو بن عبسة، فأرسل إليه معاوية فسأله فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقده ولا يحلها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم عهدهم على سواء» فرجع معاوية ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ قرأ حفص وابن عامر وحمزة لا يحسبن بالياء التحتانية على أن الفاعل الموصول والمفعول الأول أنفسهم فحذف التكرار والفاعل ضمير من خلفهم، وقرأ الباقر بالتاء فوقانية على الخطاب ومفعولاه الذين كفروا سبقوا يعني لا تحسبنهم سابقين فائتين من عذابنا، قال: البغوي: نزلت الآية في الذين انهزموا يوم بدر من المشركين ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ قرأ ابن عامر بفتح الألف والمعنى لأنهم لا يعجزون، وقيل:

لا زائدة والمعنى لا يحسبن الذين كفروا أنهم يعجزون وسبقوا حينئذٍ حال بمعنى سابقين أي مفلتين وقرأ الجمهور بكسر الألف على الابتداء ﴿وَأَعِدُّوا﴾ أيها المؤمنون ﴿لَهُمْ﴾ أي لنا قضي العهد أو للكفار ﴿مَا أَسْتَطَعْتُمْ﴾ إعدادها والإعداد اتخاذ الشيء لوقت الحاجة ﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾ أي أسباب والآت وأعمال يقويكم على حربهم من الخيل والسلاح والمصارعة ونحو ذلك واللهو بالرمي والبندقية وغير ذلك ومنه جمع المال عدة للجهاد، وقيل: هي الحصون.

عن عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو على المنبر يقول: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ألا أن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي»^(١) رواه مسلم، وعنه قال: «ستفتح عليكم الروم ويكفيكم الله فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه»^(٢) رواه مسلم، وعن أبي نجیح السلمي قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «من بلغ بسهم في سبيل الله فهو له درجة في الجنة ومن رمى بسهم في سبيل الله فهو له عدل محرر»^(٣) رواه النسائي، وروى أبو داود الفصل الأول: وروى الترمذي الفصل الثاني، وزاد: «من شاب شيبة في سبيل الله كانت له نوراً يوم القيامة» وروى البيهقي في شعب الإيمان الفصول الثلاثة غير أنه قال: «من شاب شيبة في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة» وعن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «من علم الرمي ثم تركها فليس منا أو قد عصي»^(٤) رواه مسلم، وعن أبي أسيد قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر حين صففنا لقريش وصفوا لنا: «إذا أكثبوكم فعليكم بالنبل»^(٥) رواه البخاري، وعن عقبة بن عامر الجهني قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن الله تعالى يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر في الجنة صانعه يحتسب في صنعته الخير والرامي به ومنبله فارموا واركبوا وأن ترموا أحب إلي من أن تركبوا كل شيء يلهو به الرجل باطل إلا رمية

- (١) أخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه (١٩١٧)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد باب: في الرمي (٢٥١٢).
- (٢) أخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه (١٩١٨)، وأخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأنفال (٣١٨٢).
- (٣) أخرجه النسائي في كتاب: الجهاد، باب: ثواب من رمى بسهم في سبيل الله عز وجل (٣١٣٤).
- (٤) أخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه (١٩١٩).
- (٥) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: التحريض على الرمي (٢٩٠٠).

بقوسه وتأديبه بفرسه وملاعبته امرأته فإنهن من الحق»^(١) رواه الترمذي وابن ماجه، وزاد أبو داود والدارمي: «ومن ترك الرمي بعدما علمه رغبة عنه فإنه نعمة تركها» أو قال: «كفرها» وفي رواية للبخاري: «إن الله يدخل بالسهم الواحد الجنة ثلاثة صانعه والممد به والرامي به في سبيل الله ﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ يعني ربط الخيل واقتناءها للغزو فهو مصدر سمي به، قال: البيضاوي: هو اسم للخيل الذي يربط في سبيل الله مصدر سمي به يقال: ربط ربطاً ورباطاً ورباطاً ورباطاً، أو فعال بمعنى مفعول، وأجمع ربيط كفصيل وفصال وعطفها على القوة كعطف جبرئيل وميكائيل على الملائكة.

عن أنس قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «البركة في نواصي الخيل»^(٢) متفق عليه، وعن جرير بن عبد الله قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يلوي ناصية فرس بأصبعه وهو يقول: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والغنيمة»^(٣) رواه مسلم ورواه البخاري من طريق البخاري من حديث عروة البارقي، وعن أبي هريرة قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصدقاً بوعده فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة»^(٤) رواه البخاري، وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الخيل ثلاثة هي لرجل وزر ولرجل ستر ولرجل أجر، فأما التي هي له وزر فرجل ربطها رياء وفخراً ونواء على أهل الإسلام فهي له وزر، وأما التي هي له ستر فرجل ربطها في سبيل الله ثم لم ينس حق الله في ظهورها ولا في رقابها فهي له ستر، وأما التي هي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله لأهل الإسلام في مرج وروضة فما أكلت من ذلك المرج

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل الجهاد، باب: ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله (١٦٤١)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في الرمي (٢٥١١)، وأخرجه النسائي في كتاب: الخيل، باب: تأديب الرجل فرسه (٣٥٧١)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الجهاد، باب: الرمي في سبيل الله (٢٨١١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٢٨٤٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (١٨٧٤).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (١٨٧٣).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: من احتبس فرساً (٢٨٥٣)، وأخرجه النسائي في كتاب: الخيل، باب: علف الخيل (٣٥٧٥).

أو الروضة من شيء إلا كتب له عدد ما أكلت حسنات وكتب له عدد أوراها وأبوالها حسنات ولا يقطع طولها فاستنت شرفاً أو شرفين إلا كتب له عدد آثارها وأرواها حسنات ولا مربها صاحبها على نهر فشربت منه ولا يريد أن يسقيها إلا كتب الله له عدد ما شربت حسنات^(١) رواه مسلم، وفي رواية البغوي في الصنف الثاني: «رجل ربطها تغنياً وتعففاً ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي لذلك ستر» وعن أبي وهب الجشمي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ارتبطوا الخيل وامسحوا لنواصيها وأعجازها أو قال: أكفالتها وقلدوها ولا تقلدوها الأوتار»^(٢) رواه أبو داود النسائي ﴿تَرْهَبُونَ بِهِ﴾ أي تخوفون به، وعن يعقوب ترهبون بالتشدد والضمير لما استطعتم أو للإعداد ﴿عَدُّوْاَ اللّٰهَ وَعَدُّوْكُمْ﴾ الإضافة للعهد يعني كفار مكة ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ أي من غير أهل مكة من الكفار وقال مجاهد ومقاتل: هم بنو قريظة، وقال السدي: هم أهل فارس وقال ابن زيد والحسن هم المنافقون ﴿لَا نَعْلَمُونَهُمْ﴾ لأنهم معكم يقولون لا إله إلا الله، وقيل: هم كفار الجن أخرجه أبو الشيخ من طريق أبي المهدي عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأخرج الطبراني مثله من حديث يزيد بن عبد الله بن غريب عن أبيه عن جده مرفوعاً ﴿اللّٰهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ﴾ في الجهاد ﴿يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ﴾ يوفر لكم جزاؤه ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَنْظُرُونَ﴾ لا ينقص أجوركم، عن زيد بن خالد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من جهز غازياً فقد غزا ومن خلف في أهله فقد غزا»^(٣) متفق عليه، وعن أبي مسعود الأنصاري قال: وجاء رجل بناقة مخطومة فقال: هذه في سبيل الله فقال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة»^(٤) رواه مسلم، وعن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وأستكم»^(٥) رواه أبو داود النسائي والدارمي، وعن خزيم بن

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: إثم مانع الزكاة (٩٨٧)، وأخرجه النسائي في كتاب: الخيل (٣٥٥٥).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: إكرام الخيل وارتباطها والمسح على أكفالتها (٢٥٥١).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: فضل من جهز غازياً أو خلفه بخير (٢٨٤٣)،

وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة باب: فضل إعانة الغازي في سبيل الله (١٨٩٥).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: فضل الصدقة في سبيل الله وتصنيفها (١٨٩٢)، وأخرجه

النسائي في كتاب: الجهاد، باب: فضل الصدقة في سبيل الله عز وجل (٣١٧٨).

(٥) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: كراهية ترك الغزو (٢٥٠٢)، وأخرجه النسائي في كتاب:

الجهاد، باب: وجوب الجهاد (٣٠٨٧).

فأثك قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من أنفق في سبيل الله كتب له بسبعمئة ضعف»^(١) رواه الترمذي والنسائي، وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «للغازي أجره وللجاعل أجره وأجر الغازي»^(٢) رواه أبو داود وعن علي وأبي الدرداء وأبي هريرة وأبي إمامة وعبد الله بن عمرو وجابر بن عبد الله وعمران بن حصين رضي الله عنهم أجمعين كلهم يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من أرسل نفقة في سبيل الله وأقام في بيته فله بكل درهم سبعمئة دراهم ومن غزا بنفسه في سبيل الله وأنفق في وجهه فله بكل درهم سبعمئة ألف درهم، ثم تلا هذه الآية ﴿وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾^(٣) رواه ابن ماجه، وعن عبد الرحمن بن حباب قال: شهدت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يحث على جيش العسرة فقام عثمان فقال: يا رسول الله علي مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ثم حض على الجيش فقام عثمان فقال: علي مائتا بعير بأحلاسها في سبيل الله، ثم حض فقام عثمان فقال: علي ثلاثمئة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله فأنا رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينزل عن المنبر وهو يقول: «ما على عثمان ما عمل بعد هذا ما على عثمان ما عمل بعد هذا»^(٤) رواه الترمذي، وعن عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بألف دينار في كفه حين جهز جيش العسرة نشرها في حجرة فرأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقلبيها في حجره، ويقول: «ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم مرتين» رواه أحمد ﴿وَإِنْ جَنَحُوا﴾ أي مالوا يعني الكفار ومنه الجناح ويعدي باللام وإلى ﴿لِلسَّلَامِ﴾ أي للصلح.

قرأ أبو بكر بكسر السين والباقون بالفتح ﴿فَأَجْنَحَ لَهَا﴾ أي مل إليها وعاهد معهم وتأنيت الضمير لحمل السلم على نقيضه وهي الحرب قال: الحسن وقتادة هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾^(٥) وقال البيضاوي: الآية مخصوصة بأهل الكتاب لاتصالها بقصتهم، قلت: لا وجه لتخصيصها بأهل الكتاب ولا

- (١) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل الجهاد، باب: ما جاء في فضل النفقة في سبيل الله (١٦٢٩)، وأخرجه النسائي في كتاب: الجهاد، باب: فضل النفقة في سبيل الله تعالى (٣١٧٧).
- (٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: الرخصة في أخذ الجعائل (٢٥٢٤).
- (٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الجهاد، باب: فضل النفقة في سبيل الله تعالى (٢٧٦١).
- (٤) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: في مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه (٣٧١٠).
- (٥) سورة التوبة، الآية: ٥.

بالقول بكونها منسوخة بل الأمر للإباحة والصلح جائز مشروع إن رأى الإمام فيه مصلحة وقوله تعالى: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ ليس على عمومه بل خص منه أهل الذمة ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي ثق به ولا تخف من أبطانهم خداعاً فيه فإن الله يعصم من يتوكل عليه من مكر الأعداء ويحييه بهم ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنياتهم ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ بالصلح ليستعدوا لك ويغدروا أو يمكروا بك في الصلح ﴿فَاتَّخَذَ اللَّهُ﴾ فحسبك الله وكافيك لدفع خداعهم ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِتَرْوِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ جميعاً ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ بعدما كان بين جماعة منهم أعني الأوس والخزرج من العداوة والضغينة والشر والفساد، كما ذكرنا في سورة آل عمران في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾^(١) ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني كانت العداوة بينهم بمرتبة لو أنفق منفق في إصلاح ذات بينهم ما في الأرض جميعاً من الأموال لم يقدر على الألفة والإصلاح ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ بقدرته البالغة فإن القلوب كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ تام القدرة والغلبة لا يمكن تخلف مراده ﴿حَكِيمٌ﴾ يعلم أنه كيف ينبغي أن يفعل ما يريد.

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرِضُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿لَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿مَا كَانَتْ لِيُنِي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُشْخِطَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿لَوْلَا كَتَبَ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمَّا كُنْ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٧١﴾

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ كافيك ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: أكثر المفسرين محله

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

الجر عطف على الكاف على مذهب الكوفيين أو النصب على أنه المفعول معه كقول الشاعر:

حسبك والضحاك سيف مهند

والمعنى حسبك وحسب من اتبعك الله وهذا بعيد لفظاً قريب معنى، وقال بعض المفسرين محله الرفع عطفاً على اسم الله تعالى يعني حسبك الله ومتبعوك من المؤمنين، وهذا قريب لفظاً بعيد معنى، لكن يؤيده ما رواه ابن أبي حاتم بسند صحيح عن سعيد قال: لما أسلم مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلاص وثلاثون رجلاً وست نسوة ثم أسلم عمر نزلت هذه الآية وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن المسيب قال: لما أسلم عمر أنزل الله في إسلامه ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ الآية، وأخرج الطبراني وغيره من طريق سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال: أسلم مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم تسع وثلاثون رجلاً وامرأة ثم إن عمر أسلم فصاروا أربعين فنزل ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ﴾ الآية.

وروى البزار بسند ضعيف من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: لما أسلم عمر قال: المشركون: قد انتصف القوم منا اليوم وأنزل الله هذه الآية، هذه الأحاديث تدل على أن الآية مكية وسياق الكلام يقتضي كونها مدنية فإن السورة نزلت بعد غزوة بدر.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرِيصِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ أي: بالغ على الأمر يجعل المأمور عاجزاً مضطراً إلى فعله كما يجعل المرض عاجزاً مضطراً إلى الهلاك ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ﴾ رجلاً ﴿مَكِيدُونَ﴾ على القتال محتسبون ﴿يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ من عدوهم ويقهروهم ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ﴾ محتسبة ﴿يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ يعني أن المشركين يقاتلون على غير احتساب وطلب ثواب جاهلين بالله واليوم الآخر فلا يشبتون إذا صبرتم على القتال لطلب الثواب والدرجات العلى فإنهم يخافون الموت، وهذا خبر بمعنى الأمر بمصابرة الواحد في مقابلة العشرة ووعد بأنهم إن صبروا غلبوا بعون الله وتأيده وكان هذا يوم بدر فرض الله تعالى على رجل واحد قتال عشرة من الكفار، أخرج إسحاق عشرة ثقل ذلك عليهم وشق فوضع الله عنهم وأنزل ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ في البدن وقيل: في البصيرة وكانوا متفاوتين فيها قرأ عاصم وحمزة بفتح الضاد والباقون بالضم وهما لغتان، وقرأ أبو جعفر ضعفاء بفتح العين والمد والباقون بسكون العين ﴿فَإِنْ يَكُنْ﴾ قرأ الكوفيون بالياء التحتانية والباقون بالتاء الفوقانية ﴿مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ من الكفار ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ﴾ صابرة ﴿يَغْلِبُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بإرادته فرد الأمر من العشرة إلى اثنين فإن كان المسلمون على الشطر من عدوهم لا

يجوز لهم الفرار، وقال سفيان قال: شبرمة وأرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل هذا، قيل: كان فيهم قلة فأمرُوا بقتال واحد مع العشرة ثم لما كثروا خفف الله عنهم وتكرير المعنى الواحد بذكر الأعداد المتناسبة للدلالة على أن حكم القليل والكثير واحد.

﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالنصر والمعونة فكيف لا يغلبون ولم لا يصبرون، روى أحمد عن أنس وابن مردويه عن أبي هريرة وابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وحسنه وابن المنذر والطبراني وغيرهم عن ابن مسعود، وابن مردويه عن ابن عباس وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم عن ابن عمر أنه لما كان يوم بدر جيء بالأسرى وفيهم العباس رضي الله عنه أسره رجل من الأنصار وقد وعدته الأنصار أن يقتلوه فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لم أنم الليلة من أجل عمي العباس وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه» فقال: له عمر رضي الله عنه: فأتيتهم قال: نعم، فأتى الأنصار فقال: لهم: أرسلوا العباس فقالوا: والله لا نرسله، فقال: لهم عمر: فكان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رضاً، قالوا: فإن كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رضاً فخذوه فأخذه عمر فلما صار عباس في يده قال: له: يا عباس أسلم فوالله لئن تسلم أحب إلي من أن يسلم الخطاب وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعجبه إسلامك.

وروى البخاري والبيهقي عن أنس بن مالك أن رجلاً من الأنصار استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: يا رسول الله إئذن لنا فلتترك لابن أختنا عباس فداءه؟ قال: «لا والله لا تدرن درهماً» فاستشار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ما تقولون في هؤلاء الأسرى إن الله قد مكنكم منهم وإنما هم إخوانكم؟ فقال أبو بكر يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أهلك وقومك، قد أعطاك الله الظفر ونصرك عليهم هؤلاء بنو العم والعشيرة والأخوان استبقهم وإني أرى أن تأخذ الفداء منهم فيكون ما أخذنا منهم قوة لما على الكفار وعسى أن يهديهم بك فيكونوا لك عضداً، فقال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما تقول يا ابن الخطاب؟ قال: يا رسول الله قد كذبوك وأخرجوك وقاتلوك ما أرى ما أرى أبو بكر ولكني أرى أن تمكثني من فلان قريب لعمر فأضرب عنقه حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا مودة للمشركين هؤلاء صناديد قريش وأئمتهم وقادتهم فأضرب أعناقهم، وقال عبد الله بن رواحة يا رسول الله انظر وادياً كثير الحطب فأضرمه عليهم ناراً، فقال: العباس وهو يسمع ما يقول: قطعت رحمك فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم البيت فقال: ناس: يأخذ بقول أبي بكر وقال ناس:

يأخذ بقول عمر وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة، ثم خرج فقال: «إن الله تعالى ليلين قلوب أقوام حتى تكون ألين من اللبن وإن الله ليشدد قلوب أقوام حتى تكون أشد من الحجارة. مثلك يا أبا بكر في الملائكة مثل ميكائيل ينزل بالرحمة، ومثلك في الأنبياء مثل إبراهيم قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى بن مريم إذ قال: ﴿إِن تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١٣٨﴾ ومثلك يا عمر في الملائكة مثل جبرئيل ينزل بالشدة والبأس والنقمة على أعداء الله ومثلك في الأنبياء مثل نوح إذ قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ ومثلك في الأنبياء مثل موسى إذ قال: ﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ وَأَشْدُدْ عَلَيْنَا قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ لو اتفقتما ما خالفتكما أنتم عالة فلا يفلتن منهم أحد إلا بفداء وبضرب عنق، فقال: عبد الله بن مسعود يا رسول الله إلا سهل بن بيضاء فإنه سمعته يذكر الإسلام فسكت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: فما رأيتني في يوم أخاف أن يقع على الحجارة من السماء مني في ذلك اليوم حتى قال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا سهل بن بيضاء، فلما كان الغد غدا عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر يبيكان فقال: يا رسول الله ما يبكيكما فإن وجدت بكاء بكيت وإلا تباكيت لبكائكما؟ فقال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن كان يصبنا في خلاف ابن الخطاب عذاب أليم ولو نزل العذاب ما أفلت منه إلا ابن الخطاب لقد عرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة منه»^(١) فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ﴾ قرأ أبو جعفر وأبو عمرو وبالتاء الفوقانية والباقون بالياء التحتانية ﴿لَهُ أُسْرَى﴾ كذا قرأ الجمهور وقرأ أبو جعفر أسارى ﴿حَتَّى يُشْرَكَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يكسر القتل ويوهن الكفار ويذل الكفر من أثخنه المرض أثقله فالمفعول محذوف أي: يشخن الأسرى في الأرض قال: في القاموس أثخن فلاناً أي: أي أوهنه وأثخن في العدو وأي: بالغ بالجراحة فيهم ﴿تُرِيدُونَ﴾ أيها المؤمنون ﴿عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ حطامها بأخذ الفداء ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ﴾ لكم ثواب ﴿الْآخِرَةَ﴾ بقتل المشركين ونصركم دين الله ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

قال ابن عباس كان هذا يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل فلما كثروا واشتد سلطانهم نسخ الله تعالى هذا الحكم بقوله: ﴿فَأَمَّا مَتَا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ﴾^(٢) فجعل لنبيه ﷺ والمؤمنين في

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة بدر (١٧٦٣).

(٢) سورة محمد، الآية: ٤.

أمر الأسارى خياراً إن شأؤوا قتلوهم وإن شأؤوا استعبدوهم وإن شأؤوا أفادوهم وإن شأؤوا أعتقوهم.

مسألة

أجمع العلماء على أنه يجوز للإمام في الأسارى القتل كما يدل عليه هذه الآية وكما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ببني قريظة، وقد قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صبر النضر بن الحارث وطعيمة بن عدي وعقبة بن أبي معيط، قال: في سبيل الرشاد: قال: عقبة بن أبي معيط يا محمد من للصبية قال: النار قتله ابن أبي الأفلح في قول ابن إسحاق وقال ابن هشام قتله علي بن أبي طالب.

مسألة

ويجوز استرقاق الأسارى أيضاً إجماعاً لأن فيه دفع شرهم مع وفور المصلحة لأهل الإسلام، ومن ههنا قال: أبو حنيفة ليس لواحد من الغزاة أن يقتل أسيراً بنفسه لأن الرأي فيه إلى الإمام ولكن لا يضمن بقتله شيئاً.

مسألة

واختلف العلماء في المنّ على الأسارى يعني: إطلاقهم إلى دار الحرب من غير شيء وفي الفداء بالمال وفي الفداء بأسير مسلم وفي تركهم ذمة لنا؟ فقال: مالك والشافعي وأحمد والثوري وإسحاق وبه قال: الحسن وعطاء: يجوز المنّ والفداء بالمال وبالأسارى، وقال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد والأوزاعي، وبه قال: قتادة والضحاك والسدي وابن جريج لا يجوز المنّ أصلاً وكذا الفداء بالمال لا يجوز على المشهور من مذهب أبي حنيفة وصاحبيه، وفي «السير الكبير» أنه لا بأس به إذا كان بالمسلمين حاجة.

وكذا المفادة بالأسارى لا يجوز على رواية من أبي حنيفة وبه قال: صاحب القدوري والهداية، وأظهر الروایتين عنه ما قال: صاحبه: أنه يجوز المفادة بالأسارى.

وأما تركهم أحراراً في دار الإسلام ذمة لنا فأجازه أبو حنيفة ومالك محتجين بما فعل عمر بأهل العراق والشام، وقال الشافعي وأحمد لا يجوز ذلك لأنهم ملكوا، وجه قول أبي حنيفة في عدم المنّ والفداء أن ردهم إلى دار الحرب إعانة للكفار فإنهم يعودون حرباً علينا فلا يجوز بالمال ولا بالأسير المسلم لأن الأسير المسلم إذا بقي في أيديهم كان في حقه إبتلاء من الله تعالى غير مضاف إلينا، والإعانة بدفع أسيرهم مضاف إلينا

ووجه قوله الجمهور قول تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾^(١) قال: أبو حنيفة هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا تَثَقَفَتْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدَ بِهَمَّ مَنْ خَلْفَهُمْ﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾^(٣) وعند الجمهور قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾^(٤) غير منسوخ لما ذكرنا من قول ابن عباس أنه لما كثر المسلمون واشتد سلطانهم أنزل الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ بَعْدُ﴾ الآية وقوله تعالى: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ المراد به غير الأسارى للإجماع على جواز استرقاقهم وقد قال: أبو حنيفة يجوز تركهم ذمة لنا.

أخرج مسلم في صحيحه وأبو داود والترمذي عن عمران بن حصين أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدى رجلين من المسلمين برجل من المشركين^(٥)، وأخرج أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة عن سلمة بن الأكوع قال: غزونا فزاره مع أبي بكر أمره علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلما كان بيننا وبين الماء ساعة أمرنا أبو بكر فعرسنا ثم شن الغارة فورد الماء فقتل من قتل عليه، فانظر إلى عنق من الناس فيهم الذراري فخشيت أن... يسبقوني إلى الجبل فرميت بسهم بينهم وبين الجبل فلما رأوا السهم وقفوا فجئت بهم أسوقهم وفيهم امرأة من بني فزاره عليها قشع من آدم معها ابنة لها من أحسن العرب فسقتهم حتى أتيت بهم أبا بكر فنقلني ابنتها فقدمنا المدينة ما كشفت لها ثوباً، فلقيني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في السوق فقال: «يا سلمة هب لي المرأة» فقلت: يا رسول الله قد أعجبتني وما كشفت لها ثوباً، فسكت حتى إذا كان من الغد لقيني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في السوق فقال: «يا سلمة هب المرأة لله أبوك» فقلت: هي لك يا رسول الله والله ما كشفت لها ثوباً فبعث بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ففدى بها ناساً من المسلمين كانوا أسروا بمكة^(٦)، وروى ابن إسحاق بسنده وأبو داود من طريقه إلى عائشة قالت: لما بعث أهل مكة فداء أساراهم بعث زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في فداء أبي العاص بمال وبعثت فيه بقلادة كانت خديجة رضي الله عنها أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها، فلما رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك رق لها رقة شديدة وقال لأصحابه: «إن رأيتم أن تطلقوا لها

(١) سورة محمد، الآية: ٤.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٥٧.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٥.

(٤) سورة محمد، الآية: ٤.

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب: السير، باب: ما جاء في قتل الأسارى والفداء (١٥٧١).

(٦) أخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: التنفيل وفداء المسلمين بالأسارى (١٧٥٥).

أسيرها وتردوا الذي لها فافعلوا»^(١) ففعلوا ورواه الحاكم وصححه وزاد وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد أخذ عليها أن يخلي زينب إليه ففعل، وذكر ابن إسحاق أن ممن من علي عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المطلب بن حنطب أسره أبو أيوب الأنصاري فخلي سبيله، وأبو غرة الجمحي كان محتاجاً ذا بنات، فكلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فمن عليه وأخذ عليه أن لا يظهر عليه أحداً وامتدح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأبيات ثم قدم مع المشركين في أحد فأسر فقال: يا رسول الله أقلني فقال: عليه السلام: «لا تمسح عارضيك بمكة بعدها تقول خدعت محمداً مرتين» ثم أمر بضرب عنقه، وذكر في سبيل الرشاد جعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يزم بدر فداء الرجل أربعة آلاف إلى ثلاثة آلاف إلى ألفين إلى ألف ومنهم من منَّ عليه لأنه لا مال له، وفي صحيح البخاري قوله صلى الله عليه وآله وسلم في أسارى بدر: «لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء لتركتهم له»^(٢) وعن أبي هريرة قال: بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم خيلاً قبل يمامة فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال فربطوه في سارية من سواري المسجد فخرج إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي خير يا محمد إن تقتلني تقتل ذا دم وإن تنعم تنعم علي شاكراً وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت فتركه، حتى كان الغد ثم قال: له ما عندك يا ثمامة؟ فقال: كما قال: بالأمس فتركه، حتى كان بعد الغد فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي ما قلت لك، قال: «أطلقوا ثمامة» فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، يا محمد والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك... فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ، والله ما كان دين أبغض إليّ من دينك فأصبح دينك أحب الأديان إليّ، والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك أحب البلاد إليّ وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى فبشره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال: له قائل: صبوت قال: لا ولكنني أسلمت مع محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا والله لا تأتكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن النبي صلى الله عليه وآله وسلم^(٣) والله أعلم.

روى أحمد عن أنس حال استثناء النبي صلى الله عليه وآله وسلم الناس في

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في فداء الأسير بالمال (٢٦٩٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: (٤٠٢٤).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: ربط الأسير وحبه وجواز المن عليه (١٧٦٤).

الأسارى يوم بدر فقال: «إن الله قد أمكنكم منهم» فقال: عمر بن الخطاب يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أضرب أعناقهم فأعرض عنه، فقام أبو بكر فقال: ترى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء فعفى عنهم وقبل منهم الفداء فأنزل الله تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ يعني أنه لا يضل أي لا ينسب إلى الضلال ولا يعذبهم قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون وأنه لا يأخذ قوماً فعلوا شيئاً قبل النهي، كذا قال: الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير في تفسير الآية، وأخرج الترمذي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لم يحل الغنائم لأحد سود الرؤوس من قبلكم كانت تنزل نار من السماء فتأكلها فلما كان يوم بدر وقعوا في الغنائم قبل أن يحل لهم فأنزل الله تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ﴾^(١) يعني قضاء من الله سبق في اللوح المحفوظ أنه يحل لكم الغنائم كذا قال: ابن عباس، وقيل: معناه لولا حكم من الله سبق في اللوح المحفوظ وهو أن لا يعاقب المخطيء في اجتهاده وكان هذا اجتهاداً منهم بأن نظروا في استبقائهم ربما كان سبباً لإسلامهم كما وجد من كثير منهم وأن فدائهم يتقوا به على الجهاد وخفي عليهم أن قتلهم أعز للإسلام وأهيب لمن وراءهم، وقيل: معناه لولا كتاب في اللوح المحفوظ أنه لا يعذب أهل بدر ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ لنا ولكم ﴿فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ من الفداء بالاجتهاد وقبل أن تؤمروا به ومن الغنائم ثم قبل أن يحل لكم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال: ابن إسحاق لم يكن من المؤمنين أحد ممن حضر إلا أحب الغنائم إلا عمر بن الخطاب فإنه أشار على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقتل الأسارى وسعيد بن معاذ قال: يا نبي الله كان الإثخان في القتل أحب إلي من استبقاء الرجال فقال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لو نزل عذاب من السماء ما نجا منه غير عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ» وروى ابن أبي شيبة والترمذي وحسنه النسائي وابن سعد وابن جرير وابن حبان والبيهقي عن علي رضي الله عنه قال: جاء جبرئيل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا محمد إن الله تعالى قد كره ما صنع قومك في أخذهم فداء الأسارى وقد أمرك أن تخيرهم بين أمرين إما أن يقدموا فيضرب أعناقهم وبين أن يأخذوا منهم الفداء على أن يقتل منهم عدتهم فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الناس فذكرهم ذلك، فقالوا: يا رسول الله عشاثرنا وإخواننا نأخذ منهم الفداء فنتقوى به على قتال عدونا ويستشهد منا عدتهم فليس ذلك ما نكره^(٢)، قال: البغوي: روي أنه لما نزلت الآية السابقة كف أصحاب رسول الله صلى

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأنفال (٣٠٨٤).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: السير، باب: ما جاء في الغنيمة (١٥٥٦).

الله عليه وآله وسلم أيديهم عما أخذوا من الفداء ﴿فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ الفاء للتسبيح والسبب محذوف تقديره أبحت لكم الغنائم فكلوا ﴿حَلَالًا﴾ حال من المغنوم وصفة للمصدر رأي أكلاً حلالاً وفائدته إزاحة ما وقع في نفوسهم منه بسبب المعاتبة ولذلك وصفه بقوله: ﴿طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أباح لكم ما أخذتم من الفداء والمغنم قال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فضلت على الأنبياء بست» وذكر فيه: «وأحلت لي الغنائم»^(١).

رواه الترمذي عن أبي هريرة، وروى الطبراني بسند صحيح عن السائب بن يزيد: «فضلت على الأنبياء بخمس وفيه: «وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي» والبيهقي عن أبي أمامة بسند صحيح نحوه غير أنه قال: «فضلت بأربع» والطبراني عن أبي الدرداء نحوه، وروى البغوي عن أبي هريرة قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لم تحل الغنائم لأحد قبلنا وذلك بأن الله رأى ضعفنا وعجزنا فطيبها لنا»، وقال البغوي: روينا عن جابر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبل» والله أعلم.

ذكر البغوي أن العباس بن عبد المطلب أسر يوم بدر وكان أحد العشرة الذين ضمنوا طعام أهل بدر فكان يوم بدر نوبته وكان خرج بعشرين أوقية من ذهب ليطعم بها الناس فأراد أن يطعم ذلك اليوم فاقتلوا وبقيت العشرين أوقية معه فأخذت معه في الحرب فكلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يحتسب العشرين أوقية من فدائه فأبى وقال: أما شيء خرجت به تستعين فلا أتركه لك، وكلف فداء ابني أخيه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث فقال: العباس يا محمد تركتني أتكف قريشاً ما بقيت، فقال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة، وقلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا فإن حدث بي حدث فهذا لك ولعبد الله ولعبيد الله والفضل وقثم يعني بنيه الأربعة، فقال: له العباس وما يدريك؟ قال: أخبرني به ربي، فقال: العباس أشهد أن لا إله إلا الله وأنت عبده ورسوله ولم يطلع عليه أحد إلا الله.

وروى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي وأبو نعيم وإسحاق بن راهويه

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الفرائض، باب: لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم (٦٧٦٤)، وأخرجه مسلم في أول كتاب الفرائض (١٦١٤).

والطبراني وأبو الشيخ من طرق عن ابن عباس وابن إسحاق وأبو نعيم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أسر يوم بدر سبعين من قريش منهم العباس وعقيل فجعل عليهم الفداء أربعين أوقية من الذهب، وروى البيهقي عن إسماعيل بن عبد الرحمن قال: كان فداء العباس وعقيل ونوفل وأخيه أربعمائة دينار، قال: ابن إسحاق وكان أكثر الأسارى فداء يوم بدر فداء العباس نفسه بمائة أوقية من ذهب، وروى أبو داود عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة وادعى العباس رضي الله عنه أنه لا مال عنده فقال: له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فأين المال الذي دفعته أنت أم الفضل وقلت لها إن أصبت في سفري هذا فهذا لبني الفضل وعبد الله والقثم» فقال: والله لأعلم أنك لرسول الله إن هذا شيء ما علمه إلا أنا وأم الفضل والله أعلم.

وقال سعيد بن جبیر: وجعل على العباس مائة أوقية وقالوا: أربعين وعلى عقيل ثمانين أوقية فقال: العباس لقد تركتني أفقر قريش ما بقيت فأنزل الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾ الآية، وذكر محمد بن يوسف الصالحى في سبيل الرشاد أنه قال: جماعة من الأسارى لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منهم العباس رضي الله عنه إنا كنا مسلمين وإنما خرجنا كرهاً فعلام يؤخذ منا الفداء فأنزل الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾ ﴿إِنْ يَصْلِحْ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ ﴿إِيمَانًا وَإِخْلَاصًا﴾ ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ من الفداء بأن يضعفه لكم في الدنيا ويشيبكم في الآخرة ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

روى الطبراني في «الأوسط» عن ابن عباس قال: قال: العباس والله نزلت حين أخبرت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بإسلامي وسألته أن يحاسبني بالعشرين الأوقية التي وجدت معي فأعطاني بها عشرين عبداً كلهم تاجر بمالي في يده مع ما أرجو من مغفرة الله، وذكر البغوي قول العباس أنه أبدلني الله عنها عشرين عبداً كلهم تاجر يضرب بمال كثير وأدناهم يضرب بعشرين ألف درهم مكان العشرين أوقية وأعطاني زمزم وما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة وأنا أنتظر المغفرة من ربي، وذكر في سبيل الرشاد قول العباس حين أنزلت لوددت أنك كنت أخذت مني أضعافها فأتاني الله خيراً منها أربعين عبداً كل في يده مال يضرب به ولاني أرجو من الله المغفرة والله أعلم.

روى البخاري وابن سعد أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أتى بمال من البحرين فقال: «انثروه في المسجد» إذ جاءه العباس فقال: يا رسول الله أعطني إني فاديت نفسي

وفاديت عقيلاً فقال: «خذ» فحشا في ثوبه ثم ذهب يقله فلم يستطع، فقال: مر بعضهم يرفعه إليّ قال: لا... قال: «فارفعه أنت» قال: لا فنثر منه ثم احتمله على كاهله ثم انطلق وهو يقول: إنما أخذ ما وعد الله فقد الجز فما زال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتبعه بصره حتى خفي علينا عجباً من حرصه فما قام رسزل الله صلى الله عليه وآله وسلم وثم منها درهم^(١) ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ يعني نقض ما عهدوك عند انفكاكهم من الأسارى بالافتداء أو بغيره ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ هذا بالكفر ونقض ميثاقه المأخوذ بقوله: ألسن ربكم أو بالعقل ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ يعني فأمكنك منهم يوم بدر جزاء الشرط محذوف أقيم دليله مقامه تقديره إن يريدوا خيانتك يعود عليهم وباله بدليل أنهم قد خانوا من قبل فأمكنك فإن عادوا فسنمكنك منهم مرة أخرى، كما ذكرنا عن ابن إسحاق أنه صلى الله عليه وآله وسلم من على أبي غرة الجمحي فقتله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صبراً ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما في صدورهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَّكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَبَالِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَّكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأَوْلِيَّكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ قومهم وديارهم حباً لله ورسوله يعني الذين هاجروا من مكة ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ﴾ فصرفوها في السلاح والكرراع وأنفقوها في المحاربيج ﴿وَأَنْفُسِهِمْ﴾ في سبيل الله ﴿بمباشرة القتال وإتيان كل ما أمر الله به من العبادات البدنية﴾ ﴿ءَاوَأُوا﴾ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه من المهاجرين في ديارهم بالمدينة ﴿وَنَصَرُوا﴾ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أعداء الله يعني الانصار ﴿أَوْلِيَّكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ﴾

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجزية والموادعة، باب: ما أقطع النبي ﷺ من البحرين (٣١٦٥).

بَعْضٌ ﴿١﴾ دون أقربائهم من الكفار يجوز للمؤمنين موالاة الكفار ولو كانوا آبائهم أو أبنائهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ولا مناصرتهم.

وقال ابن عباس هذا في الميراث كانوا يتوارثون بالهجرة وكان المهاجرون يتوارثون دون ذوي الأرحام وكان من آمن ولم يهاجر لا يرث من قريبه المهاجر حتى فتحت مكة وانقطعت الهجرة فتوارثوا بالأرحام حيث ما كانوا صار ذلك منسوخاً بقوله عز وجل ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾، قلت: وعندي أن هذه الآية غير منسوخة إن كان المراد به الميراث أيضاً فإنه متى أمكن الجمع بين الآيتين لا يجوز القول بنسخ إحداهما، ومعنى قول ابن عباس كان المهاجرون والأنصار يتوارثون دون ذوي الأرحام إن ذوي الأرحام الكفار لا يرثون من المهاجرين لاختلاف الدينين وكان من آمن ولم يهاجر لا يرص من قريبه المهاجر لاختلاف الدارين حتى فتحت مكة وصارت دار إسلام انقطعت الهجرة وأسلم أهل مكة كلهم توارثوا بالأرحام، وكان وجه أخذ الأنصاري ميراث المهاجر عقد الموالاة، وذلك سبب للإرث عند أبي حنيفة رحمه الله إذا لم يكن للميت وارث من النسب أو السبب بلا مانع من الإرث غير منسوخ، وأما أخذ المهاجر ميراث الأنصاري أو الأنصاري ميراث المهاجر مع وجود قريب الميت مؤمناً بالمدينة فلم يثبت ولا دلالة في الآية عليه فلا يجوز القول بكون الآية منسوخة والله أعلم.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّنْ وَلِيَّتِهِمُ﴾ قرأ حمزة بكسر الواو تشبيهاً لها بالعمل والصناعة كالكتابة والرياسة كان بتولية صاحبه يزاول عملاً والباقون بفتح الواو ﴿مِن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ نفي لولايته من لم يهاجر من المؤمنين بمعنى النهي لأجل فسقهم بترك فريضة الهجرة ومنه يظهر أنه يكره للمؤمن ولاية المؤمن الفاسق ما لم يتب، وإن كان المراد بالولاية الميراث فالآية حجة على كون اختلاف الدارين مانعاً من الميراث ﴿وَإِنِ امْتَنَصَرُواكُمْ﴾ يعني المؤمنين الذين لم يهاجروا استنصروكم ﴿فِي الدِّينِ﴾ على أعدائهم من أهل الحرب ﴿الدِّينِ النَّصْرُ﴾ فواجب عليكم أن تنصروهم عليهم ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ فإنه لا يجوز نقض العهد، ولهذا لم ينصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبا جندل وقصته في سورة الفتح ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تحذير عن تعدي حدود الشرع ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ والمقصود منه أنه لا يجوز للمؤمنين موالاة الكفار ولا مناصرتهم وقد قال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم»^(١) رواه الشيخان في «الصحيحين» وأصحاب السنن الأربعة من حديث

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج (١٢١).

أسامة بن زيد، وقد ذكرنا المسألة في سورة النساء وفي تفسير آية الميراث.

مسألة

ذكر في «المبسوط» أنه لو أغار قوم من أهل الحرب على أهل الدار من الكفار التي فيها المؤمن من المستأمن من لا يحل له قتال هؤلاء الكفار إلا إن خاف على نفسه، لأن القتال لما كان تعريضاً لنفسه على الهلاك لا يحل إلا لإعلاء كلمة الله تعالى وإعزاز دينه أو لدفع الضرر عن نفسه وهو إذا لم يخف على نفسه فقتاله لا يكون إلا لأهل الدار من الكفار لإعلاء كلمتهم وذاك يجوز.

مسألة

لو أغار أهل الحرب الذين فيهم مسلمون مستأمنون على طائفة من المسلمين فأسروا ذراريهم فمروا بهم على أولئك المستأمنين وجب عليهم أن يقاتلوهم ويخلصوا المؤمنين من أيديهم لأنهم لا يملكون رقابهم، فتقريرهم في أيديهم تقرير على الظلم ولم يضمنوا ذلك بخلاف الأموال لأنهم ملكوها بالإحراز عند أبي حنيفة وقد ضمنوا لهم أن لا يتعرضوا أموالهم وكذلك لو كان المأخوذ ذراري الخوارج لأنهم مسلمون ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ يعني أن لا تفعلوا ما أمرتم به من التواصل بينكم والتناصر وقطع العلايق بينكم وبين الكفار حتى قطع التوارث ﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ﴾ يحصل فتنة عظيمة وهي ظهر الكفر ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ يعني ضعف الإسلام بترك الجهاد واختلاط المسلمين بالكفار ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الكاملون في الإيمان الصادقون في ادعائهم إسلامهم ﴿حَقًّا﴾ حق ذلك الأمر حقاً لأنهم حققوا إيمانهم بتحصيل مقتضياته من الهجرة وبذل الأموال والأنفس في سبيل الله ونصرة الحق بخلاف من آمن ولم يهاجر ولم يجاهد فإنه وإن صح عليه إطلاق المؤمن حيث قال: الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾ لكنهم ليسوا كاملين في الإيمان ولم يتحقق صدقهم ويحتمل نفاتهم ولا تكرر لأن الآية الأولى للأمر بالتواصل، وهذه الآية واردة للثناء عليهم والوعد لهم بقوله ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ قال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الإسلام يهدم ما كان قبله والهجرة تهدم ما كان قبلها»^(١) وقد مر من حديث عمرو بن العاص، واعلم أنه كان بعض المهاجرين أهل الهجرة الأولى، وهم الذين هاجروا قبل الحديبية

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج (١٢١).

ومنهم من كان ذا الهجرتين الهجرة إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة منهم عثمان وجعفر الطيار وغيرهم.

وكان بعضهم أهل الهجرة الثانية وهم الذين هاجروا بعد صلح الحديبية قبل فتح مكة، والمراد بالآية الأولى أهل الهجرة الأولى لصلح الحديبية ثم ألحق بهم أهل الهجرة الثانية فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ﴾ أي بعد صلح الحديبية ﴿وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ﴾ وكذا من أن يتسم بسمتهم ﴿فَأُولَئِكَ مِنكُمْ﴾ أيها المهاجرون الأولون والأنصار يعني من جملتكم ومن جنسكم يتولى بعضكم بعضاً ويرث بعضكم بعضاً ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ من المؤمنين ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ من الأجانب في التوارث وصلة الرحم وهذا لا ينافي ما سبق والمعنى أن المؤمن إن كان له ذا رحم فهو أولى به من سائر المؤمنين في التوارث فإن كان له ذا رحم الذين ذكر الله تعالى في سورة النساء فهو أولى من غيره يعطي له الميراث على ما أوصله الله تعالى في كتابه وإن لم يكن منهم أحد وكان ذو رحم من غيرهم فهو أولى من الأجانب بهذه الآية.

ويقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «الخال وارث من لا وارث له»^(١) وقد ذكرنا الحديث في سورة النساء فهذه الآية حجة على الشافعي حيث قال: يوضع ماله في بيت المال إن لم يكن للميت ذا فرض ولا عصبه ولا يرث غيرهم من ذوي الأرحام وقدم المسألة في سورة النساء، والمؤمن إن لم يكن له أحد من أولي الأرحام مؤمناً فأولياؤه جماعة المؤمنين بما سبق من الآية الأولى فيوضع ماله في بيت المال لجماعة المسلمين، ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ يعني في حكم الله وقيمته أو في اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءًا عَلِيمٌ﴾ ومنها الموارث والحكمة في إناطتها بالقرابة والإسلام والنكاح والولاء والله أعلم.

تمت تفسير سورة الأنفال من التفسير المظهري ويتلوه

إن شاء الله تعالى تفسير سورة البراءة

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الفرائض، باب: ما جاء في ميراث الخال (٢١٢٤)، وقال: حسن غريب وأرسله بعضهم.

سورة التوبة

مدنية وهي مائة وتسع وعشرون أو مائة وثلاثون آية

عن أبي عطية الهمداني قال: كتب عمر بن الخطاب: تعلموا سورة براءة وعلموا نساءكم سورة النور قلت: لأن في البراءة الحث على الجهاد وفي النور الحث على الحجاب.

وعن عثمان بن عفان قال: كانت البراءة والأنفال تدعيان في زمن رسول الله ﷺ القرينتين فلذلك جمعتهما في السبع الطوال.

ولها أسماء سميت

براءة لأنها براءة عن الكافرين وسورة التوبة لأن فيها توبة على المؤمنين والمقشقة، أخرجه أبو الشيخ وابن مردويه عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عمر لأنها تقشقش أي تبرأ من النفاق، والمبعثرة أخرجه ابن المنذر عن محمد بن إسحاق لما كشفت عن سرائر الناس والبحوث أخرجه ابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه عن أبي رشد الحراني عن المقداد بن الأسود، والمثيرة أخرجه ابن المنذر وأبو الشيخ وابن أبي حاتم عن قتادة لأنها تبعثر النفاق وتبحت عنها وتثيرها وتظهر عوراتهم وتخفر عنها والمنكلة والمدممة وسورة العذاب، أخرج ابن أبي شيبة والطبراني وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه عن حذيفة رضي الله عنه قال: التي تسمونها سورة التوبة هي سورة العذاب والله ما تركت أحداً إلا نالت فيه، وأخرج سورة العذاب أيضاً أبو عوانة وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس عن عمر والفاضحة لكونها فاضحة للمنافقين.

قال البغوي قال: سعيد بن جبير: قلت لابن عباس سورة التوبة قال: هي الفاضحة ما زالت تنزل وتنبههم حتى ظنوا أنها لم تبق أحداً منهم إلا ذكرها فيها قال: قلت: سورة الأنفال قال: تلك سورة بدر، قال: قلت سورة الحشر قال: قل سورة النضير.

وفي وجه ترك البسملة عنها

روى البغوي: بسنده وأحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم وصححه والترمذي وحسنه عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قلت لعثمان رضي الله عنه ما

حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المثين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمن الرحيم وضعتموها في السبع الطوال؟ فقال: عثمان رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ كان مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد فإذا نزل عليه الشيء يدعوا بعض من كان يكتب عنده فيقول: «ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا» وكانت الأنفال مما نزلت بالمدينة، وكانت براءة من آخر ما نزلت، وفي لفظ وكانت الأنفال من أوائل ما نزلت بالمدينة وكانت البراءة من آخر القرآن نزولاً وكانت قصتها شبيهة بقصتها وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لها أنها منها فمن ثم فرنت بينهما ولم أكتب سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها في السبع الطوال^(١).

وقيل: وجه ترك البسمة أنها نزلت لرفع الأمان وبسم الله الرحمن الرحيم أمان كذا أخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال: سألت علي ابن أبي طالب رضي الله عنه لِمَ لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم في براءة قال: لأن بسم الله الرحمن الرحيم أمان وبراءة نزلت بالسيف.

وقيل: اختلف أصحاب رسول الله ﷺ فقال: بعضهم: الأنفال وبراءة سورة واحدة نزلت في القتال وبعد السابعة من الطوال وهي سبع، وقال بعضهم: هما سورتان فتركت بينهما فرجة لقول من قال: هما سورتان وتركت بسم الله الرحمن الرحيم لقول من قال: هما سورة واحدة.

قال البغوي: قال: المفسرون لما خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك كان المنافقون يرجعون الأراجيف يعني يقولون أقوالاً يضطرب بها المسلمون اضطراباً شديداً أو جعل المشركون ينقضون عهوداً كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ، قلت: وذلك لزعمهم أن المسلمين لا يقاومون قتال قيصر ملك الشام فأمر الله تعالى نبيه ﷺ بنقض عهودهم فقال:

﴿بِرَاءةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ① فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ ② وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَنَشِرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ آيَةِ ③﴾

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة التوبة (٣٠٨٦)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: من جهر بها (٧٨٤).

إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْصِرُوهُمْ وَأَقْعِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ .

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قال: الزجاج: يعني قد برىء الله ورسوله إعطائهم العهود والوفاء بها إذا نكثوا فقله براءة حبر مبتدأ محذوف أي هذه براءة، وهي ضد المعاهدة وهي مصدر كالنشأة والدناءة، ومن ابتدائية متعلقة بمحذوف تقديره واصله من الله ورسوله ويجوز أن يكون براءة مبتدأ لتخصيصها بصفاتها خبره ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ أي عاهدتموهم أيها الرسول والمؤمنون ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بيان للموصول علقت البراءة بالله ورسوله والمعاهدة بالرسول والمؤمنين للدلالة على أنه يجب عليهم نبذ عهودهم ﴿فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾ . فيه التفات حيث خاطب المشركين بعد ما ذكرهم على الغيبة أو المعنى فقل لهم سايحوا أي: سيروا في الأرض مقبلين ومدبرين أمنين غير خائفين أحداً من المسلمين والسياحة السير على مهل ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَأَعْلَمُوا أَنَّكَ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أي: غير فائتين ولا سابقين وإن أمهلكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ أي بذلهم بالقتل والأسر في الدنيا والعذاب في الآخرة.

قال الزهري الأشهر الأربعة شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم لأن الآية نزلت في شوال وقال أكثر المفسرين ابتدائها يوم الحج الأكبر وانقضائها إلى عشر من شهر ربيع الآخر لقله تعالى ﴿وَأَذِّنْ﴾ أي: إعلام فعال بمعنى الأفعال كالإمان والعطاء ومنه الأذان للصلاة يقال أذنته فأذن أي: أعلمته فعلم، وأصله من الأذن أي أوقعت في أذنه، ورفع كرفع براءة على الوجهين ﴿مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ﴿٥﴾ .

قال البغوي: روى عكرمة عن ابن عباس أنه يوم عرفة، قال: وروي: ذلك عن عمر بن الخطاب وابن عمر وابن الزبير رضي الله عنهم وهو قول عطاء وطاووس ومجاهد وسعيد بن المسيب، قلت: ومستند هذا القول قوله ﷺ: «الحج عرفة»^(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم والدارقطني والبيهقي من حديث

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الحج، باب: ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج (٨٨٤)، وأخرجه النسائي في كتاب: مناسك الحج، باب: فرض الوقوف بعرفة (٣٠٠٧).

عبد الرحمن بن معمر، وأخرج ابن أبي حاتم عن مسعود بن مخزوم أن رسول الله ﷺ قال: «يوم عرفة وهذا يوم الحج الأكبر».

قال البغوي قال: جماعة: هو يوم النحر، روي عن يحيى بن الخراز قال: خرج علي رضي الله عنه يوم النحر على بغلة بيضاء يريد الجبانة فجاء رجل أخذ بلجام دابة وسأله عن يوم الحج الأكبر فقال: يومك هذا خل سبيلها، أخرج الترمذي عن علي قال: سألت رسول الله ﷺ عن يوم الحج الأكبر؟ قال: «يوم النحر»^(١) ويروى ذلك عن عبد الله بن أبي أوفى والمغيرة بن شعبة وهو قول الشعبي وسعيد بن جبيرة والسدي، قلت: وأخرج أبو داود والحاكم وصححه من حديث ابن عمر أنه ﷺ وقف يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع فقال: «هذا يوم الحج الأكبر»^(٢) قال: البغوي: وروى ابن جريح عن مجاهد يوم الحج الأكبر حين الحج أيام منى كلها، وكان سفيان الثوري يقول: يوم الحج الأكبر أيام منى كلها مثل يوم صفين ويوم الجمل ويوم بعث يراد به الحين والزمان فإن هذه الحروب دامت أياماً كثيرة ووصف الحج بالأكبر لأن العمرة يسمى بالحج الأصغر كذا قال: الزهري والشعبي وعطاء والله أعلم.

قالوا: هذه الآية تدل على أن ابتداء الأشهر الأربعة يوم الحج الأكبر، قلت: ليس في آية الأذان يوم الحج الأكبر التقييد بأربعة أشهر حتى يدل على أن ابتداء الأشهر من ذلك اليوم بل قال: الله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ أي: بأن الله ﴿بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ قرأ يعقوب رسوله بالنصب عطفاً على اسم أن أو لأن الواو وبمعنى مع، والباقون بالرفع عطفاً على المستكن في برىء على الابتداء والخبر محذوف أي: ورسوله برىء وهذا تعميم بعد تخصيص فإن الآية الأولى فيها براءة مختصة بالذين عاهدوا والمراد به الناكثين منهم بدليل الاستثناء الآتي.

وفي هذه الآية براءة عامة إلى المشركين أجمعين عاهدوا ثم نكثوا أو لم يعاهدوا منهم ولذا قال: إلى الناس فلا تكرر غير أن الذين عاهدوا لم ينكثوا خارجون عن هذه البراءة أيضاً لقوله تعالى: ﴿فَأْتَمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ﴾ وليس في هذه الآية الأمر بالسياحة أربعة أشهر حتى يلزم اعتبار ابتداء المدة من هذا اليوم، وعندني أن قوله تعالى: ﴿بِرَاءَةٌ مِنْ اللَّهِ﴾

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الحج، باب: ما جاء في يوم الحج الأكبر (٩٥٣).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: المناسك، باب: يوم الحج الأكبر (١٩٤٥).

وَرَسُولِهِ ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ ﴾ وإن كانت نازلة في المشركين الموجودين في ذلك الوقت الناكثين عهودهم في غزوة تبوك وغير المعاهدين منهم لكن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص المورد فالآية محكمة ناطقة لوجوب قتال الناكثين وغير المعاهدين أبداً فالمراد بقوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أربعة أشهر من كل سنة وهي الأشهر الحرم بدليل قوله تعالى ﴿فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾ الآية وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾^(١) فإن قيل: قال: قوم القتال في الأشهر الحرم كان كبيراً ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿أَنْفُسِكُمْ الْمَشْرِكِينَ كَافَّةً﴾^(٢) كأنه يقول فيهن وفي غيرهن، وهو قول قتادة وعطاء الخراساني والزهري وسفيان الثوري وقالوا لأن النبي ﷺ غزا هوازن بخنسين وثقيفاً بالطائف وحاصر في شوال وبعض ذي القعدة.

قلنا: هذا القول عندي غير صحيح لأن قوله تعالى: ﴿أَنْفُسِكُمْ الْمَشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ من تنمة قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الَّذِي الْقَيْمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمَشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ ولا بد في النسخ من التراخي والقول بالتخصيص هنا غير متصور، والقول بأن معنى قوله تعالى: قاتلوا المشركين كافة فيهن وفي غيرهن باطل لأنه يدل على تعميم الأفراد دون تعميم الزمان وحصاره ﷺ الطائف في بعض ذي القعدة ثابت بأحاديث الآحاد ولا يجوز نسخ الكتاب بها كيف وسورة التوبة نزلت بعد غزوة الطائف، وقد قال: رسول الله ﷺ في خطبة يوم النحر في حجة الوداع قبل وفاته بثمانين يوماً: «إن الزمان استدار كهيئة يوم خلق السموات والأرض السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان»^(٣) الحديث رواه الشيخان في الصحيحين من حديث أبي بكر، ويحتمل أن يكون جواز حصار الطائف في ذي القعدة مختصاً بالنبي ﷺ أبيح له القتال فيها كما أبيح له القتال في الحرم قال: رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الأضاحي، باب: من قال الأضحى يوم النحر (٥٥٥٠). وأخرجه مسلم في كتاب: القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب: تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (١٦٧٩).

الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة وإنه لم يحل القتال لأحد قبلي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار»^(١) الحديث متفق عليه من حديث ابن عباس، وفي الصحيحين من حديث أبي شريح العدوي: «فإن أحد ترخص بقتال رسول الله فيها فقولوا له إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس».

قصة: لما نزلت هذه في شوال سنة تسع بعث رسول الله ﷺ علياً ليقراها على الناس في الموسم، روى النسائي عن جابر بن عبد الله أنه بعث أبا بكر على الحج فأقبلنا معه حتى إذا كنا بالعرج ثوب بالصبح فلما استوى للتكبير سمع الرغوة خلف ظهره ووقف عن التكبير، فقال: هذه رغوة ناقة رسول الله ﷺ الجداء لقد بد الرسول الله ﷺ في الحج فلعله أن يكون رسول الله ﷺ فنصلي معه فإذا علي عليها، فقال: له أبو بكر أمير أم رسول؟ قال: لا بل رسول أرسلني رسول الله ﷺ ببراءة أقرأها على الناس في مواقف الحج فقدمنا مكة، فلما كان قبل يوم التروية بيوم قام أبو بكر فخطب الناس فحدثهم عن مناسكهم حتى إذا فرغ قام علي فقرأ على الناس براءة حتى ختمها ثم خرجنا معه حتى إذا كان يوم عرفة قام أبو بكر فخطب الناس فعلمهم مناسكهم حتى إذا فرغ قام علي فقرأ على الناس براءة حتى ختمها، ثم كان يوم النحر فأفضنا فلما رجع أبو بكر خطب الناس فحدثهم عن إفاضتهم وعن نحرهم وعن مناسكهم فلما فرغ قام علي فقرأ على الناس براءة حتى ختمها، فلما كان يوم النفر الأول قام أبو بكر فخطب الناس فحدثهم كيف ينفرون وكيف يرمون يعلمهم مناسكهم فلما فرغ قام علي فقرأ على الناس براءة حتى ختمها^(٢). قال: البغوي: بعث أبا بكر تلك السنة أميراً على الموسم ثم بعث بعده علياً على ناقته العضباء ليقراها على الناس صدر سورة براءة وأمره أن يؤذن بمكة ومنى وعرفات أن قد برئت ذمة الله وذمة رسوله من كل مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، فرجع أبو بكر فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي أنزل في شأني شيء قال: لا ولكن لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلا رجل من أهلي أما ترضى يا أبا بكر أنك كنت معي في الغار وأنت صاحبني على حوضي قال: بلى يا رسول الله، فسار أبو بكر رضي الله عنه أميراً على الحج وبعثني رضي الله عنه ليؤذن براءة فلما كان قبل يوم

(١) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: ليلبلغ العلم الشاهد الغائب (١٠٤)، وأخرجه مسلم في

كتاب: الحج، باب: تحريم مكة وصيدها وخلاتها ولقطنها (١٣٥٤).

(٢) أخرجه النسائي في كتاب: مناسك الحج، باب: الخطبة قبل يوم التروية (٢٩٨٤).

التروية بيوم خطب أبو بكر الناس وورثهم عن مناسكهم وأقام للناس الحج والعرب في تلك السنة على منازلهم التي كانوا عليها في الجاهلية من الحج، حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأذن في الناس بالذي أمر وقرأ عليهم سورة براءة.

وقال زيد بن تبغ سألتنا علياً بأي شيء أبعثت في الحج؟ قال: بعثت بأربع لا يطوف بالبيت عريان ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته ومن لم يكن له مدة فأجله أربعة أشهر ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ولا يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم هذا.

روى الشيخان في الصحيحين عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال: بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحج في مؤذني يوم النحر يؤذن بمنى ألا لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، قال: حميد بن عبد الرحمن ثم أردف رسول الله ﷺ علياً فأمره أن يؤذن ببراءة، قال: أبو هريرة: فأذن معنا علي في أهل منى يوم النحر لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان^(١).

فائدة: هذه القصة صريح في أن رسول الله ﷺ لم يعزل أبا بكر عن إمارة الحج وإنما بعث علياً ينادي بهذه الآيات، وكان السبب في هذا أن العرب تعارفوا فيما بينهم في عقد العقود ونقضها أن لا يتولى ذلك إلا سيدهم أو رجل من رهن فبعث علياً إزاحة للعلة لثلا يقولوا هذا خلاف ما نعرفه، فينا في نقص العهود وهذا معنى قوله ﷺ: «لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلا رجل من أهلي»^(٢) أخرج هذا اللفظ أحمد والترمذي وحسنه من حديث أنس رضي الله عنه، وما ذكرنا من القصة بعضها في مسند أحمد وبعضها في الدلائل للبيهقي من حديث ابن عباس وبعضها في تفسير ابن مردويه من حديث أبي سعيد الخدري وغيره رضي الله عنهم «فَإِنْ تَبُتُمْ» رجعتم من الكفر وأسلمتم «فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ» في الدنيا والآخرة من كل شيء «وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ» عن التوبة والإسلام «فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ» لا تفوتونه طلباً ولا تعجزونه هرباً وتقدير الكلام وإن توليتم يعذبكم الله في الدنيا والآخرة لأنكم غير معجزيه «وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» بالقتل والأسر في الدنيا وبالنار في الآخرة «إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا» من عهدهم الذين

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: لا يطوف بالبيت عريان ولا يحج مشرك (١٦٢٢)،

وأخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: لا يحج بالبيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان (١٣٤٧).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة التوبة (٣٠٩٠).

عاهدتموهم عليه ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا﴾ أي: لم يعاونوا ﴿عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ من أعدائكم، قال: البغوي: هم بنو حمزة من بني كنانة وكان قد بقي من مدتهم تسعة أشهر وهم لم ينقضوا العهد ﴿فَأَتَمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ أي: إلى تمام مدتهم الذي عاهدتموهم عليه ولا تجروهم مجرى الناكثين ولا مجرى من لا عهد بينكم وبينهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ تعليل وتنبيه على أن إتمام عهدهم من باب التقوى قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ إلخ استثناء من المشركين بمعنى الاستدراك كأنه قيل: إنما أمرتم بنبذ العهد إلى الناكثين أو بقتال من لا عهد بينكم وبينهم من المشركين لا بقتال المعاهدين مدة معلومة أو مؤبدة غير ناكثين ﴿فَإِذَا أَنْسَلَخَ﴾ أي: انقضى. وأصل الإنسلاخ خروج الشيء ما هو لابس من سلخ الشاة ﴿الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ﴾.

قال مجاهد وابن إسحاق هي شهور العهد فمن كان له عهد فعده أربعة أشهر ومن لا عهد له فأجله إلى انقضاء الحرم خمسين يوماً، وقيل لها حرم لأن الله حرم فيها على المؤمنين دماء المشركين والتعرض لهم، فإن قيل: هذا القدر بعض الأشهر الحرم والله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ﴾ قيل: لما كان هذا القدر متصلاً بما مضى أطلق عليه اسم الجميع ومعناه مضت المدة المعلومة المضروبة التي يكون مع انسلاخ الأشهر الحرم ولا يخفي ما فيه من التكلف والظاهر ما قلنا: أن المعنى إذا انسلاخ الأشهر الحرم من كل سنة ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ غير من عاهدوا ولم ينقضوا ﴿حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ قال: أكثر المفسرين في تفسيره في حل أو حرم وهذا يناقض قوله ﷺ: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمه الله إلى يوم القيامة وأنه لم يحل القتال لأحد قبلي ولا يحل لي إلا ساعة من النهار»^(١) وقوله ﷺ: «فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا له إن الله قد أذن رسوله ولم يأذن لكم وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس» والحديثان في «الصحيحين» وقد ذكرناهما من قبل، وقوله عليه السلام: «إلى يوم القيامة» يمنع كونه منسوخاً فالأولى أن يقال: عموم الأمكنة المفهوم من هذه الآية مخصوص بما سوى الحرم.

مسألة

القتال في الحرم والأشهر الحرام يحل إن بدأ المشركون بالقتال لقوله تعالى:

(١) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: ليلغ العلم الشاهد الغائب (١٠٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: تحريم مكة وصيدها وخلاها ولقطنها (١٣٥٤).

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ مِمَّنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ (١) الآية، وقد ذكرنا في سورة البقرة ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أي: أسروهم والأخذ الأسير ﴿وَأَحْصُرُوهُمْ﴾ قال: ابن عباس يريد إن تحصنوا فاحصروهم أي: امنعوهم من الخروج حتى يضطروا إلى القتل أو الإسلام أو قبول الجزية وقيل: امنعوهم دخول مكة والتصرف في بلاد الإسلام ﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ على كل طريق والمرصد الموضع الذي يرصد فيه العدو من رصدت الشيء أرسده إذا ترقبته يريد كونوا لهم رسداً لتأخذوهم من كل وجه توجهوا ولا تتركوهم ينبسطوا في البلاد ويدخلوا مكة ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ من الشرك ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ﴾ يعني قبلوا أقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿فَخَلَوْا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن تاب ﴿رَحِيمٌ﴾، قال: الحسن بن فضيل هذه الآية نسخت كل آية في القرآن فيها ذكر الإعراض والصبر على أذى الأعداء

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتْلُغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٧) كَيْفَ وَإِنْ بَطَّهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٨) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْتَدُونَ﴾ (١٠) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُقِصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (١١) وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتَلُوا أَبَةً الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ (١٢)

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين أمرتك بقتالهم وقتلهم أحد مرفوع بفعل مضمير يفسره ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ استأمنك وطلب منك جوارك ﴿فَأَجِرْهُ﴾ فأمناه ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ ويتدبره فيظهر له صدقك بإعجازه ويعلم ماله وما عليه من الثواب ومن العقاب ﴿ثُمَّ اتْلُغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ أي: موضع أمناه ودار قومه إن لم يسلم فإن قاتلك بعد ذلك فقاتله واقتله إن قدرت عليه ﴿ذَلِكَ﴾ الأمن أو الأمر ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحق من الباطل فلا بد لهم من سماع

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

كلام الله تعالى حتى يعلموا قال: الحسن هذه الآية محكمة إلى يوم القيامة ﴿كَيْفَ يَكُونُ
لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ خبر يكون كيف وقدم للاستفهام أو المشركين أو
عند الله وهو على الأولين صفة للعهد أو ظرف له أو ليكون وكيف على الآخرين حال من
العهد وللمشركين إن لم يكن خبراً فتبين والاستفهام للإنكار والاستبعاد على وجه
التعجب، استبعاد لأن يكون لهم عهد ولا ينكثوه مع كمال عنادهم وفسقهم أو لأن يفي
الله ورسوله عهدهم وهم ينكثون ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ محله النصب
على الاستثناء أو الجر على البدل، وجاز أن يكون الاستثناء منقطعاً إن كان المراد
بالمشركين الناكثين منهم أي: ولكن الذين عاهدتم منهم عند المسجد الحرام ﴿فَمَا
اسْتَقَمُوا لَكُمْ﴾ على العهد ﴿فَأَسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ على الوفاء وما يحتمل الشرطية والمصدرية
قال: ابن عباس المراد بالدين عاهدتم عند المسجد الحرام قريش، وقال قتادة هم أهل
مكة الذين عاهدهم رسول الله ﷺ يوم الحديبية، أمر الله رسوله بالتبرص في أمرهم إن
استقاموا على العهد يستقام لهم على الوفاء فلم يستقيموا ونقضوا العهد وأعانوا بني بكر
على خزاعة فغزا عليهم رسول الله ﷺ حتى فتح مكة ثم جعل لهم الأمان وضرب لهم بعد
الفتح أربعة أشهر يختارون من أمرهم ما شاؤوا إلا أن يسلموا وإما أن يلحقوا بأي بلاد
شاؤوا وإن أسلموا قبل الأربعة الأشهر، وقال السدي والكلبي وابن إسحاق هم من قبائل
بكر بنو خزيمة وبنو مدلج وهو ضمرة وبنو الدليل، وهم الذين كانوا قد دخلوا في عهد
قريش يوم الحديبية فلم يكن نقض إلا قريش وبنو الدليل من بني بكر فأمر بإتمام العهد لمن
لم ينقض وهم بنو ضمرة، قال: البغوي: هذا القول أقرب للصواب لأن هذه الآية نزلت
بعد نقض قريش العهد وبعد فتح مكة فكيف يقول بشيء قد مضى فما استقاموا لكم
فاستقيموا لهم فإنما هم الذين قال: الله عز وجل: إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم
ينقضوكم شيئاً كما نقضكم قريش ولم يظاهروا عليكم أحداً كما ظهرت قريش بنو بكر
على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ والاستقامة على إيفاء العهد من
التقوى ﴿كَيْفَ﴾ تكرر لاستبعاد ثباتهم على العهد أو بقاء حكم إيفاء عهدهم مع التنبيه
على علة الاستبعاد وحذف الفعل للعلم به يعني كيف يكون لهم عهدوا حالهم أنه ﴿وَإِنْ
يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي: يظفروا بكم ﴿لَا يَرْقُبُوا﴾ أي لا يحفظوا.

وقال الضحاك: لا ينظروا، وقال قطرب: لا يراعوا ﴿فِيكُمْ إِلَّا﴾ قال: قتادة حلفاء،
وقال ابن عباس والضحاك: قرابة، وقال يمان رحماً، وقال السدي: هو العهد وكذلك
الذمة إلا أنه كرر لاختلاف اللفظين وقيل: ربوبية، قال: البيضاوي: لعله اشتق للحلف

من الأل وهو الجوار لأنهم كانوا إذا تحالفوا رفعوا أصواتهم وشهروه ثم استعير للقرابة لأنها لعقد بين الأقارب ما لا يعقد الحلف للربوبية والتربية ولعل اشتقاقاً من آل الشيء إذا حدده أو آل البرق إذا لمع، وقال أبو مجيز ومجاهد: الآل هو الله لفظ عبري وكاد عبيد بن عمير يقرأ جبرآل بالتشديد يعني عبد الله وفي الخبر أن ناساً قدموا على أبي بكر من قوم مسيلمة الكذاب فاستقرأهم أبو بكر كتاب مسيلمة فقرأوا فقال: أبو بكر رضي الله عنه: إن هذا الكلام لم يخرج من آل يعني الله عز وجل، والدليل على هذا التأويل قراءة عكرمة لا يرقبون في مؤمن إلا يعني الله عز وجل مثل جبرئيل وميكائيل وفي القاموس الإل بالكسر العهد والحلف والجار والقرابة والأصل الجيد والمعدن والحقد والعداوة والربوبية واسم الله تعالى وكل اسم آخره آل وإيل فمضاف إلى الله تعالى، والوحي والأمان والجزع عند المصيبة ﴿وَلَا ذِمَّةٌ﴾ عهداً أو حقاً يعاب على إغفاله ﴿يَرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي يقولون أقولاً موجبة مرضائكم نفاقاً وتقية من الوعد بالإيمان والطاعة ووفاء العهد ﴿وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ ما يتفوهون به ويستبطنون الكفر والمعاداة بحيث إن ظفروا خالفوا ما تفوهوا به، جملة يرضونكم مستأنفة لبيان أحوالهم المنافية لثباتهم على العهد المقتضية لعدم مراقبتهم عند الظفر، ولا يجوز جعله حالاً من فاعل لا يرقبوا فإنهم بعد ظهورهم لا يرضون المؤمنين ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَسِيقُونَ﴾ المراد بالفسق ههنا نقض العهد وكان بعض المشركين يوفون العهود ويستنكفون من نقضها ولذلك خصص الفسق بأكثرهم دون كلهم ﴿أَشْتَرُوا بِعَاقِبَةِ اللَّهِ﴾ استبدلوا بالقرآن ﴿ثَمناً قليلاً﴾ عوضاً يسيراً من أعراض الدنيا قال: البغوي: ذلك أنهم نقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ بأكلة أطعمهم أبو سفيان قال: مجاهد: أطعم أبو سفيان حلفاؤه ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ يعني منعوا الناس من الدخول في دين الله والفاء للدلالة على أن اشتراهم أداهم إلى الصد قال: ابن عباس: وذلك أن أهل الطائف أمددهم بالأموال ليقروا على حرب رسول الله ﷺ ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: عملهم هذا وما دل عليه قوله ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَاً وَلَا ذِمَّةً﴾ فهو تفسير لقوله ما كانوا يعملون لا تكرير، وقيل: الأول عام في المنافقين وهذا خاص بالذين اشتروا وهم اليهود والأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطعمهم ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْتَدُونَ﴾ المجاوزون عن الحد في الشرارة ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ عن الشرك ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ أي فهم إخوانكم ﴿فِي الدِّينِ﴾ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ﴿وَنُقِصِلُ الْآيَاتِ﴾ تنبيهاً ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ اعتراض للحث على تأمل ما فصل من أحكام المعاهدين والتائبين قال: ابن عباس: حرمت هذه الآية دماء أهل القبلة، وقال ابن مسعود: أمرتم بالصلاة والزكاة فمن لم يترك فلا صلاة له.

روى البخاري وغيره عن أبي هريرة قال: لما توفي رسول الله ﷺ وكان أبو بكر وكفر من كفر من العرب فقال: عمر: كيف تقاتل الناس وقد قال: النبي ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله» فقال: أبو بكر والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها، قال: عمر: فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر فعرفت أنه الحق^(١).

وعن أنس بن مالك قال: قال: رسول الله ﷺ: «من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله»^(٢) رواه البخاري، وفي «الصحيحين» عن ابن عمر قال: قال: رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»^(٣) إلا أن مسلماً لم يذكر «وحسابهم على الله» ﴿وَأَنْ تَكْفُرُوا أَيَّمَنَهُمْ﴾ أي: نقضوا عهودهم ﴿مَنْ بَعْدَ عَهْدِهِمْ﴾ كما نكث كفار قريش ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ بالتكذيب وتقبیح الأحكام قال: البغوي: هذا دليل على أن الذي إذا طعن في دين الإسلام ظاهر ألا يبقى له عهد، قلت: وهذا الاستدلال ضعيف فإن الشرط مجموع الأمرين نقض العهد والطعن في الدين فلا يترتب الحكم على أحدهما ﴿فَقَتِلُوا أَيْمَةً الْكُفْرِ﴾ قرأ الكوفيون وابن عامر بهمزتين محقتين حيث وقع وفي رواية عن هشام أنه أدخل بينهما ألفاً والباقون بهمزة وياء مختلصة الكسرة من غير مد، وضع أئمة الكفر موضع الضمير والمعنى فقاتلوهم للدلالة على أنهم صاروا بذلك ذوي الرئاسة والتقدم في الكفر أحقاً بالقتل وقيل: المراد بأئمة الكفر رؤوس المشركين وقادتهم وهم أهل مكة ووجه تخصيصهم بالذكر إما أن قتلهم أهم وهم أحق به أو لمنع عن مراقبتهم، قال: ابن عباس نزلت في أبي سفيان بن حرب والحارث بن هشام وسهيل بن عمر وعكرمة بن أبي جهل وسائر رؤساء قريش يومئذ الذين نقضوا العهد،

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: وجوب الزكاة (١٤٠٠)، وأخرجه مسلم في كتاب:

الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله (٢٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب: فضل استقبال القبلة (٣٩٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾

(٢٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله

(٢٢).

وهم الذين هموا بإخراج أهلها بعد ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ﴾ أي: لا عهد لهم جمع يمين يعني لا يجب عليكم وفاء عهودهم بعدما نكثوا وقال قطرب: لا وفاء لهم بالعهد وقرأ لا إيمان لهم بكسرة الهمزة أي: لا تصديق لهم ولا دين لهم وقيل: هو من الأمان أي: لا تؤمنوا هم بل أقتلوهم حيث وجدتموهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ متعلق بقاتلوا وجملة أنهم لا إيمان لهم معترضة بينهما أي: ليكون غرضكم في المقاتلة أن ينتهوا عما هم عليه من الشرك والمعاصي لإيصال الأذية بهم كما هو طريقة المؤذنين ولا إحراز لمال والملك كما هو دأب السلاطين ثم حث المسلمين على القتال فقال:

﴿أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَنَهُمْ وَهَكُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ
أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَ اللَّهَ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَتَلْتَهُمْ يَعْذِبُهُمْ
اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبَ غَيْظَ
قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ
اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَهَّةِ اللَّهِ
خَيْرٌ يَمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ
بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ
آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ
أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾

﴿أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَنَهُمْ﴾ يعني نقضوا عهودهم ﴿وَهَكُّوا بِإِخْرَاجِ
الرَّسُولِ﴾ قيل: المراد به اليهود وغيرهم من المنافقين وكفار المدينة نكثوا عهودهم حين
خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك وهموا بإخراجه ﷺ من المدينة حيث قالوا: لعنهم الله
﴿لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ﴾^(١) ﴿وَهُمْ بَدَّوْكُمْ﴾ بالمعاداة حيث عاونوا المشركين عليه
﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قبل أن يقاتلهم رسول الله ﷺ وهذا أظهر لأن السورة نزلت بعد غزوة تبوك
وقد أسلم أهل مكة قبل ذلك، وأيضاً هموا بإخراج الرسول يدل على أنهم هموا بذلك
ولم ينالوا به بخلاف أهل مكة فإنهم هموا قتله واضطروه إلى الخروج، فأخرجوا كما
قال الله تعالى: ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٢) وقال بعض المفسرين المراد بالذين

(١) سورة المنافقون، الآية: ٨،

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

نكثوا إيمانهم الذين نقضوا صلح الحديبية وأعانو بني بكر على خزاعة وهموا بإخراج الرسول ﷺ من مكة حين اجتمعوا في دار الندوة وهم بدأوكم بالقتال أول مرة، لأنه ﷺ بدأ بالدعوة وإلزام الحجة بالكتاب والتحدي به فعدلوا عن معارضته إلى المعادة والمقاتلة حتى اجتمعوا في دار الندوة، وأجمعوا على قتله، أو لأن أبا جهل قال: يوم بدر بعد ما سلم العير لا ننصرف حتى نستأصل محمداً وأصحابه، أو لأنهم بدأوا بقتال خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ وهذا التأويل لا يتصور إلا إذا كان نزول هذه الآيات قبل فتح مكة وحينئذ يستقيم ما قال: ابن عباس أن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَكْثَرُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ ﴿وَوَطَعُوا فِي دِيبَابِكُمْ﴾ نزلت في أبي سفيان وغيره المذكورين من قبل وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا﴾ المراد به أمر الله رسوله بالتربص في أمرهم إن استقاموا على العهد يستقام لهم لكنهم لم يستقيموا والله أعلم ﴿أَتَخَشَوْنَهُمْ﴾ أتركون قتالهم خشية أن ينالكم مكروه منهم استفهام للإنكار يعني لا ينبغي ذلك ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ في ترك إمتثال أمره في قتال أعدائه، والفاء للسببية فإن كون الله تعالى أحق أن يخشى سبب للإنكار على الخشية من غيره ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ شرط استغنى عن الجزاء بما مضى يعني إن كنتم مؤمنين فلا تخشوا إلا الله، فإن مقتضى الإيمان هذا لأن من يعتقد أن خالق الأشياء الجواهر والإعراض وإفعال العباد ليس إلا الله وأن أحداً لا يستطيع النفع والضرر إلا بمشيئة الله تعالى وإرادته لا يخشى أحد غيره تعالى ثم لما وبخهم على ترك القتال جرد لهم الأمر به فقال: ﴿قَتَلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ قتلاً ﴿وَيُخْزِيهِمْ﴾ ويذلهم أسراً وقهراً ﴿وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ وعد لهم بالنصر والتمكن من قتل أعدائهم وإذلالهم، ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ وَيَذِئِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني كربها ووجدها بمعونة قريش بني بكر عليهم، أخرج أبو الشيخ عن قتادة قال: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت في خزاعة حين جعلوا يقتلون بني بكر بمكة، وأخرج عن عكرمة قال: نزلت هذه الآية في خزاعة، وأخرج عن السدي ويشف صدور قوم مؤمنين قال: هم خزاعة خلفاء رسول الله ﷺ يشف صدورهم من بني بكر وفي الآية معجزات ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ ابتداء أخبار بأن بعضهم يتوب عن كفره وكان ذلك أيضاً معجزة وقد هدى إلى الإسلام كثيراً من قريش مثل أبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما كان وما يكون ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يفعل إلا بمقتضى الحكمة، قال: البغوي: روي أن النبي ﷺ قال: يوم الفتح ارفعوا إلا خزاعة من بني بكر إلى العصر ﴿أَمْ حِينْتُمْ﴾ خطاب للمؤمنين حين كره بعضهم القتال، وقيل: المنافقين وأم منقطعة بمعنى بل والهمزة، والاستفهام للتوبيخ على الحسبان ﴿أَنْ تَتْرَكُوا﴾ فلا تؤمروا بالجهاد ولا تمتحنوا ليظهر الصادق من الكاذب ﴿وَلَمَّا بَلَغَ

اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ ﴿١﴾ يعني لم يتحقق منكم من جاهد في سبيل الله، نفي العلم وأراد نفي المعلوم للمبالغة فإنه كالبرهان عليه من حيث أن تعلق العلم به مستلزم لوقوعه وعلى طريق ذكر اللازم وإرادة الملزوم فإن وقوع شيء لا يمكن أن يتخلف من علم الله تعالى به ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا﴾ عطف على جاهدوا يعني ولما يعلم الله الذين لم يتخذوا ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ﴾ بطانة يوالونهم ويفشون إليهم أسرارهم.

وفي لما إشارة ﷺ: «لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»^(١) متفق عليه من حديث معاوية وروى ابن ماجه بسند صحيح عن أبي هريرة نحوها والحاكم وصححه عن عمر بلفظ: «لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة» ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيه دفع لما يتوهم من ظاهر قوله تعالى ولما يعلم الله، قال: البغوي قال: ابن عباس لما أسر العباس يوم بدر غيره المسلمون بالكفر وقطيعة الرحم وأغلظ على القول، فقال: العباس مالكم تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا فقال: علي لكم محاسن قال: نعم، إنا لنعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقي الحاج فأنزل الله تعالى رداً على العباس ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية أخرجه ابن جرير وأبو الشيخ عن الضحاك، وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عنه بلفظ قال: العباس: إن كنتم سبقتونا بالإسلام والهجرة والجهاد ولقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج ونفك العاني فأنزل الله تعالى هذه الآية، يعني ماصح للمشركين وما ينبغي لهم ﴿أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ يعني شيئاً من المساجد فضلاً عن المسجد الحرام فإنه يجب على المسلمين منهم من ذلك لأن مساجد الله إنما يعمر لعبادة الله وحده فمن كان كافراً بالله فليس من شأنه أن يعمرها، فذهب جماعة إلى أن المراد منه لعمارة المعروفة من بناء المسجد ومرمته عند الخراب فيمنع منه الكافر حتى لو أوصى به لا ينفذ وحمل بعضهم العمارة ههنا على دخول المسجد والقعود فيه. أخرج أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم عن أبي سعيد قال: قال: رسول الله ﷺ: «إذا رأيت الرجل يعامر المسجد فاشهدوا له بالإيمان قال: الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾»^(٢) وقال الحسن ما كان للمشركين أن يتركوا فيكونوا أهل المسجد الحرام.

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: ٢٨ رقم الحديث (٣٦٤١).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في حرمة الصلاة (٢٦١٧).

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب مسجد الله على التوحيد والمراد الجنس وقيل: أراد به المسجد الحرام لقوله وعمارة المسجد الحرام ولقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ وذلك هو المراد بصيغة الجمع، قال: الحسن إنما قال: مساجد الله لأنه قبله المساجد كلها فكان عمارته عمارة الجميع، وقال الفراء ربما ذهبت العرب بالواحد إلى الجمع وبالجمع إلى الواحد ألا ترى أن الرجل يركب البرذون ويقول: أخذت في ركوب البراذين ويقال: فلان كثير الدرهم والدينار يريد الدراهم والدينانير ﴿شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ أي: مظهرين الشرك وتكذيب الرسول الله ﷺ وهو حال من ضمير يعمروا والمعنى ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين عمارة بيت الله وعبادة غيره، وقال الحسن لم يقولوا نحن كفار ولكن كلامهم بالكفر شاهد عليهم بالكفر.

وقال الضحاك عن ابن عباس شهادتهم على أنفسهم بالكفر سجودهم للأصنام وذلك أن كفار قريش نصبوا الأصنام خارج البيت الحرام عند القواعد وكانوا يطوفون بالبيت عراة كلما طافوا شوطاً سجدوا الأصنامهم، وقال السدي شهادتهم على أنفسهم بالكفر هو أن النصراني يسأل فيقال: من أنت فيقول: نصراني واليهودي يقول: يهودي، ونحو ذلك ﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ التي يفتخرون بها ويزعمونها محاسن من سقاية الحاج وعمارة البيت وفك العاني لأنها ليست لله تعالى خالصاً ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ لأجل الكفر والمعاصي وحبط الحسنات ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله﴾ أي: لم يخف في الدين غير الله ولم يترك أمر الله مخافة غيره وإلا فالخشية من المخاوف أمر جبلي لا يكاد العاقل يتمالك عنها خص الله سبحانه عمارة المسجد بالمؤمنين فإنهم هم الجامعون لهذه الكمالات العلمية والعملية وإنما لم يذكر الإيمان بالرسول لأن الإيمان بالله كما ينبغي لا يتصور إلا أخذاً من الرسول ﷺ، ومن ثم قال: رسول الله ﷺ: «أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»^(١) الحديث في الصحيحين عن ابن عباس في قصة وفد عبد القيس، والمراد بعمارة المسجد إدامة العبادة والذكر فيه ودرس العلم والقرآن.

عن أبي سعيد الخدري قال: قال: رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد»

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: أداء الخمس من الإيمان (٥٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وشرائع الدين (١٧).

وفي لفظ: «يتعاهد المسجد فاشهدوا له بالإيمان فإن الله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾»^(١) رواه الترمذي وابن ماجه والدارمي والبخاري، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من غدا إلى مسجد أوراخ أعد الله له منزلة من الجنة كلما غدا أوراخ»^(٢) وعن أبي هريرة قال: قال: رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله - وذكر فيهم - رجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود فيه»^(٣) متفق عليه، وعن سلمان رضي الله عنه قال: قال: رسول الله ﷺ: «من توضأ في بيته فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد فهو زائر الله حق على المزور أن يكرم زائره» رواه الطبراني وعبد الرزاق وابن جرير في تفسيرها ولليهيقي في «شعب الإيمان»، وعن عمرو بن ميمون قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إن بيوت الله في الأرض المساجد وإن حقاً على الله أن يكرم من زاره فيها رواه البيهقي في «شعب الإيمان» وعبد الرزاق وابن جرير في تفسيرها، ومن عمارة المسجد بنائها وتزينها وتنويرها بالسراج وصيانتها مما لم تبني له، كحديث الدنيا والبيع والشراء وغير ذلك عن محمود بن لبيد أن عثمان بن عفان أراد بناء المسجد فكره الناس وأحبوا أن يدعه قال: عثمان: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من بنى مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة» وفي رواية: «بنى الله له كهيبته في الجنة» وفي لفظ: «من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة»^(٤) رواه أحمد والشيخان في «الصحيحين» والترمذي وصححه وابن ماجه والبخاري وكذا روى ابن ماجه عن علي، وروى أحمد عن ابن عباس بسند صحيح «من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة لبيضا بنى الله له بيتاً في الجنة» والطبراني عن أبي أمامة بسند صحيح «من بنى لله مسجداً بنى الله له في الجنة أوسع منه».

- (١) أخرجه الترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في حرمة الصلاة (٢٦١٧)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: لزوم المساجد وانتظار الصلاة (٨٠٢).
- (٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: فضل من غدا إلى المسجد وراح (٦٦٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: المشي إلى الصلاة تمحي به الخطايا (٦٦٩).
- (٣) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد (٦٦٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: فضل إخفاء الصدقة (١٠٣١).
- (٤) أخرجه البخاري في كتاب: الصلاة، باب: من بنى مسجداً (٤٣٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل بناء المساجد والحث عليها (٥٢٣).

وعن أبي هريرة قال: قال: رسول الله ﷺ: «من سمع رجلاً ينشد ضالة في المسجد فليقل لا ردها الله عليك فإن المساجد لم تبين لهذا»^(١) رواه مسلم، وعن عائشة قالت: أمر رسول الله ﷺ ببناء المسجد في الدور وأن ينظف ويتطيب^(٢) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: نهى رسول الله ﷺ عن تناشد الأشعار في المسجد وعن البيع والاشتراء فيه وأن يتحلق الناس قبل الصلاة في المسجد^(٣) رواه أبو داود والترمذي، وعن أبي هريرة قال: قال: رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا لا أربح الله تجارتك وإذا رأيتم من ينشد ضالة فقولوا لا رد الله عليك»^(٤) رواه الترمذي والدارمي والله أعلم.

﴿فَعَسَىٰ أَوْلِيٰكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ المتمسكين بطاعة الله التي يؤدي إلى الجنة، ذكر بصيغة التوقع قطعاً لأطماع المشركين في الاهتداء والانتفاع بأعمالهم وتوبيخاً لهم في القطع بأنهم مهتدون فإن هؤلاء مع كمالهم إذا كان ابتدائهم دائراً بين عسى ولعل فما ظنك بأضدادهم ومنعاً للمؤمنين بأن يغتروا بأعمالهم ويتكلموا عليها، أخرج أبو نعيم عن علي رضي الله عنه قال: قال: رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل قل لأهل طاعتي من أمتك: أن لا يتكلموا على أعمالهم فإني لا أنا أصيب عبد الحساب يوم القيامة أشاء أعدبه إلا عذبه وقل لأهل معصيتي من أمتك: أن لا تلقوا بأيديكم فإني أغفر الذنوب العظيمة ولا أبالي» والله أعلم.

أخرج مسلم وابن حبان وأبو داود عن النعمان بن بشير قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فقال: رجل منهم: ما أبالي أن لا أعمل الله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام، وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلت فزجرهم عمر وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر

(١) أخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: النهي عن نشد الضالة في المسجد وما يقوله من سمع الناشد (٥٦٨).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: اتخاذ المساجد في الدور (٤٥٤)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الجمعة، باب: ما ذكر في تطيب المساجد (٥٩٠)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: المساجد والجماعات، باب: تطهير المساجد وتطيبها (٧٥٨).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في كراهية البيع والشراء وإنشاد الضالة والشعر في المسجد (٣١٩).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: البيوع، باب: النهي عن البيع في المسجد (١٣٢١).

رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه فأنزل الله تعالى:

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قَدْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ ﴾ الآية (١) وأخرجه الفريابي عن ابن سيرين قال: قدم علي بن أبي طالب مكة فقال: للعباس أي عم ألا تهاجر ألا تلحق برسول الله ﷺ؟ فقال: أعمر المسجد الحرام وأحجب البيت فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قال البغوي: قال: ابن عباس قال: العباس حين أسر يوم بدر لئن سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعلم المسجد الحرام ونسقي الحاج فأنزل الله تعالى هذه الآية وأخبر أن عمارتهم المسجد الحرام وقيامهم على السقاية لا ينفعهم مع الشرك بالله والإيمان بالله والجهاد مع النبي ﷺ مما هم عليه، وقال البغوي قال: الحسن والشعبي ومحمد بن كعب القرظي وكذا أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي أنها نزلت في علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وطلحة بن شيبه افتخروا فقال: طلحة: أنا صاحب البيت بيدي مفاتيحه وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، وقال علي ما أدري ما يقولون لقد صليت إلى القبلة ستة سنة يعني قبل الناس وأنا صاحب الجهاد فأنزل الله: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ السقاية والعمارة مصدران من أسقى وعمر فلا بد ههنا من تقدير أما أن يقال

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: فضل الشهادة في سبيل الله تعالى (١٨٧٩).

بحذف المضاف في المشبه أو في المشبه به فيقال: أ جعلتم أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن أو يقال أ جعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد كإيمان من آمن بالله وجهاد من جاهد، وإما أن يقال المصدر بمعنى الفاعل يعني ساقى الحاج وعامر المسجد الحرام كقوله تعالى: ﴿الْعَقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(١) يؤيده قراءة عبد الله بن الزبير أ جعلتم سقاة الحاج وعمرة المسجد الحرام... على جمع الساقى والعامر، والاستفهام للإنكار فإن كان نزول الآية في اختلاف المؤمنين بالمشركين كما يدل عليه قول ابن عباس ومحمد بن كعب وغيرهما فلا خفاء في إنكار المشابهة بين المشركين وأعمالهم المحبطة بالمؤمنين وأعمالهم المثبتة وإن كان نزولها في اختلاف المؤمنين كما روى مسلم عن النعمان بن بشير، فالمراد بعمارة المسجد بنائها دون إدامة الذكر والصلاة فيها فإن دوام الذكر أفضل من الجهاد لقوله ﷺ: «ما من شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله»^(٢) رواه مالك والترمذي وابن ماجه من حديث معاذ بن جبل، ورواه البيهقي في الدعوات الكبير من حديث عبد الله بن عمر وزاد قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله إلا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع» وقوله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى، قال: ذكر الله»^(٣) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي الدرداء ورواه مالك موقوفاً على أبي الدرداء، وعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ سئل أي العباد أفضل وأرفع درجة عند الله يوم القيامة؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات، وقيل: يا رسول الله ومن الغازي في سبيل الله؟ قال: لو ضرب بسيفه في الكفار حتى ينكسر أو يختضب دماً فإن الذاكِر لله أفضل منه درجة»^(٤) رواه أحمد والترمذي وقال: حديث غريب والله أعلم.

﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ تقرير لعدم المشابهة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ هذا يؤيد قول من قال: أن المراد عدم الاستواء بين نعل المؤمنين من الإيمان والجهاد وفعل

(١) سورة طه، الآية: ١٣٢.

(٢) أخرجه الترمذي موقوفاً على معاذ في كتاب: الدعوات (٣٥٩٥).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٣٧٧)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الأدب، باب: فضل الذكر (٣٧٩٠).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٣٧٦).

المشركين من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، والمعنى والله لا يهدي القوم الظالمين بالشرك فكيف يساؤون الذين هداهم الله ووفقهم للحق والصواب، وقيل: المراد بالظالمين الذين يحكمون بالمساواة بينهم وبين المؤمنين والله أعلم.

قصة استقاء من زمزم

روى البخاري وغيره عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ: جاء إلى السقاية فاستسقى، فقال: العباس: يا فضل اذهب إلى أمك فأت رسول الله ﷺ بشراب من عندها، فقال: اسقني، فقال: يا رسول الله إنهم يجعلون أيديهم فيه، قال: اسقني فشرب منه ثم أتى زمزم وهم يسقون ويعملون فيها فقال: اعملوا فإنكم على عمل صالح، ثم قال: لولا أن تغلبوا لنزلت حتى أضع الحبل على هذه وأشار إلى عاتقه^(١) وروى مسلم عن بكر بن عبد الله المزني قال: كنت جالسا مع ابن عباس رضي الله عنهما عند الكعبة فأتاه أعرابي فقال: مالي أرى بني عمكم يسقون العسل واللبن وأنتم تسقون النبيذ أمن حاجة بكم أم من بخل؟ فقال: ابن عباس رضي الله عنهما: الحمد لله ما بنا من حاجة ولا بخل قدم النبي ﷺ على راحلته وخلفه أسامة فقال: أحسنتم وأجملتم كذا فاصغواوا فلا تريد أن تغير ما أمر به رسول الله ﷺ^(٢) ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً﴾ أعلى رتبة وأكثر كرامة ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الذين افتتحوا بعمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج أو ممن لم يستجمع هذه الصفات من المؤمنين ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ الناجون من النار الواصلون إلى الجنة والدرجات العلى دون المشركين وإن كانوا سقاة الحاج وعمار المسجد ﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾ قرأ حمزة بالتخفيف من الأفعال والباقون بالتشديد من التفعّل ﴿رَبِّهِمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَّهُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنات ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم تنكير المبشر به للإشعار بأنه وراء التعيين والتعريف ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أكد الخلود بالتأييد لأنه قد يستعمل للمكث الطويل ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يستحقه دونه ما استوجبوا لأجله أو نعم الدنيا والله أعلم.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان﴾ قال: البغوي: قال: مجاهد هذه الآية متصلة بما قبلها نزلت في قصة العباس

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الحج، باب: سقاية الحاج (١٦٣٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: وجوب المبيت بمنى ليالي أيام التشريق والترخيص في تركه لأهل السقاية (١٣١٦)، وأخرجه أبو داود في كتاب: المناسك، باب: في نبيذ السقاية (٢٠٢١).

وظلحة وامتناعهما من الهجرة، وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس لما أمر النبي ﷺ الناس بالهجرة فمنهم من تعلق به أهله وولده يقولون ننشدك بالله أن يقنعا فيرق عليهم فيقيم عليهم ويدع الهجرة فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال مقاتل: نزلت في التسعة الذين ارتدوا عن الإسلام ولحقوا بمكة فنهى الله المؤمنين عن ولايتهم وأنزل هذه الآية يعني لا تتخذوهم أولياء بطانة وأصدقاء فتفشون إليهم أسراركم وتؤثرون المقام معهم على الهجرة إت استحبوا أي: اختاروا الكفر على الإيمان كذا روى الثعلبي عنه. ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَكَلَّمْ﴾ فيطلعهم على عورات المسلمين ويؤثرون المقام... معهم على الهجرة والجهاد ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لوضعهم الموالاتة في غير موضعه فإن محل موالاتة المسلمين المسلمون قال: البغوي لما نزلت الآية المذكورة قال: الذين أسلموا ولم يهاجروا إن نحن هاجرنا ضاعت أموالنا وذهبت تجارتنا وخربت دورنا وقطعنا أرحامنا فنزلت ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمتخلفين عن الهجرة ﴿إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم وعشيرتكم بالألف على الجمع والباقون بلا ألف يعني أقربائكم مأخوذ من العشرة ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي: أكسبتموها ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ أي: فوت وقت رواجها ونفاقها ﴿وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ فقعدتم لأجله عن الهجرة والجهاد ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ جواب ووعيد، قال: عطاء: بقضائه يعني بالعقوبة العاجلة والآجلة وقال مجاهد ومقاتل: بفتح مكة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن طاعة الله تعالى أي: لا يرشدهم، قال: البيضاوي: المراد الحب الاختياري يعني إيثار هذه الأشياء وترك إمتثال أوامر الله تعالى ورسوله ﷺ دون الحب الطبيعي فإنه لا يدخل تحت التكليف والتحفظ عنه، قلت: وكمال الإيمان أن يكون الطبيعة تابعة للشريعة فلا يقتضي الطبيعة إلا ما يأمره الشريعة، قال: رسول الله ﷺ: «من أحب الله وأبغض الله وأعطى الله ومنع الله فقد اكتمل الإيمان» وفي رواية «فقد استكمل إيمانه»^(١) رواه أبو داود عن أبي أمامة والترمذي عن معاذ بن أنس مع تقديم وتأخير، وفي «الصحيحين» عن أنس قال: قال: رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»^(٢)، والمراد لا يؤمن إيماناً كاملاً وفيهما عنه قال: قال:

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥٢١)، وأخرجه أبو داود في كتاب:

السنة، باب: الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه (٤٦٦٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: حب الرسول ﷺ من الإيمان (١٥)، وأخرجه مسلم في

كتاب: الإيمان باب: وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد (٤٤).

رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن أحب عبداً لا يحب إلا لله ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»^(١) قلت: وجد أن حلاوة الإيمان عبارة عن الاستلذاذ به كما يستلذذ الرجل بالشهوات الطبيعية، وذلك كمال الإيمان ولا يكتسب ذلك إلا من مصاحبة أرباب القلوب الصافية والنفوس الزاكية رزقنا الله سبحانه وهذه الآية وما ذكرنا من الأحاديث يوجب افتراض اكتساب التصوف من خدمة المشايخ رضي الله عنهم أجمعين، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ يعني لا يرشدهم إلى معرفته، قال: البيضاوي: في الآية تشديد عظيم وقل من يتخلص عنه، قلت ذلك القليل هو الصوفية العلية، قال: صاحب المدارك الآية تنعي على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين واضطراب حبل اليقين إذ تجد من أروع الناس من يستجب دينه على الآباء والأبناء والأموال وحظوظ الدنيا، قلت: إلا من أعطاه الله معرفته فيقول ما قال: الشاعر بالفارسية:

انكس كه تراشناخت جان راجه كند فرزند و عيال و خان و مان راجه كند
ديوانه كنى هر دو جها نش بخشى ديوانه توهر دو جها نراجه كند

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾
ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ يوم بدر وقينقاع والأحزاب والنضير أو قريظة والحديبية وخيبر وفتح مكة وغيرها قال: رسول الله ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر»^(٢) ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ عطف على موطن إما بتقدير المضاف في المعطوف يعني موطن حنين أو

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: حلاوة الإيمان (١٦)، وأخرجه مسلم في كتاب:

الإيمان، باب: بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (٤٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الصلاة، باب: قول النبي ﷺ «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»

(٤٣٨)، وأخرجه مسلم في أول كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١).

في المعطوف عليه يعني في أيام مواطن كثيرة أو يفسر المواطن بالأوقات كمقتل الحسين رضي الله عنه ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ وكانوا اثني عشر ألفاً أو أربعة عشر ألفاً كما سيجيء في القصة والكفار أربعة آلاف كذا جزم غير واحد، وجزم الحافظ وغيره بأنهم كانوا ضعف عدد المسلمين أو أكثر من ذلك فعلى هذا كان المشركون أربعة وعشرين ألفاً أو ثمانية وعشرين ألفاً، وقوله إذ أعجبتكم بدل من يوم حنين ولم يمنع إبداله منه أن يعطف على موضع في مواطن فإنه لا يقتضي مشاركتها فيما أضيف إليه المعطوف حتى يقتضي كثرتهم وإعجابهم كثرتهم في جميع المواطن، وحنين واد بين مكة والطائف إلى جنب ذي المجاز قريب من الطائف بينه وبين مكة بضع عشر ميلاً حارب فيه رسول الله ﷺ هوازن وهو قبيلة كبيرة من العرب فيها عدة بطون وهو هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن غيلان بن إلياس بن مضر وثقيف بطن منها.

قصة غزوة حنين

قال أئمة المغازي: لما فتح رسول الله ﷺ مكة في رمضان سنة ثمان من الهجرة مشت أشراف هوازن وثقيف بعضها إلى بعض وأشفقوا أن يغيروهم رسول الله ﷺ وقالوا: قد فرغ لنا فلاناً ناحية له دوننا والرأي أن نغزوه فأجمعوا أمرهم فسيروا في الناس وسيروا إليه قبل أن يسير إليكم، فاجتمعت هوازن وجمعها مالك بن عوف بن سعد بن ربيعة النضري وأسلم بعد ذلك واجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها ونصر وجشم كلها وسعد بن بكر ناس من بني هلال وهم قليل لا يبلغون مائة ولم يشهداها من قيس بن غيلان ولم يحضرها من هوازن كعب ولا كلاب مشى فيها ابن أبي براء فنهاها عن الحضور، وقال: والله لو نادى أي عادي محمد ما بين المشرق والمغرب لظهر عليهم، وكان في جشم دريد بن الصمة ابن ستين ومائة سنة أو عشرين ومائة سألوا دريد الرئاسة عليهم لرأيه قال: ما أبصر ولا أستمسك على الدابة ولكن أحضر معكم لأن أشير عليكم برأيي على أن لا تخالفوني فإن تخالفوني لا أخرج فجاهه مالك بن عوف وكان أمر الناس إليه وهو ابن ثلاثين سنة فقال: لا نخالفك، فلما أجمع مالك المسير إلى رسول الله ﷺ أمر الناس فخرجوا معهم بأموالهم ونسائهم ثم انتهى إلى أوطاس فعسكر به وجعلت الأمداد تأتيه من كل جهة وأقبل دريد بن الصمة فقال: مالي أسمع بكاء الصغير ورجاء البعير ونهيق الحمير ويعار الشاة وخوار البقر قالوا: ساق مالك مع الناس أبنائهم ونسائهم وأموالهم، فقال: دريد لمالك: لم سقت؟ قال: أردت أن أجعل خلف كل إنسان أهله وماله يقاتل عنهم فقال: دريد: هذا راعي ضأن ماله وللحرب وصفق دريد إحدى يديه على الأخرى تعجباً

هل يرد المنهوم شيء إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك ارفع النساء والذراري والأموال إلى عليا قومهم وممتنع بلادهم ثم الق القوم على متون الخيل والرجال فإن كانت لك لحق بك من وراءك وإن كانت عليك فقد أحرزت أهلك ومالك، قال: مالك: لا أفعل قد كبرت وكبر عقلك فغضب دريد ثم قال: دريد: يا معشر هوازن ما فعلت كعب وكلاب، قالوا: ما شهد منهم أحد قال: غاب الحد والجد لو كان يوم علاء ورفعة ما تخلفوا عنه يا معشر هوازن ارجعوا وافعلوا ما فعل هؤلاء فأبوا عليه، قال: فمن شهدها منكم؟ قالوا: عمرو بن عامر وعوف بن عامر، قال: ذاك جذعان من بني عامر لا ينفعان ولا يقران، قال: لدريد: هل من رأي غير هذا قد أمر القوم، قال: دريد: نعم تجعل كميناً يكونون لك عوناً إن حمل القوم عليك جاء هم الكمين من خلفهم وكررت أنت بمن معك وإن كانت الحملة لك لم يفلت من القوم أحد فذلك حين أمر مالك أن يكونوا كميناً في الشعاب وبطون الأودية فحملوا الأولى التي انهزم فيها أكثر أصحاب رسول الله ﷺ. ولما بلغ رسول الله ﷺ خبر هوازن وما عزموا عليه أراد التوجه إلى قتالهم واستخلف عتاب بن أسيد أميراً على مكة وهو ابن عشرين سنة ومعاذ بن جبل يعلمهم السنن والفقه.

وروى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال حين أراد حيناً منزلنا غداً إن شاء الله بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر واستعار من صفوان بن أمية أدرعاً وسلاحاً فقال: أغضباً يا محمد أم عارية؟ قال: بل عارية... مضمونة فأعطى له مائة درع بما يكفيهما من السلاح^(١) كذا روى ابن إسحاق عن جابر وأبو داود وأحمد عن أمية بن صفوان، قال: السهيلي واستعار من نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح فقال: كاني أنظر إلى رماحك هذه في تقصف ظهر المشركين. فخرج رسول الله ﷺ في اثني عشر ألف من المسلمين عشرة آلاف من أهل المدينة وألفين من أهل مكة يوم السبت بست خلون من شوال سنة، روى أبو الشيخ عن محمد بن عبيد الله الليثي كان مع رسول الله ﷺ من أهل المدينة عشرة آلاف أربعة آلاف من الأنصار ومن كل من جهينة ومزينة وأسلم وغفار وأشجع ألف ومن المهاجرين وغيرهم ألف، وقال عروة والزهرى قدم رسول الله ﷺ مكة باثني عشر ألف وأضيف إليهم ألفان مناللقاء فكانوا أربعة عشر

(١) وأخرجه أحمد في مسند الملكين (٧٦٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الإجارة، باب: في تضمين العارية (٣٥٥٩).

ألفاً، قال: ابن عقبة ومحمد بن عمر: لما خرج رسول الله ﷺ إلى حنين خرج معه أهل مكة لم يغادر منهم أحداً ركبانياً ومشاة حتى خرجن معه النساء يمشين على غير دين نظاراً ينظرون ويرجون الغنائم ولا يكرهون أن يكون الصدمة لرسول الله ﷺ وكان معه أبو سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وكانت امرأته مسلمة وهو مشرك لم يفرق بينهما ومع النبي ﷺ زوجته أم سلمة وميمونة ضربت لهما قبة.

روى ابن إسحاق والترمذي وصححه النسائي وابن حبان عن الحارث بن مالك قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حديثوا عهد بالجاهلية وكانت لكفار قريش ومن سواهم شجرة عظيمة وعند الحاكم في الإكليل سدرة خضراً يقال لها ذات أنواط يأتونها كل سنة فيعلقون أسلحتهم عليها ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوماً، ونحن نسير مع رسول الله ﷺ سدرة خضراً عظيمة، فتنادينا يا رسول الله اجعل ذات نواط كما لهم ذات أنواط فقال: رسول الله ﷺ أكبر الله أكبر الله أكبر قلتم والذي نفسي بيده كما قال: موسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ بَجَاهِلُونَ﴾ إنها لسنن لتركبن سنن من قبلكم حذو القعدة بالقده^(١)، وعن سهيل بن حنظلة رضي الله عنه قال: جاء فارس فقال: يا رسول الله طلعت جبل كذا وكذا فإذا هوازن جاءت عن بكرة أبيها بظعنهم ونعمهم وشاءهم اجتمعوا فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «تلك غنيمة المسلمين إن شاء الله تعالى، ثم قال: من يحرسنا الليلة؟ قال: أنس بن مالك أبي مرثد: أنا يا رسول الله ﷺ: قال: «فاركب واستقبل هذا الشعب حتى تكون أعلاه ولا تغرن من قبلك» فلما صلى رسول الله ﷺ الصبح فإذا هو قد جاء، فقال: إني انطلقت حتى كنت في أعلا هذا الشعب حيث أمرني رسول الله ﷺ فلما أصبحت طلعت الشعبين كلاهما فنظرت فلم أرى أحداً، فقال: رسول الله ﷺ: «قد أوجبت فلا عليك أن لا تعمل بعدها»^(٢) رواه أبو داود والنسائي.

وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حدرد ليكشف خبر هوازن فدخل فيهم فأقام فيهم يوماً أو يومين فسمع من مالك يقول لأصحابه إن محمداً لم يقاتل قوماً قبل هذه المرة إنما كان يلقي قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب فيظهر عليهم فإذا كان السحر فصفوا مواشيكم ونسائكم وأبنائكم من ورائكم ثم يكون الجملة منكم واكسروا جفون سيوفكم فتلقون

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم (٢١٨٠).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في فضل الحرس في سبيل الله عز وجل (٢٤٩٩).

بعشرين ألف سيف مكسورة الجفون واحملوا حملة رجل واحد واعلموا أن الغلبة لمن حمل أولاً كذا روى ابن إسحاق عن جابر بن عبد الله وعمرو بن شعيب وعبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم، وروى محمد بن عمر عن أبي بردة بن قال: كنا بأوطاس نزلنا تحت شجرة عظيمة نزل رسول الله ﷺ تحتها فإذا رسول الله ﷺ جالس وعنده رجل جالس فقال: إن هذا الرجل جاءني وأنا نائم فسل سيفي ثم قام به على رأسي فانتبهت وهو يقول: يا محمد من يمنعك مني؟ فقالت: «الله» فسللت سيفي وقلت يا رسول الله دعني أضرب عنق عدو الله فإنه من عيون المشركين، فقال: لي: «أسكت يا أبا بردة فما قال: له شيئاً ولا عاقبه فقال: يا أبا بردة إن الله مانعي وحافظي حتى يظهر دينه على الدين كله».

وروى أبو نعيم والبيهقي أن رسول الله ﷺ انتهى حيناً مساء الليلة الثلاثاء لعشر خلون من شوال وبعث بن عوف ثلاثة من هوازن ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه وأمرهم أن يتفرقوا في العسكر فرجعوا إليهم وقد تفرقت أوصالهم فقال: ويلكم ما شأنكم؟ فقالوا: رأينا رجالاً بيضاً على خيل بلق فوالله ما تماسكنا أصابنا ما ترى والله ما نقاتل أهل الأرض إنما نقاتل أهل السماء وإن أطعنا رجعت بقومك فإن الناس إن رأوا مثل الذي رأينا أصابهم مثل الذي أصابنا، فقال: أف لكم بل أنتم أجبن أهل العسكر فحبسهم عنده فرقا أن يشيع ذلك الرعب في العسكر، وقال: دلوني على رجل شجاع فاجمعوا على رجل فخرج ثم رجع إليه وقد أصابه نحو ما أصاب من قبله منهم فقال: مثل الذي قالت الثلاثة، قال: محمد بن عمر لما كان ثلثا الليل عمد مالك بن عوف إلى أصحابه فعبأهم في وادي حنين وهو واد أخوف خطوطه ذو شعاب ومضائق وفرق الناس فيها وقال لهم: أن يحملوا على رسول الله ﷺ وأصحابه حملة رجل واحد، وعبأ رسول الله ﷺ أصحابه وصفهم صفوفاً في السحر ووضع الألبية والرايات في أهلها ولبس درعين والمغفر والبيضة واستقبل الصفوف وطاف عليها بعضها لخلف بعض يتحدرون فحضهم على القتال وبشرهم بالفتح إن صدقوا وصبروا، وقدم خالد بن وليد في بني سليم وأهل مكة وجعل ميمنة وميسرة وقلبا وكان رسول الله ﷺ فيه.

روى أبو الشيخ والحاكم وصححه والبخاري وابن مردويه عن أنس قال: لما اجتمع يوم حنين أهل مكة وأهل المدينة أعجبتهم كثرتهم فقال: القوم: اليوم والله نقاتل، ولفظ البخاري قال: غلام من الأنصار لن نُغلب اليوم من قلة فما هو إلا أن لاقينا عدونا فانهزم القوم وولوا مدبرين، وفي رواية يونس بن بكر في زيارات المغازي كره رسول الله ﷺ ما

قالوا: وما أعجبتهم كثرتهم، وكذا روى ابن المنذر عن الحسن وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ ﴿فَلَمْ تُغْنِ﴾ أي: الكثرة ﴿عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ من الإغناء أو من أمر العدو ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ ما مصدرية والباء بمعنى مع أي: مع رحبها أي: سعتها، أو المعنى ملتبسة برحبها على أن الجار والمجرور في موضع الحال كقولك دخلت عليه بثياب السفر أي: ملتبساً بها يعني أن الأرض من مع سعتها لا تجدون فيها مقراً تطمئن إليه نفوسكم من شدة الرعب أو لا تبؤون السفر ملتبساً بها يعني أن الأرض مع سعتها لا تجدون فيها كمن لا يسعه مكانه ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ﴾ الكفار ظهوركم خطاب إلى الذين انهزموا من المؤمنين ﴿مُدْبِرِينَ﴾ منهزمين الأدبار الذهاب إلى خلف ضد الإقبال. روى ابن إسحاق وأحمد وابن حبان عن جابر وأبو يعلى ومحمد بن عمر عن أنس قال: جابر لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا من أخوف ذو خطوط له مضائق وشعب، وقد كان القوم سبقونا إلى الوادي فكمنا في شعابه وأخبائه ومضائقه وتهيئوا عدواً فوالله ما رأينا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد وكانوا رماة، وقال أنس استقبلنا من هوازن شيء لا والله ما رأيت مثله في ذلك الزمان قط من الكثرة وله بسواد وقد ساقوا نسائهم وأبنائهم وأموالهم ثم صفوا صفوفاً فجعلوا النساء فوق الإبل وراء صفوف الرجال ثم جاؤوا بالإبل والبقر والغنم فجعلوها وراء ذلك لئلا يفروا بزعمهم فلما رأينا ذلك السواد حسبناه رجالاً كلهم فلما انحدرنا من الوادي، فبينا نحن فيه في غلس الصبح أن شعرنا إلا بالكتائب قد خرجت من مضيق الوادي وشعبه فحملوا حملة رجل واحد فانكشف أوائل الخيل بني سليم مولية وتبعهم أهل مكة وتبعهم الناس منهزمين ما يلوون على شيء وارتفع النقع فما منا أحد يبصر كفه، قال: جابر: وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين ثم قال: «أيها الناس هلم إلي أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله».

روى البخاري وابن أبي شيبة وابن مردويه والبيهقي عن ابن إسحاق قال: رجل للبراء بن عازب يا أبا عمارة أفررتم يوم حنين؟ قال: لا والله ما ولي رسول الله ﷺ ولكنه خرج شبان أصحابه حسراً ليس عليهم كثير سلاح فلقوا قوماً رماة لا يكاد يسقط لهم سهم فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا فأقبل الناس على الغنائم فاستقبلونا بالسهم كأنها رجل جراد ما يكادون يخطؤون وأقبلوا هناك إلى رسول الله ﷺ وهو على بغلته البيضاء وأبو سفيان بن الحارث يقود به، فنزل رسول الله ﷺ ودعا واستنصر وقال: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب» وفي رواية قال: البراء: كنا إذا احمر البأس نتقي به وإن الشجاع منا

الذي يحاذيه يعني النبي ﷺ^(١). قال: ابن إسحاق لما انهزم الناس تكلم رجال في أنفسهم من الضغن، فقال: أبو سفيان بن حرب وكان إسلامه بعد مدخولاً لا ينتهي هزيمتهم دون البحر وأن الأزام لمعه في كنانة وصرح جبلة ابن الحنبل، وقال ابن هشام كلدة بن الحنبل وأسلم بعد ذلك وهو مع أخيه لأمه صفوان بن أمية وصفوان مشرك في المدة التي جعل له رسول الله ﷺ السحر اليوم فقال: له صفوان: أن أسكت فوالله لأن يرميني رجل من قريش أحب إلي من يرميني من هوازن.

روى ابن سعد وابن عساكر عن عبد المالك بن عبيد والطبراني والبيهقي وابن عساكر وأبو نعيم عن عكرمة قالاً: قال: شيبه بن عثمان: لما كان عام الفتح ودخل رسول الله ﷺ مكة عنوة وغزا حنيناً، قلت: أسير مع قريش إلى هوازن فعسى إن اختلطوا أصيب محمداً غرة وتذكرت أبي وقتله حمزة وعمي وقتله علي بن أبي طالب فقلت: اليوم أدرك ثأري من محمد وأكون أنا الذي قمت بثأر قريش كلها وأقول لو لم يبق من العرب والعجم إلا أتبع محمداً ما تبعته أبداً فكنت مرصداً لما خرجت، لا يزداد الأمر في نفسي إلا قوة، فلما انهزم أصحابه جثته من عن يمينه فإذا بالعباس قائم عليه درع بيضاء فقلت: عمه لن يخذله فجثته عن يساره فإذا بأبي سفيان بن الحارث فقلت: ابن عمه لن يخذله فجثته من خلفه فلم يبق إلا أن أسوره سورة بالسيف إذا ارتفع إلي فيما بيني وبينه شواظ من نار كأنه برق فخفت أن يتخمشني فوضعت على بصري خوفاً عليه ومشيت القهقري وعلم أنه ممنوع، فالتفت إلي وقال: «يا شيبه أدن مني» فدنوت منه فوضع يده على صدري، وقال: «اللهم أذهب عنه الشيطان» فرفعت إليه رأسي وهو أحب إلي من سمعي وبصري وقلبي، ثم قال: «يا شيبه قاتل الكفار» قال: فتقدمت بين يديه أحب والله أن أقيه بنفسه كل شيء فلما انهزمت هوازن ورجع إلى منزله دخلت عليه، فقال: «الحمد لله الذي أراد بك خيراً» ثم حدثني بما هممت به ﷺ.

وروى محمد بن عمر عن النضر بن الحارث كان يقول الحمد لله الذي أكرمنا بالإسلام ومن علينا بمحمد ﷺ ولم نمت على ما مات عليه الآباء فذكر حديثاً طويلاً ثم قال: خرجت مع قوم من قريش هم على دينهم بعد وأبي سفيان بن حرب وسفيان بن أمية وسهيل بن عمرو ونحن نريد إن كانت دبرة على محمد أن نغير عليه فيمن يغير عليه، فلما

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: من قاد دابة غيره في الحرب (٢٦٨٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: في غزوة حنين (١٧٧٦).

ترأت الفتان ونحن في خير المشركين حملت هوازن حملة واحدة ظننا أن المسلمين لا يجترونها أبداً ونحن معهم وأنا أريد وعمدت له فإذا هو في وجوه المشركين واقف على بغلة شهباء وحوله رجال بيض الوجوه فأقبلت عامداً إليه فصاحوا بي إليك إليك فرعب فؤادي وأرعدت جوارحي، قلت: هذا مثل يوم بدر أن الرجل لعلي حق إنه لمعصوم وأدخل الله قلبي الإسلام وغيره عما كنت أهم به الحديث بطوله.

وروى محمد بن عمر عن أبي قتادة قال: مضى سرعان الناس منهزمين حتى دخلوا مكة ساروا يوماً وليلة يخبرون أهل مكة بهزيمة رسول الله ﷺ، وعتاب بن أسيد يومئذ أميراً على مكة ومعه معاذ بن جبل فجاءهم أمر غمهم وسراً بذلك قوم من أهل مكة وأظهروا الشماتة، وقال قائل منهم: يرجع العرب إلى دين آبائنا وقد قتل محمد وتفرق أصحابه فتكلم عتاب بن أسيد يومئذ فقال: إن قُتِلَ محمد ﷺ فإن دين الله قائم والذي يعبده محمد حي لا يموت فما أمسوا من ذلك اليوم حتى جاء الخبر أن رسول الله ﷺ أوقع هوازن، فسر عتاب بن أسيد ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما وكبت الله من... هناك ممن كان يسر بخلاف ذلك فرجع المنهزمون إلى رسول الله ﷺ فلحقوه بأوطاس وقد راحل منها إلى الطائف.

فائدة

قال أنس رضي الله عنه بقي رسول الله ﷺ وحده وقال العباس فيما روى عنه مسلم وابن إسحاق وعبد الرزاق: كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث رسول الله ﷺ فلم نفارقه ورسول الله ﷺ على بغلة له شهباء، فلما التقى المسلمون والكفار ولي المسلمون مدبرين فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلة قبل الكفار وأنا أخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفها أن لا يسرع وهو لا يألوا ما أسرع نحو المشركين وأبو سفيان بن الحارث أخذ بركاب رسول الله ﷺ، وفي أحاديث آخر أنه بقي مع رسول الله ﷺ جماعة قال: محمد بن يوسف الصالحى: في الجمع بين الأقوال المراد أنه بقي وحده متقدماً مقبلاً على العدو والذين ثبتوا كانوا وراءه والوحدة بالنسبة لمباشرة القتال وأبو سفيان بن الحارث وعباس كانوا يخدمونه في إمساك البغلة ونحو ذلك. واختلفوا في عدد الثابتين يوم حنين، قال: الكلبي: كان حول رسول الله ﷺ ثلاثمائة من المسلمين وانهم سائر الناس وروى البيهقي عن حارثة بن النعمان لقد حزرت من بقي مع رسول الله ﷺ حين أدبر الناس فقلت: مائة، وروى أحمد والطبراني والحاكم وأبو نعيم برجال ثقات عن ابن مسعود قال: كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فولى الناس وثبت معه

ثمانون رجلاً من المهاجرين والأنصار فنكصنا على أعقابنا نحواً من ثمانين قدماً ولم نولهم الدبر، وروى البزار عن أنس أن أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً رضي الله عنهم ضرب كل منهم بضعة عشر ضربة، وروى ابن مردويه عن أبي عمر لم يبق مع رسول الله ﷺ مائة رجلاً ولا منا مائة بين نفي المائة وإثبات ثمانين، قال: محمد بن عمر: يقال أن رسول الله ﷺ، قال: لحارثة بن النعمان حين انكشف عنه الناس يوم حنين: «يا حارثة كم ترى الناس الذين ثبتوا» فنظرت عن يميني وعن شمالي فقلت هم مائة فما علمت أنهم مائة حتى كان يوم مرت على النبي ﷺ وهو يناجي جبرئيل عند باب المسجد فقال: جبرئيل: يا محمد من هذا، قال: حارثة بن النعمان، فقال: جبرئيل: هو أحد المائة الصابرة يوم حنين لو سلمت لرددت عليه فأخبر رسول الله ﷺ حارثة، قال: ما كنت أظن إلا دحية الكلبي واقف معك، وذكر النووي: أن الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ اثنا عشر رجلاً ووقع في شعر العباس بن عبد المطلب أن الذين ثبتوا معه كانوا عشرة فقط قوله:

نصرنا رسول الله في الحرب تسعة
وعاشرنا لا في الحمام بنفسه
وفر من قد فر عنه فاقشعوا
لما مسه في الله لا يتوجع

قال الصالحى قال: الحافظ لعل هذا هو الأثبت ومن زاد على ذلك يكون عجل في الرجوع فعد فيمن لم ينهزم وثبت أربع من النساء أم سليم بنت ملحان وأم عمارة نسيت وأم سليط وأم الحارث، قال: الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ أي: رحمته التي استقروا بها وآمنوا ﴿عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين انهزموا وإنما ذكر الرسول لأن السكينة إنما نزلت على المنهزمين ببركة وجود رسول الله ﷺ ويتوسطه نزلت على غيره وإعادة الجار للتنبيه على اختلاف حالهما، وقيل: المراد بالمؤمنين الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ ولم يفروا. أخرج الطبراني والحاكم وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود، قال: كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فولى عنه الناس وبقيت معه في ثمانين رجلاً من المهاجرين والأنصار فكنا على أقدامنا نحواً من ثمانين قدماً ولم نولهم الدبر وهم الذين نزلت عليهم السكينة، قال: ابن عتبة: قام رسول الله ﷺ في الركابين وهو على البغلة فرفع يديه إلى الله تعالى يقول: «اللهم إني أنشدك ما وعدتني اللهم لا ينبغي لهم أن يظهر علينا» انتهى فقال: رسول الله ﷺ: «يا عباس نادِ يا معشر الأنصار يا أصحاب السمره، يا أصحاب سورة البقرة» قال: العباس: وكان رجلاً صيتاً فقلت: بأعلى صوتي أين الأنصار أين أصحاب السمره أين أصحاب سورة البقرة قال: فوالله لكانما عطفهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، وفي حديث عثمان بن أبي شيبة عند أبي القاسم البغوي

والبيهقي: «يا عباس اصرخ بالمهاجرين بايعوا تحت الشجرة وبالأنصار آووا ونصروا» قال: فما شبهت عطفة الأنصار على رسول الله ﷺ إلا عطفة الإبل على أولادها حتى نزل رسول الله ﷺ كأنه في خرقة فلرمح الأنصار كانت أخوف عندي على رسول الله ﷺ من رمح الكفار فقالوا: يا لبيك يا لبيك الحديث.

وروى أبو يعلى والطبراني برجال ثقات عن أنس أن رسول الله ﷺ أخذ يوم حنين كفاً من حصي أبيض فرمى به، وقال: «هزموا ورب الكعبة» وكان علي رضي الله عنه أشد الناس قتالاً بين يديه، وروى ابن سعد وابن أبي شيبه وأحمد وأبو داود. والبغوي وغيرهم في حديث طويل عن أبي عبد الرحمن يزيد الفهري واسمه كرز وليّ المسلمون مدبرين كما قال: الله تعالى فجعل رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس أنا عبد الله ورسوله» فافتحم رسول الله ﷺ عن فرسه، وحدثني من كان أقرب إليه مني أنه أخذ حفنة من تراب فخشاه في وجوه القوم وقال: «شاهت الوجوه»^(١) قال: يعلى بن عطاء أخبرنا أبناؤهم عن آبائهم قالوا: بقي منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه من التراب وسمعناه صلصلة من السماء كمر الحديد على الطست فهزمهم الله تعالى قال: الله تعالى.

﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ روى ابن أبي حاتم عن السدي الكبير قال: هم الملائكة، وروى أيضاً عن سعيد بن جبير قال: في يوم حنين: أمد الله تعالى رسول الله ﷺ بخمسة آلاف من الملائكة مسومين، وروى ابن إسحاق وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي عن جبير بن مطعم قال: رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل البجاد الأسود أقبل من السماء حتى سقط بين القوم فنظرت فإذا نمل أسود قد ملأ الوادي ثم أشك أنها الملائكة ولم يكن إلا هزيمة القوم، وروى محمد بن عمر عن يحيى بن عبد الله عن شيوخ قومه من الأنصار قالوا: رأينا يومئذ كالجد الأسود هوت من السماء ركاباً فنظرنا فإذا نمل مبيوث فإن كنا لننفضه عن ثيابنا فكان نصر الله أيدنا به، وروى مسدد في مسنده والبيهقي وابن عساكر عن عبد الرحمن مولى أم برثن قال: حدثني رجل كان من المشركين يوم حنين قال: التقينا أصحاب رسول الله ﷺ لم يقوموا لنا حلب شاة إن كفيهاهم فينا نحن نسوقهم في أدبارهم إذ التقينا صاحب البغلة فإذا هو رسول الله ﷺ وفي رواية إذ بينا وبينه رجال بيض حسان الوجوه قالوا: لنا شاهت الوجوه ارجعوا فرجعنا وركبوا أكتافنا وكانت إياها، وروى ابن مردويه والبيهقي وابن عساكر عن شيبه بن عثمان

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: في غزوة حنين (١٧٧٦).

الحجبي قال: خرجت مع رسول الله ﷺ يوم حنين ما خرجت إسلاماً ولكن خرجت أنفأً أن يظهر هوازن على قريش فوالله إني لو أقف مع رسول الله ﷺ إذ قلت يا رسول الله إني لأرى خيلاً بلقاً قال: «يا شيبه إنه لا يراها إلا كافر» فضرب بيده على صدري وقال: «اللهم اهد شيبه» فعل ذلك ثلاث مرات فوالله ما رفع رسول الله ﷺ الثانية حتى ما أجد من خلق أحب إلي منه، فالتقى المسلمون فقتل من قتل ثم أقبل رسول الله ﷺ وعمر آخذ باللجام والعباس آخذ بالشجر فنادى العباس أين المهاجرين أين أصحاب سورة البقرة بصوت عال هذا رسول الله ﷺ فأقبل المسلمون والنبي ﷺ يقول.

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

فجالدوهم بالسيوف فقال: رسول الله ﷺ: «الآن حمي الوطيس» وروى محمد بن عمر عن مالك بن أوس بن الحدثان قال: حدثني عدة من قومي شهدوا ذلك اليوم يقولون لقد رمى رسول الله ﷺ تلك الرمية من الحصباء فما من أحد إلا يشكوا القذى في عينه ولقد كنا نجد في صدورنا خفقاناً كوقع الحصا في الطساس ما يهدي ذلك الخفقان ولقد رأينا يومئذ رجالاً بيضاً على خيل بلق عليها عمائم حمر قد أرخوها بين أكتافهم بين السماء والأرض كتائب أي لا يعقلون ما يليقون ولا تستطيع أن تتأملهم من الرعب منهم قال: الله تعالى: ﴿وَعَذَابَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ روى ابن أبي حاتم عن السدي الكبير قال: يعني قتلهم بالسيوف، وروى البزار بسند رجاله ثقات عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: يوم حنين: «اجزروهم جزراً» وأومى بيده إلى الحلق، وروى البيهقي عن عبد الله بن الحارث عن أبيه قال: قتل من أهل الطائف يوم حنين مثل من قتل يوم بدر، يعني سبعين رجلاً واستشهد بحنين أيمن ابن أم أيمن وسراقة بن الحارث وبيتم بن ثعلبة ويزيد بن زمعة وأبو عامر الأشعري بأوطاس كما سيأتي، وروى محمد بن عمر عن محمد بن عبد الله بن صعصعة أن سعد بن عبادة جعل يصيح يا للخروج ثلاثاً وأسيد بن حضير يا للأوس ثلاثاً فثابوا من كل ناحية كأنهم النحل ياوي إلى يعسوبها قال: أهل المغازي: فلحق المسلمون على المشركين فقتلوهم حتى أسرع القتل في ذراري المشركين فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «ما بال أقوام بلغ بهم القتل حتى بلغ الذرية ألا تقتل الذرية» فقال: أسيد بن الخضير يا رسول الله أولاد المشركين، فقال: رسول الله ﷺ: «أو ليس خياركم أولاد المشركين كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواه يهودانها وينصرانها» قال: محمد بن عمر قال: شيوخ ثقيف ما زال رسول الله ﷺ في طلبنا في ما نرى حتى أن الرجل منا ليدخل حصين الطائف وإنه ليظن أنه على أثره من

رعب الهزيمة قالوا: هزم الله تعالى أعداءه من كل ناحية وأتبعهم المسلمون يقتلونهم وغنمهم الله نسائهم وذرائعهم وفر مالك بن عوف حتى بلغ حصين الطائف هو وأناس من أشرف قومه، وقال ابن إسحاق ومحمد بن عمر وغيرهما: لما هزم الله هوازن أتوا الطائف ومعهم مالك بن عوف وعسكر بعضهم بأوطاس وتوجه بعضهم نحو نخلة ولم يتبع من سلك الثنايا وقتل ربيعة بن رفيع من بني سليم دريد بن الصمة، قال: البغوي: فلما هزم الله المشركين وولوا مدبرين انطلقوا حتى أتوا أوطاس وبها عيالهم وأموالهم فبعث رسول الله ﷺ رجلاً من الأشعرين يقال له أبو عامر وأمره على جيش إلى أوطاس فسار إليهم فاقتتلوا وقُتِلَ الدريد بن الصمة، وهزم الله المشركين وسبى المسلمون عيالهم وهرب مالك بن عوف النضري فأتى الطائف وتحصن بها وأخذ ماله وأهله فيمن أخذ وقتل أمير المسلمين أبو عامر وأسلم عند ذلك ناس كثير من أهل مكة حين رأوا نصر الله رسوله وإعزاز دينه، ولما جمعت الغنائم أمر رسول الله ﷺ أن ينحدر إلى جعرانة فوقف بها إلى أن انصرف رسول الله ﷺ من حصار الطائف، قال: ابن سعد وتبعه في العيون كان السبي ستة آلاف رأس والأهل أربعة وعشرون ألف بغير والغنم أكثر من أربعين ألف شاة وأربعة آلاف أوقية فضة، وروى عبد الرزاق عن سعيد بن المسيب قال: سبي يومئذ ستلا آلاف سبي بين امرأة و غلام فجعل رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب، وقال البلاد ري بديل بن ورقاء الخزاعي قال: ابن إسحاق: جعل على المغنم مسعود بن عمر الغفاري. قال: ابن إسحاق: ثم مضى رسول الله ﷺ حتى نزل قريباً من الطائف فضرب عسكره وأشرف ثقيف على حصنهم ولا مثل له في حصون العرب وأقاموا وهم مائة رام فرموا بالسهم والمقاطيع من بعد حصنهم ومن دخل تحت الحصين ولوا عليه بسكك الحديد محماة من النار تطير منها الشرر فرموا المسلمين بالنبل رمياً شديداً كأنه رجل جراد، حتى أصيب ناس المسلمين بجراحة وقتل منهم اثنا عشر رجلاً، فارتفع رسول الله ﷺ إلى موضع مسجده اليوم الذي بنته ثقيف بعد إسلامهم، وقال عمرو بن أمية الثقفي وأسلم بعد ذلك لا يخرج إلى محمد أحداً إذا دعى أحداً من أصحابه إلى البراز ودعوه يقيم ما أقام ثم أقبل خالد بن الوليد فنأدى من يبارز؟ فلم يطلع عليه أحد ثم دعا فلم ينزل إليه أحد، فنأدى عبد ياليل لا ينزل إليك أحد ولكننا نقيم في حصننا خباءنا فيه ما يصلحنا لسنين فإذا أقمت حتى ذهب ذلك الطعام خرجنا إليك بأسيافتنا جميعاً حتى نموت فقاتلهم رسول الله ﷺ بالرمي وهم يقاتلونه بالرمي من وراء الحصين ولم يخرج إليه أحد وكثرت الجراحات له من ثقيف بالنبل وقتل جماعة من المسلمين، روى ابن إسحاق ومحمد بن عمر عن شيوخه قالوا:

نادى رسول الله ﷺ: «أيا عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر فخرج من الحصن بضعة عشر رجلاً فأعتقهم رسول الله ﷺ، قال: محمد بن عمر وشاور رسول الله ﷺ أصحابه فقال: سلمان الفارسي أرى أن تنصب المنجنيق فنصبه على حصين الطائف وهو أول منجنيق رمى به في الإسلام فأمر رسول الله ﷺ أن يقطع أعنابهم ونخيلهم، قال: عروة أمر رسول الله ﷺ كل رجل من المسلمين أن يقطع خمس نخلات وخمس حيلات فقطع المسلمون قطعاً ذريعاً فنادت ثقيف لم تقطع أموالنا؟ إما أن تأخذها إن ظهرت علينا وإما أن تدعها لله وللرحم فقال: رسول الله ﷺ: «فإني أدعها لله وللرحم».

قال ابن إسحاق: وبلغني أن رسول الله ﷺ قال: لأبي بكر إني رأيت إن أهديت قعبة مملوءة زبد فنظرها ديك فهراق ما فيها فقال: أبو بكر ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ما تريد، فقال: رسول الله ﷺ: «ولا أرى ذلك» وروى محمد بن عمر عن أبي هريرة قال: لما مضت خمسة عشر من حصار الطائف استشار رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الديلمي رضي الله عنه فقال: «يا نوفل ما ترى في المقام عليهم؟» فقال: يا رسول الله ثعلب في جحر إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك، وروى الشجال عن ابن عمر وعمر رضي الله عنهما لما حاصر رسول الله ﷺ الطائف ولم ينل منه شيئاً قال: «إنا قافلون غداً إن شاء الله» فثقل عليهم قالوا: تذهب ولا نقبح فقال: «أعدوا فغدوا فقاتلوا قتالاً شديداً فأصابهم جراح فقال: رسول الله ﷺ: «إنا قافلون غداً إن شاء الله تعالى» قال: فأعجبهم فضحك رسول الله ﷺ، ذكر الصالحى أنه استشهد من المسلمين بالطائف اثنا عشر رجلاً، روى البيهقي عن عروة أمر رسول الله ﷺ أن لا يسرحوا ظهرهم فلما أصبحوا ارتحل رسول الله ﷺ وأصحابه ودعا حين ركب قافلاً: «اللهم اهدهم واكفنا مؤنتهم» وروى الترمذي وحسنه عن جابر قالوا: يا رسول الله ﷺ أحرقتنا نبال ثقيف فادع الله عليهم فقال: «اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم»^(١) قال: ابن إسحاق في رواية حاصر أهل الطائف ثلاثين ليلة أو قريباً من ذلك وفي رواية بضعة وعشرين ليلة، وقيل: عشرين يوماً وقيل: بضع عشرة ليلة قال: ابن حزم هو الصحيح بلا شك، وروى أحمد ومسلم عن أنس أنهم حاصروا الطائف أربعين ليلة، واستغربه في الهداية، قال: البغوي: حاصرهم بقية الشهر يعني شوال فلما دخل ذو القعدة وهو شهر حرام انصرف عنهم، قلت: هذا يوافق ما قال: ابن حزم وعلى هذا لا دلالة فيه على القتال في الشهر الحرام كما ذكر من

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: مناقب في ثقيف وبنى حنيفة (٣٩٥١).

ادعى نسخ حرمة القتال فيها فأتى رسول الله ﷺ الجعرانة فأحرم منها بعمره قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ أن يهديه إلى الإسلام ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال: ابن إسحاق في رواية يونس بن بكر عن ابن عمر قال: كنا مع رسول الله ﷺ بحنين فلما أصاب من هوازن ما أصاب من أموالهم وسباياهم أدركه وفد هوازن بالجعرانة وهم أربعة عشر رجلاً ورأسهم زهير بن صرد وفيهم بويرقان عم رسول الله ﷺ الرضاعة وقد أسلموا، فقال: يا رسول الله إنا أهل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك فامنن علينا من الله عليك، وقام خطيبهم زهير بن صرد فقال: يا رسول الله إن ما في الحظائر من السبايا عماتك وخالاتك يعني من الرضاع وحواضنك اللاتي كن يكفلنك ولو أنا ملحنا للحارث بن أبي شمر يعني ملك الشام من العرب أو للنعمان بن المنذر يعني ملك العراق من العرب ثم أصابنا منهما مثل الذي أصابنا رجونا عائدتهما وعطفهما وأنت يا رسول الله خير المكفولين ثم أنشد بعض الشعر.

وروى الصالحي عن زهير بن صرد الجشمي يقول: لما أسرنا رسول الله ﷺ يوم حنين ويوم هوازن وذهب يفرق السبي والشاة أتيته فإن شاءت أقول أمنن علينا رسول الله في كرم فإنك المرء نرجوه وننتظر وقرأ أشعاراً، قال: فلما سمع رسول الله ﷺ هذا الشعر قال: «ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم» وقالت قريش ما كان لنا فهو لله ولرسوله وقالت الأنصار: ما كان لنا فهو لله ورسوله، قال: الصالحي: هذا حديث جيد الإسناد عال جداً رواه أيضاً المقدسي في «صحيحه»، ورجح الحافظ ابن حجر أنه حديث حسن.

وروى البخاري في «الصحيح» حديث مروان ومسور بن مخرمة، قالوا: إن رسول الله ﷺ حين جاءه وفد هوازن مسلمين فسألوه أن يرد إليهم أموالهم وسبيهم فقال: رسول الله ﷺ: «معي من ترون وأحب الحديث إلي أصدقه فاخترتوا إحدى الطائفتين إما السبي وإما المال» قالوا: فإننا نختار سبياً فقام رسول الله ﷺ فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: «أما بعد فإن إخوانكم قد جاؤوا تائبين وإني رأيت أن أرد إليهم سبيهم فمن أحب منكم أن يطيب بذلك فليفعل ومن أحب أن يكون على حظه نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا، فليفعل» فقال: الناس قد طبنا ذلك يا رسول الله ﷺ: «أنا لا أدري من أذن منكم في ذلك فمن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم» فرجع الناس فكلّمهم عرفاءهم ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا^(١) روى أبو داود

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الوكالة، باب: إذا وهب شيئاً لوكيل أو شفيع قوم جاز (٢٣٠٧).

والبيهقي وأبو يعلى عن أبي الطفيل قال: رأيت رسول الله ﷺ يقسم بالجعرانة لحمياً فجاءت امرأة بدوية، فلما دنت من النبي ﷺ بسط لها رداءه فجلست عليه فقلت: من هذه؟ فقالوا: أمه التي أرضعته^(١)، وروى أبو داود في «المراسيل» عن عمرو بن السائب قال: كان رسول الله ﷺ جالساً يوماً فجاءه أبوه من الرضاعة فوضع بعض ثوبه فقعد عليه ثم أقبلت أمه فوضع لها شق ثوبه من جانبه الآخر ثم جاءه أخوه من الرضاعة فقام رسول الله ﷺ فأجلسه بين يديه.

وقال محمد بن عمر لما هزم المشركون يوم حنين أمر رسول الله ﷺ بطلب العدو وقال لخيله إن قدرتم على بجاد رجل من بني سعد فلا يفلتن منكم وقد كان أحدث حدثاً عظيماً، كان أتى رجلاً مسلماً فأخذه فقطعه عضواً عضواً ثم حرقه بالنار وكان قد عرف جرمه فهرب فأخذه الخيل فضموه إلى الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى أخت رسول الله ﷺ، يعني من الرضاعة وأتبعوها في الساق فجعلت شيماء تقول: إني والله أخت صاحبكم فلم يصدقوها فأتوا بها رسول الله ﷺ، فقالت: يا محمد إني أختك فقال: رسول الله ﷺ: وما علامة ذلك؟ فأرته عضة بإبهامها فقالت: عضة عضضتنيها وأنا متوركتك بوادي السرب ونحن نرعى بهم أبيك وأبي وأمك وأمي وقد نازعتك الثدي، فعرف رسول الله ﷺ العلامة فوثب قائماً وبسط رداءه ثم قال: «اجلسي عليه» وترحب بها ودمعت عيناه وسألها عن أمه وأبيه فأخبرته بموتها فقال: «إن أحببت أقيمي عندنا مكرمة وإن أحببت أن ترجعي إلى قومك وصلتك ورجعتك إلى قومك» قالت: بل أرجع إلى قومي فأسلمت فأعطاها رسول الله ﷺ ثلاثة أعبد وجارية وأمر لها ببعير أو بعيرين وقال لها: ارجعي إلى الجعرانة تكونين مع قومك فإني أمضي إلى الطائف فرجعت إلى جعرانة، ووافاها رسول الله ﷺ وأعطاها نعماً وشاة ولمن بقي من أهل بيتها وكلمته في بجادان يهبه لها ويعفو عنه ففعل رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق في رواية يونس بن عمر: إن رسول الله ﷺ لما فرغ من رد سبايا هوازن ركب بعيره وتبعه الناس يقولون: يا رسول الله اقسم علينا فيئاً حتى اضطرروه إلى شجرة فانتزعت رداءه فقال: «يا أيها الناس ردوا علي ردائي فوالذي نفسي بيده لو كان عندي شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم ثم ما أفتيموني بخيلاً ولا كذاباً» الحديث، قال: ابن إسحاق أعطى رسول الله ﷺ المؤلف قلوبهم وكانوا أشرفاً من أشرف العرب يأتلف

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في بر الوالدين (٥١٣٥).

بهم قلوبهم، قال: محمد بن عمر بالأموال فقسمها وأعطى المؤلفه قلوبهم أول الناس، قال: الصالحي: منهم من أعطى مائة بعير ومنهم من أعطى خمسين وجميع ذلك يزيد على خمسين رجلاً، ثم ذكر الصالحي أسمائهم فذكرهم سبعا وخمسين رجلاً.

روى الشيخان في «الصحيحين» عن حكيم بن حزام قال: «سألت رسول الله ﷺ بحنين مائة من الإبل فأعطانيها ثم سأله مائة فأعطانيها ثم قال: رسول الله ﷺ: «يا حكيم إن هذا المال حلوة فمن أخذ بسخاوة نفس بورك فيه ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك فيه وكان كالذي يأكل ولا يشبع واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول» فقال: حكيم: والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً^(١)، فكان عمر بن الخطاب يدعوه إلى عطاءه فيأبى أن يأخذ فيقول عمر أيها الناس أشهدكم على حكيم بن حزام أدعوه إلى عطاءه فيأبى أن يأخذ، قال: ابن أبي الزيات أخذ حكيم المائة الأولى فقط وترك الباقي، وأعطى رسول الله ﷺ سهيل بن عمرو مائة وأبو سفيان بن حرب مائة من الإبل وأعطاه أربعين أوقية فضة وابنه معاوية مائة من الإبل وأربعين أوقية فضة ويزيد بن أبي سفيان مائة بعير وأربعين أوقية وهكذا، روى البخاري عن صفوان قال: ما زال رسول الله ﷺ يعطيني من غنائم حنين وهو أبغض الخلق إلي حتى ما خلق الله شيئاً أحب إلي منه» وفي صحيح مسلم أنه ﷺ: «أعطاء مائة من النعم ثم مائة ثم مائة» قال: محمد بن عمر يقال: إن صفوان طاف مع رسول الله ﷺ بتصفح الغنائم إذ مر بشعب مما أفاء الله على رسوله فيه غنم وإبل ورعاء مملوء فأعجب صفوان وجعل ينظر إليه فقال: رسول الله ﷺ أعجبتك هذا الشعب يا أبا وهب؟ قال: نعم، قال: «هو لك بما فيه» فقال: صفوان أشهد أنك رسول الله ما طابت بهذانفس أحد قط إلا نبي^(٢).

روى أحمد ومسلم والبيهقي عن رافع بن خديج أن رسول الله ﷺ أعطى المؤلفه قلوبهم من سبي حنين كل رجل منهم مائة من الإبل وذكر الحديث وفيه أعطى العباس بن مرداس دون المائة فأنشاء العباس يقول: أتجعل نهبي ونهب العبيد بين عيينة والأقرع فما كان حصين ولا حابس يقومان مرداس في المجمع إلى آخر الآيات، فأتى له رسول الله ﷺ المائة وأعطى عثمان بن وهب وعدي بن قيس وعمير بن وهب وعلام بن جارية ومخرمة بن

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: الاستعفاف في المسألة (١٤٧٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة باب: بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى (١٠٣٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال لا، وكثرة عطائه (٢٣١٣).

نوفل وغيرهم كل واحد منهم خمسين بعيراً ثم أمر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت بإحصاء الناس والغنائم ثم فضها على الناس، فكانت سهمانهم لكل رجل منهم أربعة من الإبل أو أربعين شاة فإن كان فارساً أخذ اثني عشر من الإبل أو عشرين ومائة شاة وإن كان معه أكثر من فرس واحد لم يسهم له. قلت: عطاءه ﷺ المؤلفات قلوبهم يبلغ أربعة آلاف بعير أو زائداً عليه، وقد مر فيما سبق أن إبل المغنم كانت أربعة وعشرين ألف بعيراً، الغنم أكثر من أربعين ألف شاة وهي تساوي أربعة آلاف بعير فصار المجموع ثمانية وعشرون ألف بعير فخمسة يكون أقل من خمسة آلاف بعير فعطاء المؤلفات لا يخلوا إما أن يكون من رأس الغنيمة أو من جميع الخمس ولا يمكن أن يكون من خمس الخمس سهم رسول الله ﷺ فيلزم من هذا إما التنفيل بعد الإحراز بلا شرط سبق والصرف الخمس إلى صنف واحد وجعل المؤلفات صنفاً من الفقراء والله أعلم.

ولما كان رجال العسكر اثني عشر ألفاً أو ستة عشر ألفاً ومنهم الفرسان وصار سهم الراجل أربعة بعير والفارس اثني عشر بعيراً فهذا يقتضي أن يبلغ الغنيمة ستين ألف بعيراً وأكثر أو أقل ولعل ذلك بضم قيمة العروض والنقود إلى المواشي والله أعلم.

قال محمد ابن إسحاق: حدثني محمد بن الحارث التيمي أن قائلاً قال: لرسول الله ﷺ من أصحابه قال: محمد بن عمرو هو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يا رسول الله أعطيت عيينة بن حصين والأقرع بن حابس مائة وتركت جعيل بن سراقه الضمري فقال: رسول الله ﷺ: «أما والذي نفسي بيده لجعيل بن سراقه من طلاع الأرض كلهم مثل عيينة بن حصين والأقرع بن حابس ولكني أتألفها ليسلما ووكلت جعيل بن سراقه إلى إسلامه»، وروى البخاري عن عمرو بن تغلب قال: أعطى رسول الله ﷺ قوماً ومنع آخرين فكانهم عتبوا فقال: «إني لأعطي أقواماً أخاف هلعهم وجزعهم وأكل أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى منهم عمرو بن تغلب، قال: عمرو: فما أحب أن لي بكلمة رسول الله ﷺ حمر النعم^(١)، وفي هذا المقام قال: رسول الله ﷺ: «إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه خشية أن يكبه الله في النار على وجهه»^(٢) رواه البخاري عن سعد بن أبي وقاص.

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجمعة، باب: من قال في الخطبة بعد الثناء أما بعد (٩٢٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل (٢٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: تألف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه (١٥٠).

روى ابن إسحاق وأحمد عن أبي سعيد الخدري وأحمد والشيخان من طرق عن أنس بن مالك والشيخان عن عبد الله بن يزيد بن عاصم أن رسول الله ﷺ لما أصاب غنائم حنين وقسم للمتألفين من قريش وسائر العرب ما قسم، وفي رواية طفق يعطي رجالاً المائة من الإبل ولم يكن في الأنصار منها شيء قليل ولا كثير، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت فيهم المقالة حتى قال: قائلهم يغفر الله لرسول الله ﷺ إن هذا الهوا العجيب يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم إذا كانت شديدة فنحن ندعى ويعطي الغنيمة غيرنا ودوننا ممن كان هذا فإن كان من الله صبرنا وإن كان من رسول الله استعتبناه، فقال: رجل من الأنصار: لقد كنت أحدثكم أن لو استقامت الأمور لقد أثر عليكم فردوا عليه رداً عنيفاً، قال: أنس فحدث رسول الله ﷺ بمقالتهم فقال: أبو سعيد فمشى سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم، قال: فبم؟ قال: فيما كان من قسمك هذا الغنائم في قومك وفي سائر العرب ولم يكن فيهم من ذلك شيء، فقال: أين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: ما أنا إلا امرؤ من قومي، فقال: رسول الله ﷺ: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة، فخرج سعد يصرخ فيهم حتى جمعهم فجاء رجل من المهاجرين فأذن له فيهم وجاء آخرون فردهم حتى إذا لم يبق من الأنصار أحد خرج رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: يا معشر الأنصار ألم تكن ضلالاً فهداكم الله وعالة فأغناكم الله وأعداء فألف بين قلوبكم قالوا: بلى الله ورسوله أمن وأفضل، فما قال: رسول الله ﷺ شيئاً إلا قالوا: الله ورسوله أمن وأفضل، ثم قال: لا تجيبون يا معشر الأنصار، قالوا: ما نقول يا رسول الله وبماذا نجيبك؟ أمن لله تعالى ورسوله ﷺ، قال: «والله لو شئتم لقلتم وصدقتم وصدقتم جئتنا طريداً فأويناك وعائلاً فأسيناك وخائفاً فأمناك ومخذولاً فنصرناك ومكذباً فصدقناك» فقالوا: المن لله ورسوله، فقال: فما حديث بلغني عنكم؟ فسكتوا، فقال: ما حديث بلغني عنكم؟ فقال: فقهاء الأنصار: أما رأسنا فلم يقولوا شيئاً وأما أناس منا حديثه أسنانهم قالوا: يغفر الله لرسوله يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال: رسول الله ﷺ: «إني لأعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم، وفي رواية إن قريشاً حديثوا عهد لجاهلية ومصيبة وإني أردت أن أجبرهم، في رواية من الجبر ضد الكسر، وفي رواية براء معجزة من الجابرة وأتألفهم أوجدتم يا معشر الأنصار في نفوسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً أسلموا ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير؟ وفي لفظ بالدنيا وتذهبون برسول الله ﷺ إلى

رحالكم تحوزورنه إلى بيوتكم فوالذي نفسي بيده لو أن الناس سلكوا شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، أنتم الشعار والناس الدثار الأنصار كرشتي وعييتي ولولا الهجرة لكنت امرأاً من الأنصار اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار» فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا بالله وبرسوله حظاً وقسماً، وذكر محمد بن عمر أن رسول الله ﷺ أراد حينئذ أن يكتب بالبحرين يكون خاصة بعده دون الناس وهي يومئذ أفضل ما فتح عليه من الأرض فأبوا وقالوا: لا حاجة لنا بالدنيا بعد، فقال: رسول الله ﷺ: «إنكم ستجدون بعدي أثره شديدة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض»^(١) قال: أهل المغازي قال: رسول الله ﷺ لوفد هوازن: «ما فعل مالك بن عوف» قالوا: يا رسول الله هرب فلحق بحصن الطائف مع ثقيف، فقال: رسول الله ﷺ: «أخبروه أنه إن يأتي مسلماً رددت إليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل» وكان رسول الله ﷺ أمر بحبس أهل مالك بمكة عند عمتهم أم عبد الله بنت أبي أمية فلما بلغ مالكاً ما صنع رسول الله ﷺ وأن أهله وماله موفور وقد خاف مالك ثقيفاً على نفسه وخاف أن يسمعوا أن رسول الله ﷺ قال: له ما قال: فيحبسونه، فأمر براحلته فقدمت له بوحناء وأمر بفرس له فأتى به ليلاً فخرج من الحصن فجلس على فرسه ليلاً فركضه حتى أتى وحناء فركب بعيره فلحق برسول الله ﷺ، فأدركه بالجعرانة أو بمكة فرد عليه رسول الله ﷺ أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل وأسلم فحسن إسلامه، فاستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه من تلك القبائل من هوازن ودوساً وثقيفاً وثمانية وكان قد ضوى إليه قوم مسلمون واعتقد لواء فكان يقاتل بهم من كان على الشرك ويميل بهم على ثقيف فيقاتلهم بهم ولا يخرج لثقيف سرح إلا غار عليه وكان لا يقدر على سرح إلا أخذه ولا على رجل إلا قتله وكان يبعث إلى رسول الله ﷺ بالخمس مما يغنم مرة مائة بعير ومرة ألف شاة، ولقد أغار على سرح لأهل الطائف فاستاق لهم ألف شاة في غداة واحدة، قال: ابن إسحاق في رواية يونس قدم رسول الله ﷺ وفد ثقيف في رمضان سنة تسع فأسلموا وذلك بعد غزوة تبوك والله أعلم.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الطائف (٤٢٣٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: إعطاء المؤلف قلوبهم على الإسلام (١٠٦١).

حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قِيلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ
 وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ
 وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ
 ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَنَلَهُمُ اللَّهُ أَنْ
 يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ
 مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا
 يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ
 كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ
 كَفَرُوا وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ مصدر من نجس ينجس على وزن سمع
 يسمع أو كرم يكرم ولنا لا يثنى ولا يجمع ويستوي فيه الذكر والأنثى، وحمله إما على
 المبالغة أو بتقدير ذو، في القاموس النجس بالفتح وبالكسر وبالتحريك وككتف
 وعضد... ضد الطاهر، قلت: وهو ما يستقذره الطبع السليم ويطلق عليه النجاسة
 الحقيقية كالفاذورات والدم والحق بها الشارع النجاسات الحكمية من الحدث والجنابة
 وانقطاع الحيض والنفاس فهو ما يستقذره الشرع، فالكافر نجس شرعاً لأنه حيث لخبث
 باطنه ليستقذره الشرع ويجب الاجتناب عنه كما يجب على المصلي الاجتناب عن النجاسة
 الحقيقية فلا يجوز موالاتهم قال: الضحاك: وأبو عبيدة نجس يعني قدر، قال: البغوي:
 أراد به نجاسته الحكم لا نجاسة العين سموا نجساً على الذم، وقال قتادة سماهم نجساً
 لأنهم يجتنبون فلا يفتسلون ويحدثون فلا يتوضؤون ولا يجتنبون من النجاسات.

وعن ابن عباس أن أعيانهم نجسة كالكلاب، أخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن
 عباس قال: قال: رسول الله ﷺ: «من صافح مشركاً فليتوضأ أو ليغسل كفيه» وهذا القول
 متروك بالإجماع ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾، قالت الحنفية: المراد به النهي عن الحج
 والعمرة لا عن الدخول مطلقاً بدليل أن النبي ﷺ بعث علياً رضي الله عنه ينادي في
 الموسم: «لا يحج بعد العام مشرك» فظهر أن المراد منهم عن الحج والعمرة فيجوز عنده
 دخول الكافر المسجد الحرام ودخول غيره بالطريق الأولى وورد النهي عن الاقتراب
 للمبالغة، وقالت الشافعية هو نهي عن دخولهم الحرم لأنهم إذا دخلوا بالحرم فقد اقتربوا
 من المسجد الحرام وهذا كما قال: الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ

الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ^(١) وأراد به الحرم لأنه أسرى به من بيت أم هانئ.

قال البغوي رضي الله عنه جملة بلاد الإسلام في حق الكفار على ثلاثة أقسام أحدها: الحرم فلا يجوز للكافر أن يدخله ذمياً كان أو مستأمناً لظاهرة هذه الآية وإذا جاء رسول من دار الكفار إلى الإمام والإمام في الحرم لا يأذن له في دخول الحرم بل يبعث إليه من يسمع رسالته خارج الحرم، والقسم الثاني من بلاد الإسلام الحجاز فلا يجوز للكافر الإقامة فيها أكثر من مقام السفر وهو ثلاثة أيام لكن جاز له دخولها لما روي عن عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لئن عشت إن شاء الله لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلماً» فمضى رسول الله ﷺ وأوصى فقال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب» فلم يتفرغ لذلك أبو بكر وأجلاهم عمر رضي الله عنهما في خلافة وأجل لمن يقدم منهم تاجراً ثلاثاً، وجزيرة العرب من أقصى عدن إلى ريف العراق في الطول ومن جدة وما والاها من ساحل البحر إلى الشام في العرض، والقسم الثالث سائر بلاد الإسلام يجوز للكافر أن يقين بذمة أو أمان ولكن لا يدخلون المساجد إلا بإذن مسلم، وقال الحافظ بن حجر المروني عن الشافعي التفضيل بين المسجد الحرام وغيره من المساجد فلا يجوز له دخول المسجد الحرام ويجوز له دخول غيرها من المساجد وعند المالكية والمزني لا يجوز للكافر دخول شيء من المساجد قياساً على المسجد الحرام، وعقد البخاري باباً على دخول المشرك المسجد يعني على جواز دخوله وذكر فيه حديث أبي هريرة قال: بعث رسول الله ﷺ خيلاً قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال فربطوه بسارية من سواري المسجد وقد ذكرنا حديث قصة ثمامة بن أثال وإسلامه في سورة الأنفال في مسألة جواز المن على الأسارى، وهذا الاستدلال ضعيف لأن قصة ثمامة بن أثال كان قبل فتح مكة وقد منع الكفار عن الحج أو الدخول في المسجد الحرام في سنة تسع حيث قال: الله تعالى: ﴿بِمَدِّ عَيْنِهِمْ هَكَذَا﴾ يعني العام الذي نزلت فيه سورة التوبة وحج فيه أبو بكر ونادي علي ببراءة وهي سنة تسع من الهجرة، وقيل: يؤذن للكتابي خاصة بدخول المسجد قال: الحافظ ابن حجر في شرح البخاري في باب دخول المشرك المسجد إن حديث الباب يرد على هذا القول أن ثمامة بن أثال لم يكن من أهل الكتاب والله أعلم.

قال البيضاوي في هذه الآية دليل على أن الكفار مخاطبون بالفروع نظراً إلى أنه

(١) سورة الإسراء، الآية: ١.

سبحانه نهاهم عن اقتراب المسجد وهذا ليس بشيء فإن الخطاب في الآية للمؤمنين حيث قال: الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ الآية فالمؤمنون مأمورون بمنعهم عن المسجد الحرام وإن كان ظاهر الآية نهياً للكفار كيف ولو كان الكفار مخاطبين بالفروع كانوا مخاطبين مأمورين بالحج إذ الحج من الفروع مع أن الآية يمنعهم عن الدخول والحج فيلزم التناقض ولو كانوا مخاطبين بهذه الآية بعدم الدخول وترك الحج لكانوا ممثلين بتركهم الحج فيلزم أن يكونوا إما ماجورين مثابين في ذلك وذلك باطل والله أعلم.

أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس وابن جرير وأبو الشيخ عن سعيد بن جبيرة وعكرمة وعطية العوفي والضحاك وقتادة وغيرهم أنه كان المشركون يجيئون إلى البيت ويجيئون معهم بالطعام فلما نهوا عن إتيان البيت ونزلت: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ شق على المسلمين وقالوا: من يأتينا بالطعام وبالمتاع فأنزل الله تعالى ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها المسلمون من أهل مكة ﴿خِفْتُمْ﴾ يعني فقر لوفاقة يقال عال يعيل عيلة ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ قيده بالمشيئة لينقطع بالآمال إليه ولينبه على أنه متفضل في ذلك وأن الغنى الموجود يكون لبعض دون بعض وفي عام دون عام ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بأحوال عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يعطي ويمنع قال: عكرمة فأغناهم الله بأن أنزل عليهم المطر مدرار فكثر خيرهم، وقال مقاتل: أسلم أهل جدة وصنعاء وجرش من اليمن وجلبوا الميرة الكثيرة إلى مكة فكفاهم الله تعالى ما كانوا يخافون وقال الضحاك وقتادة عوضهم الله منها الجزية فأغناهم بها وذلك قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ قال: مجاهد نزلت هذه الآية حين أمر رسول الله ﷺ بقتال الروم، فغزا بعد نزولها عزوة تبوك. فإن قيل: أهل الكتاب يؤمنون بالله واليوم الآخر؟ أجيب: بأنهم لا يؤمنون على ما ينبغي فإنهم إذا قالوا: عزير بن الله والمسيح ابن الله لم يكن إيمانهم بالله على حقيقته ولم يعتقدوا كونه أحداً صمداً لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وإذا قالوا: لا يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى وأن النار لا يمسهم إلا أياماً معدودات، واختلفوا في نعيم الجنة أهو من جنس نعيم الدنيا أو غيره وفي دوامة انقطاعه وقال بعضهم لا أكل فيها ولا شرب لم يكن إيمانهم بالآخرة على حقيقته فإيمانهم كلا إيمان، ﴿وَلَا يُحْرَمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أي: ما ثبت تحريمه بالكتاب والسنة.

وقيل: المراد برسوله الذي يزعمون إتباعه والمعنى أنهم يخالفون أصل دينهم المنسوخ اعتقاداً وعملاً فإن موسى وعيسى أمرا بإتباع محمد ﷺ ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾

أي: لا يدينون الدين الحق أضاف الاسم إلى الصفة وقال قتادة الحق هو الله أي: لا يدينون دين الله فإن الدين عند الله الإسلام، وقيل: الحق الإسلام والمعنى دين الإسلام، وقال أبو عبيدة معناه لا يطيعون الله طاعة أهل الحق ﴿مَنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ بيان للذين لا يؤمنون يعني اليهود والنصارى ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ وهي في اللغة الجزاء وإنما بنيت على فعلة للدلالة على الهيئة وهي هيئة الإذلال عند العطاء على ما ستعرف، والمراد به الخراج المضروب على رقابهم وقيل: هي مشتق من جزى دينه إذا قضاه ﴿عَنْ يَدٍ﴾ حال من الضمير أي: عن يد موأية غير ممتنعة يعني منقادين أو عن يد من يعطي خراجه يعني مسلمين بأيديهم غير باعثن بأيدي غيرهم كذا قال: ابن عباس.

ولذلك يمنع من التوكيل في أداء الجزية أو المعنى عن قهر وذل، قال: أبو عبيدة يقال لكل من أعطى شيئاً من غير طيب نفس أعطاه من يد وقيل: معنى عن يد نقداً لا نسيئة، وقيل: عن إقرار بإنعام المسلمين عليهم بقبول الجزية منهم عوضاً عن القتل ﴿وَهُمْ صَغِيرُونَ﴾ أذلاء مقهورون، قال: عكرمة: يعطون الجزية قياماً والقابض جالس، وعن ابن عباس قال: يؤخذ ويوطأ عنقه، وقال الكلبي: إذا أعطى صفع في قفاه، وقيل: يؤخذ بلحيته فيضرب في لهزمته وقيل: يليب ويجر إلى موضع لإعطاء بعنف وقيل: إعطائه إياه وهو الصغار، وقال الشافعي: الصغار هو جريان أحكام الإسلام عليهم ظاهر هذه الآية يقتضي أن انتهاء القتال بإعطاء الجزية مختص بأهل الكتاب ولأجل هذه لم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر^(١) رواه البخاري في «صحيحه» من حديث بجالة بن عبدة، واختلف كلام الشافعي في بجالة فقال: في الحدود مجهول وقال في الجزية حديث ثابت ولأجل هذا الحديث انعقد الإجماع جواز أخذ الجزية من المجوس.

مسألة

اختلف العلماء في باب الجزية؟ فقال: أبو حنيفة: تؤخذ من أهل الكتاب على العموم عربياً كان أو أعجمياً ومن مشركي العجم على العموم مجوسياً كان أو وثنياً إلا المرتدين، وقال أبو يوسف: يؤخذ من أهل العجم دون أهل العرب كتابياً كان أو مشركاً،

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجزية والمواخاة، باب: الجزية والمواخاة مع أهل الذمة والحرب (٣١٥٧).

وقال مالك والأوزاعي يؤخذ من كل كافر عربياً كان أو أعجمياً إلا مشركي قريش خاصة والمرتدين وذهب الشافعي إلى أن الجزية على الأديان لا على الإنسان فيؤخذ من أهل الكتاب عربياً وعجمياً ولا يؤخذ من أهل الأوثان بحال، وأما المجوس فهم عنده أهل كتاب، لما روى مالك في الموطأ والشافعي في الأم عنه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن عمر قال: ما أدري ما أصنع في أمرهم يعني المجوس فقال: له عبد الرحمن بن عوف أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب»^(١).

وقال الشافعي ثنا سفيان عن سعيد بن المرزبان عن نصر بن عاصم قال: قال: فروة بن نوفل على ما يؤخذ الجزية من المجوس فليسوا بأهل كتاب، فقام إليه المستور فأخذ بلبته وقال باعد والله أتطعن أبا بكر وعمر وأمير المؤمنين يعني علياً وقد أخذوا منهم الجزية فذهب إلى القصر، فخرج عليهم علي فقال: ائتته أنا أعلم الناس بالمجوس، كان لهم علم يعلمونه وكتاب يدرسونه وإن ملكهم سكر هوقع على ابنته أو أمه فاطلع عليه بعض أهل مملكته فلما صحا جاؤوا يقيمون عليه الحد فامتنع منهم فدعى أهل مملكته فقال: تعلمون ديناً خيراً من دين آدم قد كان آدم ينكح بنيه بيناته فأنا على دين آدم وما يرغب بكم عن دينه فبايعوه وقاتلوا الذين خالفوهم قتلوهم فأصبحوا وقد أسرى علمائهم فرفع من بين أظهرهم وذهب العلم الذي في صدورهم أهل كتاب، وقد أخذ رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر منهم الجزية، ذكر الحديث ابن الجوزي في التحقيق وقال: سعيد بن مرزبان مجروح، قال: يحيى بن سعيد لا استحل أن يروى عنه، وقال يحيى ليس بشيء ولا يكتب حديثه، وقال القلاس متروك الحديث، وقال أبو أسامة كان ثقة، وقال أبو ذرعة صدوق مدلس، قلت: وذكر أبو يوسف في كتاب الخراج قال: حدثنا سفيان بن عيينة عن نصر بن عاصم الليثي عن علي بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر أخذوا الجزية من المجوس وقال: أنا أعلم الناس بهم، كانوا أهل كتاب يقرؤونه وعلم يدرسونه فنزع من صدورهم، قال: أبو يوسف وحدثنا نصر بن خليفة أن فروة بن نوفل الأشجعي قال: إن هذا الأمر عظيم يؤخذ من المجوس الخراج وليسوا بأهل الكتاب، قال: فقام إليه مستورد بن الأحنف قال: طعنت على رسول الله ﷺ فتب وإلا قتلتك وقال: قد أخذ رسول الله ﷺ من مجوس أهل هجر الخراج، قال: فارتفعا إلى علي رضي الله عنه فقال: أنا أحدثكم بالحديث ترضيانه جميعاً عن المجوس أن المجوس كانوا لهم كتاب يقرؤونه

(١) أخرجه الشافعي في الجزء الثاني، باب: ما جاء في الجزية (٤٣٠).

وأن ملكاً شرب حتى سكر فأخذ بيد أخته فأخرجها من القرية واتبعه رهط فوقع عليها وهم ينظرون إليه، فلما أفاق من سكره قالت له أخته: إنك صنعت كذا وفلان وفلان وفلان ينظرون إليك فقال: ما علمت ذلك، قالت: إنك مقتول إلا أن تطيعني، قال: فإني أطيعك، قالت: فاجعل هذا ديناً وقل هذا دين آدم وقل حواء من آدم وادع الناس إليه وأعرضهم على السيف فمن بايعك فدعه ومن أبى فاقتله ففعل فلم يتابعه أحد فقتلهم يومئذ حتى الليل، فقالت له: إني أرى الناس قد اجترؤوا على السيف وهم على النار لكع فأوقد لهم ناراً ثم أعرضهم علينا ففعل وهاب الناس من النار فبايعوه، قال: علي رضي الله عنه فأخذ رسول الله ﷺ الخراج لأجل كتابهم وحرّم مناكحهم وذبائحهم لشركهم.

وروى ابن الجوزي في التحقيق أن ابن عباس قال: إن أهل فارس لما مات نبيهم كتب لهم إبليس المجوسية، والجواب: أن قوله ﷺ: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب» لا يدل على كونهم من أهل كتاب ولا على أن يفعل بهم كل ما يفعل بأهل الكتاب بل يدل على جواز أخذ الجزية منهم للإرجاع على أنه لا يجوز مناكحة نسائهم ولا أكل ذبائحهم، وما ذكر من حديث على حجة لنا لا علينا لأنهم وإن كان أسلافهم أهل كتاب يدرسونه لكنهم منذ تركوا ذلك الدين والعمل بالكتاب ورفع العلم منهم وكتب لهم إبليس المجوسية لم يبقوا أهل كتاب، ومن ههنا اتفق العلماء على أن المجوس ليسوا بأهل كتاب إلا في قول للشافعي وفي قول هو مع الجمهور أنهم ليسوا بأهل كتاب، قلت: ولو كفى كون أسلافهم من أهل الكتاب لكان عبدة الأوثان من أهل الهند أولى بهذا الاسم فإنهم يقرؤون الكتاب ويدرسونه ويسمونهم بيد وهي أربعة أجزاء ويزعمونه من عند الله تعالى ويوافق أصولهم في كثير من الأمور بأصول الشرع وما يخالف الشرع فذلك من اختلاطات الشيطان كما تفرق فرق الإسلام إلى ثلاث وسبعين فرقة بتخليطه الشيطان ودعوتهم هذا مؤيد من الشرع حيث قال: الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾^(١) فهم أولى من المجوس في كونهم أهل كتاب لأن ملك المجوس لما سكر وزنا بأخته ترك دينه وكتابه وادعى دين آدم وهؤلاء الكفار لم يفعلوا ذلك إلا أنهم كفروا بتركهم الإيمان بالنبي ﷺ وقد ذكر لي أن في الجزء الرابع من بيد بشارة ببعثة خاتك النبيين محمد ﷺ حتى أسلم بعض من قرأ الجزء والله أعلم.

وقد يحتج للشافعي على أن الوثني لا يؤخذ منهم الجزية بأن القتال واجب بقوله

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٤.

تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾^(١) إلا أنا عرفنا جواز تركه حق أهل الكتاب بالكتاب وفي حق المجوس بالخبر، يعني أنه ﷺ أخذها من مجوس الهجر فبقي من ورائهم على الأصل، قلنا قوله تعالى: ﴿أَنْفُسَكُمْ الْمُشْرِكِينَ﴾ خص منه المجوس بالإجماع فجاز تخصيصه بالمعنى وبالحدِيث، أما المعنى فإن عبدة الأوثان في معنى المجوس فإنهم مشركون كهيئتهم وكون أصولهم من أهل الكتاب لا يفيدهم وأيضاً يجوز استرقاقهم بالإجماع فيجوز ضرب الجزية عليهم إذ كل واحد منهما يشتمل على سلب النفس منهم فإنه يكتسب ويؤدي إلى المسلمين ونفقته في كسبه، وأما الحدِيث فحدِيث سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصة بتقوى الله . . . ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: «أغزوا بسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليد أو إذا ألقى عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال فأيتهم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار الهجرة فأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفى شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين فإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم»^(٢) الحدِيث رواه مسلم، والحجة على جواز أخذ الجزية من الكتابي العربي حدِيث أنس قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة فأخذوه فأتوا به فحقت دمه وصالحه على الجزية^(٣) رواه أبو داود، وروى أبو داود والبيهقي من حدِيث يزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر النبي ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى اليدر بن عبد الملك رجل من كندة كان ملكاً على دومة فذكره مطولاً وفيه أنه صالحه على الجزية، قال: الحافظ: إن ثبت أن أكيدر كان كندياً ففيه دليل على أن الجزية لا يختص بالعجم من أهل الكتاب لأن أكيدر عربي، وإذا ثبت أن الجزية لا يختص بأهل الكتب ولا بأهل المعجم ثبت مذهب أبي حنيفة ومالك غير أن أبا حنيفة يقول: لا يجوز الجزية من عبدة

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٢.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: تأمير الإمام الأمراء على البعث ووصيته إياهم بأداب الغزو وغيرها (١٧٣١).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الخراج والفى والإمارة، باب: في أخذ الجزية (٣٠٣٥).

الأوثان من أهل العرب ولا استرقاقهم، أخرج عبد الرزاق عن معمر عن الزهري أنه رضي الله عنه صالح عبدة الأوثان إلا من كان من العرب، قال: أبو حنيفة: إن النبي ﷺ نشأ بين أظهر العرب والقرآن نزل بلغتهم فالمعجزة في حقهم أظهر فلا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف وكذا المرتد فإنه كفر بربه بعدما هدى إلى الإسلام ووقف على محاسنه فلا يقبل منه إلا الإسلام أو السيف، ذكر محمد بن الحسن عن مقسم عن ابن عباس أنه رضي الله عنه قال: لا يقبل من مشركي العرب إلا الإسلام أو القتل وإذا ظهر على عبدة الأوثان من العرب أو المرتدين يسترق نسائهم وصبيانهم لأن النبي ﷺ استرق ذراري أوطاس وهوازن وهم من مشركي العرب وكذا ذراري بني المصطلق وغيرهم وأبو بكر استرق ذراري بني حنيفة لما ارتدوا وقسمهم بين الغانمين وكانت منهم أم محمد بن علي بن أبي طالب وأم زيد بن عبد الله بن عمر ثم إن ذراري المرتدين ونسائهم يجبرون على الإسلام بعد الاسترقاق بخلاف ذراري عبدة الأوثان، وقال الشافعي: يسترق ذراري عبدة الأوثان من العرب والجواب لأبي يوسف إن أخذ الجزية من كفار العرب كتابياً كان أو مشركاً وإن ثبت بحديث أخذ الجزية من أكيدر لكنه نسخ بالأحاديث الواردة في إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب وأن لا يترك فيها إلا مسلماً فإن أخذ الجزية من كفار العرب فرع تركهم فيها، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ، أوصى بثلاث قال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب وأجيزوا لوفد بما كنت أجيزهم» قال: ابن عباس وسكت عن الثالثة أو قال: نسيتها^(١) متفق عليه، وعن جابر بن عبد الله قال: أخبرني عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلماً»^(٢) رواه مسلم، وروى مالك في الموطأ عن ابن شهاب مرسلاً: «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب» ووصله صالح بن أبي الأخضر... عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة أخرجه إسحاق في مسنده، وروى أحمد والبيهقي عن أبي عبيدة بن الجراح آخر ما تكلم به النبي ﷺ قال: «أخرجوا اليهود من الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب».

مسألة

اختلفوا في قدر الجزية؟ فقال: أبو حنيفة: إن وضع الجزية بالتراضي والصلح فيقدر

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: جوائز الوفد (٣٠٥٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الوصية، باب: ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه (١٦٣٧).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب (١٧٦٧).

بحسب ما يقع عليه الصلح كما صالح رسول الله ﷺ أهل نجران على ألفي حلة، روى أبو داود عن ابن عباس قال: صالح رسول الله ﷺ أهل نجران على ألفي حلة النصف في صفر والنصف في رجب^(١)، وقال أبو يوسف في كتاب الخراج وأبو عبيدة في كتاب الأموال: كتب رسول الله ﷺ إلى أهل نجران إلى أن قال: ألفي حلة كل حلة أوقية يعني قيمة أوقية، قال: ابن همام فقول الولوجي كل حلة خمسون درهماً ليس بصحيح لأن الأوقية أربعون درهماً والحلة ثوبان إزار ورداء ويعتبر هذه الحلة في مقابلة رؤسهم وأراضيهم، قال: أبو يوسف الفاحلة على أراضيهم وعلى جزية رؤسهم يقسم على رؤوس الرجل الذين لم يسلموا وعلى كل أرض من أراضي نجران وإن كان بعضهم قد باع أرضه أو بعضها من مسلم أو ذمي أو تغلبي والمرأة والصبي في ذلك سواء أراضيهم وأما جزية رؤسهم فليس على النساء والصبيان، وروى ابن أبي شيبة أنه صالح عمر نصارى بني تغلب على أن يؤخذ منهم ضعف ما يؤخذ من المسلم المال الواجب. وإن غلب عليهم الإمام وأقرهم على أملاكهم فيضع على الغني الظاهر الغني في كل سنة ثمانية وأربعين درهماً يأخذ منهم في شهر أربعة دراهم وعلى وسط الحال أربعة وعشرون درهماً في كل شهر درهماً وعلى الفقير المعتمل اثنا عشر درهماً في كل شهر درهم إذا كان صحيحاً في أكثر السنة عند أبي حنيفة رحمه الله، وقال مالك في المشهور عنه على الغني والفقير جميعاً أربعة دنائير في السنة أو أربعين درهماً لا فرق بينهما، وقال الشافعي الواجب دينار يستوي فيه الغني والفقير، وعن أحمد أربع روايات أحدها كقول أبي حنيفة والثانية أنها مفوضة إلى رأى الإمام وليست بمقدرة وبه قال: الثوري والثالثة أنه يقدر الأقل منها بدينار دون الأكثر، والرابعة أنها في أهل اليمن خاصة مقدر بدينار دون غيرهم اتباعاً لحديث ورد فيهم.

عن معاذ أن رسول الله ﷺ: «لما وجهه إلى اليمن أمره أن يأخذ من كل حالم ديناراً أو عدله المعافر ثياب يكون باليمن»^(٢) رواه أبو داود والترمذي والنسائي والدارقطني وابن حبان والحاكم وبه أخذ الشافعي على الإطلاق، قال: أبو داود: وحديثه منكر، وقال: بلغني عن أحمد أنه كان ينكره، وذكر البيهقي الاختلاف فيه فبعضهم رواه عن الأعمش عن أبي وائل عن مسروق، عن معاذ، وقال بعضهم عن الأعمش عن أبي وائل عن

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الخراج والقيء والإمارة، باب: في أخذ الجزية (٣٠٣٩).

(٢) - أخرجه أبو داود في كتاب: الزكاة، باب: في زكاة السائمة (١٥٧٥).

مسروق أن النبي ﷺ لما بعث معاذ الحديث، وأعله ابن حزم الانقطاع وأن مسروقاً لم يلق معاذاً، وقال الحافظ بن حجر فيه نظر، وقال الترمذي حديث حسن، وذكر أن بعضهم رواه مرسلأ وأنه أصح ومذهب أبي حنيفة منقول عن عمر وعثمان وعلى ذكر الأصحاب في كتبهم عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن الحكم أن عمر بن الخطاب وجه حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف إلى السواد فمسحا أرضها ووضعها عليها الخراج وجعلا الناس ثلاث طبقات على ما قلنا فلما رجعا أخبراه بذلك ثم عمل عثمان كذلك، وروى ابن أبي شيبه ثنا علي بن مسهر الشيباني عن ابن عون محمد بن عبد الله الثقفي قال: وضع عمر بن الخطاب في الجزية على رؤوس الرجال على الغني ثمانية وأربعين درهماً وعلى المتوسط أربعة وعشرون وعلى الفقير اثني عشر درهماً وهو مرسل، ورواه ابن زنجويه في كتاب الأموال ثنا مندل عن الشيباني عن ابن عون عن المغيرة بن شعبة أن عمر وضع الحديث إلى آخره، وطريق آخر، رواه ابن سعد في الطبقات إلى نضرة أن عمر بن الخطاب وضع الجزية على أهل الذمة فيما فتح البلاد فوضع على الغني إلى آخر ما ذكر، ومن طريق آخر أسنده عبد القاسم بن سلام إلى حارثة بن مضر عن عمر أنه بعث عثمان بن حنيف فوضع عليهم ثمانية وأربعين وأربعة وعشرين واثنًا عشر وقد كان ذلك بمحضر من الصحابة بلا نكير محل الإجماع.

وقال أبو يوسف في كتاب الخراج حدثني السري بن إسماعيل عن عامر الشعبي أن عمر بن الخطاب مسح السواد فبلغ ستة وثلاثين ألف ألف جريب وأنه وضع على جريب الزرع درهماً وقفيزاً على الكرم عشرة دراهم وعلى خمسة دراهم وعلى الرجل اثني عشر درهماً وأربعة وعشرون وثمانية وأربعون درهماً، قال: وحدثني سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن ابن قال: بعث عمر بن الخطاب عمار بن ياسر على الصلة والحرب وبعث عبد الله بن مسعود على القضاء وبيت المال وبعث عثمان بن حنيف على مساحة الأرض وجعل بينهم شاة كل يوم شطرها وبطنها لعمار وربعها لعبد الله بن مسعود والربع الآخر لعثمان بن حنيف وقال: إني أنزلت نفسي وإياكم بمنزلة وإلى اليتيم فإن الله قال: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾^(١) والله ما أرى أرضاً يؤخذ منها شاة في كل يوم إلا سيسرع ضرابها قال: فمسح عثمان الأرضين فجعل على جريب العنب عشرة وعلى جريب النخل ثمانية وعلى جريب القصب ستة وعلى جريب الحنطة أربعة وعلى جريب

(١) سورة النساء، الآية: ٦.

الشعير درهمين وعلى الرأس اثنا عشر درهماً وأربعة وعشرين وثمانية وأربعين، وعطل من ذلك النساء والصبيان، قال: سعيد وخالفني بعض أصحابي فقال: على جريب النخل عشرة وعلى جريب العنب ثمانية، قال: وحدثني محمد بن إسحاق عن حارثة بن مطرف عن عمر إنه أراد أن يقسم السواد بين المسلمين فأمر بهم أن يحصوا فوجد الرجل نصيبه الاثني والثلاثة من العلاجين فشاور أصحاب محمد ﷺ فقال: علي رضي الله عنه وعنهم يكونون مادة للمسلمين فبعث عثمان بن حنيف فوضع عليهم ثمانية وأربعين وأربعة وعشرين واثنا عشر، وأجاب الحنفية عن حديث معاذ أنه محمول على أنه كان صلحاً فإن اليمن لم يفتح عنوة بل صلحاً فوقع على ذلك وبأن كان أهل اليمن أهل فاقة والنبي ﷺ يعلم ذلك ففرض عليهم ما على الفقراء، ويدل على ذلك ما رواه البخاري عن أبي نجيح قلت لمجاهد ما شأن أهل الشام عليهم أربعة دنانير وأهل اليمن عليهم دينار قال: جعل ذلك من قبل اليسار^(١)، ووجه قول الثوري وأحمد أنه ﷺ أمر معاذاً بأخذ الدينار وصالح نصارى نجران على ألفي حلة وجعل عمر الجزية على ثلاث طبقات كما قال: أبو حنيفة وصالح بني تغلب على ضعف ما يؤخذ من المسلمين فهذا يدل على أنه لا تقدير فيه بل هو مفوض إلى رأي الإمام.

مسألة

لا يؤخذ الجزية من فقير غير معتمل عند أبي حنيفة ومالك وأحمد، وللشافعي فيه أقوال، أحدها: أنه لا يؤخذ منه والثاني: أنه يجب عليه لكن يطالب عند يساره والثالث أنه إذا حال عليه الحول ولم يتيسر له الحق بدار الحرب له إطلاق قوله ﷺ في حديث معاذ: «خذ من كل حال» ولنا أن عثمان بن حنيف لم يوظف الجزية على فقير غير معتمل روى ابن رنجويه في كتاب الأموال ثنا الهشيم بن عدي عن عمر بن نافع حدثني أبو بكر العنسي صلة بن زفر قال: أبصر عمر شيخاً كبيراً من أهل الذمة ليال فقال: له مالك؟ قال: ليس لي مال وإن الجزية يؤخذ مني فقال: له عمر ما أنصفناك أكلنا شبيبك ثم نأخذ منك الجزية ثم كتب عمر إلى عماله أن لا تأخذ والجزية من شيخ كبير، وقد جاء في بعض طرقه وعلى الفقير المكتسب اثنا عشر أخرج البيهقي.

قال أبو يوسف: حدثني عمرو بن نافع عن أبي بكر قال: مر عمر بن الخطاب بباب

(١) ذكره البخاري في كتاب: الجزية والموادعة، باب: الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب موقوفاً على مجاهد.

قوم وعليه سائل شيخ كبير ضرير البصر فذكر نحوه وقال: فوضع عنه الجزية وعن ضربائه قال: أبو بكر: أنا شهدت ذلك من عمر ورأيت ذلك الشيخ، وقال أبو يوسف: حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عمر بن الخطاب أنه مر بطريق الشام هو راجع في مسيرة من الشام على قوم قد أقيموا في الشمس يصب على رؤوسهم الزيت فقال: ما بال هؤلاء؟ قالوا: عليهم الجزية لم يؤدوا فهم يعذبون حتى يؤدوا، قال: عمر: فما يقولون ما يعتذرون في الجزية قالوا: يقولون لا نجد قال: فدعوهم لا تكلفوهم ما لا يطيقون فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تعذبوا الناس فإن الذين يعذبون الناس في الدنيا يعذبهم الله يوم القيامة» وأمر بهم فخلى سبيلهم، وقال أبو يوسف: وحدثني بعض المشيخة المتقدمين يرفع الحديث إلى النبي ﷺ أنه ولي عبد الله بن أرقم على جزية أهل الذمة فلما ولي من عنده ناداه فقال: «ألا من ظلم معاهداً وكلفه فوق طاقته أو ينقصه أو أخذ منه شيئاً بغير طيبة نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة»^(١) وهذا الحديث يؤيد مذهب أحمد أن الجزية مفوض إلى رأي الإمام ينظر طاقة الذمي ولا يكلفه فوق طاقته.

مسألة

لو وجبت الجزية على كافر بتمام السنة بعد عقد الذمة فلم يؤدها حتى أسلم؟ فعند الشافعي يؤخذ منه جزية ما مضى لأن الجزية أجرة الدار وقد استوفى سكنى الدار كما هو أحد قوليهِ بدلاً عن العصمة الذي يثبت للذمي بعقد الذمة كما هو قوله الآخر وقد وصل إليه المعوض وهو حقن دمه، وسكناه فتقرر البديل ديناً عليه في ذمته فلا يسقط عنه كسائر الديون، وعند أبي حنيفة ومالك وأحمد يسقط الجزية بإسلامه لأن الجزية عقوبة على الكفر ولا عقوبة بعد التوبة وهي غاية للقتال منه لهذه الآية وقد انتهى القتال بالإسلام وكون الجزية أجرة الدار ممنوع فإنه يسكن دار ملكه.

لنا حديث ابن عباس قال: قال: رسول الله ﷺ: «ليس على المسلم جزية»^(٢) رواه أحمد والترمذي وأبو داود، قال: أبو داود: سئل سفيان الثوري عن هذا فقال: يعني إذا

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الخراج والفيء والإمارة، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارة (٣٠٥٠)، قال عبد الحق، في إسناده اختلاف ولا أعلمه من طريق يحتج به.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الزكاة، باب: ما جاء ليس على المسلمين جزية (٦٢٨)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الخراج والفيء والإمارة، باب: في الذمي يسلم في بعض السنة هل عليه جزية (٣٠٥١).

أسلم فلا جزية عليه، وباللفظ الذي فسر به سفيان الثوري رواه الطبراني في معجمه الأوسط عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «من أسلم فلا جزية عليه» وضعف ابن القطان من رواية حديث ابن عباس قابوس بن أبي الظبيان وليس قابوس في سند الطبراني، قال: ابن همام هذا الحديث بعمومه يوجب سقوط ما كان استحق عليه قبل إسلامه بل هو المراد بخصوصه لأنه موضع الفائدة إذ عدم الجزية على المسلم ابتداءً من ضروريات الدين في الأخبار به من جهة الفائدة ليس كالأخبار بسقوطها في حال البقاء، قال: أبو يوسف في كتاب الخراج حدثني شيخ من علماء الكوفة قال: جاء كتاب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن كتبت إلي تسألني عن أناس من أهل الحيرة يسلمون من اليهود والنصارى والمجوس وعليهم جزية عظيمة وتستأذن في أخذ الجزية منهم وأن الله تعالى بعث محمداً ﷺ داعياً إلى الإسلام ولم يعثه جابياً فمن أسلم من أهل الملل فعليه في ماله الصدقة ولا جزية عليه.

فإن قيل: ما الفرق بين الخراج والجزية والاسترقاق مع أن كل واحد منها عقوبة على الكفر فكيف يقولون بسقوط الجزية وعدم سقوط الخراج والرق؟ قلنا: في الجزية ذل ظاهر، ومبناه على الصغار والخراج فيه معنى المؤنة فإن صاحب الأرض لا يتمكن من الزراعة من غير حماية السلطان والمقاتلة فكأنه يعطي أجر مؤنتهم. وأما الرقيق فقد تعلق به ملك شخص معين، بخلاف الجزية فإنه لم يتعلق بها ملك شخص معين بل فيه استحقاق للعامة والحق الخاص فضلاً عن العام ليس كالملك الخاص.

مسألة

الجزية يجب بأول الحول عند أبي حنيفة وهي رواية عن مالك فيجوز مطالبة جزية سنة فوراً بعد عقد الذمة، وقال الشافعي وأحمد يجب مآخرة وهو المشهور عن مالك فلا يملك المطالبة حتى يمضي السنة، فإن مات في أثناء السنة أو بعد تمامها ولم يؤد الجزية سقطت بموته عند أبي حنيفة وأحمد، وقال مالك والشافعي لا تسقط والوجه لهما ما ذكرنا أنه بدل للسكنى أو لحقن الدم وقد استوفى المعوض فصار البدل ديناً يؤخذ من تركته، ولنا أنه عقوبة دنيوية والعقوبات الدنيوية تسقط بالموت كالحدود.

مسألة

إذ لم يؤد الذمي الجزية سنتين أو أكثر يتداخل ويؤخذ منه جزية واحدة عند أبي حنيفة وأحمد وقال الشافعي يؤخذ لكل سنة جزية له ما ذكر أنه استوفى المعوض فصار

العوض ديناً، ولنا أنها عقوبة محضة وليس الغرض منها المال بل الإذلال ولذلك لا يؤخذ من يد نائبه كما ذكرنا من قبل وكفارات الفطر مع أنها عبادة فيه معنى العقوبة تتداخل فكيف الجزية فإنها عقوبة محضة والإذلال يحصل يأخذها هامة والله أعلم.

مسألة

ولا جزية على الصبيان والمجانين اتفاقاً فإنهم ليسوا أهلاً للعقوبة ولا على النساء أيضاً إجماعاً، قال: أبو يوسف في كتاب الخراج حدثنا عبيد الله عن نافع عن أسلم مولى عمر قال: كتب عمر أن اقبلوا الجزية ممن جرت عليه المواشي ولا تأخذوا من امرأة ولا صبي ولا تأخذوا الجزية إلا أربعة دنانير أو أربعين درهماً يعني لا تأخذوا أكثر منه، وروى البيهقي من طريق زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر كتب إلى أمراء الأجناد لا تضربوا الجزية إلا على من جرت عليه المواشي وكان لا يضرب على النساء والصبيان، وروي من طريق آخر بلفظ لا تصنعوا الجزية على النساء والصبيان.

مسألة

ولا جزية على المملوك ثناً كان أو مكاتباً أو مدبراً أو ابناً لأم الولد إذلال لهم ولا يحتمل عنهم مواليتهم لأنهم تحملوا الزيادة لأجلهم يعني وجب عليهم جزية الاعتناء بسببهم وما روى أبو عبيدة في كتاب الأموال عن عروة قال: كتب رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن أنه من كان على يهودية ونصرانية فإنه لا ينتزع عنها وعليه الجزية على كل حالم ذكراً أو أنثى عبداً أو أمة ديناراً وقيمته، وروى ابن زنجويه عن الحسن فذكره نحوه مرسلان ضعيفان يقوي أحدهما الآخر لكن الأمة ترك العمل بهما إجماعاً فلا عبرة بهما، وكذا ما روى أبو عبي عن عمر قال: لا تشتري رقيق أهل الذمة فإنهم أهل خراج يؤدي بعضهم عن بعض.

مسألة

إذ امتنع الذمي من أداء الجزية أو امتنع من إجراء حكم من أحكام الإسلام أو قتل مسلماً أو أجمع على القتال أو زنى بمسلمة وأصابها باسم نكاح أو فتن مسلماً عن دينه أو قطع عليهم الطريق أو صار للمشركين جاسوساً أو أعان على المسلمين بدلالة، أو كتب إلى المشركين إخبار المسلمين وأطلقهم على عوراتهم ينقض عهده عند أحمد في أظهر الروايتين، لما روى عبد الرازق عن ابن جريج أخبرت أن أبا عبيدة بن الجراح وأبا هريرة قتلا كتابيين أرادا امرأة على نفسها مسلمة، وروى البيهقي من طريق الشعبي عن سويد بن

غفلة قال: كنا عند عمر وهو أمير المؤمنين بالشام إذا نبطي مضروب مسح يستعدي فغضب وقال لصهيب انظر من صاحب هذا فذكر القصة فجاء به وهو عوف بن مالك، فقال: رأيت يسوق بامرأة مسلمة فنخس الحمار ليصرعها فلم يصرع ثم دفعها فخرت عن الحمار فغشيها ففعلت به ما ترى قال: عمر: والله ما على هذا عاهدناكم فأمر به فصلب ثم قال: أيها الناس فوايذمة محمد ﷺ فمن فعل منهم هذا فلا ذمة له، وفي رواية عن أحمد لا ينتقض إلا بالامتناع من بذل الجزية وإجراء أحكامنا عليه، وقال الشافعي: ينتقض بمنع الجزية وامتناع إجراء أحكام الإسلام وبالإجماع على قتال المسلمين لا غير إلا إذ شرط عند عقد الذمة هذه الأمور المذكورة فح ينتقض عهده بإتيانها، وقال مالك لا ينتقض بالزنا بمسلمة ولا بإصابتها باسم النكاح ويقطع الطريق وينتقض بما سوى ذلك وقال القاسم من أصحابه بقطع الطريق أيضاً، وقال أبو حنيفة ينتقض عهده بأن يلتحق بدار الحرب أو كان له منعة وغلب على موضع وأراد المحاربة لأنهم صاروا حرباً علينا فيعري عقد الذمة عن الفائدة وفيما سوى ذلك لا ينتقض عهده لأن الغاية التي ينتهي به القتال التزام الجزية لا أدائها والالتزام باق ومن لا منعة له لا عبرة بامتناعه فإن الإمام يقدر عليه بالحبس والضرب وغير ذلك.

مسألة

وفي ذكر الله عز وجل بما لا يليق بجلاله أو ذكر كتابه المجيد أو ذكر دينه القويم أو ذكر رسوله الكريم بما لا ينبغي ينتقض عهده عند أحمد سواء شرذعنه ذلك أو لا وكذا.

قال مالك إنه إذا ذكر منهما بغير ما كفروا به ينتقض عهده، وقال أكثر أصحاب الشافعي إن لم يشترط لا ينتقض عهده وإن شرط ينتقض، وذكر صاحب الهداية مذهب الشافعي أنه ينتقض لأن المؤمن ينتقض به إيمانه فالذمي ينتقض به أمانه، إذ عقد الذمة خلف عن الإيمان، وذكر صاحب الهداية مذهب أبي حنيفة أن بسبب النبي ﷺ لا ينتقض عهده لأن سبه عليه السلام كفر والكفر المقارن لا يمنعه فالطاريء لا يرفعه، قال: ابن همام يؤيده ما روي عن عائشة أن رهطاً من اليهود دخلوا على النبي ﷺ، فقالوا: السام عليك فقال: «وعليكم» قالت: ففهمتها فقلت عليكم السام واللعنة فقال ﷺ: «مهلاً يا عائشة فإن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله» قالت: فقلت يا رسول الله ألم تسمع؟ ما قالوا: قال: عليه السلام: «قد قلت وعليكم»^(١) وفي رواية «عليكم» بغير واو متفق عليه،

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: الرفق في الأمر كله (٦٠٢٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: السلام، باب: النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم (٢١٦٥).

وفي رواية: «رددت عليهم فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم في» قال: ابن همام ولا شك أن هذا سب منهم له غلية الصلاة والسلام ولو كان نقضاً للعهد لقتلهم، وفي الفتاوى من مذهب أبي حنيفة أن من سب النبي ﷺ يقتل ولا يقبل توبته سواء كان مؤمناً أو كافراً أو بهذا يظهر أنه ينتقض عهده، ويؤيده ما روى أبو يوسف عن حفص بن عبد الله بن عمر أن رجلاً قال: له: سمعت راهباً سب النبي ﷺ فقال: له لو سمعته لقتلته أنا لم نعطيهم العهود على هذا، وقال ابن همام والذي عندي أن سبه عليه السلام أو نسبه إلى ما ينبغي إلى الله تعالى إن كان مما لا يعتقدونه كنسبة الولد إلى الله تعالى الذي يعتقدونه النصارى واليهود إذا أظهروا يقتل به وينتقض عهده وإن لم يظهروا ولكنه عثر عليه وهو يكتمه فلا لأن دفع القتل والقتال عنهم بقبول الجزية الذي هو المراد بالإعطاء مقيد بكونهم صاغرين أزلاء بالنص، ولا خلاف أن المراد استمرار ذلك لا عند مجرد القبول وإظهار ذلك منه ينافي قبول الجزية الدافع لقتله لأنه الغاية في التمرد، وعدم الالتفات والاستخفاف بالإسلام والمسلمين فلا يكون جارياً على العقد الذي يدفع عنه القتال وهو أن يكون صاغراً ذليلاً، وأما اليهود المذكورون في حديث عائشة فلم يكونوا أهل ذمة بمعنى إعطائهم الجزية بل كانوا أصحاب موادة بلا مال يؤخذ منهم دفعاً لشركهم إلى أن أمكن الله منهم لأنه لم يوضع قط جزية على اليهود المجاورين من قريظة والنضير، قال: ابن همام هذا البحث يوجب أنه إذا استعلى ذمي على المسلمين على وجه صار مستمراً عليه حل للإمام قتله أو يرجع إلى الذل والصغار والله أعلم.

أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة وعكرمة عن ابن عباس، قال: أتى رسول الله ﷺ سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وأبو أنس ومحمد بن دحية وشاس بن قيس ومالك بن الضيف فقالوا كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وإنك لا تزعم أن عزيز ابن الله فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ قرأ عاصم والكسائي ويعقوب عزيز بالتنوين على أنه عربي مصغر وقيل: أنه أعجمي لكنه اسم خفيف يشبه المصغر ولذلك صرف مثل نوح وهود ولوط، وعزير مبتدأ ما بعده خبره وليس بصفة له، وقرأ الباقون بلا تنوين إما لمنع الصرف للعجمة والترعيف أو لالتقاء الساكنين تشبيهما للنون بحرف اللين أو لأن الابن وصف والخبر محذوف مثل معبود أو صاحبنا، قال: البيضاوي هذا القول غريب لأنه يؤدي إلى تسليم النسب وإنكار الخبر المقدر، قال: عبيد بن عمير إنما قال: هذه المقالة رجل واحد من اليهود اسمه فخاص بن عازورا وهو الذي قال: إن الله فقير ونحن أغنياء، وقال البغوي روى عطية العوفي عن ابن عباس إنما قالت: اليهود عزير بن

الله لأجل أن عزيزاً كان فيهم وكانت التوراة عندهم والتابوت فيهم فأضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق فرفع الله عنهم التابوت وأنساهم التوراة ونسخها من صدورهم، فدعا الله عزيزاً وابتهل إليه أن يرد الذي نسخ من صدورهم فبينما هو يصلي مبتهلاً إلى الله نزل نور من السماء فدخل فعاد إليه التوراة، فأذن في قومه وقال يا قوم قد أتاني الله التوراة وردّها فعلق الناس به يعلمهم فمكثوا أما شاء الله ثم إن التابوت نزل بعد ذهابه منهم فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان فيه على الذي كان يعلمهم عزي فوجدوه مثله فقالوا وما أوتي عزيز هذا إلا أنه ابن الله، وقال الكلبي: إن بخت نصر لما ظهر على بني إسرائيل وقتل من قرأ التوراة وكان عزيز إذ ذاك صغير فلم يقتله فلما رجع بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة بعث الله عزيزاً ليجدد لهم التوراة ويكون له آية بعده ما أماته مائة عام وقد ذكرنا القصة في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ﴾^(١) الآية يقال: أتاه ملك بإناء فيه ماء فسقاه فمثلت التوراة في صدره، فلما أتاهم، قال: أنا عزيز فكذبوه وقالوا إن كنت كما تزعم فاملى علينا التوراة فكتبها، ثم إن رجلاً قال: إن أبي حدثني عن جدي أن التوراة جعلت في جابية فدفنت في كرم فانطلقوا معه حتى أخرجوها فعارضوها بما كتب لهم عزيز فلم يجدوه غادر منه حرفاً فقالوا إن الله لم يقذف التوراة في رجل إلا أنه ابنه فعند ذلك قالت اليهود عزيز ابن الله ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾، قال: البغوي: كانت النصارى بعدما رفع عيسى إلى السماء على دين الإسلام إحدى وثمانين سنة يصلون إلى القبلة ويصومون رمضان حتى وقع فيما بينهم وبين اليهود وكان في اليهود رجل شجاع يقال له بولس قتل جملة من أصحاب عيسى، ثم قال: لليهود إن كان الحق مع عيسى فكفرنا والنار مصيرنا فنحن مغبونون إن دخلوا الجنة ودخلنا النار فإني أحتال داخلهم حتى يدخلوا النار وكان له فرس يقال له العقاب يقاتل عليه فعرب فرسه وأظهر الندامة ووضع على رأسه التراب، فقال: له النصارى من أنت؟ قال: بولس عدوكم نوديت من السماء ليست لك توبة إلا أن تنصر وقد تبت فأدخلوه الكنيسة ودخل بيتاً سنة لا يخرج منه ليلاً ولا نهاراً حتى تعلم الإنجيل، ثم خرج وقال نوديت أن الله قبل توبتك فصدقوه وأحبوه ثم مضى إلى بيت واستخلف عليهم نسطور وعلمه أن عيسى ومريم والإله كانوا ثلاثة ثم توجه إلى الروم وعلمهم اللاهوت والناسوت وقال لم يكن عيسى بآنس ولا بجسم ولكنه ابن الله، وعلم رجلاً يقال له يعقوب ذلك ثم دعا رجلاً يقال له ملكاً فقال:

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.

إن الله لم يزل ولا يزال عيسى، فلما استمكن منهم دعا هؤلاء الثلاثة واحداً واحداً وقال لكل واحد منهم: أنت خالصتي وقد رأيت عيسى في المنام فرضي عني وقال لكل واحد منهم إني غداً أذبح نفسي فأدع الناس إلى نحلتيك ثم دخل المذبح نفسه وقال إنما أفعل ذلك لمرضاة عيسى فلما كان يوم ثالثة دعا كل واحد الناس إلى نحلته فتبع كل واحد طائفته من الناس فاختلفوا واقتتلوا ﴿ذَلِكَ﴾ يعني القول ببنوة عيسى ﴿قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ إما تأكيد لنسبة هذا القول إليهم ونفي التجوز عنها أو إشعار بأنه قول مجرد عن برهان وتحقيق مماثل للمهمل الذي يوجد في الأفواه ولا يوجد ما يصدق عليه في الأعيان ﴿يُضَاهُونَ﴾ قرأ عاصم بكسر الهاء مهموزاً والباقون بضم الهاء غير مهموز وهما لغتان يقال ضاهية وضاهاته أي شابهه حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه أي يضاهاي قولهم هذا ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبلهم، قال: قتادة والسدي: ضاهي قول النصارى قول اليهود من قبل فقالوا المسيح ابن الله كما قالت اليهود عزيز ابن الله، وقال مجاهد يضاهائون قول المشركين من قبل الذين قالوا: اللات والعزى ومناة بنات الله، وقال الحسن شبه كفرهم يكفر الأمم السالفة كما قال: في مشركي العرب كذلك قال: الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم، وقال القتيبي يريد أن من كان في عصر النبي ﷺ من اليهود والنصارى يقولون ما، قال: أسلافهم يعني الكفر فيهم قديم ﴿فَنَالَهُمُ اللَّهُ﴾ دعاء عليهم بالإهلاك فإن من قاتله الله هلك كذا قال: ابن جريج وقال ابن عباس معناه لعنهم الله وقيل معناه التعجب من شناعة قولهم: ﴿أَنْتَ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل بعد قيام الأدلة والبراهين عليه ﴿أَتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ﴾ أي: علمائهم وقرائهم جمع حبر بفتح الحاء وكسرهما ﴿وَرُفِقَتَهُمْ﴾ وهم أصحاب الصوامع من النصارى ﴿أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ حيث أطاعوهم في معصية الله، قال: البغوي: روي عن عدي بن حاتم كما أخرجه الترمذي في «صحيحه» قال: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: لي: «يا عدي اطرح هذا الوثن من عنقك» فطرحته ثم انتهيت إليه وهو يقرأ: ﴿أَتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُفِقَتَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ حتى فرغ منها فقلت: إنا لسنا نعبدهم فقال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتستحلونه؟ قال: قلت: بلى، قال: فتلك عبادتهم^(١) قال: عبد الله ابن المبارك وهل يبدل الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها واتخذوا ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ رباً ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا﴾ أي: ليطيعوا ﴿إِلَهًا وَجِدًا﴾ وهو الله تعالى ولا يطيعوا غيره في عصيانه وأما من

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة التوبة (٣٠٩٥)، وقال: حسن غريب.

أمر الله بطاعته كالرسول وخلفائه فطاعته طاعة الله تعالى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ صفة ثانيته أو استئناف مقرر للتوحيد ﴿سُبْحٰنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أحداً غيره في العبادة والطاعة ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا﴾ أي: يخمدوا ﴿نُورَ اللَّهِ﴾ حجته الدالة على وحدانيته عن الولد والشريك أو القرآن أو نبوة محمد ﷺ ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: بأقوالهم الباطلة الكاذبة فيه إشارة إلى أن حالهم في إرادة أبطال القرآن ونبوة محمد ﷺ بالتكذيب مثل حال من أراد أن يطفىء نور الشمس والقمر بنفخة فيه ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ﴾ أي: لا يريد ولا يرضى ﴿إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾ أي: يعلى دينه ويظهر كلمته ويتم الحق الذي بعث به محمد ﷺ ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ حذف جوابه لأنه ما قبله ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ محمداً ﷺ ﴿بِالْهُدَى﴾ أي: بالقرآن الناطق ببيان ما لنا وما علينا من الحلال والحرام والفرائض والأحكام الموصل إلى دار السلام ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي: الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ قال: ابن عباس الضمير المنصوب عائد إلى الرسول ﷺ والمعنى ليطلع الرسول ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني شرائع الدين كلها لا يخفى عليه منها شيء واللام للجنس، وقال الآخرون الضمير عائد إلى دين الحق يعني ذلك الدين ويغلبه على الأديان كلها فينسخها أو على أهلها فيدينون بها أو ينقادون لها، قال: البغوي: قال: أبو هريرة والضحاك: وذلك عند نزول عيسى ابن مريم لا يبقى أهل دين إلا دخلوا في الإسلام، وقال رويانا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ويهلك في زمانه الملل كلها إلا الإسلام»^(١) قلت: والظاهر أن المراد بالظهور غلبة دين الحق على الأديان كلها في أغلب الرومان كما يدل عليه حديث المقداد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعز عزيز أو ذل ذليل إما يعزهم الله، فيجعلهم من أهلها أو يذلهم فيدينون لها» قال: المقداد: قلت فيكون الدين كله لله^(٢) رواه أحمد، قلت: وقد أنجز الله وعده ذلك حتى انقاد لأهل الإسلام أهل الأديان كلها في أكثر الأقطار وأغلب الزمان ولا يقتضي هذه الآية تأييد هذه الحالة فقد روى مسلم عم عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ: «لا يذهب الليل والنهار حتى يعبد اللات والعزى» فقلت: يا رسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون أن ذلك تاماً؟ قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله تعالى ثم يبعث الله تعالى

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الملاحم، باب: خروج الدجال (٤٣١٥).

(٢) رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح. انظر مجمع الزوائد في كتاب: المغازي والسير، باب: علو الإسلام على كل دين خالفه وظهوره عليه (٩٨٠٧).

ريحاً طيبة فتوفى كل من كان في قلبه مثقال خردل من إيمان فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم^(١) وقال الحسن بن الفضل معنى الآية ليظهره على الدين كله بالحجج الواضحة، وقيل: ليظهر على الأديان التي حول النبي ﷺ فيغلبهم، قال: الشافعي لقد أظهر الله رسوله ﷺ على الأديان كلها بأن أبان لكل من سمع أنه الحق وما خالفه باطل وقال: وأظهر بأن جماع الكفر دينان دين أهل الكتاب ودين الأميين فقهر رسول الله ﷺ الأميين حتى دانوا بالإسلام طوعاً وقتل أهل الكتاب وسبى حتى دان بعضهم بالإسلام وأعطى بعضهم الجزية صاغرين وجرى عليهم حكمه فهذا ظهوره على الدين كله، وهذه الآية كالبيان لقوله ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولذلك كرر ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ ذلك غير أنه وضع المشركون موضع الكافرون للدلالة أنهم ضموا الكفر بالرسول إلى الشرك بالله.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيُصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتَرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَرَّزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتَرُونَ ﴿٢٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتُلُونَكُم كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٦﴾ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُحْرِمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنٌ لَهُمْ سَوَاءٌ أَعْمَلْتُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ﴾ يعني العلماء من أهل الكتاب ﴿وَالرُّهْبَانِ﴾ عن النصارى ﴿لِيَأْكُلُونَ﴾ أي: ينتفعون بها ويأخذونها ذكر الأكل وأراد به مطلقاً الانتفاع أو الأخذ نفسه لأن الأكل أحل الانتفاع والغرض الأعظم من الأخذ، ﴿أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ يأخذون الرشوة في أحكامهم ويحرفون كلام الله ويكتبون بأيديهم

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة

كتبات ويقولن هذه من عند الله ويغيرون نعت النبي ﷺ يخافون أنهم لو صدقوه لذهب عنهم المأكول التي كانوا يأكلونها من سفلتهم ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ أي: يصرفون الناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: دينه ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ الظاهر أن المراد بالموصول الأخبار والرهبان، والموصول معطوف على مقدره مفهوم مما سبق تقديره فهم يعني الذين يأكلون أموال الناس ويتنفعون بها والذين يكتُمونها ﴿وَلَا يُنْفِقُونَهَا﴾ الضمير راجع إلى المعنى لأن كلوا أحد منها دراهم ودنانير أو أريد به الكنوز أو الأموال أو يكون الضمير راجعاً إلى الفضة لكونها أكثر استعمالاً في الإنفاق، وفيه إشارة إلى أن زكاة الذهب والفضة يضم أحدهما إلى الآخر في اعتبار النصاب فيؤدي الزكاة من أحدهما، قال: أبو حنيفة رحمه الله يضم أحدهما إلى الآخر بالقيمة وقال صاحبه يضم بالأجزاء فمن كان عنده عشرة مثاقيل ذهب ومائة درهم يجب الزكاة إجماعاً. وإن كان عنده خمسة مثاقيل من ذهب قيمتها مائة درهم أو أكثر يعتبر نصاب الفضة، ويجب زكاتها عند أبي حنيفة دون صاحبه وكذا إن كان عنده خمسة مثاقيل ذهب ومائة درهم قيمتها خمسة عشر مثاقيل ذهب أو أكثر يعتبر نصاب الذهب ويجب زكاتها أيضاً عند أبي حنيفة دون صاحبه، فيه إشارة إلى أنه لا يجب إنفاق جميع المال بل يكفي إنفاق بعضها كالفضة مثلاً من الجنسين والله أعلم.

خص الله سبحانه النوعين بالذكر من بين سائر الأموال الظاهر لأنهما أثمان الأشياء وغيرهما من الأموال يقدر بهما من غير عكس، ولأجل هذا وجب الزكاة في عروض التجارة إذا بلغ نصاباً من ذهب أو فضة دون غيرهما من نصب أموال الزكاة فذكرهما يغني عن ذكر سائر الأشياء أو لأنهما يكتزان غالباً دون غيرهما ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قلت: عدم الإنفاق في سبيل الله يعم عدم الإنفاق أصلاً والإنفاق في غير سبيل الله بل في اتباع النفس والشيطان كالذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، لكن لما سبق في الآية ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَطْلِ وَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ علم أن المراد هنا عدم الإنفاق أصلاً كما يستدعيه قوله تعالى: ﴿يَكْتُمُونَ﴾ والإنفاق في سبيل الله يعم الزكاة المفروضة والصدقة النافلة والنفقات الواجبة المستحبة وكلما كان في طاعة الله تعالى، عن ابن مسعود قال: قال: رسول الله ﷺ: «إذا أنفق المسلم عن أهله وهو يحتسبها كانت له صدقة»^(١) متفق عليه، وعن أبي هريرة قال: قال: رسول الله ﷺ:

(١) أخرجه البخاري في كتاب: النفقات، باب: فضل النفقة على الأهل (٥٣٥١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: فضل الصدقة والنفقة على الأقربين والزوج والأولاد والوالدين ولو كانوا مشركين (١٠٠٢).

«دينار أنفقته في سبيل الله دينار أنفقته في رقة ودينار تصدقت به على المسكين ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك»^(١) رواه مسلم، وعن ثوبان قال: قال: رسول الله ﷺ: «أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله ودينار ينفقه على دابة في سبيل الله ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله»^(٢) وعن أم سلمة قالت: قلت يا رسول الله ﷺ ألي أجر إن أنفق على بني أبي سلمة إنما هم بني فقال: «أنفقي عليهم ذلك أجر ما أنفقت عليهم»^(٣) متفق عليه، وعن زينب امرأة ابن مسعود سألت هي وامرأة أخرى رسول الله ﷺ أيجزى الصدقة عنهما على أزواجهما؟ قال: «لهما أجران أجر القرابة وأجر الصدقة»^(٤) متفق عليه ﴿فَبَشِّرْهُم﴾، يعني كلا الفريقين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل والذين يكتزون ولا ينفقون أصلاً ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فعلى هذا التأويل الذي ذكرت حكم الآية مختص بأهل الكتاب، وقال الحسن عن بعض الصحابة وفي غيرهم بدلالة النص، ويحتمل أن يكون قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ كلاماً مستأنفاً غير مختص بأهل الكتاب وبه قال: أبو ذر، وعلى هذا التأويل سياق الكلام يقتضي أن يقدر بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَجْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبُطْلِ وَيَصُودُونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ولم يذكر هناك اكتفاء في الجملة التالية.

فائدة

وفي تفريع بشارة العذاب على الكنز وعدم الإنفاق جميعاً إشارة إلى أنه لا بأس بالكنز لو أنفق منها في سبيل الله ما وجب فيها وعليه انعقد الإجماع أخرج الطبراني في الأوسط وابن عدي في الكامل وابن مردويه والبيهقي في سننه من حديث ابن عمر قوله ﷺ: «ما أدي زكاته فليس بكنز» يعني ليس بكنز أوعد عليه، قال: البغوي روى مجاهد عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية كبر ذلك على المسلمين وقالوا ما يستطيع

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: فضل النفقة على العيال والمملوك وإثم من ضيعهم أو حبس نفقتهم عنهم (٩٩٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: فضل النفقة على العيال والمملوك وإثم من ضيعهم أو حبس نفقتهم عنهم (٩٩٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: الزكاة على الزوج والأيتام في الحجر (١٤٦٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: فضل النفقة والصدقة على الأقربين (١٠٠١).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: الزكاة على الزوج والأيتام في الحجر (١٤٦٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: فضل الصدقة والنفقة على الأقربين (١٠٠٠).

أحد منا لا يدع لولده شيئاً فذكر عمر لرسول الله ﷺ فقال: «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم»^(١) قلت: أخرج هذا الحديث أبو داود وأبو يعلى وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس وزاد: «وإنما فرض الموارث ليكون لمن بعدكم» وقال البغوي قال: ابن عمر ما أبالي لو كان لي مثل أحد ذهباً أعلم عدده أزكيه وأعمل بطاعة الله، وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وأبو الشيخ وابن حبان موقوفاً على علي بن أبي طالب أنه قال: كل مال على أربعة آلاف درهم فهي كنز أدبت فيه الزكاة أو لم يؤد ما دونها نفقة، وقيل: ما فضل عن الحاجة كنز لحديث أبي ذر قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة فلما رأيته قال: «هم الأخرسون ورب الكعبة» قلت: فذاك أبي وأمي من هم؟ قال: «هم الأكثرون أموالاً إلا من قال: هكذا وهكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ما هم»^(٢) متفق عليه، وحديث أبي ذر أيضاً مرفوعاً: «من ترك صفراء وبيضاء كوى بها» أخرجه البخاري في تاريخه وابن جرير وابن مردويه، قلت: لعل المراد بهذا الحديث أنه كوي أن لم يؤد حقها وكذا بقوله ﷺ في الحديث السابق «إلا من قال: هكذا» المراد إلا من أدى ما وجب فيها فإن الأكثرين أموالاً يجب عليهم مال كثير، في الزكاة فلا بد أن ينفقوا من كل جانب وفي كل باب من أبواب الخير.

واحتج من قال: إن ما فضل عن الحاجة فكنز أيضاً بحديث أبي أمامة قال: مات رجل من أهل الصفة فوجد في مئزره دينار فقال: النبي ﷺ «كبة» ثم توفي آخر فوجد في مئزره ديناران فقال: النبي ﷺ: «كيتان»^(٣)، ذكره البغوي، وحديث ابن مسعود قال: توفي رجل من أهل الصفة فوجدوا في شملته دينارين فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «كيتان» وفي حديث مسعود بن عمر أنه أتى برجل يصلى عليه فقال: رسول الله ﷺ: «كم ترك؟» قالوا: دينارين أو ثلاثة، قال: عليه السلام: «كيتين أو ثلاث كيات» فلقبت عبد الله أبا القاسم سوى أبي بكر فقال: ذاك رجل يسأل الناس تكثراً رواه البيهقي، من رواه يحيى بن عبد الحميد الحماني، قلت: وما ذكر أبو القاسم محمل لحديث أبي أمامة وابن مسعود أيضاً

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الزكاة، باب: في حقوق المال (١٦٦٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأيمان والنذور، باب: كيف كانت يمين النبي ﷺ (٦٦٣٨) وأخرجه

مسلم في كتاب: الزكاة، باب: تغليظ عقوبة من لا يؤدي الزكاة (٩٩٠).

(٣) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير شهر بن حوشب وقد وثق. انظر مجمع الزوائد في كتاب:

الزهد، باب: في الإنفاق والإمساك (١٧٧٧٠).

ويمكن أن يقال من التزم على نفسه التصوف وعاهد الله تعالى على الترك والتوكل ولا يكون ذا عيال عليه حقوق الناس لا يجوز له أن يمسك فوق حاجته قال: الله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾^(١) ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَسْئُولًا﴾^(٢) فكان أهل الصفة من هذا النوع من الرجال وقول علي رضي الله عنه محمول على صوفي ذا عيال وعلي رضي الله عنه أبو الصوفية أجمعين ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا﴾ أي يدخل النار فيوقد النار عليها أي: على الكنوز أو على الدنانير والدراهم المفهومة من الذهب والفضة أو على الفضة وتحصيلها تقربها ودلالة حكمها على أن الذهب أولى بهذا الحكم، وإنما ذكر الفعل لأنه مسند إلى الجار والمجرور أصله يوم يحمي عليها النار، في القاموس الشمس والنار حمياً وحمياً اشتد صرهما، وقال البيضاوي أضله يحمي بالنار فجعل الإحمار للنار مبالغة فلما حذفت النار وانتقل الإسناد من النار إلى عليها ذكر الفعل كما يقال رفعت القصة إلى الأمير فإن لم يذكر القصة يقال رفع إلى الأمير والظرف متعلق بعذاب ﴿فِي نَارٍ جَهَنَّمَ فَتَكْوَى﴾ يعني مقادير أبدانهم ﴿وَجُودِيَّتِهِمْ﴾ يعني إيمانهم وشمائلهم ﴿وَزُجُودِيَّتِهِمْ﴾ يعني ماخرأ أبدانهم فذكر الجهات كلها يعني يكوى بها أبدانهم من كل جهة، وقيل: إنما خص هذه الأعضاء بالذكر لأنهم إذا بصروا الفقير عيسوا وإذا ضمهم إياه مجلس أعرضوا عنه وتولوا بأركانهم ولولوه ظهورهم، أو لأنها أشرف الأعضاء الظاهرة فإنها المشتملة على الأعضاء الرئيسة التي هي الدماغ والقلب والكبد يوسع جلودهم وأعضائهم حتى يوضع عليه كلها ﴿هَذَا مَا كُنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ حال مما أضيف إليه فاعل يكوى بتقدير القول يعني مقولاً لهم هذا المال ما كنتموه لينتفع به أنفسكم وما علمتم أنكم كنتموه ليستنصر به أنفسكم وهذا الكلام توبيخ ﴿فَدُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنُزُونَ﴾ أي: وبال كنزكم أو ما تكنزون، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمي عليها في نار جهنم فتكوى بها جنبه وجبينه وظهره كما دت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» قيل: يا رسول فالإبل؟ قال: «ولا صاحب إبل لا يؤدي حقها ومن حقها حلبها يوم وردها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر أو فر ما كانت لا يفقد منها فصيلاً واحداً تطأه بأخفها فهأ وتعضه بأفواها كلما مر عليه أو لها رد عليه آخرها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار» وقيل: يا رسول الله فالبقر والغنم؟ قال: «ولا صاحب بقر ولا غنم

(١) سورة المائدة، الآية: ١.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٤.

لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر لا يفقد منها شيئاً ليس فيها عقصاء ولا جلعاء ولا عضباء تنطحه بقرونها وتطأه بأظلافها كلما مر عليه أولاها ردت آخرها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار^(١) الحديث رواه مسلم وهذا الحديث كأنه تفسير للآية وفيه تصريح بأن المراد بالكنز ما لم يؤد حقها، وعن أبي هريرة قال: قال: رسول الله ﷺ: «من آتاه مالا فلم يؤد زكاته مثل له ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوفه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه يعني شذقيه ثم يقول أنا مالك أنا كترك ثم تلا ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾^(٢) الآية رواه البخاري، وعن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: «ما من رجل يكون له إبل أو بقر أو غنم لا يؤدي حقها إلا أتى بها يوم القيامة أعظم ما يكون وأسمنه تطأه بأخفافها وتنطحه بقرونها كلما جاءت آخرها ردت عليه أولها حتى يقضي بين الناس»^(٣) متفق عليه ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾ أي: مبلغ عددها المعتدة بها للسنة ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ متعلق بعدة لأنها مصدر ﴿أثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ في اللوح المحفوظ أو في حكمه وهو صفة لاثني عشر، قرأ أبو جعفر اثنا واحد عشر وتسعة بسكون الشين والعامه بفتحها ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ متعلق بما في الظرف السابق من معنى الثبوت أو بالكتاب إن جعل مصدراً، يعني أن المعتبر عند الله تعالى لأجل الصيام والحج والزكاة الأشهر الهلالية وقد اعتبر الله سبحانه دورانها ومبلغها باثنا عشر لا مزيد عليه، جعل الله سبحانه منها شهراً للصوم وأشهرًا وقتاً للحج، وعلق وجوب أداء الزكاة بتمام الاثني عشر ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ﴾ حرم الله تعالى فيها البداية بالقتال وهو رجب واحد فرد وذو العقدة وذو الحجة والمحرم ثلاثة سرد ﴿ذَلِكَ﴾ اعتباراً للأشهر الهلالية واعتبار اثنا عشر لا أقل ولا أكثر ﴿الَّذِينَ الْقِيَمُ﴾ الدين القويم دين إبراهيم عليه السلام لا يجوز ترك اعتبارها كما ترك النصارى صوم رمضان وجعلوا مكانها خمسين يوماً في موسم الربيع اعتدال الشمس ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ قيل: ضمير فيهن ينصرف إلى جميع شهور السنة يعني لا تفعلوا المعصية في شيء منها والظاهر أنه راجع إلى الأربعة لقربه ولأن كلمة الفاء التفرعية يقتضي ذلك فإن النهي عن الظلم متفرع على كونها محرمة، والمراد بالظلم هتك حرمتها والقتال فيها

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: إثم مانع الزكاة (٩٨٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: إثم مانع الزكاة (١٤٠٣).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: زكاة البقر (١٤٦٠). وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة،

باب: تغليب عقوبة من لا يؤدي الزكاة (٩٩٠).

وقال: فتادة العمل الصالح أعظم أجراً في الأشهر الحرم، والظلم فيهن أعظم من الظلم فيما سواهن وإن كان الظلم على كل حال عظيماً، وقال ابن عباس لا تظلموا فيهن يريد استحلال الحرام والغارة فيهن، وقال محمد بن إسحاق بن يسار لا تجعلوا حلالها حراماً ولا حرامها حلالاً كما فعل أهل الشرك وهو النسيء ﴿وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ جميعاً وهي مصدر كف عن الشيء فإن الجميع مكفوف عن الزيادة ﴿كَمَا يُقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بشارة بكمال قربهم من الله تعالى ومعية بهم معية بلا كيف وضممان لهم بالنصرة بسبب تقويهم، قال: البغوي: اختلف العلماء في تحريم القتال في الأشهر الحرم؟ فقال: قوم كان كبيراً ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ كأنه يقول فيهن وفي غيرهن وهو قول فتادة وعطاء الخراساني والزهري وسفيان الثوري قالوا: لأن النبي ﷺ غزا هوازن بحنين وثقيفاً بالطائف وحاصرهم في شوال وبعض ذي القعدة انتهى، وأنت خبير بأن ﴿وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ لا يصلح ناسخاً لقوله تعالى: ﴿مِنهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ لأنه متصل ولا بد في النسخ من التراخي ولأنه لا عموم في قوله تعالى: ﴿وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ من حيث الزمان حتى يصلح ناسخاً للحرمة الزمانية ولا عموم للمقتضي والتقدير بقوله فيهن وفي غيرهن لا دليل عليه، ولأن النبي ﷺ لما دخل ذو القعدة ترك حصار طائف ولو صح حديث قتاله في ذي القعدة فحديث الآحاد لا يصلح ناسخاً للكتاب ولأن هذه الآية نزلت في السنة التاسعة بعد غزوة الطائف وهي في سنة ثمان فكيف يتصور كونه ناسخاً ولأن النبي ﷺ بين حرمة الأشهر في خطبة في حجة الوداع قبل وفاته بثمانين يوماً، فالصحيح ما قال: الآخرون أنه منسوخ، قال ابن جريج حلف بالله عطاء بن أبي رباح ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم ولا في الأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا فيها وما نسخت قلت: وبدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ﴾ فعيل بمعنى المصدر كالسعي والحريق أو بمعنى المفعول كالجريح والقتيل، ومعناه التأخير أو المؤخر منه النسيئة في البيع يقال أنسا الله أجله ونسا في أجله أي: أخر، قرأه الجمهور ممدود مهموزاً لامه وورش بتشديد الياء من غير همز وإذا وقف همزه إشمام وقرأ ووصلاً، وعلى قراءة وورش قيل: هو من النسيان على المعنى المنسي أي: المتروك، وقيل: أصله الهمزة فخفف والمراد من النسيء ما كان يفعله أهل الجاهلية من تأخير تحريم شهر إلى شهر، أخرج ابن جرير عن أبي مالك قال: كانوا يجعلون السنة ثلاثة عشر شهراً فيجعلون المحرم صفراً فأنزل الله هذه الآية، قال: البغوي: كان العرب معتقدين بتعظيم الأشهر الحرم وكان ذلك مما تمسكوا به من دين إبراهيم عليه السلام وكان عامة

معايشهم من الصيد والغارة وكان يشق عليهم الكف ثلاثة أشهر على التوالي وربما وقعت لهم حرب في بعض الأشهر الحرم فيكرهون تأخير حربهم فينسوا أي يؤخروا تحريم ذلك الشهر إلى شهر آخر فكانوا يؤخرون تحريم إلى محرم إلى صفر فيحرمون صفر أو يستحلون المحرم فإذا احتاجوا إلى تأخيرهم تحريم صفر آخر ولا إلى ربيع وهكذا شهراً بعد شهر حتى استدار التحريم على السنة كلها، فقام الإسلام وقد رجع المحرم إلى موضعه الذي وضعه الله عز وجل وذلك بعد دهر طويل، فخطب النبي ﷺ في حجة الوداع.

روى الشيخان في «الصحيحين» عن أبي بكرة قال: خطبنا النبي ﷺ يوم النحر قال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، وقال أي شهر هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: أليس ذو الحجة؟ قلنا: بلى، قال: أي بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: أليس البلدة؟ قلنا: بلى، قال: فأى يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: أليس يوم النحر؟ قلنا بلى، قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا فلا ترجعوا بعدي ضللاً يضرب بعضكم رقاب بعض الأهل بلغت، قالوا: نعم، قال: «اللهم اشهد فليبلغ الشاهد الغائب قرب مبلغ أوعى من سامع»^(١) قالوا: وقد كان قد استمر النسيء بهم وكانوا يحجون في بعض السنين في شهر ويحجون من قابل في شهر آخر» قال: مجاهد: كانوا يحجون في كل شهر عامين فحجوا في ذي الحجة عامين وفي المحرم عامين ثم حجوا في صفر عامين وكذلك في الشهور فوافق حجة أبي بكر رضي الله عنه قبل حجة الوداع السنة الثانية من ذي القعدة ثم حج النبي ﷺ في العام المقبل حجة الوداع فوافق حجه شهر الحج المشروع وهو ذو الحجة ووقف بعرفة اليوم التاسع وخطب اليوم العاشر بمنى، وأعلمهم أن أشهر النسيء قد تناسخت باستدارة الزمان وعاد الأمر إلى ما وضع الله عليه حساب الأشهر يوم خلق الله السموات والأرض وأمرهم بالمحافظة لئلا يبدل في مستأنف الأيام واختلفوا في أول من النسيء، فقال: ابن عباس والضحاك وقتادة ومجاهد أول من نسا بنو مالك بن كنانة

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: حجة الوداع (٤٤٠٦)، وأخرجه مسلم في كتاب:

القسامة، باب: تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (١٦٧٩).

وكانوا ثلاثة أبو ثمامة وجنادة بن عوف وابن أمية الكناني، وقال الكلبي: أول من فعل ذلك رجل من بني كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة وكان يكون أميراً على الناس بالموسم فإذا هم الناس بالصدر، قام فخطب الناس فقال: لا مرد لما قضيت أنا الذي لا أعاب ولا أحاب، فيقول له المشركون لبيك يسألونه أن ينسهم شهراً يغيرون فيه، فيقول: فإن صفر العام حرام فإذا قال: ذلك حلوا الأوتار ونزعوا الأسنة والأزجة وإن قال: حلال عقدوا الأوتار وشدوا الأزجة وأغاروا وكان من بعد نعيم بن ثعلبة رجل يقال له جنادة بن عوف وهو الذي أدركه النبي ﷺ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هو رجل من بني كنانة يقال له الغلمس وقال شاعرهم:

وفينا ناسي الشهر

وكانوا لا يفعلون ذلك إلا في ذي الحجة إذا اجتمع العرب للموسم، وقال جرير عن الضحاك عن ابن عباس أول من سن النسيء عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف، روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال: رسول الله ﷺ: «رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أبا بني كعب هؤلاء يجر قصبه في النار»^(١) فهذا الذي ذكرنا هو الذي قال: الله تعالى: إنما النسيء ﴿زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ لأنه تحريم ما أحله الله وتحليل ما حرمه الله فهو كفر آخر زائد على كفرهم ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص يضل بضم الياء وفتح الضاء على البناء للمفعول كقوله تعالى: ﴿زَيْنٌ لَهُمْ سَوْءٌ أَعْمَلِيهِمْ﴾^(٢) وقرأ يعقوب بضم الياء وكسر الضاء من الأفعال وهي قراءة الحسن ومجاهد، يعني يضل به الذين كفروا الناس وقرأ الباقر بفتح الياء وكسر الضاد على البناء للفاعل من المجرد لأنهم هم الضالون ﴿يُجِلُّونَهُ﴾ الضمير راجع إلى الشهر المفهوم من النسيء يعني يحلون شهراً ﴿عَامًا وَيُحَكِّمُونَهُ عَامًا﴾ والجملتان تفسير للضلال أو حال ﴿لِيُؤَاطِفُوا﴾ متعلق بيحرمونه أو بما دل عليه مجموع الفعلين يعني يفعلون ذلك ليوافقوا والمواطأة الموافقة ﴿عِدَّةٌ مَّا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ وهي الأربعة الأشهر ﴿فِيُجِلُّوا مَّا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ كيلا يزيد الأشهر الحرم على الأربعة قصدوا مراعاة العدد من غير مراعات الوقت والله أعلم.

﴿زَيْنٌ لَهُمْ سَوْءٌ أَعْمَلِيهِمْ﴾ قال: ابن عباس يريد زين لهم الشيطان سوء أعمالهم

(١) أخرجه مسلم في كتاب: صفة الجنة ونعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٥٦).

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٧.

فحسبوا حسناً، أو المعنى زين الله تعالى سوء أعمالهم بمعنى أنه خذلهم فأضلهم يناسبه قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ هداية موصلة إلى الحق ذكر محمد بن يوسف الصالحى أنه قال: محمد بن عمرو محمد بن سعيد أن جماعة من الأنباط الذين يقدمون المدينة بالزيت من الشام، ذكروا المسلمين أن الروم جمعوا جموعاً كثيرة وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة وأخلت معهم لحم وجذام وعاملة وغسان وغيرهم من مستقر العرب وجاءت مقدمتهم إلى البلقاء ولم يكن كذلك حقيقة فبلغ رسول الله ﷺ ذلك فندب الناس إلى الخروج إلى الشام، وروى الطبراني بسند ضعيف عن عمران بن حصين قال: كانت نصارى العرب كتب إلى هرقل أن هذا الرجل الذي خرج يدعي النبوة هلك وأصابتهم سنون فهلكت أموالهم فإن كنت تريد أن تلحق دينك فالآن فبعث رجلاً من عظمائهم وجهر معه أربعين ألفاً فبلغ رسول الله ﷺ ذلك فأمر بالجهاد.

وروى ابن أبي حاتم وأبو سعيد النيسابوري بإسناد حسن أن اليهود قالت: لرسول الله ﷺ يا أبا القاسم إن كنت صادقاً فالحق بالشام فإنها أرض الأنبياء فعزم غزواً لا يريد إلا الشام فلما بلغ تبوك أنزل الله الآيات من سورة بني إسرائيل ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِرُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ﴾ الآيات، وروى ابن مردويه عن ابن عباس وابن أبي شيبه وابن المنذر عن مجاهد وابن جرير عن سعيد بن جبیر أن الله سبحانه لما أمر بمنع المشركين من قربان المسجد الحرام في الحج وغيره قالت قريش: ليقطعن عنا المتاجر والأسواق ما كنا نصيب منها فعوضهم الله تعالى عن ذلك بالأمر بقتال أهل الكتاب حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون كما قال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عِيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾^(١) وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَتَلِيُوا الَّذِينَ يُلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾^(٢) عزم رسول الله ﷺ هنى قتال الروم لأنهم أقرب الناس إليه وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام، قال: البغوي: لما رجع رسول الله ﷺ من الطائف أمر بالجهاد بغزو الروم قال: محمد بن يوسف الصالحى: لما عزم النبي ﷺ على القتال الروم عام تبوك وكان ذلك في زمان عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب في البلاد وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص على تلك الحال من الزمان، وكان رسول الله ﷺ قل يخرج في غزو إلا كنى عنها وورى

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٨.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٣.

بغيرها إلا ما كان من غزو تبوك فإنه ﷺ بينها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو الذي يعتمد له ليتأهب الناس لذلك أهبة فأمر ﷺ للجهاد، وكذا روى ابن أبي شيبة والبخاري وابن سعد عن كعب بن مالك ودعى من حوله من أحياء العرب للخروج معه فارغب معه بشر كثير وبعث إلى مكة وتخلف المنافقون وجماعة من المؤمنين المقصرين ومتأقلوا فأنزل الله تعالى فيهم.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ إِلَّا تَضُرُّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ خطاب للمؤمنين المقصرين وجاز أن يكون عاماً للمنافقين أيضاً فإنهم آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، ﴿مَا لَكُمْ﴾ استفهام توبيخ ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ﴾ أي: قال: لكم رسول الله ﷺ ﴿أَنْفِرُوا﴾ أخرجوا ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ للجهاد ﴿أَنْتَاقَلْتُمْ﴾ أصله تهاقلتم أي: تباطأتم ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾ متعلق بآناقلتم لتضمنه معنى الإخلاق الميل فعدي بالي والمعنى لزمتم أرضكم ومساكنكم ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: ببضاعتها ﴿مِنَ الْآخِرَةِ﴾ مستبدلين من نعيم الآخرة ﴿فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني ليس تمتعات الحياة الدنيا في جنب نعيم ﴿الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: مستحق قدرها وسريع زوالها ثم أوعدهم على ترك الخروج للجهاد، أخرج ابن أبي حاتم عن نجدة بن نقيع عن ابن عباس قال: استنفر رسول الله ﷺ حياً من العرب فتأقلوا عليه فأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا﴾ بإدغام اللام في نون أن الشرطية في الموضعين ﴿تَنْفِرُوا﴾ إلى ما استنفرتم إليه ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا والآخرة فعذبهم الله في الدنيا بأن أمسك عنهم المطر إذا ما لم ينفروا ﴿وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ مطيعين قيل: هم أهل اليمن وقال سعيد بن جبيرة: هم أبناء فارس ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ أي: لا يقدح تهاقلكم في نصرته دينة شيئاً فإنه تعالى غني عن كل شيء في كل أمر وقيل: الضمير للرسول أي تضرروا الرسول شيئاً فإن الله تعالى وعد له بالعصمة والنصرة وتخلف وعده محال ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على تبديلكم وتغيير الأسباب

والنصرة بلا مدد، في الآية سخط عظيم على المتشاقلين حيث أوعدهم بعذاب أليم مطلق يتناول عذاب الدارين واستبدل بهم قوماً غيرهم مطيعين وأنه غني عنهم في نصر دينه ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ﴾ يعني إن لا تنصروه فسينصره ﴿اللَّهُ﴾ كما نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من مكة ﴿ثَآئِفَ أَثْنَيْنِ﴾ منصوب على الحال من الضمير المنصوب في نصره يعني نصره حال كونه بحيث لم يكن معه إلا رجل واحد وهو أبو بكر وهو ثانيهما فحذف الجزاء وأقيم ما هو كالدليل مقامه، أو المعنى إن لا تنصروه فقد أوجب الله له النصر حتى نصر في مثل ذلك الوقت فلن يخذله في شيء من الأوقات، وأسند الإخراج إلى الذين كفروا لأنهم مكروا به أن يقتلوه أو يثبتوه أو يخرجوه في دار الندوة وقد مر قصته في سورة الأنفال وكان ذلك سبب لإذن الله سبحانه له بالخروج ﴿إِذْ هُمَا فِي الْفَارِ﴾ وهو نقب في جبل أسفل مكة بدل من إذ أخرجه وبعده بدل ثان ﴿إِذْ يَكْفُلُ﴾ يعني النبي ﷺ ﴿لِصَاحِبِهِ﴾ يعني أبا بكر، روى الترمذي والبيهقي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «أنت صاحبني في الغار وصاحبني على الحوض»^(١) وروى مسلم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكنه أخي وصاحبني ولكن اتخذ صاحبكم خليلاً»^(٢) قال: الحسن بن الفضل من قال: إن أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله ﷺ فهو كافر لإنكاره نص القرآن وفي سائر الصحابة إذا أنكر يكون مبتدعاً كافراً ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ معية غير متكيفة، قال: الشيخ الأجل الشهيد مظهر فيوض الرحمن مرزاجان جانان رحمه الله تعالى رحمة واسعة كفى لأبي بكر فضلاً أن رسول الله ﷺ أثبت لأبي بكر معية الله سبحانه التي أثبتها لنفسه بلا تفاوت فمن أنكر فضل أبي بكر أنكر هذه الآية الكريمة وكفر ولم يكن حزن أبي بكر رضي الله عنه جناً منه كما قالت الروافض لعنهم الله، بل كان إشفاقاً على رسول الله ﷺ وقال إن أقتل فأنا رجل واحد وإن قتل، يعني النبي ﷺ هلكت الأمة وسندكر في أحاديث الغار ما يدل على أن حزن أبي بكر كان إشفاقاً لرسول الله ﷺ لا لأجل نفسه.

قصة خروجه ﷺ من مكة

روى موسى بن عقبة وابن إسحاق وأحمد والبخاري وابن حبان عن عائشة وابن

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب باب: في مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما كليهما (٣٦٧٩).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٢٣٨٣).

إسحاق والطبراني عن أختها أسماء رضي الله عنهما قالت عائشة فيما روى البخاري: لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ في النهار بكرة وعشية، فلما ابتلي المسلمون قال: النبي ﷺ: «رأيت دار هجرتكم ذات نخيل اللابتين» وهي الحرتان، فهاجر من هاجر قبل المدينة ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة وتجهز أبو بكر قبل المدينة، فقال: له رسول الله ﷺ: «على رسلك فإني أرجو أن يؤذن لي» فقال: أبو بكر: وهل ترجوا ذلك بأبي أنت وأمي؟ قال: «نعم»، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمرة، وهو الخبط أربعة أشهر فينا نحن جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهرية قالت: أسماء يا أبت هذا رسول الله ﷺ مقنعاً رأسه في ساعة لم يكن يأتينا فيها قال: أبو بكر: فداه أبي وأمي والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر، فجاء رسول الله ﷺ واستأذن فأذن له فدخل فقال: النبي ﷺ لأبي بكر: «أخرج من عندك» فقال: أبو بكر: لا عين عليك إنما هما ابنتاي، وفي لفظ إنما هم أهلك بأبي وأمي يا رسول الله فقال: «إنه قد أذن لي في الخروج» فقال: أبو بكر الصحبة يا رسول الله قال: نعم، قالت عائشة: فرأيت أبا بكر يبكي وما كنت أحسب أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر، فقال: أبو بكر: يا رسول الله فخذ بأبي أنت إحدى راحلتي هاتين فقال: رسول الله ﷺ: «بالثمن لا أركب بغيراً ليس لي» قال: هو لك ولكن بالثمن الذي ابتعتهما به، قال: أخذتها بكذا قال: أخذتها بذلك، قال: هي لك، وعند البخاري في غزوة الرجيع إنها الجدعاء، وأفاد الواقدي أن الثمن ثمان مائة. قالت عائشة فجهزوهما أحب الجهاز ووضعنا لهما سفرة في جراب، وأفاد الواقدي أنه كان في السفرة شاة مطبوخة فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب فبذلك سميت ذات النطاقين، وفي رواية ذات النطاق، قال: محمد بن يوسف الصالحي المحفوظ في هذا الحديث أن أسماء نطاقها نصفين فشدت بأخدهما الزاد واقتصرت على الآخر، ومن ثم قيل لها: ذات النطاق وذات النطاقين فالتثنية والأفراد بهذين الاعتبارين، وعند ابن سعد أنها شقت نطاقها فأوكت بقطعة منه الجراب وشدت في القرية بالباقي فسميت ذات النطاقين واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الدليل وهو على دين كفار قريش وأسلم بعد ذلك وكان هادياً خريئاً يعني ماهراً بالهداية فأمناه فدفعنا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث براحتيهما، وأعلم رسول الله ﷺ... علياً بخروجه وأمره أن يتخلف بعده حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه

عنده لما يعلم من صدقه وأمانته. قالت عائشة: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر في غار في جبل ثور في حديث عمر عند البيهقي أنهما خرجا ليلاً، وذكر ابن إسحاق والواقدي أنهما خرجا من خوخة في ظهر بيت أبي بكر، وروى أبو نعيم عن عائشة بنت قدامة أن النبي ﷺ قال: لقد خرجت من الخوخة متنكراً فكان أول من لقيني أبو جهل فأعمى الله عز وجل بصره عني وعن أبي بكر حتى مضينا، قالت أسماء وخرج أبو بكر بماله كله خمسة آلاف درهم، قال: البلاذري كان مال أبي بكر يوم أسلم أربعين ألف درهم فخرج إلى المدينة للهجرة وما ماله إلا خمسة آلاف درهم أو أربعة فبعثه ابنه عبد الله فحملها إلى الغار قالت: فدخل علينا جدي أبو قحافة وقد ذهب بصره فقال: والله إني لأراه قد ذهب بماله مع نفسه قالت: قلت: كلا يا أبت إنه ترك لنا خيراً كثيراً قالت: فأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة البيت كان أبي يضع ماله فيها ثم وضعت عليها ثوباً ثم أخذت بيده، فقلت: ضع يا أبت يدك على هذا المال قالت فوضع يده عليه فقال: لا بأس إن كان ترك لكم هذا فقد أحسن وفي هذا بلاغ لكم ولا والله ما ترك لنا شيئاً ولكن أردت أن أسكن الشيخ.

روى البيهقي أن أبا بكر لما خرج هو ورسول الله ﷺ إلى الغار جعل يمشي مرة أمام النبي ﷺ ومرة خلفه ومرة عن يمينه ومرة عن شماله فسأله رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: يا رسول الله ﷺ اذكر الرصد فأكون أمامك واذكر الطلب فأكون خلفك ومرة عن يمينك ومرة عن يسارك لا آمن عليك، فلما انتهيا إلى فم الغار قال: أبو بكر: والذي بعثك بالحق نبياً لا تدخله حتى أدخله قبلك ما أن كان فيه شيء نزل بي قبلك فدخله فجعل يلتمس بيده فكلما رأى حجراً قال: بثوبه فشقه ثم ألقمه الجحر حتى فعل ذلك بثوبه أجمع فبقي حجر فوضع عقبه عليه، ثم دخل رسول الله ﷺ فجعلت الحيات يلسعن أبا بكر وجعلت دموعه يتحدر، وروى ابن أبي شيبه وابن المنذر عن أبي بكر رضي الله عنه أنهما لما انتهيا إلى الغار إذا حجر فألقمه أبو بكر رجله فقال: يا رسول الله ﷺ إن كان لدغة أو لسعة كان بي، وروى ابن مردويه عن جندب بن سفيان قال: لما انطلق أبو بكر مع رسول الله ﷺ إلى الغار قال: أبو بكر: يا رسول الله لا تدخل الغار حتى استبرئته فدخل أبو بكر الغار فأصاب يده شيء فجعل يمسح الدم عن يده ويقول: هل أنت إلا أصعب رميت وفي سبيل الله ما لقيت وفي حديث أنس عند أبي نعيم أن رسول الله ﷺ لما أصبح قال: لأبي بكر أين ثوبك فأخبر بالذي صنع فرفع رسول الله ﷺ يديه وقال: اللهم اجعل أبا بكر معي في درجتي في الجنة فأوحى إليه قد استجاب الله لك، وروى رزين عن عمر أنه ذكر عنده أبو بكر فبكى وقال: وددت أن عملي كله مثل عمله يوماً واحداً من

أيامه وليلة واحدة من لياليه أما ليلته فليلة سار مع رسول الله ﷺ إلى الغار فلما انتهى إليه قال: والله لا تدخله حتى أدخل قبلك فإن كان فيه شيء أصابني دونك فدخل فكسحه ووجد في جانبه ثقباً فشق إزاره وسدها به فبقي فيها اثنان فألقمها رجله ثم قال: لرسول الله ﷺ، أدخل فدخل رسول الله ﷺ ووضع رأسه في حجره ونام، فلدغ أبو بكر في رجله من الحجر ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله ﷺ فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ فذهب ما يجده ثم انتقض عليه وكان سبب موته، وأما يومه فلما قبض رسول الله ﷺ ارتدت العرب وقالوا لا نؤدي زكاة فقال: لو منعوني عقلاً لجاهدتهم عليه، فقلت: يا خليفة رسول الله ﷺ تألف الناس وارفق بهم فقال: لي: أجبار في الجاهلية وحوار في الإسلام إنه قد انقطع الوحي وتم الدين أينقص وأنا حي.

روى ابن سعد وأبو نعيم والبيهقي وابن عساكر عن أبي مصعب المكي قال: أدركت أنس بن مالك وزيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة فسمعتهم يتحدثون أن النبي ﷺ لما دخل الغار أنبت الله شجرة فنبت في وجه رسول الله ﷺ، وأمر الله حمامتين وحشيتين فوقتا في فم الغار وأقبل فتیان قريش من كل بطن بعصيتهم وهراويتهم وسيوفهم حتى إذا كانوا من النبي ﷺ على أربعين ذراعاً جعل بعضهم ينظر في الغار فلم ير إلا حمامتين وحشيتين فعرف أنه ليس فيه أحد فسمع النبي ﷺ ما قال: فعرف أن الله تعالى قد درأ عنه بهما فبارك عليهما النبي ﷺ وفرض جزاء بهن وانحدرتا في الحرم فأفرخ ذلك الزوج كل شيء في الحرم، وروى أحمد بسند حسن عن ابن عباس أن المشركين قصوا أثره رسول الله ﷺ فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم فصعدوا والجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه فمكث فيه ثلاث ليال، وروى الحافظ أحمد أبو بكر بن سعيد القاضي شيخ للنسائي في مسند الصديق عن الحسن البصري قال: جاءت قريش يطلب النبي ﷺ قائماً يصلي وأبو بكر يرتقب، فقال: أبو بكر يا رسول الله ﷺ هؤلاء قومك يطلبونك أما والله ما على نفسي أبكي ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره، فقال: له النبي ﷺ يا أبا بكر لا تخف إن الله معنا، وفي الصحيحين عن أبي بكر الصديق قال: «قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لأبصر ما تحت قدمه فقال: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما»^(١) وروى أبو نعيم في الحلية

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: مناقب المهاجرين وفضلهم (٣٦٥٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة باب: من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٢٣٨١).

عن عطاء بن ميسرة قال: نسجت العنكبوت مرتين مرة على داود حين كان طالوت يطلبه ومرة على النبي ﷺ في الغار، وذكر البلازدي في تاريخه وأبو سعيد أن المشركين استأجروا رجلاً يقال له: علقمة بن كرز بن هلال الخزاعي وأسلم عام الفتح فقفا لهم الأثر حتى انتهى إلى غار ثور وهو بأسفل مكة، فقال: هنا انقطع أثره ولا أدري أخذ يميناً أو شمالاً ثم صعد الجبل فلما انتهوا إلى فم الغار قال: أمية بن خلف ما أرى لكم في الغار أن عليه لعنكبوتاً كان قبل ميلاد محمد ثم جاء قبالي، وروى البيهقي عن عروة أن المشركين لما فقدوا رسول الله ﷺ ركبوا في كل وجه يطلبونه وبعثوا إلى أهل المياه يأمرؤنهم ويجعلون لهم الجعل العظيم وأتوا على الجبل الذي فيه الغار الذي فيه النبي ﷺ حتى طلوعوا فوقه وسمع رسول الله ﷺ وأبو بكر أصواتهم فأشفق أبو بكر ويكى وأقبل عليه الهم والحزن والخوف فعند ذلك قال: رسول الله ﷺ لأبي بكر: «لا تحزن إن الله معنا».

أقسمت بالقمر المنشق أن له
وما حوى الغار من خير ومن كرم
فالصدق في الغار والصدق لم يرما
ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت
وقاية الله أغنت عن مضاعفة
من قلبه نسبة مبرورة القسم
وكل طرف من الكفار عنه عمى
وهم يقولون ما بالغار من أرم
على خير البرية لم تنسج ولم تحم
من الله وع وعن آل من الأطم

قال الله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ أي: على النبي ﷺ حيث قال: «لا تحزن إن الله معنا» كذا ذكر البلازدي، وروى ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي وابن عساكر عن ابن عباس قال: فأنزل الله سكينته على أبي بكر يعني بقوله ﷺ: «لا تحزن»، فإن النبي ﷺ تنزل عليه السكينة من قبل وهذا أولى لأن فاء فأنزل يدل عليه، وأيضاً إرجاع الضمير إلى الأقرب أولى، ﴿وَأَيْتَكُمْ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة يضربون وجوه الكفار وأبصارهم عن رؤية.

روى أبو نعيم عن أسماء بنت أبي بكر أن أبا بكر رأى رجلاً مواجاة الغار فقال: يا رسول الله إنه يرانا، قال: كلا إن الملائكة يستره الآن بأجنحتها فلم ينشب أن قعد يبول متقبلهما، فقال: رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر لو كان يراك ما فعل هذا» وقيل: ألقوا الرعب في قلوب الكفار حتى رجعوا، وقال مجاهد والكلبي إعانه الملائكة يوم بدر أخبر

أنه صرف عنه كيد الأعداء في الغار ثم أظهر نصره بالملائكة يوم بدر، روى ابن عدي وابن عساكر عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: لحسان: هل قلت في أبي بكر شيئاً قال: نعم، فقال: قل وأنا أسمع فقال:

وثاني اثنين في الغار المنيف وقد طاف العدو إذ صاعدوا الجبلا
وكان حب رسول الله قد علموا من البرية لم يعدل به رجلاً

فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجره ثم قال: «يا حسان هو كما قلت:» قالت عائشة فكنا في الغار ثلاث ليال وكان عبد الله بن أبي بكر يبيت عندهما وهو غلام شاب لقف فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش كبائت لا يسمع أمراً يكاد أن به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك اليوم حين يختلط الظلام، وعند أبي إسحاق أن أسماء بنت أبي بكر كانت تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما وكان عامر بن فهيرة يرعى غنماً لأبي بكر في رعيان أهل مكة فإذا أمسى راح عليهما حين يذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رسل ورضيفهما يفعل ذلك كل ليلة من الليالي فلما مضت الثلاث وسكن عنهما الناس أتاهما صاحبهما الذي استأجرا ببيعيرهما فركبا وانطلق معهما عامر بن فهيرة غلاماً لعبد الله بن الطفيل بن سنجرة أخو عائشة. لأما ليخدمها في الطريق فأخذ بهما الدليل طريق الساحل أسفل من عسفان ثم أجاز بهما حتى عارض الطريق على معج، روى أحمد والشيخان عن البراء بن عازب أنه قال: لأبي بكر كيف صنعتما ليلة سريت مع رسول الله ﷺ قال: سرينا ليلتنا كلها حتى قام قائم الظهيرة وخلا الطريق فلا يرى فيه أحد رفعت لنا صخرة طويلة بها ظل لم يأت عليه شمس بعد فنزلنا عندها فأتيت الصخرة سويت بيدي مكاناً ينام فيه رسول الله ﷺ في ظلها ثم بسطت له فروة كانت معي، ثم قلت يا رسول الله نم وأنا أنفض لك ما حولك فنام، وخرجت أنفض له ما حوله فإذا أنا براع مقبل بغممه إلى الصخرة يريد منه الذي أردنا فلقيته فقلت له لمن أنت يا غلام؟ فقال: لرجل من أهل مكة فسماء فعرفته فقلت: هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم، قلت فاحتلب لي قال: نعم، فأخذ شاة فقلت: أنقض الضرع من التراب والقذر فحلب في تعب معه كئبه من لبن ومعى أداة ارتوي فيها للنبى ﷺ يشرب منها ويتوضأ وعلى فمها خرقة فاتيت النبي ﷺ وكرهت أن أوقظه من نومه فوقفت حتى استيقظه فصببت على اللبن من الماء حتى برد أسفله، فقلت: يا رسول الله اشرب من هذا اللبن فشرب حتى رضيت ثم قال: ألم يأن الرحيل، قلت: بلى، قال:

فارتحلنا بعدما زالت الشمس^(١). روى الطبراني والحاكم وصححه وأبو نعيم وأبو بكر الشافعي عن سليط بن عمر والأنصاري أن رسول الله ﷺ حين خرج مهاجراً إلى المدينة هو وأبو بكر وعامر بن فهيرة ودليلهم مروا على خيمة أم معبد الخزاعية وهي لا تعرفه، وكانت برزة جلدة تجلس بفناء القبة ثم تسقي وتطعم فسألوها لحماً وتمراً يشتروا منها فلم يجدوا عندها شيئاً من ذلك وإذا لقوم مرملو مستنون، فقالت: والله لو كانت عندنا شيء ما أعوزناكم فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة فقال: ما هذه الشاة يا أم معبد قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم، قال: هل بها لبن؟ قالت: هي أجهد من ذلك قال: أتأذنين لي أن أحلبها؟ قالت بأبي أنت وأمي إن رأيت بها حلبها فوالله ما ضرب بها من فحل قط فشأنك بها فدعا بها رسول الله ﷺ فمسح بيده ضرعها وظهرها وسمى الله ودعا لها في شأنها فتفاجت عليه ودرت ودعا بإناء يربض الرهط فحلب فيه ثجاً حتى علاه البهاء سقاها حتى رويت وسقى أصحابه حتى روى ثم شرب ﷺ وقال: «ساقى القوم آخرهم شرباً» ثم حلب فيه ثانياً بعد بدء حتى ملأ الإناء ثم غادره عندها ثم تابعها وارتحلوا عنها، وروى ابن سعد وأبو نعيم عن أم معبد قالت: بقيت الشاة التي لمس رسول الله ﷺ عندها حتى كان زمان الرمادة وهي سنة ثمان عشرة من الهجرة زمن عمر بن الخطاب وكنا نحلبها صبحاً وغبوقاً وما في الأرض قليل ولا كثير، وروى البيهقي من وجه آخر قصة أم معبد بزيادة ونقصان وفيه عند الماء جاء ابنها بأعتر يسوقها فقالت له: انطلق بهذه العنزة والشفرة إلى هذين الرجلين فقل لهما: لكما إلى اذبحا هذه وكلا وأطعما فقال: له النبي ﷺ: «انطلق بالشفرة وجثني بالقدح» قال: إنها عنزة وليس بها لبن، قال: «انطلق فانطلق فجاء بقدح فمسح النبي ﷺ ضرعها ثم حلب ملأ القدح الحديث. وفيه قال: أبو بكر فلبشنا ليلتين ثم انطلقنا وكانت تسميه المبارك وكثرت غنمها حتى جلبت جلباً إلى المدينة فمر أبو بكر فراه ابنها فعرفه، فقال: يا أمته إن هذا الرجل الذي كان مع المبارك فقامت إليه، فقالت: يا عبد الله من الرجل الذي كان معك؟ قال: هو نبي الله قال: فأدخلني عليه فأطعمها رسول الله ﷺ وكساها وأسلمت، قال: هشام بن جيش فلما لبثت حتى جاءها زوجها أبو معبد يسوق أعترأً أحبالاً عجافاً فلما رأى اللبن عجب وقال من أين لك هذا اللبن يا أم معبد والشاة عازب ولا حلوب في البيت؟ قال: لا والله إلا أنه مر رجل مبارك من حاله كذا وكذا قال: صفيه يا أم معبد؟ قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضوء أبلغ الوجه حسن الخلق لم تعب

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام (٣٦١٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق، باب: في حديث الهجرة (٢٠٠٩).

نجلة ولم تزره متعلقة وسَيِّما وقَسِيما في عينيه دعج وفي أشفاره وطف وفي صوته صحل أو قالت: سهل وفي عنقه سطح وفي لحيته كثافة وأزج أقرن إن صمت فعليه الوقار وإن تكلم سما وعلاه البهاء الناس وأبهاء من بعيد وأحلاه وأحسنه من قريب فصل لا نزر ولا هذر كان منطقته خرزات نظمن ينحدون ربيعة لا يشناه طول ولا تفتحه عين من قصر غضباً بين غضين فهو انظر الثلاثة منظراً أو أحسنهم قدراً له رفقاء يحفون به إن قال: أنصتوا لقوله وإن أمر ابتدروا إلى أمره محفود محشود لا عابس ولا معتد، فقال: أبو معبد: هذا والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره بمكة ولقد همت أن أصحبه ولا أفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً، قالت أسماء رضي الله عنها لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر أتانا رجال من قريش فيهم أبو جهل فوقفوا على باب أبي بكر فخرجت إليهم فقالوا أين أبوك يا ابنة أبي بكر؟ قلت: لا أدري والله أين أبي فرفع أبو جهل يده وكان فاحشاً خبيثاً فلطم خدي لطمه طرح منها قرطي قالت ثم انصرفوا فمكثنا ثلاثة أيام ما ندري أين توجه رسول الله ﷺ، حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة يتغنى بأبيات من شعر غنا العرب وتبعه الناس يسمعون صوته وما يرونه حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول:

جزاءة رفيقين قالا خيمتي أم معبد
وقد فاز من أمسى رفيق محمد
به من فقال: لا تجارى وسود
ومقعدهما للمؤمنين بمرصد
فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد
إليه بصريح ضرة الشاة مزيد
يردها في مصدر ثم مورد
جزا الله رب العرش خير
هما نزلها بالهدي فاهتدى به
فبالقصي ما زدى الله عنكم
ليهن بني كعب مقام فتاتهم
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها
وادعاه بشاة حائل فتحلبت
فغادرها رهناً لديه لحالب

وفي رواية عند البيهقي بسند حسن في قصة أم معبد أنه طلبت قريش رسول الله ﷺ حتى بلغوا أم معبد فسألوها عنه فقالوا: رأيت محمداً من خلفه كذا فوصفوه لها فقالت: ما تقولون؟ قد ضافنا حالب الحائل قالت قريش: فذاك الذي أردنا، قال: البيهقي: يحتمل أنه رأى الشاة التي في كسر الخيمة ثم رجع ابنها بأعنز ثم جاء زوجها ووصفته له قلت: ولعل ذلك جاءت قريش في طلبه ﷺ.

قصة سراقه: روى أحمد والشيخان في الصحيحان عن سراقه بن مالك وأحمد

ويعقوب بن سفيان عن أبي بكر قال: سراقه: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية كل واحد منهما مائة ناقة من الإبل لمن قتله أو أسره فبينما أنا جالس في مجلس من قومي بني مدلج، أقبل رجل منهم حتى قام علينا فقال: يا سراقه إني رأيت آنفاً أسودة بالساحل، وفي لفظ ركبة ثلاثة ولا أراها إلا محمداً وأصحابه، قال: سراقه فعرفت أنهم هم فأوميت إليه أن أسكت فسكت حتى قمت فدخلت بيتي وأمرت جاريتي أن تخرج فرسي إلى بطن الوادي وأخرجت سلاحي من وراء حجرتي فخططت برمحي وخفضت عالية الرمح حتى أتيت فرسي فركبتها فدفعتها تقرب فرأيت أسودتهما فلما دنوت منهم عثرت بي فرسي فخررت منها فقامت فأهويت بيدي كنانتي فاستخرجت منها الأزام فاستقسمت بها أضرهم أو لا أضرهم فخرج الذي أكره أن لا أضرهم وكنت أرجو أن أرده فأخذ المائة ناقة، فركبت فرسي وعصيت الأزام فدفعتها تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثُر الالتفات ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغت الركبتين فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يداها فلما استوت قائمة إذ لا تريد بها غبار ساطع في السماء مثل الدخان فاستقسمت بالأزام، فخرج الذي أكره أن لا أضرهم فعرفت أنه قد منع مني وأنه ظاهر فناديتهما بالأمان، وقلت: أنظروني فوالله لا أودينكم ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه، فقال: رسول الله ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه قل له ماذا تبغي؟ قلت: إن قومك قد جعلوا فيك الدية وأخبرتتهما أخبار ما يريد الناس بهم وعرضت عليهما الزاد والمتاع فلم يرزاني ولم يسألني إلا أن قال: «أخف عنا» فسألته أن يكتب لي كتاب أمن قال: اكتب له يا أبا بكر وفي رواية فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من آدم ثم مضى رسول الله ﷺ فلما فتح رسول الله ﷺ مكة وفرغ من أهل حنين خرجت إلى رسول الله ﷺ لألقاه ومعى الكتاب الذي كتب لي فبينما أنا عامد له دخلت بين ظهري كتيبة من كتائب الأنصار، قال: فطففوا يقرعونني بالرمح ويقول إليك حتى دنوت رسول الله ﷺ وهو على ناقته انظر إلى ساقه في غرزة كأنها جمادة فرفعت يدي بالكتاب، فقلت يا رسول الله هذا كتابك وأنا سراقه بن مالك، فقال: رسول الله ﷺ وفاء وبرأده فدنوت منه فأسلمت ثم ذكرت شيئاً أسأل عنه رسول الله ﷺ فلم أذكره إلا أن قلت: يا رسول الله الضلالة من الإبل تغشى حياضي، وقد ملأتها من الإبل هل لي من أجر، قال: نعم، في كل ذات كبد حرى أجر، قال: فرجعت إلى قومي فسقت إلى رسول الله ﷺ صدقتي، وقال أبو بكر وتبعنا سراقه بن مالك فنحن في جلد الأرض فقلت: يا رسول الله هذا الطلب قد لحقنا ويكيت قال: وما يبكيك؟ قلت: أما والله ما على نفسي أبكي ولكن

أبكي عليك، قال: فدعا عليه رسول الله ﷺ وقال: «اللهم اكفناه بما هشت»، قال: فساخت به فرسه في الأرض إلى بطنها فوثب عنها، قال: يا محمد فد علمت إن هذا علمك فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه فوالله لأعمين على من ورائي من الطلب وهذه كنانتي فخذ منها سهماً فإنك ستمر بإبلي وغنمي بمكان كذا وكذا فخذ منها حاجتك، فقال: رسول الله ﷺ: «لا حاجة لنا في إيلك وغنمك» ودعا له رسول الله ﷺ، فانطلق راجعاً إلى أصحابه لا يلقي إلا قال: قد كفيتم ولا يلقي أحد إلا رده ووفى لنا.

وعند ابن سعد أن سراقاً لما رجع قال: لقريش قد عرفتم بصري بطريق وقد سرت فلم أرى شيئاً فرجعوا. قال: ابن سعد والبلادري عارضهم السراقاً بقديد يوم الثلاثاء وروى عروة والحاكم عنه عن أبيه أن النبي ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياباً بيضاً، وروى البيهقي عن موسى بن عقبة أنه ﷺ دنا المدينة قدم طلحة بن عبيد الله من الشام عامداً إلى مكة فلما لقيه أعطاه الثياب فلبس رسول الله ﷺ وأبو بكر.

روى البيهقي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: لأبي بكر مدخله المدينة إلا غني الناس فإنه لا ينبغي لنبي أن يكذب، فكان أبو بكر إذا سأل من أنت قال: باغي حاجة، وإذا قيل: من الذي معك قال: هاد يهديني، ولما شارف رسول الله ﷺ المدينة لقيه أبو بردة الأسلمي في سبعين من قومه بني سهم فقال: رسول الله ﷺ: «من أنت؟» قال: بريدة، قال: يا أبو بكر برد أمرنا وصلاح، ثم قال: ممن؟ قال: من أسلم، قال: لأبي بكر: سلمنا؟ ثم قال: ممن؟ قال: من سهم، قال: خرج سهمك فلما أصبح قال: بريدة للنبي ﷺ لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء فحل عمامته ثم شدتها في رمح ثم مضى بين يدي رسول الله ﷺ، قال: الحاكم تواترت الأخبار أن خروجه من مكة كان يوم الاثنين ودخول المدينة يوم الاثنين إلا أن محمد بن موسى الخوارزمي قال: خرج من مكة يوم الخميس، قال: الحافظ يجمع بينهما بأن خروجه من مكة يوم الخميس وخروجه من الغار ليلة الاثنين لأنه أقام فيه ثلاث ليال ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد وخرج في أثناء ليلة الاثنين، قلت: ولعل ليلة الخميس هي الليلة التي أراد قريش قتله ﷺ بعدما مكروا به في دار الندوة، فخرج ﷺ من بيته إلى بيت أبي بكر واستصحبه ثم خرج من خوخة ظهر بيته والله أعلم.

﴿وَجَمَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني كلمة الشرك أو دعوتهم إلى الكفر ﴿السُّفْلَى﴾ وذلك بتخليص الرسول ﷺ عن إيذاء الكفار إلى المدينة أو بتأكيد إياه

بالملائكة في المواطن أو بحفظه ونصره حيث حصروا ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ﴾ يعني كلمة التوحيد ودعوة الإسلام قرأ يعقوب بالنصب عطفاً على كلمة الذين كفروا والباقون بالرفع على أنه مبتدأ خبره ﴿هِيَ الْكَلِمَةُ﴾ وفيه إشعار بأن كلمة الله عالية في نفسها وإن فاق غيرها فلا ثبات لتفوقه ولذلك وسط الفصل، وقيل: كلمة الذين كفروا ما قدروا بينهم في الكيد به ليقتلوه وكلمة الله وعده أنه ناصره ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ في أمره وتدبيره قال: الله تعالى:

﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ وَسَيَّحِلُّونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَفِيدُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَفِيدُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا﴾ يعني حين يخف ويسهل لكم الخروج إلى الجهاد بصحة البدن والشباب والقوة والنشاط ووجود الزاد والراحلة والأعوان والأسلحة ﴿وَوَثِقَالًا﴾ يعني حين يشغل عليكم لأجل المرض أو الشيب أو الضعف أو عدم النشاط أو شاغل من الأهل والمال والضيعات وقلة الزاد والسلاح والكراع والمتاع، وإلى ما ذكرنا يرجع ما قال: الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة وعكرمة شباباً وشيوخاً، وما قال: ابن عباس نشاط وغير نشاط أو أهل اليسر والعسر أو مقلين من السلاح ومكثرين منه، وما قال: عطية العوفي في ركبانا ومشاة وابن زيد أن الثقل الذي له الضيعة يكره أن يدع ضيعته والحكيم بن عتبة مشاغيل وغير مشاغيل والهمداني أصحاباً ومرضى، ويمان عزاباً متأهلين أو مقلين الأتباع والحواشي ومستكثرين.

وقال أبو صالح: خفافاً من المال أي فقراء وثقالاً أي أغنياء، وقيل: خفافاً مسرعين خارجين ساعة سماع النفير وثقالاً بعد التروي فيه والاستعداد له، قال: الزهري: خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل له إنك عليل صاحب ضر فقال: استنفر الله الخفيف والثقل وإن لم يمكنني الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع، قال: عطاء الخراساني عن ابن عباس: نسحت هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنِينَ﴾

لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ﴿١﴾ وقال السدي: لما نزلت هذه الآية اشتد شأنها على الناس فسخها الله تعالى وأنزل: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾ (٢) الآية، لعل المراد بالنسخ في قول ابن عباس والسدي التخصيص لكون نزول الآيتين جميعاً بلا فصل في غزوة تبوك، فخرج من هذا الحكم من لا يستطيع الخروج من الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون أو ما يركبون عليه ولا يستطيعون الشيء وبقي من يستطيع الخروج ولو بنوع مشقة وذلك لأجل النفير العام ويمكن أن يكون نزول قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾ للآية بفصل يوم أو يومين ولو في غزوة تبوك بعدما اشتد شأنها على الناس فيكون نسخاً والله أعلم.

﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ أي: بما أمكن لكم منهما كليهما أو أحدهما ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من الاستمتاع بالدينية وترك الجهاد ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخير من الشر علمتهم أن خير لكم أو إن كنتم تعلمون إنه خير وإخبار الله به صدق فبادروا إليه، قال: محمد بن عمر حدث رسول الله ﷺ على الصدقة يعني لتجهيز جيش العسرة في غزوة تبوك وكان أول من جاء بماله أبو بكر الصديق بأربعة آلاف درهم فقال: رسول الله ﷺ: «هل أبقيت لأهلك شيئاً؟» قال: أبقيت لهم الله ورسوله، وجاء عمر بنصف ماله فقال: رسول الله ﷺ: «هل أبقيت لأهلك شيئاً؟» قال: نعم مثل ما جئت به، وحمل العباس طلحة بن عبيد الله وسعد بن عباد وحمل عبد الرحمن بن عوف مائتي أوقية إلى رسول الله ﷺ وتصدق عاصم بن عدي تسعين وسقاً من تمر وجهز عثمان بن عفان ثلث ذلك الجيش حتى كان يقال ما بقيت لهم حاجة حتى كفاهم، قال: محمد بن يوسف الصالحي كان ذلك الجيش زيادة على ثلاثين ألفاً فيكون رضي الله عنه جهز عشرة آلاف، وذكر أبو عمرو في الدرر وتبعه في الإشارة أن عثمان حمل على تسعمائة بعير ومائة فرس بجهازها، وقال ابن إسحاق: أنفق عثمان في ذلك الجيش نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها ونقل ابن هشام عمن يثق به أن عثمان أنفق في جيش العسرة عشرة آلاف درهم قال: محمد بن يوسف الصالحي: يعني غير الإبل والزاد وما يتعلق بذلك، قال: فقال: رسول الله ﷺ: «اللهم ارض عن عثمان فإني راض عنه».

وروى أحمد والترمذي وحسنه والبيهقي عن عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان إلى رسول الله ﷺ بألف دينار فصبها في حجر النبي ﷺ فجعل رسول الله ﷺ يقلبها بيده

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٢.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٩١.

ويقول: «ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم» يرددها مراراً^(١)، قال: ابن عقبة وتخلف المنافقون عن غزوة تبوك وحدثوا أنفسهم أن رسول الله ﷺ لا يرجع إليهم أبداً فاعتذروا، وقال محمد بن عمرو جاءنا ناس من المنافقين إلى رسول الله ﷺ يستأذنوه في القعود من غير علة فأذن لهم وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فأنزل الله تعالى فيهم ﴿لَوْ كَانَ﴾ اسم كان مضمراً أي: لو كان ما دعوا إليه ﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾ أي: متاعاً دنيوياً أو المعنى غنيمة قريبته المتناول ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي: متوسطاً ﴿لَاتَّبَعُوكَ﴾ لوافقوك في الخروج طلباً للغنيمته، ﴿وَلَكِنْ بَدَّتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ يعني المسافة فإنها تقطع بمشقة، وقيل: الشقة الغاية التي يقصدونها ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ متعلق بسيحلفون أو هو من جملة كلامهم، والقول مراد في الوجهين يعني سيحلفون بالله قائلين لو استطعنا لخرجنا أو سيحلفون المتخلفون إذا رجعت من تبوك معتذرين يقولون بالله ﴿لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ ساد مسد جواب القسم الشرط ومعنى الاستطاعة استطاعة العدة أو استطاعة الأبدان كأنهم تمارضوا وهذه معجزة لكونه إخباراً عما وقع قبل وقوعه ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بدل من سيحلفون يعني أنهم يهلكونها بإيقاعها في العذاب بترك امتثال أمر رسل الله ﷺ والكذب واليمين الفاجرة، وجاز أن يكون حالاً من فاعل خرجنا يعني لخرجنا معكم وإن أهلكنا أنفسنا بالمسير في الحر وألقياها في التهلكة وجاء به على لفظ الغائب لأنه مخبر عنهم ألا ترى أنه لو قال: سيحلفون بالله لو استطاعوا لخرجوا لكان أيضاً سديداً، يقال حلف بالله ليفعلن ولا فعلن فالغيبة على حكم الإخبار والتكلم على الحكاية ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في ذلك لأنهم كانوا مستطيعين بيخروج ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ قال: سفيان بن عيينة بدأ بالعتو قبل أن يعيره بالذنب لطفاً به وإكراماً له، قلت: أو لأنه تعالى ذكر العفو قبل المعاتبة تحرزاً من أن يهلك رسول الله ﷺ لكمال خوفه وخشيته من الله تعالى، وقيل: افتتح الكلام بالدعاء كما يقول: الرجل لمن خاطبه إذا كان كريماً عنده عفا الله عنك ما صنعت في حاجتي ورضي الله عنك ألا زرتني، وقيل: معناه أدام الله لك العفو ﴿لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ في القعود حين استأذنوك وهلا توقفت ﴿حَقٌّ يَبَيِّنُ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في الاعتذار ﴿وَتَعْلَمُ الْكَاذِبِينَ﴾ فيها يعني من لا عذر له.

قال ابن عباس لم يكن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين يومئذ، أخرج ابن جرير عن عمرو بن ميمون قال: اثنان فعلهما رسول الله ﷺ لم يؤمر بهما إذنه المنافقين في القعود

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب باب: في مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه (٣٧١٠).

وأخذه الفدية من أسارى بدر فعاتبه الله كما تسمعون ﴿لَا يَسْتَفْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ في لتخلف كراهة ﴿أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ والمعنى لا يستأذنونك في أن يجاهدوا بل يبادرون إليه ولا ينتظرون الإذن فضلاً أن يستأذنوا في التخلف ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمَنَافِقِ﴾ شهادة لهم بالتقوى ووعدوا بثوابه ﴿إِنَّمَا يَسْتَفْذِنُكَ﴾ في التخلف ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ذكر الإيمان بالله اليوم الآخر في الموضوعين إشارة إلى أن الإيمان يقتضي محبة الجهاد طمعاً في الثواب بحيث لا يستأذن في إتيانه وعدم الإيمان يقتضي تركه لعدم رجاء الثواب ﴿وَأَرْتَابَتِ قُلُوبُهُمْ﴾ فشكت في الدين وناققت ﴿فَهَرَّ فِي رَيْبِهِمْ يَتَذَدُّونَ﴾ يتحирون فتارة يريدون الخروج كيلا يردا من المسلمين أذى لو ظفروا وتارة عدم الخروج لزعيمهم أن الرسول لا يرجع إليهم أبداً.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَفُوا لَكُمْ بَغْوَاعًا﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿مَنْ يَكْفُرْ أَتَدْنِ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسُؤُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَسْتَوَلُّوا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ إِنَّا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرْتَضِي بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرْتَضُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرْتَضُونَ﴾ ﴿٥٢﴾

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ معك ﴿لَأَعَدُّوا لَهُمْ﴾ ليهيؤوا للخروج أو للجهاد ﴿عِدَّةً﴾ ما يعد للسفر والجهاد من المتاع والسلاح والكرامات ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ استدراك عن مفهوم قوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ كأنه قال: ما خرجوا ولكن تثبطوا لأنه تعالى كره ولم يرد نهوضهم للخروج ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ فحبسهم بالجبن والكسل ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا﴾ في بيوتكم ﴿مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ يعني مع المرضى والزمناء وقيل: مع النساء والصبيان، تمثيل لإلقاء الله كراهة الخروج في قلوبهم أو وسوسة الشيطان بالأمر بالقيود أو حكاية قول بعضهم لبعض أو أذن الرسول لهم قصة خروجه ﷺ وتخلف أكثر المنافقين، خرج رسول الله ﷺ

في رجب سنة تسع فعمسك بئنية الوداع ومعه زيادة من ثلاثين ألفاً قاله محمد بن إسحاق ومحمد بن عمر وابن سعد وكذا روى الحاكم في الإكليل عن معاذ بن جبل، ونقل الحاكم في الإكليل عن أبي زرعة الرازي قال: كانوا بتبوك سبعين ألفاً وجمع بين الكلامين أن سبعين التابع والمتبوع وكانت الخيل عشرة آلاف فرس، روى عبد الرزاق وابن سعد أنه خرج إلى تبوك يوم الخميس وكان يستحب أن يخرج يوم الخميس، قال: ابن هشام واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري، وذكر الداروردي أنه استخلف عام بتوك سباع بن عرفظة زاد محمد بن عمر بعد حكاية ما تقدم، ويقال ابن أم مكتوم، قال: والثابت عندنا محمد بن مسلمة الأنصاري ولم يتخلف عنه في غزوة غيرها، وقيل: علي ابن أبي طالب، قال: أبو عمر وتبعه ابن دحية وهو الأثبت.

روى عبد الرزاق في المصنف بسند صحيح عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى تبوك استخلف على المدينة علي بن أبي طالب.

قال ابن إسحاق: وخلف رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب على أهله وأمره بالإقامة فيهم فأوجف به المنافقون وقالوا ما خلفه إلا استثقلاً له وتحققاً منه فلما قالوا: ذلك أخذ على سلاحه وخرج حتى لحق برسول الله ﷺ وهو نازل بالجرف فأخبره بما قالوا، فقال: رسول الله ﷺ: «كذبوا ولكن خلفتك لما تركت ورائي فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»^(١) فرجع علي رضي الله عنه وهذا الحديث متفق عليه، وعسكر عبد الله بن أبي مع رسول الله ﷺ على حدة عسكرة أسفل منه نحو ذباب فأقام إلى ما أقام رسول الله ﷺ فلما سار رسول الله ﷺ نحو تبوك تخلف ابن أبي راجعاً إلى المدينة فيمن تخلف من المنافقين وقال يغزو محمد بنى الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد إلى ما لا طاقة له به يحسب محمد أن قتال بنى الأصفر معه اللعب والله لكأني انظر إلى أصحابه مقرنين في الجبال إرجافاً برسول الله ﷺ وبأصحابه فأنزل الله... تعالى في ابن أبي ومن معه قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ﴾ بخروجهم شيئاً ﴿إِلَّا خَبَالاً﴾ أي: شراً وفساداً بإيقاع الجبن في المؤمنين بتحويل الأمر أو بإعانة الكفار في حالة الجهاد والعزة بالمؤمنين ونحو ذلك، ولا يستلزم الآية وجود الفساد الآن وزيادة الفساد عند خروجهم لأن الزيادة باعتبار أعم

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة تبوك وهي غزوة العسرة (٤٤١٦)، وأخرجه مسلم

في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٢٤٠٤).

العام الذي وقع منه الاستثناء ولأجل هذا التوهم جعل بعضهم الاستثناء منقطعاً وليس كذلك لأنه لا يكون حينئذٍ مفرغاً ﴿وَلَا وَضَعُوا﴾ أي أسرعوا ركائبهم بالنميمة أو الهزيمة أو التخذيل من وضع البعير وضماً إذا أسرع ﴿خِلَلَكُمْ﴾ أي: وسطكم وقيل: أوضعوا خلالكم أي: أسرعوا فيما يخل بكم ﴿يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ﴾ أي: يريدون أن يفتنوكم بإيقاع الخلاف فيما بينكم أو الرعب من العدو في قلوبكم والجملة حال من فاعل أو ضعوا ﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ﴾ أي: ضعفة يسمعون قولهم ويطيعون كذا قال: قتادة: أو الجواسيس يسمعون حديثكم للنقل إليهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي يعلمه ضمائرهم وما يتأتى منهم فيجازيهم عنه ﴿لَقَدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ﴾ أي: طلبوا تشتت أمرك وتفرق أصحابك وتخذيل المؤمنين ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ هذا اليوم يوم أحد حين انصرفوا عنك ابن أبي أصحابه ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ أي: دبروا لك المكائد والحيل ودور والآراء في إبطال أمرك ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ﴾ أي: جاء نصر الله وتأييده للدين الحق ﴿وَوَظَّهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ إعلاء دينه على زعم ﴿وَهُمْ كَاذِبُونَ﴾ ظهور الدين وعلوه ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: من المنافقين الذين استأذنوك في التخلف ﴿مَنْ يَكْفُلُ أَذْنَ لِي﴾ في التخلف ﴿وَلَا تَفْتِنِي﴾ وذلك جد بن قيس المنافق.

روى ابن المنذر والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة عن ابن عباس وابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله ومحمد بن إسحاق ومحمد بن عمرو بن عقبة عن شيوخهم أن جد بن قيس أتى رسول الله ﷺ وهو في المسجد معه نفر، فقال: يا رسول الله ائذن في القعود فإني ذو ضيعة وعلة فيها عذر لي فقال: رسول الله ﷺ: «تجهز فإنك موسر لعلك تحقب من بنات بني الأصفر» قال: الجد أو تاذن لي ولا تفتني فوالله لقد عرف قومي ما أحد أشد عجباً بالنساء مني وإني لأخشى إن رأيت بنات بني الأصفر لا أصبر عنهن، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنا لك» زاد محمد بن عمر فجاءه ابنه عبد الله بن جد وكان بدرياً وهو أخو معاذ بن جبل لأمه فقال: لأبيه: لم ترد على رسول الله ﷺ قوله فوالله ما في بني سلمة أحد أكثر مالاً منك فلا تخرج ولا تحمل، فقال: يا بني مالي وللخروج في الحر الشديد والريح والعسرة إلى بني الأصفر والله ما أمن خوفاً من بني الأصفر وأنا في منزلي أفأذهب إليهم أغزوهم إني والله يا بني عالم بالدوائر فأغبط له ابنه فقال: لا والله ولكنه النفاق، والله لينزلن على رسوله قوله أن يقرأ به فرجع نعله فضرب بها وجه ولده فانصرف ابنه ولم يكلمه فأنزل الله هذه الآية، للطبراني وابن مردويه وأبو نعيم أنه قال: عليه السلام لجد بن قيس: ما تقول في مجاهدة بني الأصفر؟ فقال: يا رسول الله إني امرؤ صاحب النساء ومتى أرى نساء بني الأصفر أفتن فأذن لي

ولا تفتني فتزلت، وذكر البغوي أنه عليه السلام قال: يا أيا وهب هل لك في جلاد بني الأصفر تتخذ منهم سراري ووصيفاً؟ فقال: جد يا رسول الله لقد عرف قومي أنني رجل مغرم بالنساء وأنا أخشى إن رأيت بنات بني الأصفر فقال: ناس من المنافقين أنه ليفتنكم بالنساء فأنزل الله تعالى هذه الآية، ومعنى قوله لا تفتني على ما تقتضيه الروايات المذكورة أن لا تفتني بنات بني الأصفر يعني أقع في الإثم والفتنة لأجل حبهن وعدم المصانبة عنهن، وقيل: معناه لا تفتني بسبب ضياع المال والعيال إذ لا كافل لها بعدي، وقيل: معناه أئذني لي في القعود ولا توقعني في الفتنة يعني العصيان لمخالفة أمرك بأن لا تأذن لي واقعدوا فيه إشعار بأنه لحالة متخلف إذن به أو لا يأذن **﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ﴾** أي: الشرك والعصيان **﴿سَقَطُوا﴾** وقعوا يعني الفتنة هي التي سقطوا فيها وهي فتنة التخلف وظهور النفاق **﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾** مطبقة بهم جامعة لهم يوم القيامة أو الآن لإحاطة أسبابها **﴿إِنْ تُصِيبَكَ﴾** يا محمد في بعض غزواتك **﴿حَسَنَةً﴾** ظفر وغنيمة **﴿تَسُوْهُمْ﴾** لفرط حدهم **﴿وَأِنْ تُصِيبَكَ﴾** في بعضها **﴿مُصِيبَةً﴾** كسرة أو شدة كما أصاب يوم أحد فرحوا بتخلفهم واستحمدوا آرائهم **﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا﴾** أي ما كان أصلح لنا يعني القعود من الغزو **﴿مِنْ قَبْلُ﴾** وقوع هذه المصيبة **﴿وَيَقُولُوا﴾** عن متحدثهم بذلك ومجتمعهم أو عن الرسول عليه السلام، **﴿وَهُمْ فَرِحُوا﴾** مسرورون بمصيبة المؤمنين بعداوتهم **﴿قُلْ﴾** يا محمد لهم **﴿أَنَّ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾** في اللوح المحفوظ من النصر أو الشهادة ولم يقل ما كتب الله لنا أو علينا للإشعار بكون كلا التقديرين خيراً لنا **﴿هُوَ﴾** يعني الله الذي كتب **﴿مَوْلَانَا﴾** ناصرنا ومتولي أمرنا فكيف يكون تقديره شراً لنا، قال: رسول الله عليه السلام: **﴿عجباً لأمر المؤمن أن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له﴾** (١) رواه أحمد ومسلم عن صهيب، وروى البيهقي عن سعد نحوه **﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾** متعلق بمحذوف أي ليتوكل المؤمنون على الله فليتوكلوا عليه وفيه تأكيد وبالفاء وإشعار بأنه لا ينبغي لهم أن يتوكلوا على غيره وهو وليهم والقدير على كل شيء **﴿قُلْ﴾** لهم يا محمد **﴿هَلْ تَرْتَضُونَ إِنَّا﴾** فيه حذف أحد التائبين أصله تتربصون يعني ما تنتظرون بنا أيها الفار أو المنافقون **﴿إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾** أي: إحدى العاقبتين كل منهما حسنى العواقب

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق، باب: المؤمن أمره كله خير (٢٩٩٩).

وذلك القتل في سبيل الله وذلك وإن كان قبيحاً على زعمكم لكنه إحدى العاقبتين الحسنين في حقنا أحدهما هذه وهي شهادة مورثة للجنة والحياة المؤبدة، وثانيهما النصر والغنيمة.

عن أبي هريرة قال: قال: رسول الله ﷺ: «انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمان لي وتصديق برسلي أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة»^(١) متفق عليه، والترديد مانعة الخلود دون الجمع ﴿وَمَنْ نَزَبَ بِكُمْ﴾ إحدى السواتين أن لا تتوبوا أحد لهما ﴿أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ يوم القيامة إن ظفرتم في الدنيا، وثانيهما ما قال: ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ أي أو بعذاب بأيدينا وهو القتل على الكفر المفضي إلى عذاب النار وهذا على تقدير كون الخطاب لمطلق الكفار وعلى تقدير كونه للمنافقين خاصة فأحدى السواتين: أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أي يهلككم أهلك الأمم الخالية فيعذبكم في النار إن متم على النفاق، وثانيهما: القتل على الكفر إن أظهرتم ما في قلوبكم ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ ما هو عاقبتنا ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ ما هو عاقبتكم وقال الحسن تربصوا مواعيد الشيطان إنا متربصون مواعيد الرحمن من إظهار دينه.

﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنتَكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُِونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَتَخَلَّفُوا بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَكُمْ وَمَا هُمْ بِمِنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَفْرَجًا أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسَخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ نصب على الحال أي: طائعين من غير إلزام من الله ورسوله أو مكرهين أي ملزمين سمي الإلزام إكراهاً لأنهم كانوا منافقين فكان إلزامهم الانفاق شاقاً عليهم كالإكراه وهذا صيغة أمر بمعنى الخبر تقديره ﴿لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ﴾

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان باب: الجهاد من الإيمان (٣٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد، باب: فضل الجهاد والخروج في سبيل الله (١٨٧٦).

نفقاتكم سواء أنفقتم طوعاً أو كرهاً وفائدته المبالغة في الحكم بتساوي الإنفاقين في عدم القبول كأنهم أمروا أن يمتحنوا فينفقوا مرة طوعاً ومرة كرهاً وينظروا أهل يتقبل منهم شيء منها، وهو جواب لجد بن قيس حيث قال: ائذن لي ولا تفتني وأعتك بمالي، ونفى التقبل بوجهين أحدهما أنه لا يقبل منهم رسول الله ﷺ وكذا الأئمة بعده لا يقبلون الصدقة ممن يعلمون أنه منافق، وثانيهما: أنه تعالى لا يتقبل منهم ولا يثيب عليه ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي: خارجين من زمرة المسلمين تعليل لعدم التقبل على سبيل الاستئناف وما بعده بيان وتقرير له ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالياء التحتانية والباقون بالتاء الفوقانية لأن الفاعل مؤنث غير حقيقي أعني ﴿نَفَقْتُهُمْ﴾ أن يقبل مفعول لمنع وفاعلاً ﴿إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا﴾ يعني ما منع من قبول نفقاتهم إلا كفرهم ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ يعني متناقلين لمرأة الناس عطف على كفروا ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ﴾ نفقة في سبيل الله ﴿إِلَّا وَهُمْ كَدِرْهُونَ﴾ لأنهم لا يرجون بها ثواباً ولا يخافون على تركها عقاباً يعدون الزكاة مغرماً وتركها مغنماً فإن قيل: وصفهم بالطوع في قوله أنفقوا طوعاً أو كرهاً وسلبه هنا بالكلية فكيف التوفيق؟ قلنا: المراد بالطوع هناك بذلهم من غير إلزام الرسول كما ذكرنا وليس ذلك البذل إلا رياء فليس ذلك إلا عن كراهة واضطرار لا عن رغبة واختيار، أو يقال وصفه بالطوع هناك على سبيل الفرض وسلبه هنا على التحقيق ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ الإعجاب هو السر وربما يستحسن يعني لا يستحسن ما أنعمنا عليهم من الأموال والأولاد فإن ذلك استدراج ووبال لهم، كما قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ بإعطائهم الأموال والأولاد ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بسبب ما يتكابدون لجمعها وحفظها من المتاعب وما يرون فيها من الشدائد والمصائب وفي انفاقها من المكاراة وفي تخليفها عند من لا يحمد من الحسرات، وقال مجاهد وقتادة: في الآية تقديم وتأخير تقديرها فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الآخرة على كسبها وجمعها وحفظها وإنفاقها على وجه غير مشروع ﴿وَتَزَهُقَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ كَغَيْرُونَ﴾ وأصل الزهوق الخروج بصعوبة يعني تخرج أنفسهم متحسراً متأسفاً على تركها مشتغلون بالتمتع عن النظر في المبدأ والمعاد فيكون ذلك استدراجاً، والآية دلت على بطلان القول بوجوب الأصلح لأنه تعالى أخبر أنه أعطى الأموال والأولاد للتعذيب والإماتة على الكفر ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ أي: من المسلمين ﴿وَمَا هُمْ بِمِنكُمْ﴾ لكفر قلوبهم ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ يخافون منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلون بالمشركين ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا﴾ أي حصناً يلجؤون إليه أو قوماً يأمنون فيهم ﴿أَوْ

مَفْرَبَاتٍ ﴿ في الجبال جمع مغارة وهي الغار يعني الموضع الذي يغور فيه أي يستتر، وقال عطاء سراديب ﴿أَوْ مَدْخَلًا﴾ أصله مدتخل مفتعل من الدخول أي: موضع يدخلون فيه بصعوبته كنفق اليربوع ﴿لَوْلَوْأَإِلَيْهِ﴾ لا دبروا إليه هرباً منكم ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي: يسرعون في آباء نفور لا يردهم شيء كالفرس الجموح ومعنى الآية أنهم كارهون من مصاحبتكم أشد الكراهة لو يجدون مخلصاً منكم لفارقوكم ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: من المنافقين ﴿مَنْ يَلْمِزُكَ﴾ أي: يعيبك يقال لمزه وهمزه إذا عابه قرأ يعقوب بضم الميم حيث كان ﴿فِي الصَّدَقَاتِ﴾ أي: قسمتها يعني يقولون لا تعدل في القسمة، روى الشيخان والبيهقي عن ابن مسعود قال: لما قسم رسول الله ﷺ غنائم هوازن يوم حنين أثر ناساً من أشرف العرب فقال: رجل من الأنصار: يعني من قومهم إن هذه لقسمة ما عدل فيها أو ما أريد فيها وجه الله، فقلت والله لأخبرن رسول الله ﷺ، فأخبرته فتغير وجهه حتى صار كالصرف، وقال: «فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟ رحم الله موسى قد أودى بأكثر من هذا فصبر»^(١) قال: محمد بن عمر الرجل المبهم هو معتب بن قشير المناق، وروى ابن إسحاق عن ابن عمر والشيخان وأحمد عن جابر والبيهقي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بينما هو يقسم غنائم هوازن إذ قام إليه رجل، قال: ابن عمر وأبو سعيد من تميم يقال له ذو الخويصرة فوقف عليه ﷺ قال: فكيف رأيت، قال: لم أرك عدلت أعدل، وفي رواية فقال: الرجل يا رسول الله أعدل فغضب رسول الله ﷺ فقال: «ويلك من يعدل إذا لم أعدل قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل»؟ وفي رواية: «إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون»؟ فقال: عمر بن الخطاب: يا رسول الله دعني أقتل هذا المنافق فقال: رسول الله ﷺ: «معاذ الله أن يتحدث الناس أقتل أصحابي دعه فإن له أصحاباً يحتضر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر إلى أرسافه فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر إلى نضيه فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر إلى قدده فلا يوجد فيه شيء، وقد سبق الفرث والدم آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدور ويخرجون على خير فرقة من الناس».

قال أبو سعيد فأشهد أنني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ وأشهد أن علي بن

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الطائف (٤٣٣٦)، وأخرجه مسلم في كتاب:

الزكاة، باب: إعطاء المؤلف قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه (١٠٦٢).

أبي طالب قاتلهم وأنا معه فأمر بذلك الرجل فالتمس فأتى به فنظرت إليه على لفت النبي ﷺ.

قال البغوي: وصاحب أسباب النزول نزلت الآية في ذي الخويصرة التميمي يعني المذكور في هذا الحديث، واسمه خرقوص بن زهير أصل الخوارج، فظاهر الآية يأبى عن هذا القول لأن المذكور في الآية لمن الصدقات وقصتها ذي الخويصرة التميمي ومعتب بن قشير المذكورين في الحديثين الصحيحين المذكورين في قسمة غنائم حنين وهذه الآية نزلت في غزوة تبوك بعد غزوة حنين، وعندني الآية نزلت في قسمة صدقات جاء بها المسلمون لتجهيز جيش العسرة والله أعلم.

وقال الكلبي: نزلت الآية في رجل من المنافقين يقال له أبو الحواص قال: لم يقسم بالسوية قال: الله تعالى: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ إذا للمفاجأة نائب مناب الفاء الجزائية قيل: معناه وإن أعطوا كثيراً رضوا وفرحوا وإن أعطوا قليلاً سخطوا نظراً إلى قوله تعالى ﴿وَلَوْ﴾ ثبت ﴿أَنَّهُمْ رَضُوا مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ يعني بما أعطاهم الرسول من الصدقة والغنيمة، وذكر الله تعالى للتعظيم والتنبيه على أن فعل الرسول الله ﷺ كان بأمره تعالى وعلى أنه يجب الرضا والتسليم فعل النبي ﷺ كما يجب الرضا بقضاء الله تعالى وقدره ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ كفانا من فضلهم ﴿مَكِّيَّتِينَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من وجه آخر ما يحتاج إليه ﴿وَرَسُولِهِ﴾ من صدقة أو غنيمة أخرى ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ في أن يغنيننا من فضله والآية بأسرها في حيز الشرط والجواب محذوف تقديره لكان خيراً لهم، ثم بين مصارف الصدقات قطعاً لأطماع رجال كانوا يطمعون فيها ولم يكونوا من أهلها وتصويماً لما فعل رسول الله ﷺ فقال.

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَفَةِ لِقُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْفَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ قال: البيضاوي وهو دليل على أن المراد باللمز هم في قسمة الزكاة دون الغنائم، قلت: المراد بالآية والله أعلم أن مصرف الصدقات هم الفقراء فقط دون الأغنياء فالفقير هو المحتاج ضد الغني سواء كان له قليل من المال أو لم يكن وهو أعم من المسكين وغيره من الأصناف، وقال أكثر الحنفية الفقير من له دون النصاب،

وما قلت أوفق لمذهب أبي حنيفة رحمه الله حيث يعتبر الفقر في الغارم والغازي وغيرهما، والدليل على ما قلت من عموم الفقر وشموله للأصناف قصة معاذ. روى الشيخان وأصحاب السنن من حديث ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال: «إنك ستأتي قوماً أهل كتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»^(١) وبهذا الحديث اعتبر صفة الإيمان في الزكاة المفروضة فلا يجوز دفع الزكاة إلى فقير كافر ذمياً كان أو حربياً لإجماع وأجاز الزهري وابن شبرمة الدفع إلى أهل الذمة ويؤيد قول الزهري وابن شبرمة ما روي عن عمر في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ قال: هم زمنأ أهل الكتاب وقد اضمحل خلافيهما بإجماع من بعدها.

فإن قيل: هذا حديث آحاد كيف يجوز على أصل أبي حنيفة زيادة الإيمان في الفقراء المنصوصين بنص الكتاب؟ قلنا: خص من ذلك الآية الحربي بالإجماع مستنداً إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي الدِّينِ ﴾^(٢) فجاز تخصيصه بعد ذلك بخبر الآحاد، وجاز دفع الصدقة النافلة إلى الذمي إجماعاً لقوله تعالى: ﴿ لَا يَنْهَكَ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتَلُوا فِي الدِّينِ ﴾ الآية وحديث معاذ في الزكاة المفروضة خاصة دون النافلة، وأما إلى الحربي فلا يجوز دفع النافلة أيضاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي الدِّينِ ﴾ والصداقات الواجبة كالفطرة والكفارات والنذور فحكمها حكم المفروضة عند الأئمة الثلاثة فإنهم لا يفرقون بين الفرض والواجب، وعند أبي حنيفة يجوز دفعها إلى الذمي لانحطاط درجة الواجب عن الفريضة عنده وعدم شمول حديث معاذ إياها فإن معاذاً كان عاملاً لأخذ الزكاة فحسب والله أعلم.

وإذا كان الفقير أعم من المسكين وغيره من الأصناف فحينئذ عطف قوله تعالى: ﴿ وَالْمَسْكِينِ ﴾ وما بعده على الفقراء من قبيل عطف الخاص على العام كما في قوله تعالى:

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: أخذ الزكاة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا (١٤٩٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (١٩).

(٢) سورة الممتحنة، الآية: ٨.

﴿حَفِظُوا عَلَيَّ الصَّكَّاتِ وَالصَّكَّاتِ الْوَسْطَى﴾^(١) فهو لزيادة الاهتمام، فلنذكر معاني الألفاظ من المساكين وغيرها حتى يظهر منها وجه الاهتمام بذكرها.

أما المساكين فالمراد به الفقير الذي لا يسأل الناس إلحافاً مشتق من السكون والسكينة أي: لا يتحرك لأجل السؤال، والدليل عليه ما رواه الشيخان في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان والتمر والتمرتان ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يقوم فيسأل الناس»^(٢) فظهر أن المسكين نوع من الفقير وإعطاءه أولى من إعطاء غيره من الفقراء فهو أهم قال: الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعْفُفِ تَعْرِفُهُمْ بِسَبِيلِهِمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾^(٣) وإلحاف الإلحاح، فإن قيل: قد يطلق المسكين على الفقير السائل أيضاً كما في حديث متفق عليه عن أبي هريرة في قصة ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى الحديث بطوله وفيه «رجل مسكين قد انقطعت بي الجبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بغيراً يبلغ في سفري»^(٤) قلنا: إما أن يكون في الحديث السابق بيان المراد من الآية لا بيان الغني اللغوي وإما أن يكون في الحديث الثاني لفظ المسكين مجازاً وليس المأخوذ في مفهوم المسكين أن يكون له قليل من المال، كما قال: به بعض الشافعية أن الفقير من ليس له مال أصلاً والمسكين من له قليل من المال لأن قوله تعالى: ﴿إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾^(٥) ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾^(٦) في الكفارات المراد به أجمعاً الفقير مطلقاً سواء كان له قليل من المال أو لم يكن له مال أصلاً، وأيضاً قوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ﴾^(٧) يعني من لصق بالثرات من فقره يرد قول من قال: أن

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: قول الله تعالى ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ (١٤٧٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: المسكين الذي لا يجد غنى ولا يفطن له فيتصدق عليه (١٠٣٩).

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٧٣.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث أبرص وأقرع في بني إسرائيل (٣٤٦٤)، وأخرجه مسلم في أوائل كتاب الزهد والرقائق (٢٩٦٤).

(٥) سورة المائدة، الآية: ٨٩.

(٦) سورة المجادلة، الآية: ٤.

(٧) سورة البلد، الآية: ١٦.

المسكين من له قليل من المال، وكذا ليس المأخوذ في مفهوم المسكين أن لا يكون له مال أصلاً كما قال: به بعض الحنفية لأن قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾^(١) تدل على أن السفينة كانت لهم ملكاً ومع ذلك سماهم الله تعالى مساكين، والقول بأنها كانت لهم بالإجارة أو العارية أو أطلق عليهم لفظ المساكين ترحماً صرف للنص عن الظاهر بلا دليل، وقد يستدل على أن المساكين أحسن حالاً من الفقير بأن النبي ﷺ استعاذ من الفقر^(٢) وذلك متفق عليه من حديث عائشة وفي الباب عن أبي هريرة عند أبي داود والنسائي وصححه ابن حبان والحاكم وعندهما من حديث أبي بكر وأبي سعيد وأنس وقد قال: النبي ﷺ: «اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً»^(٣) رواه الترمذي من حديث أنس وابن ماجه عن أبي سعيد، والجواب أن الفقر المستعاذ منه هو فقر النفس وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ: «إنما الغنى غنى النفس»^(٤) أو المستعاذ منه فتنة الفقر لا حاله وكذا المسؤول ليس نفس المسكنة بل بعض صفاته من الصبر والتوكل والرضا أو يقال إسناد حديث أنس وأبي سعيد ضعيفان، كذا قال: الحافظ ابن حجر وذكره ابن الجوزي في الموضوعات لما رآه مبيناً للحال الذي مات عليه النبي ﷺ لأنه كان مكفياً وقد قال: الله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾^(٥) والله أعلم.

﴿وَالْعَمَلِينَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: الصدقات عدّ الله سبحانه من أصناف الفقراء عاملي الصدقة وأعاونهم مجازاً سواء كانوا أغنياء أو فقراء لأنهم وكلاء للفقراء في أخذ الصدقات وتقسيمها مشغولون بأمورهم فيجب عليهم مؤنتهم فهم فقراء حكماً. واختلفوا في قدر ما يعطى للعامل من الزكاة؟ فقال: الشافعي يعطى له ولأعوانه الثمن من الصدقات قل عمله أو كثر بناء على أنه يجب عنده صرف الزكاة إلى الأصناف الثمانية على السوية وسنذكر

(١) سورة الكهف، الآية: ٧٩.

(٢) جاء في صحيح مسلم أن النبي ﷺ كان يدعو «اللهم اقض عنا الدين وأغننا من الفقر» وجاء في سنن أبي داود قوله عليه السلام «اللهم إني أعوذ بك من الفقر والقلة والذلة».

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الزهد، باب: ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم (٢٣٥٢)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: مجالسة الفقراء (٤١٢٦).

(٤) ورد بلفظ «ليس الغنى عن كثرة الغرض ولكن الغنى غنى النفس»، أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: الغنى غنى النفس (٦٤٤٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: ليس الغنى عن كثرة الغرض (١٠٥١).

(٥) سورة الضحى، الآية: ٨.

الرد عليه، وقال أبو حنيفة وأكثر الأئمة يعطى له كفاية بقدر عمله فإن عمل يوماً يعطى له كفاية يومه وإن عمل سنة يعطى له كفاية سنة لأنه ليس للغني حق في الزكاة وإنما يعطى العامل أجر عمله الذي وجب على الفقراء فيعطى ذلك القدر من مال الزكاة الذي هو حقهم، ولا يجوز دفع جميع مال الزكاة إلى العامل إجماعاً وإن استغرقت كفاية جميع مال الصدقة بل حينئذ يعطى له النصف لا يزداد عليه إذ لو يعطى أكثر من النصف وللأكثر حكم الكل يكون هو عاملاً لنفسه لا للفقراء فيفوت المقصود ولا يجب عليه مؤنته قال: الله تعالى: ﴿وَالْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبِهِمْ﴾ قال: البغوي وهم قسمان قسم مسلمون وقسم كفار فأمت المسلمون فقسمان قسم دخلوا في الإسلام ونيتهم ضعيفة فيه فكان النبي ﷺ يعطيهم تالفاً أعطى عيينة بن بدر والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس أو أسلموا ونيتهم قوية في الإسلام وهم شرفاء في قومهم مثل عدي بن حاتم والزبرقان بن بدر، فكان يعطيهم تالفاً لقومهم وترغيباً لأمثالهم في الإسلام فهؤلاء يجوز للإمام أن يعطيهم من خمس خمس الغنيمة والفيء سهم النبي ﷺ وكان النبي ﷺ يعطيهم من ذلك ولا يعطيهم من الزكاة، والقسم الثاني من المؤلفة المسلمين أن يكون قوم من المسلمين بإزاء قوم كفار في موضع لا يبلغه القسم الثاني المسلمين إلا بمؤنته كغيره وهم لا يجاهدون إما لضعف نيتهم أو لضعف حالهم فيجوز للإمام أن يعطيهم من سهم الغزاة من مال الصدقة وقيل: من سهم المؤلفة من الصدقات.

روي أن عدي بن حاتم جاء أبا بكر بثلاثمائة من الإبل من صدقات قومه فأعطاه أبا بكر منها ثلاثين بغيراً أما الكفار من المؤلفة لهو من يخشى شره منهم أو يرجى إسلامه فالإمام يعطي هذا حذراً من شره ويعطي ذلك ترغيباً له في الإسلام فقد كان النبي ﷺ يعطيهم من خمس الخمس كما أعطى صفوان ابن أمية لما رأى ميله إلى الإسلام وأما اليوم فقد أعز الله تعالى الإسلام وله الحمد وأغناه عن أن يتألف عليه رجال فلا يعطى مشرك تالفاً بحال، وقد قال: بهذا كثير من أهل العلم أن المؤلفة منقطعة وسهمهم ساقط، روي ذلك عن عكرمة وهو قول الشعبي وبه قال: مالك والثوري وإسحاق بن راهويه وأصحاب الرأي، وقال قوم سهمهم ثابت يروى ذلك عن الحسن وهو قول الزهري وأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين عليهم السلام وأبي ثور، وقال أحمد يعطون إن احتاج المسلمون إلى ذلك انتهى كلامه. وفي أكثر الكتب أنهم اختلفوا في حكم المؤلفة؟ قال: أبو حنيفة قد سقط سهم المؤلفة قلوبهم لأنه تعالى أعز الإسلام وأغنى، وبه قال: مالك وهي رواية عن الشافعي، وعن مالك رواية أخرى إن احتيج إليهم في بلد أو ثغر استأنف الإمام لوجود العلة، وهي رواية عن أحمد، وقال الشافعي وأحمد في أصح المختار عند

أكثر أصحاب الشافعي ما في المنهاج أن المؤلفة من المصنف قال: وهو من أسلم ونيته ضعيفة أوله شرف يتوقع بإعطائه إسلام غيره، وقلت: وبهذا ظهر أن الشافعي أيضاً لا يجوز إعطاء الزكاة للكافر من المؤلفة كما لا يجوز للكافر من الفقراء والمساكين وغيرهم وأبو حنيفة ومن معه لا ينكرون إعطاء مسلم فقير من المؤلفة وإنما الكلام في المسلم الغني من المؤلفة فعند الشافعي يعطى له من الزكاة بناء على زعمه أن الفقر غير معتبر في سائر الأصناف، وعند أبي حنيفة لا يعطى له الزكاة بناء على اعتبار الفقر في سائر الأصناف فظهر أنه لا خلاف بينهم في أن حكم جواز إعطاء الزكاة للمؤلفة بات غير منسوخ وكيف يحكم بالنسخ مع عدم النسخ، ولو حمل قول أبي حنيفة على إعطاء الكافر من المؤلفة منسوخ لكان له وجه لكن لم يثبت أن النبي ﷺ أعطى أحداً من الكفار للإيلاف شيئاً من الزكاة.

فإن قيل: روى مسلم والترمذي عن سعيد بن المسيب عن صفوان بن أمية في قصة فقال: أعطاني النبي ﷺ ولأنه أبغض الناس إلي فما برح يعطيني إنه لأحب الناس إلي^(١)، وهذا صريح في أنه كان يعطيهم في حالة الكفر وقد جزم ابن أثير في الصحابة أنه أعطاه قبل إسلامه، قلت: قال: النووي إعطاء النبي ﷺ صفوان بن أمية كان من غنائم حنين وصفوان يومئذ كافر، قال: الحافظ ابن حجر ودعوى الرافعي أنه أعطى صفوان ذلك من الزكاة وهم والصواب أنه من الغنائم من خمس خمس التي كان للنبي ﷺ، وبذلك جزم البيهقي وابن سيد الناس وابن كثير وغيرهم، وقال ابن الهمام في بيان النسخ أسند الطبراني قول عمر بن الخطاب حين جاءه عيينة بن حصين الحق من ريكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر يعني ليس اليوم مؤلفة، وأخرج ابن أبي شيبة عن الشعبي إنما كانت المؤلفة على عهد رسول الله ﷺ ولما ولي أبو بكر انقطعت، وقال ابن الهمام جاء عيينة والأقرع يطلبان أرضاً إلى أبي بكر فكتب له الخط فمزقه عمر، وقال: هذا شيء كان رسول الله ﷺ يعطيكموه ليتألفكم على الإسلام وللان فقد أعز الله الإسلام وأغنى عنكم فإن ثبتم على الإسلام وإلا فيينا وبينكم السيف فرجعوا إلى أبي بكر فقالوا: الخليفة أنت أم عمر فقال: هو إن شاء ووافق ولم ينكر عليهما أحد من الصحابة، قلت: لا يخفى أن قول عمر لا يحتمل أن يكون ناسخاً وليس في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ﴾

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزكاة، باب: ما جاء في إعطاء المؤلفة قلوبهم (٦٥٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط وقال لا، وكثرة عطائه (٢٣١٣).

فَلْيَكْفُرُوا^(١) دلالة على نسخ سهم المؤلفة كيف وهو أقدم ولا من آية سهم المؤلفة فإن سورة التوبة آخر القرآن نزولاً وسورة الكهف مكية وليست القصة في الزكاة بل في إقطاع الأرض فكيف يحكم بنسخ سهم المؤلفة وإذا ثبت أن حكمه باق غير منسوخ لكن الكافر من المؤلفة ليس بمراد بل الحكم مخصوص بالمسلمين منهم ولذا لم يثبت عن النبي ﷺ إعطاءه من الزكاة كافرأ من المؤلفة، فنقول: إذا خص الكافر من المؤلفة فلا بد أن يخص الغني أيضاً بالأحاديث الواردة في عدم حل الزكاة للغني وبما ذكر في حديث معاذ قوله ﷺ: «تؤخذ من أغنيائهم وترد إلى فقرائهم»^(٢) وإذا خص المسلم الغني من المؤلفة بقي الحكم في المؤلفة الفقراء فظهر أن المؤلفة أيضاً صنف من الفقراء عطف عليه عطف الخاص على العام لزيادة الاهتمام قوله تعالى: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ عدل عن اللام إلى في للإيدان بأن الأربعة اللاحقة أرسخ في استحقاق التصديق عليهم من المساكين والعاملين والمؤلفة لأن في اللوعاء فته على أنهم أحقاء بأن يوضع فيهم الصدقات، والمراد بهم المكاتبين عند أبي حنيفة والشافعي وأحمد وهي رواية ابن وهب عن مالك وهم فقراء البتة وإن كانت عندهم نصاب لا يكفي لأداء كتابتهم فيعان في فك رقابهم قال: الله: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَيْتَكُمْ﴾^(٣) وقال مالك الرقاب العبيد الأرقاء فعنده يشتري من الزكاة رقبة كاملة فيعتق وهي رواية عن أحمد لكنه رجع أحمد عنها، واحتج مالك بأثر ابن عباس روى أبو عبيدة في كتاب الأموال من طريق أبي الأشرس عن مجاهد عنه أنه كان لا يرى بأساً أن يعطي الرجل من زكاة ماله في الحج وأن يعتق منه الرقبة أخرجه عن أبي معاوية عن الأعمش عنه، وأخرج عن أبي بكر بن أبي عياش عن الأعمش عن أبي نجيع عن مجاهد عن ابن عباس قال: أعتق من زكاة مالك، قال: وتابع أبا معاوية عبدة بن سليمان رويناه في فوائد يحيى بن معين رواية أبي بكر بن علي المروزي عن عبدة عن الأعمش عن أبي الأشرس ولفظه كان يخرج زكاة ثم يقول جهزونا منها إلى الحج، وقال الميموني قلت لأبي عبد الله يشتري الرجل من زكاة ماله الرقاب فيعتق ويجعل في ابن السبيل قال: نعم ابن عباس يقول ذلك ولا أعلم شيئاً يدفعه، قال: الجلالي أخبرنا أحمد بن هاشم قال: قال: أحمد كنت أرى أن يعتق من الزكاة ثم رجعت

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: أخذ الزكاة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا

(١٤٩٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (١٩).

(٣) سورة النور، الآية: ٣٣.

عن ذلك فاحتج عليه بحديث ابن عباس فقال: هو مضطرب، ثم عند مالك الولاة للمسلمين وفي رواية عنه الولاة للمعتق قال: الحافظ إنما وصف أحمد أثر ابن عباس بالاضطراب لاختلاف في إسناده عن الأعمش قال: الحافظ وفي تفسير الرقاب قول ثالث أن سهم الرقاب يجعل نصفين نصف لكل مكاتب يدعي الإسلام ونصف يشتري بها رقاب من صلى وصام، أخرجه ابن أبي حاتم وأبو عبيدة في الأموال بإسناد صحيح عن الزهري، أنه كتب ذلك لعمر بن عبد العزيز والله أعلم، قلت: قوله ﷺ لمعاذ: «تأخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم» يابى قول مالك فإن في فقراء الرقيق لم يوجد الرد... على الفقراء وقول ابن عباس مضطرب كما قال: أحمد ولو صح فهو رأي ليس برواية فليس بحجة، وما ذكرنا في تفسير الرقاب بالمكاتبين يدل عليه ما أخرجه الطبراني في تفسيره من طريق محمد بن إسحاق عن الحسن البصري أن مكاتباً قال: لأبي موسى الأشعري وهو يخطب يوم الجمعة فقال: له أيها الأمير حث الناس عليّ فحث عليه أبو موسى، فألقى الناس عليه هذا يلقي عمامة وهذا يلقي قلادة وهذا يلقي خاتماً حتى ألقى الناس عليه سواداً كثيراً فلما رأى أبو موسى ما ألقى عليه قال: أجمعه ثم أمر به فبيع فأعطى المكاتب مكاتبته ثم أعطى الفضل في الرقاب ولم يردده على الناس وقال إن هذا أعطوه في الرقاب.

فإن قيل: روى أحمد وغيره أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: دلني على عمل يقربني إلى الجنة ويباعدني من النار فقال: «أعتق النسمة وفك الرقبة» فقال: أو ليسا سواء؟ قال: «لا عتق الرقبة أن تفرد بعقتها وفك الرقبة أن تعين في ثمنها»^(١) قلت: هذا لا يدل على أن في الرقاب المذكور في الآية ما قاله مالك والله أعلم.

﴿وَالْفَرِيضِينَ﴾ وهم المديونون بالإتفاق لكن الشافعي وأكثر الأئمة جعل المديون على ثلاثة أقسام قسم أدانوا أنفسهم من غير معصية فإنهم يعطون من الصدقة إذا لم يكن مالهم مال يفي بدينهم فإن كان عندهم وفاء فلا يعطون وقسم أدانوا في المعروف وإصلاح ذات البين فإنهم يعطون من الصدقة ويقضي ديونهم وإن كانوا أغنياء، وقسم أدانوا في معصية الله والإسراف فلا يدفع إليه شيء، وقال أبو حنيفة رحمه الله يدفع إلى كل مديون لم يكن مالاً لنصاب فاضل عن وفاء دينه لعموم اللفظ، ولا شك أنه فقير فإن ماله مشغول بدينه

(١) رواه أحمد ورجاله ثقات، انظر مجمع الزوائد في كتاب: العتق، باب: العتق والإعانة فيه (٧٢٤٢).

والخلاف فيه كالخلاف في رخص السفر وكل مديون كان له نصاب فأصل عن وفاء دينه لا يجوز دفع الزكاة إليه عند أبي حنيفة ومالك وأحمد خلافاً للشافعي في مديون أدان في الطاعة، قوله تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ كرر كلمة في لترجيح الصنفين اللاحقين على الرقاب والغارمين، قال: الشافعي وأبو يوسف وجمهور العلماء المراد به منقطع الغزاة، وقال أحمد ومحمد بن الحسن منقطع الحاج، والحجة لأحمد ما رواه أحمد وأبو داود من حديث أم معقل قالت: كان أبو معقل حاجاً مع رسول الله ﷺ فلما قدم قالت أم معقل: قد علمت أن عليّ حجة فانطلقا يمشيان حتى دخلا عليه ﷺ فقالت: يا رسول الله عليّ حجة وإن لأبي معقل بكرة فقال: أبو معقل: صدقة جعلته في سبيل الله، قال: رسول الله ﷺ: «أعطها فلتحج عليه فإن الحج في سبيل الله»^(١) وفيه إبراهيم بن مهاجر يتكلم فيه، وفي بعض الروايات أنه كان بعد وفاة أبي معقل رواه أبو داود وأحمد بسند آخر عن أم معقل قالت: لما حج رسول الله ﷺ حجة الوداع وكان لنا جمل فجعل أبو معقل في سبيل الله وأصابنا مرض وهلك أبو معقل وخرج النبي ﷺ فلما فرغ من حجته جثته فقال: يا أم معقل ما منعك أن تخرجي معنا؟ قالت: لقد تهيأنا فهلك أبو معقل وكان لنا جمل هو الذي يحج عليه فأوصى به أبو معقل في سبيل الله قال: «فها خرجت عليه فإن الحج في سبيل الله» واحتج الشافعي بحديث أبي هريرة المتفق عليه وفيه «وأما خالد فإنكم تظلمون خالداً فإنه قد احتبس أذراعه وأعتده»^(٢) قلت: ولما كان الفقر مأخوذ في جميع الأصناف فالأولى أن لا يخص في سبيل الله بالحج ولا بالغزو بل يترك أعم منهما ومن سائر أبواب الخير فمن أنفق ماله في طلبه العلم صدق إنه أنفق في سبيل الله، قوله تعالى: ﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ وهو المسافر فاعلم أن المسافر إما أن يكون مالكا لنصاب يمنع أخذ الزكاة أولاً وعلى الثاني يعطي له الزكاة اتفاقاً سواء كان في أثناء السفر أو مريداً للمسافر كمن لم يكن مسافراً لكونه فقيراً، وعلى التقدير الأول إن كان له مال في يده بقدر النصاب وبقدر ما يبلغ بلداً يريد دخوله لا يعطي له الزكاة اتفاقاً سواء كان في أثناء السفر أولاً وإن كان له مال كثير في وطنه لا معه وهو في أثناء السفر فقير يد ليس عنده ما يبلغ

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: المناسك، باب: العمرة (١٩٨٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: قول الله تعالى: ﴿وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

(١٤٦٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: في تقديم الزكاة ومنعها (٩٨٣).

نصاباً ولا ما يبلغ به وطنه الذي فيه ماله يعطي له الزكاة اتفاقاً وهو المراد بابن السبيل في هذه الآية عند أبي حنيفة رحمه الله، فالفقر المعتبر لإباحة أخذ الزكاة هو الفقر يداً فمالكية المال لا ينافي جواز أخذ الزكاة إن لم يكن المال في يده فالمقيم في الوطن الذي له مال في وطنه بمنزلة ابن السبيل والدائن الذي مديونه مقر مفلس كابن السبيل كذا في المحيط وإن كان له مال كثير في وطنه وعنده مال قليل لا يبلغ نصاباً لكن يمكن أن يبلغ به مكانه الذي فيه ماله لا يجوز له أخذ الزكاة اتفاقاً لأنه قادر على الوصول إلى ماله فكأنه في يده، وإن كان له مال في يده يبلغ نصاباً لكن ليس بقدر ما يقطع به المسافة المقصورة سواء هو في أثناء السفر أو هو مرید للسفر وسواء كان له مال بعيد منه أو لا يكون لا يجوز له أخذ الزكاة عند أبي حنيفة، وقال الشافعي يجوز لأبي حنيفة أن المبيح لأخذ الزكاة إنما هو الفقر وهو ليس بفقر، وقال الشافعي إرادة السفر أيضاً مبيح لأخذ الزكاة إن لم يكن عنده ما يقطع به السفر لأن ابن السبيل صنف آخر غير الفقير لا يعتبر فيه الفقر والله أعلم.

قلت: الأصناف السبعة أنواع للفقراء والمصرف هم الفقراء ولا يجوز دفع الزكاة إلى هؤلاء الأصناف إلا بشرط الفقر إلا العاملين فإنه يجوز إعطاؤهم وإن كانوا أغنياء فإن المعطي لهم حينئذ في الحقيقة هم الفقراء وهم يأخذون من مال الفقراء ما يجب لهم مؤنتهم عليهم أجره لهم، ولا تنحصر الفقراء في هذه الأصناف وإنما ذكر الله تعالى هذه الأصناف اهتماماً بها فإن لهذه الأصناف مزية على غيرهم من الفقراء فالمراد من الآية والله سبحانه أعلم أن المصرف هم الفقراء لكن الأولى أن يلتزم إعطاء الزكاة سبباً يترجح به المعطي له على غيره من الفقراء فالمسكين الذي لا يسأل الناس أولى من السائلين لكونه أفقر والمسافر الفقير أفقر وأشد حاجة من المقيم، والغازي والحاج والمكاتب والمؤلف للإسلام أخرى لأن يعطوا من غيرهم لأن في إعطائهم إعانة على الحج الذي هو أحد أركان الإسلام والجهاد الذي هو ذروة سنامه وعلى فك الرقبة الذي هو مفرغ لكثير من الخيرات، ولا دلالة في الآية على أن أسباب المزية منحصرة في هذه الأمور بل للمزية أسباب غيره أيضاً وإنما ذكرت هذه الأمور تمثيلاً فإن منها القرابة قال رسول الله ﷺ: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غني وابدأ بمن تعول»^(١) رواه البخاري من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث حكيم بن حزام، وقال رسول الله ﷺ: «دينار أنفقته

(١) أخرجه البخاري في كتاب: النفقات، باب: وجوب النفقة على الأهل والعيال (٥٣٥٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى (١٠٣٤).

في سبيل الله ودينار تصدقته به على رقبة ودينار تصدقته به على مسكين ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجر الذي أنفقته على أهلك»^(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة، وعن ميمونة بنت الحارث: أنها أعتقت وليدة في زمان رسول الله ﷺ فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «لو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك»^(٢) متفق عليه، وعن سليمان بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذي الرحم ثنتان صدقة وصلة»^(٣) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي، وعن أنس قال: قال أبو طلحة إن أحب مالي إلي بيرحاء وإنه صدقة لله تعالى أرجو أبرها ذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث أراك الله فقال: رسول الله ﷺ: «أرى أن تجعلها في الأقربين» فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه^(٤) متفق عليه، غير أنه لا يجوز دفع الزكاة إلى من بينها ولاد أو زوجة عند أبي حنيفة رحمه الله لأن منافع أملاكهم متصلة شرعاً و عرفاً فلا يتحقق التملك على الكمال قال: الله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾^(٥) يعني بمال خديجة وقال عليه السلام: «أنت ومالك لأبيك»^(٦) قال: ابن همام وسائر القرابات غير الولاد يجوز الدفع معه بل أولى لما فيه من الصلة مع الصدقة فالأخوة والأخوات والأعمام والعمات والأخوال والخالات ولو كان بعضهم في عياله ولم يفرض القاضي نفقته عليه فدفعتها إليه ينوي الزكاة جاز عن الزكاة وإن فرضها فدفعتها ينوي الزكاة لا يجوز عن الزكاة لأنه أداء واجب في واجب آخر فلا يجوز إلا إذا لم يحتسبها في النفقة لوجود التملك

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: فضل النفقة على العيال والمملوك وإثم من ضيعهم أو حبس نفقتهم عنهم (٩٩٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الهبة، باب: هبة المرأة لغير زوجها وعتقها إذا كان لها زوج فهو جائز إذا لم تكن سفية (٢٥٩٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: فضل النفقة والصدقة على الأقربين (٩٩٩).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الزكاة، باب: ما جاء في الصدقة على ذي القرابة (٦٥١) وأخرجه النسائي في كتاب: الزكاة، باب: الصدقة على الأقارب (٢٥٧٢)، زوأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزكاة، باب: فضل الصدقة (١٨٤٤).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: الزكاة على الأقارب (١٤٦١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: أفضل النفقة والصدقة على الأقربين (٩٩٨).

(٥) سورة الضحى، الآية: ٨.

(٦) أخرجه ابن ماجه في كتاب: التجارات، باب: ما للرجل من مال ولده (٢٢٩١)، في الزوائد، إسناده صحيح ورجاله ثقات على شرط البخاري.

على الكمال، وقال الشافعي ومالك وأحمد لا يجوز دفع الزكاة إلى من يجب نفقته عليه وعلته المنع عندهم لزوم المؤونة ووجوب النفقة على المعطي وقد ذكرنا مسألة وجوب نفقة الأقارب في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْوَالِدِ لَهُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ... وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾^(١) وقال أبو يوسف ومحمد مثل ما قال: أبو حنيفة أن علة المنع اتصال الأملاك وذلك في الولاد والزوجية غير أنه يجوز عندهما للزوجة دفع زكاتها إلى زوجها على خلاف القياس اتباعاً لحديث زينب امرأة ابن مسعود قالت: كنت في المسجد فرأيت النبي ﷺ قال: «تصدقن ولو من حليكن» وكانت زينب تنفق على عبد الله وأيتام في حجرها فقالت لعبد الله: سل رسول الله ﷺ أيجزىء عني أن أنفق عليك وعلى أيتام في حجري من الصدقة؟ قال: سلي أنت رسول الله ﷺ فانطلقت إلى رسول الله ﷺ فوجدت امرأة من الأنصار حاجتها مثل حاجتي، فمر علينا بلال فقلنا سل النبي ﷺ أيجزىء عني أن أتصدق على زوجي وأيتام في حجري وقلنا لا تخبرنا فدخل فسأله، فقال: من هما؟ قال: زينب، قال: أي الزيانب؟ قال: امرأة عبد الله، قال: «نعم لها أجران أجر القرابة وأجر الصدقة»^(٢) رواه البخاري ومسلم والنسائي والطحاوي وغيرهم، وفي رواية النسائي على أزواجنا وأيتام في حجورنا، وفي رواية للطيالسي أنهم بنو أخيها وبنو أختها، وللنسائي من طريق علقمة لأحدهما فضل مال وفي حجرها بنو أخ لها أيتام وللأخرى فضل مال ولها زوج خفيف ذات اليد، قالوا: أيجزىء عني يدل على أن الصدقة كانت واجبة لأن الأجزاء إنما يستعمل في الواجبة، وأجاب الحنفية بأن ذلك كان في الصدقة النافلة لأنها هي التي كان النبي ﷺ يتخول بالموعظة والحث عليها، وقولها يجزىء وإن كان في عرف الفقهاء الحادث لا يستعمل غالباً إلا في الواجب لكن في ألفاظهم لما هو أعم من الفضل لأنه بمعنى الكفاية فالمعنى هل يكفي للتصدق عليه في تحقق مسمى الصدقة وتحقيق مقصودها من التقرب إلى الله فسلم القياس من المعارضة، واحتج الطحاوي على هذا التأويل يعني أن الصدقة في الحديث صدقة التطوع بروايات أخرى.

روى الطحاوي بسنده عن رابطة بنت عبد الله امرأة ابن مسعود وكانت امرأة

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: الزكاة على الأقارب (١٤٦٢)، وأخرجه مسلم في كتاب:

الزكاة، باب: فضل النفقة والصدقة على الأقربين (١٠٠٠)، وأخرجه النسائي في كتاب: الزكاة، باب: الصدقة على الأقارب (٢٥٧٣).

صنعاء وليس لعبد الله بن مسعود مال وكانت تنفق عليه وعلى ولده منها، فقالت: لقد شغلني والله أنت وولدك عن الصدقة فما استطيع معكم بشيء، فقال: ما أحب إن لم يكن لك في ذلك أجر أن تفعلني، فسألت رسول الله ﷺ هي وهو فقالت: يا رسول الله ﷺ إنني امرأة ذات صنعة أبيع منها وليس لولدي ولا لزوجي شيء فيشغلوني ولا أتصدق فهل فيهم أجر؟ فقال: «في ذلك أجر ما أنفقت عليهم فأنفقي عليهم» قال: الطحاوي رابطة هذه هي زينب امرأة عبد الله إذ لا يعلم أن عبد الله كانت له امرأة غيرها في زمن رسول الله ﷺ، وروى الطحاوي بطريقين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ انصرف من الصبح يوماً فأتى على النساء في المسجد فقال: «يا معشر النساء ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب لعقول ذوي الألباب منكن وإني قد رأيت أنكن أكثر أهل النار يوم القيامة فتقربن إلى الله عز وجل بما استطعتن» وكانت في النساء امرأة ابن مسعود فانقلبت إلى ابن مسعود فأخبرته بما سمعت من رسول الله ﷺ وأخذت جلبابها، فقال: ابن مسعود: أين تذهبين بهذا الحلبي؟ فقالت: أتقرب به إلى الله عز وجل وإلى رسوله ﷺ لمعل الله لا يجعلني من أهل النار، قال: هلمي ويحك تصدقي به عليّ وعلى ولدي، فقالت: لا والله حتى أذهب به إلى رسول الله ﷺ الحديث، فقال: رسول الله ﷺ: «تصدقني به عليه وعلى بنيه فإنهم له موضع» وروى البخاري من حديث أبي سعيد الخدري قال: خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المصلى ثم انصرف فوعظ الناس وأمرهم بالصدقة فقال: «أيها الناس تصدقوا» فمر على النساء فقال: «يا معشر النساء تصدقن فإني أريتكن أكثر أهل النار» قلن: وبما يا رسول الله؟ قال: «تكثرن اللعن وتكفرن العشير» الحديث إلى أن قالت امرأة ابن مسعود: عندي حلبي فأردت أن أتصدق به فزعم ابن مسعود أنه وولده أحق من تصدقت به عليهم، قال: النبي ﷺ: «صدق ابن مسعود زوجك وولدك أحق من تصدقت به عليهم»^(١) قال: الطحاوي هذه الروايات تدل على كون الصدقة نافلة لأن في الحديث الأول كنت امرأة صنعاء أصنع بيدي فأبيع من ذلك صريح أنها لم تكن مالكة نصاب يجب فيه الزكاة والحديث الثاني يدل على أنها تصدقت بكل الحلبي وذلك من التطوع دون الزكاة ولأن الأحاديث الثلاثة تدل على جواز دفع صدقتها على ولدها، وقد أجمعوا على أنه لا يجوز للمرأة أن ينفق على ولدها من زكاتها، وأجاب الحافظ ابن حجر عن استدلال الطحاوي بأن إجماعهم على أنه لا يجوز للمرأة أن ينفق على ولدها من زكاتها ممنوع لأن المانع من إعطاء الزكاة عند الجمهور وجوب نفقة المعطى له على المعطي وإلا لا يلزمها

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: الزكاة على الأقارب (١٤٦٢).

نفقة ولدها مع وجود أبيه، وعن الاستدلال يتصدق كل الحلبي أن كل الحلبي يمكن أن يكون قدر الواجب الذي وجب إخراجه عليها، قلت: حمل أحاديث امرأة ابن مسعود على قصة واحدة تكلف والظاهر أنها قصتان بل قصص كذا قال: الحافظ لأن قصة خروج رسول الله ﷺ إلى المصلى في أضحي أو أفطر غير قصة ووعظه ﷺ بعد الانصراف من صلاة الصبح في المسجد، وقصة الإنفاق على أيتام بنو أخيها وأختها غير قصة إنفاقها على أولادها، وفي بعض الطرق قال: ابن مسعود تصدق عليّ وعلى أولادي وفي بعضها ما أحب إن لم يكن لك في ذلك أجرٌ أن تفعلني، وإذا فرضناها قصتان فالظاهر أن الرسول في أحدها عن الصدقة الواجبة إذ بعد العلم بالحكم في الصدقة التطوع لا يحتمل أن تسأل زينب عن رسول الله ﷺ في الصدقة التطوع مرة ثانية، وأيضاً إطلاق قوله ﷺ لها أجران في جواب قولها أيجزىء عني أن أتصدق على زوجي من غير فصل يدل على عموم أجزاء الصدقة والله أعلم.

ومن أسباب المزية الجوار عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجوار حتى ظننت أنه سيورثه»^(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وكذا روى أحمد والشيخان وأصحاب السنن عن عائشة، وقال رسول الله ﷺ: «إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك»^(٢) رواه مسلم عن أبي ذر.

ومنها شدة الحاجة لأجل العيال أو نحوها، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة أن تشبع كبداً جائعاً» رواه البيهقي في «شعب الإيمان»، ومنها سؤال السائل قال: الله تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾^(٣) وقال رسول الله ﷺ: «للسائل حق وإن جاء على فرس»^(٤) رواه أحمد وأبو داود وأيضاً بسند صحيح عن الحسين وأبو داود عن علي والطبراني عن الهرماس بن زيادة، وعن أم عبيد قالت: قال رسول الله ﷺ: «ردوا

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: الوصية بالجوار (٦٠٤٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: الوصية بالجوار والإحسان إليه (٢٦٢٥)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في حق الجوار (٥١٤٣)، وأخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في حق الجوار (١٩٤٩).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: الوصية بالجوار والإحسان إليه (٢٦٢٥).

(٣) سورة الضحى، الآية: ١٠.

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب: الزكاة، باب: حق السائل (١٦٦٤).

السائل ولو بظلف محرق»^(١) رواه مالك والنسائي ورواه الترمذي وأبو داود مرسلًا، وعن ابن عباس قال: قال: رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بشرّ الناس؟ رجل يسأل الله ولا يعطي به»^(٢) ومنها اليتيم والأسر قال: الله تعالى: ﴿مُسْتَضْرِبًا لَلطَّعَامِ عَلَىٰ حَبِيبٍ مِسْكِينًا وَنَيْمًا وَأَيْدِيًا﴾^(٣) وغيرها من أسباب المزية يعرف بالآيات والأحاديث.

وما رويت أن الأصناف كلها أصناف للفقراء يوافق رأي أبي حنيفة وأكثر الأئمة حيث شرطوا الفقر في جميع الأصناف، وقال الشافعي الأصناف الثمانية المذكورة كل منها مستحق للزكاة برأسها ولا يعتبر في جميعها الفقر بل يجوز أن يعطي للمؤلف والمكاتب والمديون والغازي وابن السبيل مع كونهم أغنياء، واحتج على ذلك بحديث عطاء بن يسار مرسلًا قال: قال: رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة لغازي في سبيل الله أو لعامل عليها أو لغارم أو لرجل اشتراها بماله أو لرجل كان له جار مسكين فتصدق على المسكين فأهدى المسكين للغني»^(٤) رواه مالك وأبو داود، قلت: في هذا الحديث اضطراب في السند والتمتن أما السند فاختلف على زيد بن أسلم فقبل عنه عن عطاء مرسلًا كما قال مالك في الموطأ وروى عنه أبو داود وقيل: عن زيد قال: حدثني الليث وقيل: عن زيد عن عطاء عن أبي سعيد ذكر الروايات أبو داود، وأما في المتن ففي الرواية المذكورة كما ذكرنا وفي رواية لأبي داود عن عمران البارقي عن عطية عن أبي سعيد قال: قال: رسول الله ﷺ: «لا يحل الصدقة لغني إلا في سبيل الله عز وجل أو ابن السبيل أو جار فقير تصدق عليه فهدى لك أو يدعوك» قال: ابن همام هذا الحديث قيل: لم يثبت ولو ثبت لم يقو قوة حديث معاذ فإنه رواه أصحاب الكتب الستة ولو قوي قوته ترجح حديث معاذ بأنه مانع وهذا مبيح مع أنه دخله التأويل عندهم حيث قيدوا بإباحة الأخذ للغازي بأن لا يكون له شيء في الديوان ولا أخذ من الفيء وهو أعم من ذلك وذلك يضعف الدلالة بالنسبة إلى ما لا يدخله التأويل.

وحديث زياد بن الحارث الصدائي قال: أتيت النبي ﷺ فبايعته فذكر حديثاً طويلاً

(١) أخرجه مالك في أبواب السير، باب: فضل المعروف والصدقة (٩٣٢)، وأخرجه النسائي في كتاب: الزكاة، باب: رد السائل (٢٥٥٥).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل الجهاد، باب: ما جاء أي الناس خير (١٦٥٧)، وأخرجه النسائي في كتاب: الزكاة، باب: من يسأل بالله عز وجل ولا يعطي به (٢٥٥٩).

(٣) سورة الإنسان، الآية: ٨.

(٤) أخرجه مالك في كتاب: الزكاة، باب: من تحل له الزكاة (٣٤٢)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الزكاة، باب: من يجوز له أخذ الصدقة وهو غني (١٦٣٤).

وفيه: «فأتاه رجل فقال: أعطني من الصدقة فقال: رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى لم يرضى بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها فجزأها ثمانية أجزاء فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك»^(١) رواه أبو داود، قلت: الحديث ضعيف لأنه من رواية عبد الله بن عمر بن غانم الإفريقي قال: الذهبي مجهول الحال واتهمه ابن حبان وشيخه عبد الرحمن بن زياد ضعفه ابن معين والنسائي وقال الدارقطني ليس بالقوي ووهاه أحمد بن حنبل.

وإذا كان المصرف الفقراء والأصناف الباقية أنواع منه فعلى هذا لا شبهة في جواز دفع جميع مال الزكاة إلى صنف واحد منها أو إلى شخص واحد، وكذا لو فرضناها أصنافاً مغايرة للفقراء وقال الشافعي لا يجوز صرفها إلى بعضهم مع وجود سائر الأصناف فعنده يجب استيعاب الأصناف إن قسم الإمام وهناك عامل وإلا فالقسمة على سبعة سوى العامل، وذكر البغوي أنه يقسم على ستة أصناف لأجل سقوط سهم المؤلفة فإن فقد بعضهم فعلى الموجودين، ويجب التسوية بين الأصناف في حصة كل صنف فإذا قسم الإمام استوعب من الزكاة الحاصلة عنده آحاد كل صنف وكذا يستوعب المالك إن انحصر المستحقون في البلد روفي بهم المال وإلا فيجب إعطاء ثلاثة إن وجد منهم ثلاثة أو أكثر فإن لم يجد من بعض الأصناف إلا واحد أصرف حصة ذلك الصنف إليه ما لم يخرج عن حد الاستحقاق، فإذا انتهت حاجته وفضل شيء رده إلى الباقيين ويجب التسوية بين الأصناف لا بين آحاد الصنف إلا أن يقسم الإمام فيحرم عليه التفصيل مع تساوي الحاجات، وقال الشافعي في «الأم» اللام في قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ للاستحقاق فقد ذكر الله سبحانه الاستحقاق لثمانية أصناف فوجب إعطاء كل صنف وذكر كل صنف بلفظ الجمع المحلي بلام الاستفراق فيجب استيعاب أفراد كل صنف إن أمكن ذلك بأن كان أفراد كل صنف منحصرة في البلد وكان المال يفي بهم وإن لم يكن الاستيعاب يصرف إلى ثلاثة لبقاء الجمعية على حالها، قلنا: لام التعريف في الآية ليست للاستفراق للإجماع على أنه لا يجب صرف كل صدقة على فقراء العالم وتخصيص الاستفراق بفقراء بلده أمر اختراعي وأيضاً إذا لم يمكن حصر فقراء البلد ولا يجب صرف الزكاة إلى جماعة أكثر من الثلاثة إجماعاً ولو كان اللام للاستفراق لوجب استيعاب الكل واستيعاب ما أمكن منهم مثلاً لو كان مائة درهم حصة كل صنف ولا يمكن حصر فقراء البلد فلا بد أن يجب الصرف إلى مائة فقير مثلاً لا الاقتصار على ثلاثة، فظهر أن اللام للجنس ولام الجنس

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الزكاة، باب: من يعطى من الصدقة وحد الغنى (١٦٢٩).

ينافي الجمعية فالمعنى يستحقها جنس الفقير أي فرد كان، ولو سلمنا أن الجمعية باق فمقابلة الجمع بالجمع يقتضي انقسام الآحاد على الآحاد وأيضاً كون لام الجر للاستحقاق ممنوع بل حقيقة اللام للاحتصاص والاختصاص أعم من الملك والاستحقاق وكونهم مصرفاً دون غيرهم.

ويدل على ما ذهبنا إليه الأحاديث والآثار منها ما رواه البيهقي والطبراني عن ابن عباس وابن أبي شيبه عن عمر: «في أي صنف وضعت أجزأك» وروى الطبراني عن عمر أنه كان يأخذ الفرض من الصدقة فيجعله في صنف واحد، قال: أبو عبيدة في كتاب الأموال، ومما يدل على صحة ذلك أن النبي ﷺ أتاه بعد ذلك مال فجعله في صنف واحد وهم المؤلفون قلوبهم أقرع بن حابس وعيينة بن حصين وعلقمة بن علاثة وزيد بن الجبل قسم فيهم الذوهمية التي بعثها معاذ من اليمن وإنما يؤخذ من أهل اليمن الصدقة ثم أتاه مال آخر فجعله في صنف آخر وهم الغارمون، فقال: لقبصة بن المخارق حين أتاه وقد تحمل حمالة: «يا قبصة أقم حتى يأتينا الصدقة فنأمر لك لها» قال: ابن همام ولم يرو عن غيرهم ما يخالفهم قولاً ولا فعلاً، قال: البيضاوي وعن عمر وحذيفة وابن عباس وغيرهم من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم جواز صرفها إلى صنف واحد وبه قال: الأئمة الثلاثة، واختاره بعض أصحابنا يعني الشافعية وبه كان يفتي شيخي ووالدي رحمه الله، على أن الآية بيان أن الصدقة لا يخرج منهم لا إيجاب قسمتها عليهم.

مسألة

لا يجوز دفع الزكاة إلى غني ليس من الأصناف المذكورة إجماعاً وأما الغني من الأصناف المذكورة فقد مر الخلاف فيه، واختلفوا في حد الغنى الذي لا يجوز له أخذ الزكاة؟ فقال: أبو حنيفة هو الذي يملك نصاباً من أي مال كان، وقال بعض العلماء من وجد ما يغديه ويعشيه لا يحل له الزكاة لقوله ﷺ: «من سأل وعنده ما يغنيه وإنما يستكثر من النار» وفي رواية: «من نار جهنم» فقالوا: يا رسول الله وما يغنيه؟ وفي رواية: «وما الغناء الذي لا ينبغي معه المسألة؟ قال: «قدر ما يغديه ويعشيه»^(١) رواه أبو داود من حديث سهيل بن حنظلة وصححه ابن حبان، وقال بعضهم: من ملك أربعين درهماً لا يحل له الزكاة لحديث أبي سعيد الخدري قال: قال: رسول الله ﷺ: «من سأل وله قيمة

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الزكاة، باب: من يعطى من الصدقة وحد الغنى (١٦٢٨).

أوقية فقد ألحف» فقلت ناقتي الياقوتة هي خير ن أوقية فرجعت فلم أسأله زاد هشام وكانت الأوقية على عهد رسول الله ﷺ أربعين درهماً^(١) رواه أبو داود النسائي، وحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال: رسول الله ﷺ: «من سأل وله أربعون درهماً فهو الملحف» وقال بعضهم: من ملك خمسين درهماً لم يحل له الصدقة وهي رواية عن أحمد وبه قال: إسحاق وأبو ثور لحديث ابن مسعود قال: قال: رسول الله ﷺ: «من سأل وله ما يغنيه جاء يوم القيامة وخموش أو خدوس أو كدوح في وجهه» فقيل: يا رسول الله ما الغنى؟ قال: «خمسون درهماً أو قيمتها من الذهب»^(٢) رواه أبو داود والنسائي وغيرهما والحديث ضعيف، والجواب أن ما ذكرتم من الأحاديث يدل على حرمة السؤال لمن يجد ما يغديه ويعشيه أو أربعين درهماً أو خمسين لا عدم جواز أخذ الزكاة بغير سؤال، ونحن نقول بأن من يجد ما يكفيخ في وقته لا يحل له السؤال لكن لو أعطاه أحد صدقة بلا سؤال جاز له أخذها لما في الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب قال: «كان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء فأقول أعطه من هو أفقر مني فقال: «خذه إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل فخذة ومالا فلا تتبعه نفسك»^(٣) فإن هذا الحديث يدل على أن عمر كان يجد ما يغديه وما يعشيه وإلا لكان هو أفقر الناس وقد أمره رسول الله ﷺ بأخذ الصدقة من غير سؤال، وقال مالك والشافعي وأحمد: الاعتبار في حرمة الزكاة بالكفاية فله أن يأخذ مع عدمها وإن كان له قنطار وليس له أن يأخذها مع وجودها وإن قل ماله فيكون الرجل غنياً بدرهم مع الكسب قد لا يغنيه ألف مع ضعفه وكثرة عياله، وذكر البغوي مذهب مالك والشافعي أن يكون عنده ما يكفيه وعياله سنة لحديث قبيصة بن مخارق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المسألة لا تحل إلا لثلاثة رجل تحمل حمالة قوم فسأل فيها حتى يؤديها ثم يمسك ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فسأل فيها حتى يصيب قواماً من عيش ثم يمسك، ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذبي الحجي من قومه لقد أصابت فلان فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش،

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الزكاة، باب: من يعطى من الصدقة وحد الغنى (١٦٢٧).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الزكاة، باب: من يعطى من الصدقة وحد الغنى (١٦٢٥)، وأخرجه النسائي في كتاب: الزكاة، باب: حد الغنى (٢٥٨٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: من أعطاه الله شيئاً من غير مسألة ولا إشراف نفس (١٤٧٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: إباحة الأخذ لمن أعطي من غير مسألة ولا إشراف نفس (١٠٤٥).

فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحت يأكلها صاحبها سحتاً^(١) رواه مسلم، وحديث حسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام قال: قال: رسول الله ﷺ: «للسائل حق وإن جاء على الفرس»^(٢) رواه أحمد وأبو داود وغيرهما، وجه الاحتجاج أن الحديث الأول يدل على أن إباحة السؤال ينتهي بأن يصيب قواماً من عيش وهو الكفاية فمن كان له نكايه ولو لم يكن له أربعون درهماً لا يحل له الصدقة، والحديث الثاني يدل على أن السائل وإن كان على فرس فله حق ولا شك أن ذلك مع الحاجة فظهر أن من كان له حاجة وكان له ما كان ألف درهم مثلاً جاز الإعطاء له، والجواب أن هذين الحديثين لا مساس لهما بالمدعي لأن الحديث الأول في إباحة السؤال وحرمة، وحاصله أن السؤال بلا حاجة حرام ومع الحاجة جائز فمن أصابته فاقة يسأل حتى يصيب قواماً من عيش، قلت: وذا بكفاية يوم وليلة كما في حديث سهيل بن حنظلة فإذا أصاب قواماً من عيش لا يحل له المسألة ويحل له الصدقة إن أعطي بلا سؤال لعموم قوله تعالى: ﴿الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ وأما الحديث الثاني ففي بيان حق السائل وقوله: «ولو جاء على الفرس» محمول على المبالغة وأيضاً الفرس قد يكون من حوائجه الأصلية إذا كان الرجل غازياً وقد يكون صاحب الفرس مديوناً وقد لا يبلغه فرسه نصاباً وبمثل هذه الدلالة مع ما ذكرنا من الاحتمالات لا يمكن أن يقال لجواز الإعطاء من الزكاة للغني مع النصوص القاطعة على منعه، قال: أبو حنيفة الغني من لا يكون له نصاباً فاضلاً عن حوائجه الأصلية لحديث معاذ: «تأخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم» فإنه يدل على أن من يرد عليه غير من يؤخذ منه فثبت أنه من يجب عليه الزكاة لا يجوز الدفع إليه غير أنه لا فرق في المال النامي وغير النامي في المنع عن دفع الزكاة إليه لما ثبت في حديث أبي سعيد وغيره أن الأوقية وما يكون على قيمته حكمهما سواء، وإنما الفرق بينهما في وجوب الزكاة لقوله عليه السلام: «ليس في العوامل ولا في الحوامل ولا في العلوفة صدقة»^(٣) فظهر أن الله سبحانه جعل القدرة الميسرة شرطاً لوجوب الزكاة، وإنما شرطنا في المنع من إعطاء الزكاة إليه كون النصاب فارغاً عن حوائجه الأصلية لأن النصاب المشغول بالحاجة كالمعدوم نظيره جواز التيمم

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: من تحل له المسألة (١٠٤٤).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الزكاة، باب: حق السائل (١٦٦٤).

(٣) أخرجه الدارقطني بعضه، قال ابن حبان في كتاب الضعفاء: ليس من كلام رسول الله ﷺ وإنما يعرف بإسناد منقطع فقلبه الصقر على أبي رجاء وهو يأتي بالمقلوبات، انظر نصب الراية الجزء الثاني/ كتاب الزكاة/ باب: صدقة السوائم.

مع وجود الماء المعد للعطش فجاز للمديون المالك للنصاب أخذ الزكاة إذا لم يكن نصابه فاضلاً عن دينه، وكذا الغازي وابن السبيل وفرس يركبه يبلغ نصاب أو عالم له كتب يحتاج إليها في المطالعة والتدريس أو رجل له بيت يبلغ نصاباً يسكنه وهذا محمل قوله ﷺ: «لا يحل الصدقة لغني إلا لخمسة الغازي في سبيل الله والغارم وابن السبيل» والله أعلم.

مسألة

الفقير إذا كان قادراً على الكفاية بالكسب يجوز دفع الزكاة إليه لعموم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْأَصْدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ وقال الشافعي وأحمد لا يجوز لحديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي»^(١) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم، ورواه أبو داود والترمذي والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص بسند حسن، ورواه الدارقطني في العلل وأبو يعلى عن طلحة، وحديث جابر قال: جاءت رسول الله ﷺ صدقة فركبه الناس فقال: «أيها الناس لا يصلح لغني ولا لصحيح سوي ولا لعامل قوي» رواه أحمد والدارقطني، وحديث عبيد الله بن عدي أن رجلين أخبراه أنهما أتيا رسول الله ﷺ يسألانه من الصدقة فقلب فيهما البصر ورأهما جليدين فقال: «إن شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب»^(٢) رواه أحمد وأبو داود والنسائي، وقال صاحب التنقيح: حديث صحيح وقال أحمد: ما أجوده من حديث هو أحسنها إسناداً، وفي الباب عن ابن عمر في كامل ابن عدي وعن حبشي بن جنادة في سنن الترمذي ورواه أحمد من طريق أبي زميل عن رجل من بني هلال به وعن عبد الرحمن في الطبراني، قلنا: قوله ﷺ: «إن شئتما أعطيتكما» صريح في أنه يجوز دفع الزكاة إلى فقير قوي وإلا لم يقل: إن شئتما أعطيتكما.

ولنا أيضاً حديث عمر بن الخطاب قال: كان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء فأقول

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الزكاة، باب: من لا تحل له الصدقة (٦٤٥)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الزكاة، باب: من يعطى من الصدقة وحد الغني (١٦٣٣)، وأخرجه النسائي في كتاب: الزكاة، باب: إذا لم يكن له درهم وكان له عدلها (٢٥٨٧)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزكاة، باب: من سأل عن ظهر غنى (١٨٣٩).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الزكاة، باب: من يعطى من الصدقة وحد الغني (١٦٣٢)، وأخرجه النسائي في كتاب: الزكاة، باب: مسألة القوي المكتسب (٢٥٨٨).

أعطه من هو أفقر إليه مني قال: «خذه إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل فخذهُ وما لا فلا تتبعه نفسك»^(١) متفق عليه من حديث سالم عن ابن عمر عنه وفي رواية لمسلم: «خذه فتموله وتصدق به» قال: سالم: فمن ذلك كان ابن عمر لا يسأل أحداً شيئاً ولا يرد شيئاً أعطيه. فإن قيل: إن عطية النبي ﷺ لعمر كان بسبب العمالة لا لأجل الفقر، ولذا قال: النبي ﷺ: «خذه فتموله وتصدق به» لما روى مسلم عن أبي حميد الساعدي أنه قال: استعملني عمر بن الخطاب على الصدقة فلما فرغت منها وأديتها إليه أمرني بعمالة فقلت: إنما عملت لله أجري على الله فقال: خذ ما أعطيت فإني عملت على عهد رسول الله ﷺ فعملني فقلت مثل قولك فقال: لي رسول الله ﷺ: «إذا أعطيت شيئاً من غير أن تسأل فكل وتصدق»^(٢) قلت: العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص الحادثة واللفظ عام «إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل فخذهُ» ومن تتبع الأحاديث ظهر له صراحة أو دلالة أن النبي ﷺ أعطى من سأل الصدقة وهو صحيح سوى، روى مسلم من حديث أنس قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه رداء نجراني غليظ الحاشية فأدركه أهرابي فجبذه برداءه جبذة شديدة نظرت إلى صفحة عنق رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت رسول الله ﷺ فضحك ثم أمر له بعطاء^(٣)، قال: الحافظ ابن حجر وأكثر أحاديث الباب شاهدة لذلك، وقلت وما ذكرنا من الأحاديث جملتها تدل على أن دفع الصدقة إلى فقير قوي يجوز سواء سأل الفقير أو لا يجوز له إن لم يكن بسؤال لكن يكره له السؤال الأخذ بالسؤال فنفي حل الصدقة في قوله ﷺ: «لا يحل الصدقة لذي مرة سوي» يرجع إلى نفي حل السؤال ونفي حل الصدقة التي تعطي بالسؤال والظاهر أن الأحاديث التي ينفي الحل وردت في حادثة السؤال والله أعلم.

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: من أعطاه الله شيئاً من غير مسألة ولا إشراف نفس (١٤٧٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: إباحة الأخذ لمن أعطي من غير مسألة ولا إشراف نفس (١٠٤٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: إباحة الأخذ لمن أعطي من غير مسألة ولا إشراف نفس (١٠٤٥).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: إعطاء من يسأل بفحش وغلظة (١٠٥٧).

الصدقة المفروضة وما روى البخاري وغيره قوله ﷺ: «لا نورث ما تركناه صدقة»^(١) وقد كان رسول الله ﷺ يعطي أهل بيته في حياته نفقة سنتهم وما بقي يجعله مال الله وكذلك كان أبو بكر وعمر وعلي وعباس بعد وفاة رسول الله ﷺ يعملون بما عمل رسول الله ﷺ وظهر أنه ليس كل صدقة علي بنى هاشم حراماً.

مسألة

لا يجوز للهاشمي أن يأخذ الزكاة من الهاشمي عند أكثر الأئمة وقال أبو يوسف جاز ذلك لأن الصدقة إنما حرم عليهم لأنها من أوساخ الناس، والمراد بالناس غيرهم فلا بأس لو أكلوا صدقات أنفسهم قلنا شرفهم يقتضي حرمة أوساخ الناس عليهم كلهم هاشمياً كان أو غيرهم.

مسألة

الذين يحرم عليهم الصدقة هم بنو هاشم خمسة بطون آل علي وعباس وجعفر وعقيل والحارث بن عبد المطلب عند أبي حنيفة ومالك، وقال الشافعي بنو المطلب أيضاً معهم حيث أشركهم النبي ﷺ في سهم ذوي القربى من الخمس كما ذكرنا من حديث جبير بن مطعم في مسائل الخمس.

مسألة

ويحرم الزكاة على مواليتهم عند أبي حنيفة ومحمد وهو الأصح من مذهب الشافعي ومالك، وقال بعضهم: لا يحرم على مواليتهم، وقال أبو يوسف: لا يصرف غير بني هاشم إلى مواليتهم لنا حديث أبي رافع أن النبي ﷺ بعث رجلاً من بني مخزوم على الصدقة فقال: لأبي رافع ألا تصحبني فتصيب منها، قال: فقلت حتى أذكر ذلك لرسول ﷺ فذكرت ذلك له فقال: «إنا آل محمد لا يحل لنا الصدقة وإن مولى القوم منهم»^(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم ورواه الطبراني من حديث ابن عباس واسم أبي رافع أرقم بن أبي الأرقم والله أعلم.

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فرض الخمس، باب: فرض الخمس (٣٠٩٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: قول النبي ﷺ «لا نورث» (١٧٥٩).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الزكاة، باب: الصدقة على بني هاشم (١٦٤٩)، وأخرجه النسائي في كتاب: الزكاة، باب: مولى القوم منهم (٢٦٠٢).

مسألة

يكره نقل الصدقة من بلد إلى بلد آخر لقوله ﷺ لمعاذ: «تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم» وحكي عن عمر بن عبد العزيز أنه رد صدقة حملت من خراسان إلى الشام إلى مكانها من خراسان قوله تعالى: ﴿فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ مصدر مؤكد لما دل عليه الآية أي: فرض لهم الصدقات فريضة أو حال من الضمير المستكن في الفقراء ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالمصلحة ﴿حَكِيمٌ﴾ في القسمة يضع الأشياء في مواضعها والله أعلم.

أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: اجتمع ناس من المنافقين فيهم خلاص بن سويد بن الصامت ومخش بن حمير ووديعة بن ثابت فأرادوا أن يقعوا في النبي ﷺ فنهى بعضهم بعضاً وقالوا: إنا نخاف أن يبلغ محمداً فيقع لكم فقال: بعضهم: إنما محمد أذن نحلف فيصدقنا، قال: الخلاص بل نقول: ما شئنا ثم نأتيه وننكر ما قلنا ونحلف فيصدقنا بما نقول فإنما محمد أذن فأنزل الله تعالى.

﴿وَمِنَهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾
يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضَوْهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾
أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾
يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن نَّزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا
إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ
قُلْ أَيَاللَّهِ وَعَآئِيهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْزِرُوا قَدَّ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن
نَعَفَ عَن طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نَعَذِّبُ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

﴿وَمِنَهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ أي يفتابونه ويتقولون حديثه ويقولون فيه ما لا ينبغي ﴿وَيَقُولُونَ﴾ إذا نهوا عن ذلك لئلا يبلغه ﷺ ﴿هُوَ﴾ يعني النبي ﷺ ﴿أُذُنٌ﴾ أي يسمع كل ما يقال له ويصدقه سمي بالجارحة للمبالغة كأنه من فرط استماعه صار جملته آلة للسمع كما يسمى الجاسوس عيناً أو تقديره ذو أذن سامعة أو يقال أذن مشتق فعل من أذن أدنا إذا استمع، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال: كان نبتل بن الحارث يأتي رسول الله ﷺ فيجلس إليه يسمع وينقل حديثه إلى المنافقين فأنزل الله هذه الآية، وقال

محمد بن إسحاق كان نبتل رجلاً أدلم ثائر الرأس أحمر العينين أسفع الخدين مشوه الخلق وقد قال: النبي ﷺ: «من أحب أن ينظر إلى الشيطان فينظر إلى هذا» وكان يتم حديث رسول الله ﷺ إلى المنافقين ف قيل له: لا تفعل فقال: إنما محمد أذن فمن حدثه شيئاً صدق، فنقول: ماشئنا ثم نأتيه ونحلف له فيصدقنا فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال الله تعالى في جوابهم ﴿قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ قرأ العامة بالإضافة وهو كقولك رجل صدق يريد الجودة والصلاح كأنه قيل: نعم هو أذن ولكن نَعَمْ الأذن هو أو المعنى أنه مستمع خير لكم وصلاح لا مستمع شر وفساد فيسمع عذر من اعتذر ولا يسمع الغيبة والنميمة ونحو ذلك، قال: رسول الله ﷺ: «المؤمن غر كريم والفاجر خب لثيم»^(١) رواه أبو داود والترمذي والحاكم وصححه عن أبي هريرة، ويجوز أن يريد هو أذن في الخير والحق وفيما يجب سماعه وقبوله وليس بإذن في غير ذلك، وقرأ الأعمش والبرحمي عن أبي بكر أذن خير مرفوعين منوفين على أن خير صفة أذن أو خبر ثان يعني أن يسمع منكم ويصدقكم خير لكم من أن يكذب قولكم ثم مدحه بقوله: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ﴾ أي: يصدق ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لمن يظهر الإيمان بناء على حسن الظن أو المعنى يصدق المؤمنين المخلصين دون المنافقين لكن يقبل أعتذارهم إعراضاً، عنهم عدى فعل الإيمان بالباء إلى الله لأنه قصد ضد الكفر وباللام إلى المؤمنين لأنه قصد به التصديق لهم ضد تكذيبهم ﴿وَرَحْمَةً﴾ قرأ حمزة بالجر عطفاً على خير يعني أذن خير ورحمة والباقون بالرفع عطفاً على أذن ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾ يعني لمن أظهر الإيمان حيث يقبله ولا يكشف سره، وفيه تنبيه على أنه ليس يقبل قولكم جهلاً بحالكم ترفقاً وترحمياً عليكم أو المعنى رحمة للذين آمنوا منكم مخلصين حيث استنقذهم من الكفر إلى الإيمان ويشفع لهم في الآخرة ويستنقذ من النار إلى الجنة ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لا يفيد لهم تسليم رسول الله ﷺ قولهم واعتذارهم، قال: مقاتل والكلبي: في رهط المنافقين تخلفوا عو غزوة تبوك فلما رجع رسول الله ﷺ أتوه يعتذرون ويحلفون فأنزل الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ على معاذيرهم فيما قالوا: وتخلفوا ﴿لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ﴾ عنهم الخطاب للمؤمنين ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ بالطاعة والإخلاص والضمير راجع إلى الله تعالى لأن إرضاء الله تعالى لا يتحقق بالإيمان الكاذبة بل بالطاعة والإخلاص فالتقدير والله أحق أن يرضوه والرسول كذلك، وقيل: الضمير راجع إلى كل منهما وإنما وحد الضمير لأنه لا تفاوت بين إرضاء

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في البخل (١٩٧١)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في حسن العشرة (٤٧٨٢).

الله ورضاء رسوله فكانهما في حكم شيء واحد، وقيل: الضمير راجع إلى الرسول ﷺ لأن الكلام في إيداء الرسول وإرضائه ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ صدقاً شرط حذف جزاءه لما يدل عليه السياق يعني إن كانوا مؤمنين صدقاً فليرضوا الله ورسوله بالطاعة والإخلاص لكنهم لم يرضوا الله ورسوله ولم يخلصوا إيمانهم ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ﴾ الضمير للشأن ﴿مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي يخالف الله ورسوله بالمعصية والتخلف عن الغزو بعد الاستنفار ومفاعلة من الحد بمعنى الجانب فإن المخالف لأحد يكون في جانب مغاير لجانبه ﴿فَأَنْتَ لَمْ تَأْرَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا﴾ على حذف الخبر أي: الحق أن له نار جهنم أو على تكرير أن للتأكيد، ويحتمل أن يكون معطوفاً على أنه ويكون الجواب محذوفاً تقديره من يحادد الله ورسوله يهلك ﴿ذَلِكَ﴾ أي: دخول النار والهلاك ﴿الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ هذه الآية في مقام التعليل لقوله: الله ورسوله أحق أن يرضوه فإن عدم إرضاء الله ومخالفته يفضي إلى النار دون عدم إرضاء غيره وما أحسن قول الشاعر:

ليتك تحلوا والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر وبينني وبين العالمين خراب

وذكر البغوي قول قتادة والسدي أن قوله تعالى: ﴿يَخْلِفُونَكَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ﴾ نزلت في جماعة من المنافقين فيهم خلاص بن سويد وقعوا في النبي ﷺ وقالوا: إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن شر من الحمير، وذكر عامر بن قيس رضي الله عنه هذه المقالة عند رسول الله ﷺ، وسنذكر القصة فيما بعد إن شاء الله ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ﴾ يعني المؤمنين ﴿بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي قلوب المنافقين من الحسد والعداوة للمؤمنين ويهتك عليهم استارهم، ويجوز أن يكون الضمائر للمنافقين فإن النازل فيهم كالنازل عليهم من حيث إنه مقرو ومحتج به عليهم قال: البغوي كانوا يقولون فيما بينهم ويسترون ويخافون الفضيحة بنول القرآن في شأنهم وذلك يدل على أنهم كانوا مترددين في أمر الرسول ﷺ ويحذرون الفضيحة على تقدير صدقه عليه السلام، وقيل: إنه خبر بمعنى الأمر والمعنى ليحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة وقيل: كانوا يقولون ذلك فيما بينهم استهزاء لقوله تعالى: ﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا﴾ أمر تهديد ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ﴾ أي: مظهر ﴿مَا تَحْذَرُونَ﴾ أي: ما تحذرونه من إنزال السورة فيكم أو تحذرون إظهاره من مساوئكم قال: ابن عباس رضي الله عنهما أنزل الله تعالى ذكر سبعين رجلاً من المنافقين بأسمائهم وأسماء آبائهم ثم نسخ ذكر الأسماء رحمة على المؤمنين لئلا يعير بعضهم بعضاً لأن أولادهم كانوا مؤمنين قال: البغوي: نزلت هذه الآية في اثني عشر رجلاً من المنافقين،

وقفوا لرسول الله ﷺ على العقبة لما رجع من غزوة تبوك ليفتكوا به إذا علاها فأخبر جبرئيل رسول الله ﷺ.

قصة: ذلك ما روى أحمد عن أبي الطفيل والبيهقي عن حذيفة ابن سعد عن جبير بن مطعم رضي الله عنهم وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك والبيهقي عن عروة وعن ابن إسحاق ومحمد بن عمر عن شيوخه، أن رسول الله ﷺ ببعض الطريق مكر به ناس من المنافقين وانتمروا بينهم أن يطرحوه من عقبة في الطريق، وفي رواية أجمعوا أن يقتلوه فجعلوا يلتمسون غرته فلما أراد رسول الله ﷺ أن يسلك العقبة أرادوا أن يسلكوها معه، قالوا: إذا أخذ في العقبة رفعناه عن راحلته في الوادي فأخبر الله تعالى رسوله بمكرهم، فلما بلغ رسول الله ﷺ تلك العقبة نادى مناديه للناس أن رسول الله ﷺ أخذ للعقبة فلا يأخذها واحد واسلكوا بطن الوادي فإنه أسهل لكم وأوسع فسلك الناس بطن الوادي إلا نفر الذين مكروا برسول الله ﷺ لما سمعوا ذلك استعدوا وتلثموا وسلك رسول الله ﷺ العقبة وأمر عمار بن ياسر أن يأخذ بزمام الناقة ويقودها وأمر حذيفة بن اليمان أن يسوق من خلفه، فبينما رسول الله ﷺ يسير في العقبة إذ سمع جس القوم فدعسوه فنفروا ناقة رسول الله ﷺ حتى سقط بعض متاعه وكان حمزة بن عمرو الأسلمي لحق برسول الله ﷺ بالعقبة وكانت ليلة مظلمة، قال: حمزة فتور لي في أصابعي الخمس وأضأت حتى كنا نجمع ما سقط السوط والحبل وأشبائهما وأمر حذيفة أن يردهم فرجع حذيفة إليهم وقد رأى غضب رسول الله ﷺ ومعه محجن فجعل يضرب وجوه رواحلهم، وقال: إليكم إليكم يا أعداء الله، فعلم القوم أن رسول الله ﷺ قد اطلع على مكرهم فانحطوا من العقبة مسرعين حتى خالطوا الناس وأقبل حذيفة حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: اضرب الراحلة يا حذيفة وامش أنت يا عمار» فأسرعوا حتى استويا بأعلاها وخرج رسول الله ﷺ من العقبة ينتظر الناس، وقال لحذيفة هل عرفت أحداً من أولئك الذين رددتهم قال: يا رسول الله قد عرفت رواحلهم كان القوم متلثمين فلم أبصرهم من أجل ظلمة الليل، قال: هل علمتم ما كان من شأنهم وما أرادوا؟ قالوا: لا والله يا رسول الله، قال: فإنهم مكروا ليسيروا معي فإذا طلعت العقبة دعوني فطرحوني منها أن الله تعالى قد أخبرني بأسمائهم وأسماء آبائهم وسأخبركم بهم إن شاء الله تعالى.

قال: أفلا تأمرهم يا رسول الله إذا جاءك الناس أن تضرب أعناقهم، قال: أكره أن يتحدث الناس ويقولوا إن محمداً قد وضع يده في أصحابه، وذكر البغوي بلفظ أكره أن يقول العرب لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم بل يكفيننا بالدبيلة فسامهم لهما ثم قال:

اكتماهم، فلما أصبح رسول الله ﷺ قال: له أسيد بن الخضير يا رسول الله ما منعك البارحة من سلوك الوادي فقد كان أسهل من العقبة فقال: «يا أبا يحيى أتدري ما أراد بي المنافقون وما هموا به؟ قالوا: لتبعه في العقبة فإذا أظلم الليل عليه قطعوا راحلتي وتحسوها حتى كادوا يطرحوني عن راحلتي»، قال: أسيد: يا رسول الله ﷺ قد اجتمع الناس ونزلوا فمر كل بطن أن يقتل الرجل الذي هم بهذا فيكون الرجل في عشيرته هو الذي يقتله وإن أحببت والذي بعثك بالحق فنبثني فلا أبرح حتى آتيك برؤوسهم، قال: يا أسيد: «إني أكره أن يقول الناس إن محمداً لما انقطعت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده في قتل أصحابه»، فقال: يا رسول الله ليسوا بأصحاب، فقال: رسول الله ﷺ: «أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله، قال: بلى ولا شهادة لهم، قال: فعديت عن قتل أولئك.

قال ابن إسحاق فلما أصبح رسول الله ﷺ قال: لحذيفة أدع عبد الله بن سعد بن أبي السرح وأبا حاضر الأعرابي وعامر أبا عامر والحلاس بن سويد بن الصامت وهو الذي قال: لانتهبي حتى نرمي محمداً من العقبة الليلة، ولئن كان محمد وأصحابه خيراً منا إنا إذا لغنم وهو الراعي ولا عقل لنا وهو العاقل وأمره أن يدعوا مجمع بن حارثة ومليح التيمي وهو الذي سرق طيب الكعبة وارتد عن الإسلام، فانطلق هارباً في الأرض فلا يدري أين ذهب وأمره أن يدعوا حيصر بن نمير الذي أغار على تمر الصدقة فسرقه، فقال: له رسول الله ﷺ ويحك ما حملك على هذا؟ قال: حملني عليه إني أظن أن الله لا يطلعك عليه فأما إذا أطلعك الله عليه فإني أشهد اليوم أنك لرسول الله ﷺ وإني لم أو من بك قبل الساعة، فعفا عنه رسول الله ﷺ بقوله الذي قال: وأمر حذيفة أن يأتيه بطعمة ابن أبيرق وعبد الله بن عيينة وهو الذي قال: لأصحابه أسهروا هذه الليلة تسلموا الدهر كله فوالله ما لكم أمر دون أن يقتلوا هذا الرجل، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: ويحك ما كان ينفعك من قتلي لو أنني قتلت، فقال: عدو الله يا نبي الله والله ما نزلك بخيره ما أعطاك الله النصر على عدوك إنما نحن بالله وبك فتركه رسول الله ﷺ، وقال لحذيفة أدع مرة بن الربيع وهو الذي ضرب بيده على عاتق عبد الله بن أبي ثم قال: تمطي أو قال: تمطي والنعيم لنا من بعده كائن تقتل الواحد المفرد فيكون الناس عامة عامة بقتله مطمئنين فدعاه رسول الله ﷺ، فقال: ويحك ما حملك أن تقول الذي قلت فقال: يا رسول الله إن كنت قلت شيئاً من ذلك إنك العالم به وما قلت شيئاً من ذلك، فجمعهم رسول الله ﷺ وهم اثني عشر رجلاً الذين حاربوا الله ورسوله ﷺ وأرادوا قتله فأخبرهم رسول الله ﷺ بقولهم

ومنطقهم وسرهم وعلايتهم واطلع الله نبيه ﷺ على ذلك بعلمه وذلك قوله تعالى: ﴿وَهُمْ أَوْفَاءُ بِمَا لَزِمُوا﴾.

ومات الاثنا عشر منافقين محاربين الله ورسوله ﷺ، قال: حذيفة: فيما رواه البيهقي ودعا عليهم رسول الله ﷺ فقال: «اللهم ارمهم بالديلة» قال: شهاب: من نار يقع على نياط قلب أحزهم فيهلك، وروى مسلم عنه أن رسول الله ﷺ قال: «في أصحابي اثنا عشر رجلاً منافقاً لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ثمانية تكفيهم الدبيلة سراج من نار يظهر بين أكتافهم حتى ينجم من صدورهم»^(١) قال: البيهقي: وروينا عن حذيفة أنهم كانوا أربعة عشر أو خمسة عشر وهذه القصة وقعت في مرجعه ﷺ من تبوك إلى المدينة قال له تعالى: ﴿وَلَكِنَّ سَاءَ لِمَنْ يَكْتُمُونَ﴾ لام قسم أي: والله لئن سألتهم عن استهزائهم بك رب القرآن وهم سائرون معك في غزوة تبوك ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ يعني قل ذلك توبيخاً على استهزائهم بمن لا يصح الاستهزاء وإلزاماً للحجة عليهم ولا تصبا باعتذارهم الكاذب فجعلوا كأنهم معترفون باستهزائهم حتى ونجوا بأخطائهم الاستهزاء حيث جعل المستهزىء به يلي حرف التقرير وذلك يكون بعد ثبوت الاستهزاء كذا قالوا، قلت: قولهم إنما كنا نخوض ونلعب إقرار منهم بالاستهزاء ومعناه كنا نقول ما يفهم منه الاستهزاء لقطع مسافة الطريق على سبيل اللعب لا على قصد الاستهزاء.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر قال: قال: رجل في غزوة تبوك في مجلس ما رأينا مثل قرابتنا هؤلاء لا أرغب بطوناً ولا أكذب السنة ولا أجبن عند اللقاء، فقال: له رجل كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله ﷺ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن، قال: ابن عمرو أنا رأيت متعلقاً بحقب ناقة رسول الله ﷺ والحجارة تنكيه وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب ورسول الله ﷺ يقول: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون، ثم أخرجه من وجه آخر عن ابن عمر نحوه وسمى الرجل عبد الله بن أبي كذا ذكر البغوي عن عمر رضي الله عنه، وأخرج ابن جرير عن قتادة أن ناساً من المنافقين قالوا: في غزوة تبوك يرجوا هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها هيهات فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك فأتاهم فقال: قلتم كذا وكذا قالوا: إنما كنا نخوض ونلعب فنزلت، قال: البغوي: سبب نزول هذه الآية على ما قال: الكلبي ومقاتل وفتادة أن النبي ﷺ كان يسير في غزوة تبوك

(١) أخرجه مسلم في أول كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم (٢٧٧٩).

وبين يديه ثلاثة نفر من المنافقين اثنان يستهزاءان بالقرآن والرسول ﷺ والثالث يضحك، قيل: كانوا يقولون أن محمداً يزعم أنه نزل في أصحابنا المقيمين في لمدينته قرآن وإنما هو قوله وكلامه فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك فقال: احبسوا عليّ الركب فدعاهم فقال: لهم: قلتم كذا أو كذا فقالوا إنما كنا نخوض ونلعب أي: كنا يتحدث ونخوض في الكلام كما يفعل الركب يقطع الطريق بالحديث واللعب، وهذه القصة وقعت في رواحه ﷺ من المدينة إلى تبوك. وقال محمد بن إسحاق ومحمد بن عمر كان رهط المنافقين يسرون مع رسول الله ﷺ إلى تبوك لم يخرجوا الأرجاء الغنيمة منهم وديعة بن ثابت أخو بني عمرو بن عوف والجلال بن الصامت ومخشي بن حمير من أشجع حليف لبني سلمة زاد محمد بن عمرو ثعلبة بن حاطب فقال: بعضهم بعضاً مكاني بكم غداً مقرنين في الجبال أرجافاً برسول الله ﷺ وترحيباً للمؤمنين، وقال بن عمر وكان زوج أم عمير وكان ابنها عمير في حجره والله لئن كان محمد صادقاً لنحن شر من الحمير فقال: عمير: وأنت شر من الحمير ورسول الله الصادق وأنت الكاذب، فقال: مخشي بن حمير: والله لو ددت أني أقاضي على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة وإنما ننقلب من أن ينزل فينا قرآن لمقاتلكم هذه، فقال: رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فاسألهم عما قالوا: فإن أنكروا فقل: بلى قلتم كذا وكذا فانطلق عمار إليهم فقال: لهم ذلك فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، فقال: وديعة بن ثابت وقد أخذ حقب ناقة رسول الله ﷺ ورجلاه تنسفان الحجارة ورسول الله ﷺ على ناقته وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب فأنزل الله فيهم: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٥﴾﴾ ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ أي: لا تستغلوا باعتذراتكم الكاذبة فإنها معلومة الكذب ﴿فَدَكَّرْتُمْ﴾ أي: أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول والطعن فيه ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي: إظهاركم الإيمان ﴿إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ﴾ لتوبتهم وإخلاصهم، قال: محمد بن إسحاق الذي عفى عنه رجل واحد وهو مخشي بن حمير الأشجعي فقال: هو الذي كان يضحك ولا يخوض وكان يمشي بجانبهم وينكر بعض ما يسمع فلما نزلت هذه الآيات تاب من نفاقه، قال: اللهم لا أزال أسمع آية تقر بها عيني وتقشع منها الجلود وتجيب منها القلوب اللهم اجعل وفاتي قتلاً في سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا دفنت، فأصيب يوم اليمامة أحد من المسلمين إلا عرف مصرعه غيره، وقال مخشي يا رسول الله فعدي اسمي واسم أبي فسماه رسول الله ﷺ عبد الرحمن أو عبد الله ﴿نَعَدْتُ طَائِفَةً﴾ قرأ عاصم نعف بفتح النون وضم الفاء ونعذب بضم النون وكسر الذاًل على صيغة المتكلم المبني للفاعل وطائفة

بالنصب، والباقون بالياء المضمومة وفتح الفاء في الأول وبالتاء الفوقانية وفتح الذال في الثاني على صيغة الغائب المبني للمفعول وطائفة بالرفع ﴿يَأْتِيهِمْ كَأَنُورًا مُّجْرِمِينَ﴾ بالإصرار على النفاق وإيذاء الرسول والاستهزاء.

﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكٰفِرَ نَارَ جَهَنَّمَ خٰلِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خٰضُوا أَوْلٰئِكَ حٰطَتِ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَوْلٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرٰهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلٰكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ جنس ﴿بَعْضٍ﴾ في الشرك والنفاق والبعد عن الإيمان، وفيه تكذيب لحلفهم بالله أنهم لمنكم وتقرير لقوله وما هم منكم وما بعده كالدليل عليه فإنه يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين وتشابه حال بعضهم لبعض ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾ أي: بالشرك والمعصية ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ أي: عن الإيمان والطاعة يقولون لا تفروا في الحر ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن الإنفاق في سبيل الله وقبض اليد كناية عن الشح ﴿أَيْدِيَهُمْ اللَّهُ﴾ كأنهم لا يعلمون لهم خالقاً يسألهم عما يفعلون وغفلوا عن ذكره وتركوا طاعته ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ فتركهم الله من توفيقه وهداية في الدنيا ورحمته في الآخرة وتركهم في عذابه، ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفٰسِقُونَ﴾ الخارجون عن دائرة الإيمان والطاعة بالكلية ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكٰفِرَ نَارَ جَهَنَّمَ خٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مقدرة الخلود ﴿هِيَ﴾ أي: النار ﴿حَسْبُهُمْ﴾ عقاباً وجزاء على كفرهم ونفاقهم أن يعذبوا في الدنيا فيه دليل على عظم عذابها وأنه بحيث لا يزداد عليه ﴿وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ﴾ وأبعدهم من رحمة وإهانهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم لا يقطع، والمراد به ما وعدهم في الآخرة أو ما معهم في الدنيا وهو ما يقاسونه من تعب النفاق والظاهر المخالف للباطن خوفاً من المسلمين وما يحذرونه أبداً من الفضيحة ونزول العذاب إن اطلع على أسرارهم ﴿كَالَّذِينَ مِنْ

قَبْلِكُمْ ﴿ الكاف محلها رفع خبر لمبتدأ محذوف، أي: أنتم أيها المنافقون مثل الذين كانوا من قبلكم من كفار الأمم الماضية أو نصب على المصدرية تقديره تعلمتم أيها المنقون فعلاً مثل فعل الذين كانوا من قبلكم من العدول عن أمر الله فلعنتم كما لعنوا ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً ﴾ بطشاً ومنعة ﴿ وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا ﴾ بيان لتشبههم بهم وتمثيل حالهم بحالهم، ﴿ فَأَسْتَمْتَعُوا ﴾ يعني فتمتعوا أو انتفعوا ﴿ بِمَخْلَقِهِمْ ﴾ أي: بنصيبهم من الدنيا ولذاتها واشتقاقه من الخلق بمعنى التقدير فإن الخالاقات قدر لصاحبه ﴿ فَأَسْتَمْتَعْتُمْ ﴾ أيها المنافقون ﴿ بِمَخْلَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِمَخْلَقِهِمْ ﴾ ذم الأولين باستمتاعهم بالخطوط الدنيا الفانية الغير المرضية لله تعالى معرضين عن تحصيل لذائر الباقية القوية المرضية تمهيداً للذم المخاطبين بمشابهتهم واقتفاء آثارهم ﴿ وَخُضْتُمْ ﴾ أي: دخلتم في الباطل واللغو ﴿ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ يعني كالخوض الذي خاضوا أو كالفوج الذي خاضوا ﴿ وَأُولَئِكَ حَبِطَتِ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ لم يستحقوا عليها ثواباً في الدارين ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ الذي خسروا الدنيا والآخرة يعني كما حبطت أعمالهم وخسروا كذلك حبطت أعمالكم وخسرتم، عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «التبعن سنن الذين من قبلكم شبراً شبراً وذراعاً ذراعاً حتى لو دخلوا جحر ضب بتعتموهم قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن»^(١).

وفي رواية أبي هريرة: «فهل الناس إلا هم» رواه البخاري، وروى الحاكم عن ابن عباس عنه ﷺ: «التركبن سنن من قبلكم شبراً شبراً بذراعاً حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلتم ولو أن أحدهم جامع امرأته بالطريق لفعلموه» قال: البغوي، قال: ابن مسعود: أنتم أشبه الأمم ببني إسرائيل سمناً وهدياً تتبعون عملهم حذوا لعدة بالعدة غير إنني لا أدري اتعبدون العجل أم لا قوله: ﴿ أَلَمْ يَأْتِيهِمْ ﴾ يعني لمنافقين التفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أنهم عصوا رسلنا وخالفوا أمرنا فعذبناهم وأهلكناهم ثم ذكرهم فقال: ﴿ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ مع ما عطف عليه بدل من الموصول يعني أهلكوا: بالطوفان لكفرهم ﴿ وَعَادٍ ﴾ أهلكوا بالريح ﴿ وَثَمُودَ ﴾ أهلكوا بالرجفة ﴿ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ بسبب النعمة وإهلاك نمرود بنملة وإهلاك أصحابه ﴿ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ ﴾ قوم شعيب أهلكوا بالنار يوم الظلة ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ ﴾ قريات قوم لوط أيتفكت بهم أي انقلبت فصار

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٤٥٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: العلم، باب: اتباع سن اليهود والنصارى (٢٦٦٩).

عاليها سافلها وأمطروا حجارة من سجيل ﴿أَنْتَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات الظاهرة فكذبوهم، فأهلكوا ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي: لم يكن عادة الله أن يعذبهم بلا جرم منهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث كذبوا الرسل وعصوهم كما فعلتم فأخذناهم بالعذاب فاحذروا أن ينزل بكم مثل ما نزل بهم.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٦﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٧﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرُ الْمَصِيرُ ﴿٧٨﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَتُمُوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا بِكَ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَوُوا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٩﴾﴾

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يؤيد بعضهم بعضاً في طاعة الله وإعلاء دينه ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان والطاعة ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ عن الشرك والنفاق ومعصية الرسول واتباع الشهوات ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في كل ما أمروا به ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ لا محالة فإن السين مؤكدة للوقوع ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب على كل شيء لا يمتنع عنه أمر ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ﴾ يطيب فيها العيش أو يستطيعها النفس ﴿فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ قيل: معناه إقامة وخلود يقال: عدن بالمكان إذا قام به، قال: صاحب المدارك عدن علم بدليل قوله تعالى: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾^(١) وقد عرفت أن كلمة الذي والتي وضعتا لوصفت المعارف بالجمل فهي مدينة في الجنة، قلت: يؤيد كونه علماً ما أخرج ابن المبارك والطبراني وأبو الشيخ عن عمران بن حصين

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٤٥٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: العلم، باب: اتباع سن اليهود والنصارى (٢٦٦٩).

وأبي هريرة رضي الله عنهما قال: سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿وَمَسْكِنَ طَيْبَةً فِي جَنَّتِ عَدْنٍ﴾ قال: «قصر من لؤلؤ في ذلك القصر سبعون داراً من ياقوتة حمراء في كل دار سبعون بيتاً من زمرد خضراء وفي كل بيت سرير على كل سرير سبعون فراشاً من كل لون على كل فراش زوجة من الحور العين في كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لونا من الطعام في كل بيت سبعون وصيفاً ووصيفة ويعطي المؤمن كل غداة من القوة ما يأتي على ذلك كله أجمع» وأخرج أبو الشيخ في كتاب العظمة عن ابن عمر قال: خلق الله تبارك وتعالى أربعاً بيده العرش وعدن والقلم وآدم ثم قال: لكل شيء كن فكان، وأخرج البزار وابن جرير والدارقطني في «المؤتلف والمختلف» وابن مردويه من حديث أبي الدرداء قوله ﷺ: «عدن دار الله التي لن ترها عين لم يخطر على قلب بشر لا يسكنها غير ثلاثة النبيين والصديقين والشهداء يقول الله طوبى لمن دخلك».

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتان من فضة أنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب أنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»^(١) وأخرج أحمد والطيالسي والبيهقي هذا الحديث لفظ: «جنت الفردوس أربع جنتان من ذهب» الحديث، قال: البيهقي في قوله رداء الكبرياء استتاره بصفة الكبرياء والعظمة لأنه لكبرياءه وعظمته لا يراه أحد من خلقه إلا بإذنه، قال: البغوي قال: ابن مسعود هي يعني جنت عدن بطنان الجنة أي: وسطها، وقال عبد الله بن عمرو بن عمرو بن العاص إن في الجنة قصر يقال له عدن حوله البروج والمروج له خمسة آلاف باب لا يدخله إلا النبي أو صديق أو شهيد، وقال الحسن قصر من ذهب لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد أو حكم عدل وقال عطاء بن السائب عدن نهر في الجنة جنانه على حافته، وقال مقاتل والكلبي: عدن أعلى درجة في الجنة وفيها عين التسنيم والجنان حولها محدقة بها وهي مغطاة من حين خلقها الله تعالى حتى ينزلها أهلها الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون ومن شاء الله تعالى فيها قصور الدر والياقوت والذهب فتهب ريح طيبة من تحت العرش فيدخل عليهم كئائب المسك الأبيض، قال: القرطبي قيل: الجنان سع دار الخلد ودار الجلال ودار السلام وجنة عدن وجنة المال وجنة الفردوس، وقيل: أربع فقط لحديث أبي موسى فإنه يذكر فيه سوى أربع

(١) أخرجه البخاري في كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله تعالى: ﴿ومن دونهما جنتان﴾ (٤٨٧٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان باب: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (١٨٠).

كلها يوصف بالمأوى وخلد وعدن والسلام وهذا أما اختاره الحكيم، فقال: إن الجنتين للمقربين والجنتين الأخرين لأصحاب اليمين وفي كل جنة درجات ومنازل وأبواب ومرجع العطف في الآية يحتمل أن يكون إلى تعدد الموعود لكل واحد أو للجميع على سبيل التوزيع أو إلى تغاير وصفه كأنه وصفه أولاً بأنه من جنس ما هو بهي الأماكن يعرفونها ليميل إليه طباعهم أول ما يقرع أسماعهم ثم وصفه بأنه محفوظ بطيب العيش معرى عن شوائب الكدورات التي لا يخلوا عن شيء منها أماكن الدنيا وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، ثم وصفه بأنه دار إقامة وثبات في جوار العليين لا يعترهم فيها فناء ولا تغير ثم وعدهم بما هو أكبر من ذلك، فقال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: شيء من رضوان الله ﴿أَكْبَرُ﴾ نعمة من سائر النعم في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال: قال: رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون: لبيك ربنا وسعديك فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فقال: أنا أعطيتكم أفضل من ذلك قالوا: وما أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً»^(١) وأخرج الطبراني في «الأوسط» وصححه عن جابر يرفعه إذا دخل أهل الجنة الجنة قال: الله تعالى: هل تسألون شيئاً فأزيدكم؟ قالوا: يا ربنا فما خير مما أعطيتنا؟ قال: رضوان من الله أكبر ﴿ذَلِكَ﴾ الرضوان أو جميع ما تقدم ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي يستحقه دونه ما سواه ﴿يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ جَهْدَ الْكُفَّارِ﴾ بالسيف ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾ قال: ابن عباس والضحاك يعني باللسان وترك الرفق وتغليظ الكلام، وقال الحسن وقتادة: بإقامته الحدود، وقال ابن مسعود: يجاهدكم بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلمه وقال: لا يلقي المنافق إلا بوجه مكفهر ﴿وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَهَنَّمَ وَنَسَّ الْمَعِيرُ﴾ هي قال: عطاء نسخت هذه الآية كل شيء من العفو والصفح والله تعالى أعلم.

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة فقال: إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعينين شيطان فطلع رجل أزرق فدعاه رسول الله ﷺ فقال: علام تشمني أنت وأصحابك؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا: حتى تجاوز عنهم فأنزل الله تعالى: ﴿يَخْلِفُونَكُ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار (٦٥٤٩)، وؤخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: إحلال الرضوان على أهل الجنة (٢٨٢٩).

عباس قال: كان الجلاس بن سويد بن الصامت ممن تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك وقال: لئن كان هذا الرجل صادقاً لنحن شر من الحمير فرفع عمير بن سعد ذلك إلى رسول الله ﷺ فحلف بالله ما قلت فأنزل هذه الآية فزعموا أنه تاب وحسنت توبته، ثم أخرج عن كعب بن مالك نحوه وكذا أخرج ابن إسحاق عنه وأخرج ابن سعد في الطبقات نحوه عن عروة، وكذا ذكر البغوي قول الكلبي قال: نزلت في جلاس بن سويد وذلك أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم بتبوك فذكر المنافقين فسماهم رجساً وعابهم فقال: جلاس: لئن محمد صادقاً لنحن شر من الحمير فسمعه عامر بن قيس فقال: أجل إن محمداً ﷺ لصادق وأنتم شر من الحمير فلما انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه عامر بن قيس فأخبره بما قال: الجلاس فقال: الجلاس: كذب يا رسول الله عليّ، فأمرهما رسول الله ﷺ أن يحلفا عند المنبر فقام الجلاس عند المنبر بعد العصر فحلف بالله الذي لا إله إلا هو ما قاله ولقد كذب عليّ عامر ثم قام عامر فحلف بالله الذي لا إله إلا هو لقد قاله وما كذبت عليه، ثم رفع عامر يديه إلى السماء وقال: اللهم أنزل على نبيك لصادق منا الصدق، فقال: رسول الله ﷺ والمؤمنون آمين فنزل جبرئيل عليه السلام قبل أن يتفرقا بهذه الآية حتى بلغ ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا بِكَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ فقام الجلاس فقال: يا رسول الله أسمع الله قد عرض عليّ التوبة صدق عامر بن قيس فيما قاله لقد قلته وأنا أستغفر الله وأتوب إليه فقبل رسول الله ﷺ ذلك منه ثم تاب وحسنت توبته.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك، قال: سمع زيد بن أرقم رجلاً من المنافقين يقول والنبي ﷺ يخطب إن كان هذا صادقاً لنحن شر من الحمير فرفع ذلك إلى النبي ﷺ فجدد القائل فأنزل الله هذه الآية، وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلين أحدهما من جهينة والآخر من غفار وكانت جهينة حلفاء الأنصار وظهر الغفاري على الجهني، فقال: عبد الله بن أبي الأوس انصروا أخاكم فوالله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال: القائل:

سَمَّنَ كَلْبِكَ يَأْكُلُكَ

لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرز منها الأذل فسعى رجل من المسلمين إلى رسول الله ﷺ فأرسل إليه فسأله فجعل يحلف بالله ما قال: فأنزل الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ الآية، وهذه قصة غزوة بني المصطلق وقد ذكرنا القصة في سورة المنافقين ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ قيل: هي سب النبي ﷺ، وقيل: هي قول الجلاس لئن كان محمد صادقاً لنحن شر الحمير. وقيل: قولهم لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرز منها

الأذل ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ أي: أظهروا الكفر بعدما أظهروا الإسلام ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ قيل: هم اثنا عشر رجلاً من المنافقين وقفوا على العقبة في طريق تبوك ليفتكوا برسول الله ﷺ فجاء جبرئيل وأمره أن يرسل إليهم من يضرب رواحلهم فأرسل حذيفة لذلك وقد مر القصة.

وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال: هم رجل يقال له: الأسود بقتل النبي ﷺ فنزلت هذه الآية، وقال مجاهد: هم المنافقون بقتل المسلم الذي سمع قولهم لنحن شر من الحمير كيلاً يفشيه وقيل: هموا بإخراج الرسول ﷺ والمؤمنين من المدينة في قصة غزوة بني المصطلق، وقال السدي: قالوا: إذا قدمنا المدينة عقدنا على رأس عبد الله بن أبي تاجاً فلم يصلوا إليه ﴿وَمَا نَقَمُوا﴾ أي: ما كرهوا وما وجدوا ما يورث نقتهم ويقتضي إنتقامهم شيئاً ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني: إلا الإحسان بهم وذلك شيء محبوب عند القلوب يوجب المحبة والإنقياد دون العداوة والإنقام والجملة حال من فاعل هموا بيان لكمال شرهم وخبثهم حيث أسأؤوا في مقابلة الإحسان.

أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن عكرمة أن مولى بن عدي بن كعب قتل رجلاً من الأنصار فقتل النبي ﷺ بالدية اثني عشر ألفاً، قال: البغوي: مولى الجلاس قتل فأمر له رسول الله ﷺ بدية اثني عشر ألفاً فاستغنى وفيه نزلت هذه الآية وقال الكلبي: كان أهل المدينة قبل قدوم النبي ﷺ المدينة في ضنك من العيش فلما قدم عليهم النبي ﷺ استغنوا بالغنائم، ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا﴾ من نفاقهم وكفرهم ﴿بِكَ﴾ ذلك التوب ﴿خَيْرًا لَهُمْ﴾ قد مر أن هذه الآية حمل الجلاس على التوبة ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا﴾ أي: يعرضوا عن التوبة والإخلاص ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا﴾ بالخزي والفضيحة أو القتل ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بالنار ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ حتى ينجيهم من القتل والخزي، وروى البغوي بسنده: كذا ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والطبراني والبيهقي في «شعب الإيمان» عن أبي أمامة الباهلي قال: جاء ثعلبة بن حاطب الأنصاري إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال: رسول الله ﷺ: «أمالك في رسول الله أسوة حسنة؟ والذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهباً لسارت»، ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً والذي بعثك بالحق نبياً لأن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه، فقال: رسول الله ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبة مالاً» قال: فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزلت وادياً من أوديتها وهي تنمو كما ينمو الدود وكان يصلي مع رسول الله ﷺ الظهر والعصر ويصلي في غنمه سائر الصلوات ثم كثرت

ونمت حتى تباعد عن المدينة فصار لا يشهد إلا الجمعة ثم كثرت ونمت فتباعد أيضاً حتى كان لا يشهد جمعة ولا جماعة فكان إذا كان يوم الجمعة يخرج يتلقى الناس يسألهم عن الأخبار، فذكره رسول الله ﷺ فات يوم فقال: «ما فعل ثعلبة؟» قالوا: يا رسول الله اتخذ ثعلبة غنماً يسعها واد، فقال: رسول الله ﷺ: «يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة» فأنزل الله تعالى آية الصدقات، فبعث رسول الله ﷺ رجلاً من بني سليم ورجلاً من جهينة وكتب لهما أسنان الصدقة وكيف يأخذان، وقال لهما مرا بثعلبة بن حاطب وبرجل من بني سليم فخذوا صدقاتهما فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة واقراه كتاب رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلي فانطلقا وسمع السلمي فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزها للصدقة ثم استقبلهما فلما رأوها قالوا: ما هذا عليك، قال: خذاه فإن نفسي بذاك طيبة فمرا على الناس وأخذوا الصدقات، ثم رجعا إلى ثعلبة فقال: أروني كتابكما فقرأه فقال: ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية اذهبا حتى أرى رأي، قال: فأقبلا فلما رأهما رسول الله ﷺ قبل أن يكلماه قال: «يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة» ثم دعا للسلمي بخير فأخبرت بالذي صنع ثعلبة فأنزل الله فيه.

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنِ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ أي: من المنافقين ﴿ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنِ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ فيه إدغام التاء في لاصاد ﴿ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ وأخرج ابن حريز وابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس نحوه يعني يعمل عمل أهل الصلاح من صلة الرحم وأداء الزكاة والنفقات الواجبة والمستحبة في سبيل الله ﴿ فَلَمَّا آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ ﴾ أي: بالمال ومنعوا حق الله ﴿ وَتَوَلَّوْا ﴾ عن طاعة الله ورسوله ﴿ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ أي: هم قوم عادتهم الإعراض عنها ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ ﴾ الله والبخل أي: جعل عاقبة أمرهم ﴿ نِفَاقًا ﴾ أي: سوء اعتقاد

﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ حيث لم يروا امثال أمر الله تعالى في أداء الزكاة واجباً وأنكر وأوجب الزكاة وزعموها أخت الجزية ﴿إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ﴾ أي: يلقون الله بالموت أو يلقون عملهم أي: جزاءه وهو يوم القيامة أو في القبر يعني حرّمهم الله التوبة إلى أن ماتوا على النفاق ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ﴾ أي: بسبب إخلافهم ﴿مَا وَعَدُوهُ﴾ من التصدق والصلاح ﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ أي: بكونهم كاذبين فإن خلف الوعد متضمن لكذب مستقبح من الوجهين قال: رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان»^(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة، زاد مسلم بعد قوله ثلاث: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم» ثم اتفقا وروى البغوي وابن جرير وغيره في حديث أبي أمامة المذكور فيما قبل أنه نزلت الآية وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه، فقال: ويحك يا ثعلبة لقد أنزل الله عز وجل فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ فسأله أن يقبل صدقته فقال: «إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك» فجعل يحشو على رأسه التراب فقال: رسول الله ﷺ هذا عملك قد أمرتك لم تطعني فلما أتى رسول الله ﷺ أن يقبض صدقته رجع إلى منزله وقبض رسول الله ﷺ، ثم أتى أبا بكر رضي الله عنه فقال: أقبل صدقتي فقال: أبو بكر لم يقبلها رسول الله ﷺ وأنا أقبلها فقُبِضَ أبو بكر ولم يقبلها، فلما ولي عمر أتاه فقال: أقبل صدقتي لم يقبلها منك رسول الله ﷺ ولا أبو بكر أنا أقبلها منك فلم يقبلها، ثم ولي عثمان فاتاه فلم يقبلها وهلك ثعلبة في خلافة عثمان وقال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة... أتى ثعلبة مجلساً من الأنصار فأشهدهم لئن آتاني الله من فضله أتيت منه كل ذي حق حقه وتصدقت منه وصلت منه القرابة فمات ابن عم له فورثه مالا فلم يف بما قال: فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقال الحسن ومجاهد نزلت في ثعلبة بن حاطب ومعتب بن قشير وهما من بني عمرو بن عوف خرجا على ملا قعود وقالوا والله لئن رزقنا الله من فضله لنصدقن فلما رزقهما الله بخلا به ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ أي: المنافقون أو من عاهد الله حين أظهروا خلاف ما أضمروا والاستفهام للتوبيخ ﴿أَنْتَ اللَّهُ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ يعني ما يسرون من النفاق أو العزم على الإخلاف ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ أي: يتناجون فيما بينهم من المطاعن أو تسمية الزكاة جزية ﴿وَأَنْتَ اللَّهُ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ فلا يخفى عليه شيء، روى الشيخان في الصحيحين عن ابن مسعود قال: لما نزلت أية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا يعني المنافقين مرء وجاء رجل فتصدق بصاع

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: علامة المنافق (٣٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان خصال المنافق (٥٩).

فقالوا إن الله لغني عن صدقة هذا^(١) فنزل ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ أي: يعيبون الموصول مرفوع على الذم أو منصوب أو بدل من الضمير في سرهم أو مبتدأ خبره سخر الله منهم ﴿الْمَطَّوَعِينَ﴾ أصله المتطوعين أي: الراغبين ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي﴾ في إكثار ﴿الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ﴾ ما يتصدقون به ﴿إِلَّا جُهْدُهُمْ﴾ أي: طاقتهم أي: ما يطيقون ويقدرون عليه من المال القليل، وقال البغوي: قال: أهل التفسير حث رسول الله ﷺ على الصدقة فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، وقال: يا رسول الله ﷺ مالي ثمانية آلاف جئتك بأربعة آلاف فاجعلها في سبيل الله وأمسكت أربعة آلاف لعيالي فقال: رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت» فبارك الله ما في ماله حتى أن خلف امرأتين يوم مات فبلغ ثمن ماله لهما مائة وستين ألف درهماً وفي رواية صولحت إحدى امرأته عن نصف الثمن على ثمانين ألف درهم وكان حقها أكثر مما صولحت عليه وتصدق يومئذ عاصم بن عدي العجلاني بمائة وسق من تمر وجاء أبو عقيل الأنصاري واسمه الحجاب بصاع من تمر فقال: يا رسول الله بت ليلتي أجر بجرير الماء حتى نلت صاعين من تمر فأمسكت أحدهما لأهلي وأتيتك بالآخر، فأمره رسول الله ﷺ أن يشره في الصدقات فلمزهم المنافقون وقالوا: ما أعطي عبد الرحمن وعاصم إلا رياء وإن كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبي عقيل ولكنه أحب أن يذكر بنفسه ليعطى من الصدقة فأنزل الله هذه الآية، وعنى بالمطوعين عبد الرحمن وعاصم وبالذين لا يجدون إلا جهدهم أبا عقيل، قلت: روى القصة أحمد وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس وقصة مصالحة إحدى امرأته الطبراني وسمع تماضر من حديث أبي عقيل، وورد نحو هذه القصة، من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري وأبي عقيل نفسه وعميرة بنت سهل بن رافع أخرجها كلها ابن مردويه قال: الله تعالى عز شأنه ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ يستهزؤون بهم ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي: جازاهم على السخرية وأخرج البيهقي عن الحسن قال: قال: رسول الله ﷺ: «إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال لأحدهم فيجيء بكربه وغمه فإذا جاء غلق دونه فما زال كذلك حتى أن أحدهم ليفتح الباب من أبواب الجنة فيقال لهم: هلم فما يأتيه منه إلا يأس» ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بكفرهم واستهزاؤهم.

(١) أخرجه البخاري في كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوَعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٦٦٨)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: الحمل أجرة يتصدق بها والنهي الشديد عن تنقيص المتصدق بقليل (١٠١٨).

قال البيضاوي روى عن عبد الله بن عبد الله بن أبي المنافق كان من المخلصين سأل رسول الله ﷺ في مرض موت أبيه المنافق أن يستغفر له ففعل فنزلت ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أمر بمعنى الإخبار بالتسوية بين استغفار الرسول الله ﷺ للمنافقين وعدمه في عدم الإفادة كما نص عليه بقوله ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ فقال: رسول الله ﷺ: «لأزيدن على السبعين» فنزلت ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ (١) كذا أخرج البخاري ومسلم من حديث ابن عمر معناه وأخرج ابن المنذر عن عروة ومجاهد وقتادة، وأخرج ابن المنذر من طريق العوفي عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية قال: النبي ﷺ أسمع ربي وقد رخص لي فيهم فوالله لأستغفرون أكثر من سبعين مرة لعل الله أن يغفر لهم» فنزلت ﴿اسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ قال: البيضاوي: فهم النبي ﷺ من السبعين العدد المخصوص لأنه الأصل فجوز أن يكون ذلك حداً يخالفه حكم ما وراءه فبين له أن المراد به التكرير دون التحديد.

وقد شاع استعمال السبعة والسبعين وسبعمئة ونحوها في التكفير لاشتمال السبعة على حملة أقسام العدد فإن العدد قليل وكثير فالقليل ما دون الثلاث والكثير الثلاث فما فوقه وأدنى الكثير ثلاثة ولا غاية لأقصاه، وأيضاً العدد نوعان شفع ووتر أول الأشفاع اثنان وأول الأوتار ثلاثة وواحد ليس بعدد والسبعة أول الجمع الكثير من النوعين لأن فيها أوتاراً ثلاثة وأشفاعاً ثلاثة، والعشرة كمال الحساب لأن ما جاوز العشرة فهو إضافة الأحاد إلى العشرة كقولك اثنا عشر ثلاثة عشر إلى عشرين والعشرون تكرر العشرة مرتين والثلاثون تكرر ثلاث مرات وهكذا إلى مائة، فالسبعون يجمع الكثرة والنوع والكثرة منه وكمال الحساب والكثرة منه فصار السبعون أدنى الكثير من العدد من كل وجه ولا غاية لأقصاه فجاز تخصيص السبعين بهذا المعنى فكانه العدد بأسره ﴿ذَلِكَ﴾ اليأس عن المغفرة ﴿يَأْتِيَهُمْ كُفْرًا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ يعني ليس ذلك بخل منا ولا لقصور فيك بل لعدم قابليتهم بسبب الكفر الصارف عنها ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ المتمردين في كفرهم وهو كالدليل على الحكم السابق فإن مغفرة الكافر إنما هو بالإقلاع عن الكفر والإرشاد إلى الحق والمنهمك في كفره المطبوع عليه لا ينقطع ولا يهتدي.

(١) أخرجه البخاري في كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ (٤٦٧٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل عمر رضي الله عنه (٢٤٠٠).

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تَعْبِكُمْ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّلُوقِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ عن غزوة تبوك والمخلف المتروك ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ أي: بعقودهم عن الغزو ﴿خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾، قال: أبو عبيد أي بعد رسول الله ﷺ وقيل: خلاف بمعنى المخالفة فيكون انتصابه على العلة أو الحال، يعني فرحوا لأجل مخالفة الرسول وحال كونهم مخالفين له ﴿وَكْرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فيه تعريض بالمؤمنين الذين حصلوا رضاه تعالى ببذل الأموال والأنفس وأثروا رضاه على الأموال والأنفس ﴿وَقَالُوا﴾ أي: قال: بعضهم لبعض وللمؤمنين تشييطاً ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾.

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: أمر رسول الله ﷺ أن ينبعثوا معه وذلك في الصيف فقال: رجل يا رسول الله الحر الشديد ولا تستطيع الخروج فلا تنفر في الحر فأنزل الله ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ وقد آثرتموها بهذه المخالفة فيه استجهاً لهم لأنه من يصون نفسه من مشقة ساعة ووقع بسبب ذلك في مشقة أشد وأغلظ المؤبد كان أجهل من كل جاهل، ﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أي: يعلمون، قال: البغوي: كذلك هو في مصحف ابن مسعود يعني لو كانوا يعلمون أن ما بهم إليها أو أنها كيف هي ما اختاروها بإيثار الدعة على الطاعة، قال: محمد بن يوسف الصالحي جعل جد بن قيس وغيره من المنافقين يشطون المسلمين عن الخروج وقال الجد لجبار بن منحر ومن معه من بني سلمة لا تنفروا في الحر رهادة في الجهاد وشكاً في الحق وإرجافاً برسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: خرج رسول الله ﷺ في حر شديد إلى تبوك فقال: رجل من بني سلمة لا تنفروا في الحر فأنزل

الله ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ الآية، وأخرج البيهقي في الدلائل من طريق ابن إسحاق عن عاصم بن عمرو أبو قتادة وعبد الله بن أبي بكر بن حزم قال: رجل من المنافقين لا تنفروا في الحر فنزلت هذه الآية والله أعلم.

قال الله تعالى ﴿فَلْيَضْحَكُوا﴾ أي: المنافقون حين فرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﴿قَلِيلًا﴾ يعني ضحكاً قليلاً أو في زمان قليل يعني في الدنيا ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ في الآخرة إخبار عما يؤل إليه حالهم في الدنيا والآخرة أخرجه على صيغة الأمر للدلالة على أنه حتم واجب، والضحك والبكاء إما محمولان على الحقيقة أو هما كناية عن السرور والغم وجاز أن يكون المراد بيان حالهم في الآخرة والمراد من القلة العدم ﴿جَزَاءُ﴾ مصدر فعل محذوف أي: يجزون جزاء، ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ في الدنيا أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾ قال: الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شؤوا فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله فليستأنفوا البكاء بكاء لا ينقطع أبداً.

وأخرج ابن ماجه وأبو يعلى والبيهقي وهنا عن أنس قال: سمعت: رسول الله ﷺ يقول: «يرسل البكاء على أهل النار فيكون حتى ينقطع الدموع ثم يكون الدم ثم تؤتى في وجوههم كهيئة الأخدود ولو أرسلت فيها السفن لجرت»^(١) وأخرج الحاكم وصححه عن عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل النار ليبكون حتى لو أجريت السفن في دموعهم لجرت وإنهم يسكبون الدم» وأخرج ابن أبي الدنيا والضياء كلاهما في صفة النار عن زيد بن ربيع رفعه أن أهل النار إذا دخلوا النار بكوا الدموع زماناً ثم يكون القيح زماناً فيقول لهم الخزنة يا معشر الأشقياء تركتم البكاء في الدنيا هل تجدون اليوم من تستغيثون به فيرفعون أصواتهم يا أهل يا معشر الآباء والأمهات والأولاد خرجنا من القبور عطاشاً وكنا طول الموقف عطاشاً ونحن اليوم عطاش فأفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله فيدعون أربعين لا يجيبهم ثم يجيبهم أنكم ما كنتم فيشوا من كل خير، قلت: وجاز أن يكون معنى الآية فليضحكوا أي: الناس أجمعين في دينهم قليلاً أمر إباحة يشعر كراهة كثرة الضحك فإن كثرة الضحك يميت القلب وليبكو في الدنيا كثيراً من خشية الله حتى يكون البكاء جزاء وعضواً بما كانوا يكسبون يتهافت به سيئاتهم.

عن أنس قال: قال: رسول الله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر الشفاعة (٤٣٢٤)، في الزوائد: في إسناده يزيد بن أبان الرقاشي وهو ضعيف.

كثيراً»^(١) رواه أحمد والشيخان في الصحيحين والترمذي والنسائي وابن ماجه ورواه البخاري أيضاً عن أبي هريرة، ورواه الحاكم وصححه عن أبي ذر وزاد: «ولما ساغ لكم الطعام ولا الشراب» وروى الطبراني والحاكم والبيهقي عن أبي الدرداء مرفوعاً بلفظ: «لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتكم قليلاً ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى لا تدرون تجون أو لا تنجون» وروى الحاكم عن أبي هريرة وصححه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتكم قليلاً» يظهر النفاق ويرتفع الأمانته ويقبض الرحمة ويتهم الأمين ويؤتمن غير الأمين أناخ بكم الشرف الجون الفتن كأمثال الليل المظلم» وروى البغوي بسنده عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس إبكوا فإن لم تستطيعوا فبأكوا فإن أهل النار يكون في النار حتى يسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول حتى ينقطع الدموع قيسيل الدماء ويفرج العيون فلو أن سفناً أجريت فيها لجرت» وروى أحمد والترمذي وابن ماجه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتكم قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله» وروى ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد مؤمن يخرج من عينه دموع وإن كان مثل رأس الذباب من خشية الله ثم يصيب من خروجه إلا حرمه الله على النار ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ﴾ أي: ردك ﴿إِلَى الْمَدِينَةِ وَفِيهَا طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: من المخلفين يعني منافقيهم فإن كلهم لم يكونوا منافقين أو من بقي منهم بعد ما تاب بعضهم وهلك بعضهم ﴿فَأَسْتَدْرِكُكَ لِلْخُرُوجِ﴾ معك إلى غزوة أخرى بعد تبوك، ﴿فَقُلْ لَنْ نَخْرُجُوا مَعِيَ﴾ قرأ أبو بكر وحمزة والكسائي بسكون الياء والباقون بفتحها ﴿أَبْدَأُ﴾ في سفر ﴿وَلَنْ نَّقْتُلُوا مَعِيَ﴾ قرأ حفص بفتح الياء والباقون بسكونها ﴿عَدُوًّا﴾ إخبار في معي النهي للمبالغة ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوْلَ مَرَّةٍ﴾ يعني في غزوة تبوك، والجملة تعليل للنهي وكان أسقاطهم عن ديوان الغزاة عقوبة لهم ﴿فَأَقْعُدُوا مَعَ الْخَلْفَيْنِ﴾ مع النساء والصبيان والمرضى والزمني لعدم لياقتهم للجهاد، وقال ابن عباس مع الذين تخلفوا بغير عذر وقيل: مع المخالفين قال الفراء يقال صاحت خالف إذا كان مخالفاً، روى الشيخان في الصحيحين عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله فقام ليصلي عليه فقام عمر فأخذ

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتكم قليلاً ولبكيتم كثيراً» (٦٤٨٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: تحريم سبق الإمام بركوع أو سجود ونحوهما (٤٢٦).

بشبهه فقال: رسول الله أتصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي على المنافقين؟ فقال: إنما خيرني الله فقال: ﴿أَسْتَغْفِرَ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ وسأزيده على السبعين، فقال: إنه منافق فصلى عليه^(١) فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ﴾ المراد بالصلاة الدعاء والاستغفار للميت فيشتمل صلاة الجنائز أيضاً لأنها مشتملة على الدعاء والاستغفار ﴿عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ ظرف لتصل، وقيل: ظرف لمات يعني مات موتاً مؤبداً على الكفر فإن إحياء الكافر للتعذيب دون التمتع فكأنه لم يحيى، وبهذا المعنى قال: الله لا يموت فيها ولا يحيى ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ للدفن أو للزيارة قيل: كان رسول الله ﷺ إذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له ولذا ورد النهي عن القيام على قبره ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾ تعليل للنهي أو لتأييد الموت، وروى البخاري عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب أنه قال: لما مات عبد الله بن أبي سلول دعى له رسول الله ﷺ ليصلي على ابن أبي وقد قال: يوم كذا كذا ويوم كذا كذا أعدد عليه قال: «إني خيرت فاخترت لو أعلم أني لو زدت على السبعين غفر له لزدت عليها» فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف فلم يمكث إلا يسراً حتى نزلت الآيتان من براءة.

وروى البخاري عن جابر بن عبد الله قال: أتى رسول الله ﷺ عبد الله بن أبي بعدما أدخل حفرة فامر به فأخرج فوضعه على ركبته ونفث فيه ريقه وألبسه قميصه، وفي الصحيحين عن ابن عمر أن عبد الله بن عبد الله بن أبي كان من المصلحين سأل رسول الله ﷺ في مرض أبيه أن يستغفر له ففعل فنزلت، وروى الحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن أسامة بن زيد أن ابن أبي دعا رسول الله ﷺ في مرضه فسأله أن يستغفر له ويكفنه في شعاره الذي يلي جسده ويصلي عليه فلما مات أرسل قميصه ليكفن فيه وذهب ليصلي فنزلت هذه الآية، وأخرج البخاري من حديث جابر أنه قال: لما كان يوم بدر وأنا بالعباس ولم يكن عليه ثوب فوجدوا قميص عبد الله بن أبي يقدر عليه فكساه النبي ﷺ إياه فلذلك نزع النبي ﷺ قميصه الذي ألبسه^(٢) يعني كان ذلك مكافأة له، قال: البغوي: روي أن النبي ﷺ كلم فيما فعل بعبد الله بن أبي فقال ﷺ: «وما يغني عنه قميصي وصلاتي من الله والله إنني كنت أرجو أن يسلم به ألف من قومه قال» وروي أنه

(١) أخرجه البخاري في كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (٤٦٧٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل عمر رضي الله عنه (٢٤٠٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: الكسوة للأسارى (٣٠٠٨).

أسلم ألف من قومه لما راوه يتبرك بقميص النبي ﷺ، قال: البغوي: فما صلى رسول الله ﷺ بحل هذه الآية على منافق ولا قام على قبره حتى قبض ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ تكرير للتأكيد والأمر حقيق به فإن الأبصار طامحة إلى الأموال والأولاد والنفوس مغطبة عليها، ويجوز أن يكون هذا في فريق غير الأول ﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ﴾ من القرآن، ويجوز أن يراد بها بعضها ﴿أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ﴾ بأن آمنوا ويجوز أن يكون أن مفسرة، والظاهر أن المراد بالإيمان ههنا امتثال أمره ﷺ في الجهاد ﴿وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنَكَ﴾ في القعود ﴿أُزْلُوا الطَّلِيلَ﴾ أي: ذوو الغنى والسعة ﴿مِنْهُمْ﴾ من المنافقين ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَائِدِينَ﴾ في رحالهم بعذر ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ أي: النساء اللاتي يخلفن في البيوت جمع خالفة، وقد يقال: الخالفة الذي لا خير فيه فلان خالفة قومه إذا كان دونهم يعني مع أرزال الناس الذين لا خير فيهم ﴿وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ طبع الله عليها فلا يدركون حسن الخيرات وسوء السيئات ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ما في الجهاد وموافقة الرسول من السعادة وما في المخالفة عنه من الشقاوة.

﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَوْلِيَتِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأَوْلِيَتِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّةً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَاءَ الْمُعَذِّبُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ مخلصين ﴿جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ يعني أن تخلف الخوالم ولم يجاهدوا فلا منقصة في الدين فقد جاهد من هو خير منهم ﴿وَأَوْلِيَتِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ أي: منافع الدارين، وقيل: الخيرات الحور العين قال: الله تعالى: ﴿فِيهِنَّ

خَيْرَاتُ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ (١) جمع خيرة وحكي عن ابن عباس أن الخير لا يعلم معناه إلا الله عز وجل كما قال: جل ذكره: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ (٢) قلت: مراد ابن عباس أنه يعم جميع المنافع ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ بيان لما لهم في الآخرة من الخيرات ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ﴾ أي: المعتذرون بالجهد وكثرة العيال أدغم التاء في الذال ونقل حركتها إلى العين كذا قال: الفراء أو المعنى المقصرون فيه الموهمون أن لهم عذر ولا عذر لهم عذر من التفعيل أي: قصر وقرأ يعقوب ومجاهد المعتذرون بالتخفيف من أعذر إذا اجتهد وبالغ في العذر ﴿مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ في القعود، قال: محمد بن عمر جاء ناس من المنافقين إلى رسول الله ﷺ يستأذنونهم في القعود من غير علة فأذن لهم، وروى ابن مردويه عن جابر بن عبد الله استأذن رسول الله ﷺ رجال من المنافقين حين أذن لجد بن قيس يستأذنونهم يقولون يا رسول الله ﷺ ائذن لنا فإننا لا نستطيع أن ننفر في الحر فأذن لهم وأعرض عنهم، ونزل هذه الآية فلم يعذرهم الله تعالى قال: ابن إسحاق نفر من بني غفار وقال محمد بن عمر كانوا اثنين وثمانين رجلاً منهم خفاف بن إيما أنزل الله فيهم ﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ أَمِنُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣) قال: الضحاك المعتذرون هم رهط عامر بن الطفيل جاؤوا إلى رسول الله ﷺ دفاعاً عن أنفسهم وقالوا يا نبي الله إن نحن غزونا معك تُغَيِّرُ أعراب طي على حائلنا وأولادنا ومواشينا فقال: رسول الله ﷺ: «قد نبأني الله من أخباركم وسيغني الله عنكم» وقال ابن عباس هم الذين تخلفوا العذر بإذن رسول الله ﷺ ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في إرجاء الإيمان يعني المنافقين فعلى هذا التأويل الفريق الأول غير مسيئين، والظاهر أن المراد بهؤلاء فإن منهم من اعتذر بكسله لا لكفره، قال: أبو عمرو بن العلاء: كلا الفريقين مسيئين قوم تكلفوا عذرا بالباطل وهم الذين عناهم الله عز وجل بقوله: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ﴾ وقوم تخلفوا من غير تكلف عذر فقعد واجرأة على الله وهم المنافقون فأوعدهم الله تعالى بقوله ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَنَّمْ﴾ أي: من الأعراب أو من المعتذرين فإن منهم من اعتذر بكسله لا لكفره ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: كنت ساكتب لرسول الله ﷺ وكنت أكتب براءة واني لو اضع القلم على أذني إذ أمر بالقتال فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما

(١) سورة الرحمن، الآية: ٧٠.

(٢) سورة السجدة، الآية: ١٧.

(٣) سورة التوبة، الآيات: ٨٦ - ٩٣.

ينزل عليه إذ جاء أعمى فقال: كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى؟ فنزلت ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾ قال: ابن عباس يعني الزماني والمشايخ والعجزة وقيل: الصبيان وقيل: النسوان ﴿وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾ العميان وغيرهم ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ﴾ لفقرهم ﴿حَرَجٌ﴾ أي: ضيق في القعود عن الغزو ومأثم ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بالإيمان والطاعة في السر والعلانية كما يفعل الموالي والناصح أو بما يقدرُوا عليه فعلاً وقولاً يعود على الإسلام والمسلمين بالصلاح ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾، وضع المحسنين موضع الضمير للدلالة على أنهم منخرطون في سلك المحسنين غير معاتبين ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾ إلى معاتبتهُم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لهم أو للمسي فكيف للمحسن، قال: البغوي: قال: قتادة نزلت في عابد بن عمر وأصحابه وقال عن أنس وابن سعد عن جابر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك فدنا المدينة قال: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم سيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم قالوا: يا رسول الله ﷺ وهم بالمدينة؟ قال: هم بالمدينة حبسهم العذر»^(١) ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ عطف على الضعفاء أو على المحسنين، قال: ابن عباس سألوه أن يحملهم على الدواب وقيل: سألوه أن يحملهم على الخفاف المرقوعة والنعال المحضوفة ليفروا معه ﴿قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ حال من الكاف في أتوك بإضمار قد ﴿تَوَلَّوْا﴾ جواب إذا ﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ﴾ أي: تسهيل ﴿مِنْ الدَّمْعِ﴾ أي: دمعها ومن البيان، وهي مع مجرورها في محل نصب على التمييز وهو أبلغ من تفيض دمعها لأنه يدل على أن العين صارت دمعاً فياضاً ﴿حَزْناً﴾ نصب على العلة أو الحال أو المصدر لفعل دل عليه ما قبل، ﴿أَلَّا يَجِدُوا﴾ أي: لئلا يجدوا متعلق بحزناً أو بتفيض ﴿مَا يَنْفِقُونَ﴾ في غزوتهم، روى ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس وابن جرير عن محمد بن كعب القرظي وابن إسحاق وابن المنذر وأبو الشيخ عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن بكر وعاصم بن محمد بن عمر وقاتدة وغيرهم رحمهم الله أن عصابة من أصحاب رسول الله ﷺ جاؤوه يستحملونه وكلهم معسر ذو حاجة لا يحب التخلف عن رسول الله ﷺ، فقال: رسول الله ﷺ: «لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً أن لا يجدوا ما ينفقون» قال: محمد بن يوسف الصالحي: واختلفوا في أسمائهم فالذي اتفقوا عليه سالم بن عمير من بني عمرو بن عوف الأوسي وعلية بن زيد أبو ليلي بن عبد الرحمن بن كعب وهرمي بن عبد الله والذي اتفق عليه القرظي وابن إسحاق والواقدي وتبعهم ابن سعد وابن حزم وأبو عمرو السهيلي ولم يذكر

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: من حبسه العذر عن الغزو (٢٨٣٩).

الأخير عرباض بن سارية جزم بذلك ابن حزم وأبو عمرو، ورواه أبو نعيم عن ابن عباس والذي اتفق عليه القرظي وابن إسحاق عمرو بن حمام بن الجموح، والذي اتفق عليه القرظي وابن عقبة وابن إسحاق عبد الله بن مغفل.

روى ابن سعد ويعقوب بن سفيان وابن أبي حاتم عن ابن مغفل قال: إني لأجد الرهط الذين ذكر الله تعالى ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم، وفي حديث ابن عباس أخرجه ابن أبي حاتم من طريق العوفي قال: أمر رسول الله ﷺ الناس أن ينبعثوا غازين معه فجاءت عصابة من أصحاب رسول الله ﷺ فيهم عبد الله بن مغفل المزني قالوا: يا رسول الله ﷺ احملنا فقال: والله ما أجد ما أحملكم عليه فيتولوا وهم بكاء وعز عليهم أن يحبسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملاً فأنزل الله تعالى عذرهم ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ الآية، والذي اتفق عليه القرظي وابن صخر ولفظ القرظي سلمان والذي اتفق عليه القرظي وابن عقبة عمرو بن عنمة بن عدي وعبد الله بن عمرو والمزني حكاه ابن إسحاق قولاً بدلاً عن ابن مغفل، وانفرد القرظي بذكر عبد الرحمن بن زيد أبو علي من بني حارثة وبذكر حرمي بن عمرو من بني مازن، وقال محمد بن عمرو ويقال إن عمرو بن عوف منهم قال: ابن سعد وفي بعض الروايات من يقول فيهم معقل بن يسار، وذكر فيهم الحاكم حرمي بن مبارك بن النجار وذكر ابن عابد فيهم مهدي بن عبد الرحمن وذكر فيهم محمد بن كعب سالم بن عمرو الواقفي، قال: ابن سعد وبعضهم يقول: البكاؤون بنو مقرن السبعة وهم من مزينة انتهى.

وهم النعمان وسويد ومغفل وعقيل وسانان. ذكر ابن إسحاق في رواية يونس وابن عمر أن علي بن زيد لما فقد ما يحمله ولم يجد عند رسول الله ﷺ ما يحمله خرج من الليل فصلى من ليلة ما شاء الله تعالى ثم بكى وقال: اللهم إنك أمرت بالجهاد ورجبت فيه وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها من مال أو جسد أو عرض ثم أصبح مع الناس فقال: رسول الله ﷺ أين المتصدق هذه الليلة؟ فلم يبق إليه أحد فقام إليه ناخبره فقال: رسول الله ﷺ: «أبشر فوالذي نفسي بيده لقد كتبت في الزكاة المتقبلة» قال: ابن إسحاق ومحمد بن عمر: لما خرج البكاؤون من عند رسول الله ﷺ وقد أعلمهم أنه لا يجد ما يحملهم عليه بقي مامين بن عمرو النضري أبا ليلي وعبد الله بن مغفل وهما بيكيان فقال: ما بيكيكما؟ قالوا: جئنا رسول الله ﷺ ليحملنا فلم نجد عنده ما يحملنا عليه وليس عندنا ما نقوى به على الخروج ونحن نكره أن يفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ فأعطاهما ناضحاً له وزود كل واحد منهما صاعين من تمر، زاد محمد بن عمرو حمل

العباس بن عبد المطلب منهم رجلين وحمل عثمان بن عفان منهم ثلاثة نفر بعد الذي كان جهز من الجيش، قلت: لعله لما سقط السبعة من الستة العشر المذكورين وسقط اثنان منهم لأجل شك الراوي فبقي من لم يخرج إلى الغزو لفقد ما يحمله سبعة وهم الذين قال: الله تعالى فيهم أنه لا سبيل عليهم بالمعاتبه والله أعلم.

روى الشيخان في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: «أتيت رسول الله ﷺ في نفر من الأشعريين ليحملنا وفي رواية أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسأله لهم الحملان فقلت: يا رسول الله إن أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم فقال: «والله لا أحملكم على شيء وما عندي ما أحملكم عليه ووافقتة وهو غضبان ولا أشعر فرجعت حزيناً من منع رسول الله ﷺ ومن مخافة أن يكون رسول الله ﷺ وجد في نفسه عليّ فرجعت إلى أصحابي فأخبرتهم بالذي قال: رسول الله ﷺ، ثم جيء رسول الله ﷺ بنهب إيل فلم ألبث إلا سويعة إذ سمعت بلالاً ينادي أين عبد الله بن قيس فأجبتة فقال: أجب رسول الله ﷺ يدعوك، فلما أتته قال: هذين القرينين وهذين القرينين لسته أبعرة أتباعهن حينئذٍ من سعد فانطلق بهن إلى أصحابك فقل إن الله أو قال: إن رسول الله ﷺ يحملكم على هؤلاء فاركبوهن، قال: أبو موسى فانطلقت إلى أصحابي فقلت: إن رسول الله ﷺ يحملكم على هؤلاء ولكن والله لا أودعكم حتى ينطلق معي بعضكم إلى من سمع مقالة رسول الله ﷺ حين سألته لكم ومنعه في أول مرة ثم إعطاه إياي بعد ذلك لا تظنوا أنني حدثتكم شيئاً لم يقله فقالوا: لي والله إنك عندنا لمصدق ولنفعن ما أحببت، قال: فانطلق أبو موسى بنفر منهم حتى أتوا الذين سمعوا مقالة رسول الله ﷺ منعه إياهم ثم إعطاه بعد ذلك فحدثوهم بمثل ما حدثهم أبو موسى، ثم قلنا: والله لا يبارك لنا فرجعنا فقلنا لرسول الله ﷺ فقال: «أنا ما حملتكم ولكن الله حملكم»، ثم قال: والله إني إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وكفرت عن يميني»^(١) ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ بالعقاب والمعاتبه ﴿عَلَى الَّذِينَ يَسْتَنْذِرُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ واجدون الأهبة ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ استئناف بيان ما هو السبب لاستئذانهم من غير عذرهم وهو رضاهم بالدنيا والانتظام في جملة الخوالف ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ حتى غفلوا عن

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فرض الخمس، باب: ومن الدليل على أن الخمس لنواب المسلمين (٣١٣٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الأيمان، ندب من حلف يميناً فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليأت الذي هو خير (١٦٤٩).

وخامة العاقبة ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سوى ما اختاره من القعود على الجهاد وموافقة الرسول .

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ
أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا
عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآؤِنُهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَخْلِفُونَ لَكُمْ
لِرِضْوَانِ عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ
كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾
وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُرِّ الدَّوَابِّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ
قُرْبَانًا عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا يَأْتِيَ قُرْبَةً لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ
عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾ .

﴿يَعْتَذِرُونَ﴾ يعني المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وقد ذكرنا أنهم كانوا بضعة
وثمانين نفر ﴿إِلَيْكُمْ﴾ أيها الرسول والمؤمنون ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من غزوة تبوك إلى
المدينة وفي الآية معجزة فإنهم جاؤوا بعد ذلك يعتذرون بالباطل قال: الله تعالى ﴿قُلْ لَا
تَعْتَذِرُوا﴾ بالمعاذير الكاذبة ﴿لَنْ تُؤْمِنَ﴾ لن نصدقكم علة للنهي لأن غرض المعتذرون أن
يصدق فيما يعتذر به ثم بين علة عدم التصديق وقال: ﴿قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أعلمنا
بالوحي إلى نبيه ﷺ بعض أخباركم وهو ما في ضمائرهم من الشر والفساد وما زورتم من
الاعتذارات الكاذبة ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ في المستقبل من الزمان هل تتوبون من
نفاقكم أم تقيمون عليه فيه استتابة وإمهال للتوبة ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾
بعد الموت وضع الوصف موضع الضمير للدلالة على أنه مطلع على سرهم وعلتهم لا
يفوت شيء من ضمائرهم وأعمالهم من علمه ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ بالتعذيب ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ ولا تعاتبوهم ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ ولا
تعاتبوهم و تعاتبوهم ﴿إِنَّهُمْ رَجِسٌ﴾ أي: لأنهم أرجاس لخبث باطنهم فلا يجوز معهم
المؤانسة والمصاحبة ولا ينفعهم المعاتبة لعدم صلاحيتهم للتطهير والمقصود عن المعاتبة
إنما هو التطهير بالحمل على الإنابة ﴿وَمَاؤِنُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ تمام التعليل كأنه قال: إنهم
أرجاس من أهل النار فلا تصاحبوهم ولا تعاتبوهم ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يجوز أن

يكون مصدر الفعل محذوف أي: يجزؤون جزاء أو يكون علة لكون مأواهم جهنم، قال: البغوي: قال: ابن عباس نزلت في جد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما كانوا ثمانين رجلاً من المنافقين فقال: النبي ﷺ حين قدم المدينة: «لا تجالسوهم ولا تكلموهم» وقال مقاتل: نزلت في عبد الله بن أبي حلف للنبي ﷺ بالله الذي لا إله إلا هو أن لا يتخلف عنه بعدها وطلب من النبي ﷺ أن يرضى عنه فأنزل الله هذه الآية ﴿يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ يحلفهم فتستديموا على اكنتم تفعلون بهم ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: عنهم، وضع المظهر موضع المضمحل يدل على موجب عدم الرضا، يعني أن لبسوا عليكم ورضيتم بهم لا يمكنهم أن يلبسوا على الله ويرضوه مع كفرهم ولا ينفعهم رضائكم مع سخط الله تعالى فإنه ينزل بهم الهوان في الدنيا والعذاب في الآخرة والمقصود من الآية النهي عن الرضاء عنهم والاعتراب بمعاذيرهم ﴿الْأَعْرَابِ﴾ يعني أهل البدو ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل البلد لتوحشهم وقساوتهم وعدم اختلاطهم بأهل العلم وقلة استماعهم الكتاب والسنة ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا﴾ أي: أحق بأن لا يعلموا ﴿حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ من الشرائع فرائضها وسنتها ومباحاتها ومحرماتها ومكروهاتها لا يميزون بعضها من بعض لجهلهم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ يعلم حال جميع خلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعل بهم في الدنيا والآخرة ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ﴾ أي: يزعم ﴿مَا يُنْفِقُ﴾ في سبيل الله ﴿مَغْرَمًا﴾ أي: غرامة وخسراناً، قال: عطاء: لا يرجون لإعطاءه ثواباً ولا على إمساكه عقاباً إنما ينفقون خوفاً ورياء ﴿وَيَتَرَبَّصُّ بِكُرِّ الدَّوَابِّ﴾ أي: ينتظرون بكم تقلب الزمان بأن يموت الرسول ويظهر المشركون حتى يتخلصوا عن الإنفاق الذي ينفقونها رياء وخوفاً ﴿عَلَيْهِنَّ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ اعتراض بالدعاء عليهم بنحو ما يتربصون بالمؤمنين، أو إخبار بما يقع بهم نحو ما يتربصون بالمؤمنين والدائرة في الأصل مصدراً واسم فاعل من دار يدور ورسمي عقبه الزمان التي يأتي بالخير مرة وبالشر أخرى.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو السوء هنا وفي سورة الفتح بالضم السين ومعناه الضر والمكروه والباقون بفتح السين وهو مصدر أضيف إليه للمبالغة كقولك رجل صدق ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون عند النفاق فيما بين شياطينهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يضمرون قال: البغوي: نزلت الآية المذكورة في أعراب أسد وغطفان وبني تميم، وكذا أخرج أبو الشيخ عن الكلبي إلا أنه لم يذكر فيه بني تميم ثم استثنى الله سبحانه من الأعراب المذكورين حال بعضهم فقال: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وقال البغوي: أخرج ابن جرير عن مجاهد أنها نزلت في بني مقرن من مزينة الذين نزلت فيهم ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّ

لِتَحْمِلَهُمْ ﴿١﴾ وأخرج عن عبد الرحمن بن معقل قال: كنا عشرة ولد مقرن وقال الكلبي أسلم وغفار وجهينة من تميم وأسد بن خزيمة وهوازن وعطفان وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: قال: رسول الله ﷺ: «غفار غفر الله لها وأسلم سالمها الله وعصية عصت الله ورسوله» (١) وفيهما عن أبي هريرة قال: قال: رسول الله ﷺ: «قريش والأنصار وجهينة ومزينة وأسلم وغفار أشجع موالي ليس لهم مولى دون الله ورسوله» وفيهما عن أبي بكره قال: قال: رسول الله ﷺ: «أسلم وغفار ومزينة وجهينة خير من تميم ومن بني عامر والحليفين أسد وعطفان» وروى البغوي: عن أبي هريرة قال: قال: رسول الله ﷺ: «أسلم وغفار وشيء من جهينة ومزينة خير عند الله يوم القيامة من تميم وأسد بن خزيمة وهوازن وعطفان» ﴿وَيَتَّخِذْ﴾ أي: بزعم ﴿مَا يُفِقُ﴾ في سبيل الله سبب ﴿قُرَيْشٍ﴾ وهي ثاني مفعولي يتخذ ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ صفة لقربات أو ظرف ليتخذ ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ أي: سبب دعاءه ﷺ واستغفاره أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال: صلوات الرسول استغفاره ﷺ وقد قال: رسول الله ﷺ: «اللهم صل على آل أبي أوفى حين جاء عبد الله بن أبي أوفى بصدفته»، كذا أخرج الجماعة إلا الترمذي من حديث عبد الله بن أبي أوفى ﴿أَلَا إِنَّهَا﴾ أي: النفقة ﴿قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ عند الله تعالى قرأ نافع برواية ورش قربة بضم الراء والباقون بسكونها وهذه هادة من الله تعالى بصحة معتقدتهم وتصديق لرجائهم على الاتسنانف مع حر في التنبية والتأكيد ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ﴾ السين لتحقيق الوعد ﴿فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي: جنته ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿١١٠﴾ ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا نَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١١١﴾ ﴿وَأَخْرُونَ أَعْرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿١١٢﴾.

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾ الذين هجروا قومهم وعشائرتهم وفارقوا أوطانهم وأموالهم يعني: من قريش مكة.

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: ذكر أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع (٣٥١٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة باب: دعاء النبي ﷺ لغفار وأسلم (٢٥١٨).

﴿وَالْأَنْصَارِ﴾ الذين نصرُوا رسول الله ﷺ وآووه وأصحابه، حين أخرجه قومه يعني من أهل المدينة. واختلفوا في السابقين من الفريقين؟ قال: سعيد بن المسيب وقتادة وابن سيرين وجماعة: هم الذين صلوا إلى القبلتين، وقال عطاء بن أبي رباح هم أهل بدر، وقال الشعبي هم للذين شهدوا بيعة الرضوان بالحديبية، وقيل: هم المهاجرين ثمانية نفر للذين سبقوا إلى الإسلام ثم تتابع الناس في الدخول في الإسلام بعدهم وهم أبو بكر وعلي وزبير بن الحارثة وعثمان بن عفان وزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله، قال: البغوي: واختلفوا في أول من آمن برسول الله ﷺ فقال: بعضهم: علي بن أبي طالب وهو قول جابر بن عبد الله ويؤيده قول علي رضي الله عنه:

سَهِّبَتْكُمْ الْإِسْلَامَ طَرَأَ غَلَامًا مَا بَلَّغْتَ أَوَانَ حِلْمِ

قال مجاهد وابن إسحاق أسلم علي وهو ابن عشر سنين وقال بعضهم: أول من آمن به بعد خديجة أبو بكر الصديق وهو قول ابن عباس وإبراهيم النخعي والشعبي، ويشهده قول حسان بن ثابت في أشعاره في مدح أبي بكر وتسليم النبي ﷺ إياه، وقال بعضهم: أول من آمن به زيد بن حارثة وهو قول الزهري وعروة ابن الزبير و كان إسحاق بن إبراهيم الحنظلي يجمع بين هذه الأقوال فيقول: أول من أسلم من الرجال أبو بكر ومن النساء خديجة ومن الصبيان علي ومن العبيد زيد بن الحارثة رضي الله عنهم أجمعين، قال: ابن إسحاق فلما أسلم أبو بكر أظهر إسلامه ودعا إلى الله وإلى رسوله وكان رجلاً محبباً سهلاً وكان أنسب قريش وأعلمها بما كان فيها وكان تاجراً ذا خلق ومعروف وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر لعلمه وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه فأسلم علي يديه فيما بلغني عثمان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين أسلموا وصلوا، ثم أسلم غيرهم حتى بلغ المسلمون من الرجال والنساء إلى تسع وثلاثين في سبع سنين ثم أسلم عمر بن الخطاب فهو منهم أربعين، فإذا أسلم عمر قال: المشركون اليوم انتصف منا.

ثم شاع الإسلام وتقوى بإسلام عمر بعد سبع سنين، ومن هنا قال: علي رضي الله عنه صليت: قبل الناس بسبع سنين والسابقون من الأنصارهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة وكانوا ستة في العقبة الأولى وقيل: سبعة واثنى عشر في العقبة الثانية والسبعون في العقبة الثالثة كما سنذكر، والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة ومصعب بن عمير

يعلمهم القرآن فأسلم خلق كثير وجماعة من النساء والصبيان .

قرأ يعقوب والأنصار بالرفع عطفاً على قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ﴾ وهي قراءة أبي أخرجها ابن جرير وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظي والحاكم وأبو الشيخ عن أسامة ومحمد بن إبراهيم التيمي ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ .

قيل: هم بقية المهاجرين والأنصار سوى السابقين الأولين . وقيل: هم الذين سلكوا سبيلهم في الإيمان والهجرة والنصرة إلى يوم القيامة، قلت: ويمكن أن يكون المراد من السابقين المقربين الذين قال: الله تعالى فيهم: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى (١٢) (١) يعني من الصحابة والتابعين وأتباعهم فإنهم الأولون من هذه الأمة وقليل من الآخرين أي: أخرى هذه الأمة يعني بعد الألف وهم أرباب كمالات النبوة فإنهم كثيرون في الصدر الأول، قال: المجدد للألف الثاني رضي الله عنه الصحابة كلهم كانوا من أرباب كمالات النبوة وأكثر التابعين وبعض من أتباع التابعين، وقيل: بعد الألف من الهجرة قلت: فعلى هذا قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ بيان للسابقين الأولين وليست كلمة من للتبعيض ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ يشتمل السابقين الآخرين وأصحاب اليمين الذين هم ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى﴾ (١٢) من الصدر الأول ومن بعدهم وثلة من الآخرين إلى ما بعد الألف إلى يوم القيامة، وقال عطاء الذين اتبعوهم بإحسان هم الذين يذكرون الصحابة بالترحم والدعاء، قال: أبو صخر حميد بن زياد أتيت محمد بن كعب القرظي فقلت له ما قولك في أصحاب رسول الله ﷺ فقال: جميع أصحاب رسول الله ﷺ في الجنة محسنهم وسيئهم فقلت له: من أين تقول هذا؟ قال: اقرأه قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ إلى أن قال: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ قال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ شرط في التابعين شريطة وهو أن يتبعوهم في أفعالهم الحسنة دون السيئة، قال: أبو صخر: فكأنني لم أقرأ هذه الآية قط وما عرفت تفسيرها حتى قرأها علي محمد بن كعب قلت: وأولى بالاحتجاج على كون جميع الصحابة في الجنة قوله تعالى ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَكْثَرَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ (٢) فإنه صريح في أن جميع الصحابة أولهم وآخرهم وعدهم الله تعالى الحسنى يعني الجنة وقال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا

(١) سورة الواقعة، الآية: ١٠ - ١٣ .

(٢) سورة الحديد، الآية: ١٠ .

أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه^(١) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري، وقال رسول الله ﷺ: «لا تمس النار مسلماً رأي أو رأي من رأي»^(٢) رواه الترمذي عن جابر وقال رسول الله ﷺ: «مت من أحد من أصحابي يموت بأرض إلا بعث قائداً ونوراً لهم يوم القيامة» رواه الترمذي من حديث بريدة وقال رسول الله ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» رواه رزين من حديث عمر بن الخطاب ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ رباً وعن الإسلام ديناً ومحمد رسولاً ونبيّاً بما ألقى الله حبه في قلوبهم وبما نالوا من نعم الدنيوية والدينية ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ قرأ ابن كثير من تحتها كما هو في سائر المواضع وكذلك في مصاحف أهل مكة والباقيون بحذف من ﴿خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَنْ حَوْلَكَ مِنْ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ﴾ وهم من مزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار، أخرجه ابن المنذر عن عكرمة كان منازلهم حول المدينة وكون بعضهم منافقين كما يدل عليه من التبعضية لا ينافي ما مر من الأحاديث في مناقب غفار وأسلم وأشجع وغيرها ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ يعني من الأوس والخزرج عطف على ممن حولكم وقوله تعالى ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ صفة للمنافقين فصل بينها وبينه بالمعطوف على الخبر أو كلام مبتدأ بيان لتمرنهم في النفاق، وجاز أن يكون الظرف خبر المحذوف وجملة مردوا صفة لمبتدأ محذوف تقديره ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق أي: مرنوا وثبتوا عليه يقال تمرد فلان على ربه أي: عتى ومرد على معصية أي: مرن وثبت عليها وإعتادها ومنه المرید والمارد، قال: ابن إسحاق: أي لجوا فيه وأبوا غيره وقال ابن زيد: أقاموا عليه ولم يتوبوا في القاموس مرد كنصر وكرم مرودا ومرارو فهو مرید ومارد ومتمرد أقدم وعتا أو هو يبلغ الغاية التي يخرج إليها من جملة ما عليها ذلك الصنف ومرد على الشيء مرن واستمر، وقال بعض أهل اللغة: المارد المتعري من الخيرات ومردوا على النفاق يعني تعروا عن الخير وهم على النفاق ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ منافقاً يعني لا تعرفهم يا محمد بصفة النفاق مع كمال فطنتك وصدق فراستك فهو تقرير لمهارتهم وتوقيهم في تحامي مواقع التهم إلى حد خفي عليك ﴿مَنْ نَعْلَمُهُمْ﴾ نطلع على سرائرهم أن قدروا أن لبسوا عليك

(١) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً» (٣٦٧٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: المناقب، باب: ما جاء في فضل من رأى النبي ﷺ وصحبه (٤٠٢١).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: ما جاء في فضل من رأى النبي ﷺ وصحبه (٣٨٦٧).

فلا يقدر أن يلبسوا علينا ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ﴾ قال: الكلبي والسدي قام النبي ﷺ خطيباً يوم الجمعة، فقال: أخرج يا فلان فإنك منافق أخرج يا فلان فإنك منافق أخرج ناساً من المسجد وفضحهم فهذا هو العذاب الأول والثاني عذاب القبر، وقال مجاهد الأول القتل والسبي والثاني عذاب القبر وعنه رواية أخرى عذبوا بالجوع مرتين، وقال قتادة الدبيلة في الدنيا والعذاب القبر، وقال ابن زيد الأولى المصائب في الأموال والأولاد في الدنيا والأخرى عذاب القبر، وعن ابن عباس الأولى إقامة الحدود عليهم والأخرى عذاب القبر وقال ابن إسحاق هو ما يدخل عليهم من غيظ الإسلام ودخولهم فيه من غير رغبة فيه ثم عذاب القبر، وقيل: أحدهما ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند قبض أرواحهم والأخرى عذاب القبر، وقيل: الأولى إحراق مسجدهم مسجد الضرار والأخرى إحراقهم بنار جهنم يعني في القبر، قلت: وملخص الأقوال إنهم يعذبون مرتين مرة في الدنيا بأي نوع من الأنواع المذكورة ومرة في القبور ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ أي: عذاب جهنم ينظفون فيه ﴿وَأَخْرُونَ﴾ معطوف على قوله منافقون أو على محذوف موصوف مردوا يعني ممن حولكم من الأعراب قوم آخرون أو من أهل المدينة قوم آخرون ليسوا بمنافقين بل صفتهم أنهم، ﴿أَعْتَرَفُوا﴾ اقروا ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ يعني: بتخلفهم من غزوة تبوك بلا عذر وجاز أن يكون آخرون مبتدأ خبره ﴿خَلَطُوا﴾ يعني وقوم آخرون غير منافقين خلطوا ﴿عَمَلًا صَالِحًا﴾ من الإيمان والصلاة والجهاد مع رسول الله ﷺ غير مرة وإظهار الندم والاعتراف بالذنب بعد افتراقهم إياه ﴿وَأَخْرَسَيْنَاهُمْ﴾ وهو التخلف عن الغزو وموافقة أهل النفاق والواو بمعنى الباء كما يقال بعث الشاة شاة ودرهماً أو التقدير خلطوا عملاً صالحاً بالسيء حيث خلطوا الإيمان بترك امتثال أمر رسول الله ﷺ في النفر إلى الجهاد وآخر شيئاً بالصالح حيث خلطوا التخلف عن الجهاد بالندم والتوبة ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يقبل توبتهم المدلول عليها بقوله اعترفوا بذنوبهم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يتجاوز عن التائب ويتفضل عليه، روى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس والبيهقي عن سعيد بن المسيب في هذه الآية قال: ابن عباس كانوا عشرة تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك منهم أبو لبابة فلما قفل رسول الله ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد وكان ممر رسول الله ﷺ إذا رجع من المسجد عليهم فلما رآهم رسول الله ﷺ، قال: من هؤلاء الموثوقون أنفسهم؟ قالوا: هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله فعاهدوا الله لا يطلقون أنفسهم حتى تكون أنت تطلقهم وترضى عنهم وقد اعترفوا بذنوبهم، فقال: رسول الله ﷺ: «وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا

أعذرهم حتى يكون الله تعالى هو الذي يطلقهم رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين، فلما بلغهم ذلك قالوا: ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله تعالى هو الذي يطلقنا فأنزل الله تعالى هذه الآية، ونعى من الله تعالى وأجب فلما نزلت أرسل رسول الله ﷺ إليهم فأطلقهم وعذرهم، وقال ابن المسيب فأرسل رسول الله ﷺ إلى أبي لبابة ليطلقه فأبى أن يطلقه أحد إلا رسول الله ﷺ فجاء رسول الله ﷺ فأطلقه بيده فجاؤوا بأموالهم فقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا، فقال: رسول الله ﷺ: «ما أمرت أن آخذ من أموالكم» فأنزل الله عز وجل ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ يعني كفارة لذنوبهم، وقيل: هو الزكاة ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ عن الذنوب التاء للخطاب أو لغيبة المؤنث فإنه صفة لصدقة والتاء في ﴿وَنَزَكِهِمْ بِهَا﴾ للخطاب البتة أي: تنمي حسناتهم وترفعهم إلى منازل المخلصين، وكذا أخرج ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس نحوه، وأخرج هذا القدر عن سعيد بن جبيرة والضحاك وزيد بن أسلم وغيرهم، قال: البغوي وروى عطية عن ابن عباس كانوا خمسة أحدهم أبو لبابة وقال سعيد بن جبيرة وزيد بن أسلم كانوا ثمانية وقال قتادة والضحاك كانوا سبعة وأخرج ابن مردويه وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس قال: غزا رسول الله ﷺ فتخلف أبو لبابة وخمسة معه ثم إن أبا لبابة ورجلين معه تفكروا وندموا وأيقنوا بالهلكة وقالوا: نحن في الظلال والطمانية مع النساء ورسول الله ﷺ والمؤمنون معه في الجهاد والله لنوثقن أنفسنا بالسواري فلا نطلقها حتى يكون رسول الله ﷺ هو يطلقها ففعلوا وبقي ثلاثة نفر لم يوثقوا الحديث، وأخرج عبد عن قتادة أنها نزلت في سبعة أربعة منهم ربطوا أنفسهم بالسواري وهم أبو لبابة ومرداس وأوس وجذام، وأخرج أبو الشيخ وابن مندة في الصحابة من طريق الثوري عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: كان ممن تخلف عن رسول الله ﷺ أبو لبابة وأوس بن جذام وثعلبة بن وداعة وكعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية فجاء أبو لبابة وثعلبة فربطوا أنفسهم بالسواري وجاؤوا بأموالهم فقالوا يا رسول الله خذها هذا الذي حبسنا عنك فقال: لا أحلهم حتى يكون الله تعالى يحلهم فنزل ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية إسناده قوي، قال: البغوي: فاتفقت الروايات أن أحدهم أبو لبابة وقال قوم نزلت في أبي لبابة خاصة، قال: البغوي: واختلفوا في ذنبه؟ قال: مجاهد نزلت حين قال: لقريظة: إن نزلتم علي حكمه فهو الذبح وأشار إلى حلقه وقد ذكرنا القصة في سورة الأنفال في تفسيره قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ﴾^(١) الآية وكذا زعم ابن

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٧.

إسحاق أن ارتباطه كان في وقعة بني قريظة قاله البيهقي، وقال الزهري نزلت في تخلفه عن غزوة تبوك قلت: لعله ربط نفسه في الوقعتين جميعاً ويدل عليه ما ذكر عن ابن عباس وسعيد بن المسيب، وأخرج ابن مردويه بسند فيه الواقدي عن أم سلمة أن توبة أبي لبابة نزلت في بيتي فسمعت رسول الله ﷺ يضحك في السحر فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: تيب على أبي لبابة فقلت: أؤذنه بذلك قال: ما شئت فقم على باب الحجرة وذلك قبل أن يضرب الحجاب فقلت: يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك فثار الناس ليطلقوه فقال: حتى يأتي رسول الله ﷺ فيكون هو الذي يطلقني فلما خرج إلى الصبح أطلقه فنزلت ﴿وَأَخْرُونَ أَعْرَفُوا﴾ الآية وهذا الحديث يدل على أن ذنبه ما مر في قصة قريظة لأن غزوة تبوك كان بعد نزول الحجاب بخلاف وقعة قريظة فالأولى أن يقال بتعدد الارتباط في القصتين جميعاً لصحة الروايتين جميعاً، ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادع لهم واستغفر.

قال البغوي: واختلفوا في وجوب الدعاء على الإمام عند أخذ الصدقة؟ فقال بعضهم: يجب، وقال بعضهم يستحب وقال بعضهم: يجب في الصدقة المفروضة ويستحب في التطوع وقيل: يجب على الإمام ويستحب للفقير أن يدعو للمعطي، روى البخاري عن عبد الله بن أبي أوفى وكان من أصحاب الشجرة قال: كان النبي ﷺ إذا أتاه قوم بصدقة قال: «اللهم صل عليهم» فأتاه أبي صدقة فقال: «اللهم صل على آل أبي أوفى»^(١) واعلم أن الصلاة في اللغة الدعاء والرحمة والاستغفار وحسن الثناء من الله على رسوله كذا في القاموس فإذا أسند إلى العباد يراد بها الدعاء والاستغفار، وهو المراد بهذه الآية وبما قال: رسول الله ﷺ: «إذا دعا أحدكم إلى طعام فليجب فإن كان مفطراً فليأكل وإن كان صائماً فليصل»^(٢) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة أي: ليدعوا، وفي حديث جابر قالت امرأة: يا رسول الله صل على زوجي ففعل أخرجه أحمد وصححه ابن حبان، وإذا أسند إلى الله تعالى يراد به الرحمة والثناء الحسن وهو المراد بقوله ﷺ: «اللهم صلي على آل أبي أوفى» وقوله ﷺ: «اللهم اجعل صلواتك ورحمتك

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: صلاة الإمام ودعاؤه لصاحب الصدقة (١٤٩٧)، وأخرجه مسلم في كتاب الزكاة باب: الدعاء لمن أتى بصدقته (١٠٧٨).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: النكاح، باب: الأمر بإجابة الداعي إلى دعوة (١٤٣١)، وأخرجه أبو داود في كتاب: الصيام، باب: في الصائم يدعى إلى وليمة (٢٤٥٨)، وأخرجه الترمذي في كتاب: الصوم، باب: ما جاء في إجابة الصائم الدعوة (٧٧٤).

على آل سعد بن عبادة^(١) رواه أبو داود والنسائي عن قيس بن سعد وسنده جيد، وفي حديث أبي هريرة مرفوعاً: «إن الملائكة يقول لروح المؤمن صلى الله عليك وعلى جسدك» باعتبار المعنى اللغوي ونظراً إلى ما ذكرنا من الأحاديث قال: يحيى بن يحيى لا بأس بالصلاة على غير الأنبياء يعني الدعاء بهذا اللفظ المخصوص لمن أهل الشرع من المحدثين والفقهاء اصطلاحاً على اختصاص لفظ الصلاة بالأنبياء أو بنبيينا ﷺ إلا تبع وبناء على هذا لإصلاح قال مالك: أكره الصلاة على غير الأنبياء، قال: عياض: هذا قول مالك وسفيان وهو قول المتكلمين والفقهاء قالوا: يذكر غير الأنبياء بالرضى والغفران والرحمة وأما الصلاة على غير الأنبياء فلم يكن من المعروف وإنما أحدثت في دولة بني هاشم يعني الخلفاء العباسية وقال أبو حنيفة يجوز على غير الأنبياء تبعاً ولا يجوز استقلالاً وبه قال: جماعة. وجه هذا القول أن الصلاة لما وضعت في اصطلاح أهل الشرع لتعظيم الأنبياء خصوصاً لتعظيم نبيينا محمد ﷺ لا يجوز إطلاقها لغير الأنبياء لقوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرُّسُولِ يَتَنَكَّبُكُمْ كَدُّعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾^(٢) ومن ههنا قال: ابن عباس: ما أعلم الصلاة ينبغي من أحد على أحد إلا على النبي ﷺ رواه ابن أبي شيبة من طريق عثمان بن حكيم عن عكرمة عنه وهذا سند صحيح، قال: البيهقي يحمل قول ابن عباس بالمنع على ما إذا كان على وجه التعظيم وأما إذا كان على وجه الدعاء فلا بأس به، وقال ابن القيم: المختار أن يصلي على الأنبياء والملائكة وأزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وذريته وأهل الطاعة على سبيل الإجمال ويكره في غير الأنبياء لشخص معروف بحيث يصير شعار ولا سيما إذا ترك في حق مثله أو أفضل منه كما يفعله الرافضة كذا قال: الحافظ ابن حجر قال: الله تعالى: ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ﴾ قرأ حفص وحمزة والكسائي ﴿أَمَلَاتَكَ تَأْمُرَكَ﴾^(٣) وكذا قرأ حمزة والكسائي في المؤمنين بالتوحيد ونصب التاء هنا والباقون فيهن بالجمع وكسر التاء هنا ولا خلاف في رفع تاء في هود ﴿سَكَنٌ لَهُمْ﴾ قال: ابن عباس رحمة لهم وقال أبو عبيدة ثبيت لقلوبهم وطمانينة لهم بأن الله قد قبل توبتهم، قلت: أرباب القلوب الصافية إذا صدر من أحدهم مصيبة تغشي ظلماتها قلبه فيحصل له حالة كما يحصل الخفقان بصعود إلا تجرة من المعدة إلى القلب فإذا استغفر له رسول الله ﷺ وغفر الله له زال تلك الظلمات وحصلت له طمانينة وسكون ومن ههنا قال:

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: كم مرة يسلم الرجل في الاستئذان (٥١٧٦).

(٢) سورة النور، الآية: ٦٣.

(٣) سورة هود، الآية: ٨٧.

الله تعالى: ﴿أَلَا يَذَكِّرُ اللَّهُ نَظْمِينَ الْقُلُوبِ﴾^(١) ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ باعترافهم بذنوبهم وبدعاء الرسول الله ﷺ ﴿عَلِيمٌ﴾ بتدائمهم على ما صدر منهم.

قال البغوي: لما نزلت توبة لهؤلاء قال: الذين لم يتوبوا من المتخلفين هؤلاء كانوا معنا بالأمس لا يكلمون ولا يجالسون فما لهم فقال: الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ تعدية بعن لتضمنه معنى التجاوز ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ يقبلها قبول من يأخذ شيئاً ليؤدي بدله عن أبي هريرة قال: سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: «والذي نفسي بيده ما عبد يتصدق بصدقة من كسب طيب - ولا يقبل الله إلا طيباً ولا يصعد إلى السماء إلا الطيب - إلا كأنما يضعها في يد الرحمن فيريها له كما يربي أحدكم فلوه حتى أن اللقمة ليأتي يوم القيامة وأنها كمثل الجبل العظيم ثم قرأ ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾^(٢) رواه الشافعي وفي الصحيحين بلفظ «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبه كما يربي أحدكم فلوه حتى يكون مثل الجبل» ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ فإن من شأنه قبول توبة التائبين والتفضل عليهم ﴿وَقُلْ﴾ يا محمد لهم أو لجميع الناس، ﴿اعْمَلُوا﴾ ما شئتم ﴿فَسِيرَى اللَّهُ عَمَلِكُمْ﴾ فإنه لا يخفى عليه شيء من الخير والشر ﴿وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنه تعالى يظهر ما أخفيتم على رسوله فيطلع هو عليه والمؤمنين، قال: مجاهد: هذا وعيد لهم قبل رؤيته النبي ﷺ بإعلام الله تعالى إياه ورؤية المؤمنين بإيقاع المحبة في قلوبهم لأهل الصلاح والبغض لأهل الفساد ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَلِيِّ وَالشَّهَادَةِ فَيَتَشَكَّرُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَآخِرُونَ﴾ من أهل المدينة من المتخلفين ﴿مَرْجُونَ﴾ قرأ أهل المدينة والكوفة غير أبي بكر بغير همز والباقون مرجؤون بالهمز وهما لغتان من أرجاءه إذا أخرته ﴿لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ يعني مؤخرون لأمر الله في شأنهم ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ فإن الله تعالى يعذب على الصغيرة إن شاء ويغفر الكبائر توبة إن شاء لا يجب عليه شيء فلا بد للعباد من الخوف والرجاء فأما التي هي للشك راجعة إلى العباد ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعل بهم والمراد بهؤلاء كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع الذين لم يوثقوا أنفسهم بالسواري من العشرة المتخلفة أمر رسول الله ﷺ أن لا يسلموا عليهم ولا يكلموا هم فيما رأوا ذلك

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

(٢) أخرجه الشافعي في الجزء الأول/ الباب الأول: في الأمر بها والتهديد على تركها وعلى من تجب وفيم تجب (٦٠٦)، وأخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: الصدقة من كسب طيب (١٤١٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها (١٠١٤).

أخلصوا بنياتهم وفوضوا أمرهم إلى الله فرحمهم الله أخرجه الشيخان من حديث كعب بن مالك مطولاً وسنذكر قصتهم والله أعلم.

روى ابن إسحاق عن أبي رهم كلثوم بن الحصين الغفاري وكان ممن بايع تحت الشجرة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق آخر عن ابن عباس وابن المنذر عن سعيد بن جبير ومحمد بن عمر عن يزيد بن رومان أن بني عمرو بن عوف بنوا مسجداً فبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم فيصلي فيه فلما رأى ذلك ناس من بني غنم بن عوف حسدوهم فقالوا نبني نحن أيضاً مسجداً كما بنوا مسجداً، فقال: لهم أبو عامر: الفاسق قبل خروجه إلى الشام ابنوا مسجداً واشهدوا فيه بما استطعتم من قوة وسلاح فأتى ذاهب قيصر ملك الروم فأتى بجند من الروم فأخرج محمداً وأصحابه فكانوا يرصدون قدوم أبي عامر الفاسق، وكان قد خرج من المدينة محار بالله تعالى ولرسوله ﷺ فلما فرغوا من مسجدهم أرادوا أن يصلي فيه رسول الله ﷺ ليروج لهم فلما أرادوا من الفساد والكفر والعناد، فعصم الله تعالى رسوله ﷺ فأتى جماعة منهم رسول الله ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله ﷺ إنا بنينا مسجداً الذي العلة والحاجة والليل الشاتية والليل المطيرة وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، قال: إني على جناح سفر وحال شغل وإذا قدمنا إن شاء الله صلينا لكم فيه فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك ونزل بذي أوان مكان بينه وبين المدينة ساعة أنزل الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ أَخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُتِيَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١١٨﴾ أَفَمَنْ أَتَسَسَّ بِئِنَّكُمْ عَلَى تَقْوَىٰ مِنْكُمْ اللَّهُ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَتَسَسَّ بِئِنَّكُمْ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١١٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَتُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٢٠﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ أَخَذُوا مَسْجِدًا﴾ قرأ أهل المدينة والشام بلا واو وكذلك في مصاحفهم والباقون بالواو عطفاً على وآخرون مرجون، أو مبتدأ خبره محذوف أي: ممن وضعنا

الذين اتخذوا مسجداً أو منصوباً على الإختصاص ﴿ضِرَارًا﴾ أي: مضارة للمؤمنين، قال: ابن إسحاق وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً حذام بن خالد من بني عبيد بن زيد أحد بني عمرو بن عوف ومن داره خرج مسجد الشقاق، وثعلبة بن حاطب من بني أمية بن زيد، ومعتب بن قشير من بني ضبيعة بن زيد وأبو حبيبة بن الأزعر من بني ضبيعة بن زيد، وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف من بني عمرو بن عوف، وحارثة بن عامر وابناه مجمع بن حارثة وزيد بن حارثة ونبتل بن الحارث من بني ضبيعة ونجاد بن عثمان من بني ضبيعة ووديعة بن ثابت ورجل يقال بخرج بنوا هذا المسجد يضارون به مسجد قباء ﴿وَكُفْرًا﴾ بالله ورسوله ﷺ ﴿وَتَقْرِيحًا بِرَبِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم كانوا يصلون في مسجد قباء فبنوا مسجد الضرار ليصلي فيه بعضهم فيؤدي ذلك إلى الإختلاف وافتراق الكلمة وكان يصلي بهم مجمع بن حارثة ﴿وَرِزْكَادًا﴾ أي: انتظار وإعداد ﴿لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، قال: البغوي: وهو أبو عامر الراهب، وكان بني عمرو بن عوف وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة وكان قد ترهب في الجاهلية وتنصر ولبس المسوح فلما قدم النبي ﷺ المدينة قال: له أبو عامر: ما هذا الذي جئت به قال: «جئت بالحنيفة دين إبراهيم» قال: أبو عامر: فأنا عليها فقال: النبي ﷺ: «إنك لست عليها»، قال: بلى ولكنك أدخلت في الحنيفية ما ليس منها فقال: النبي ﷺ: «ما فعلت ولكن جئت بيضاء نقية» فقال: أبو عامر: أمات الله الكاذب منا طريداً وحيداً غريباً، فقال: النبي ﷺ: «آمين» وسماه أبا عامر الفاسق، فلما كان يوم أحد قال: أبو عامر لرسول الله ﷺ: لا أجد قوماً يقاتلوننا إلا قاتلتك معهم فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين، فلما انهزمت هوازن خرج هارباً إلى الشام وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح وابنوا مسجداً فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فات بجند من الروم فأخرج محمداً وأصحابه فبنوا مسجد الضرار إلى جنب مسجد قباء ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ بناءه متعلق بحارب أو ما اتخذوا أي: اتخذوا مسجداً من قبل أن ينافق هؤلاء بالتخلف لأن بنائهم كان قبل غزوة تبوك الأولى أظهر ﴿وَلِيَحْلِفَنَّ﴾ هؤلاء المنافقون الذين بنوا مسجداً الضرار ﴿إِنْ أَرَدْنَا﴾ أي: ما أردنا ببناءه إلا الخصلة ﴿الْحَسَنَى﴾ وهي المرفق بالمسلمين في المطر والحر والتوسعة على أهل الضعف والعجز عن المصير إلى مسجد الرسول الله ﷺ، أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما بنى رسول الله ﷺ مسجد قباء خرج رجال من الأنصار منهم بخرج فبنوا مسجد النفاق فقال: رسول الله ﷺ ليخرج ويملك ما أردت إلى ما أرى، قال: يا رسول الله: والله ما أردت إلا الحسنى فأنزل الله تعالى هذه

الآية ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في قولهم وحلفهم ﴿لَا نَقُودُ فِيهِ أَبَدًا﴾ للصلاة كذا قال: ابن عباس، قال: ابن النجار: هذا المسجد بناه المنافقون مضاهاة لمسجد قباء وكانوا يجتمعون فيه ويعيذون النبي ﷺ ويستهزؤون به فلما نزلت هذه الآية وهو ﷺ بذي أوان، قال: ابن إسحاق فيما روى عن الزهري عن أبي رهم دعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف ومعن بن عدي أخا عاصم بن عدي، وزاد البغوي: وعامر بن السكن ووحشي قاتل حمزة ولم يذكر عاصماً، وزاد الذهبي في التجريد سويد بن عباس الأنصاري فقال: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فهدموه وحرقوه فخرجوا مسرعين حتى أتوا سالم بن عوف فقال: مالك لرفيقه انتظروني حتى أخرج إليكما فدخل على أهله وأخذ سعفاً من النخل فأشعل فيه ناراً ثم خرجوا يشتدون حتى أتوا المسجد بين المغرب والعشاء وفيه أهله فحرقوه وهدموه حتى وضعوه بالأرض وتفرق عنه أصحابه وأمر النبي ﷺ أن يتخذ ذلك كناسة يلقي فيه الجيف والتن والقمامة، ومات أبو عامر الفاسق بالشام طريداً وحيداً غريباً.

وذكر محمد بن يوسف الصالحي أنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة عرض على عاصم بن عدي المسجد ليتخذ داراً فقال: يا رسول الله ما كنت لأتخذ مسجداً قد أنزل فيه أنزل داراً ولكن أعطه ثابت بن أقرم فإنه لا منزل له فأعطاه رسول الله ﷺ ثابت بن أقرم فلم يولد له في ذلك البيت مولود قط ولم ينفق فيه حمام قط ولم تحضن فيه دجاجة قط، قال: البغوي: روي أن بني عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قباء أتوا عمر بن الخطاب في خلافته ليأذن لمجمع بن حارثة قيامهم في مسجدهم فقال ولا نعمت عين أليس بإمام مسجد الضرار، فقال: له مجمع يا أمير المؤمنين لا تعجل علي فوالله لقد صليت فيه وإنني لا أعلم ما أضمروا عليه ولو علمت ما صليت معهم فيه كنت غلاماً قارئاً للقرآن وكانوا شيوخاً لا يقرؤون فصليت ولا أحسب إلا أنهم يتقربون إلى الله ولا أعلم ما في أنفسهم، فعذره عمر وصدقة وأمره بالصلاة في مسجد قباء ﴿لَمَسْجِدٌ﴾ اللام لام الابتداء وقيل: لام القسم ﴿أَتَيْسَرَ﴾ أي بني أصله ﴿عَلَّ التَّقْوَى مِنْ أَوْلَى يَوْمٍ﴾ من أيام بنائه ووضع أساسه أو من أول يوم حل النبي ﷺ بدار الهجرة كذا قال: السهيلي ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ قال: ابن عمر وزيد بن ثابت وأبو سعيد الخدري هو مسجد المدينة لما روى مسلم وأحمد وابن أبي شيبة والترمذي والنسائي وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أبي سعيد الخدري قال: إنني دخلت على رسول الله ﷺ في بيت بعض نساءه فقلت يا رسول الله ﷺ: أي المسجد

الذي أسس على التقوى؟ فأخذ كفاً من حصباء فضرب الأرض، ثم قال: «هو مسجدكم هذا لمسجد المدينة»^(١) وأخرج الطبراني والضياء المقدسي في المختارة عن زيد بن ثابت أن النبي ﷺ سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى قال: «هو مسجدي هذا» وأخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه عن ابن عمر قال: المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي ﷺ، وقد ورد في فضل هذا المسجد ما رواه الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال: رسول الله ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي»^(٢) رواه البغوي بلفظ «ما بين قبري ومنبري» وروى الشيخان وأحمد والنسائي عن عبد الله بن زيد المازني «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة» وكذا روى الترمذي عن علي وعن أبي هريرة قال: قال: رسول الله ﷺ: صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام»^(٣) رواه. وذهب قوم إلى أنه مسجد قباء وهو رواية عطية عن ابن عباس وهو قول عروة ابن الزبير وسعيد بن جبير وقتادة أسسه رسول الله ﷺ وصلى فيه أيام مقامه بقباء حين قدم المدينة مهاجراً من الاثنين إلى الجمعة، أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس وأبو الشيخ عن الضحاك، وروى البخاري عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: «كان النبي ﷺ يأتي مسجد قباء كل سبت ماشياً وراكباً وكان عبد الله يفعل، وزاد نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ فيصلي فيه ركعتين»^(٤) فالداروردي وغيره وليس هذا اختلافاً لأن كلاً منهما أسس على التقوى كذا قال: السهيلي والحافظ بن حجر، قلت: يعني مورد نزول الآية وإن كان خاصاً فالعبرة لعموم اللفظ فإن النكرة الموصوفة بصفة عامة من ألفاظ العموم يعني كل مسجد أسس على التقوى أحق أن تقوم فيه من غيره لكن الظاهر من سياق الآية أن مورد الآية هو مسجد قباء فإن مسجد الضرار كان للمضاراة مسجد قباء وبدليل قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ يَلْبَسُونَ أَثْمَارَ الْجَنَّةِ﴾ من الأحداث والجنائيات والنجاسات أو من المعاصي وذنابل الأخلاق ﴿وَأَلَّهُ يَحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ أصله للمتطهرين أدغم التاء في

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: بيان أن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي ﷺ (١٣٩٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التهجد، باب: فضل ما بين القبر والمنبر (١١٣٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: ما بين القبر والمنبر روضة من رياض الجنة (١٣٩٠).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في أي المساجد أفضل (٣٢٢).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة (١١٩٣).

الطاء، روى البغوي بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: نزلت هذه الآية في أهل قباء فيه رجال يحبون أن يتطهروا قال: كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية^(١) وكذا روى الترمذي عنه، وروى ابن مردويه عن ابن عباس أنه قال: لما نزلت مشى رسول الله ﷺ معه المهاجرون حتى وقف على مسجد قباء فإذا الأنصار جلوس فقال: رسول الله ﷺ: «أؤمنون أنتم؟ فسكتوا فأعادها فقال: عمر أنهم مؤمنون وأنا معهم فقال ﷺ: «أترضون بالقضاء؟ قالوا: نعم، قال: «أتصبرون على البلاء؟ قالوا: نعم، قال: «أتشكرون على الرخاء؟ قالوا: نعم، قال: عليه السلام: «مؤمنون ورب الكعبة» فجلس ثم قال: «يا معشر الأنصار إن الله قد أثنى عليكم فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط» فقالوا: يا رسول الله ﷺ نتبع الغائط الأحجار الثلاثة ثم نتبع الأحجار الماء فتلا ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا﴾ وأخرج الطبراني في «الأوسط» صدر الحديث إلى قوله ورب الكعبة، وأخرج عمر بن شيبه في أخبار المدينة من طريق الوليد بن أبي سندر الأسلمي عن يحيى بن سهل الأنصاري عن أبيه أن هذه الآية نزلت في أهل قباء كانوا يغسلون أديبارهم من الغائط، وأخرج ابن جرير عن عطاء قال: أحدث قوم الوضوء بالماء من أهل قباء فنزلت فيهم ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا﴾، وروى ابن خزيمة في «صحيحه» عن عويمر بن ساعدة أنه ﷺ أتاهم في مسجد قباء فقال: «إن الله قد أحسن عليكم الثناء في الطهور في قصة مسجدكم هذا فما الطهور الذي تطهرون به؟ قالوا: والله يا رسول الله لا نعلم شيئاً إنه كان لنا جيران من اليهود وكانوا يغسلون أديبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا، وفي حديث فقالوا: نتبع الحجارة المار فقال: هو ذاك فعليكموه ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ﴾ سؤال تقرير وجوابه مسكوت عنه لوضوحه ﴿بُنِيَئَهُ﴾ يعني بنيان دينه أو بنيان ما بناه ﴿عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ﴾ على قاعدة محكمة هي التقوى من الله وطلب مرضاته بالطاعة ﴿خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنِيَئَهُ﴾ قرأ نافع وابن عامر أسس في المؤمنين بضم الهمز وكسر السين على البناء للمفعول وبنيانه بالرفع، والباقون بفتح الهمز والسين على البناء للفاعل والنصب ﴿عَلَى شَفَا جُرْفٍ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة وأبو بكر بسكون الراء والباقون بضم الراء وهما لغتان ﴿هَكَرٍ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة وحفص وهشام والنقاس عن الأخفش بالفتح وورش بين اللفظين والباقون بالإمالة، يعني على قاعدة هي أضعف القواعد وأرخاها والشفا الجرف والشفير وجرف الوادي جانبه الذي ينحفر بالماء وتجرفه السيول وتذهب به، والهار الهائر وهو المنصدع

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة التوبة (٣١٠٠).

الذي أشفى على الهدم والسقوط وأصل هار هور فعل قصر عن فاعل كخلف من خالف
نقلب الواو الفاء لتحريكها وانفتاح ما قبلها، وقال البغوي: أصله هائر ثم فقييل: هار مثل
شاك وعاق وعائق وقيل: هو من هار يهار إذا انهدم ومعناه الساقط الذي يتدامى بعضه في
أثر بعض كما ينهار الرمل والشيء الرخو ﴿فَأَنْهَارَ بِهِ﴾ أي: سقط بالباقي ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾
والمعنى أفمن أسس بنيانه على قاعدة محكمة وهو تقوى الله ورضوانه خيراً من أسسه على
قاعدة هي أضعف القواعد وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل شفا جرف هار في قلة
الثبات والاستمسك، شفا جرف مجازاً عن الشرك والنفاق الذي هو ضد التقوى على
سبيل الاستعارة ثم أثبتة الانهيار الذي هو لازم للجرف على سبيل الترشيح ليصور أن
المبطل كأنه أسس بنياناً على شفا جرف من أودية جهنم فإنها ربه ذلك الجرف فهوى في
قعرها، قال: ابن عباس يريد صيرهم نفاقهم إلى النار، قال البغوي: يريد الله تعالى أن
بناء هذا المسجد للضرار كالبناء على شفير جهنم بنهور بأهلها فيها، قال: محمد بن
يوسف الصالحي: قال ابن عطية: روى عن ابن عمر أنه قال: المراد بالمسجد الذي
أسس على التقوى هو مسجد رسول الله ﷺ، والمراد بقوله: ﴿أَفَمَنْ آسَسَ بِنُيُنُّهُ عَلَىٰ
تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ﴾ هو مسجد قباء وأما البنيان الذي أسس على شفا جرف هار
فهو مسجد الضرار بالإجماع ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ إلى ما فيه صلاح ونجاة،
روى ابن المنذر عن سعيد بن جبير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة وابن
المنذر عن جريج رحمهم الله أنه ذكر لنا أنه حضر في مسجد الضرار بقعة فأبصروا الدخان
يخرج منها، وقال البغوي: قال: جابر بن عبد الله رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار
﴿لَا يَزَالُ بُنِيَتْهُمُ الَّذِي بَنَوْا﴾ أي: بناءهم الذي بنوه، مصدر أريد به المفعول وليس يجمع
ولذلك قد يدخله التاء ووصف بالمفرد وأخبر عنه بقوله: ﴿رَبِّةٌ﴾ أي: شكاً ونفاقاً ﴿فِي
قُلُوبِهِمْ﴾ يعني أن بنيانهم هذا لا يزال سبباً لشكهم وتزايد نفاقهم فإنه حملهم على ذلك
وهم لا يزالون يحسبون أنهم كانوا في بنيانه محسنين كما حجب العجل إلى قوم موسى كذا
قال: ابن عباس.

وقال الكلبي: حسرة وندامة لأنهم ندموا على بناءه، وقال السدي: لا يزال هدم
بنيانهم ريبة أي: غيظاً في قلوبهم ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ﴾ قرأ ابن عامر وأبو جعفر وحفص وحمزة
بفتح التاء والباقون بضمها والاستثناء مفرغ من أعم الأزمنة وقرأ يعقوب إلى أن على الغاية
وتقطع بضم التاء والتخفيف المجرد يعني في كل زمان الأزمان تقطع ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ أو لا يزال
إلى زمان قطعها يعني إلى وقت لا يبقى لقلوبهم قابلية الإدراك والإضمار وهو في غاية

المبالغة، وقيل: المراد بالتقطع ما هو كائن بالقتل أو في القبر أو في النار قال: الضحاک وقتادة لا يزالون في شك منه إلى أن يموتون فيستيقظوا ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بنياتهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما أمر بهدم بنائهم والله أعلم.

قال أهل السير: خرج رسول الله ﷺ يعني من مكة في موسم الحج في السنة الحادية عشر من البعثة فعرض نفسه على قبائل العرب فيينا هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج فقال: لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام وتلا القرآن، ومن صنع الله أن اليهود كانوا معهم في بلادهم وكانوا أهل كتاب والأوس والخزرج أكثر منهم وكانوا أهل أوثان فكانوا إذا كان بينهم شيء، قالوا: إن نبياً سيبعث الآن قد أظل زمانه فيتبعه فنقتلكم معه، فلما كلمهم النبي ﷺ عرفوا النعت فقال: بعضهم لبعض أنه نبي لا يسبقنا اليهود إليه فأجابوه وأسلم منهم ستة نفر كلهم من الخزرج وهم أسعد بن زرارة وعوف بن الحارث أمه عفراء ورافع بن مالك وقطبة بن عامر بن جديدة وعقبة بن عامر بن نابي وجابر بن عبد الله بن رباب وقيل: عبادة بن الصامت مكان جابر رضي الله عنهم ومن قال: أسلم سبعة نفر فلعله عدما جميعاً فقال: لهم النبي ﷺ: «تمنعون ظهري حتى أبلغ رسالة ربي» فقالوا: يا رسول الله إنما كان يوم بعثت عام الأول يوم من أيامنا أقتلنا به فإن تقدم ونحن كذا لا يكون لنا عليك اجتماع فدعنا نرجع إلى عشائر لعل الله يصلح ذات بيننا وندعوهم إلى ما دعوتنا فعسى الله أن يجمعهم عليك فإن اتبعوك فلا أحد أعز منك وموعدك الموسم من العام القابل وانصرفوا إلى المدينة ولم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ، فلما كان العام القابل وهي الثانية عشر من البعثة لقيه اثنا عشر رجلاً وقيل: أحد عشر رجلاً وهي العقبة الثانية فيهم خمسة من المذكورين غير جابر والسبعة معاذ بن الحارث أخو عوق المذكور وذكوان وعبادة بن الصامت ويزيد بن ثعلبة والعباس بن عبادة بن نضلة رضي الله عنهم وهم من الخزرج ومن الأوس رجلان أبو الهيثم بن التيهان من بني عبد الأشهل وعويمر بن ساعدة فأسلموا وبايعوا على بيعة النساء لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق إلخ ورجعوا إلى المدينة، وكان أسعد بن زرارة رضي الله عنه يجمع بالمدينة من أسلم وكتبت الأوس والخزرج إلى النبي ﷺ ابعت إلينا من يقرأنا القرآن فبعث إليهم مصعب بن عمير وكانوا أربعين رجلاً فأسلم على يدي مصعب خلق كثير وأسلم سعد بن معاذ وأسيد بن خضير وأسلم بإسلامهما جميع بني عبد الأشهل في يوم واحد الرجال والنساء ثم قدم في العقبة الثالثة سنة الثالثة عشر من البعثة فبايع النبي ﷺ في

عبد الله بن جحش ثم المسلمون أرسالاً ثم عمر بن الخطاب وأخوه زيد وعباس بن ربيعة في عشرين راكباً فنزلوا في العوالي، ثم خرج عثمان بن عفان وكان الصديق رضي الله عنه كثيراً ما يستأذن في الهجرة فيقول النبي ﷺ لا تعجل لعل الله أن يجعل لك صاحباً فيطمع أن يكون هو ثم اجتمع قريش في دار الندوة، وقد مر قصة مكرهم في سورة الأنفال وقصة خروج النبي ﷺ مهاجراً فيها وفي هذه السورة فهذه الآية مكية قال: الله تعالى: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي بتقديم المبني للمفعول على المبني للفاعل والواو لا يوجب الترتيب وفعل البعض يسند إلى الكل، الباقيون بتقديم المبني للمفعول والكلام استئناف بيان ما لأجله الشراء وقيل: يقاتلون بمعنى الأمر ﴿وَعَدَا عَلَيْهِ﴾ أي: على الشراء مصدر مؤكد لفعل محذوف أي: وعد الله لهم وعداً أو مصدر لقوله اشترى من غير لفظه فإنه في معنى الوعد ﴿حَقًّا﴾ صفة لوعداً ومصدر لفعل محذوف أي حق حقاً ﴿فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ﴾ متعلق بفعل عامل في وعداً وفيه دليل على أن أهل الملل كلهم أمروا بالجهاد ووعدوا عليه بالجنة ﴿وَمَنْ﴾ أي: لا أحد ﴿أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ فإن خلف الوعد قبيح يستحيل على الله تعالى ووفاه كرم ولاحداً أكرم منه مبالغة في الإنجاز وتقرير لكونه حقاً ﴿فَأَسْتَبَشِرُوا﴾ أي: فافرحوا غاية الفرح أيها المؤمنون المجاهدون فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿بِيعِعْكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ فإنه لا صفقة رابحة حيث استبدلتم الحقير الفاني بالشريف الباقي، قال: عمر رضي الله عنه: إن الله بايعك وجعل الصفقتين لك، وقال قتادة: ثامنهم فأغلامهم، وقال الحسن اسمعوا إلى بيعة رابحة بايع الله بها كل مؤمن، وعنه قال: إن الله أعطاك الدنيا فاشتر الجنة ببعضها ﴿وَذَلِكَ﴾ البيع ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ النيل غاية المطلوب ﴿التَّائِبُونَ﴾ يعني الذين تابوا من الشرك وبروا من النفاق مرفوع على المدح خبر مبتدأ محذوف أي: هم التائبون والمراد بهم المؤمنون المذكورون فإنهم بايعوا النبي ﷺ على إمثال ما يأمرهم حيث قال الله تعالى في بيعة النساء: ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَقْرُوفٍ﴾^(١) فهم الجامعون لهذه الخصال الحميدة، ويجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف تقديره التائبون من أهل الجنة وإن لم يجاهدوا غير معاندين ولا قاصدين ترك الجهاد عند القدرة ولا فتراض كذا قال: الزجاج كأنه وعد بالجنة لجميع المؤمنين كما قال: الله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾^(٢).

وجاز أن يكون خبره ما بعده يعني التائبون عن الكفر على الحقيقة الجامعون لهذه

(١) سورة الممتحنة، الآية: ١٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ٩٥.

الخصال، ﴿الْمُحْسِنُونَ﴾ لله وحده غير مشركين به شركاً جلياً ولا خفياً ﴿الْمُحْسِنُونَ﴾ لله تعالى في السراء والضراء قال: رسول الله ﷺ: «أول من يدعى إلى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله على السراء والضراء» رواه الطبراني والحاكم والبيهقي في «شعب الإيمان» بسند صحيح عن ابن عباس ﴿السَّيِّحُونَ﴾ أي: الصائمون لما أخرج ابن جرير عن عبيد بن عمير قال: سئل النبي ﷺ عن السائحين؟ قال: «الصائمون» وكذا أخرج ابن جرير عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال: كلما ذكر الله في القرآن السائحين فهم الصائمون، وكذا ذكر البغوي: قول ابن مسعود، وأخرج ابن مردويه عن عائشة موقوفاً قالت: سياحة هذه الآية الصيام، قال: سفيان بن عيينة: إنما سمي الصائم سائحاً لتركه اللذات كلها من المطعم والمشرب والنكاح، عن أبي هريرة قال: قال: رسول الله ﷺ: «كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف قال: الله تعالى إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به يدع شهوته وطعامه من أجلي»^(١) الحديث متفق عليه، وقال عطاء السائحون الغزاة المجاهدون في سبيل الله كما روى ابن ماجه والحاكم والبيهقي بسند صحيح عن أبي أمامة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله»^(٢) وقال البغوي: روي عن عثمان بن مظعون رضي الله عنه قال: يا رسول الله أئذن لي في السياحة فقال: «إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله» وقال عكرمة السائحون هم طلبة العلم يعني الذين يسيحون في الأرض لطلب العلم عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً من الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم وإن العالم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»^(٣) رواه أحمد والترمذي

- (١) أخرجه البخاري في كتاب: الصوم، باب: فضل الصوم (١٨٩٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الصيام، باب: حفظ اللسان للصائم وبيان فضل الصيام (١١٥١).
- (٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في النهي عن السياحة (٢٤٨٤).
- (٣) أخرجه الترمذي في كتاب: العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٢)، وأخرجه أبو داود في كتاب: العلم، باب: في فضل العلم (٣٦٣٧)، وأخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٣).

وأبو داود وابن ماجه ﴿الرَّكَعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ هم المصلون عن ابن مسعود قال: سألت النبي ﷺ: «أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: الصلاة لوقتها، قلت: ثم أي؟ قال: بر الوالدين، قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله»^(١) متفق عليه وقال رسول الله ﷺ: «الصلاة عماد الدين»^(٢) رواه أبو نعيم عن الفضل بن دكين وقال: «الصلاة نور المؤمن» رواه ابن عساکر عن أنس، وقال: «الصلاة قربان كل تقي» رواه القضاعي عن علي، وقال عليه السلام: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء»^(٣) رواه مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة ﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان والطاعة ﴿وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ عن الشرك والمعصية وقيل: المعروف السنة والمنكر البدعة، ذكر العاطف بينهما للدلالة على أن مجموعهما خصلة واحدة ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ أي: فيما بينه وبين الله تعالى من الحقائق والشرائع.

قيل: أورد العاطف هنا للتنبيه على أن ما قبله تفصيل الفضائل وهذا إجمالها، قلت: لعل الله سبحانه أورد العاطف هنا لأن الله سبحانه ذكر أولاً إتيان الحسنات المذكورات ثم ذكر محافظة حد كل منها بلا زيادة من قبل نفسه رهبانيته ابتدعوها وبلا نقصان صورة ولا معنى فكان الأشياء المذكورة قبلها مجموعها شيء واحد يعبر عنها بإتيان الشرائع وهذا شيء آخر كناية عن الإخلاص والحضور التام المستفاد من صحبة أرباب القلوب فإن محافظة الحدود لا يتصور إلا بحضور تام دائم والله أعلم.

﴿وَيَسِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني الموصوفين بتلك الفضائل وضع المؤمنين موضع ضميرهم للدلالة على أن إيمانهم دعاهم إلى ذلك وأن المؤمن الكامل من كان كذلك وحذف المبشر به للتعظيم كأنه قيل بشرهم بما لا يدركه الأفهام ولا يحبط الكلام ولم يسمعه الأذان والله أعلم.

(١) أخرجه البخاري في كتاب: مواقيت الصلاة، باب: فضل الصلاة لوقتها (٥٢٧)، وأخرجه مسلم في

كتاب: الإيمان باب: كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال (٨٥).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان، قال الحافظ العراقي: فيه ضعف وانقطاع، انظر فيض القدير (٥١٨٥).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٢)، وأخرجه النسائي في

كتاب: التطبيق، باب: أقرب ما يكون العبد من الله عز وجل (١١٣١)، وأخرجه أبو داود في

كتاب: الصلاة، باب: الدعاء في الركوع والسجود (٨٧٣).

روى الشيخان في الصحيحين عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاء رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال: «أي عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله»، فقال: أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيدانه بتلك المقالة حتى قال: أبو طالب آخر ما كلمهم على ملة عبد المطلب، وزاد في رواية وأبى أن يقول: لا إله إلا الله فقال: رسول الله ﷺ: «والله لأستغفر لك ما لم أنه عنك» فنزلت^(١) ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ مَرْفَقٍ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ بأن ماتوا على الكفر فيه دليل على جواز الاستغفار لإحيائهم فإنه طلب لتوفيقهم للإيمان، وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لعمة: «قل لا إله إلا الله أشهد لك يوم القيامة» قال: لولا أن يعير قريش يقولون إنما حملة على ذلك الجزع لأقررت بها عينيك فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(٢) وروى البخاري عن أبي سعيد الخدري أنه سمع النبي ﷺ وذكر عنده عمة فقال: «لعله ينفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه»^(٣) هذا الحديث المذكور يدل على أن الآية نزلت بمكة في أبي طالب. وأخرج الترمذي وحسنه الحاكم عن علي قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت له أتستغفر لأبويك وهما مشركان فقال: استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية^(٤)، ولعل هذه القصة قارنت قصة موت أبي طالب فنزلت الآية فيهما، وما يدل على أن الآية نزلت في أمه أم النبي ﷺ وعبد الله أبيه فلا يصلح منها شيء وليس شيء منها ما يصلح أن يعارض ما ذكرنا في القوة فيجب ردها منها ما رواه الحاكم والبيهقي في الدلائل من طريق أيوب بن هانيء عن مسروق عن ابن

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله (١٣٦٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان باب: الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزاع (٢٤).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزاع (٢٥).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار (٦٥٦٤)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب (٢١٠).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة التوبة (٣١٠١).

مسعود، قال: خرج رسول الله ﷺ يوماً إلى المقابر وخرجنا معه فأمرنا فجلسنا ثم تخطى القبور حتى انتهى إلى قبر منها فواجه طويلاً ثم ارتفع باكياً فبكينا لبكائه ثم أقبل علينا فتلقاه عمر فقال: يا رسول الله ما الذي أبكاك فقد أبكاناها وأفزعنا، فجاء فجلس إلينا فقال: «أفزعكم بكائي»؟ قلنا: نعم، قال: «إن القبر الذي رأيتموني أناجي فيه قبر آمنة بنت وهب وإني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي فاستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي ونزل علي: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآيتين فأخذني ما يأخذ الولد للوالدة من الرقة فذلك الذي أبكاني» قال: الحاكم هذا حديث صحيح ونعقبه الذهبي في شرح المستدرک وقال أيوب بن هانيء ضعفه ابن معين، ومنها ما أخرج الطبراني وابن مردويه من حديث ابن عباس قال: لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك واعتمر هبط من ثنية عسفان فنزل على قبر أمه فذكر نحو حديث ابن مسعود وفيه ذكر نزول الآية، قال: السيوطي إسناده ضعيف لا تعويل عليه، وقال البغوي: قال: أبو هريرة وبريدة لما قدم النبي ﷺ مكة أتى قبر أمه آمنة فوقف عليه حتى حميت الشمس رجاء أن يؤذن له فيستغفر لها فنزلت ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ﴾ الآية هذه، وكذا أخرج ابن سعد وابن شاهين من حديث بريدة بلفظ: لما فتح رسول الله ﷺ مكة أتى قبر أمه فجلس فذكر نحوه وفي لفظ عند ابن جرير عن بريدة كما ذكر البغوي، قال: ابن سعد في الطبقات بعد تخريجه هذا غلط وليس قبرها بمكة وقبرها بالأبواء، وأخرج أحمد وابن مردويه واللفظ له من حديث بريدة قال: كنت مع النبي ﷺ إذ وقفت على عسفان فأبصر قبر أمه فتوضأ وصلى وبكى ثم قال: «إني استأذنت ربي أن أشفعه لها فنهيت» فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ﴾ الآية هذه قال: السيوطي طرق الحديث كلها معلولة، وقال الحافظ ابن حجر في شرح البخاري من حكم بصحة حديث ابن مسعود ليس لكونه صحيحاً لذاته بل لوروده من هذه الطرق وقد تأملت فوجدتها كلها معلولة وفي الحديث علة أخرى أنها مخالف لما في الصحيحين أن هذه الآية نزلت بمكة عقب موت أبي طالب وكذا ما ذكر البغوي قول قتادة أنه ﷺ قال: لأستغفرن لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه فأنزل الله ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ﴾ الآية هذه مرسل ليس بصحيح بل ضعيف ومخالف لما في الصحيحين كما ذكرنا فلا يجوز القول بكون أبوي النبي ﷺ مشركين مستندين بهذه الآية وقد صنف الشيخ الأجل جلال الدين السيوطي رضي الله عنه رسائل في إثبات إيمان أبوي رسول الله ﷺ وجميع آبائه وأمهاته إلى آدم عليه السلام وخلصت منها رسالة سميتها بتقديس آباء النبي ﷺ فمن شاء فليرجع إليه وهذا المقام لا يسع زيادة التطويل في الكلام. فإن قيل: ما ورد من حديث

الصحيحين في قصة موت أبي طالب، قال: أبو جهل أترغب عن ملة عبد المطلب وقول أبي طالب: أفعلى ملة عبد المطلب يدل على كون عبد المطلب مشركاً؟ قلنا لا نسلم ذلك بل كان مؤمناً موحداً وقد ذكر ابن سعد في الطبقات بأسانيد أنه عبد المطلب قال: لأم أيمن وكانت تحضن رسول الله ﷺ يا بركة لا تغفلي عن ابني فإني وجدته مع غلمان قريباً من السدرة وأن أهل الكتاب يقولون أن ابني هذا نبي هذه الأمة، لكن لما كان هو في زمن الجاهلية جاهلاً بالشرائع وبما جاء به النبي ﷺ وإن كان التوحيد كافياً له في زمن الفترة زعم أبو جهل وأبو طالب أن محمداً ﷺ جاء بشيء منكر وحكماً يكون ملة عبد المطلب مخالفاً جاء به النبي ﷺ قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَفْغَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ يعني آزر وكان عما لإبراهيم عليه السلام وكان إبراهيم ابن تارخ وقد ذكرنا الكلام فيه في سورة الأنعام، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه»^(١) رواه البخاري، فلا يمكن أن يكون كافر في سلسلة آباءه ﷺ ﴿إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ﴾ قال: بعض المفسرين الضمير المرفوع عائد إلى أبيه والمنصوب إلى إبراهيم يعني أن آباء وعده أن يسلم فقال: له إبراهيم سأستغفر لك يعني إذا أسلمت، والأكثر على أن المرفوع راجع إلى إبراهيم والمنصوب إلى أبيه وذلك أن إبراهيم وعد إياه أن يستغفر له رجاء إسلامه وهو قوله سأستغفر لك ربي يدل على ذلك قراءة من قرأ وعدها آباء بالباء الموحدة، والدليل على أن الوعد كان من إبراهيم وكان الاستغفار في حال كون أبيه مشركاً قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ إلى أن قال: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾^(٢) فإنه صريح في أن إبراهيم عليه السلام ليس بقدوة في هذه الاستغفار فهو إنما استغفر له وهو مشرك لمكان الوعد رجاء أن يسلم ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ أي: لإبراهيم بموت أبيه على الكفر أو بما أوحى إليه بأنه لن يؤمن ﴿أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ فقطع عن استغفاره، وقيل: فلما تبين له في الآخرة أنه عدو الله تبرأ منه، روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم آباء آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قتره وغبرة فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني فيقول له أبوه فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون فأني خزي أخزي من أبي الأبعد، فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين ثم يقال يا إبراهيم أنظر ما تحت رجلك فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار» وفي رواية «فتبرأ منه

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: صفة النبي ﷺ (٣٥٥٧).

(٢) سورة الممتحنة، الآية: ٤.

يومئذ^(١) ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾ الذي يكثر التأوه لكمال خشيته من الله تعالى كذا قال: كعب الأحبار، وكان إبراهيم عليه السلام يكثر أن يقول: آه من النار قبل أن لا ينفع آه وقيل: هو الذي يتأوه من الذنوب وما لهما واحد، وكذا ما قال: البغوي: أنه جاء في الحديث الأواه الخاشع المتضرع فإن الخشوع يستلزم التأوه من الذنوب والنار وكذا ما قال: عطاء الراجع عن كل ما يكره الله الخائف من النار، وقال ابن مسعود الأواه الدعاء وعن ابن عباس قال: المؤمن التواب، وقال الحسن وقتادة الأواه الرحيم بعباد الله، وقال مجاهد الأواه الموقن وقال عكرمة هو المستيقن بلغة الحبشة، وقال عقبة بن عامر: الأواه كثير الذكر لله تعالى وعن سعيد بن جبير قال: الأواه المسيح وروى عنه الأواه المعلم للخير، وقال النخعي هو الفقيه، وفي القاموس ذكر المعاني المذكورة فقال: الأواه الموقن أو الداعي أو الرحيم أو الفقيه أو المؤمن بالحبشية، وقال أبو عبيدة هو المتأوه شفقاً المتضرع يقينا ولزوماً للطاعة، قال: الزجاج انتظم قول أبي عبيدة جميع ما قيل: في الأواه ﴿حَلِيمٌ﴾ أي: صفوح عمن ناله بمكروه ومن ثم قال لأبيه عند وعيده بقوله: ﴿لَيْنَ لَرْتَنَهُ لَأَرْجَمَنَّكَ﴾^(٢) قال: ﴿سَلَّمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾^(٣) وقال ابن عباس الحلیم السيد، وفي القاموس الحلم بالكسر الإناء والعقل فهو حلیم والجملة لبيان ما حمل إبراهيم على الاستغفار والله أعلم.

قال مقاتل والكلبي: إن قوماً قدموا على النبي ﷺ وأسلموا أو لم يكن الخمر حراماً ولا القبلة مصروفة إلى الكعبة فرجعوا إلى قومهم وهم على ذلك ثم حرمت الخمر وصرفت القبلة ولا علم لهم بذلك ثم قدموا المدينة فوجدوا الخمر قد حرمت والقبلة قد صرفت، فقالوا: يا رسول الله قد كنت على دين ونحن على غيره فنحن ضلال فأنزل الله تعالى ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ أي: يحكم عليهم بالضلال ويسمئهم الضالة ويؤاخذهم على فعل ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ﴾ للإسلام ﴿حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمَّا يَتَّقُونَ﴾ أي: ما يجب اتقاه من الأعمال فلم يتقوه ويستحقون الإضلال وقيل: فيه بيان عذر لرسول الله ﷺ في قوله لعمه: لأستغفرن لك ما لم أنه عنه أو لمن استغفر لأسلافه المشركين قبل النهي، قال: مجاهد بيان الله للمؤمنين في الاستغفار للمشركين خاصة وبيان لهم في مفصبة

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ (٣٣٥٠).

(٢) سورة مريم، الآية: ٤٦.

(٣) سورة مريم، الآية: ٤٧.

وطاعة عامة يعني أن الآية نزلت في الاستغفار للمشركين لكن حكمها عام لعموم الصيغة ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعني يعلم حال من فعل جهلاً ومن فعل تمرد أو من يستحق الإضلال ومن لا يستحقه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من غيره ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يحفظكم منه ﴿وَلَا نَصِيرٌ﴾ يمنع عنكم ضرراً يريد بكم فلا ينبغي لكم أن توالوا بالمشركين وتستغفروا لهم وإن كانوا أولي قربي حسبكم ولاية الله ونصرته.

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ بَيِّنَاتٍ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْفُونَ مَوْطِنًا يَفِيضُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِن عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ من إذن المنافقين في التخلف أو المعنى برأهم عن تعلق الذنوب لقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾^(١) وقيل: المراد بعث على التوبة والمعنى ما من أحد إلا وهو محتاج إلى التوبة حتى النبي ﷺ وخاصة أصحابه لقوله تعالى: ﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾^(٢) إذ ما من أحد إلا له مقام يستنقص دونه ما هو فيه والترقي إليه توبة من تلك النقيصة، وفيه إظهار تفضل التوبة بأنها مقام الأنبياء والصالحين من عباده، وقيل: افتتح الكلام بالنبي لأنه كان سبب توبتهم فذكره معهم كما ذكر كلمة لله في قوله تعالى لله خمس وللرسول ولذي القربى ﴿الَّذِينَ

(١) سورة الفتح، الآية: ٢.

(٢) سورة النور، الآية: ٣١.

أَتَّبَعُوهُ ﴿ حِينَ اسْتَغْفَرَهُمْ لَغَزْوَةِ تَبُوكَ ﴿ فِي السَّاعَةِ ﴾ أَي : وَقْتُ ﴿ الْعُسْرَةِ ﴾ قَالَ : الْبَغْوِيُّ : كَانَتْ غَزْوَةُ تَبُوكَ تَسْمَى غَزْوَةَ الْعُسْرَةِ وَالْجَيْشُ جَيْشُ الْعُسْرَةِ أَي الشَّدَّةُ لَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِمْ عُسْرَةٌ مِنَ الظَّهْرِ وَالزَّادِ وَالْمَاءِ ، قَالَ : الْحَسَنُ كَانَ الْعُسْرَةُ مِنْهُمْ يَخْرُجُونَ عَلَى بَعِيرٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَعْنُقُونَهُ يَرْكَبُ الرَّجُلُ سَاعَةً ثُمَّ يَنْزِلُ فَيَرْكَبُ صَاحِبَهُ كَذَلِكَ وَكَانَ زَادَهُمُ التَّمْرُ الْمَسُوسُ وَالشَّعِيرُ الْمَتَغِيرُ وَكَانَ النَّفْرُ مِنْهُمْ يَخْرُجُونَ مَا مَعَهُمْ إِلَّا التَّمْرَاتُ بَيْنَهُمْ فَإِذَا بَلَغَ الْجُوعُ مِنْ أَحَدِهِمْ أَخَذَ التَّمْرَةَ فَلَاكَهَا حَتَّى يَجِدَ طَعْمَهَا ثُمَّ يَعْطِيهَا صَاحِبَهُ فَيَمصُّهَا ثُمَّ يَشْرَبُ عَلَيْهَا جُرْعَةً مِنْ مَاءٍ كَذَلِكَ حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى آخِرِهِمْ وَلَا يَبْقَى مِنَ التَّمْرَةِ إِلَّا النُّوَاةُ فَمَضَوْا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى صَدَقَتِهِمْ وَيَقِينَتِهِمْ ، رَوَى أَحْمَدُ وَابْنُ خَزِيمَةَ وَابْنُ حَبَانَ وَالْحَاكِمُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ : خَرَجْنَا إِلَى تَبُوكَ فِي يَوْمٍ قَيْظٌ شَدِيدٌ فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا وَأَصَابَنَا فِيهِ عَطَشٌ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّ رِقَابَنَا سَيَنْقَطِعُ حَتَّى إِذَا كَانَ الرَّجُلُ لِيَذْهَبَ فَيَلْتَمِسَ الْمَاءَ فَلَا يَرْجِعُ حَتَّى يَظُنَّ أَنَّ رِقْبَتَهُ سَيَنْقَطِعُ وَحَتَّى أَنْ كَانَ الرَّجُلُ لِيَنْحَرَّ بِبَعِيرِهِ فَيَعْصُرُ فَرْتَهُ فَيَشْرَبُهُ وَيَجْعَلُ مَا بَقِيَ عَلَى كَبِدِهِ فَقَالَ : أَبُو بَكْرٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ عَوَدَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ خَيْرًا فَادْعِ اللَّهَ لَنَا ، قَالَ : أَتَحِبُّ ذَلِكَ قَالَ : نَعَمْ ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ نَحْوَ السَّمَاءِ فَلَمْ يَرْجِعْهَا حَتَّى جَالَتْ السَّمَاءُ فَأَظْلَمَتْ ثُمَّ سَكَبَتْ فَمَلَأَتْهَا مَا مَعَهُمْ ثُمَّ ذَهَبْنَا نَنْظُرُ فَلَمْ نَجِدْهَا جَاوَزَتْ الْعَسْكَرَ وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي حُرَيْرَةَ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ : نَزَلُوا الْحَجْرَ فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ لَا يَحْمِلُوا مِنْ مَائِهَا شَيْئًا ثُمَّ ارْتَحَلُوا ثُمَّ نَزَلُوا مَنْزِلًا آخَرَ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ فَشَكُوا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ دَعَا فَأَرْسَلَ اللَّهُ سَحَابَةً فَأَمْطَرَتْ عَلَيْهِمْ حَتَّى اسْتَقَوْا مِنْهَا ، فَقَالَ : رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ الْآخِرِ مِنْ قَوْمِهِ مَتَّعَهُمُ بِالنِّفَاقِ وَيَحْكُ قَدْ تَرَى مَاءَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَمْطَرَ اللَّهُ عَلَيْنَا السَّمَاءَ قَالَ : إِنَّمَا مَطَرْنَا بِنُوءِ كَذَا وَكَذَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَجْمَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ ﴿ ٨٢ ﴾ ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ ﴾ قَرَأَ حَفْصٌ وَحَمْزَةٌ بِالْيَاءِ التَّحْتِيَّةِ وَالْبَاقُونَ بِالتَّارِ الْفَوْقِيَّةِ لِأَنَّ الْفَاعِلَ مُؤَنَّثٌ غَيْرُ حَقِيقِي ﴿ قُلُوبٌ قَرِيبٌ مِنْهُمْ ﴾ أَي قُلُوبٌ بَعْضُهُمْ وَلَوْ يَرُدُّ لِلَّيْلِ عَنِ الدِّينِ بَلْ أَرَادَ لِلَّيْلِ إِلَى التَّخَلُّفِ وَالْإِنْصِرَافِ لِأَجْلِ الشَّدَّةِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ قَالَ : الْكَلْبِيُّ : هَمَّ نَاسٌ بِالتَّخَلُّفِ ثُمَّ لِحَقْوِهِ ، وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَمُحَمَّدُ عُمَرَ : كَانَ نَفْرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْطَأَتْ بِهِمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى تَخَلَّفُوا عَنْهُ مِنْ غَيْرِ شَكِّ وَلَا ارْتِيَابٍ مِنْهُمْ كَعَبُ بْنُ مَالِكٍ وَهَلَالُ بْنُ أُمِيَّةَ وَمَرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ وَأَبُو خَيْثَمَةَ وَأَبُو دَرِ الْغَفَارِيِّ وَكَانُوا نَفْرٌ صَدَقَ لَا يَتَّهَمُونَ فِي إِسْلَامِهِمْ ، رَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ :

(١) سورة الواقعة، الآية: ٨٢.

لما سار رسول الله ﷺ إلى تبوك جعل يتخلف عنه الرجل فيقولون يا رسول الله تخلف فلان، فيقول: دعوة فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم وإن غير ذلك فقد أرى حكم الله فيه حتى قيل: يا رسول الله تخلف أبو ذر أبطأ بعيره فقال: رسول الله ﷺ نحو ذلك وتَلَوَّمَ أُرْ ذر بعيره فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحمله على ظهره ثم خرج يتبع إثر رسول الله ﷺ ماشياً.

قال محمد بن عمر كان أبو ذر يقول: أبطأت على رسول الله ﷺ في غزوة تبوك من أجل بعيري وكان نضواً أعجف فقلت: أعلفه أياماً ثم ألحق برسول الله ﷺ فعلفته أياماً ثم خرجت فلما كنت بذي المودة أذم بي فتلومت عليه يوماً فلم أر به حركة فأخذت متاعي فحملته وتطلعت على رسول الله ﷺ نصف النهار فنظر ناظر من المسلمين، فقال: يا رسول الله إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده فقال: رسول الله ﷺ: «كن أبا ذر» فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله هو والله أبو ذر، فقال: «رحم الله أبا ذر يمشي وحده ويومت وحده ويبعث وحده» قال: محمد بن يوسف الصالحي: فكان كذلك فلما قدم أبو ذر على رسول الله ﷺ أخبره خبره فقال: «لقد غفر الله تعالى لك يا أبا ذر بكل خطوة ذنباً إلى أن بلغتني».

وروى الطبراني عن أبي خيثمة وابن إسحاق ومحمد بن عمر عن شيوخهما قال: لما سار رسول الله ﷺ أياماً دخل أبو خيثمة على أهله في يوم حار فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائط وقد رشت كل واحدة منهما عريشها وبردت له فيه ماء وهيأت له فيه طعاماً فلما دخل قام على باب العريش فنظر إلى امرأته وما صنعتا له فقال: سبحان الله رسول الله ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر حر في الضح والريح والحر يحمل سلاحه على عنقه وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهياً وامرأة حسناء في ماله مقيم ما هذا بالنصف، ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ تهباً لي زادا ففعلتا، ثم قدم ناضحه فارتحله ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حتى نزل تبوك وقد أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجمحي في الطريق لطلب رسول الله ﷺ فترافقا حتى إذا دنوا من تبوك، قال: أبو خيثمة لعمير بن وهب: إن لي ذنباً فلا عليك أن تخلف عني أتى رسول الله ﷺ ففعل، حتى إذا دنوا من رسول الله ﷺ قال الناس: هذا راكب مقبل فقال: رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة» فقالوا والله هو أبو خيثمة، فقال: له رسول الله ﷺ: «أولى لك يا أبا خيثمة» ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر فقال: له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير، «ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ» تكرير للتأكيد أو أراد بالتوبة في

صدر الآية التوبة من إذن المنافقين في التخلف وههنا من كيد ودتهم زيغ القلوب أو المراد في صدر الآية التوفيق للتوبة والإنابة وههنا قبول التوبة أو للتبئيه على أنه تاب عليهم لأجل ما كابد وأمن العسرة ﴿إِنَّهُمْ بِهِمْ زَهُوْفٌ رَّحِيمٌ﴾ قال: البغوي: قال: ابن عباس: من تاب الله عليه لم يعذبه أبداً يعني على ذلك الذنب ﴿وَعَلَى الْآثَاثَةِ﴾ عظطف على عليهم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي تخلفوا عن غزوة تبوك وقيل: خلفوا أي: أرجى أمرهم عن توبة أبي لبابة وأصحابه، وهؤلاء الثلاثة هم كعب بن مالك الشاعر ومرارة بن الربيع وهلال بن إمية كلهم من الأنصار.

روى الشيخان في الصحيحين وأحمد وتبن أبي شيبه وابن إسحاق وعبد الرزاق عن كعب بن مالك قال: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك غير أنني كنت تخلفت في غزوة بدر ولم يعاقب الله أحداً تخلف عنها إنما خرج رسول الله ﷺ يريد غير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة، قلت: ليلة العقبة الثالثة حين تواتقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت البدر أكثر ذكراً في الناس منها كان من خبري أنني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في لك الغزوة والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا وري يغيرها وكان يقول الحرب خدعة، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفوزاً وعدواً كثيراً فجلاً للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجهه الذي يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير وعند مسلم يزيدون على عشرة الآف^(١) وروى الحاكم في إكليل عن معاذ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك زيادة عن ثلاثين ألفاً، وقال أبو زرعة لا يجمعهم كتاب حافظ، قال: الزهري يريد الديوان فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أنه سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي من الله تعالى، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الظلال والثمار وتجهز رسول الله ﷺ وتجهز المسلمون معه فخرج يوم الخميس وكان يحب إذا كان سفر جهاد أو غيره أن يخرج يوم الخميس، فطفقت أعدوا لكي أتجهز معهم فارجع ولم أقض شيئاً فأقول في نفسي أنا قادر عليه فلم يزل يتمادي بي الحال حتى اشتد بالناس الحر فأصبح رسول الله ﷺ غازياً

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: حديث كعب بن مالك (٤٤١٨)، وأخرجه مسلم في

كتاب: التوبة، باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبه (٢٧٦٩).

والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئاً ثم غدوت ولم أقض شيئاً فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أمعن القوم وأسرعوا وتفارط الغزو وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلت ولم يقدر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزني أن لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه بالنفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكر لي رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال: وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب بن مالك؟ فقال: رجل من بني سلمة وفي رواية من قومي قال: محمد بن عمر هو عبد الله بن أنيس السلمى يا رسول الله حبسه برداه ونظره في عطفه، فقال: معاذ بن جبل ويقال: أبو قتادة بثما قلت والله يا رسول الله ما علمت عليه إلا خيراً فسكت رسول الله ﷺ قال: كعب: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ توجه قافلاً حضرني همي وطفقت أعد عذر الرسول الله ﷺ وأهيب الكلام وأقول بماذا أخرج من سخطه غداً واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظلم قادمًا زاح عني الباطل وعرفت أن لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب فأجمعت صدقه وعرفت أنه لم ينجيني إلا الصدق وأصبح رسول الله ﷺ قادمًا. قال: ابن سعد في رمضان، قال: كعب وكان إذا قدم من سفر لا يقدم إلا في الضحى فيبدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين فيقعده فيه ثم يدخل على فاطمة ثم على أزواجه فيبدأ بالمسجد فركعها ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله فجثته، فلما سلمت عليه تبسم بتبسم المغضب فقال: تعال فجثت أمشي حتى جلست بين يديه، وعند ابن عابد فأعرض عنه رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله لم تعرض عني فوالله ما نافقت. ولا ارتبت ولا بدلت، فقال: لي: ما خلفك ألم تكن قد ابتعت؟ فقلت: بلى إني والله يا رسول الله ﷺ لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر ولقد أعطيت جدلاً ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله تعالى أن يسخطك ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليّ فيه أني لأرجوا فيه عفو الله لا والله ما كان لي من عذر والله ما كنت أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال: رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدق فقم حتى يفضي الله فيك بما يشاء فمضيت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي: ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلفون قد كان كافيك ذنبك

استغفار رسول الله ﷺ فوالله ما زالوا يُؤنبونني حتى أردت، أن أرجع فأكذب نفسي، فقلت ما كنت أجمع أمرين أتخلف عن رسول الله ﷺ وكذبه، ثم قلت: لهم هل بقي هذا معي أحد قالوا: نعم رجلان قالوا مثل ما قلت، فقيل: لهما مثل ما قيل لك فقلت: من هما قالوا: مرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقفي.

وعند ابن أبي حاتم من مرسل الحسن أن سبب تخلف الأول أنه كان حائط حين زهى فقال: في نفسه قد غزوت قبلها فلو أقمت عامي هذا فلما تذكر ذنبه، قال: اللهم إني أشهدك أنني قد تصدقت به في سبيلك أن الثاني كان له أهل تفرقوا ثم رجعوا، فقالوا: قمت هذا العام عندهم فلما تذكر قال: اللهم لك علي أن لا أرجع إلى أهلي ولا مالي قال: كعب: فذكروا رجلين صالحين قد شهدا بدرأ فيهما أسوة فمضيت حين ذكرها ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه فأجبنا الناس وتغيروا لنا.

وعند ابن أبي شيبه فطفقنا نعدو في الناس لا يكلمنا أحد ولا يسلم علينا أحد ولا يرد علينا أحد سلاماً، وعند عبد الرزاق وتنكر لنا الناس حتى ما هم بالذي نعرف وتنكرت لنا الحيطان حتى ما هي بالتي نعرف انتهى، ومن شيء أهم إلى من أن أموت فلا يصلي علي رسول الله ﷺ أو يموت فأكون من الناس بتلك المنزلة فلا يكلمني أحد ولا يصلي علي حتى تنكرت في نفسي الأرض حتى ما هي بالتي أعرف فلبثنا ذلك خمسين ليلة، فأما صاحبان فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف الأسواق فلا يكلمني أحد ولا يرد علي سلاماً، وأتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا، ثم أصلي قريباً منه فأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي أقبل علي ذلك فإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي يعني أنه من بني سلمة وليس هو ابن أخو أبيه الأقرب، قال كعب: وهو أحب الناس إليّ فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام، فقلت: يا أبا قتادة هل تعلمني أحب الله ورسوله فسكت فعدت له فسكت فلم يكلمني حتى إذا كان في الثالثة أو الرابعة قال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت من الدار، قال: فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل علي كعب بن مالك فطفق الناس يشيرون له حتى جاءني ودفع إلي كتاباً من ملك غسان.

وعند ابن أبي شيبه من بعض قومي بالشام كتب إلي كتاباً في سعاقة من حرير فإذا فيه

أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك وأقصاك ولم يجعلك الله بدار الهوان ولا مضية فإن كنت متحولاً فالحق بنا نواسيك، فقلت: لما قرأتها وهذا أيضاً من البلاء قد طمع في أهل الكفر فتيممت بها التنور فسجرت به، وعند ابن عابد أنه شكى حاله إلى رسول الله ﷺ وقال: ما زال إعراضك عني حتى رغب في أهل الشرك. قال: كعب: حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول الله ﷺ يأتيني، قال: محمد بن عمر هو خزيمة بن ثابت وهو الرسول إلى مرارة وهلال بذلك فقال كعب فقال إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعزل امرأتك فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا بل اعتزلها ولا تقربها وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك فقلت لامرأتي: إلحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، قال: كعب بن مالك فجاءت امرأة هلال بن أمية أي: خولة بنت عاصم رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، وعند ابن أبي شيبه إنه شيخ قد ضعف بصره انتهى، فهل تكره أن أخدمه قال: لا ولكن لا يقربك قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، قال: كعب فقال: لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن يخدمه، فقلت: والله لا استأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذن فيها وأنا رجل شاب فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، وعند عبد الرزاق وكانت توبتنا نزلت على النبي ﷺ ثلث الليل، فقالت أم سلمة يا نبي الله ألا نبشر كعب بن مالك قال: إذا يحطمنكم الناس ويمنعونكم النوم سائر الليل، فلما صليت الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيتنا فينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى قد ضاقت على نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته يا كعب بن مالك البشر وعند محمد بن عمر وكان الذي أوفى على جبل سلع أبا بكر الصديق فصاح: قد تاب الله على كعب يا كعب أبشر، وعند عقبة أن رجلين سعيًا كعباً يبشر أنه فسبق أحدهما فارتقى المسبوق على سلع فصاح يا كعب أبشر بتوبة الله وقد أنزل الله عز وجل فيكم القرآن وزعموا أن الذين سبقا أبو بكر وعمر، قال كعب: فخررت ساجداً أبكي فرحاً بالتوبة وعرفت أنه قد جاء فرج وأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبي مبشرون وركض إليّ رجل على فرس وعند محمد بن عمر هو زبير بن العوام وسعى ساع من أسلم قال: وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته وهو حمزة الأسلمي يبشرني

نزعت له ثوبي فكسوته إياه ببشراه ووالله ما أملك غيرهما يومئذ واستعرت ثوبين من أبي قتادة كما عند محمد بن عمر فلبستها قال: وكان الذي بشر هلال بن أمية بتوبة سعيد بن زيد فما ظننت أنه يرفع رأسه حتى تخرج نفسه أي: الجهد فقد كان امتنع من الطعام حتى كان يواصل الأيام صياماً لا يفتر من البكاء، وكان الذي بشر مرارة بن الربيع بتوبة سلكان بن سلامة أبو سلامة بن وقش، قال كعب: وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فبتلقاني الناس فوجاً يهثوني بالتوبة يقولون لتهنك توبة الله عليك قال كعب: حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال: رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور أبشر بخير يوم عليك منذ ولدتك أمك قلت: يا رسول الله ﷺ أمن عندك أم من عند الله؟ قال: لا بل من عند الله إنكم صدقتم الله فصدقكم الله، وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي كله صدقة إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ، قال: رسول الله ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك» قلت: نصفه، قال: لا، قلت فثلثه قال: نعم، قال: فإني أمسك سهمي الذي بخبير، وقلت: يا رسول الله إنما نجاني الله بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت فوالله ما أعلم أحد من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما ابتلاني ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً وإني لأرجو أن يحفظني الله تعالى فيما بقيت وأنزل الله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ فوالله ما أنعم الله تعالى علي من نعمة بعد أن هداني للإسلام أعظم من نفسي من صدقي رسول الله ﷺ أن لا أكون كذبة فأهلك كما هلك الذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال: لأحد فقال: تبارك وتعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَبْكَ اللَّهُ لَا يُرْضَىٰ عَنِ الْفَوْرِ الْفَيْسِقِينَ﴾^(١) قال: كعب: وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم واستغفروا لهم وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله سبحانه فيه بذلك قال: الله تعالى ﴿وَعَلَى الْفَلَكِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ وليس الذي ذكر الله تعالى ممن خلفنا عن الغزو وإنما هو تخليفه إيانا

(١) سورة التوبة، الآية: ٩٥ - ٩٦.

وإرجاؤه عن خلف واعتذر إليه فقبل منه، قال: في النور: لعل الحكمة في هجران كعب وصاحبيه خمسين ليلة أنها كانت هذه مدة غيبته ﷺ في سفر تلك الغزو، قال: الله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ لِإِعْرَاضِ النَّاسِ عَنْهُمْ ﴿١٠٦﴾ بِمَا رَحَّبَتْ ﴿١٠٥﴾ أَي: مع رحبها وسعتها وهذا مثل لشدة الحيرة في أمرهم كأنهم لا يجدون فيها مكاناً ليقروا فيه قلقاً واضطراباً ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴿١٠٧﴾ أَي: قلوبهم من فرط الوحشة والغم بحيث لا يسعتها أنس ولا سرور ﴿وَضُنُوبًا﴾ أَي: علموا ﴿أَن لَّا مَلْجَأَ﴾ أَي: لا مفرج ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ من سخطه ﴿إِلَّا إِلَىٰ﴾ أَي: إلا إلى ايتغفاره ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أَي: قبل توبتهم ﴿لِيَتُوبُوا﴾ أَي: ليستقيموا على التوبة فإن توبتهم سبقت، أو المعنى ليعدوا من جملة التوابين عن أبي بكر الوراق أنه قال: التوبة النصوح أن يضيق على التائب إذا أذنب الأرض بما رحبت وتضيق عليه نفسه كتوبة هؤلاء الثلاثة ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ عن أبي موسى قال: قال: رسول الله ﷺ: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»^(١) رواه مسلم، عن أنس قال: قال: رسول الله ﷺ: «الله أشد فرحاً يتوب عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد آيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال: لشدة الفرح اللهم أنت عبيدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح»^(٢) رواه مسلم وفي الباب أحاديث كثيرة ﴿الرَّحِيمِ﴾ المتفضل عليهم بالنعم، ﴿بِأَيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ في إيمانهم وعهودهم أوفى دين الله نية وقولاً وعملاً يعني الزموا الصدق في كل شيء، قال: ابن عباس وكذا روي عن ابن عمر أي: كونوا مع محمد ﷺ وأصحابه الذين صدقت نياتهم واستقامت قلوبهم وأعمالهم وخرجوا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك بإخلاص ونية دون المنافقين المتخلفين عنه، وقال سعيد بن جبيرة مع أبي بكر وعمر وقال الضحاك أمروا أن يكونوا مع أبي بكر وعمر وأصحابهما وروى أنه قال ابن عباس مع علي ابن أبي طالب عن سفيان قال: تفسير اختلاف إنما هو كلام جامع يراد به هذا وهذا، وقال ابن جريج: مع المهاجرين لقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾^(٣)

(١) أخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة (٢٧٥٩).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: في الحض على التوبة والفرح بها (٢٧٤٤) ٨

(٣) سورة الحشر، الآية: ٨.

وقيل: من الذين صدقوا في الاعتراف بالذنب ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة، قال: ابن مسعود: إن الكذب لا يصلح في جدولاً ولا هزل ولا أن يعد أحدكم صبيه شيئاً ثم لا ينجز له اقرأ إن شئتم وقرأ هذه الآية ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ ظاهرة خبر ومعناه نهي كقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَنْ تُوذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾^(١) ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ سكان البوادي مزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار ﴿أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ إذا غزا بنفسه الشريفة ﴿وَلَا يَرْغَبُوا﴾ ولا أت يرغبوا ﴿بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي: لا يضمنوا أنفسهم عما لا يضمن نفسه عنه ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما دل عليه قوله ما كان من النهي عن التخلف يعني ذلك النهي ﴿بِأَنْتَهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمٌ﴾ أي: شيء من العطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ تعب ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ مجاعة ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي معاونة رسوله والجهاد لإعلاء دينه ﴿وَلَا يَطَّوُّنَ مَوَاطِنًا﴾ مصدر أو ظرف أي: يدوسون دوساً أو يذهبون أرضاً ﴿يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ وطمئهم إياها ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنَ عَدُوِّ نَيْلًا﴾ قتلاً أو أسراً أو نهباً أو غنيمَةً ﴿إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ أي: استوجبوا به الثواب وذلك مما يوجب المشايعة والانتفاء عن التخلف ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم وهو تعليل لكتب وتنبه على أن الجهاد إحسان أما في حق الكفار فلأنه سعى تكميلهم والقاذهم من النار بأقصى ما يمكن كالضرب للمجنون وتأديب الصبي وأما في حق المؤمنين فلأنه صيانة لهم عن بطوة الكفار واستيلائهم، عن أبي عبيس قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله تعالى على النار»^(٢) رواه البخاري في الصحيح وأحمد والترمذي والنسائي، وعن أبي هريرة قال: قال: رسول الله ﷺ: «مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله»^(٣) متفق عليه، قال البغوي: اختلفوا في حكم هذه الآية، قال: قتادة: هذه خاصة لرسول الله ﷺ إذا غزا بنفسه لم يكن لأحد أن يتخلف عنه إلا بعد رفاً ما غيره من الأئمة والولاة فيجوز لمن شاء من المؤمنين يتخلف عنه إذا لم يكن بالمسلمين إليه

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب، الجمعة، باب: المشي إلى الجمعة (٩٠٧)، وأخرجه النسائي في كتاب: الجهاد، باب: ثواب من اغبرت قدماه في سبيل الله (٣١٠٧)، وأخرجه الترمذي في كتاب: فضائل الجهاد، باب: ما جاء في فضل من اغبرت قدماه في سبيل الله (١٦٣٦).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله (٢٧٨٧)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: فضل الشهادة في سبيل الله تعالى (١٨٧٨).

ضرورة، وقال الوليد بن مسلم: سمعت الأوزاعي وابن المبارك وابن جابر وسعد بن عبد العزيز يقولون: هذه الآية لأول هذه الأمة وآخرها، وقال ابن زيد: هذا حين كان أهل الإسلام قليلاً فلما كثروا نسخها الله تعالى وأباح التخلف لمن شاء وقال وما كان المؤمنون ليغزوا كافة، قلت: اتفق الأئمة على أن الجهاد فرض كفاية إذا قام به جماعة من المسلمين وحصل بهم الكفاية سقط عن الباقيين، وعن سعيد بن المسيب أنه فرض عين للعمومات الواردة في الجهاد وما ورد التغليظ في المتخلفين عن غزوة تبوك فلنا عند النفير العام يكون فرضاً على الأعيان بالإجماع كما في غزوة تبوك وإلا فهو فرض كفاية لقوله تعالى: ﴿لَا يَتَّوَى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْفِرُوا كَأَفَّةٍ﴾ كما فعل عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهما في جيش العسرة ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ﴾ في مسيرهم مقبلين ومدبرين ﴿وَأَدْيَا﴾ وهو كل منفرج ينفذ فيه السيل اسم فاعل من ودي إذا سال فشاع بمعنى الأرض ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمُ﴾ ذلك ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾ بذلك الكتابة ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني جزاء أحسن أعمالهم يعني الجهاد في سبيل الله أو أحسن جزاء أعمالهم، عن أبي مسعود الأنصاري قال: جاء رجل بناقة مخطومة فقال: هذه في سبيل الله، فقال: رسول الله ﷺ: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة»^(٢) رواه مسلم، وعن زيد بن خالد أن رسول الله ﷺ قال: «من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا ومن خلف غازياً في أهله فقد غزا»^(٣) متفق عليه والله أعلم.

قال الكلبي: إن أحياء بني أسد بن خزعة أصابتهم سنة شديدة فأقبلوا بالذراري حتى نزلوا بالمدينة فأفسدوا طرقها بالعدرات وأغلوا أسعارها فأنزل الله.

﴿ وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْفِرُوا كَأَفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ ﴿١٢٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ

(١) سورة النساء، الآية: ٩٥.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: فضل الصدقة في سبيل الله وتضعيفها (١٨٩٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: فضل من جهز غازياً أو خلفه بخير (٢٨٤٣)،

وأخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: فضل إعانة الغازي في سبيل الله (١٨٩٥).

ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبِشِرُونَ ﴿١٧٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَوَّلًا بَرُونَ أَنَّهُمْ بُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٧٧﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٧٩﴾ .

﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً﴾ نفي بمعنى النهي واللام لتأكيد النفي والمعنى لا ينفروا كافة عن أوطانهم لطلب العلم فإنه مخل بالمعاش ومفضي إلى المفسد ﴿فَلَوْلَا﴾ فهلا ﴿تَفَرَّ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: من كل جماعة كثيرة كقبيلة وأهل بلدة أو قرية ﴿طَائِفَةً﴾ جماعة قليلة ﴿لِيَنفَقَهُوا فِي الدِّينِ﴾ أي: ليتكلفوا الطلب الفقاهة في الدين ويتجشموا المشاق في تحصيلها، قال: صاحب النهاية: الفقه في الأصل الفهم واشتقاقه من الشق والفتح، وفي القاموس الفقه بالكسر المعلوم بالشيء والفهم له والفتنة وغلب على علم الدين لشرفه، وقال بعض المحققين: الفقه هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد فهو أخص من العلم الاستدلالي قال: الله تعالى: ﴿فَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾^(١) ولا يستنبطون مضمونه، قال أبو حنيفة رحمه الله: هو معرفة النفس مالها وما عليها والتخصيص بالعلم بفروع الدين اصطلاح جديد والظاهر أنه يشتمل علم المقلد أيضاً فالمقلد إذا أخذ العلم من المجتهد أو من كتابه والظاهر أدى ما وجب عليه بهذه الآية والله أعلم.

﴿الَّذِينَ قَوْمَهُمْ﴾ الذين لم ينفروا ﴿إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ في أوطانهم بعد تحصيل العلم ﴿أَعْلَهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ بإنذارهم ما يجب عليهم اجتنابها وقال مجاهد: نزلت في ناس خرجوا في البوادي فأصابوا منهم معروفاً ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال: الناس لهم ما نراكم إلا وقد تركتم صاحبكم وجئتموا فوجدنا في أنفسهم من ذلك حرجاً فأقبلوا كلهم من البادية حتى دخلوا على النبي ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية، قال: رسول الله ﷺ: «تجدون الناس معادن كمعادن الذهب والفضة فخيارهم في الجاهلية

(١) سورة النساء، الآية: ٧٨.

خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»^(١) رواه الشافعي وكذا روى الشيخان في الصحيحين وأحمد عن أبي هريرة، وقال رسول الله ﷺ: «الناس رجلان عالم ومتعلم ولا خير فيما يسواهما» رواه الطبراني عن ابن مسعود والله أعلم.

وهذه الآية دليل على أن أخبار الآحاد حجة لأن عموم كل فرقة يقتضي أن ينفر من كل ثلاثة تفردوا بقرية طائفة إلى التفقه لينذر فرقتها كي يتذكروا فيحذروا فلو لم يعتبر الأخبار ما لم يتواتر لم يفسد ذلك.

اعلم أن الفقه في الدين ينقسم إلى فرض عين وفرض كفاية، والفرض العين هو العلم بالعقائد الصحيحة ومن الفروع ما يحتاج إليه كل أحد كالطهارة والصلاة والصوم وكذلك كل عبادة أوجبها الشرع على الأديمي يجب عليه معرفة أحكامها مثل علم الزكاة إن كان له مال وعلم الحج إن وجب عليه وكذلك من المعاملات يجب معرفة أحكام ما يتعاطى بها ويمارسها، فيجب معرفة أحكام البيع من الصحيح والفاقد والربا للتجار والآجارات لمن يتأتى بها ونحو ذلك قال: رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» رواه ابن عدي والبيهقي بسند صحيح عن أنس والطبراني في الصغير والخطيب عن الحسن بن علي والطبراني في «الأوسط» عن ابن عباس وفي الكبير عن ابن مسعود وعند الخطيب عن علي وفي الطبراني في «الأوسط» والبيهقي عن أبي سعيد وزاد ابن عبد البر عن أنس «وإن طالب العلم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر» وفي رواية «والله يحب إغاثة اللهفان» والفرض الكفاية وهو أن يتعلم الرجل كل باب من العلم حتى يبلغ درجة الفتوى فإذا قعد أهل بلد عن تعلمه عصوا جميعاً وإذا قام من كل بلد واحد بتعلمه سقط عن الباقيين وعليهم تقليده فيما يقع لهم من الحوادث وهو أفضل من كل عبادة نافلة قال: رسول الله ﷺ: «طلب العلم أفضل عند الله من الصلاة والصيام والحج والجهاد في سبيل الله عز وجل» رواه صاحب سند الفردوس عن ابن عباس وروى أيضاً عنه: «طلب العلم ساعة خير من قياك ليلة وطلب العلم يوماً خيراً من صيام ثلاثة أيام» وقال رسول الله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم، إن الله وملائكته وأهل السموات والأرضين حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في الماء ليصلون على معلم الناس الخير»^(٢) رواه

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: قول الله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾ (٣٤٩٣) وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب:

خيار الناس (٢٥٢٦)، وأخرجه الشافعي في الجزء الأول/ باب: الإيمان والإسلام (١٥).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٢).

الترمذي بسند صحيح عن أبي أمامة، وقال رسول الله ﷺ: «فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد»^(١) رواه الترمذي وابن ماجه عن ابن عباس، وقال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له»^(٢) وأما العلم اللدني الذي يسمون أهلها بالصوفية الكرام فهو مرض عين لأن ثمراتها تصفية القلب عن اشتغال بغير الله تعالى واتصافه بدوام الحضور وتزكية النفس عن رذائل الأخلاق من العجب والكبر والحسد وحب الدنيا والكسل في الطاعات وإيثار الشهوات والرياء والسمعة وغير ذلك وتجلتها بكرام الأخلاق من التوبة والرضا بالقضاء والشكر على النعماء والصبر على البلاء وغير ذلك، ولا شك أن هذه الأمور محرمات وفرائض على كل بشر أشد تحريماً من معاصي الجوارح وأهم افتراضاً من فرائضها فالصلاة والصوم وشيء من العبادات لا يعبد بشيء منها ما لم تقترن بالإخلاص والنية، قال: رسول الله ﷺ: «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه»^(٣) رواه النسائي عن أبي أمامة وقال عليه السلام: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(٤) رواه مسلم عن أبي هريرة وكل ما يترتب عليه من الفروض الأعيان فهو فرض عين والله أعلم.

وفي سبب نزول الآية وجه آخر وذلك ما قال: البغوي: أنه قال: ابن عباس في رواية الكلبي وكذا أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة ونحوه عن عبد الله بن عمير أنه لما أنزل الله تعالى عيوب المنافقين في غزوة تبوك ونزلت: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُمَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ كان النبي ﷺ يبعث سرايا فكان المسلمون ينفرون جميعاً إلى الغزو ويتركون النبي ﷺ وحده، وفي رواية عكرمة تخلف عن الغزو أناس من أهل البوادي فقالت المنافقون: هلك أصحاب البوادي فأنزل الله تعالى هذه الآية، يعني ما كان المؤمنون لينفروا إلى الغزو كافة فهلا نفر من كل فرقة عظيمة طائفة إلى الغزو وبقي طائفة مع النبي ﷺ ليتفقه القاعدون وفي الدين ويتعلمون القرآن والسنن والفرائض والأحكام فإذا رجعت السرايا أخبروهم بما

- (١) أخرجه الترمذي في كتاب: العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٢٦٨١)، وأخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٢).
- (٢) أخرجه مسلم في كتاب: الوصية، باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (١٦٣١).
- (٣) أخرجه النسائي في كتاب: الجهاد، باب: من غزا يلتمس الأجر والذكر (٣١٣١).
- (٤) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وماله وعرضه (٢٥٦٤).

نزل بعدهم فتمكث السرايا يتعلمون ما نزل بعدهم وينفر سرايا آخر حتى لا ينقطع التفقه الذي هو الجهاد الأكبر لأن الجدال بالحجة هو الأصل والمقصود من البعثة، ولذا قال: رسول الله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»^(١) فيكون الضمير في ليتفقوها ولينذروا بواقى الفرق بعد الطائفة النافرة للغزوة وفي رجعوا للطائفة النافرة، قال: السيوطي: قال ابن عباس: فهذه مخصومة بالسرايا والتي من قبلها بالنهي عن تخلف أحد فيما إذا خرج النبي ﷺ، وقال الحسن هذه التفقه والإنذار راجع إلى الفرقة النافرة معناه هلا نفر فرقة ليتفقوها أي: ليبصروا بما يريهم من الظهور على المشركين ونصرة الدين ولينذروا قومهم من الكفار إذا رجعوا من الجهاد فيخبروهم بنصر الله رسوله والمؤمنين لعلمهم يحذرون قتال رسول الله ﷺ فنزل بهم ما نزل بأصحابهم من الكفار، وهذا يدل على أن الجهاد فرض كفاية إذا قام به جماعة سقطه عن الباقيين إلا عند النفير العام حتى يصير فرضاً على الأعيان قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا قَتِيلُوا الَّذِينَ يَكُونُ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ أمر بقتال الأقرب منهم فالأقرب إليهم في الدور والنسب فإن الأقرب أحق بالشفقة والاستصلاح ولذلك أمر رسول الله ﷺ أولاً بإنذار عشيرته الأقربين، ولما هاجر إلى المدينة أمر بقتال قريظة والنضير وخيبر ونحوها وإذا فرغ من قتال العرب أمر بقتال الروم وهم المراد بهذه الآية لأنهم كانوا سكان الشام وكان الشام أقرب إلى المدينة من العراق، فإذا نزلت هذه الآية عزم رسول الله ﷺ على قتال الروم عام تبوك كما ذكرنا فيما سبق في رواية ابن مردويه عن ابن عباس وابن أبي شيبه وابن المنذر عن مجاهد وابن جرير عن سعيد بن جبير، وعلى مقتضى هذه الآية قالت الفقهاء: يجب على من يكون في الثغر الجهاد بمن يليهم من الكفار فإن لم يكن بهم كفاية أو تكاسلوا وعصوا يجب على من يقرب منهم وكذا من يقرب ممن يقرب إن لم يكن بهم كفاية أو تكاسلوا وهكذا إلى أن يجب على جميع أهل الإسلام شرقاً وغرباً كذا جهاز الميت والصلاة عليه ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ شدة وحمية قال: الحسن: صبراً على الجهاد وظاهر الآية أمر للكفار والمراد منه الأمر للمؤمنين بالتغليظ يعني أغلظوا عليهم ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ دون الكفار بالعون والنصر فلا تبالوا بقتالهم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ﴾ ما صلة مؤكدة ﴿فَمِنْهُمْ﴾ يعني من المنافقين ﴿مَنْ يَقُولُ﴾ لإخوانه استهزاء ﴿أَيْسُكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ﴾ السورة ﴿إِمْتِنَا﴾ يقيناً

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٢)، وأخرجه أبو

داود في كتاب: العلم، باب: في فضل العلم (٣٦٣٧).

وتصديقاً قال: الله تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَزَدْتُهُمْ إِيْمَانًا﴾ بزيادة بما فيها إلى إيمانهم ﴿وَهُمْ يَتَّبِعُونَ﴾ بنزولها لأنه سبب لزيادة علمهم وكمالهم وارتفاع درجاتهم ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ شك ونفاق ﴿فَرَزَدْتُهُمْ﴾ السورة ﴿رِجْسًا﴾ كفراً بها مضموماً ﴿إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ كفرهم بغيرها ﴿وَمَا تَوْأَمَهُمْ كَاْفِرُونَ﴾ فإن الإيمان أمر وهبي لا يفيد النذر والآيات ما لم يشاء الله قال: مجاهد في هذه الآية دلالة على أن الإيمان يزيد وينقص، وكان عمر رضي الله عنه يأخذ بيد الرجل والرجلين من أصحابه فيقول تعالوا حتى نزيد إيماناً، وقال علي رضي الله عنه: إن الإيمان يبدو لمظة بيضاء في القلب كلما ازداد الإيمان عظماً ازداد ذلك البياض حتى يبيض القلب كله وإن النفاق يبدو لمظة سوداء في القلب كلما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد حتى يسود القلب وايم الله لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض لو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسوداً ﴿أَوَّلًا يَرُونَ﴾ قرأه حمزة ويعقوب بالتاء الفوقانية على خطاب المؤمنين والباقون بالياء التحتانية حكاية عن المنافقين المذكورين ﴿أَنَّهُمْ﴾ أي: المنافقون ﴿بِفَتْحَتُوْكَ﴾ أي: يتلون بأصناف البليات من الأمراض والشدائد وقال مجاهد: بالقحط والشدة، وقال قتادة بالغزو والجهاد مع رسول الله ﷺ فيعانون ما يظهر من الآيات، وقال مقاتل بن حبان: يفضحون بإظهار نفاقهم وقال عكرمة ينافقون ثم يؤمنون ثم ينافقون وقال يمان: ينقضون عهودهم ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ من نقض العهد ومن المعاصي والنفاق الجالب إليهم تلك البليات والفضائح ﴿وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ أصله يتذكرون أي: لا يتعظون بما يرون من تصديق وعد الله بالنصر والظفر للمسلمين ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فيها ذكرهم وقرأها النبي ﷺ ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أي: تغامزوا بالعيون إنكاراً لها سخرية أو غيظ لما فيها من عيوبهم وتفضيحتهم ويريدون الهرب قائلاً بعضهم لبعض إشارة ﴿هَلْ يَرِنُكُمْ مِنَّ أَحَدٍ﴾ من زائدة يعني هل يريكم أحد من المؤمنين إن قمتم من عند رسول الله ﷺ فإن لم يرههم أحد خرجوا من المسجد وإن علموا أن أحدهم يريهم أقاموا وثبتوا ﴿ثُمَّ أَنصَرَفُوا﴾ عن الإيمان بها، وقيل: انصرفوا عن مواضعهم التي يسمعون فيها يعني حضرة الرسول الله ﷺ مخافة الفضيحة ﴿صَرَفَكَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عن الإيمان قال: أبو إسحاق أضلهم الله مجازاة على فعلهم ذلك ويحتمل الدعاء ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يفقهون الحق سوء فهمهم وعدم تدبرهم ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَقْبَابِكُمْ﴾، أي: من جنسكم عربي مثلكم من بني إسماعيل عليه السلام تعرفون نسبه وحسبه، قال ابن عباس: ليس من العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبي ﷺ وله فيهم نسب،

قال: جعفر بن محمد الصادق لم يصبه شيء من أولاد الجاهلية من زمان آدم عليه السلام، روى البغوي بسنده عن ابن عباس قال: قال: رسول الله ﷺ: «ما ولدني من سفاح الجاهلية شيء ما ولدني إلا نكاح كنيكاح الإسلام»^(١) وقرأ ابن عباس والزهري وابن محيصن من أنفسكم بفتح الفاء أي: أي من أشرفكم وأفضلكم ﴿عَزِيزٌ﴾ شديد شاق ﴿عَلَيْهِ مَا عَسَيْتُمْ﴾ قيل: ما فائدة معناه عنتم، أي: دخول المشقة والمضرة عليكم وقال القتيبي: ما أعتكم وضركم، وقال ابن عباس: ما ضللتكم، وقال الضحاك والكلبي: أثمتكم فما موضوطة ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: على إيمانكم شأنكم ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ من غيركم ﴿رَهْمٌ وَقَدْ رَحِيمٌ﴾ الرأفة شدة الرحمة، قدم الأبلغ لرعاية الفواصل قبل رؤوف بالمطيعين رحيم بالمذنبين ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان بك وناصربك للحرب ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فإنه يكفيك مؤنتهم ويعينك عليهم، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ كالدليل عليه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فلا أرجو أو لا أخاف إلا منه ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ خصه بالذكر لأنه أعظم المخلوقات.

أخرج عبد الله بن أحمد عن أبي بن كعب قال: آخر ما نزل من القرآن هاتان الآيتان ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ إلى آخر السورة وقال هما أحدث الآيات بالله عهداً والله أعلم.

فصل

ولما كان نزول أكثر هذه السورة في غزوة تبوك وقد ذكرنا بعض قصصها في ضمن تفسير السورة فلنذكر بقية قصص تلك الغزوة والمعجزات التي ظهرت فيها تكميلاً للمقال، روى الطبراني عن عبد الله بن سلام أن رسول الله ﷺ لما مر بالخليجة في سفره إلى تبوك قال: له أصحابه: المبرك يا رسول الله الظل والماء وإن كان فيها دوم وماء، فقال: إنها أرض زرع دعوها فإنها مأمورة يعني ناقته فأقبلت حتى بركت عند الدومة التي كانت في مسجد ذي المروة، قال: محمد بن عمر ولما نزل رسول الله ﷺ وادي القرى أهدى له بني عريض اليهودي هريساً فأكلها وأطعمهم أربعين وسقا فهي جارية عليهم إلى يوم القيامة، وفي رواية فهي جارية عليهم إلى الساعة.

(١) رواه الطبراني عن المدني عن أبي الحويرث ولم أعرف المدني ولا شيخه وبقية رجاله وثقوا، انظر

مجمع الزوائد في كتاب: علامات النبوة، باب: في كرامة أصله ﷺ (١٣٨٢١).

روى مالك وأحمد والشيخان في الصحيحين عن ابن عمر وأحمد عن جابر وأبي كبشة الأنماري وأبي حميد الساعدي: أن رسول الله ﷺ لما مر بالحجر تقنع برداءه وهو على الرحل فأوضع راحلته حتى خلف أبيات ثمود ولما نزل هناك تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم، واستسقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود وعجنوا ونصبوا القدور باللحم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنودي في الناس الصلاة جامعة، فلما اجتمعوا قال: رسول الله ﷺ: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم ولا تشربوا من مائها ولا تتوضؤوا منه للصلاة وأهريقوا القدور واعلفوا العجيين الإبل^(١)» ثم ارتحل بهم حتى نزل على البئر التي كانت تشرب منها الناقة وقال: «لا تسألوا الآيات فقد سألتها قوم صالح سألوها نبيهم أن يبعث لهم آية فبعث الله تبارك وتعالى لهم الناقة فكانت ترد هذا الفج وتصدر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم فعقروها وكانت تشرب مياههم يوماً ويشربون لبنها يوماً فعقروها فأخذتهم صيحة أحمده الله تعالى من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله» قيل: من هو يا رسول الله؟ قال: «أبو رغال» فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم فناداه رجل منهم تعجب منهم، فقال: رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأعجب من ذلك رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وبما هو كائن بعدكم فاستقيموا وسددوا فإن الله لا يعاب بعذابكم شيئاً وسيأتي الله بقوم لا يدفعون عن أنفسهم بشيء تهب عليكم الليلة ريح شديدة فلا يقوم من أحد ومن كان له بعير فليوثق غفاله ولا يخرج من أحدهم إلا ومعه صاحب له» ففعل الناس ما أمرهم رسول الله ﷺ إلا رجلين من بني ساعدة، خرج أحدهما لحاجته وخرج الآخر في طلب بعير له، فأما الذي خرج لحاجته فإنه خنق على مذهبه، وأما الذي ذهب في طلب بعيره فاحتملته الريح حتى طرحته على جبل طيء فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال: «ألم أنهاكم أن يخرج أحد إلا ومعه صاحب له، ثم دعا للذي أصيب على مذهبه فشفي وأما الآخر فإن طيئاً أهدته إلى رسول الله ﷺ حين رجع إلى المدينة وقد مر قصة استسقاءه ﷺ»^(٢).

وروى محمد بن عمر ومحمد بن إسحاق أنه ضلت ناقة رسول الله ﷺ وخرج الناس

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿والى ثمود أخاهم صالحاً﴾ (٣٣٧٩)، وأخرجه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق، باب: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم (٢٩٨٠).

(٢) أخرجه النسائي في كتاب: الجهاد، باب: فضل من عمل في سبيل الله على قدمه (٣٠٩٧).

في طلبها، فقال: زيد بن اللُّصْبِ أحد بني قينقاع كان يهودياً فأسلم وناق و كان في رجل عمارة بن حزم محمد يزعم أنه نبي وهو يخبركم خبر السماء وهو لا يدري أين ناقتة، فقال رسول الله ﷺ وكان عمارة بن حزم عنده أن منافقاً قال: كذا والله إنني لا أعلم إلا ما علمني الله وقد أطلعني الله عليها وهي في الوادي في شعب كذا فذهبوا فجاؤوا بها فأقبل عمارة على زيد يجافي عنقه، ويقول أخرج يا عدو الله من رحلي فلا تصاحبني.

قال ابن إسحاق: فزعم بعض الناس أن زيدا تاب وقال بعض الناس لم يزل منافقاً حتى هلك. وفي تلك الغزوة ما روى مسلم عن المغيرة بن شعبة ذهب رسول الله ﷺ قبل الفجر لحاجته فأسفر الناس حتى خافوا الشمس فقدموا عبد الرحمن بن عوف فصلى بهم وتوضأ رسول الله ﷺ وضاق كم جبته فأخرج يديه من تحت لجبة ومسح على خفيه وأدرك ركعة فصلى ركعة أخرى وسلم وقال: «أحسنتم صلوا الصلاة لوقتها وإنه لم يتوف نبي حتى يؤمه رجل صالح من أمته» وروى أحمد والطبراني أنه ﷺ أردف سهيل بن بيضاء على رحله ورفع صوته يا سهيل ثلاث مرات كل ذلك يقول سهيل: لبيك حتى عرف الناس أنه يريدهم فلما اجتمع الناس قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له حرمه الله على النار» روى محمد بن عمر وأبو نعيم في الدلائل أنه عارض الناس حية عظيمة ذكر من عظمها وخلقها فأقبلت حتى واقفت رسول الله ﷺ وهو على راحلته طويلاً والناس ينظرون إليه فقامت قائمة فقال: رسول الله ﷺ: «هذا أحد الرهط الثمانية من الجن الذين وفدوا إلي يسمعون القرآن وها هو ذا يقرأكم السلام: فقال: الناس جميعاً وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، روى أحمد برجال الصحيح عن حذيفة عن معاذ قال: عليه السلام: «لكم ستاتون غداً إن شاء الله عين تبوك وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار فمن جاء فلا يمس من ماءها شيئاً حتى أتى فجنناها وسبق إليه رجلان والعين مثل الشراك تبض بشيء من ماء فسألها رسول الله ﷺ هل مستما من ماءها شيئاً قالا نعم، فسبهما وقال لهما ما شاء الله أن يقول ثم غرفوا من العين قليلاً حتى اجتمع في شن ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويديه وتمضمض ثم أعاده فجرت العين بماء كثير، ولفظ ابن إسحاق فانخرق الماء حتى كان يقول من سمعه أن له حساً كحس الصواعق وذلك الماء فوارة بتبوك، ثم قال: يا معاذ يوشك أن طالت بك حياة أن ترى ما ههنا يلي جناناً وفيما، روى البيهقي وأبو نعيم عن عروة فقارت عينها حتى امتلأت فهي كذلك حتى الساعة.

روى أحمد والنسائي عن أبي سعيد الخدري خطب رسول الله ﷺ تبوك وهو مسند

ظهره إلى نخلة فنادى: «ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس إن من خير الناس رجل محمل في سبيل الله على ظهر فرسه أو على ظهر بعيره أو على قدميه حتى يأتيه الموت وإن من شر الناس رجلاً».

يقرأ كتاب الله لا يرعوي إلى شيء منه» وروى أبو داود عن ابن عمر قال: أتني رسول الله ﷺ بجبنة في تبوك فدعا بسكين فسمى وقطع^(١)، روى أحمد وأبو داود أنه مر غلام بينه وبين القبلة على حمار وهو يصلي فقال: «اللهم اقطع أثره» فصار مقعداً، ورمى محمد بن عمر عن رجل من بني سعد قال: جئت رسول الله ﷺ وهو جالس بتبوك في نفر فقال: يا بلال أطعمنا فأخرج بلال خرجات بيده من تمر معجون بسمن وأقط فقال: رسول الله ﷺ: «كلوا فأكلنا حتى شبعنا فقلت: يا رسول الله إن كنت لأكل هذه وحدي فقال: رسول الله ﷺ: «الكافر يأكل في سبعة أمعاء والمؤمن يأكل في معاء واحد» ثم جثته من الغد فإذا عشرة نفر حوله فقال: هات أطعمنا يا بلال فجعل يخرج من جراب تمرأ بكفه قبضة قبضة فقال: أخرج ولا تخش من ذي العرش إقتاراً» فجاء بجراب فنشره فخرزته مدين فوضع رسول الله ﷺ يده على التمر وقال: «كلوا بسم الله» فأكلوا وأكلت معهم حتى ما أجد له مسلماً قال: وبقي على النطع مثل الذي جاء به بلال كأننا لم نأكل منه ثمرة واحدة ثم قال: غدوت من الغد وعاد نفر فكانوا عشرة أو يزيد رجلاً أو رجلين، فقال: رسول الله ﷺ: «يا بلال أطعمنا» فجاء بلال بذلك الجراب بعينه أعرفه فنشره ووضع رسول الله ﷺ يده عليه وقال: «كلوا بسم الله» فأكلنا حتى نهمننا ثم رجع مثل الذي صب ففعل ذلك ثلاثة أيام.

وفي قصة أخرى: روى محمد بن عمر وأبو نعيم وابن عساكر عرباض بن سارية فذكر قصة أنه قال: كنا ثلاثة أنا وجعال بن سراقه وعبد الله بن مغفل المزني كلنا جياع إنما نعيش بباب رسول الله ﷺ فدخل رسول الله ﷺ قبة ومعه زوجته أم سلمة فطلب شيئاً فلم يجد فخرج فنادى بلالاً هل من عشار لهؤلاء النفر، فأخذ الجرب ينفذها جراباً جراباً فتقع التمرة والتمرتان حتى رأيت في يده سبع تمرات ثم دعا بصفحة فوضع التمر فيها ثم وضع يده على التمرات وسمى الله تعالى فقال: «كلوا بسم الله» فأكلنا فأحصيت أربعاً وخمسين ثمرة أكلتها أعدماً ونواها في يدي الأخرى وصاحباي يصنعان مثل ما أصنع وشبعنا وأكل كل واحد منا خمسين ثمرة ورفعنا أيدينا فإذا التمرات السبع كما هي فقال:

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الأطعمة، باب: في أكل الجبن (٣٨١٤).

«يا بلال» ارفعها فإنه لا يأكل منها أحد إلا تسهل شعباً» فلما أصبح رسول الله ﷺ صلاة الصبح انصرف إلى فناء قبته فجل وجلسنا حوله وفقراء من المسلمين عشرة فقال: رسول الله ﷺ هل لكم من الغداء فدعا بلالاً بالتمرات فوضع يده عليهن في الصفحة ثم قال: «كلوا بسم الله» فأكلنا فوالذي بعثه بالحق حتى أشبعنا وإنا لشعرة ثم رفعوا منها أيديهم شعباً وإذا التمرات كما هي، فقال: «لولا أنني أستحيي من ربي لأكلنا من هذه التمر حتى نرد المدينة من آخرنا» وطلع غليم من أهل البلد فأخذ رسول الله ﷺ التمرات بيده فدفعها إليه فولى الغلام يلوكهين.

روى محمد بن عمر أنه هاجت ريح شديد بتبوك فقال: رسول الله ﷺ: «الموت منافق عظيم النفاق» فقدموا المدينة فوجدوا منافقاً عظيماً النفاق قد مات.

روى محمد بن عمر أنه قدم رسول الله ﷺ نفر من سعد هزيم فقالوا يا رسول الله ﷺ إنا قدمنا إليك وتركنا أهلنا على بئر قليل مائها وهذا القيظ ونحن نخاف إن تفرقنا أن تقطع لأن الإسلام لم يغش حولنا بعد فادع الله لنا في ماءنا فإننا إن روينا به فلا قوم أعز منا لا يقربنا أحد مخالف لديننا، فقال: رسول الله ﷺ: «أبغوني حصيات» فتناول بعضهم ثلاث حصيات فدفعهن إلى رسول الله ﷺ فعركهن بيده ثم قال: إذهبوا بهذه الحصيات إلى بئركم فاطرحوا واحدة واحدة وسموا الله تعالى، فانصرف القوم من عند رسول الله ﷺ ففعلوا ذلك فجاشت بشرهم بالرواء ونقوا من حاربهم من أهل الشرك ووطؤهم فما انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة حتى أوطؤوا من حولهم عليه ودانوا عليه بالإسلام روى الطبراني عن ابن عمر ومعاوية بن أبي سفيان والبيهقي وابن سعد عن أنس قال: طلعت الشمس بضياء وشعاع ونور لم أرها طلعت فيما مضى فأتى جبرئيل فسأل عنها رسول الله ﷺ فقال: ذاك معاوية بن معاوية المزني مات بالمدينة اليوم فبعث الله سبعين ألف ملك يصلون عليه فهل لك في الصلاة عليه قال: نعم، فصلى رسول الله ﷺ وصف الملائكة خلفه صفين فلما فرغ رسول الله ﷺ قال لجبرئيل: بم بلغ هذه المنزلة؟ قال: بحبه قل هو الله أحد يقرأها قائماً وقاعداً وراكباً وماشياً وعلى كل حال، قال: الحافظ هذا الحديث له طرق يقوي بعضها بعضاً، روى الطبراني وأبو نعيم عن محمد بن حمزة عن عمرو الأسلمي عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك وكنت على خدمته ذلك السفر فنظرت إلى نحي السمن قد قل ما فيه وهيأت للنبي ﷺ طعاماً فوضعت النحي في الشمس ونمت فانتبهت بحذير النحي فقممت فأخذت رأسه بيدي فقال: رسول الله ﷺ ورآني: «لو تركته لسال الوادي سمناً»، روى الحارث بن أسامة عن بكر بن

عبد الله المزني قال: قال: رسول الله ﷺ: «من يذهب بهذا الكتاب إلى قيصر وله الجنة؟ فقال: رجل وإن لم يقبل فانطلق الرجل فاتاه بالكتاب فقرأ فقال: اذهب إلى نبيكم فأخبره أنني متبعة ولكن لا أريد أن أدع ملكي وبعث معه بدنانير إلى رسول الله ﷺ فرجع فأخبره فقال: رسول الله ﷺ: «كذب» وقسم الدنانير، روى أحمد وأبو يعلى بسند حسن عن سعيد بن أبي راشد عن التنوخي رسول هرقل قال: قدم رسول الله ﷺ تبوك فبعث دحية الكلبي إلى هرقل فلما إن جاء كتاب رسول الله ﷺ دعا قسيسي الروم وبطارقتهم ثم أغلق عليه وعليهم الدار فقال: قد نزل هذا الرجل حيث رأيتم وقد أرسل يدعوني إلى ثلاث خصال... أن أتبعه على دينه أو أن أعطيه مالنا على أرضنا والأرض أرضنا أو نلقي إليه الحرب والله لقد عرفتم فيما تقرؤون من الكتب فهلتم فلتتبعه على دينه أو نعطيه مالنا على أرضنا فنخروا نخرة رجل واحد حتى خرجوا، وقالوا: تدعوننا إلى أن نذر النصرانية أو تكون عبيد الأعرابي من الحجاز فلما ظن أنهم أن يخرجوا من عنده فسدوا عليه الروم رفاهم ولم يكذ وقال: إنما قلت ذلك لأعلم صلابتكم على دينكم وأمركم، ثم دعا رجلاً من عرب تُجيب كان على نصارى العرب قال: أدع لي رجلاً حافظاً للحديث عربي اللسان ابعثه إلى هذا الرجل بجواب كتابه فجاءني، فدفع إليّ هرقل كتاباً فقال: اذهب بكتابي هذا إلى هذا الرجل فما سمعته من حديثه فاحفظ لي منه ثلاث خصال هل يذكر صحيفته التي كتب بشيء وانظر إذا قرأ كتابي فهل يذكر الليل، وانظر إلى ظهره هل فيه شيء يريبك، قال: فانطلقت بكتابه حتى جئت تبوكاً فإذا هو جالس بين ظهراي أصحابه محتبياً على الماء فقلت أين صاحبكم؟ قيل: هو ذا فأقبلت أمشي حتى جلست بين يديه فناولته كتابي فوضعه في حجره ثم قال: ممن أنت؟ قلت: أنا من تنوخ قال: هل لك في الإسلام الحنيفة ملة أبيك إبراهيم؟ قلت: إني رسول قوم وعلى دين قوم حتى أرجع إليهم فضحك رسول الله ﷺ وقال: «إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين، يا أخا تنوخ إني كتبت كتاباً إلى كسرى فمزقه وممزق ملكه وكتبت إلى النجاشي بصحيفة فمزقها والله ممزقه وممزق ملكه وكتبت إلى صاحبك بصحيفة فأمسكها فلن يزال الناس يجدون منه بأساً ما دام في العيش خير، قلت: هذه إحدى الثلاث التي أوصاني صاحبني بها فأخذت سهماً من جعبي فكتبتها في جفن سيفي، ثم ناول الصحيفة رجلاً عن يساره قلت: من صاحب كتابكم الذي يقرأكم قالوا: معاوية فإذا في كتاب صاحبني تدعوني إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين فأين النار؟ فقال: رسول الله ﷺ سبحانه الله أين النهار إذا جاء الليل؟ فأخذت سهماً من جعبي فكتبته في

جنب سيفي فلما فرغ من قراءة كتابي قال: إن لك حقاً وإنك رسول الله فلو وجدت عندنا جائزة جوزناك بها إنا سفر مرملون، قال: فناداه رجل من طائفة الناس أنا أجوزه ففتح رحله فإذا هو بحلة صفراء فوضعها في حجري قلت: من صاحب الجائزة؟ قيل لي: عثمان، ثم قال: رسول الله ﷺ: أيكم ينزل هذا الرجل؟ فقال: فتى من الأنصار: أنا، فقام الأنصاري وقمت معه حتى إذا خرجت من طائفة المجلس ناداني رسول الله ﷺ فقال: تعالي يا أبا تنوخ فأقبلت أهوي حتى كنت في مجلسي الذي كنت بين يديه فحل حبوته عن ظهره وقال هنا إمض لما أمرت له فجلست في ظهره فإذا أنا بخاتم النبوة في موضع مصرف الكتف مثل المحجمة الضخمة، قال: محمد بن عمر فانصرف الرجل إلى هرقل فذكر ذلك له فدعا قومه إلى التصديق بالنبي ﷺ فأبوا حتى خافهم على ملكه وهو في موضعه بحمص لم يتحرك ولم يزحف وكان الذي خير النبي ﷺ من تعبئة أصحابه ودنوه إلى وادي الشام باطلاً لم يرد ذلك ولا همَّ به، وذكر السهيلي أن هرقل أهدى هدياً فقبل رسول الله ﷺ وفرقها على المسلمين، وأن هرقل أمر منادياً ينادي ألا إن هرقل آمن بمحمد واتبعه فدخلت الأجناد في سلاحها وطافت بقصره تريد قتله فأرسل إليهم أني أردت أن اختبر صلابتكم في دينكم فقد رضيت عنكم فرضوا عنه، ثم كتب إلى رسول الله ﷺ كتاباً مع دحية رضي الله عنه يقول فيه: إني مسلم ولكن مغلوب على أمري، فلما قرأ رسول الله ﷺ كتابه قال: كذب عدو الله والله ليس بمسلم بل هو على نصرانية. وروى البيهقي عن ابن إسحاق قال: حدثني يزيد بن رومان وعبد الله بن بكر والبيهقي عن عروة بن الزبير قال: «لما توجه رسول الله ﷺ قافلاً إلى المدينة من تبوك بعث خالد بن الوليد بأربعمائة وعشرين فارساً في رجب سنة تسع إلى أكيد بن عبد الملك بدومة الجندل وكان أكيدر من كندة وكان نصرانياً، فقال: خالد كيف لي به وسط بلاد كلي وإنما أنا في أناس يسرون، فقال: رسول الله ﷺ: «ستجده يصيد البقر فتأخذه فيفتح الله لك دومة فإن ظفرت به فلا تقتله وائت به إليّ» فخرج خالد بن الوليد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين في ليلة مقمرة صافية وهو على سطح له مع امرأته الرباب بنت أنيف بن عامر الكندية، فصعد أكيدر على ظهر الحصن من الحر وقينة تغنيه ثم دعى بشراب فشرب فأقبلت البقرة الوحشية تحك بقرونها باب الحصن الحديث فنزل أكيدر وركب فرسه وركب معه نفر من أهل بيته معه أخوه حسان ومملوكان له فخرجوا من حصنهم بمطاردهم فلما فصلوا من الحصن أخذته خيل خالد فاستأسر أكيدر وامتنع حسان وقاتل حتى قتل وهرب المملوكان ومن كان معه فدخلوا الحصن، وكان على حسان قباء ديباج مخوص بالذهب

فاستلبه وقال خالد لأكيدر: هل لك أن أجبرك من القتل حتى آتي بك رسول الله ﷺ تفتح لي دومة، فقال: أكيدر: نعم، فانطلق به خالد حتى أدناه من الحصن فنادى أكيدر أهله أن افتحوا باب الحصن فأرادوا ذلك فأبى عليهم فصاد أخو أكيدر، فقال أكيدر لخالد: تعلم والله إنهم لا يفتحون لي رأوني في وثاقك فخل عني فلك الله والأمانة أن أفتح لك الحصن إن أنت صالحتني على أهلي قال: خالد فإني أصالحك فقال: إكيدر: إن شئت حكمتك وإن شئت حكمتني، قال خالد: بل نقبل منك ما أعطيت فصالحه على ألفي بعير وثمان مائة رأس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح على أن ينطلق به وبأخيه إلى رسول الله ﷺ فيحكم فيهما حكمه فلما قضاه خالد على ذلك خلى سبيله ففتح باب الحصن فدخل خالد وأوثق مصاداً أخا أكيدر وأخذ ما صالح عليه من الإبل والرقيق والسلاح ولما ظفر خاند بأكيدر وبأخيه حسان، أرسل خالد عمر بن أمية الضميري إلى رسول الله ﷺ بشيراً وأرسل معه قباء حسان، قال: أنس وجابر رأينا قباء حسان أخي أكيدر حين قدم به على رسول الله ﷺ فجعل المسلمون يلمسون بأيديهم وتعجبون من هذا فقال: رسول الله ﷺ: «أتعجبون من هذا والذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا» ثم لما قبض خالد ما صالحه عزل للنبي ﷺ الصفح ثم خمس الغنائم ثم قسم الغنائم بين أصحابه، قال: أبو سعيد الخدري: أصابني درع وبيضة وعشر من الإبل وقال واثلة أصابني ست فرائض، وقال عبد الله بن عمرو بن عوف كنا أربعين رجلاً من بني مزينة أصاب كل رجل خمس فرائض مع سلاح ودرع ورمح، قلت: وتفاوت السهم بتفاوت القيامة ثم إن خالداً توجه إلى المدينة ومعه أكيدر ومصاد.

روى محمد بن عمر عن جابر قال: رأيت أكيدر حين قدم به خالد عليه صليب ذهب وعليه الديباج فلما رأى النبي ﷺ سجد له فأومى رسول الله ﷺ بيده لالا مرتين وأهدى لرسول الله ﷺ هدية فيها كسوة، قال: ابن الأثير وبغلته وصالحه على الجزية وبلغت جزيتهم ثلاث مائة دينار وحقن دمه ودم أخيه وخلي سبيلهما، وكتب رسول الله ﷺ كتاباً فيه أمانهم، ولما بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد أكيدر بن عبد الملك بدومة أشفق ملك أيلة بحنة بن روية أن يبعث إليه رسول الله ﷺ كما بعث إلى أكيدر فقدم على رسول الله ﷺ وقدم معه أهل جرباً وأذرح، قال: أبو حميد الساعدي، قدم ملك أيلة على رسول الله ﷺ فأهدى إلى رسول الله ﷺ بغلة بيضاء فكساه رسول الله ﷺ بغلة بيضاء فكساه رسول الله ﷺ برداً وكتب له كتاباً رواه ابن أبي شيبه والبخاري.

وروى محمد بن عمر عن جابر قال: رأيت بحنة بن روية يوم أتى رسول الله ﷺ

وعليه صليب من ذهب وهو معقود الناصية فأومىء برأسه فأومىء إليه رسول الله ﷺ أن ارفع رأسك وصالحه يومئذ وكساه برداً يمنية فاشتراه بعد ذلك أبو العباس عبد الله بن محمد بثلاثمائة دينار وأمر له بمنزله عند بلال انتهى.

قالوا: وقطع الجزية جزية معلومة ثلاثمائة دينار كل سنة وكانوا ثلاثمائة رجل وكتب لهم بذلك كتاباً وكتب ﷺ أذرح كتاباً وصالح رسول الله ﷺ أهل مقناً على ربع ثمارهم وربع عربهم، وروى ابن أبي شيبه وأحمد ومسلم عن أبي حميد الساعدي قال: «جاء ابن العُلما صاحب أيلة رسول الله ﷺ بكتاب وأهدى له بغلة بيضاء فكتب إليه رسول الله ﷺ وأهدى له برداً» روى أحمد عن جابر بن عبد الله وابن سعد عن يحيى بن كثير أنه ﷺ أقام بتبوك عشرين ليلة يقصر الصلاة وعلى ذلك جرى محمد بن عمر وابن سعد وابن حزم وغيرهم، وقال ابن عقبة وابن إسحاق: بضع عشرة ليلة، قال: محمد بن عمر شاور رسول الله ﷺ أصحابه في التقدم يعني من تبوك إلى الشام فقال: عمر بن الخطاب يا رسول الله إن كنت مأموراً فسر وإلا فللروم جمعاً كثيراً وليس بها أحد من أهل الإسلام وقد دنونا منهم وقد أفرعهم دنوك فلو رجعنا هذه السنة حتى نرى أو يحدث الله تعالى لك أمراً، روى أحمد والطبراني والطحاوي من طريق أن رسول الله ﷺ قال: في غزوة تبوك: «إذا وقع الطاعون بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها وإذا كنتم بغيرها فلا تقدموا عليها» قال: الحافظ في بذل الماعون لعله بلغه ﷺ أن الطاعون في الجهة التي كان يقصدها وكان ذلك من أسباب رجوعه من غير قتال، وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل بسند ضعيف من حديث شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم أن اليهود أتوا والنبى ﷺ فقالوا إن كنت نبينا فالحق بالشام فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء فصدق رسول الله ﷺ قولهم فغزا غزوة تبوك فلما بلغ تبوك أنزل الله تعالى آيات من بني إسرائيل ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾^(١) فأمره بالرجوع إلى المدينة، وروى إسحاق بن راهويه عن أبي هريرة وأبو يعلى وأبو نعيم وابن عساكر عن عمر بن الخطاب ومحمد بن عمر عن شيوخه قالوا: يا رسول الله لو أذنت فنخر من نواضحنا فأكلنا فلقبيهم عمر بن الخطاب فأمرهم أن يمسكوا عن نحرها، فقال: يا رسول الله أذنت الناس في نحر حملتهم يأكلونها، فقال: رسول الله ﷺ شكوا لي ما بلغ من الجوع فأذنت لهم بنحر الرفقة البعير والبعيرين ويتعاقبون فيما فضل فهم قافلون إلى أهلهم، فقال: عمر يا

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٦.

رسول الله إنك إن فعلت قل الظهر ولكن أدع بفضل أزوادهم جميعاً وادع الله لهم فيها بالبركة فقال: رسول الله ﷺ: «نعم» فدعا بنطع فبسط ونادى منادى رسول الله ﷺ من كان عنده فضل من زاد فليات به، فجعل الرجل يأتي بكف ذرة ويجيء الآخر بكسرة وجعل الرجل بالمد الدقيق أو السويق، أو التمر وكان جميع ما جاؤوا به سبعمائة وعشرين صاعاً، ثم قام رسول الله ﷺ فتوضأ وصلى ركعتين ثم دعا الله أن يبارك فيه، قال: أبو هريرة فما تركوا في العسكر وعاء إلا ملاءه وأكلوا حتى شبعوا وفضل فضلة، وقال عمر: فأخذوا حتى صدروا وإنه نحو ما كانوا يحرزون، فقال: رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يأتي بها عبد غير شاك فيحجب عن الجنة» وفي حديث أبي قتادة عند أبي نعيم ومحمد بن عمر أن رسول الله ﷺ عرش ليلة قافلاً من تبوك فمنا فما انتبهنا إلا بحر الشمس فقلنا: إنا لله فاتنا الصبح فقال: رسول الله ﷺ: «لنغيظن الشيطان كما غاظنا» فتوضأ من ماء داوة معي ففضل فضلة، فقال: يا أبا قتادة: «احفظ بماء في الإداوة» فصلى بنا الفجر بعد طلوع الشمس فقرأ بالمائدة فلما انصرف من الصلاة قال: «أما أنهم لو أطاعوا أبا بكر وعمر رشدوا» وذلك أن أبا بكر وعمر أراد أن ينزلا بالجيش على الماء فأبوا ذلك عليهما فنزلوا على غير ماء وبفلاة من الأرض فركب رسول الله ﷺ فلحق الجيش عند زوال الشمس ونحن معه وقد كادت أعناق الخيل والرجال والركاب تقطع عطاشاً فدعا رسول الله ﷺ بالركوة فأفرغ ماء من الإداوة فيها ووضع أصابعه عليها فنبع الماء من بين أصابعه، وأقبل الناس فاستقوا وفاض الماء حتى ردوا ورووا عليهم وركابهم وكان في العسكر اثنا عشر ألفاً وبعير والناس ثلاثون ألفاً والخيل اثني عشر ألفاً، وروى ابن إسحاق ومحمد بن عمر قالوا: أقبل رسول الله ﷺ قافلاً حتى إذا كان بين تبوك وواد يقال له وادي الناقة كان فيه وشل يخرج منه في أسفله قدر ما يروي الراكبين أو ثلاثة فقال: رسول الله ﷺ من سبقنا إلى ذلك الوشل فلا يستقين منه شيئاً حتى نأتيه، فسبق إليه أربعة من المنافقين معتب بن قشير، والحارث بن يزيد ووديع بن ثابت وزيد بن اللصيب فلما أتاه رسول الله ﷺ وقف عليه فلم يرقبه شيئاً فقال من بقنا إلى هذا الماء؟ فقيل: فلان وفلان فقال: «ألم أنهكم» فلعنهم ودعا عليهم، ثم نزل فوضع يده تحت الوشل ثم مسحه بأصبعيه ثم اجتمع منه في كفه ماء قليل ثم نضح به ثم مسحه بيده ثم دعا بما شاء الله أن يدعوا فانخرق من الماء، قال: معاذ بن جبل: والذي نفسي بيده لقد معت له من شدة انخراقه سيل الصواعق فشرب الناس ما شاؤوا واستقوا ما شاؤوا، ثم قال: رسول الله ﷺ للناس: «لئن بقيتم لتسمعن بهذا الوادي وهو أخضب مما بين يديه ومما خلفه، وروى

محمد بن عمر وأبو نعيم عن جماعة من أهل المغازي قال: بينا رسول الله ﷺ يسير منحدرًا للشنة وهو في قيظ شديد عطش العسكر حتى لا يوجد للشنة ماء قليل ولا كثير فشكوا ذلك لرسول الله ﷺ فأرسل أسيد بن حضير وقال: عسى أن تجد لنا ماء فأدرك أسيد راوية من ماء مع امرأة فجاء أسيد بالماء ودعا رسول الله ﷺ بالبركة وقال لهم أسقيتكم فلم يبق معه سقاء إلا ملأوه ثم دعا بركابهم وخير لهم فسقوها، ويقال: إنه ﷺ أمر بما جاء به فصبه في قعب عظيم فأدخل رسول الله ﷺ فيه يده وغسل وجهه ويديه ورجليه ثم صلى ركعتين ثم رفع يديه مدًا ثم انصرف وإن القعب ليفور، فقال: رسول الله ﷺ للناس رووا واتسع الماء وانبسط الناس حتى يصف عليه المائة والمئتان فارتوا وإن القعب ليغيش بالروا، وروى الطبراني بسند صحيح عن فضالة عن عبيد أن رسول الله ﷺ غزا غزوة تبوك فجهد الظهر جهداً شديداً فشكوا ذلك إليه ورأهم يزجزن ظهورهم فوقف في مضيق والناس يمرون فيه فنفخ فيها، وقال: اللهم احمل عليها في سبيلك فإنك تحمل على القوي والضعيف والرطب واليابس والبر والبحر فاستمرت فما دخلنا المدينة إلا وهي تنازعنا أزمتهما، ولما أشرف رسول الله ﷺ المدينة قال: «هذه طابة» رواه الشيخان في الصحيحين وغيرهما عن جابر وأبي حميد الساعدي وغيرهم فلما رأى أحد قال: «هذا أحد جبل يحبنا ونحبه»^(١) روى البيهقي عن عائشة لما قدم النبي ﷺ المدينة جعل النساء والصبيان يقلن:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا الله داع

قال ابن سعد: وجعل الناس يبيعون أسلحتهم يقولون قد انقطع الجهاد فبلغ ذلك الحق حتى يخرج الدجال» وكان قدومه ﷺ بالمدينة في رمضان وقد خرج من المدينة إلى تبوك في رجب سنة تسع وكان بين المدينة وتبوك نحو أربعة عشر مرحلة، قال: في النور: كذا قالوا: قد سرناها مع الحجيج في اثني عشرة مرحلة وبينها وبين دمشق إحدى عشر مرحلة والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

قد وقع الفراغ من هذا التفسير المظهري وقت العصر يوم الشنبه في التاريخ الهفتم... الشهر لذي الحجة السنة ١٢٤٣ بعد الهجرة النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه أجمعين.

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة، باب: خرص التمر (١٤٨٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: أحد جبل يحبنا ونحبه (١٣٩٢).

سورة يونس

مائة وتسع آية مكية إلا ثلاث آيات ﴿فإن كنت في شك﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّنِ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي أُخْتِافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ لَآيٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾

﴿الر﴾ الكلام عليه في أوائل سورة البقرة، قرأ ابن كثير وقالون وحفص الر والمّر بالفتح وورش بين اللفظين والباقون بالإمالة ﴿تِلْكَ وَلَا إِشَارَةٌ إِلَى مَا تَضَمَّنَتْهُ السُّورَةُ وَالْقُرْآنُ مِنَ الْآيَاتِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهَا الْآيَاتُ الَّتِي نَزَلَتْ قَبْلَ هَذِهِ السُّورَةِ ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أَي الْقُرْآنُ وَالْإِضَافَةُ بِمَعْنَى مِنْ ﴿الْحَكِيمِ﴾ وَصَفَ بِهِ لِاسْتِمَالِهِ عَلَى الْحِكْمِ أَوْ لِأَنَّهُ كَلَامٌ حَكِيمٌ، أَوْ الْمَعْنَى أَنَّهُ مُحْكَمٌ آيَاتُهُ لَمْ يَنْسَخْ مِنْهَا شَيْءٌ أَنْ كَانَ الْمُرَادُ آيَاتُ هَذِهِ السُّورَةِ، أَوْ مُحْكَمٌ عَنِ الْكُذْبِ وَالْإِخْتِلَافِ، قَالَ: الْحَسَنُ حَكَمَ فِيهَا بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَالْإِنْتِهَاءِ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ وَحَكَمَ فِيهَا بِالْجَنَّةِ لِمَنْ أَطَاعَهُ وَالنَّارِ لِمَنْ عَصَاهُ.

أخرج ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس قال: لما بعث الله محمداً ﷺ رسولا أنكرت العرب ذلك أو من أنكر ذلك منهم فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله

بشراً فأنزل الله تعالى ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ استفهام إنكار للتعجب، وعجباً خبر كان واسمه ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا﴾ واللام في للناس متعلق بمحذوف بحال من قوله عجباً، وفي اللام دلالة على أنهم جعلوه عجوبة لهم يوجهون نحوه إنكارهم واستهزاءهم، والعجب حالة يعتري للإنسان من رؤية شيء على خلاف العادة ووجه الإنكار على استعجابهم أن عادة الله تعالى جارية من بدء خلق آدم ﷺ على بعث الرسل من البشر ومن ثم أنزل الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾^(١) وأيضاً عادة الملوك جارية بأن الكتاب والخطاب يكون بلسان المخاطبين والرسول من جنس من أرسل إليهم فإنه لا بد للإفادة والاستفادة من المناسبة بينهما، قال: الله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمَشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكَاتٌ رَسُولًا﴾^(٢) ﴿إِنِّي رَجُلٌ مِّنْهُمْ﴾ يعني من آحاد رجالهم دون عظيم من عظمائهم، قالوا: وإن كان بشراً فغير محمد كان أحق بالرسالة: ﴿لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾^(٣) أحد أشرف من محمد ﷺ يعنون الوليد بن مغبرة من مكة ومسعود بن عمرو الثقفي من الطائف فأنزل الله تعالى رداً عليهم: ﴿أَمَرَ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾^(٤) الآية، وكان هذا من فرط حماقتهم وجهلهم بحقيقة الوحي، وقد كان رسول الله ﷺ أعظم وأتم وأكمل في كرائم الأوصاف وفي كل شيء إلا في المال، وخفة الحال أعون شيء في هذا الباب ولذلك كان أكثر الأنبياء قبله كذلك ﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ أن هي المفسرة أو المخففة من الثقيلة في موضع مفعول أو حيناً ﴿وَيُنِيرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عم الإنذار إذ قل من أحد ليس فيه ما ينبغي منه الإنذار، وخص البشارة بالمؤمنين لعدم استحقاق الكفار به ﴿أَنْ﴾ أي بأن ﴿لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قال: عطاء أي مقام صدق لا زوال له ولا بؤس فيه، يعني منزلة رفيعة يسبقون إليها ويقيمون فيها، سميت قدماً لأن السبق والقيام يكون بالقدم كما سميت النعمة يداً لأنها تعطي باليد، وإضافتها إلى الصدق لتحققها وللتبني على أنهم إنما ينالونها بصدق القول والنية، وأصدق القول شهادة أن لا إله إلا الله، ويعود إلى ما قلنا ما قال: ابن عباس في تفسير القدم أي أجراً حسناً بما قدموا من أعمالهم، وما قال: الضحاك أي ثواب صدق فإن المنزلة عند الله يعبر بالأجر والثواب، وقال الحسن يعني به عملاً صالحاً أسلفوه يقدمون عليه، فهو بشارة بأنهم يجدون عند ربهم ما قدموا من الأعمال فالقدم بمعنى التقدم، وقال أبو عبيدة كل سابق في

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٩.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩٥.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٣١.

(٤) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.

خير أو شر فهو عند العرب قدمُ يقال لفلان قدمُ في الإسلام، وله عندي قدمُ صدق أو قدمُ سوء، وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس هو السعادة في الذكر الأول، وقال زيد بن أسلم هو شفاعة الرسول الله ﷺ، قال: البخاري قال: زيد بن أسلم: ﴿أَنَّ لَهُمُ قَدَمَ صِدْقٍ﴾ محمد ﷺ ﴿قَالَ الْكُفْرُونَ﴾ تعنتاً وعناداً لما رأوا من الرسول الله ﷺ أموراً خارقة للعادة وسمعوا كلاماً معجزاً عن المعارضة ﴿إِنَّ هَذَا﴾ يعني الرسول الله ﷺ ﴿لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ على وزن فاعل كذا قرأ ابن كثير والكوفيون وقرأ الباقون لِسِحْرٍ بغير ألف، والإشارة حينئذٍ إلى القرآن، يعني أن هذا الكلام لكونه سحراً يمنعنا عن المعارضة وجاز أن يكون الإشارة إلى كل معجزة رأوها.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ التي هي أصول الممكنات ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من أيام الدنيا أي في قدرها ولو شاء لخلقهن في لمحة وإنما فعل ذلك لتعليم خلقه الثابت ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أجمع أهل السنة من الخلف والسلف على أن الله تعالى منزّه عن صفات الأجسام وصفات الحدوث، فلهم في هذه الآية وأمثالها سبيلان: أحدهما: تأويلها بما يليق به تعالى بناءً على عطف قوله تعالى: ﴿وَالرَّسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾^(١) على اسم الله في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾^(٢)، وقد مر البحث عليه في سورة آل عمران، فقالوا معنى استوى استولى على العرش الذي هو أعظم المخلوقات ومحدد الجهات، وذا يستلزم استيلاءه تعالى على جميع الخلائق، وأسند البغوي تأويل الاستواء بالاستيلاء إلى المعتزلة وكلام السلف الصالح يأبى عن سبيل التأويل بل المختار عندهم الإيمان بتلك الآيات وتفويض علمه إلى الله تعالى والتحاشي عن البحث عنه، قال: محمد بن الحسن اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاءت بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب ﷻ من غير تفسير ولا وصف ولا شبه، فمن فسر شيئاً من ذلك فقد خرج مما كان عليه النبي ﷺ وفارق الجماعة، وقال مالك بن أنس الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول والسؤال عنه بدعة، فبناءً على هذا السبيل نقل عن السلف القول باستوائه تعالى على العرش مع قولهم بالتنزيه الصرف قال: أبو حنيفة «إن الله في السماء دون الأرض» رواه البيهقي، وروى عنه من قال: لا أعرف ربي في السماء أو في الأرض فقد كفر لأن الله يقول ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾^(٣)

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧.

(٣) سورة طه، الآية: ٥.

وعرشه فوق سماواته، وروي عنه أنه قال: من أنكر الله في السماء فقد كفر، وقال الشافعي إن الله على عرشه في سمائه يقرب من خلقه كيف شاء وينزل كيف شاء، ومثل ذلك قال: أحمد بن حنبل، وقال إسحاق بن راهويه إنه أجمع أهل العلم أنه فوق العرش استوى ويعلم كل شيء وهو قول المزني والذهبي والبخاري وأبو داود والترمذي وابن ماجه وابن أبي شيبة وأبو يعلى والبيهقي وغيرهم من أئمة الحديث، وقال أبو زرعة الرازي ما ينبت عن إجماع أهل السنة على ذلك، وقال عثمان بن سعيد الدرامي الحافظ اتفقت الكلمة بين المسلمين أن الله فوق عرشه فوق سماواته، وقال سهل بن عبد الله التستري لا يجوز لمؤمن أن يقول كيف الاستواء لمن خلق الاستواء ولنا عليه الرضاء والتسليم لقول النبي ﷺ أنه تعالى على العرش، وقال محمد بن جرير حسب امرئ أن يعلم أن ربه الذي على العرش استوى فمن يجاوز ذلك فقد خاب وخسر، وقال ابن خزيمة من لم يقر أن الله على عرشه استوى فوق سبع سماواته بائن من خلقه فقد كفر فيستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه، وقال الطحاوي العرش والكرسي كما بين في كتابه وهو مستغن عن العرش وما دونه محيط بكل شيء وفوقه، وقال الشيخ أبو الحسن الأشعري البصري المتكلم في كتاب اختلاف المضلين ومقالات الإسلاميين مقالة أهل السنة وأصحاب الحديث جملة قولهم الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله وبما جاء عن الله وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ لا يردون من ذلك شيئاً، وأن الله على عرشه كما قال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (٥)، وله يدان بلا كيف كما قال: ﴿خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ (١)، وقال أبو نعيم في الحلية طريقتنا طريقة السلف المتبعين الكتاب والسنة وإجماع الأمة ومما اعتقدوه أن الله لم يزل كاملاً بجميع صفاته إلى أن قال: وإن الأحاديث التي ثبتت في العرش والاستواء عليه يقولون بها ويثبتونها من غير تكيف ولا تمثيل وأنه بائن من خلقه، وقال ابن عبد البر إن الله في السماء على العرش من فوق سبع سماوات كما قالت الجماعة، وقال الخطيب مذهب السلف إثباتها وإجراؤها على ظواهرها ونفي الكيفية والتشبيه عنها، وقال إمام الحرمين والذي ترضيه ديناً وتدين الله به عقيدة اتباع سلف الأئمة وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها إلى الله، وقال البغوي أما أهل السنة فيقولون الاستواء على العرش صفة الله بلا كيف يجب الإيمان به، قال: البيضاوي معناه أن له استواء على الوجه الذي عناه منزهاً عن الاستقرار والتمكن، وقال أبو بكر

(١) سورة ص، الآية: ٧٥.

علي بن عيسى الشبلي أَعْلَمُ الصوفية في زمانه الرب في السماء يقضي ويمضي، وقال شيخ الإسلام عبد الله الأنصاري في أخبار شتى أن الله في السماء السابعة على العرش، وللشيخ عبد القادر الجيلاني في الباب كلام كثير في الغنية هذه الأقوال كلها ذكرها الذهبي في كتاب العلو وذكر هذا المذهب عن جماعة كثيرة من أهل العلم من الصحابة والتابعين ومن دونهم من الفقهاء والمحدثين والصوفية يطول الكلام بذكرهم وقد ذكرت هذه المسئلة مختصراً في سورة الأعراف في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ الْاَلْتَلَّ النَّهَارَ﴾^(١) وقد ذكرنا في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى ﴿يَأْتِيَهُمُ اللّٰهُ فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْفَجَارِ﴾^(٢) ما قال: أصحاب القلوب: من تجليات الله تعالى في بعض مخلوقاته برقيات ودائميات غير مستدعيات حدوث أمر في ذاته تعالى وكونه محلاً للحوادث، ولا تنزلاً له سبحانه عن مرتبة التنزيه الصرف بل مبنيات على حدوث أمر في الممكن حتى يصير صالحاً لذلك التجلي، وأيضاً ذكرنا مسئلة التجلي على قلب المؤمن والكعبة الحسنة والعرش العظيم في تلك السورة في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾^(٣) فليرجع إليهما من غفل عنهما ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ التدبير النظر في أدبار الأمور حتى يأتي محمودة العاقبة، يعني يقدر أمر الكائنات على ما يقتضيه الحكمة ﴿مَا مِنْ شَيْءٍ﴾ يشفع لأحد ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ تقرير لعظمته وعز جلاله، ورد على النضر بن الحارث حيث قال: إذا كان يوم القيامة يشفعني اللات والعزى، وفيه إشارة إلى ثبوت الشفاعة لمن أذن له ﴿ذَالِكُمْ﴾ أي: الموصوف بتلك الصفات المقتضية للألوهية ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ وخبر ﴿رَبِّكُمْ﴾ خبر ثان أو خبر مبتدأ محذوف والجملة بدل مما سبق يعني هو ربكم لا غير، أو لا يشركه أحد في شيء من ذلك ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ دون غيره من إنسان أو ملك فضلاً عن جماد لا يضر ولا ينفع ﴿أَفَلَا نَذَكَّرُونَ﴾ تتفكرون أدنى تفكر فيظهر لكم أنه المستحق للعبادة دون غيره مما تعبدون.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ مصدر أو ظرف ﴿جَمِيعاً﴾ بالموث أو النشور لا إلى غيره فاستعدوا للقاءه ﴿وَعَدَ اللّٰهُ﴾ مصدر مؤكد لنفسه فإن قوله تعالى ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ وعد من الله تعالى ﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لغيره وهو ما يدل عليه وَعَدَ اللّٰهُ ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ بالحياة الدنيا، قرأ

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٩.

العامّة إنّه بالكسر على الاستيناف، وقرأ أبو جعفر بالفتح على معنى لأنه وهو تعليل لقوله ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ فإنه لما كان المقصود من الإبداء وإلا عادة مجازاة المكلفين على أعمالهم كان مرجع الجميع إليه لا محالة، ويجوز أن يكون منصوباً بما نصب وَعَدَ اللهُ أو مرفوعاً بما نصب حَقًّا ﴿ثُمَّ يُبِيدُوهُ﴾ بعد إهلاكه بالحياة الأخرى ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أي بعد له، أو بعداتهم وقيامهم على العدل في أمورهم، أو بإيمانهم لأن الإيمان عدل قويم كما أن الشرك ظلم عظيم، وهو أوجه لمقابلة قوله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ماء بالغ نهاية الحرارة ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي مؤلم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ معناه وليجزى الذين كفروا بشراب من حميم وعذاب أليم بسبب كفرهم، لكنه غير النظم للمبالغة في استحقاقهم العذاب والتنبيه على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة إنما هو الإثابة وأنه تعالى يتولى إثابة المؤمنين بما يليق بلطفه وكرمه، وأما تعذيب الكفار فهو واقع بالعرض كأنه داء ساقه إليهم سوء اعتقادهم وشؤم أفعالهم.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً﴾ قرأ قبل ضِيَاءً وَبِضِيَاءٍ ههنا وفي الأنبياء والقصص على القلب بتقديم اللام على العين، والباقون بياء منقلبة عن واو لانكسار ما قبلها وهمزة متطرفة، وهو مصدر كقيام، أو جمع ضوء كسياط جمع سوط والمضاف محذوف أي ذات ضياء ﴿وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ أي ذات نور، والنور أهم من الضوء فإنه أقوى أفراد النور، وقيل: ما بالذات ضوء وما بالعرض نور ﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾ والضمير لكل واحد أي قدر مسير كل واحد منهما منازل، أو قدر كل واحد منهما ذا منازل أو للقمر وتخصيصه بالذكر لمعاينة منازلهم وإناطة أحكام الشرع من الصوم والزكاة والحج به ولذلك لله بقوله: ﴿لِنَعْلَمُوا عَدَدَ الشَّهْرِينَ﴾ بعد الأشهر المنوطة بسير القمر ﴿وَالْحِسَابَ﴾ أي حساب الأوقات من الأشهر والأيام في معاملاتكم وتصرفاتكم ﴿مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ﴾ الخلق ﴿إِلَّا﴾ متلبساً ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي لإظهار صنعته ودلالة قدرته مراعيًا فيه مقتضى الحكمة البالغة ﴿يُقَصِّدُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص بالياء على الغيبة لقوله تعالى ﴿مَا خَلَقَ اللهُ﴾ والباقون بالنون على التكلم والتعظيم الآيات ﴿لَا يَنْتَهِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي يتدبرون ﴿إِنَّ فِي آخِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي في مجيء كل منهما خلف الآخر أو في اختلاف لونهما ﴿وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي من أنواع الكائنات ﴿لَا يَنْتَهِ﴾ على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته وتنزهه عن المناقص ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ العواقب فإنه يحملهم على التفكير والتدبر.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ
 ءَابَائِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَاؤُنْهْمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾
 دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَاخِرُ دَعْوَتِهِمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
 ﴿١٠﴾ ﴿١١﴾ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفَضَّلْنَا بِهِمْ أَجَلَهُمْ فَندَرُ
 الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا مَرَّ الْإِنْسَانُ الْأَضْرُ دَعَانَا لِجَنبِهِ
 أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضْرُوءَهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضَرْ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينِ
 لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ
 رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلْقًا فِي
 الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي ثوابنا فإن أعظم المثوبات لقاء الله سبحانه ورؤيته
 ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ اختاروها على الآخرة ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ أي سكنوا إليها واقتصروا على
 لذائذها وزخارفها وتركوا ما يفيدهم للآخرة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَابَائِنَا﴾ أي عن الأدلة الدالة
 على وجود الصانع ﴿غَافِلُونَ﴾ فعلى هذا المراد بالأولين أهل الكتاب من الكفار الذين
 يعتقدون الصانع ويعلمون البعث والنشور ومع ذلك اختاروا الدنيا على الآخرة ويشسوا من
 ثواب الآخرة واقتصروا على لذائذ الدنيا، وبالأخرين الذين لم يوحدوا الله تعالى ولا
 يعرفون البعث والجزاء، وقال البيضاوي المراد بالأولين من أنكر البعث ولا يرجون أي لا
 يتوقعون الجزاء ولم يروا إلا الحياة الدنيا وبالأخرين من ألهاهم حب العاجل عن التأمل
 في الآجل والإعداد له، وقيل العطف لتغاير الوصفين والتنبيه على أن الوعيد على الجمع
 بين الذم والثناء عن الآيات رأساً والانهماك في الشهوات بحيث لا يخطر ببالهم أصلاً، وقال
 البغوي الرجاء يكون بمعنى الخوف والطمع فمعنى ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ لا يخافون عقابنا
 ولا يرجون ثوابنا، وقال ابن عباس ﴿عَنْ ءَابَائِنَا غَافِلُونَ﴾ يعني عن محمد ﷺ والقرآن
 غافلون معرضون ﴿أُولَئِكَ مَاؤُنْهْمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا﴾ أولئك مبتدأ ماوهم مبتدأ ثان والنار
 خبره والجملة خبر أولئك وجملة أولئك خبر إن ﴿يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والمعاصي أي بما
 واظبوا عليه وتمرتوا بالمعاصي، الباء في بما كانوا متعلق بمحذوف دل عليه الكلام أي
 جوزوا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ﴾ يرشدهم ﴿رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ أي يرشدهم بسبب إيمانهم إلى سلوك سبيل يُؤدي إلى الجنة، قال مجاهد: يهديهم على الصراط إلى الجنة، يجعل لهم نوراً يمشون به، وقيل: معنى ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ يهديهم ربهم لدينه يعني لإدراك حقائق الدين، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم» رواه أبو نعيم في الحلية، وقيل: معناه يشبههم ويجزيهم أو يهديهم لما يريدونه في الجنة، قال: البيضاوي مفهوم الترتيب وإن دل على أن سبب الهداية الإيمان والعمل الصالح، لكن دل منطوق قوله بإيمانهم على استقلال الإيمان بالسببية فإن العمل الصالح كاللتمة والرديف له ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ أي بين أيديهم كقوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلْنَا لَكَ رَبُّكَ حَتِّكَ سَرِيًّا﴾^(١) لم يرد به أنه تحتها وهي قاعدة عليه وجملة تجري مستأنفة أو خبر ثان أو حال من الضمير المنصوب على معنى يهديهم لإدراك الحقائق أو لما يريدونه في الجنة حال كونهم كذلك، وقال البغوي فيه إضمار تقديره يهديهم أي يرشد ربهم بإيمانهم إلى جنات تجري من تحتهم الأنهار فعلى هذا جملة تجري صفة لجنات لكن يجب حينئذ تقدير ضمير في تلك الجملة إلا أن يقال في قوله تعالى ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ وضع المظهر موضع الضمير مغم عن معني فيها وقال البيضاوي هذا خبر أو حال آخر منه أو من الأنهار أو متعلق بتجري أو يهديهم ﴿دَعَوْنَهُمْ﴾ أي دعاؤهم ﴿فِيهَا﴾ أي في الجنات ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ أي اللهم نسبحك تسيحاً أي ننزهك من كل سوء، قال: البغوي قال: أهل التفسير هذه الكلمة علامة بين أهل الجنة والخدم في الطعام فإذا أرادوا الطعام قالوا: سبحانك اللهم فاتوهم في الوقت بما يشتهون على الموائد كل مائدة ميل في ميل على كل مائدة سبعون ألف صحيفة في كل صحيفة لون من الطعام لا يشبه بعضها بعضاً وإذا فرغوا من الطعام حمدوا الله ﷻ فذلك قوله تعالى ﴿وَأَخْرَجُوا دَعْوَتَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقيل: دعواهم أي قولهم وكلامهم فيها تلذذاً سبحانك اللهم. روى مسلم وأحمد وأبو داود عن جابر في حديث مرفوع «أن أهل الجنة يلهمون التسيح والتحميد كما يلهمون النفس»^(٢) ﴿وَيَحْيِيهِمْ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿سَلَامٌ﴾ أي يحيي بعضهم بعضاً بالسلام وتدخل عليهم الملائكة من كل باب يقولون: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾^(٣) وتأتيهم الملائكة

(١) سورة مريم، الآية: ٢٤.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: صفة الجنة ونعيمها وأهلها، باب: في صفات الجنة وأهلها وتسيحهم فيها بكرة وعشياً (٢٨٣٥).

(٣) سورة الرعد، الآية: ٢٤.

من عند ربهم بالسلام ويقرأ الله تعالى ﷻ . روى ابن ماجه وابن أبي الدنيا والدارقطني والأجري عن جابر قال: قال: النبي ﷺ: «بيننا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع عليهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب تبارك وتعالى أشرف عليهم من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة وذلك قول الله تعالى ﴿سَلِّمْ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾»^(١) الحديث، وروى أحمد والبزار وابن حبان عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «أول من يدخل الجنة من خلق الله فقراء المهاجرين الذين بهم الثغور وتتقى بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته إيتوهم فحيوهم، فتقول الملائكة ربنا نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك فتأمرنا أن نأتي هؤلاء ونسلم عليهم، قال: إنهم كانوا عبادي يعبدونني ولا يشركون بي شيئاً وتسير بهم الثغور وتتقى بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، قال: فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار»^(٢) ﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لعل المعنى أنهم إذا دخلوا الجنة وعانوا عظمة الله تعالى مجدوه ونعته بنعوت الجلال ثم حياهم الملائكة والله سبحانه بالسلامة عن الآفات والفوز بأصناف الكرامات فحمدوا الله تعالى وأثنوا عليه بصفات الإكرام، وأن هي المخففة من الثقلة، قلت: وجاز أن يكون مفسرة لأن في الدعاء معنى القول، قال البغوي: يفتحون كلامهم بالتسبيح ويختمونه بالتحميد ويتكلمون بينهما بما أرادوا.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ أَيَّ مَرَسَةٍ لَّيَسَّرَ لَهُمُ﴾ أي يسرعه إليهم ﴿أَسْتَعْجَلَهُم بِالْخَيْرِ﴾ قال: ابن عباس هذا في قول الرجل عند الغضب لأهله وولده لعنكم الله ولا بارك فيكم كذا قال: قتادة ومعنى الآية ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ الَّذِي دَعَاهُمُ وَاسْتَعْجَلُوهُ تَعْجِيلًا﴾ كتعجيله لهم الخير حين دعوه واستعجلوه فحذف منه ما حذف للدلالة الباقي عليه، وضع استعجالهم موضع تعجيله لهم للإشعار بسرعة إجابة لهم في الخير حتى كأن استعجالهم به تعجيل لهم وبأن المراد بالشر الشر الذي استعجلوه، قيل: نزلت الآية في النضر بن الحارث حين قال ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾^(٣) ﴿لَقُضِيَ

(١) أخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب: فيما أنكرت الجهمية (١٨٤).

(٢) رواه أحمد والبزار والطبراني ورجالهم ثقات.

انظر مجمع الزوائد في كتاب: الزهد، باب: فضل الفقراء (١٧٨٨٦).

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣٢.

إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴿١﴾ أي لا أميتوا وأهلكوا قرأ ابن عامر ويعقوب لقضى بفتح القاف والضاد على البناء للفاعل وأجلهم بالنصب على المفعولية والباقون بضم القاف وكسر الضاد على البناء للمفعول ورفع أجلهم ﴿فَنذُرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي لا يخافون البعث والعذاب ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ جملة فنذر معطوف على فعل محذوف دل عليه الشرطية تقديره ولكن لا تعجل ولا نقضي فنذرهم إمهالاً واستدراجاً.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ﴾ الشدة والبلاء ﴿دَعَانَا﴾ لإزالته مخلصاً فيه ﴿لِجَنبِهِ﴾ ملقباً بجنبه أي مضطجعا ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ فائدة التردد تعميم الدعاء لجميع الأحوال يعني يدعو لإزالته كائناً على أي حال كان سواء كان قائماً أو قاعداً أو راقداً يعني يدعو فوراً ويستمر عليه في جميع الأحوال ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرُّهُ مَرَّةً﴾ أي مضى على طريقه واستمر على كفره ولم يشكر ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا﴾ أصله كأنه لم يدعنا فخفف وحذف ضمير الشأن يعني كان لم يكن في ضرر وبلاء ولم يدعنا قط ﴿إِنِّي﴾ كشف ﴿ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك التزيين ﴿زُيِّنَ لِلْمُؤْمِنِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الانهماك في الشهوات والإعراض عن الذكر والعبادات ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالكفر واستعمال القوى والجوارح فيما لا ينبغي لَمَّا ظرف لأهلكنا ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالحجج الواضحة عطف على ظلموا أو حال من فاعله بتقدير قد فالإهلاك ترتب على الكفر بعد تمام الحجة بمجيء الرسل كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(١) ﴿وَمَا كَانُوا﴾ أي القرون الظالمة عطف على ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾ اللام لتأكيد النفي، أي ما استقام لهم أن يؤمنوا الفساد استعدادهم حيث كان مبادي تعييناتهم ظلال اسم المضل فخذلهم الله تعالى أو ما كانوا مؤمنين في علم الله الأزلي بل كان الله يعلم أنهم يموتون على الكفر، وقيل: ما كانوا معطوف على ظلموا ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء وهو إلا هلاك بسبب تكذيبهم الرسل وإصرارهم على الكفر بعد ما تحقق أنه لا فائدة في إمهالهم ﴿تَجَزَى الْقَوْمُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي نجزي كل مجرم أو نجزيكم فوضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على كمال جرمهم وأنهم هم المستحقون لهذا الاسم ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ﴾ يا كفار مكة ﴿خَلْقًا فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ﴾ أي بعد القرون التي أهلكناهم ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ خيراً أو شراً فيعاملكم على مقتضى أعمالكم وهل تعتبرون بهم فتصدقوا رسلنا، وكيف منصوب بتعملون لا بنظر لأن معنى الاستفهام يقتضي صدر

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

الكلام وفيه دلالة على أن المعتبر في الجزاء جهات الأفعال وكيفياتها لا هي من حيث ذواتها ولذلك يحسن الأفعال تارة ويقبح أخرى، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون»^(۱).

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لِقَاءَنَا بِشْرًا وَإِن
غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَن أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَائِي نَفْسِي إِن أَسْبَحُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ
إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِن عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَّوْمٍ عَظِيمٍ ﴿۱۵﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ
عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿۱۶﴾ فَمَن
أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿۱۷﴾
وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ
أَنْتُمْ شُرَكَاءُ اللَّهِ يَمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ
﴿۱۸﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ
لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿۱۹﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا آيَةٌ مِّن رَّبِّنَا فَقُلْ إِنَّمَا
الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿۲۰﴾﴾

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ قال قتادة يعني على مشركي مكة، وقال مقاتل وهم خمسة
عبد الله بن أبي المخزومي والوليد بن المغيرة ومكرز بن حفص وعمرو بن عبد الله بن
أبي قبيس العامري والعاص بن عامر بن هشام ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالة على كونها من
عند الله تعالى ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي لا يخافون البعث وينكرون القيامة
﴿لِقَاءَنَا بِشْرًا وَإِن غَيْرِ هَذَا﴾ أي بكتاب آخر نقرؤه ليس فيه ما نستبعده من الثواب والعقاب
بعد الموت وما نكرهه من معائب آلهتنا ﴿أَوْ بَدَّلَهُ﴾ بأن تجعل مكان آية آية أخرى، قال:
مقاتل: قال النفر الخمسة المذكورة للنبي ﷺ إن تريد أن تؤمن بك فأت بقرآن ليس فيه
ترك عبادة اللات والعزى ومناة وليس فيه عيبها وإن لم ينزلها الله فقل أنت من عند نفسك
أو بدله فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة أو مكان حرام حلالاً وحلالاً حراماً ﴿قُلْ﴾ لهم

(۱) أخرجه الترمذي في كتاب: الفتن، باب: ما أخبر النبي ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة
(۲۱۹۱) وأخرجه مسلم في كتاب: الرقاق، باب: أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء
وبيان الفتنة بالنساء (۲۷۴۲).

يا محمد ﴿مَا يَكُونُ لِي﴾ قرأ الحرميان وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها أي ما يصلح لي ﴿أَنْ أَبَدِلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي﴾ قرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها أي من قبل نفسي تلقاء مصدر استعمل ظرفاً اكتفى بالجواب عن التبديل لاستلزام امتناعه امتناع الإتيان بقرآن آخر، أو لأن التبديل مقدور للإنسان بأن يقرأ آية الرحمة مكان آية العذاب بخلاف إتيان قرآن آخر معجز مثله، أو لأن المراد بالتبديل ههنا أعم من تبديل القرآن بقرآن آخر أو آية مكان آية ﴿أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ تعليل لقوله مَا يَكُونُ لِي فإن المتبع لغيره في أمر لا يستبد بالتصرف فيه بوجه، وجواب للنقض بنسخ بعض الآيات ببعض ورد لما عرضوا له بهذا السؤال من أن القرآن كلامه واختراعه ولذلك قيد التبديل في الجواب بقوله ﴿مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي﴾ سماه عصياناً حيث قال: ﴿إِنِّي﴾ قرأ الحرميان وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بالتبديل ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي يوم القيامة وفيه إيماء بأنهم استوجبوا العذاب بهذا الاقتراح.

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ غير ذلك أو عدم تلاوتي عليكم لم ينزل القرآن علي ﴿مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَبْتُكُمْ﴾ أي لا أعلمكم الله على لساني ﴿بِهِ﴾ قرأ البيهقي عن ابن كثير أدربكم بالقصر على الإيجاب ولام التأكيد يعني لو شاء الله ما تلوته عليكم ولعلمكم به من غير قراءتي على لسان غيري، وفيه إشارة إلى أنه الحق الذي لا محيص عليه لو لم أرسل به لأرسل به غيري ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ أي زماناً وهو أربعون سنة ﴿مِنْ﴾ أي قبل نزول القرآن ولم آتكم بشيء ما لم يوح إلي وفيه إشارة إلى كون القرآن معجزاً خارقاً للعادة فإن من عاش بين أظهرهم أربعين سنة لم يمارس فيها علماً ولم يشاهد عالماً ولم ينشأ شعراً ولا خطبة، ثم قرأ عليهم كتاباً بدت فصاحته فصاحة كل وعلا كل منظوم ومنثور واحتوى على قواعد الأصول والفروع وأغرب عن قصص الأولين وأحاديث الآخرين على ما هي عليه عَلِمَ أنه معلم به من الله تعالى ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر فيه لتعلموا أنه ليس من قبل نفسي بل من عند الله.

فائدة: لبث النبي ﷺ فيهم قبل الوحي أربعين سنة ثم أوحى إليه فأقام بمكة بعد الوحي ثلاث عشرة سنة ثم هاجر فأقام بالمدينة عشر سنين وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة^(١) كذا روى مسلم عن ابن عباس، قال: محمد بن يوسف الصالحي: اتفق العلماء على

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: كم أقام النبي ﷺ بمكة والمدينة (٢٣٥١).

أنه ﷺ أقام بالمدينة بعد الهجرة عشر سنين وبمكة قبل النبوة أربعين سنة وإنما الخلاف في قدر إقامته بمكة بعد النبوة قبل الهجرة والصحيح أنه ثلاث عشرة سنة، وذكر البغوي برواية أنس أنه ﷺ أقام بمكة بعد الوحي عشر سنين وتوفي وهو ابن ستين سنة وكذا روى ابن أسعد وعمرو بن شيبه والحاكم في الإكليل عن ابن عباس قال البغوي: والأول أشهر وأظهر وقد روى مسلم عن أنس «أنه قبض رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة» وكذا أبو بكر وعمر، وروى أبو داود الطيالسي ومسلم عن معاوية بن أبي سفيان قال: قبض رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة وكذا أبو بكر وعمر، وروى الشيخان عن عائشة قالت: توفي رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة^(١)، قال: النووي: وهو الصواب المشهور الذي أطبق عليه العلماء، وروى أحمد ومسلم عن عمار بن أبي عمار قال: قلت لابن عباس كم أتى على رسول الله ﷺ يوم مات؟ قال: أتحسب؟ قلت نعم قال: أمسك أربعين بعث بها وخمس عشرة أقام بمكة يأمن ويخاف وعشرة مهاجره بالمدينة. وروى الحاكم في الإكليل عن علي بن أبي زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال: توفي رسول الله ﷺ وهو ابن خمس وستين سنة، قال: الحاكم في الإكليل والنووي: اتفق العلماء على أن أصح الرويات ثلاث وستين سنة وتأولوا الباقي على ذلك فرواية الستين اقتصر فيها على العقود وترك الكسور ورواية الخمس والستين متأولة عليها أو حصل فيها شك، وقد أنكر عروة على ابن عباس قوله خمس وستون سنة ونسبه إلى الغلط وأنه لم يدرك أول النبوة بخلاف الباقي، قال: محمد بن يوسف الصالحي أكثر الرواة عن ابن عباس حكوا عنه رواية ثلاث وستين فالظاهر أنه كان قال: ذلك ثم رجع إلى ما عليه الأكثر والله أعلم، وحكى القاضي عن ابن عباس وسعيد بن المسيب رواية شاذة أنه بُعث على رأس ثلاث وأربعين والصواب أربعون.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فزعم أن له شريكاً أو ولداً ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ فكفر بها ﴿إِنَّهُ﴾ أي الشأن ﴿لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي لا ينجوا المشركون ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ أي كفار مكة ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ إن تركوا عبادته ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ إن عبدوه يعني الأصنام فإنها جمادات لا تقدر على نفع ولا ضرر والمعبود ينبغي أن يكون مثيباً ومعاقباً حتى تعود عبادته بجلب نفع أو دفع ضرر ﴿وَيَقُولُونَ هَتُؤَلَاءُ﴾ الأصنام ﴿شُفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ يشفع لنا فيما يهمننا من أمور الدنيا وفي الآخرة إن يكن بعث ﴿قُلْ أَتُنْفِثُونَ﴾

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: كم سن النبي ﷺ يوم قبض (٢٣٤٩).

الله ﴿أَتَخْبِرُونَهُ﴾ ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ وهو أن له شريكاً وفيه تقريع وتهكم بهم إذ هؤلاء شفعاء وما لا يعلم الله لا تحقق له أصلاً ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ حال من العائد المحذوف مؤكداً لِنَفْسِهِ، وفيه إشارة إلى أن ما يزعمونه إلهاً فهو إما سماوي كالملائكة أو أرضي كالأصنام وليس شيء من الموجودات فيهما إلا وهو حادث مقهور مثلهم لا يليق أن يشرك به ﴿سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي عن إشراكهم أو عن الشركاء الذين يشركون به. قرأ حمزة والكسائي تشركون بالتاء على الخطاب للكفار ههنا وفي سورة النحل في موضعين وفي سورة الروم والباقون بالياء على الغيبة ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ موحدين على الفطرة أو متفقين على الإسلام وذلك في عهد آدم ﷺ إلى قبيل بعثة نوح أو بعد الطوفان، أو من عهد إبراهيم إلى عمر بن لحي أو على الضلال في زمن فترة الرسل ﴿فَاخْتَلَفُوا﴾ باتباع الهوى والأباطيل أو ببعثة الرسل حين تبعهم طائفة وأصرت على الكفر أخرى ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بأن جعل لكل أمة أجلاً وقال الكلبي: هي إمهال هذه الأمة وأن لا يهلكهم بالعذاب في الدنيا ﴿لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ بنزول العذاب في الدنيا وتعجيل العقوبة للمكذبين وكان ذلك فضلاً بينهم ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ قال: الحسن ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ مضت في حكمه أنه لا يقضي بينهم ﴿فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ بالثواب والعقاب دون القيامة لقضي في الدنيا فأدخل المؤمن الجنة والكافر النار ولكنه سبق من الله الأجل فجعل موعدهم يوم القيامة ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يعني كفار مكة ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ﴾ أي على محمد ﴿آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ من الآيات التي اقترحوها ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ هو المختص بعلمه فهو العالم بالصارف عن إنزال الآيات المقترحة لا غير أو المعنى الغيب يعني ما غاب عن الناس أي أمره تعالى عنده ﴿فَانظُرُوا﴾ نزول الآيات المقترحة أو فانتظروا بقضاء الله بيننا وبينكم بإظهار المحق على المبطل ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنظِرِينَ﴾ لما يفعل الله بكم بجحودكم على ما نزل علي من الآيات العظام واقتراحكم غيرها.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِن بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُرِّ الَّذِي يُسِيرُكَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتَ فِي أَلْفِكَ وَجَرَيْنَ بِمِ يَرِيحُ طَيْبَةً وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لِيْنَ أُنجَيْنَا مِن هَذِهِ لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أُنجَيْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَتَّبِعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغَيْبِكُمْ عَلَىٰ

أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى
إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتَنهَا آمْرَانًا لَيْلًا أَوْ
نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾
وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ﴾ أهل مكة ﴿رَحْمَةً﴾ خصباً وسعة وصبحة ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ﴾ قحط وشدة
ومرض ﴿مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ قال: مجاهد تكذيب واستهزاء، قلت: المكر عبارة
عن إرادة الشر بغيره على وجه الإخفاء وإنما سمي تكذيب الآيات والاستهزاء بها مكرراً لأن
الظاهر فيه تكذيب الرسول وإرادة الشر به ﷺ دون تكذيب الله سبحانه لكن الشر والتكذيب
يعود إلى الله فإنها في الحقيقة كلامه تعالى، وقال مقاتل بن حبان مكرهم أنهم لا يقولون هذا
رزقنا الله بل يقولون سقينا بنوء كذا وقيل مكرهم احتيالهم في دفعها والطعن فيها، قيل:
قحط أهل مكة فلما كشف الله عنهم ورحمهم أسرعوا إلى الكفر والاستهزاء بآيات الله تعالى
قبل أن يؤدوا شكر النعمة. روى البخاري «أن النبي ﷺ لما رأى من الناس إديباراً قال:
اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف، فأخذتهم سنة حصب كل شيء حتى أكلوا الجلود
والميتة والجيف فأتى أبو سفيان فقال: يا محمد إنك تأمر بطاعة الله وصلة الرحم وإن قومك
قد هلكوا فادع الله لهم أن يكشف عنهم فدعا»^(١)، وفي رواية قالوا: ربنا اكشف عنا العذاب
إنا مؤمنون فقبل له ان كشفت عنهم عادوا فدعا رسول الله ﷺ ربه فكشف الله عنهم فعادوا
فانتقم الله منهم يوم بدر ولَمَّا كَانَ كَلِمَةً إِذَا لِلْمَفْاجَأَةِ دَالَةٌ عَلَى سُرْعَةِ مَكْرِهِمْ قَالَ: اللَّهُ تَعَالَى
﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ منكم والمكر من الله تعالى إما الاستدراج كما يدل عليه
قول علي من وسع الله عليه دنياه ولم يعلم إنه مكر به فهو مخدوع عن عقله قلت: يعني
من وسع الله عليه الدنيا وهو غير شاكراً، وإما الجزاء على المكر وكونه تعالى أسرع مكرراً من
الناس أنه دبر عقابهم أو استدراجهم قبل أن يدبروا كيدهم وقيل معناه أن عذابه في إهلاككم
أسرع إليكم مما يأتي منكم في دفع الحق فإن ما أراد الله بكم آت لا محالة وهو قادر على
ما يريد وأنتم لا تقدرون على دفع الحق ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ أي حفظتنا ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ قرأ
يعقوب يمكرون بالياء على الغيبة موافقاً لما سبق والباقون بالتاء الفوقية على الخطاب،

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الاستسقاء، باب: دعاء النبي ﷺ «اجعلها عليهم سنين كسني يوسف»

تحقيق للانتقام وتنبه على أن ما دبروا في إخفائه لم يخف عن الحفظه فضلاً من أن يخفى على خالق الأشياء كلها من الأعراض والجواهر.

﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ﴾ أي يحملكم على السير ويمكنكم منه، كذا قرأ الجمهور وقرأ ابن عامر وأبو جعفر ينشركم بالنون والشين من النشر ﴿فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ﴾ أي السفن الفلك لفظ مشترك بين الواحد والجمع والمراد ههنا الجمع بدليل قوله تعالى ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمُ﴾ أي بمن فيها عدل عن الخطاب إلى الغيبة للمبالغة فإنه تذكرة لغيرهم ليتعجب من حالهم وينكر عليهم ﴿بِرِيحٍ طَبَّوْا﴾ أي لينة الهبوب الموصلة إلى المقصود ﴿وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا﴾ جواب إذا والضمير للفلك أو للريح الطيبة بمعنى تلقاها ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ ذات عصف أي شدة الهبوب ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ﴾ وهو ما علا من الماء لشدة الريح ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ يجيء منه ﴿وَوَظَنُوا﴾ لم يقل أيقنوا لأن اليقين لا يتصور فيما يكون في المستقبل بمجرد القرائن، ﴿أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ يعني أحاط بهم الموج والمهلكات بحيث لا سبيل إلى الخلاص كمن أحاط به العدو ﴿دَعَاؤُا اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي أخلصوا في الدعاء لله ولم يدعوا أحداً سوى الله وكانت العرب لا يدعون في الشدائد إلا الله تعالى، وقوله ﴿دَعَاؤُا اللَّهِ﴾ بدل اشتمال من ظنوا لأن دعاءهم من لوازم ظنهم ﴿لَئِن أُنجَيْنَا﴾ يا ربنا ﴿مِنْ هَذِهِ﴾ الريح العاصف ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ هذه الجملة الشرطية إما على إرادة القول أو مفعول دعوا لأنه من جملة القول، وليس الكون في الفلك غاية للتسير بل مضمون الجملة الشرطية بعد حتى بما في حيزها كأنه قيل حتى إذا كان كيت وكيت مجيء الريح وتراكم الأمواج والظن بالهلاك والدعاء بالإنجاء ﴿فَلَمَّا أُنجَيْنَاهُمْ﴾ إجابة لدعائهم ﴿أُنجَيْنَاهُمْ هُمْ يَبْتَغُونَ﴾ يعني فاجتوا وسارعوا إلى ما كانوا عليه من البغي أي الظلم على الناس والتجاوز عن حدود الإباحة إلى الفساد، ﴿فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي مبطلين فيه تأكيد لقوله ﴿يَبْتَغُونَ﴾ فإن البغي لا يكون متلبساً بالحق وفيه دفع لتوهم تخريب المسلمين ديار الكفار وإحراق زروعهم وقلع أشجارهم فإنها بإذن الله تعالى ليجزى الفاسقين ويهديهم إلى الصلاح ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغْيِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ فإن وباله راجع عليكم قال: رسول الله ﷺ: «أسرع الخير ثواباً البرو صلة الرحم وأسرع الشر عقوبة البغي وقطيعة الرحم»^(١) رواه الترمذي وابن ماجه بسند حسن عن عائشة، وقال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه فهي راجعة على صاحبها: البغي والمكر والنكث» رواه أبو الشيخ وابن مردويه في التفسير

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: البغي (٤٢١٢) قال في الزوائد: في إسناده صالح بن موسى وهو ضعيف.

والخطيب عن أنس، وقال رسول الله ﷺ: «لو بغى جبل على جبل لك الباغى منهما»^(١) رواه ابن لال عن أبي هريرة ﴿مَتَكُ الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا﴾ أي منفعة غير باقية، قرأ حفص بالنصب مصدر مؤكد أي تمتعون متاع الحياة الدنيا أو مفعول للبغي لأنه بمعنى الطلب فيكون الجار والمجرور من صلته والخبر محذوف تقديره بغيكم متاع الحياة الدنيا محذوف أو ضلال، أو مفعول فعل دل عليه البغي وعلى أنفسكم خبر، وقرأ الباقر بالرفع على أنه خبر بغيكم بعد خبر أو هو خبر وعلى أنفسكم صلة أو خبر محذوف تقديره ذاك متاع الحياة الدنيا وعلى أنفسكم خبر بغيكم ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ بالموت أو يوم القيامة ﴿فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالجزاء عليه.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا﴾ أي حالها العجيبة في سرعة زوالها وإغترار الناس ﴿كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ﴾ أي اشتبك وخالط بعضه بعضاً ﴿بِهِ﴾ أي بسبب الماء ﴿نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ﴾ من الحبوب والثمار والبقول ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ من الحشيش ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ حسنها وبهجتها بألوان النبات والأزهار ﴿وَأَزْيَنَتْ﴾ أصله تزينت كذا قرأ ابن مسعود ﴿وَوَلَّتْ أَهْلَهَا﴾ أي أهل الأرض ﴿أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا﴾ أي الأرض بمعنى أنهم متمكنون من تحصيل خيراتها بالجزاز والقطاف والحصاد ورفع غلتها والانتفاع بها ﴿أَتْنَهَا أَمْرًا﴾ أي قضاؤنا بضرب زرعها ببعض العاهات بعد استيقانهم أنه قد سلم ﴿إِنَّمَا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا﴾ أي زرعها ﴿حَصِيدًا﴾ أي شبيهاً بالمحصول من أصله ﴿كَأَنَّ لَمْ تَقْبَلْ﴾ أي كان لم تلبث زرعها فحذف المضاف في الموضعين مبالغة وأقيم المضاف إليه مقامه مشتق من غني بالمكان إذا أقام به ﴿بِالْأَمْسِ﴾ أي قبيل ذلك الزمان وهو مثل في الوقت القريب الماضي، والممثل به مضمون الحكاية وهو زوال خضرة النبات وبهجتها فجاءةً وذهابها حطاماً بعدما كان غصناً وزين الأرض حين طمع فيه أهله وظنوا أنه قد سلم من الجوائح لا الماء وإن كان متصلاً بحرف التشبيه لأنه من التشبيه المركب، قال: قتادة معناه المتشبه بالدنيا يأتيه أمر الله وعذابه أغفل ما يكون ﴿كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإنهم هم المنتفعون به ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوهُ﴾ جميع الناس ﴿إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ أي السلامة عن الهلاك والآفات وهي الجنة، وقال قتادة السلام هو الله تعالى وداره الجنة وتخصيص

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد، وأبو نعيم عن ابن عباس موقوفاً وابن مردويه وابن ماجه في الضعفاء، وفيه أحمد بن الفضل وضاع، وقال النجم: بسند ضعيف.

انظر كشف الخفاء (٢٠٩٥).

هذا الاسم للتنبية على ذلك. عن جابر قال: «جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم فقالوا إن لصاحبكم هذا مثلاً فأضربوا له مثلاً قال: بعضهم إنه نائم وقال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مائدة وبعث داعياً فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المائدة ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المائدة، فقالوا: أولوها له يفقهها قال: بعضهم إنه نائم وقال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان فقالوا: الدار الجنة والداعي محمد فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله ومن عصى محمداً فقد عصى الله محمد فرق بين الناس»^(١) رواه البخاري ورواه الدرامي عن ربيعة الجرشي نحوه بلفظ «قيل لي سيد بنى داراً وصنع مائدة وأرسل داعياً فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المائدة ورضي عنه السيد ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المائدة وسخط عليه السيد قال: فالله السيد ومحمد الداعي والدار الإسلام والمائدة الجنة» وقيل: المراد بالسلام التحية سميت الجنة دار السلام لأن أهلها يحيى بعضهم بعضاً بالسلام ﴿وَذُرِّيَّتِهِمْ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٢﴾ مَلَكُمْ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾^(٢) ﴿وَيَهْدِي﴾ من الناس ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ هدايته ﴿إِنْ صِرْطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ وهو دين الإسلام وطريق السنة وطريق الوصول إليه تعالى وفي تعميم الدعوة وتخصيص الهداية بالمشيئة دليل على أن الأمر غير الإرادة وأن الكافر لم يرد الله هدايته.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَرَيْتُمْ بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِتَانًا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلٍ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (٧٢٨١).

(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٤.

﴿۳۱﴾ فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْمَعْلُومُ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالَةُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿۳۲﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ
كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿۳۳﴾

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ العمل في الدنيا قال: رسول الله ﷺ في حديث الإحسان «أن تعبد ربك كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(۱) في الصحيحين من حديث عمر في قصة سؤال جبرئيل ﴿الْحَسَنَى﴾ يعني المثوبة الحسنی أي الجنة، أخرج ابن مردويه عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «للذين أحسنوا شهادة أن لا إله إلا الله الحسنی الجنة والزيادة النظر إلى الله» ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ وهو النظر إلى وجه الله الكريم كذا روى ابن جرير وابن مردويه عن أبي موسى الأشعري عن رسول الله ﷺ قال: «يبعث الله تعالى يوم القيامة منادياً ينادي بصوت يسمعه أولهم وآخرهم يا أهل الجنة إن الله وعدكم الحسنی وزيادة الحسنی الجنة وزيادة النظر إلى وجه الرحمن»، وكذا روى ابن جرير وابن مردويه واللالكاني وابن أبي حاتم من طرق عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ، ونحوه روى ابن مردويه وأبو الشيخ واللالكاني من طريقين عن أنس مرفوعاً وأبو الشيخ عن أبي هريرة مرفوعاً نحوه، وابن جرير وابن مردويه وابن المنذر وأبو الشيخ في تفاسيرهم واللالكاني والآجري في كتاب الرؤية عن أبي بكر الصديق وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ واللالكاني والآجري عن حذيفة ابن اليمان في الآية نحوه، وأخرج هناد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ واللالكاني عن أبي موسى الأشعري نحوه، وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس نحوه، وأخرج ابن أبي حاتم واللالكاني من طريق عن عكرمة عن ابن عباس نحوه، وأخرج ابن أبي حاتم واللالكاني من طريق السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن عروة عن ابن مسعود نحوه، وأخرج اللالكاني هذا التفسير بأسانيد عن سعيد بن المسيب وحسن البصري وعبد الرحمن بن أبي ليلى وعامر بن سعيد الجبلي وابن أبي إسحاق السبيعي وعبد الرحمن بن سابط وعكرمة ومجاهد وقتادة. قال: القرطبي في كتاب الرؤية: هذا تفسير قد استفاض واشتهر فيما بين الصحابة والتابعين ومثله لا يقال إلا بتوقيف، روى مسلم وابن ماجه عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا

(۱) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة (۵۰) وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان (۹).

شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم»^(١) ثم تلا هذه الآية، وروى البغوي بسنده هذا الحديث بلفظ قرأ رسول الله ﷺ ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وقال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فقالوا: ما هذا الموعد؟ ألم تثقل موازيننا وتبيض وجوهنا وتدخلنا الجنة وتجرتنا من النار؟ قال: فيرفع الحجاب فينظرون إلى الله تعالى قال: فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إليه» قال: القرطبي قوله فيكشف الحجاب معناه يرفع الموانع عن الرؤية عن أبصارهم حتى يروه على ما هو عليه من نور العظمة والجلال فذكر الحجاب إنما هو في حق الخلق لا الخالق تعالى وتقدس ﴿وَلَا يَرَهُنَّ﴾ أي لا يغشى ﴿وَجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ أي غبرة فيها سواد كذا روى ابن أبي حاتم وغيره عن ابن عباس وابن مسعود ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي هو إن كما يرهق أهل النار ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمون فيها لا زوال فيها ولا انقراض لنعيمها بخلاف الدنيا وزخارفها.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ عطف على قوله ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾ على مذهب من يجوز في الدار زيد والحجرة عمرو، أو هو مبتدأ خبره ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ﴾ تقديره جزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها أي نجازي سيئة بسيئة مثلها لا يزداد عليها، وجاز أن يكون خبره كأنما أغشيت أو أولئك أصحاب النار وما بينهما اعتراض وقوله ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ﴾ مبتدأ خبره محذوف أي جزاء سيئة واقع أو مقدر بمثلها أو الخبر بمثلها على زيادة الباء ﴿وَرَهَقَهُمْ﴾ تغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ هوان ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ غَاصِرٍ﴾ من زائدة، يعني ما لهم أحد يعصمهم من سخط الله أو مالهم أحد من جهة الله أو من عنده من يعصمهم من عذاب الله ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا﴾ جمع قطعة مفعول ثان لأغشيت ﴿مِنَ اللَّيْلِ﴾ صفة لقطعاً ﴿مُظْلِمًا﴾ حال من الليل والعامل فيه أغشيت لأن العامل في موصوفة عامل فيه أو معنى الفعل في من الليل، وقرأ ابن كثير والكسائي ويعقوب قطعاً ساكن الطاء أي بعضاً كقوله تعالى: ﴿يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ﴾^(٢) وعلى هذا يصح أن يكون مظلماً صفة لقطعاً أو حال منه ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ احتجت المعتزلة بهذه الآية على خلود أصحاب الكبائر في النار ورد قولهم بأن السيئات يعم الصغائر والكبائر والكفر فلو كانت الآية على عمومها لزم خلود أصحاب الصغائر أيضاً، ولم يقل به أحد وأيضاً يأبى عنه قوله تعالى

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (١٨١).

(٢) سورة هود، الآية: ٨١.

﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ مِّثْلَهَا﴾ فإنه يقتضي أن يكون جزاء الكبائر دون الكفر فوق الصغائر فلا يتصور الحكم بالخلود على العموم فمرجع الإشارة ليس الذين كسبوا السيئات على العموم بل بعضهم وهم الكفار كما في قوله تعالى ﴿وَعَوْلَاهُنَّ أَحْقُ بِرَبِّهِنَّ﴾ بعد قوله: ﴿عَلَيْمٌ يَّرَبِّصَت﴾^(۱) وجاز أن يقال المراد بالذين كسبوا السيئات الكفار لأن الذين أحسنوا يتناول أصحاب الكبائر من أهل القبلة فإن الإيمان رأس الحسنات فلا يتناولهم قسيمة ويمكن أن يقال: المراد بالذين كسبوا السيئات الموجودون في زمن النبي ﷺ، والمؤمنون الموجودون في ذلك الزمان كانوا أصحاب رسول الله ﷺ عدول كلهم بالإجماع ما كسب أحد منهم سيئة إلا تاب وغفر والتائب من الذنب كمن لا ذنب له فالمسيء في ذلك الزمان لم يكن إلا كافراً والله أعلم.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا﴾ يعني الفريقين ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ﴾ أي إلزموا مكانكم حتى تنظروا ما نفعل بكم ﴿أَنْتُمْ﴾ تأكيد للضمير المنتقل إلى قوله مكانكم من عامله المحذوف أعني إلزموا ﴿وَشُرَكَاءُكُمْ﴾ عطف على الضمير المذكور يعني الأوثان ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ أي فرقنا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ يعني قطعنا الوصل التي كانت بينهم في الدنيا حتى تبرأ كل معبود من دون الله ممن عبده وقيل معناه ميزنا بينهم وبين المؤمنين كما في قوله تعالى ﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَنهَا الْمُجْرِمُونَ﴾^(۲) ﴿وَقَالَ﴾ لهم ﴿شُرَكَاءُهُمْ﴾ يعني الأصنام ﴿مَا كُنْتُمْ إِتَانًا تَعْبُدُونَ﴾ بطلبنا منكم العبادة ينطق الله بذلك الأصنام فيشأ فهم بالتبري مكان الشفاعة التي كانوا يرجون منها، وقيل: المراد بالشركاء الملائكة والمسيح فإنهم ما أمروا بها ولا رضوا بها فإذا قالت المعبودون بالباطل ذلك، قالت الكفار بلى كنا نعبدكم فيقول الأوثان ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنه هو العالم بكنه الأشياء ﴿إِنْ كُنَّا﴾ مخففة من الثقيلة يعني إنا كنا ﴿عَنْ عِبَادَتِكُمْ﴾ إيانا ﴿لَمُفْلِحِينَ﴾ اللام هي الفارقة وجاز أن يكون إن نافية واللام بمعنى ألا يعني ما كنا إلا غافلين عن عبادتكم لا نسمع ولا نبصر ولا نعقل ﴿هُنَالِكَ﴾ أي في ذلك المقام ﴿تَبَلَّوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ أي تختبر وتعلم ما قدمت من عمل فيعابن نفعها وضررها، قرأ حمزة والكسائي ثلثوا بالتائين الفوقانيتين من التلاوة أي تقرأ صحيفتها أو من العلو أي تتبع عملها فتقودها إلى الجنة أو إلى النار ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ﴾ أي إلى حكمه أو إلى جزائه إياهم بما أسلفوا ﴿مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ﴾ أي ربهم ومتولي أمورهم على الحقيقة لا ما

(۱) سورة البقرة، الآية: ۲۲۸.

(۲) سورة يس، الآية: ۵۹.

اتخذوه أولياء فإن قيل: أليس الله قد قال: ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾^(١) قلنا: المولى هنالك بمعنى الناصر وههنا بمعنى الرب والمالك ﴿وَصَدَّ عَنْهُمْ﴾ أي زال وبطل عنهم ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من أن آلهتهم يشفع لهم، أو ما كانوا يدعون أنها آلهة.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ بإنزال المطر والبركة ﴿وَالْأَرْضِ﴾ بالإنبات وقيل من لبيان من الموصولة على حذف المضاف أي من أهل السماء والأرض ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ فيسمعكم ويبصركم ما شاء إسماعه وإبصاره وجرى به عادته أو من أعطاكم السمع والأبصار ومن يستطيع خلقهما وتسويتها أو من يحملهما عن الآفات مع كثرتها في المدد الطوال وسرعة انفعالهما عن أدنى شيء ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ من النطفة والبيضة ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ﴾ أي النطفة والبيضة ﴿مِنَ الْحَيِّ﴾ من الحيوان ﴿وَمَنْ يُدِيرُ الْأُمُورَ﴾ أي يقضي الأمور ويعلم عواقبها ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو الله يعني لا يقدر على إسناد هذه الأمور إلى ما يدعو آلهة لظهور بطلانه ﴿اللَّهُ أَفَلَا نُنْقِذُكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ بإشراككم إياه ما لا يقدر على شيء مما ذكر ﴿فَذَلِكُمْ﴾ أي من يفعل هذه الأشياء ﴿اللَّهُ﴾ المستحق للعبادة ﴿رَبِّكُمْ﴾ الثابت ربوبيته بالوجدان والبرهان حيث خلقكم ورزقكم ودبر أموركم ﴿الْحَقُّ﴾ الثابت المتحقق الذي لا شبهة في وجوده ولا في ألوهيته ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ استفهام إنكار أي ليس شيء غير الحق إلا الضلال فمن يخطئ الحق الذي هو عبادة الله تعالى وقع في الضلالة ﴿فَأَن تَصْرَفُونَ﴾ عن الحق إلى الضلال مع قيام البرهان ﴿كَذَلِكَ﴾ يعني كما تحققت الربوبية لله تعالى وأن ليس بعد الحق إلا الضلال أو كما صرف هؤلاء عن الإيمان ﴿حَقَّتْ﴾ ثبتت ووجبت ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي حكمه السابق ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾^(٢) قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر كلمات ربك على الجمع والباقون بالإفراد ﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ خرجوا عن حد الاستصلاح وتمردوا في كفرهم ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بدل من الكلمة أو تعليل لحقيقتها والمراد بها العدة بالعذاب.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَن تُوَفَّقُونَ﴾^(٣) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَن يَهْدِيَ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا

(١) سورة محمد، الآية: ١١.

(٢) سورة هود، الآية: ١١٩.

ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا بَأْتَاهُمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنَ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ﴾ جعل الإعادة كالإبداء في الإلزام بها لظهور برهانها وإن كانوا منكرين لها، ولذلك أمر الله سبحانه رسول الله ﷺ أن ينوب عنهم في الجواب، فقال: ﴿قُلْ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ﴾ بعد إعدامه كما كان ﴿فَأَنْ تَوْفِقُونَ﴾ تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره مع قيام البرهان ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ بنصب الدلائل وإرسال الرسل والتوفيق إلى النظر الصحيح وخلق الهداية، والهدى كما يعدى بالي لتضمنه معنى الانتهاء يعدى باللام أيضاً للدلالة على أن المنتهي هو المقصود بالهداية فقال: ﴿قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ لا يستطيع ذلك غيره ﴿أَفَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ يعني الله سبحانه تعالى ﴿أَحَقُّ أَنْ يُنَجَّ﴾ ممن لا يهدي ﴿أَفَنْ يَهْدِي﴾ قرأ ابن كثير وورش وابن عامر بفتح الياء والهاء وتشديد الدال وقالون وأبو عمرو كذلك إلا أنهما يخفیان حركة الهاء والنص عن قالون الإسكان، وقرأ اليزيدي عن أبي عمرو كأن يشم الهاء شيئاً من الفتح وأبو بكر بكسر الياء والهاء وحفص ويعقوب بفتح الياء وكسر الهاء، والأصل في هذه القراءات يهتدي فأدغمت التاء في الدال وفتحت الهاء بحركة التاء أو كسرت لالتقاء الساكنين وكسرت الياء على قراءة أبي بكر بإتباع الهاء ولم يبال أبو عمرو بالتقاء الساكنين لأن المدغم في حكم المتحرك، وقرأ حمزة والكسائي بفتح الياء وإسكان الهاء وتخفيف الدال من المجرد من قولهم هدى بنفسه إذا اهتدى أو بمعنى لا يهتدي غيره والمعنى من لا يهدي غيره أو لا يهتدي بنفسه فضلاً من أن يهدي غيره أحق بالاتباع ممن يهدي غيره ﴿إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ استثناء مفرغ منصوب على الظرفية يعني لا يهدي في شيء من الأوقات إلا أن يهديه الله أي ألا وقت هداية الله إياه فحينئذ يهتدي بنفسه ويهدي غيره

وهذا حال أشرف شركائهم كالملائكة والمسيح وعزير، وقيل: معنى الهداية الانتقال من مكان إلى مكان آخر فيشتمل الأصنام أيضاً يعني إلا أن تحمل وتنقل بين به عجز الأصنام ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ أيها الكفار ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بما هو باطل بالبداهة ﴿وَمَا يَبِّحُ أَكْثَرُهُمْ﴾ فيما يعتقدونه ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ غير مستند إلى برهان عقلي أو نقلي بل إلى خيالات فارغة وأقيسة فاسدة كقياس الغائب على الشاهد والخالق على المخلوق بأدنى مشاركة موهومة، والمراد بالأكثر المجموع أو من ينتمي منهم إلى تميز ونظر ولا يرضى بالتقليد الصرف ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي﴾ أي لا يفيد ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ من العلم والاعتقاد الحق ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء أو لا يفيد شيئاً كائناً من الحق وفيه دليل على أنه لا يجوز في الاعتقادات الاكتفاء بالظن والتقليد بل لا بد فيه من تحصيل العلم بالبرهان النقلي أو العقلي ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ وعيد على الإعراض عن الحجج العقلية والنقلية إتباعاً للظن والتقليد.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ المعجز ﴿أَنْ يُفْتَرَى﴾ مصدر بمعنى المفعول خبر كان ﴿مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقٌ﴾ أي مصدق منصوب على أنه خبر لكان مقدراً أو علة لفعل محذوف تقديره ولكن أنزله الله لتصديق ﴿الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني محمداً ﷺ أو الكتب المنزلة المتقدمة أو القيامة أو البعث الذي أخبر بها الكتب المتقدمة فلا يكون كذباً ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ أي تبين لما في اللوح المحفوظ من الحلال والحرام والفرائض والأحكام ﴿لَا رَبَّ فِيهِ﴾ منتفياً عنه صلاحية الريب لكونه معجزاً مطابقاً للكتب المتقدمة خبر ثالث داخل في حكم الاستدراك أو استيناف ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ خبر آخر تقديره كائناً من رب العالمين أو متعلق بتصديق أو بتفصيل ولا ريب فيه اعتراض أو بالفعل المعلل بهما أو حال من الكتاب أو من ضمير فيه وفي الآية تنبيه على ما يجب اتباعه بعد المنع عن اتباع الظن ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل يقولون ومعنى الهمزة فيه للإنكار ﴿أَفْتَرَيْنَاهُ﴾ اختلقه محمد ﷺ ﴿قُلْ﴾ يا محمد رداً لقولهم ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ﴾ الفاء جزاء لمقدر يعني إن إفتريته فأتوا أنتم أيضاً بسورة ﴿مِثْلِهِ﴾ أي شبيهاً للقرآن في البلاغة وحسن النظم وقوة المعنى على وجه الافتراء فإنكم مثلي في العربية والفصاحة وأشد تمرناً في النظم والعبارة ﴿وَأَدْعُوا﴾ مع ذلك ﴿مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ﴾ دعوته ممن يعينكم عليه ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي غيره تعالى فإن غيره تعالى لا يقدر على إتيان مثله ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أن محمداً افتراه شرط مستغن عن الجزاء بما مضى يعني فأتوا فلم يقدروا على ذلك، ولما كان في هذه الآية دعوتهم إلى المناظرة وطلب الحق بالتفكير في نظم القرآن ومعانيه قال: الله تعالى ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ﴾ يعني أن كلامهم وإنكارهم للقرآن ليس مبتنياً على التحقيق والتفكير بل كذبوا به أول ما

سمعوه قبل أن يتفكروا فيه ويحيطوا بالعلم بشأنه وإدراك أنه ليس من جنس أن يمكن إيتانه من البشر ﴿وَلَمَّا يَأْتِيهِمْ نَأْوِيلُهُ﴾ أي لم يأتهم بعد العلم بعاقبة ما في القرآن من الوعد والوعيد والإخبار بالغيوب من المبدأ والمعاد وكان يمكنهم تحصيل ذلك العلم من علماء الكتب المنزلة المتقدمة حتى يتبين لهم صدق هذا الحديث، والمعنى أن القرآن معجز من جهة النظم والمعنى ظاهر صدقة على من يتأمل فيه أدنى تأمل ويتفكر ويبحث عن علومه لكنهم لم يفعلوا ذلك بل سارعوا في تكذيبه قبل أن يتدبروا في نظمه ويتفحصوا عن معناه، ومعنى التوقع في لَمَّا أنه قد ظهر لهم بالآخرة إعجازه لما كرر عليهم التحدي وجربوا أقوالهم في معارضته فتضالت دونها وشاهدوا وقوع بعض ما أخبر به مطابقاً لما أخبره مراراً كما في قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾^(١) وقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ﴾^(٢) وقوله: ﴿تَبَّتْ رُءُوسُهُمْ فِي يَوْمٍ ذُرِّيَّتِهِمُ الْمَسِينَةُ﴾^(٣) وقوله: ﴿تَبَّتْ رُءُوسُهُمْ فِي يَوْمٍ ذُرِّيَّتِهِمُ الْمَسِينَةُ﴾^(٤) وقوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾^(٥) ﴿كَذَلِكَ﴾ أي كما فعل هؤلاء بالقرآن كذلك ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يعني كذب كفار الأمم الخالية كتبهم وأنبياءهم ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ فيه وعيد لهم إن لم يؤمنوا بمثل ما عوقب به من قبلهم ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي من المكذبين ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أي يصدق به في نفسه ويستيقن بعد التفكير في القرآن أو المعنى ومنهم من يؤمن به في الاستقبال بعد ما يتضح عليه حقيقة القرآن فيتوب عن كفره هذا ما دلت عليه كلمة لَمَّا من التوقع ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ لفرط غباوته وسبق قضاء الله تعالى بموته على الكفر ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ بالمعاندين أو المصرين.

﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ يعني إن أصروا على تكذيبك بعد إلزام الحجة يا محمد ﴿فَقُلْ﴾ يعني فنبأ عنهم وقل ﴿لِي عَمَلِي﴾ أي جزاؤه ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أي جزاؤه ﴿أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ﴾ يعني لا تؤاخذون على عملي ولا يضركم فعلي فلا تؤذوني ولا تهتموا بما فعلت ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لا أؤاخذ بأعمالكم إنما أقول لكم ما أقول نصحاً لكم قال: رسول

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤.

(٢) سورة الروم، الآية: ١ - ٣.

(٣) سورة المسد، الآية: ١.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٤٦.

(٥) سورة النمل، الآية: ١٤.

الله ﷺ: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان فالنجاء النجاء، فأطاعته طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق»^(١) متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري، قال: الكلبى ومقاتل هذه الآية منسوخة بآية الجهاد كقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾^(٢) ﴿وَمَنْهُمْ مَن يَسْتَعِينُ إِلَيْكَ﴾ أي يلقون إليك أسماعهم الظاهرة إذا قرأت القرآن وتكلمت بالحكم والشرائع لكن لا يسمعون بقلوبهم فلا يدركون حقائقها ولطائفها لفساد استعدادهم كالأصم الذي يريد أن يسمع فلا يسمع لعدم القوة السامعة في صماخه ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّمَ﴾ أي تقدر على إسماع الصم ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي ولو انضم إلى صممهم عدم تعقلهم فإن الأصم العاقل ربما تفرس بالقرائن فكما لا تقدر أنت على إسماع الصم المسلوب عنه العقل لا تقدر على استماع من سلب عن قلبه صلاحية سماع التفكير والتدبر ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ بأبصارهم ويعاثنون أدلة الصدق وإعلام النبوة لكنهم لا يصدقون لعدم بصيرة في قلوبهم ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّمَ﴾ أي ولو انضم إلى عدم البصر عدم البصيرة فإنه لا يهتدي بالطريق الأولى، فيه تسلية من الله تعالى لنبية ﷺ يقول إنك لا تقدر أن تسمع من سلبت عنه السمع ولا تهدي من سلبت عنه البصر ولا أن توفق للإيمان من حكمت عليه أنه لا يؤمن، وتعليل للأمر بالتبري والإعراض عنهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٣) فإنهم لسوء استعدادهم وفساد اختيارهم لا يقبلون هداية الله ورسوله، قال: رسول الله ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكانت طائفة منها طيبة قبلت الماء وأنبتت الكلاً والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله به الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلاً، فذلك من فقه في دين ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»^(٣) متفق عليه من

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: الانتهاء عن المعاصي (٦٤٨٢) وأخرجه مسلم في كتاب:

الفضائل، باب: شفقتة ﷺ على أمته (٢٢٨٣).

(٢) سورة الكافرون، الآية: ٦.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: فضل من علم وعلم (٧٩).

حديث أبي موسى، وقيل: معناه إن الله لا يظلم الناس شيئاً بسلب آلات الاستدلال من العقول والحواس ولكنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ بإفسادها وتفويت منافعها وترك الاستدلال فالآية دليل على أن العبد له كسب وأنه ليس مسلوب الاختبار بالكلية كما زعمت الجبرية، ويجوز أن يكون وعيداً لهم بمعنى أن ما يحق بهم يوم القيامة من العذاب عدل من الله تعالى لا يظلمهم الله به ولكنهم ظلموا أنفسهم باقتراف أسبابها، قرأ حمزة والكسائي بتخفيف لكن ورفع الناس والباقون بتشديدها والنصب.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّمَا تَرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَتَوَفَّيَكَ فَأَلَيْنَا مَرْجِعَهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمَلٌ لِّي فِي نَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَجِيرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن آتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنُمْ بِهِ ءَأَلْقَنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ءَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُجِيءُ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ﴾ قرأ حفص بالياء على الغيبة والضمير عائد إلى الله والباقون بالنون على التكلم والتعظيم ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا﴾ قال: ابن عباس في قبورهم وقال الضحاك في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا والقبور لهول ما يرون والجملة التشبيهية في موقع الحال من الضمير المنصوب في يحشرهم أي يحشرهم مشبهين بمن لم يلبث إلا ساعة أو صفة ليوم والعائد محذوف تقديره كأن لم يلبثوا قبله أو صفة لمصدر محذوف أي حشراً كأن لم يلبثوا قبله ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي يعرف بعضهم بعضاً كما يتعارفون في الدنيا كأن لم يتفارقوا إلا قليلاً وهذا حال آخر مقدره أو بيان لقوله أو متعلق الظرف والتقدير يتعارفون بينهم يوم يحشرهم، قال: البغوي: هذه المعرفة حين بعثوا من القبور ثم ينقطع المعرفة إذا عاينوا أهوال القيامة، رفي بعض الآثار أن الإنسان يعرف من

بجنبه ولا يكلمه هيباً وخشياً ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ بالبعث على إرادة القول أي يتعارفون بينهم قائلين ذلك أو هي شهادة من الله تعالى على خسرانهم حيث استبدلوا الكفر بالإيمان والنار بالجنة ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ بطرق استعمال ما أعطوا من أسباب تحصيل المعارف وكسب السعادة استئناف فيه معنى التعجب كأنه قيل ما أخسرهم ﴿وَأَمَّا﴾ مركبة من أن شرطية وما زائدة يعني وإن ﴿نُرِيكَ﴾ أي نبصرك ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّكُمْ﴾ من العذاب في الدنيا كما أراه يوم بدر ﴿أَوْ نُوَفِّئُكَ﴾ قبل أن نريك عذابهم ﴿فَالْيَتَا مَرَجِعُهُمْ﴾ أي فنريكه في الآخرة فهو جواب نتوفينك وجواب نرينك محذوف نحو فذاك ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِدَ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ ذكر الشهادة وأراد نتيجتها ومقتضاها مجازاً ولذلك رتبها على الرجوع بثم، والمعنى ثم الله يفعل بهم على مقتضى ما شهد منهم من أفعالهم وقيل: ثم ههنا بمعنى الواو، قال: مجاهد كان البعض الذي أراه قتلهم يوم بدر وسائر أنواع العذاب بعد الموت ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ خلقت ﴿رَسُولٌ﴾ أرسل إليهم ليدعوهم إلى الإسلام ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ بالبينات فكذبوه ﴿فُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ وبين الرسول ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل فأهلك المكذبون ويحيى الرسول والمؤمنون بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ يعني ما ظلمناهم في تعذيبهم بل استحقوا ذلك، وقال مجاهد ومقاتل معناه لكل أمة من الأمم رسول أرسل إليهم فإذا كان يوم القيامة وجاء رسولهم ليشهد عليهم بالكفر أو الإيمان قضى بينهم بإنجاء المؤمنين وتعذيب الكافرين كما قال: الله تعالى: ﴿وَجَاءَ بِالنَّبِيِّنَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ (١) وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (٢).

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي كفار مكة ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ الذي تعدنا يا محمد من العذاب ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ أيها الرسول وأتباعه ﴿صَادِقِينَ﴾ فيما وعدتم به شرط حذف جزاؤه يعني فأتوا به قالوا: ذلك تكذيباً واستهزاء ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي دفع ضرر أو جلب نفع فكيف أملك في جلب العذاب إليكم ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن يقدر في فأملكه أو المعنى لكن ما شاء الله كائن ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ مدة مضروبة في علم الله تعالى لهلاكهم ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي الوقت المقدر لتعذيبهم ﴿فَلَا يَسْتَجِزُونَ سَاعَةً﴾ أي لا يتأخرون منه أدنى زمان ﴿وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ معطوف على جملة إذا جاء أجلهم يعني لا تستعجلوا عذابكم فسيجيء وقته وينجز وعدكم ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ يعني أخبروني ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابٌ﴾ تعالى الذي

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤١.

تستعجلونه ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ وقت اشتغالكم بالنوم ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ وقت اشتغالكم بأمر معاشكم، وجواب الشرط محذوف يعني ندمتم على استعجالكم عرفتم ما أخطأتم ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ استفهام تعجب من استعجالهم شيئاً من المكروه، إذ لا شيء من المكروه ما يلائم الاستعجال، وهو متعلق بأرايتهم وما بينهما اعتراض، والمجرمون مظهر موضع الضمير، وضع للدلالة على أن جرمهم يقتضي أن يفرعوا لا أن يستعجلوا جزاءه، قال: البغوي إنهم كانوا يستعجلون العذاب ويقول أحدهم ﴿إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١) فيقول الله ماذا يستعجلون أي شيء من العذاب يستعجلونه وكله مكروه، قلت: وجزاز أن يكون قوله ماذا يستعجل الخ جزاء للشرط كقولك إن أتيتك ماذا تعطيني، والمعنى إن أتاكم عذاب الله أي شيء تستعجلون حينئذ هل تستعجلون مثل ذلك العذاب وتختارون بقاءكم فيه أو تستعجلون التقصي عنه يعني لا يستعجلون العذاب حينئذ البتة ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ العذاب الذي يستعجلونه الظرف متعلق بقوله ﴿ءَأَمَنْتُمْ بِهِ﴾ وهذا معطوف على جزاء الشرط محذوفاً كان أو مذكوراً، تقديره إن أتاكم عذابه ندمتم ثم آمنتم به أي العذاب أو بمن أخبر به إذا ما وقع يعني بعد وقوعه والهمزة لإنكار تأخير الإيمان إلى وقت لا يفيد الإيمان حينئذ، أو تقديره إن أتاكم عذابه أي شيء تستعجلون حينئذ يعني لا تستعجلون حينئذ بالعذاب ثم تؤمنون بالعذاب أو بمن أخبر به حين لا ينفعهم وجزاز أن يكون هذا جملة شرطية معطوفة على شرطية سابقة وقوله ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ معترضة أو جزاء شرطية سابقة والمراد بالعذاب ههنا عذاب الآخرة وبالعذاب السابق عذاب الدنيا والمعنى أرايتم إن أتاكم عذاب الله في الدنيا ليلاً أو نهاراً تندموا أو أي شيء تستعجلوا حينئذ ثم إذا وقع بكم عذاب الآخرة هل تؤمنوا به حين لا ينفعكم الإيمان هلا تؤمنوا حين ينفعكم وذلك في الدنيا قبل الغرغرة ﴿الَّذِينَ﴾ على إضمار القول يعني يقال لكم حين تؤمنوا بعد رؤية العذاب في الآخرة أو عند غرغرة الموت على وجه الإنكار ﴿ءَأَمَنْتُمْ بِهِ﴾ بعد وقوعه حين لا ينفعكم، قرأ نافع بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام، والباقون بإسكان اللام وهمزة بعدها، وكلهم سهل همزة الوصل التي بعد همزة الاستفهام، أو قلبها مدة في ذلك وشبهه، نحو قوله تعالى ﴿الَّذِينَ وَقَدِ عَصَيْتَ﴾^(٢) و ﴿الذَّكْرِينَ﴾^(٣) و ﴿اللَّهُ خَيْرٌ﴾^(٤) ولم يحققها أحد منهم، ولم يجعل أحد فصلاً بينها وبين التي قبلها بألف لضعفها ﴿وَقَدِ كُنْتُمْ بِهِ﴾

(٢) سورة يونس، الآية: ٩١.

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٢.

(٤) سورة النمل، الآية: ٥٩.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٤٣.

تَسْتَعِجِلُونَ ﴿١﴾ تكذيباً واستهزاءً حال من فاعل آمنتم المقدر ﴿ثُمَّ قِيلَ﴾ عطف على قيل المقدر ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي أشركوا ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْرُونَ﴾ أي ما تجزون ﴿إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ﴾ أي يستخبرونك يا محمد ﴿أَحَقُّ هُوَ﴾ يعني ما تدعيه من التوحيد والنبوة والقرآن وقيام الساعة والعذاب والثواب، أم باطل تهزل به، قوله حق مبتدأ من القسم الثاني والضمير مرتفع به على الفاعلية ساد مسد الخبر أو الضمير مبتدأ وحق خبر مقدم عليه والجملة في موضع النصب يستنبئونك ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِي﴾ أي نعم ﴿وَرَبِّي﴾ قرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِنَّهُ لَحَقُّ﴾ لا شك فيه ﴿وَمَا أَنْتُمْ﴾ يا كفار مكة ﴿بِمُعْجِزَاتِكُمْ﴾ بفائتين من الذاب لأن من عجز عن شيء فقد فاته.

﴿وَلَوْ﴾ ثبت ﴿أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ على الله سبحانه بالشرك أو على غيره بالتعدي ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ من خزائنها وما يحبه مما هو عليها ﴿لَاقْتَدَتْ بِهِ﴾ أي لجعلته فدية من العذاب من قولهم افتداه بمعنى فداه، ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ قال: أبو عبيدة معناه أظهروا الندامة لأنه ليس ذلك اليوم يوم تصبر وتصنع وقيل: معناه أخفوا الندامة أي أخفى الرؤساء الندامة من الضعفاء وهم الأتباع خوفاً من ملامتهم وتعييرهم، وقيل: إنهم لما بهتوا من رؤية عذاب لم يكونوا يحتسبوه لم يقدروا أن ينطقوا، وقيل: أسروا الندامة يعني أخلصوها لأن إخفاءها إخلاصها أو لأنه يقال سر الشيء لخلصته من حيث أنها تخفي ويضين بها ﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي الظالمين والمظلومين دل عليهم ذكر الظلم يعني حكم للمظلومين على الظالمين بالعذاب ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يظلمُونَ﴾ بالتعذيب بلا ذنب وليس هذا تكريراً لأن الأول قضاء بين الأنبياء ومكذبيهم وهذا مجازات المشركين على شركهم والحكومة بين الظالمين والمظلومين ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقرير لقدرة تعالى على الإثابة والتعذيب ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي ما وعده من الثواب والعذاب كائن لا خلف فيه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ به لأنهم لقصور عقولهم لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ في الدنيا فهو يقدر عليهما في العقبى لأن القادر لذاته لا يزول قدرته والمادة القابلة بالذات للحياة والموت قابلة لهما أبداً ﴿وَالِيَهُ تُرْجَعُونَ﴾ بالموت والبعث.

﴿يَتَأْتِيَا النَّاسَ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ وَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَدْرَكَ لَكُمْ أَرْ

عَلَىٰ اللَّهِ تَقَرُّونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالٍ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾ إِلَّا إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لِلَّهِ لِكُلِّ شَيْءٍ ذَلِكُ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني القرآن على لسان محمد ﷺ، فإنها موعظة يعني تنبيه وتذكير يدعو إلى كل مرغوب ويزجر عن كل مرهوب، وذلك بالأوامر والنواهي فإن الأمر من الحكيم العليم الجواد يقتضي حسن المأمور به فيكون مرغوباً ويترتب عليه أجر مرغوب والنهي يقتضي قبحه فهو مرهوب يترتب عليه أجر مرهوب ﴿وَشِفَاءٌ﴾ أي دواء موجب للشفاء ﴿وَشِفَاءٌ فِي الصُّدُورِ﴾ أي في صدوركم من الأمراض القلبية يعني العقائد الفاسدة وتعلقات القلوب بما سوى الله تعالى، أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ قال: إني أشتكى صدري قال: اقرأ القرآن يقول الله تعالى وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ، وله شاهد من حديث واثلة بن الأسقع أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ﴿وَهُدًى﴾ أي إراءة طريق إلى العقائد الحقّة وسبيل الجنة ومراتب القرب من الله سبحانه قال: رسول الله ﷺ: «يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها»^(١) رواه أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي عن عبد الله بن عمرو ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ من الله تعالى ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لمن آمن به منكم فإنهم هم المنتقمون به كاسبون رحمة الله بتلاوته واتباعه، قال: البغوي الرحمة النعمة على المحتاج فإنه لو أهدى ملك إلى ملك شيئاً لا يقال قد رحمه وإن كان ذلك نعمة لأنه لم يضعها في محتاج.

﴿قُلْ﴾ يا محمد شكراً له تعالى في جواب ما قال: منه عليكم ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ يعني جاءنا الموعظة والشفاء والهداية والرحمة بفضل الله تعالى ورحمة منه دون استحقاق

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن (٢٩١٤) وأخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: كيف يستحب الترتيل في القراءة (١٤٦٣).

منا ﴿فِيذَلِكَ﴾ الفضل من الله والرحمة أو بمجيء القرآن ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾ تقديره فبذلك ليفرحوا فليفرحوا، والتكرير للتأكيد والتقرير وإيجاب اختصاص مجيء الكتاب أو الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه، والفاء في قوله فبذلك داخلة لمعنى الشرط كأنه قيل إن فرحوا بشيء فليفرحوا بذلك، أو للربط بما قبلها والدلالة على أن مجيء الكتاب الموصوف بما ذكر موجب للفرح، وقيل: المراد بفضل الله ورحمته إنزال القرآن، وقال مجاهد وقتادة فضل الله الإيمان ورحمته القرآن، وقال أبو سعيد الخدري فضل الله القرآن ورحمته إن جعلنا من أهله، أخرج أبو الشيخ وغيره عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «بفضل الله أي القرآن وبرحمته أن جعلكم من أهله» وقال ابن عمر فضل الله الإسلام ورحمته تزيينه في القلوب، وقال خالد بن معدان فضل الله الإسلام ورحمته السنن، وقيل: فضل الله الإيمان ورحمته الجنة، والباء على هذه الأقوال متعلقة بفعل يفسره ما بعده تقديره بفضل الله وبرحمته فليعتنوا أو ليفرحوا، وفائدة ذلك التكرير التأكيد والبيان بعد الإجمال، وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح، قرأ يعقوب باختلاف عنه فلتفرحوا بالتاء الفوقانية على الأصل المرفوض لصيغة الخطاب في الأمر، أخرج أبو داود عن أبي بن كعب «أن رسول الله ﷺ قرأ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فلتفرحوا»^(١) بالتاء الفوقانية ﴿هُوَ﴾ الضمير راجع إلى ذلك، أي مجيء القرآن أو فضل الله ورحمته ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا، قرأ أبو جعفر وابن عامر ويعقوب بالتاء الفوقانية على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لكفار مكة ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي خلق لكم عبر عن الخلق بالإنزال لما نيط خلقها بسبب منزل من السماء يعني المطر، أو لأنه لما قدر وكتب أولاً في اللوح المحفوظ ثم خلق على وفقه فكانه أنزل من اللوح، وما منصوب بأنزل أو أرايتم فإنه بمعنى أخبروني ﴿مِنْ رِزْقِي﴾ بيان لما يعني من زرع أو زرع، وكلمة لكم دلت على أن المراد منه ما حل ولذلك ويتخ على تشقيصه فقال: ﴿فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ﴾ أي بعضه ﴿حَرَامًا﴾ وبعضه ﴿حَلَالًا﴾ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾^(٢) ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ﴾ خالصة ﴿لِنُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا﴾^(٣) وحرموا البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ﴿قُلْ﴾ اللَّهُ أَدْرَأَكُمُ فِي هَذَا التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ فَتَقُولُونَ ذَلِكَ بِحُكْمِهِ ﴿أَمْ عَلَىٰ اللَّهِ تَفَتُّورٌ﴾

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الحروف والقراءات (٣٩٧٤).

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٣٨.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٣٩.

في نسبة ذلك الأمور، والجمله متعلق بأرايتم وقل تكرير للتوكيد، وجاز أن يكون الاستفهام للإنكار وأم منقطعة ومعنى الهمزة فيها تقرير افتراءهم على الله، والمعنى أن الله لم ياذن لكم بل على الله تفترون حيث تقولون ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾^(١) ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ أي شيء ظنهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ منصوب بالظن، يعني أيحسبون أنهم لا يجازون عليه لا بل كائن لا محالة، وفي إبهام الوعيد تهديد عظيم ﴿أَحْيَاهُمْ اللَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ حيث أنعم عليهم بالعقل، وهداهم بإنزال الكتب وإرسال الرسل ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ هذه النعمة، ولو شكروها اتبعوا العقل والنقل ولم يفتروا على الله، وجاز أن يكون معنى الآية أن الله لذو فضل على الناس حيث لم يستعجل بعقوبتهم في الدنيا.

﴿وَمَا تَكُونُ﴾ يا محمد ﴿فِي شَأْنٍ﴾ أي أمر وحال، قال: بعض المحققين: لا يقال الشأن إلا فيما يعظم من الأحوال والأمور قال: البيضاوي أصله من شأنت شأنه أي قصدت قصده ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ﴾ أي من الشأن لأن تلاوة القرآن كان معظم شأن الرسول الله ﷺ، ولأن القراءة يكون لشأن عظيم فيكون التقدير من أجله أو من القرآن وإضمار قبل الذكر، ثم قوله ﴿مِنْ قُرْآنٍ﴾ بياناً له تفخيم له أو المعنى ما تتلو من الله، ومن في من قرآن تبعية، أو مزيدة لتأكيد النفي ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ﴾ أيها الناس ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ تعميم للخطاب بعد تخصيصه بمن هو رأسهم، ولذلك ذكر من أعماله أولاً ما فيه فخامة ثم عمم ما يتناول الجليل والحقير ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ أي رقباء مطلعين عليه ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي تدخلون وتندفعون فيه أي في العمل وقيل معناه تكثرون فيه والإفاضة الدفع بكثرة ﴿وَمَا يَسْرُبُ﴾ قرأ الكسائي بكسر الزاء والآخرين بضمها وهما لغتان معناه لا يغيب ﴿عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ﴾ مصدر ميمي بمعنى الثقل يعني الوزن ومن زائدة ﴿ذَرَّةٍ﴾ أي نملة صغيرة أو هباء ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي في الوجود والإمكان واقتصر على ذكر الأرض والسماء لأن أبصار العوام قاصرة عليهما وقدم الأرض لأن الكلام في حال أهلها والمقصود بيان إحاطة علمه تعالى بالأشياء كلها ﴿وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ كلام برأسه مقرر لما قبله، ولا لنفي الجنس، وأصفر وأكبر إسمها، وفي كتاب خبرها. قرأ حمزة ويعقوب برفع أصفر وأكبر على الابتداء والخبر بإبطال عمل لا لأجل التكرير والباقون بالنصب على أعمال لا، وقيل لا ولا زائدتان وأصفر وأكبر معطوفان على مثقال ذرة، أو على ذرة والفتح بدل الكسر لامتناع الصرف، أو للحمل على مثقال ذرة مع الجار

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٨.

والرفع للعطف على مثقال ذرة حملاً على محله البعيد قبل دخول من والاستثناء حينئذ منقطع، والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ، أو صحائف الأعمال للحفظ.

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ﴾ حين يخاف الناس يوم القيامة من لحوق مكروه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ حينئذ بفوات مأمول، اعلم أن الولاء والتوالي في اللغة أن يحصل شيان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما ويستعار للقرب من حيث المكان ومن حيث النسبة ومن حيث الدين ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد، وفي القاموس الوليُّ القرب والدنو والوليُّ اسم منه بمعنى القريب والمحب والصديق والنصير فاعلم أن الله سبحانه بعباده بل بجميع خلقه قريباً غير متكيف كما يدل عليه قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^(١) وذلك القرب هو الموجب لوجود الممكنات فما لم يحصل للممكن ذلك القرب بالواجب تعالى لم يشم رائحة الوجود فإن له في نفسه ليس، وله سبحانه نجوا من عبادة قرب آخر غير متكيف أيضاً وذلك قرب المحبة ويتمثل هذا القرب في عالم المثال بنظر الكشف بصورة القرب الجسماني، وهذان القربان لا اشتراك بينهما إلا من حيث الاسم، وهذا القرب الثاني له درجات ومراتب غير متناهية كما يدل عليه الحديث القدسي: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به»^(٢) الحديث رواه البخاري عن أبي هريرة، وأدنى درجات هذا القرب يحصل بمجرد الإيمان قال: الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾^(٣) وأعلى درجاته نصيب الأنبياء ونصيب سيدنا محمد ﷺ، وله ﷺ ترقيات لا تتناهى إلى أبد الأبد، وأدنى ما يعتد به ويطلق عليه اسم الولي في اصطلاح الصوفية والمراد بهذه الآية إن شاء الله تعالى من كان قلبه مستغرقاً في ذكر الله ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾^(٤) ممتلئاً بحب الله تعالى لا يسع فيه غيره: ﴿وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾^(٥) فلا يحب أحداً إلا الله، ولا يبغض إلا الله، ولا يعطي إلا الله، ولا يمنع إلا الله، فهم المتحابون في الله والصوفية العلية يسمون هذه الصفة بفناء القلب، فكان ظاهره وباطنه متحلياً بتقوى يقي نفسه عما يكرهه الله تعالى من الأعمال والأخلاق، فكان نفسه منزهاً عن الرذائل من الشرك الجلي والخفي والأخفى من

(١) سورة ق، الآية: ١٦.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: التواضع (٦٥٠٢).

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٢٠.

(٥) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

دبيب النمل ومن الحسد والحقد والكبر والهوى والهلع وغير ذلك متصفاً بمحاسن الأعمال والأخلاق، والصوفية العلية يسمون هذه الصفة بفناء النفس ويقولون حينئذ أسلم شيطانه أشار الله سبحانه إلى الوصف الأول بقوله ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي حقيقة الإيمان فإن الإيمان محله القلب وكمال الإيمان أن يطمئن قلبه بذكر الله لا يغفل عنه ساعة ولا يلتفت إلى غيره وإلى الوصف الثاني بقوله ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الله تعالى بإتيان أوامره وانتهاء نواهيهِ الظاهرة والباطنة، روى أبو داود عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «إِن مِّنْ عِبَادٍ لِلَّهِ لَأَنَاسًا مَا هُم بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الْبَشَرُ بِمَكَانِهِمْ مِنْ اللَّهِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ تَخْبِرُنَا مَنْ هُمْ؟ قَالَ: «هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّونَ بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ، وَلَا أَمْوَالٍ يَتَعَاطُونَهَا، فَوَاللَّهِ إِنْ وَجَّهْتُمْ لِنُورٍ وَإِنَّهُمْ عَلَى نُورِهِ يَخَافُونَ إِذَا خَادَ النَّاسُ وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزَنَ النَّاسُ وَقَرَأَ ﴿أَلَا إِنَّكَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾»^(١) وروى البغوي بسنده عن أبي مالك الأشعري نحو ذلك وكذا روى البيهقي في شعب الإيمان، أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: سئل النبي ﷺ عن قول الله ﴿أَلَا إِنَّكَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ قال: «الذين يتحابون في الله» وورد مثله من حديث جابر بن عبد الله أخرجه ابن مردويه.

فصل: في أسباب حصول الولاية: وهذه المرتبة أعني ولاية الله تعالى إنما يستفاد بالانعكاس من رسول الله ﷺ إما بلا واسطة أو بواسطة أو بوسائط ولا بد فيه من كثرة المجالسة مع المحبة والانقياد بالنبي ﷺ، أو بمن ينوبه، فإنهما يثمران محبة الله تعالى وانصبغ قلبه وقالبه ونفسه بصبغ قلب رسول الله ﷺ وقالبه ونفسه الذي هو ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾^(٢) وكثرة الذكر على وجه مسنون يؤيد ذلك الانعكاس لكونه موجباً لصقالة القلب المستوجب للانعكاس، قال: رسول الله ﷺ: «لكل شيء صقالة وصقالة القلب ذكر الله» رواه البيهقي عن عبد الله بن عمر والله أعلم عن معاذ بن جبل قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى وجبت محبتي للمتحابين في المتجالسين في والمتزاودين في والمتبازلين في»^(٣) رواه مالك وأحمد والطبراني والحاكم

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الإجارة، باب: في الرهن (٣٥٢٤).

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٣٨.

(٣) قال الحاكم: صحيح على شرطهما وأقره الذهبي، وقال المنذري: إسناده صحيح، وقال الهيثمي:

رجال أحمد والطبراني وثقوا.

انظر فيض القدير (٦٠٣٨).

والبيهقي وروى أحمد والطبراني والحاكم نحوه عن عبادة بن الصامت، وعن ابن مسعود قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله كيف تقول في رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم؟ قال: «المرء مع من أحب»^(١) متفق عليه، ومعنى قوله لم يلحق بهم أي لم يعمل مثل عملهم، وفي الصحيحين عن أنس نحوه. وعن أبي رزين أنه قال: له رسول الله ﷺ «ألا أدلك على ملاك هذا الأمر الذي تصيب منه خير الدنيا والآخرة؟ عليك بمجالس أهل الذكر وإذا خلوت فحرك لسانك ما استطعت بذكر الله وأحب في الله وأبغض في الله» الحديث رواه البيهقي في شعب الإيمان، وعن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله الحب في الله والبغض في الله»^(٢) رواه أحمد وأبو داود. ذكر المرادين ثم اعلم أن ما ذكرنا حال المرادين من أولياء الله تعالى، ومن أوليائه تعالى جماعة مرادون بدل عليه ما رواه مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبرئيل فقال إني أحب فلاناً فأحبه قال: فيحبه جبرئيل ثم ينادي في السماء فيقول إن الله يحب فلاناً فأحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبداً دعا جبرئيل فيقول إني أبغض فلاناً فأبغضه قال: فيبغضه جبرئيل ثم ينادي في أهل السماء إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه قال: فيبغضونه ثم يوضع له البغضاء في الأرض»^(٣).

فصل: في علامة أولياء الله: ذكر البغوي عن النبي ﷺ أنه سئل من أولياء الله قال: «الذين إذا رأوا ذكراً لله» وقال البغوي يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «قال الله تعالى إن أوليائي من عبادي الذين يُذَكَّرُونَ بِذِكْرِي وَأُذَكَّرُ بِذِكْرِهِمْ» وروى ابن ماجه عن أسماء بنت يزيد أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا أنبئكم بخياركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: «الذين إذا رأوا ذكراً لله»^(٤). فائدة: والسر في ذلك أن أولياء الله تعالى لهم قرب ومعية بالله تعالى غير متكيفة، يقتضي ذلك أن يكون مجالستهم كالمجالسة بالله تعالى، ورؤيتهم مُذكراً لله تعالى، وذكرهم جالباً إلى ذكره تعالى، كالمرأة إذا قوبلت بالشمس وامتلات بنورها

- (١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: علامة حب الله عز وجل (٦١٦٩) وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: المرء مع من أحب (٢٦٤٠).
- (٢) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: مجانية أهل الأهواء وبغضهم (٤٥٨٧).
- (٣) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: إذا أحب الله عبداً حبه إلى عباده (٢٦٣٧).
- (٤) أخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: من لا يؤبه له (٤١١٩) قال في الزوائد: إسناده حسن وشهر بن حوشب وسويد بن سعيد مختلف فيهما وباقي رجال الإسناد ثقات.

حصلت لها حالة إذا قوبل شيء بذلك المرآة يستضيء بها كما يستضيء بمقابلة الشمس، بل يحترق القطنه بمقابلة المرآة دون مقابلة الشمس لقرب القطنه بالمرآة دون الشمس، وأيضاً أن الله سبحانه أودع في ذوات أوليائه استعداد تأثر من الله تعالى لقرب ومناسبة خفية غير متكيفة به تعالى، واستعداد تأثير في الناس لأجل مناسبة جنسية ونوعية وشخصية، فذلك التأثير والتأثير يقتضي حصول حضور بالله تعالى، وذكره تعالى فيمن رآهم وجالسهم بشرط عدم الإنكار نعوذ بالله منه: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(١) أي الخارجين عن الإيمان والانقياد، وقال رسول الله ﷺ قال: الله تعالى: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب»^(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة، وفي الباب حديث حنظلة يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأننا رأينا عين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً، فقال: رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو تدومون كما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات»^(٣) رواه مسلم. فائدة: وليست علامة الأولياء ما زعمت العوام من خرق العادات ولا العلم بالمغيبات، فإنها لا توجد في كثير من أولياء الله، وقد يوجد في غيرهم على سبيل الاستدراج وكونه في بعضهم نادراً لا يستلزم كون ذلك علامة للولاية كيف وقد قال: الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾^(٤) وقال قل: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾^(٥) وقال ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٦) ونحو ذلك، وقد قالت الصوفية العلية: الكرامة حيض الرجال لا بد استتارها، ولا مزية لأحد على أحد بها، ومن ثم ندم بعض الرجال عن كثرة ظهور خرق العادات بأيديهم والله أعلم.

ومحل الذين آمنوا للنصب على المدح أو على كونه وصفاً للأولياء، أو الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف يعني هم والجملة مادحة أو على أنه مبتدأ خبره ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وذلك ما بشر رسول الله ﷺ أصحابه بالوحي عموماً وخصوصاً فقال: «أبو

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: التواضع (٦٥٠٢).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة، والمراقبة، وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا (٢٧٥٠).

(٤) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.

(٦) سورة الأنعام، الآية: ١٠٩.

بكر في الجنة وعمر في الجنة وعثمان في الجنة وعلي في الجنة وطلحة في الجنة والزبير في الجنة وعبد الرحمن بن عوف في الجنة وسعد بن أبي وقاص في الجنة وسعيد بن زيد في الجنة وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة»^(١) رواه الترمذي عن عبد الرحمن بن عوف وابن ماجه عن سعيد بن زيد، وقال: «أما أنك يا أبا بكر أول من يدخل الجنة من أمتي»^(٢) رواه أبو داود عن أبي هريرة، وقال: «أنا أول من تنشق عنه الأرض ثم أبو بكر ثم عمر»^(٣) رواه الترمذي عن أبي هريرة وقال: «لكل نبي رفيق ورفيقي في الجنة عثمان»^(٤) رواه الترمذي عن طلحة بن عبيد الله، وقال لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»^(٥) متفق عليه عن سعد بن أبي وقاص، وقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه»^(٦) رواه أحمد والترمذي عن زيد بن أرقم، وقال: «فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني»^(٧) متفق عليه عن مسور بن مخرمة، وقال: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»^(٨) رواه الترمذي عن أبي سعيد، وقال: «خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد»^(٩) وقال: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام»^(١٠) وقال: «إن عبد الله يعني ابن عمر رجل صالح»^(١١) متفق عليه عن ابن عمر،

- (١) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: مناقب عبد الرحمن بن عوف (٣٧٥٦).
- وأخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب: في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ (١٣٣).
- (٢) أخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في الخلفاء (٤٦٤٣).
- (٣) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب (٣٧٠١).
- (٤) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب (٣٧٠٧) وقال: إسناده منقطع.
- (٥) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة تبوك (٤٤١٦) وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٢٤٠٤).
- (٦) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام (٣٧٢٢).
- (٧) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: مناقب فاطمة عليها السلام (٣٧٦٧) وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل فاطمة بنت النبي ﷺ (٢٤٤٩).
- (٨) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما (٣٧٧٧).
- (٩) أخرجه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار، باب: تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها (٣٨١٥) وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل خديجة أم المؤمنين (٢٤٣٠).
- (١٠) أخرجه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار، باب: فضل عائشة (٣٧٦٩) وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: في فضل عائشة رضي الله عنها (٢٤٤٦).
- (١١) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: مناقب عبد الله بن عمر (٣٨٣٤) وأخرجه البخاري في كتاب: المناقب، باب: مناقب عبد الله بن عمر (٣٧٤٠).

وقال لعبد الله بن سلام «أنه من أهل الجنة» متفق عليه عن سعد بن أبي وقاص، وقال: «الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق فمن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله»^(١) وقال: «نعم الرجل أسيد بن حضير نعم الرجل ثابت بن قيس نعم الرجل معاذ بن جبل نعم الرجل معاذ بن عمرو بن الجموح»^(٢) وقال: «إن الجنة تشناق إلى ثلاثة علي وعمار وسلمان»^(٣) هكذا بشر رسول الله ﷺ كثيراً من الصحابة وفصلاً، وبشر الله سبحانه كلهم أجمعين بقوله: ﴿وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾^(٤) وبقوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾^(٥) الآية، وبقوله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»^(٦) متفق عليه عن أبي سعيد الخدري، وقال: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»^(٧) رواه رزين عن عمر، وقال: «خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»^(٨) الحديث متفق عليه عن عمران بن حصين.

ثم إذا مات رسول الله ﷺ فالبشرى في الدنيا ما بشر الله سبحانه أوليائه بالكشف يعني أراه في عالم المثال في المنام أو اليقظة وهو المراد بالرؤيا الصالحة حيث قال: رسول الله ﷺ: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات قالوا: وما المبشرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة»^(٩) رواه البخاري عن أبي هريرة، وقال البغوي روي عن عبادة بن الصامت قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: هي الرؤيا

-
- (١) أخرجه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار، باب: حب الأنصار من الإيمان (٣٧٨٣) وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: الدليل على أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنهم من الإيمان (٧٥).
- (٢) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: مناقب معاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبي بن كعب وأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم (٣٨٠٤).
- (٣) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: مناقب سلمان الفارسي رضي الله عنه (٣٨٠٦).
- (٤) سورة النساء، الآية: ٩٥.
- (٥) سورة محمد، الآية: ٢٩.
- (٦) أخرجه البخاري في كتاب: فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: قول النبي ﷺ «لو كنت متخذاً خليلاً» (٣٦٧٣).
- وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم (٢٥٤٠).
- (٧) رواه البيهقي وأسنده الديلمي عن ابن عباس بلفظ قريب منه. انظر كشف الخفاء (٣٨١).
- (٨) أخرجه البخاري في كتاب: الشهادات، باب: لا يشهد على شهادة جور إذا شهد (٢٦٥٢) وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل الصحابة ثم الذين يلونهم (٢٥٣٣).
- (٩) أخرجه البخاري في كتاب: التعبير، باب: المبشرات (٦٩٩٠).

الصالحة يراها المرء أو ترى له» أخرج أحمد وسعيد بن منصور والترمذي وغيرهم عن أبي الدرداء أنه سئل عن هذه الآية ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: ما سألتني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ فقال: «ما سألتني عنها غيرك منذ أنزلت هذه الآية الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له فهي بشراء في الحياة الدنيا وبشراء في الآخرة الجنة»^(١) له طرق كثيرة، والمراد بالرؤيا رؤيا الأولياء والصلحاء لا رؤيا العوام، قال: رسول الله ﷺ: «الرؤيا ثلاث: فبشرى من الله وحديث النفس وتخويف الشيطان»^(٢) رواه الترمذي وصححه وابن ماجه عن أبي هريرة. فإن قيل: الرؤيا وإن كان من الأولياء والصلحاء لا يفيد القطع؟ قلنا: وإن كان لا يفيد القطع لكنه يفيد غلبة الظن وذلك كاف للبشارة، وقال رسول الله ﷺ: «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»^(٣) رواه البخاري عن أبي سعيد ومسلم عن ابن عمرو عن أبي هريرة وأحمد وابن ماجه عن أبي رزين والطبراني عن ابن مسعود ونحوه ابن ماجه عن عوف بن مالك، وروى أحمد عن ابن عمرو ابن عباس وابن ماجه عن ابن عمر «الرؤيا الصالحة جزء من سبعين جزءاً من النبوة» وروى ابن النجار عن ابن عمر «جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة» وليس المراد بالبشرى ههنا ما بشر الله تعالى المؤمنين به عموماً في كتابه من جنته وكريم ثوابه كقوله تعالى ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾^(٤) لأن البشارة بمثل هذه الآيات لا يتصور إلا بعد القطع بالتوفي على الأيمان وذلك غير متصور، وقيل البشرى في الدنيا هي الثناء الحسن لما روى البغوي بسنده عن عبد الله بن الصامت قال: قال أبو ذر يا رسول الله الرجل يعمل لنفسه ويحببه الناس؟ قال: «تلك عاجل بشرى المؤمن»^(٥) وأخرج مسلم نحوه بلفظ «ويحمده الناس» وقال الزهري وقتادة هي نزول الملائكة بالبشارة من الله عند الموت قال: الله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾^(٦) وكذا قال:

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الرؤيا، باب: ذهبت النبوة وبقيت المبشرات (٢٢٧٢).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الرؤيا، باب: في تأويل الرؤيا ما يستحب منها وما يكره (٢٢٨٠).

وأخرجه ابن ماجه في كتاب: تعبير الرؤيا، باب: الرؤيا ثلاث (٣٩٠٦).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: التعبير، باب: الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة (٦٩٨٩) وأخرجه مسلم في كتاب: الرؤيا (٢٢٦٣).

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥.

(٥) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: إذا أثنى على الصالح فهي بشرى ولا تضره (٢٦٤٢).

(٦) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

عطاء عن ابن عباس ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ يعني عند خروج نفس المؤمن يعرج بها إلى الله ويبشر برضوان الله وعند الخروج من القبر يوم القيامة، عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب لقاءه ومن كره لقاء الله كره لقاءه»، فقالت عائشة أو بعض أزواجه إننا لنكره الموت، قال: ليس ذلك ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله ورحمته فأحب لقاء الله وأحب لقاءه وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته فليس شيء أكره إليه مما أمامه فكره لقاء الله وكره لقاءه»^(١) متفق عليه، وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في الموت ولا في القبور ولا في النشور كأنني أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رءوسهم من التراب يقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن» رواه الطبراني، وكذا أخرج الختلي في الديباج عن ابن عباس مرفوعاً ﴿لَا بَدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ يعني لا خلف لمواعيده ومن ههنا يمكن استنباط قول الصوفية الفاني لا يرد ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى كونهم مبشرين في الدارين ﴿هُوَ أَلْفَوْزُ الْعَظِيمِ﴾ هذه الجملة والتي قبلها اعتراض لتحقيق المبشر به وتعظيم شأنه وليس من شرط الاعتراض أن يقع بعده كلام متصل بما قبله.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦٥) ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَشْعُرُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْتَعِثُّوْنَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا بِخُرُوصٍ﴾ (٦٦) ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْبَلَدَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٦٧) ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ هُوَ الْفَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أَنْقُلُوْا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦٨) ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (٦٩) ﴿مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٧٥)

﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاء من الأفعال والباقون بفتح الياء وضم الزاء من المجرد وكلاهما بمعنى ﴿قَوْلِهِمْ﴾ أي إشراكهم وتكذيبهم وتهديدهم ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ﴾

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: من أحب لقاء الله أحب لقاءه (٦٥٠٧) وأخرجه مسلم في كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، باب: من أحب لقاء الله أحب لقاءه (٢٦٨٣).

لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿ استثناف بمعنى التعلیل وبدل علیه ما قرأ بالفتح كأنه قيل لا تحزن ولا تبال بهم لأن الغلبة لله جميعاً لا يملك غيره شيئاً منها فهو يقهرهم وينصرک عليهم ﴿ هُوَ السَّيِّعُ ﴾ لأقوالهم ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بنياتهم فيجازيهم عليها ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ من الملائكة والثقلين وإذا كان هؤلاء الذين هم أشرف الممكنات عبيداً إلا يصلح أحد للربوبية فما لا يعقل منها أحق أن لا يكون له ند ولا شريك فهو كالدليل على قوله ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ أي شركاء على الحقيقة وإن كانوا يسمونها شركاء فإن الشركة في الربوبية محال ويجوز أن يكون شركاء مفعول يدعون ومفعول يتبع محذوف دل عليه قوله ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ أي ما يتبعون يقيناً إنما يتبعون ظنهم أي خيالهم إنها شركاء، ويجوز أن يكون ما موصولة معطوفة على مَنْ أَي اللهُ ما يتبع الدين يدعون من دون الله شركاء أو استفهامية منصوبة بمتبع والمعنى أي شيء يتَّبِعُ الَّذِينَ يدعونهم شركاء من الملائكة والنبیین يعني أنهم لا يتبعون إلا الله ولا يعبدون غيره فما لكم لا تتبعونهم فيه كقوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَيْنَا رِيْبَهُمُ الْوَسِيلَةَ ﴾ (١) فيكون إلزاماً بعد برهان وما بعده مصروف عن خطابهم لبيان سندهم ومنشأ رأيهم ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ أي يكذبون فيما ينسبون أو يحزرون ويعتدون أنها شركاء تقديراً باطلاً ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْآيَاتِ لِنَتَّكِنُوا فِيهِ ﴾ وتستريحوا من تعب التردد ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أي مضيئاً سبباً لإبصار الأشياء ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي في خلق هذه الأشياء العظام على وفق الحكمة ﴿ لآيَاتٍ ﴾ دالة على كمال قدرة الله وعظيم نعمته وحكمته المتوحد بها المستحق للعبادة المختصة به ﴿ لِقَوْرٍ يَسْمَعُونَ ﴾ كلام الله تعالى وكلام المذكرين سماع تدبير واعتبار ﴿ قَالُوا ﴾ يعني المشركين ﴿ أَخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ وهو قولهم الملائكة بنات الله ﴿ سُبْحٰنَهُ ﴾ تنزيه له عن التبني وتعجب من كلام الحمقاء حيث حكموا بأمر مستحيل لا يمكن ولا يتصور ﴿ هُوَ الْفَنِيُّ ﴾ عما سواه لا يحتاج في شيء من الأمور إلى شيء من الأشياء وما سواه ممكن محتاج في وجوده وبقائه وفي كل صفة من صفاته إليه، فأى مناسبة بينه وبين ما يزعمونه ولداً فإن الولد يكون من جنس الوالد، أو يقال إنما يطلب الولد ضعيف يتقوى به أو فقير ليستعين به أو ذليل ليتشرف به أو من يموت لبقاء جنسه والكل أمانة الحاجة والله غني قديم ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ خلقاً وملكاً فكيف يتصور كون شيء مما فيهما ولداً له ﴿ إِنْ عِنْدَكُمْ ﴾ ما عندكم ﴿ مِنْ سُلْطٰنٍ ﴾ أي برهان ﴿ يَهْتَدٰا ﴾ متعلق بسلطان أو

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٧.

نعت له أو بعندكم كأنه قيل ليس عندكم في هذا سلطان نفي لدليل معارض لما أقام من البرهان على نفي الولد ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ توبيخ على جهلهم وتنبيه على أنه لا يجوز أن يقول أحد قولاً لا دليل عليه وأن العقائد لا بد لها من دليل قاطع يوجب العلم ولا يجوز التقليد فيها ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بنسبة الولد والشريك إليه ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ لا يجون من النار ولا يفوزون بالجنة ﴿مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا﴾ خبر مبتدأ محذوف يعني افتراءهم سبب تمتعهم في الدنيا يقيمون به رياستهم في الكفر أو حياتهم أو تقلبهم متاع، أو مبتدأ خبره محذوف أي لهم تمتع في الدنيا ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ بالموت ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي بسبب كفرهم.

﴿وَآتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِبَايَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا مَسَّاتِكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٧﴾ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْفَنَا وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَدَبِّرِينَ ﴿٧٨﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿وَآتَلَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي اقرأ يا محمد على أهل مكة ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي خبره مع قومه ﴿إِذْ قَالَ﴾ متعلق باذکر ﴿لِقَوْمِهِ﴾ قال: البغوي هم ولد قابيل وهذا لا يتصور لأن نوحاً عليه السلام كان من ولد شيث عليه السلام لا من ولد قابيل، بإضافة القوم إليه يدل على كونهم من آلاد شيث عليه السلام ﴿يَتَقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي﴾ أي قيامي بينكم مدة مديدة، أو قيامي على الدعوة ﴿وَتَذِكْرِي بِبَايَاتِ اللَّهِ﴾ أي بحججه وبياناته أو آياته المنزلة ﴿فَعَلَى اللَّهِ﴾ لا على غيره ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ أي وثقت به ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾ من أجمع الأمر إذا نواه أو عزم عليه ﴿وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ قرأ يعقوب بالرفع عطفاً على الضمير المرفوع المستتر في أجمعوا وجرار للفصل يعني اعزموا أنتم وشركاؤكم على قتلي أو إصابة مكروه بي، والباقون بالنصب إما على أنه مفعول معه والواو بمعنى مع والمعنى ما مر كذا قال: الزجاج، وإما على أنه معطوف على أمركم بحذف المضاف أي اقصدوا أمركم وأمر شركائكم، وإما أنه منصوب بفعل مقدر أي وأدعوا شركاءكم ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ﴾ أي لا يكن شيء مما تقصدون بي

﴿عَلَيْكُمْ غُمَةٌ﴾ مشكوراً بل اجعلوه ظاهراً مكشوفاً من غمه إذا ستره، أو المعنى لا يكن حالكم عليكم غمّاً إذا أهلكتموني وتخلصتم من ثقل مقامي وتذكيري ﴿ثُمَّ أَقْضُوا﴾ أي أدوا ﴿إِلَى﴾ ما أردتم ﴿وَلَا تُنْظِرُونَ﴾ ولا تمهلوني هذا أمر على سبيل التعجيز، أخبر الله تعالى عن نوح أنه كان واثقاً بنصر الله غير خائف من كيد قومه علماً منه بأنهم وألتهم لا يملكون نفعاً ولا ضرراً إلا ما شاء الله ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ حذف جزاء الشرط وأقيم علته مقامه، تقديره فإن توليتم عن تذكيري وأعرضتم عن قلبي وقبول نصحي بعد ظهور صدقه هلكتم، أو يعذبكم الله لكون ذلك التولي عن الحق بلا مانع عن قبوله، إذ ما سألتكم من أجر يوجب توليكم ويمنع عن قبول الحق لثقتي عليكم، أو اتهامكم إياي لأجله، أو المعنى إن توليتم ظلمتم أنفسكم مما أضررتموني بشيء إذ ما سألتكم من أجر يفوتني بتوليتم بل إنما يفوت عليكم الهداية ﴿إِنْ أَجْرِي﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص بفتح الياء وكذلك حيث وقع والباقون بإسكانها أي ليس ثوابي على الدعوة والتذكير ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ لا تعلق له بكم فهو يشيني أمتي أو توليتم، فيه إشارة إلى أن أخذ الأجر على تعليم القرآن ونحو ذلك لا يصلح ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ المنقادين لحكم الله تعالى في الإيمان والأعمال ودعوة الناس إليه وقد فعلت ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي أصرفا على تكذيبه بعد وضوح الحق عناداً وتمرداً ﴿فَنَجَّيْنَاهُ﴾ يعني نوحاً من الغرق ﴿وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ﴾ وكانوا ثمانين ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا﴾ من الهالكين ﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بالطوفان ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُؤَدِّينَ﴾ أي آخر أمر من أذرهم الرسل فلم يؤمنوا، فيه تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن كذب الرسل وتسلىة للنبي ﷺ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْهُ بِرُوحِنَا﴾ أي بعد نوح ﴿رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ أي كل رسول إلى قومه ﴿فَجَاءَهُمْ﴾ أي الرسل ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالدلائل الواضحة ﴿فَمَا كَانُوا﴾ أي أقوام الرسل ﴿لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهٖ مِنْ قَبْلُ﴾ أي بما كذب به قوم نوح قبل مجيئهم ﴿كَذَلِكَ﴾ أي كما طبعنا على قلوب قوم نوح وأقوام الرسل بعده ﴿نَطَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُؤْتِنِينَ﴾ من أمتك بخذلانهم لانهمآكهم في الضلال واتباع المألوف.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَٰ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۦ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَيْسَ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَنْتُمْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَيْسَرُ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَا وَمَجَدْنَا عَلَيْهِ ۖ أَبَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِرْبَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَنِّي مُلْكٌ مُّكْتَسَبٌ﴾

سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُّلقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُّوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَكَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَنَّ الَّذِينَ سَكَبُوا عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ لِيُحَدِّثُوا عَلَيْكَ الْقَوْلَ الثَّالِثَ لَمَّا جَاءَهُمْ وَمَنْ يُضِلُّ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلٌ ﴿٨٩﴾

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي بعد تلك الرسل ﴿مُوسَى﴾ بن عمران ﴿و﴾ أخاه ﴿وَهَارُونَ﴾ إن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي أشراف قومه خص الملا بالذكر تمهيداً للبيان استكبارهم ﴿يَا بَنِيَّانَا فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن اتباع موسى وهارون ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي معتادين بالإجرام ولذلك تهاونوا برسالة الله سبحانه واجترأوا على ردها ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي فرعون وقومه ﴿الْحَقُّ﴾ أي الدين الحق ﴿مِّنْ عِنْدِنَا﴾ وعرفوا حقيقته بتظاهر المعجزات الباهرة المزيلة للشك ﴿قَالُوا﴾ أي فرعون وملاؤه من فرط تمردهم ﴿إِنَّ هَذَا﴾ ما جاء به موسى من المعجزات ﴿لِسِحْرٍ مُّيْنٍ﴾ ظاهر أنه سحر أو فائق في فنه واضح فيما بين أشباهه ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾ على سبيل التعجب والإنكار ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ﴾ للأمر الثابت المتحقق من عند الله ﴿لَمَّا جَاءَكُمْ﴾ أنه سحروا لسحر ثمود لا حقيقة له، فحذف محكي القول للدلالة ما قبله عليه، ولا يجوز أن يكون المحكي ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾ لأنهم بتوا القول بل هو استيناف بإنكار ما قالوه إلا أن يكون الاستفهام فيه للتقرير ويجوز أن يكون معنى تقولون للحق أتعنون، من قولهم فلان يخاف القالة فيستغني عن المفعول كقوله تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ﴾^(١) ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ أي لا يظفر، من تمام كلام موسى للدلالة على أنه ليس بسحر، فإنه لو كان سحراً لاضمحل ولم يبطل سحر السحرة، ولأن العالم به لا يسحر أو تمام قولهم أن جعل

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٦٠.

أسحر هذا محكياً كأنهم قالوا: جئتنا بالسحر تطلب به الفلاح ولا يفلح الساحرون ﴿قَالُوا﴾ يعني فرعون وقومه لموسى ﴿أَجِئْنَا﴾ يا موسى ﴿لِتَلْفِنَّا﴾ أي لتصرفنا، وقال قتادة لتلويها ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ من عبادة الأصنام أو عبادة فرعون ﴿وَتَكُونَ﴾ قرأ أبو بكر بالياء التحتانية والباقون بالتاء فوقانية ﴿لَكُمْ ءَلِكِبْرِيَاءُ﴾ الملك والسلطان سمي بها لاتصاف الملوك بالتكبر على الناس باستتباعهم ﴿لُفْسِدُوا ٱلْأَرْضَ﴾ أرض مصر ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ مصدقين فيما تدعونه ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ حاذق فيه ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَى ٱلْقَوَا مَا أَنْتُمْ مُّلقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا ٱلْقَوَا قَالَ مُّوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ ٱلسَّحَرُ﴾ قرأ أبو عمرو وأبو جعفر السَّحَرَ بالمد على أن ما استفهامية مرفوعة بالابتداء وجئتم به خبرها والسحر خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف والجملة بدل من قوله ما جئتم به تقديره أهو السحر أو السحر هو، وقرأ الجمهور بلا مد على الخبر يعني الذي جئتم به السحر، لا ما سماه فرعون وقومه سحراً من آيات الله، ويؤيده قراءة ابن مسعود ما جئتم به سحر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيَبْطِلُهُ﴾ أي سيمحقه أو سيظهر بطلانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَصْلِحُ﴾ أي لا يثبت ولا يقوى ﴿عَمَلُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فيه دليل على أن السحر إفساد وتمويه لا حقيقة له ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ﴾ أي يثبت ويقوى ﴿ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ بآياته ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

﴿فَمَا ءَأْمَنَ لِمُوسَىٰ﴾ أي لم يصدق موسى مع ما جاء به من الآيات وأبطل سحر السحرة ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةً مِّن قَوْمِهِ﴾ قيل: ضمير قومه راجع إلى موسى يعني مؤمني بني إسرائيل الذين كانوا بمصر وخرجوا معه، قال: مجاهد كانوا أولاد الذين أرسل إليهم موسى من بني إسرائيل هلك الآباء وبقي الأبناء ولذا سماوا ذرية، وقيل: هم قوم نجوا من قتل فرعون لما أمر بقتل أبناء بني إسرائيل كانت المرأة من بني إسرائيل إذا أولدت ولداً وهبته للقبطية خوفاً من القتل فنشثوا عند القبط وأسلموا في اليوم الذي غلب موسى السحرة، وقال آخرون الضمير راجع إلى فرعون روى عطية عن ابن عباس قال: هم أناس يسيرون من قوم فرعون آمنوا منهم امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنه وماشطته، كذا أخرج ابن جرير عنه وعن ابن عباس رواية أخرى أنهم سبعون أهل بيت من القبط من آل فرعون أمهاتهم من بني إسرائيل فجعل الرجل يتبع أمه وأخواله، قال: الفراء سماوا ذرية لأن آباءهم كانوا من القبط وأمهاتهم من بني إسرائيل كما يقال لأولاد أهل الفرس الذين سقطوا إلى اليمن الأبناء لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم ﴿عَلَىٰ حَوْفٍ﴾ أي مع خوف ﴿مِن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ الضمير لفرعون وجمعه على ما هو المعتاد من ضمير

العظماء، أو على أن المراد بفرعون آله كما يقال ربعة ومضر والمعنى مع خوف من آل فرعون وأشرف قومهم أو للذرية أو للقوم ﴿أَنْ يَفْنَهُمْ﴾ أي يعذبهم فرعون وهو بدل من فرعون أو مفعول خوف وإفراده بالضمير للدلالة على أن الخوف من الملائكة كان بسببه ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَقَالِ﴾ غالب متكبر ﴿فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُتَكِبِرِينَ﴾ المجاوزين الحد حتى ادعى الربوبية مع كونه عبداً مخلوقاً محتاجاً، واسترق أبناء الأنبياء ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ لما رأى خوف المؤمنين من فرعون ﴿يَقَوْمٍ إِنْ كُنْتُمْ بِأَمْنٍ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ أي ثقوا به واعتمدوا عليه ولا تخافوا من فرعون وملائته ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ جزاؤه محذوف دل عليه السياق يعني إن كنتم مستسلمين لقضاء الله مخلصين له توكلتم عليه، وليس هذا من تعليق الحكم بشرطين بل المعلق بالإيمان وجوب التوكل فإنه المقتضى له، والمشروط بالإسلام حصوله فإن التوكل على الله لا يحصل ما لم يسلموا نفوسهم لله أي يجعلوها له سالمة خالصة بحيث لا يكون حظ للهوى ولا للشيطان فيها، لأن التوكل لا يحصل مع التخليط وهو من مقامات الصوفية ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ فإنهم كانوا مخلصين أصحاباً لرسول رب العالمين على نبينا وعليه الصلاة والسلام، ثم دعوا ربهم وقالوا ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ أي موضع فتنة وعذاب ﴿لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا تسلطهم علينا فيفتنوننا ويعذبوننا، أو المعنى لا تجعلنا سبباً لزيادة طغيانهم وكفرهم بأن تعذبنا بعذاب من عندك أو بأيدي قوم فرعون فيقول قوم فرعون لو كان هؤلاء على الحق ما عذبوا أو ظنوا أنهم خير منا ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ من كيدهم وشؤم مشاهدتهم وفي تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على أن الداعي ينبغي أن يتوكل أولاً ليجاب دعوته قلت: بل على أن التوكل من صفات اللازمة للصوفي والدعاء من عوارضه.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ هارون ﴿أَنْ تَبَوَّءَا﴾ أي تتخذا مبة ومرجعاً من غيرها من الأماكن إليها للسكنى والعبادة ﴿لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ قال: البغوي قال: أكثر المفسرين كانت بنو إسرائيل لا يصلون إلا في كنائسهم وبيعتهم وكانت ظاهرة فلما أرسل موسى أمر فرعون بتخريبها ومنعهم من الصلاة فيها فأمرهم الله أن يتخذوا مساجد في بيوتهم ويصلوا فيها خوفاً من آل فرعون هذا قول إبراهيم النخعي وعكرمة عن ابن عباس، وقال مجاهد خاف موسى ومن معه من فرعون في الكنائس الجامعة فأمروا أن يجعلوا في بيوتهم مساجد مستقبلية الكعبة يصلون فيها سراً ﴿وَأَجْعَلُوا﴾ أنتم وقومكم ﴿بُيُوتَكُمْ﴾ التي تبوأتها لهم ﴿قِبْلَةً﴾ يعني مصلى متوجهة نحو القبلة يعني الكعبة، روى ابن جريج عن ابن عباس قال: كانت الكعبة قبله موسى ومن معه ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ فيها أمروا بذلك أول

أمرهم لئلا يظهر عليهم الكفرة فيؤذوهم ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا موسى ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ أن يهلك الله عدوكم ويستخلفكم في الأرض في الدنيا، ويورثكم الجنة في العقبى، ثنى الضمير أولاً لأن التبوء القوم واتخاذ المعابد مما يتعاطاه رؤوس القوم بتشاورهم، ثم جمع لأن جعل البيوت مساجد وإقامة الصلاة يجب على كل أحد، ثم وخذ لأن البشارة وظيفة صاحب الشريعة وقال البغوي بشر المؤمنين خطاب للنبي ﷺ ﴿وَقَالَكَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَ زِينَةَ﴾ أي ما يتزين به الناس من اللباس والحلي والفرش والأثاث والمراكب والخدم والحشم وغيرها ﴿وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ اللام في ليضلوا للعاقبة متعلقة بآتيت يعني حتى صار عاقبة أمرهم الضلال والطغيان كقوله تعالى: ﴿فَالنَّقْطَةُ ۗ ءَالَ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾^(١) وقيل: هي لام كي أي آتيتهم استدراجاً ليثبتوا على الضلال، أو لأنهم لما جعلوها سبباً للضلال فكأنما أوتوها ليضلوا، فيكون كلمة ربنا تكريماً للأول تأكيداً للإلحاح في التضرع، قال: الشيخ أبو منصور الماتريدي: إذا علم منهم أنهم يضلون الناس عن سبيله آتاهم ما آتاهم ليضلوا عن سبيله، وهو كقوله تعالى ﴿إِنَّمَا نُعَلِّمُهُم لِيزِدَادُوا إِثْمًا﴾^(٢) فيكون الآية حجة على المعتزلة في القول بوجوب الأصلح واللفظ على الله تعالى، وقال البيضاوي قوله ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ دعاء عليهم بلفظ الأمر ﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ﴾ أي أمحق ﴿عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾ بإهلاكها كذا قال: مجاهد، وقال أكثر أهل التفسير امسخها وغيرها عن هيبتها، قال: قتادة صارت أموالهم وحرورهم وزروعهم وجواهرهم حجارة منقوشة كهيبتها صحاحاً وإنصافاً وأثلاثاً، ودعا عمر بن عبد العزيز بخريطة فيها أشياء من بقايا آل فرعون فأخرج منها البيضة مشقوقة والجوزة مشقوقة وإنها لحجر وقال السدي مسخ الله تعالى أموالهم حجارة والنخيل والثمار والدقيق والأطعمة وكانت إحدى الآيات التسع ﴿وَأَشَدُّ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني أقسىها واطبع عليها حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان، إنما دعا عليهم لما أس من إيمانهم وعلم بالوحي أنهم لا يؤمنون، فأما قبل أن يعلم بأنهم لا يؤمنون فلا يجوز له أن يدعو بهذا الدعاء لأنه أرسل إليهم ليدعوهم بالإيمان فإن قيل: بعدما علم أنهم لا يؤمنون أي فائدة في الدعاء عليهم قلنا لعل ذلك للبعث بأعداء الله في الله وذلك مقتضى طبيعة الإيمان، أو يكون ذلك امتثالاً لأمر الله تعالى ونظير ذلك قولك لعن الله إبليس مع أن ذلك معلوم أنه ملعون امتثالاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾^(٣) ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾ منصوب على أنه

(١) سورة القصص، الآية: ٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٦.

جواب للدعاء، أو على أنه معطوف على ليضلوا وما بينهما دعاء معترض وقال الفراء مجزوم على أنه دعاء بلفظ النهي كأنه قال: اللهم فلا يؤمنوا ﴿حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ بعد الموت كذا قال: السدي ﴿قَالَ﴾ الله تعالى لموسى وهارون ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ نسبت الدعوة إليهما لأنه روى أن موسى كان يدعو وهارون يُؤْمِنُ والتأمين دعاء، قال: البغوي وفي بعض القصص كان بين دعاء موسى والإجابة أربعين سنة ﴿فَأَسْتَقِيمَا﴾ على الرسالة والدعوة وامضيا لأمرى إلى أن يأتيهم العذاب ﴿وَلَا نَتَّبِعَانِ﴾ نهي بالنون الثقيلة ومحلّه جزم، وقرأ ابن ذكوان بالنون الخفيفة، وكسر النون لالتقاء الساكنين ﴿سَكِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي طريق الجهلة في الاستعجال أو عدم الوثوق وعدم الاطمئنان بما وعد الله سبحانه.

﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْفَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمِنْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩٢﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّكَ بِيَدِنَا لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنَّا ءَائِنًا لِّغَافِلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٤﴾ فَإِن كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ أي جاوزناهم وعبرناهم حتى بلغوا الشطّ وفاعل ههنا بمعنى فاعل نحو عاقب أمير اللص، وكان البحر قد انفلق لموسى وقومه ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ أي لحقهم وأدركهم ﴿فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾ يقال أتبعه وتبعه إذا أدركه ولحقه وأتبعه بالتشديد إذا سار خلفه واقتدى به وقيل: هما واحد ﴿بَغْيًا وَعَدُوًّا﴾ أي باغين وعادين أو للبغي والعدو، وقيل بغياً في القول وعدواً في الفعل فلما وصل فرعون بجنوده إلى البحر هابوا دخوله فتقدمهم جبرئيل عليه السلام على فرس أنثى وخاض البحر فاقتحمت الخيول خلفه ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْفَرَقُ﴾ وانطبق عليهم الماء لما دخل آخرهم وهم أولهم أن يخرج ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ﴾ أي بأنه وقرأ حمزة والكسائي بكسر الهمزة على إضمار القول أو الاستيناف بدلاً وتفسيراً لآمنت ﴿لَآ إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمِنْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فسدس

جبرئيل عليه السلام في فيه من حماة البحر فمات قبل أن تقبل توبته، نكب الشقي عن الإيمان أو أن القبول وبالغ فيه حين لا يقبل فقال: الله تعالى على سبيل الإنكار ﴿أَلَنْ﴾ يعني أنؤمن الآن حين أيثست من الحياة ولم يبق لك اختيار ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ ذلك مدة عمرك ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ الضالين المضلين عن الإيمان، قال: البغوي: روي عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله قال: لما أغرق الله تعالى فرعون قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنوا إسرائيل فقال: جبرئيل يا محمد فلو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة. فائدة: زعم جلال الدين الدواني أن فرعون مات مسلماً حيث أتى بكلمة التوحيد حال حياته، وقد اتبع هو في هذا القول الشيخ الأجل محي الدين ابن العربي قدس الله سره حيث قال: مات فرعون طاهراً، والحق أن قول الشيخ هذا مصروف عن الظاهر وكثير من كلماته السكرية لا تطابق الشرع وهذا القول خارق للإجماع، ومخالف للصحاح من الأحاديث، قال: الدواني كل ما في القرآن من الوعيد بالنار إنما جاء في حق آل فرعون دون نفسه، قال: الله تعالى: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ ^(١) وقال الله تعالى: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَشْسُ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ ^(٢) وقال ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ ^(٣) وأما فرعون فلا يعذب على كفره فإنه قد آمن بل على عصيانه وظلمه في حق العباد فإن حقوق العباد لا يغفرها الله، قلت وهذا ليس بشيء فإن الله سبحانه قال: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾ ^(٤) فقال أنا ربكم الأعلى ^(٥) فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ^(٦) فإنه صريح في كونه معذباً في الآخرة لأجل كفره وما قال: الله تعالى حكاية عن موسى ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً﴾ ^(٧) إلى قوله ﴿أَطِيسَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا﴾ ^(٦) وقوله ﴿قَدْ أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمَا﴾ ^(٧) صريح في أن موسى دعا على فرعون أن يموت على الكفر وقد أُجِيبَتِ دَعْوَتُهُ، فإنكار موته على الكفر إنكار لهذه الآية نعوذ بالله منه ﴿قَالِ يَوْمَ تُنَجِّكَ﴾ أي

(١) سورة غافر، الآية: ٤٦.

(٢) سورة هود، الآية: ٩٨.

(٣) سورة غافر، الآية: ٤٥.

(٤) سورة النازعات، الآية: ٢٣ - ٢٥.

(٥) سورة يونس، الآية: ٨٨.

(٦) سورة يونس، الآية: ٨٨.

(٧) سورة يونس، الآية: ٨٩.

نلقيك بنجوة من الأرض وهي المكان المرتفع، أو المعنى نبعدك مما وقع قومك من قعر البحر ونجعلك طافياً، وقرأ يعقوب نُنجيك بالتخفيف من الأفعال ﴿يَبْدِنَكَ﴾ أي ببدنك عارياً من الروح أو كاملاً سويّاً أو عرياناً عن اللباس أو بدرعك، وكانت له درع مشهور من ذهب مرصع بالجواهر، قال: البغوي لما أخبر موسى قومه بهلاك فرعون قال: بنوا إسرائيل ما مات فرعون، فأمر الله البحر فألقى فرعون على الساحل أحمر قصيراً كأنه ثور فرآه بنو إسرائيل وعرفوه بدرعه فصدقوا ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَفَكَ﴾ أي من ورائك ﴿آيَةً﴾ أي عبرة وعظة، أو آية دالة على طريقة التوحيد مظهراً لعجز البشر وإن كان ملكاً فإنه كان في نفوس بني إسرائيل متخيلاً متمكناً أنه لا يهلك حتى شكوا في موته حين أخبرهم موسى ﷺ إلى أن عاينوه مطروحاً على ممرهم من الساحل أو لمن يأتي بعدك من القرون إذا سمعوا مآل أمرك ممن شاهدك ونكالا عن الطغيان ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ يعني الكفار ﴿عَن آيَاتِنَا لَعْفُلُونَ﴾ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾ أي أنزلنا ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ﴾ أي منزلاً صالحاً يعني مصر وقيل: الأردن وفلسطين وهي الأرض المقدسة التي كتب الله ميراثاً لإبراهيم وذريته وقال الضحاك هي مصر والشام ﴿وَرَزَقْنَهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي اللذائذ ﴿الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ أي بنو إسرائيل الذين كانوا في زمن النبي ﷺ في أمر محمد ﷺ قبل مجيئه بل كان كلهم متفقين على أنه رسوا الله منعت بصفات مكتوبة في التوراة مبشرين الناس بقرب ظهوره مستفتحين به على الذين كفروا ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي معلومهم وهو محمد ﷺ كالخلق بمعنى المخلوق في قوله تعالى ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾^(١) والمعنى حتى جاءهم العلم بأنه هو بمطابقة صفاته بما ذكرت في التوراة وظهور معجزاته فحينئذ اختلفوا فأمنت طائفة منهم وكفرت طائفة عناداً وحسداً ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيميز المحق من المبطل بالإنجاء والإهلاك ﴿فَإِنْ كُنْتَ﴾ أيها الإنسان ﴿فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ من القرآن والهدى على لسان رسولنا محمد ﷺ ﴿فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقرءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ قال: ابن عباس ومجاهد والضحاك: يعني من آمن من أهل الكتب كعبد الله بن سلام وأصحابه يشهدون لك أنه موعود في التوراة والإنجيل مطابق في قصصه وأصول أحكامه بالكتب المتقدمة، فهذا خطاب مع أهل الشك من الناس، وكان الناس في عهد رسول الله ﷺ بين مصدق ومكذب وشاك، وفيه تنبيه على أنه من خالجه شبهة في الدين ينبغي أن يتسارع إلى حلها

(١) سورة لقمان، الآية: ١١.

بالرجوع إلى الصالحين من أهل العلم، وقيل: هذا خطاب من النبي ﷺ على سبيل
الفرض والتقدير أو لزيادة تشبته، يدل عليه ما أخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة قال:
بلغنا أنه ﷺ قال: لا أشك ولا أسأل، وقيل: خطاب مع النبي ﷺ والمراد به غيره على
عادة العرب فإنهم قد يخاطبون الرجل ويريدون به غيره كقوله تعالى ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ أُنَى
اللَّهِ﴾^(١) خاطب به النبي ﷺ والمراد به المؤمنون بدليل قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾^(٢) حيث لم يقل بما تعمل وقوله تعالى ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾^(٣) وقال
الفراء علم الله سبحانه أن رسوله الله ﷺ غير شك لكنه ذكره على عادة العرب يقول
أحدهم لعبده إن كنت عبدنا فأطعني ويقول لولده إن كنت ولدي فأفعل كذا ولا يكون ذلك
على وجه الشك ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ﴾ يعني ما أنزلنا إليك أمر ثابت متحقق ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾
ثبت ذلك عندك بالآيات الواضحة والبراهين القاطعة بحيث لا مدخل للمرية فيه ﴿فَلَا
تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ بالتزلزل عما أنت عليه من الجزم واليقين ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا
بَيِّنَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الخطاب في هذا كالخطاب في ما سبق إما للشاكين
من الناس أو للرسول الله ﷺ والمراد به غيره أو للرسول على سبيل الفرض، أو الغرض
منه التثبيت وقطع الأطماع عنه كقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهْرًا لِلْكَافِرِينَ﴾^(٤).

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ
حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا
ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ
مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَتْ
لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ انظُرُوا
مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ
إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلِ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَشَكِّبِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ
نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نَجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ١.

(٣) سورة الطلاق، الآية: ١.

(٤) سورة القصص، الآية: ٨٦.

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ﴾ أي وجبت ﴿عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ﴾ يعني قوله حين أخذ الميثاق أن هؤلاء للنار، روى مالك والترمذي وأبو داود عن مسلم بن يسار قال: «سئل عمر بن الخطاب عن هذه الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية قال: عمر سمعت رسول الله ﷺ يُسْتَلُّ عنها فقال: «إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فأخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون»^(١) الحديث، وروى أحمد عن أبي نصره عن رجل من أصحاب النبي ﷺ يقال له أبو عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل قبض بيمينه قبضة وأخرى باليد الأخرى وقال: هذه لهذه يعني للجنة وهذه لهذه يعني للنار ولا أبالي» ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إذ لا نقض لقضاء الله تعالى ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ دالة على الصدق موجبة للإيمان فإن السبب الأصلي لإيمانهم إنما هو تعلق إرادة الله تعالى به ولم يوجد، وجملة لو جاءتهم مع معطوفة عليها مقدره في محل الحال من فاعل لا يؤمنون، تقديره لا يؤمنون لو لم يجئهم ولو جاءتهم كل آية يعني لا يؤمنون في حال من الأحوال حذف ما حذف للدلالة المذكور عليه ﴿حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ في القبر أو في النار أو حالة الغرغرة وحينئذ لا ينفعهم الإيمان كما لم ينفع إيمان فرعون حالة الغرغرة ﴿فَلَوْلَا﴾ أي فهلا ﴿كَانَتْ قَرْيَةً﴾ أي أهل قرية من القرى التي أهلكتها ﴿ءَامَنَتْ﴾ قبل معاينة العذاب ولم يؤخر إلى حالة الغرغرة كما أخر فرعون ﴿فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا﴾ أي قبلها الله منها، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»^(٢) رواه الترمذي ابن ماجه وابن حبان والحاكم والبيهقي، وعن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليغفر لعبده ما لم يقع الحجاب» قالوا: يا رسول الله وما الحجاب؟ قال: «أن تموت النفس وهي مشركة» رواه أحمد والبيهقي في كتاب البعث والنشور ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ استثناء منقطع يعني لكن قوم يونس آمنوا فنفعهم إيمانهم، وجاز أن تكون الجملة في معنى النفي لتضمن حرف التحضيض معناه فيكون الاستثناء متصلاً، والمعنى ما آمن أحد من أهل قرية عاصية قبل معاينة العذاب الأخرى خالة الغرغرة إلا قوم يونس فإنهم آمنوا قبل حالة الغرغرة وقبل رؤية العذاب الأخرى ﴿لَمَّا ءَامَنُوا﴾ في

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأعراف (٣٠٧٥).

وأخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في القدر (٤٦٩١).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات.

وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: ذكر التوبة (٤٢٥٣).

حالة الاختيار قبلنا منهم الإيمان، أخرج ابن مردويه عن عائشة عن النبي ﷺ في هذه الآية قال: لما آمنوا ودعوا ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ﴾ في الدنيا ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي وقت معين معلوم عند الله تعالى وهو وقت آجالهم، وقال البغوي تأويل هذه الآية إنه لم يكن قرية آمنت عند معاينة العذاب فنفعها إيمانها في حالة البأس إلا قوم يونس، فإنهم نفعهم إيمانهم في ذلك الوقت، ثم قال: واختلفوا في أنهم هل رأوا العذاب عياناً أولاً؟ فقال: بعضهم رأوا دليل العذاب والأكثر على أنهم رأوا العذاب عياناً بدليل قوله تعالى ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ والكشف يكون بعد الوقوع، وكلام البغوي هذا يفيد أن الإيمان في حالة العذاب الدنيوي لا يقبل ولم يقبل إلا من قوم يونس وتسمى تلك الحالة حالة البأس، والصحيح أن المراد برؤية العذاب الأليم المانع من قبول الإيمان رؤية العذاب الأخروي عند حضور الموت حين يرى ملائكة الموت، ألا ترى أن الكفار عذبوا يوم بدر بالعذاب الدنيوي من القتل والأسر وغير ذلك ثم آمن بعض من بقي حياً، وكذا كان حال قوم يونس أنهم آمنوا قبل رؤية العذاب الأخروي فقبل الله تعالى إيمانهم بعدما رأوا العذاب في الدنيا، ثم لما آمنوا كشف الله عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا وأما إيمان فرعون فلم يقبل إما لكونه عند الغرغرة وإما لعدم خلوصه إلى قلبه بسبب دعاء موسى ﴿وَأَشَدُّ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ وقد كان من عادة فرعون وقومه أنهم كلما وقع عليهم الجز ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(١) وكان كلما كشف الله ﴿عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾^(٢) فلعله آمن فرعون حينئذ أيضاً بلسانه دون قلبه فلم يقبل منه، وقد ذكرنا مشكلة قبول التوبة قبل خالة الغرغرة في سورة النساء في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَىٰ اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ﴾^(٣) الآية ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾^(٤) الآية.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣٥.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٧.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٨.

قصة يونس عليه السلام:

على ما ذكره البغوي عن ابن مسعود وسعيد بن جبير ووهب وغيرهم أن قوم يونس كانوا بنيوى من أرض الموصل، فأرسل الله تعالى إليهم يونس عليه السلام يدعوهم إلى الإيمان، فدعاهم فأبوا فقبل له أخبرهم أن العذاب مصبّحهم إلى ثلاث فأخبرهم بذلك، فقالوا إنا لم نجرب عليه كذباً، فانظروا فإن بات فيكم تلك الليلة فليس بشيء، وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب مصبّحكم، فلما كان جوف تلك الليلة خرج يونس من بين أظهرهم، فلما أصبحوا تغشاهم العذاب فكان فوق رؤوسهم قدر ميل، وقال وهب غامت السماء غيماً أسود هائلاً، يدخن دخاناً شديداً، فهبط حتى غشى مدينتهم واسودت سطوحهم، فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك، فطلبوا يونس بينهم فلم يجدوه، فكدف الله في قلوبهم التوبة، فخرجوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم، ولبسوا المسموح وأضهروا الإيمان والتوبة، وأخلصوا النية وفرقوا بين كل والدها وولدها من الناس والأنعام، فحَنَّ بعضها إلى بعض وعلت أصواتها واختلطت أصواتها بأصواتهم وعجّوا أو تضرّعوا إلى الله ﷻ وقالوا آما بما جاء به يونس، فرحمهم ربهم واستجاب دعاءهم وكشف عنهم العذاب بعدما أظلم ذلك يوم عاشوراء. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة قال: ذكر لنا أن قوم يونس كانوا بنيوى من أرض الموصل فذكر نحوه، وفيه فلما عرف الله الصدق من قلوبهم والتوبة والندامة على ما مضى كشف الله عنهم العذاب بعد ما تدلى عليهم ولم يكن بينهم وبين العذاب إلا ميل، وأخرج ابن أبي حاتم عن علي قال: تيب على قوم يونس يوم عاشوراء وكان يونس قد خرج ينتظر العذاب وهلاك قومه فلم ير شيئاً، وكان من كذب ولم يكن له بينه قتل فقال: يونس كيف أرجع إلى قومي وقد كذبتهم؟ فانطلق عاتباً على ربه مغاضباً لقومه، فأتى البحر فإذا قوم يركبون سفينة فعرفوه فحملوه بغير أجر، فلما دخلها وتوسطت بهم ولججت وقفت السفينة لا ترجع ولا تتقدم فقال: أهل السفينة إن لسفينةنا لشأناً قال: يونس قد عرفت شأنها ركبها رجل ذو خطيئة عظيمة، قالوا: ومن هو؟ قال: أنا إقذفوني في البحر، قالوا: ما كنا لنطرحك من بيننا حتى نُعذّر في شأنك، فاستهموا فأقرعوا ثلاث مرات فأدحض سهمه، والحوت عند رجل السفينة فاغرّ فاه ينتظر أمر ربه فيه، فقال: يونس إنكم والله لتهلكن جميعاً أو لتطرحوني فيه، فكدفوه فيه فانطلقوا وأخذت الحوت. وروي أن الله تعالى أوحى إلى حوت عظيم حتى قصد السفينة فلما رآه أهل السفينة مثل الجبل العظيم وقد فَعَرَفاه ينظر

إلى من في السفينة كأنه يطلب شيئاً خافوا فلما رآه يونس زخ نفسه في الماء . وعن ابن عباس أنه خرج مغاضباً لقومه فأتى بحر الروم فإذا سفينة مشحونة فركبها، فلما لججت السفينة تكافت حتى كادوا أن يغرقوا، فقال: الملاحون ههنا رجل عاص أو عبد آبق وهذا رسم السفينة إذا كان فيها آبق لا تجري، ومن رسمنا أن نقترع في مثل هذا فمن وقعت عليه القرعة ألقيناه في البحر، ولأن يغرق واحد خير من أن تغرق السفينة بما فيها، فاقترعوا ثلاث مرات ف وقعت القرعة في كلها على يونس، فقام يونس فقال: أنا الرجل العاصي والعبد الآبق فألقى نفسه في الماء، فابتلعه حوت ثم جاء حوت أكبر منه وابتلع هذا الحوت، وأوحى الله إلى الحوت لا تؤذي منه شعرة فإني جعلت بطنك سجنه ولم نجعله طعاماً لك . وروي عن ابن عباس قال: نودي الحوت إنا لم نجعل يونس لك قوتاً وإنما جعلنا بطنك له حرزاً ومسجداً، وروي أنه قام قبل القرعة قال: أنا العبد العاصي الآبق، قالوا: من أنت؟ قال: يونس بن متى، فعرفوا فقالوا لا نلقينك يا رسول الله ولكن نساهم، فخرجت القرعة عليه فألقى نفسه في الماء، قال: ابن مسعود ابتلعه الحوت فأهوى به إلى قرار الأرض السابعة وكان في بطنه أربعين ليلة فسمع تسبيح الحصى ﴿فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(١)، فأجاب الله له فأمر الحوت فنبذه على ساحل البحر كالفرخ الممعة، فأنبت الله عليه شجرة من يقطين وهو الدباء فجعل يستظل تحتها ووكّل الله به وعلة يشرب من لبنها، فبيست الشجرة فبكى عليها، فأوحى الله تعالى إليه تبكي على شجرة يبست ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون وأردت أن أهلكهم، فخرج يونس فإذا هو بسلام يرعى فقال: من أنت يا غلام؟ قال: من قوم يونس، قال: إذا رجعت إليهم فأخبرهم أنني لقيت يونس، فقال: الغلام قد تعلم أنه إن لم يكن بينة قُتِلْتُ قال: يونس تشهد لك هذه البقعة وهذه الشجرة، فقال: له الغلام فمرهما، قال: يونس إذا جاءكما هذا الغلام فاشهدا له قالتا نعم، فرجع الغلام فقال: للملك إني لقيت يونس فأمر الملك بقتله، فقال: إن لي بينة فأرسلوا معي فأتى البقعة والشجرة، فقال: أنشدكما بالله هل أشهد كما يونس؟ قالتا: نعم فرجع القوم مذعورين وقالوا للملك شهد له الشجرة والأرض فأخذ الملك بيد الغلام فأجلسه في مجلسه وقال: أنت أحق بهذا المكان مني فأقام لهم أمرهم ذلك أربعين سنة .

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ يا محمد ان يؤمن من في الأرض كلهم ﴿لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.

كُلُّهُمْ ﴿بِحَيْثُ لَا يَشُدُّ عَنْهُمْ أَحَدٌ ﴿جَمِيعًا﴾ مُجْتَمِعِينَ عَلَى الْإِيمَانِ غَيْرِ مُخْتَلِفِينَ فِيهِ،
 وَفِيهِ رَدٌ لِمَذْهَبِ الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ قَالُوا: أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ يَشَاءُ إِيْمَانِ جَمِيعِ النَّاسِ لَكِنِّهِمْ لَا
 يُؤْمِنُونَ بِاخْتِيَارِهِمْ، فَإِنَّهَا تَدُلُّ أَنَّهُ لَمْ يَشَأْ إِيْمَانَهُمْ وَإِنْ مِنْ شَاءَ إِيْمَانَهُ يُؤْمِنُ لَا مُحَالَةً
 لِاسْتِحَالَةٍ. تَخْلَفُ مَشِيَّةَ اللَّهِ عَمَّا شَاءَ وَالتَّقْيِيدَ بِمَشِيئَةِ الْإِلْجَاءِ خِلَافَ الظَّاهِرِ ﴿أَفَأَنْتَ﴾ يَا
 مُحَمَّدُ ﴿تَكْفُرُ النَّاسَ﴾ يَعْنِي الْكُفَّارَ ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وَلَمْ يَشَأْ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْهُمْ تَرْتَبُ
 الْإِكْرَاهَ عَلَى عَدَمِ الْمَشِيئَةِ بِالْفَاءِ وَإِدْخَالَ حَرْفِ الْاسْتِفْهَامِ لِلْإِنْكَارِ وَتَقْدِيمِ الضَّمِيرِ عَلَى
 الْفِعْلِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ مَا لَمْ يَشَأْ اللَّهُ مُسْتَحِيلٌ وَجُودُهُ لَا يُمْكِنُ تَحْصِيلُهُ بِالْإِكْرَاهِ فَضْلًا
 عَنِ الْحَثِّ وَالتَّحْرِيزِ عَلَيْهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ ﷺ كَانَ حَرِيصًا عَلَى أَنْ يُؤْمِنَ جَمِيعُ النَّاسِ
 فَأَخْبَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ مِنْهُمْ إِلَّا مِنْ سَبَقَ عِلْمَ اللَّهِ فِيهِ بِالسَّعَادَةِ دُونَ مَنْ
 سَبَقَ عَلَيْهِ بِالشَّقَاوَةِ فَلَا تَهْتَمُ فِي ذَلِكَ فَالْآيَةُ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ
 تُؤْمِنَ﴾ بِاللَّهِ تَعَالَى ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يَعْنِي إِلَّا بِإِرَادَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ ﴿وَيَجْعَلُ﴾ قَرَأَ أَبُو بَكْرٍ
 بِالنُّونِ عَلَى التَّكْلِيمِ وَالبَاقُونَ بِاليَاءِ عَلَى الْغَيْبَةِ أَيَّ يَجْعَلُ اللَّهُ ﴿الرَّجَسَ﴾ أَيَّ الْعَذَابِ أَوْ
 الْخِذْلَانَ فَإِنَّهُ سَبَبُهُ ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ يَعْنِي الْكُفَّارَ لَمَّا عَلَى
 قُلُوبِهِمْ مِنَ الطَّبَعِ وَلَعَدَمِ تَعَلُّقِ مَسِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى بِتَعَقُّلِهِمْ ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿أَنْظُرُوا﴾ أَيَّهَا
 النَّاسُ وَتَفَكَّرُوا ﴿مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مِنْ عَجَائِبِ الْمُمْكِنَاتِ كَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ
 وَالنُّجُومِ وَحَرَكَاتِهَا الْمُنْتَسِقَةِ وَالْجِبَالِ وَالْبَحَارِ وَالْأَنْهَارِ وَالْأَشْجَارِ وَالْمَوَالِيدِ الدَّلَالَاتِ
 عَلَى وَجُودِ صَانِعٍ قَدِيمٍ قَادِرٍ عَلِيمٍ مُتَوَحِّدٍ بِجَلَالِ ذَاتِهِ وَكَمَالِ صِفَاتِهِ، وَكَلِمَةُ مَاذَا إِنْ
 جَعَلْتَ اسْتِفْهَامِيَّةً عُلِّقَتْ أَنْظُرُوا عَنِ الْعَمْدِ ﴿وَمَا تُعْنِي﴾ مَا نَافِيَةٌ أَوْ اسْتِفْهَامِيَّةٌ لِلْإِنْكَارِ فِي
 مَوْضِعِ النَّصْبِ يَعْنِي لَا تَفِيدُ ﴿الْآيَاتِ﴾ الْمَوْجِبَةِ لِلْعِلْمِ وَالبَيِّنَاتِ ﴿وَالنُّذُرِ﴾ جَمْعُ نَذِيرٍ
 يَعْنِي الرُّسُلَ وَغَيْرَهُمْ كَالشَّيْبِ وَمَوْتَ الْأَقْرَانِ ﴿عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فِي عِلْمِ اللَّهِ وَحُكْمِهِ
 فَإِنَّ الْإِيمَانَ أَمْرٌ وَهَبِي ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أَيَّ مُشْرِكِي مَكَّةَ ﴿إِلَّا مِثْلَ آيَاتِهِ﴾ أَيَّ مِثْلِ وَقَائِعِ
 ﴿الَّذِينَ خَلَوْا﴾ مَضُوا ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مِنْ كُفَّارِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، قَالَ: قِتَادَةٌ يَعْنِي وَقَائِعِ اللَّهِ
 تَعَالَى فِي قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ، وَالعَرَبُ يُسَمِّي الْعَذَابَ أَيَّامًا، وَالنَّعْمَ أَيَّضًا أَيَّامًا
 قَالَ: اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا﴾ (١) فَكَلَّمَا مَضَى عَلَيْكَ مِنْ خَيْرًا وَشَرًّا فَهُوَ أَيَّامٌ
 ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿فَأَنْظُرُوا﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ هَلَاكِي ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ هَلَاكِكُمْ
 ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ عَطْفٌ عَلَى مُحْذُوفٍ دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ إِلَّا مِثْلَ آيَاتِهِ
 الَّذِينَ خَلَوْا كَأَنَّهُ قِيلَ نَهَلِكُ الْأُمَّمَ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَمَنْ آمَنَ مَعَهُمْ عَلَى حِكَايَةِ الْحَالِ

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٥.

الماضية ﴿كَذَلِكَ﴾ يعني كما ننجي رسلنا من الأمم السابقة كذلك ﴿حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إنجاء مثل ذلك الإنجاء ننجي محمداً ﷺ وأصحابه حين يهلك المشركون، وحقاً علينا اعتراض يعني وجب علينا وجوباً قرأ حفص والكسائي نُنَجِّ مخففاً من الافعال والباقون مشدداً من التفعيل.

﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكِّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَإِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِذَا يُرِيدُ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١١٧﴾ قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْنَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١١٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَبِيرُ الْحَكِيمِينَ ﴿١١٩﴾﴾

﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ﴾ خطاب لأهل مكة ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكِّ مِنْ دِينِي﴾ من صحته فإنهم كانوا في استبعاد من أمر النبوة، وكانوا إذا رأوا الآيات اضطروا إلى الإيمان فكانوا في شك وتردد لشقاوتهم الجبلية ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الحجارة المنحوتة بأيديكم ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ﴾ يعني الذي يحييكم ويميتكم ويخلق ما يشاء ويختار، وإنما خص التوفى بالذكر للتهديد، جملة فلا أعبد إلى آخره وضع موضع الجزاء إقامة للسبب مقام المسبب، تقديره إن كنتم في شك من ديني فأزيلوا ذلك الشك بالتأمل والتفكير في ديني وهو هذا لا أعبد الحجارة المخلوقة التي لا تضر ولا تنفع وأعبد الله الخالق القادر النافع الضار ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ﴾ أي بأن أكون ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بما دل عليه العقل وثبت بالنقل من الكتب السماوية ﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ﴾ عطف على أن أكون ذكر الصلة في المعطوف عليه بصيغة المضارع وفي المعطوف بصيغة الأمر لعدم الفرق بينهما إذ المقصود وصلها بما يتضمنه من المعنى المصدرية وصيغ الأفعال كلها لذلك سواء، والمعنى أمرت بكوني على الإيمان والاستقامة في الدين والاستبداد فيه بأداء الفرائض والانتها عن القبائح، أو في الصلاة باستقبال القبلة ﴿لِلَّذِينَ حَنِيفًا﴾ حال

من الدين أو الوجه ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ عطف على أقم يعني أمرت بأن لا تكونن من المشركين ومعناه نهيت عن كوني على الشرك ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ عطف تفسيري على قوله ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يعني لا تعبد ﴿مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ﴾ إن دعوته ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إن خذلته ولا شك أن من تفكر ونظر بعين الإنصاف في هذا الدين المؤيد بالعقل والنقل حصل له اليقين بصحة الدين وزال عنه الشك إن شاء الله تعالى ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ عبادة ما لا ينفعك ولا يضرك ﴿فَإِنَّكَ إِذَا مَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ حيث وضعت العبادة في غير موضعه جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدر عن تبعة عبادة غير الله.

﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ﴾ أي يصيبك ﴿يَضُرُّ﴾ أي بمرض أو شدة أو بلاء ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ﴾ أي لا دافع له أحد ﴿إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ﴾ الله ﴿بِخَيْرٍ﴾ من خيرات الدنيا والآخرة ﴿فَلَا رَادٌّ﴾ أي لا دافع ﴿لِفَضْلِهِ﴾ أحد لعله ذكر الإرادة مع الخير والمس مع الضر مع تلازم الأمرين للتنبيه على أن الخير مراد بالذات والضر إنما مستهم لا بالقصد الأول، ووضع موضع الضمير للدلالة على أنه متفضل بما يريدهم من الخير لا لاستحقاق لهم عليه، ولم يستثن لأن مراد الله لا يمكن رده ﴿يُصِيبُ بِهِ﴾ أي بكل واحد من الخير والشر ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فتعرضوا الرحمة بالطاعة ولا تتكلوا عليها ولا تئسوا من غفرانه بالمعصية ولكن خافوا عذابه، روى أبو نعيم عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل قل لأهل طاعتي من أمتك أن لا يتكلوا على أعمالهم إني لا أناصب عبداً لحساب يوم القيامة أشاء أن أعذبه إلا عذبه وقل لأهل معصيتي من أمتك لا تلقوا بأيديكم فإني أغفر الذنوب العظيمة ولا أبالي» قطع الله سبحانه بهذه الآية طريق الرغبة والرغبة إلا إليه ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ سبقت رحمته على غضبه.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ﴾ أهل مكة ﴿قَدْ جَاءَكُمْ﴾ العلم ﴿الْحَقُّ﴾ الثابت المطابق للواقع يعني العلم بالتوحيد والصفات وأحوال المبدأ والمعاد في القرآن وعلى لسان رسول الله ﷺ ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ ولم يبق لكم عذر بالجهل، أو المراد بالحق ما ظهر تحققه وصدقه بالإعجاز يعني القرآن أو الرسول الله ﷺ ولم يبق لكم عذر ﴿فَمَنْ أَهْتَدَى﴾ بإذعان ذلك العلم والسلوك على مقتضاه وبقبول القرآن ومتابعة الرسول ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ فإن نفعه عائد إليها ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ عن طريق الحق بالإنكار والعناد ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لأن وباله عائد عليها ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِمُكِبِلٍ﴾ بحفيظ موكول إلي أمركم حتى أؤاخذ بفضلالكم ﴿وَأَتَّبِعْ﴾ يا محمد ﴿مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ بامثال الأوامر وترك المناهي ﴿وَأَصْبِرْ﴾ على الطاعة

وتحمل أذيتهم ﴿حَتَّىٰ يَخُوكُمُ اللَّهُ﴾ بقتال الكفار وضرب الجزية عليهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْمُنَافِقِينَ﴾
لا يمكن الخطأ في حكمه لا اطلاعه على السرائر كاطلاعه على الظواهر.

سورة هود

مائة وثلاث عشرون آية مكية إلا قوله: ﴿وَأَقْرِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾ الآية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كِتَبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي
لَكُرْمَةٌ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَإِنْ أَسْتَعْتَفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِنَّ أَجَلَ مُسَمِّي
وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ
وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِیَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ
ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي
الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ الَّذِي
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ آبَكُمْ أَحْسَنُ
عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا
سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ
يَأْتِيهِمْ لَيْسٌ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾

﴿الرَّ كِتَبٌ﴾ مبتدأ وخبر، أو كتاب خبر مبتدأ محذوف ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَتُهُ﴾ أي نظمت آياته نظماً محكماً لا يقع فيه نقص من جهة اللفظ ولا من جهة المعنى، أو منعت من النسخ إن كان المراد آيات السورة فإنه ليس شيء منها منسوخاً، أو أحكمت بالحجج والدلائل، أو جعلت حكيمة منقول من حكم بالضم إذا صار حكيماً لاشتمالها على أمهات الحكم العلمية والعملية ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ أي بينت بالفوائد من العقائد والأحكام والمواعظ والأخبار كما يفصل القلائد بالفرائد، أو فصلت بجعلها سوراً، أو بإنزالها نجماً نجماً، أو فصل أي بين فيها ولخص ما يحتاج إليه ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ صفة للكتاب أو خبر بعد خبر أو صلة لأحكمت أو لفصلت يعني فصلت من عنده أحكامها وهو تقرير لأحكامها وتفصيلها على أكمل ما ينبغي باعتبار ما ظهر من أمره وما خفى ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا

إِلَّا اللَّهُ ﴿١﴾ أي لأن لا تعبدوا، أو بأن لا تعبدوا، أو في ذلك الكتاب أن لا تعبدوا، وقيل إن مفسرة لأن في تفصيل الآيات معنى القول، ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأ للإغراء كأنه قيل ألزموا أن لا تعبدوا إلا الله ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ﴾ أي من الله تعالى ﴿نَذِيرٌ﴾ بالعقاب على الشرك ﴿وَبَشِيرٌ﴾ بالثواب على التوحيد ﴿وَأَن أَسْتَغْفِرُوا﴾ عطف على أن لا تعبدوا يعني استغفروا ﴿رَبِّكُمْ﴾ على ما سلف منكم من المعاصي ﴿رَبِّكُمْ تَوْبُوا﴾ ثم ارجعوا بالطاعة ﴿إِلَيْهِ﴾ وقال الفراء ثم ههنا بمعنى الواو والاستغفار هو التوبة يعني يلزم أحدهما الآخر ﴿يُمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾ أي يعيشكم عيشاً حسناً في أمن وسعة فإن المعاصي جالبة للمصائب والبليات قال: الله تعالى ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ ^(١) وقيل: العيش الحسن الرضاء بالمقسوم والصبر على المقدور ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي حين موت كل واحد منكم فإنها مدة معلومة عند الله تعالى بحيث لا يتغير ﴿وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ﴾ في دينه وعمله ﴿فَضْلَهُ﴾ أي جزاء فضله في الدنيا بكثرة التوفيق وطمأنية القلب والالتذاذ والراحة بذكر الله والبشرى وفي الآخرة بكثرة الثواب ومدارج القرب ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ حذفت إحدى التائين أي تتولوا وتعرضوا عن عبادة الله والتوحيد، ﴿فَإِنِّي﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ يعني يوم القيامة فإن مقداره خمسين ألف سنة بل ما لا نهاية لها ﴿إِلَىٰ اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي رجوع أموركم كلها في الدنيا والآخرة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الإثابة والتعذيب في الدارين ﴿قَدِيرٌ﴾ فهو تقرير لما مر من الآيات.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَأْتُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ أي من الله تعالى، روى البخاري عن ابن عباس قال: «كان ناس يعني من المسلمين يستحيون أن يتخلوا فيفضوا بفروجهم إلى السماء وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء فنزل ذلك فيهم» ^(٢) وكذا أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه من طريق محمد بن عباد بن جعفر عن ابن عباس، وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر من طريق ابن أبي ملكية قال: سمعت ابن عباس يقرأ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَأْتُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ قال: كانوا لا يأتون النساء ولا الغائط إلا وقد تغشوا ثيابهم كراهة أن يفضوا بفروجهم إلى السماء، وقال البغوي قال: عبد الله بن شداد نزلت هذه الآية في بعض المنافقين كان إذا مر برسول

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَأْتُونَ صُدُورَهُمْ﴾ (٤٦٨١).

الله ﷺ ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه كيلا يراه النبي ﷺ، وكذا أخرج ابن جرير وغيره عن عبد الله ابن شداد بن الهاد، وفي لفظ المنافقين نظرُ فإن الآية مكية والنفاق حدث بالمدينة وضمير منه على هذا راجع إلى النبي ﷺ، وقال البغوي قال: ابن عباس نزلت في الأخنس بن شريق وكان رجلاً حلو الكلام حلو المنظر يلقي رسول الله ﷺ بما يحب وينطوي بقلبه على ما يكره ومعنى قوله ﴿يَتُّونَ صُدُورَهُمْ﴾ يغطون صدورهم على الكفر والشحناء وعداوة رسول الله ﷺ، وقال قتادة كانوا يحنون صدورهم لكي لا يسمعوا كتاب الله ولا ذكره، وقال السدي معنى يتنون يعرضون بقلوبهم من قولهم تئنت عناني، وقرأ ابن عباس فيما روى عنه البخاري تثنوني صدورهم بالتاء والياء بالإسناد إلى الصدور من أثنوني يتنوني، وهو بناء للمبالغة، وقيل: كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخي ستره ويحني ظهره ويتغشى بثوبه وهو يقول هل يعلم الله ما في قلبي فنزلت هذه الآية ﴿أَلَا جِئَ يَسْتَفْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي يغطون رءوسهم بثيابهم ﴿يَعْلَمُ﴾ الله ﴿مَا يُسْرُوكَ﴾ في قلوبهم وفيما عداها ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بأفواههم ﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ إِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بأسرار ذات الصدور أو بالقلوب وأحوالها وإذا لم يخف شيء من الله تعالى فيظهر ما يشاء على رسوله وعلى المؤمنين.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ وهي كل حيوان يدب على الأرض ﴿فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ لتكفله إياها تفضلاً ورحمةً، وإنما أتى بلفظ الوجوب تحقيقاً لوصله وحملاً على التوكل فيه، ومن ههنا قيل إنَّ على بمعنى من والإضافة في رزقها للعهد يعني أن الرزق المعهود المعلوم عند الله تعالى للعبد فالله تعالى متكفله إياه يأتي منه دون من غيره، قال: مجاهد هو ما جاء من رزق فمن الله وربما لم يرزقها حتى يموت جوعاً ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ قال: البغوي قال ابن مقسم وروي ذلك عن ابن عباس مستقرها المكان الذي تأوى إليه وتستقر فيه ليلاً ونهاراً ومستودعها الموضع الذي تدفن فيه إذا مات، وقال ابن مسعود المستقر أرحام الأمهات والمستودع أصلاب الآباء، ورواه سعيد بن جبير وعلي بن طلحة وعكرمة عن ابن عباس، وقيل: المستقر الجنة أو النار والمستودع القبر لقوله تعالى في صفة الجنة والنار ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا﴾^(١) و ﴿سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا﴾^(٢) ﴿كُلُّ﴾ أي كل واحد من الدواب وأحوالها وأرزاقها ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي مثبت في اللوح المحفوظ أو في كتب

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٦.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٦٦.

الحفظة، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال: وعرشه على الماء»^(١) رواه مسلم، وعن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم تكون علقة مثل ذلك، ثم تكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكاً بأربع كلمات فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد»^(٢) الحديث متفق عليه، وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ﷻ فرغ إلى عبد من خلقه من خمس من أجله وعمله ومضجعه وأثره ورزقه»^(٣) رواه أحمد، كأنه أريد بالآية كونه عالماً بالمعلومات كلها وبما بعدها بيان كونه قادراً على الممكنات بأسرها تقريراً للتوحيد ولما سبق من الوعد والوعيد ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي خلقهما وما فيهما، أو المراد بالسماوات ما هو في جهة العلو، وبالأرض ما هو في جهة السفلى، وجمع السماوات دون الأرض لاختلاف العلويات بالأصل والذات دون السفليات ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ﴾ قبل خلق السماوات والأرض ﴿عَلَى الْمَاءِ﴾ قال البغوي: وكان ذلك الماء على متن الريح، وقال كعب الأحبار خلق الله ﷻ يا قوته خضراء، ثم نظر إليها بالهبة فصارت ماءً يرتعد، ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها، ثم وضع العرش على الماء، وقال ضمرة: إن الله ﷻ كان عرشه على الماء ثم خلق السماوات والأرض وخلق القلم فكتب به ما هو كائن من خلقه وما هو خالق من خلقه ثم إن ذلك سبح الله ومجده ألف عام قبل أن يخلق شيئاً من خلقه، وروى البخاري عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ «كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر كل شيء»^(٤) الحديث، وقد ذكرنا بعض ما ورد من الأخبار في العرش في تفسير آية الكرسي في سورة البقرة. ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي ليعاملكم معاملة المبتلى المختبر لأحوالكم وهو أعلم بكم حتى يظهر فيكم استحقاق الثواب والعقاب فإن السماوات والأرض وما فيها أسباب ومواد لوجودكم ومعاشكم وما يحتاج إليه أعمالكم يستدعي أن تشكروا ربكم، ودلائل وأمارات تستدلون

(١) أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: حجاج آدم وموسى عليهما السلام.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة (٣٢٠٨) وأخرجه مسلم في كتاب: القدر، باب: كيفية خلق آدمي في بطن أمه (٢٦٤٣).

(٣) أخرجه أحمد في المجلد الخامس/مسند الأنصار/ باقي حديث أبي الدرداء.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ (٧٤١٨).

بها على صانعكم وتستنبطون منها معرفة ربكم، فقوله ليلوكم متعلق بخلق وفيه إشارة إلى أن السماوات والأرض وما بينهما لم تخلق لأنفسها بل توطئة وتمهيداً لخلق المكلفين بل لخلق المؤمنين بل لخلق أحسنهم عملاً وهو محمد ﷺ ومن يشبهه والمراد بالعمل ما يعم عمل الجوارح والقلب، أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم في التاريخ بسند واه عن النبي ﷺ قال: يعني في تفسير هذه الآية «أيكم أحسن عقلاً وأورع من محارم الله وأسرع في طاعته» فإن أحسن الأعمال أعمال القلوب وأحسنها حب الله والاشتغال بذكره والاستغراق فيه فالمقصود من خلق السماوات والأرض وجود أهل الله وفيه تخفيض على الترقى دائماً في مراتب العلم والعمل كما يدل عليه صيغة التفضيل ﴿وَلَيْنَ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مُبْعَثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا السِّبْعُ أَوْ الْقَوْلُ بِهِ أَوْ الْقُرْآنَ الْمَتَضَمِّنَ لَذِكْرِهِ ﴿إِلَّا سِحْرًا مُبِينًا﴾ أي كالسحر في الخديعة والبطلان، وقرأ حمزة والكسائي إلا ساحر على أن الإشارة إلى القائل والساحر كاذب مبطل.

أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: لما نزلت ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾^(١) قال: أناس إن الساعة قد اقتربت فتناهى القوم قليلاً ثم عادوا إلى أعمالهم السوء فأنزل الله ﴿أَنْتَ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلْهُ﴾^(٢) فقال: أناس هذا أمر الله قد أتى فتناهى القوم ثم عادوا إلى مكرهم السوء فأنزل الله ﴿وَلَيْنَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ﴾ الآية، وأخرج ابن جرير عن ابن جريج مثله يعني لئن أخرنا عنهم العذاب الموعود ﴿إِلَىٰ أُمَّةٍ﴾ أي إلى حين ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ ساعاته، ذكر في القاموس في معاني أمة الحين، وقال البغوي أي إلى أجل معدود، وأصل الأمة الجماعة فكأنه قال: إلى انقراض أمة ومجيء أخرى، وقال البيضاوي إلى جماعة من الأوقات معدودة أي قليلة ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ أي الكفار استهزاء ﴿مَا يَحْسِبُهُ﴾ أي ما يمنعه من الوقوع ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ العذاب في علم الله كيوم بدر ﴿لَيْسَ﴾ ذلك العذاب ﴿مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ أي مدفوعاً عنهم ويوم منصوب بمصروفاً يعني ليس العذاب مصروفاً عنهم يوم يأتيهم ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي أحاط بهم وضع الماضي موضع المستقبل تحقيقاً ومبالغة في التهديد ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي العذاب الذي كانوا يستعجلونه ويقولون استهزاء ما يحسبه فوضع يستهزون موضع يستعجلون.

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١.

(٢) سورة النحل، الآية: ١.

﴿وَلَيْنِ أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ ۝٩﴾
 وَلَيْنِ أَدَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠﴾ إِلَّا
 الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾ فَلَمَّا تَرَاكَ تَارِكًا بَعْضَ مَا
 يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا
 أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ
 مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مِنِّي مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝١٣﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ
 فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۝١٤﴾

﴿وَلَيْنِ أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ يعني الجنس ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ أي من نعمة صحة وأمن وجدة واللام في لئن لتوطئة القسم ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا﴾ أي سلبنا تلك النعمة ﴿مِنْهُ﴾ وجواب القسم وجزاء الشرط ﴿إِنَّهُ لَيَكْفُرُ﴾ أي شديد اليأس من أن يعود إليه مثل تلك النعمة المسلوقة قاطع رجاءه من سعة فضل الله لقله صبره وعدم ثقته به وعدم تسليم لقضائه ﴿كَفُورٌ﴾ عظيم الكفر إن لما سلف له من نعمة الله نشاء له ولما معه من نعمائه لأن الإنسان لا يخلو من نعماء الله تعالى من الوجود وتوابعه ﴿وَلَيْنِ أَدَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضِرَاءٍ﴾ كصحة بعد سقم وغنى بعد عدم مسته صفة لضراء ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ جواب قسم وجزاء شرط ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أي المصائب التي ساءتني يعني لا ينسب ذهاب السيئات إلى الله تعالى ولا يشكره بل ينسبه إلى عادة الدهر ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ﴾ أشرُ بطر بالنعمة مغتربها والفرح لذة في القلب بنيل المشتهى ﴿فَخُورٌ﴾ على الناس يزعم نفسه مستحقاً لذلك النعمة متعالياً على الناس يشغله الفرح والفخر عن الشكر ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ استثناء من الإنسان يعني إلا المؤمنين فإنهم ليسوا بيؤس ولا كفور عند سلب النعمة بل يرجون فضل الله ويشكرون نعماءه السابقة والباقية ولا فرحين بطراً وأشراً غير مفتخرين على الناس عند إنعامه بل يشكرون الله تعالى، وضع الله سبحانه ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ موضع المؤمنين إشعار بأنهم يصبرون في الضراء ويعملون شكراً في السراء، عن صهيب قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»^(١) رواه مسلم، وقال الفراء هذه استثناء منقطع معناه لكن الذين صبروا وعملوا الصالحات فإنهم إن نالهم شدة صبروا

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزهد والرفائق، باب: المؤمن أمره كله خير (٢٩٩٩).

وإن نالوا نعمة شكروا، وعلى قول الفراء اللام في الإنسان للعهد يعني إذا أذقنا الإنسان الكافر الذي مر ذكره منا رحمة إلخ حتى ينقطع الاستثناء ﴿أُولَئِكَ﴾ أي الصابرون الشاكرون ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ يعني رضوان الله وجنته، عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد»^(١) رواه مسلم.

﴿فَلَعَلَّكَ﴾ يا محمد ﴿تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ يعني ما فيه سب آلهتهم وذلك حين قالوا: أنت بقرآن غير هذا ليس فيه سب آلهتنا كذا قال: البغوي، قال: البيضاوي: ولا يلزم من توقع الشيء لوجود ما يدعو إليه وقوعه لجواز أن يكون ما يصرف عنه وهو عصمة الرسول عن الخيانة في الوحي والتقية في التبليغ ههنا، قلت: وبهذا يندفع ما قيل أن لعل من الله واجبة الوقوع ﴿وَضَائِقُ بِهِ صَدْرُكَ﴾ الضمير في به مبهم تفسيره ﴿أَن يَقُولُوا لَوْلَا﴾ هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ على محمد ﴿كَزُرٌ﴾ ينفقه في الاستتباع كالمملوك ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ يصدقه قاله عبد الله بن أمية المخزومي، يعني يضيق صدرك وتغتم بقولهم هذا، وجاز أن يكون المعنى فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ أي تترك تبليغه إياهم لتهاونهم به وَضَائِقُ بِهِ أي يضيق بذلك الترك صَدْرُكَ فإن ترك ما أمر الله به يوجب ضيق الصدر كما أن إتيان ما أمر الله به يوجب انشراح الصدر، أن يقولوا أي تترك التبليغ مخافة ردهم واستهزائهم بأن يقولوا وضاق صدرك لأجل أن يقولوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَزُرٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إن كان رسولا فقال: الله تعالى ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ يعني ليس عليك إلا إنذار بما يوحى إليك ولا عليك شيء أن ردوا أو اقترحوا وقالوا: لِقَاءَنَا بِشْرَانٍ غَيْرِ هَذَا فَمَا بَالُكَ تَتْرِكُ بقولهم أو بمخافة ردهم أو يضيق صدرك بقولهم ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ يحفظ ما يقولون فيجازيهم عليه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أم منقطعة والاستفهام فيه للإنكار يعني بل يقولون ﴿أَفَتَرْتَبُتُّ﴾ أي اختلقه من عند نفسه الضمير المنصوب عائد إلى ما يوحى ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ﴾ فإن قيل: قد قال: في سورة يونس: ﴿فَأَتُوا بِسُوْرٍ مِّثْلِهِ﴾^(٢) وقد عجزوا عنه فكيف قال: ﴿فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ﴾ فهو كرجل يقول لآخر أعطني درهماً فيعجز فيقول أعطني

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥).

(٢) سورة يونس، الآية: ٣٨.

عشرة؟ أجيب بأن سورة هود نزلت أولاً فلما عجزوا عن إتيان العشرة أنزل بعد ذلك فأتوا بسورة، وأنكر المفرد هذا الجواب وقال: بل نزلت سورة يونس أولاً وأجاب بأن معنى قوله في سورة يونس ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ في الإخبار عن الغيب والأحكام والوعد والوعيد على طبق الكتب المنزلة المتقدمة فعجزوا عن ذلك فقال: لهم في سورة هود ﴿فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ﴾ في مجرد البلاغة وحسن النظم، قلت: ثم قال: في سورة البقرة ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾^(١) وتوحيد المثل باعتبار كل واحد ﴿مُفْتَرِيَّتٍ﴾ مختلقات من عند أنفسكم إن صح أني اختلقته فإنكم عرب فصحاء مثلي تقدرون على ما أقدر عليه بل أنتم أقدر لتعلمكم وكثرة ممارستكم ﴿وَأَدْعُوا مَن اسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ ليعينكم على إتيان سور مثله ﴿إِن كُنْتُمْ﴾ أيها الكافرون ﴿صَادِقِينَ﴾ في قولكم إنه مفترى وهذا شرط مستغن عن الجزاء بما مضى ﴿قَالَتْ يَسْتَحِيبُوا لَكُمْ﴾ بإتيان ما دعوتهم إليه وجمع الضمير في لكم ما لتعظيم الرسول، أو لأن المؤمنين أيضاً كانوا يتحدونهم، وكان أمر الرسول متناولاً لهم من حيث أنه يجب اتباعه عليهم في كل أمر إلا ما خصه الدليل، أو للتنبيه على أن التحدي مما يوجب قوة يقينهم ورسوخ إيمانهم فلا يغفلون عنه ولذلك رتب عليه قوله ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ أي متلبساً بما لا يعلمه إلا الله ولا يقدر عليه سواه ﴿وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لأنه العالم القادر بما لا يعلم ولا يقدر عليه غيره ولظهور عجز آلهتهم ولتنصيب هذا الكلام الثابت صدقة بإعجازه عليه، وفيه تهديد وإقناط من أن يجيرهم من بأس الله آلهتهم ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ﴾ ثابتون على الإسلام راسخون مخلصون فيه إذا تحقق عندكم إعجازه مطلقاً ويجوز أن يكون الكل خطاباً للمشركين وللضمير المرفوع في لم يستجيبوا لمن استطعتم والمعنى، فإن لم يستجب لكم أيها الكفار من استطعتم دعوتهم إلى المعاونة على المعارضة لعجزهم وقد عرفتم من أنفسكم القصور عن المعارضة فاعلموا أنه نظم لا يعلمه إلا الله وأنه منزل من عنده وأن ما دعاكم إليه من التوحيد حق، فهل أنتم داخلون في الإسلام بعد قيام الحجة القاطعة وفي هذا الاستفهام إيجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبيه على قيام الموجب وزوال العذر.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾
 ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيْنَتٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَىٰ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مَرْيَبٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ يُؤْمِنُونَ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴿٢٤﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ﴾ بعمله وإحسانه ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي طول البقاء في الدار الدنيا والصحة ﴿وَزِينَتَهَا﴾ من الأموال والأولاد والأزواج والخدم والحشم ﴿نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ﴾ أي نوصل إليهم جزاء أعمالهم الحسنة وافيًا ﴿فِيهَا﴾ أي في الدنيا ﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ في الدنيا ﴿لَا يُخْسُونَ﴾ أي لا ينقصون شيئاً من أجورهم ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ شيء من الجزاء ﴿إِلَّا النَّارُ﴾ لأنهم استوفوا جزاء أعمالهم الحسنة في الدنيا وبقيت لهم أوزار الأعمال السيئة ﴿وَحَاطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ من الحسنات يعني لم يبق لهم ثواب في الآخرة، أو لم يكن لأنهم لم يريدوا بها وجه الله تعالى حتى يكون أجره على الله، والظرف إما متعلق بحبط والضمير يعود إلى الآخرة، وإما بصنعوا والضمير يعود إلى الدنيا ﴿وَنَظِلُّ﴾ في نفسه ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الحسنات في الدنيا لأنه لم يعمل على ما ينبغي وكان كل واحدة من الجملتين علة لما قبلها، والظاهر أن هذه الآية في حق الكفار، روى البخاري عن عمر بن الخطاب في حديث طويل أنه قال: «رفعت بصري في بيته ﷺ فوالله ما رأيت فيه شيئاً يرد البصر غير أهبة ثلاثة، فقلت: يا رسول الله أدع الله فليوسع على أمتك فإن فارس والروم قد وسع عليهم وأعطوا من الدنيا وهم لا يعبدون الله، فجلس النبي ﷺ وكان متكئاً فقال: «أو في هذا أنت يا ابن الخطاب؟ إن أولئك قوم عجلوا طيباتهم في الحياة الدنيا»^(١) وأما المؤمن فيريد الدنيا والآخرة، وإرادته الآخرة غالبية فيجازى بحسناته

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المظالم، باب: الغرفة والعلية المشرفة في السطوح وغيرها (٢٤٦٨).

في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى عليها في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يعطى بها خيراً»^(١) رواه مسلم وأحمد، قلت: وقوله تعالى ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ﴾^(٢) قرينة دلت على أن الآية في حق الكفار للإجماع على أن مآل المؤمن إلى الجنة البتة، وقيل هذه الآية في حق أهل الرياء. عن أبي سعيد بن فضالة عن رسول الله ﷺ قال: «إذا جمع الله الناس يوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى مناد من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك»^(٣) رواه أحمد، وعن أنس أن النبي ﷺ قال: «من كانت نيته طلب الآخرة جعل الله غناه في قلبه وجمع الله شمله وأتته الدنيا وهي راغمة ومن كانت نيته طلب الدنيا جعل الله الفقر بين عينيه وشنت عليه أمره ولا يأتيه منها إلا ما كتب له»^(٤) رواه الترمذي ورواه أحمد والدرامي عن أبان عن زيد بن ثابت، وقوله تعالى ﴿نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ لا ينافي قوله ﷺ «لا يأتيه منها إلا ما كتب له» لأن إيفاء أعمالهم في الدنيا بحيث لا يبخسون مكتوب لهم ويأتيهم البتة ولا يأتيه ما يزيد عليه وإن كان طالب الدنيا يطلب ما لا نهاية له فإنه لو كان لابن آدم وأديان من ذهب لا بتغى ثالثاً، قلت: وإن كانت هذه الآية في أهل الرياء فمعنى قوله تعالى ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ﴾ أنه ليس لهم جزاء ما يراءون فيه إلا النار.

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ برهان ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ يدل على الحق والصواب فيختار عبادة الله على عبادة الأوثان والدار الآخرة الباقية ونعيمها على الدار الدنيا الفانية ولذاتها، الموصول مبتدأ حذف خبره والفاء للتعقيب والهمزة لإنكار الحكم بمشابهة من هذا شأنه بهؤلاء المقصرين همهم وأفكارهم على الدنيا بعد العلم بأن المقصرين ليس لهم في الآخرة إلا النكار وهو الذي أغنى عن ذكر الخبر، والتقدير أفمن كان على بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ، كمن كان يريد الحياة الدنيا، والمراد بالموصول المؤمنون المخلصون ومن قال: المراد به النبي ﷺ

(١) أخرجه مسلم في كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: جزاء المؤمن بخسناته في الدنيا والآخرة وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا (٢٨٠٨).

(٢) سورة هود، الآية: ١٦.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الكهف (٣١٥٤) وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الزهد، باب: الرياء والسمعة (٤٢٠٣).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب: صفة القيامة والرفائق والورع (٢٤٦٥).

عنى به الرسول الله ﷺ وأتباعه للعموم وجمعية اسم الإشارة إليه في قوله ﴿أَزَلَّتْكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أخرج أبو الشيخ عن أبي العالية وإبراهيم النخعي في قوله ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ قال: ذلك محمد ﷺ وكذا أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة عن علي بن أبي طالب، والمراد بالبينة القرآن ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ أي يقرأ ذلك البرهان ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي من الله تعالى ﴿وَمِن قَبْلِهِ﴾ أي من قبل نزوله ﴿كِتَابٌ مُّوسَىٰ﴾ يعني التوراة شاهد من الله يصدق القرآن ﴿إِمَامًا﴾ كتاباً مؤمماً به في الدين ﴿وَرَحْمَةً﴾ على المنزل عليهم وهما حالان من كتاب موسى، والمراد بالشاهد جبرئيل ؑ أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ قال: جبرئيل، فهو شاهد من الله يتلو من كتاب الله الذي أنزل على محمد ﷺ، ومن قبله تلا التوراة على موسى كما تلا القرآن على محمد ﷺ، وكذا ذكر البغوي قول ابن عباس وعلقمة وإبراهيم ومجاهد وعكرمة والضحاك وأكثر أهل التفسير أنه جبرئيل ؑ، وقال الحسن وقتادة هو لسان محمد ﷺ يعني يقرأ ذلك البرهان الذي عليه المؤمنون شاهد من الله وهو محمد ﷺ، ومن قبله كتاب موسى شاهد له، أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وأبو الشيخ عن محمد بن علي بن أبي طالب قال: قلت لأبي إن الناس يزعمون في قول الله تعالى ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أنك أنت الشاهد، فقال: وددت أنني أنا هو ولكنه لسان محمد ﷺ وأخرجه أبو الشيخ من طريق أبي نجيع عن مجاهد، وقيل: يتلو من التلو بمعنى التبعية والشاهد ملك يحفظه والضمير في يتلوه أما لمن أو للبينة باعتبار المعنى، ومن قبله كتاب موسى جملة مبتدئة، أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ قال: هو محمد ﷺ والشاهد منه قال: ملك يحفظه، وقيل الشاهد هو علي بن أبي طالب. قال: البغوي قال: علي ما من رجل من قريش إلا وقد نزلت فيه آية من القرآن فقال: له رجل وأنت أي شيء نزل فيك؟ قال: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾. فإن قيل: فما وجه تسمية علي بالشاهد؟ قلت: لعل وجه ذلك أنه أول من أسلم من الناس فهو أول من شهد بصدق النبي ﷺ، والأوجه عندي أن يقال أن علياً كان قطب كمالات الولاية وسائر الأولياء حتى الصحابة رضوان الله عليهم أتباع له في مقام الولاية، وأفضلية الخلفاء الثلاثة بوجه آخر كذا حقق المجدد في مكتوب من أواخر مكتوباته فكان معنى الآية أفمن كان على بينة من ربه يعني علي حجة واضحة وبرهان قاطع وهو محمد ﷺ، فإنه كان على حجة واضحة من ربه وبرهان قاطع يفيد العلم بالقطع أنه رسول الله، وذلك معجزاته أفضلها

القرآن وعلومه المستندة إلى الوحي، ويتلوه أي يتبعه شاهد من الله على صدقة وهو عليٌّ ومن شاكله من الأولياء، فإن كرامات الأولياء معجزات للنبي ﷺ وعلومهم المستندة إلى الإلهام والكشف ظلال لعلوم النبي ﷺ المستندة إلى الوحي فتلك الكرامات والعلوم شاهدة على صدق النبي ﷺ فقله ﷺ: «أنا دار الحكمة وعليٌّ بابها»^(١) رواه الترمذي بسند صحيح عن علي، «أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها فمن أراد العلم فليأت الباب» رواه ابن عدي في الكامل والعقيلي في الضعفاء والطبراني والحاكم عن ابن عباس وابن عدي والحاكم عن جابر، إشارة إلى علوم الأولياء دون علوم الفقهاء فإن أخذ علوم الفقهاء لم ينحصر على علي بل قال: فيه رسول الله ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»^(٢) وقيل: شاهد منه هو الإنجيل وقيل كتاب موسى التوراة شاهد له، وقيل البينة البرهان العقلي والشاهد القرآن، قال: الحسين بن الفضل الشاهد هو القرآن ونظمه وإعجازه، والمعنى أفمن كان قائماً على وفق البرهان العقلي ويتبع ذلك البرهان شاهد من الله يعني القرآن يشهد بصحة البرهان ومن قبل القرآن كتاب موسى يعني التوراة أيضاً يشهد للبرهان والمراد بالموصول المسلم المخلص ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى من كان على بينة بناءً على أن المراد به جماعة المسلمين وجاز أن يكون إشارة إلى شاهد من حيث المعنى إن كان المراد به عليٌّ فمن شاكله من الأولياء ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ حقيقة الإيمان ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ أي محمد ﷺ أو بالقرآن ﴿مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ من أهل الملل كلها ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ولا يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»^(٣) رواه مسلم ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ في شك ﴿مِنْهُ﴾ أي من الموعد أو من القرآن ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لقلّة نظرهم واختلال فكرهم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ يعني لا أحد أظلم ﴿مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن زعم أن له ولداً أو شريكاً، أو أسند إليه ما لم ينزله ونفي عنه ما أنزله، وأسند إليه تحريم ما لم يحرم وتحليل ما حرم ﴿أُولَئِكَ﴾ المفترون ﴿يُقْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ يوم القيامة فيسئلهم عن أعمالهم

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: المناقب (٣٧٣٢).

(٢) رواه البيهقي وله شاهد مسند عند الديلمي.

انظر كشف الخفاء (٣٨١).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته (١٥٣).

﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ يعني الملائكة الذين كانوا يحفظون أعمالهم كذا أخرج أبو الشيخ عن مجاهد، وعن ابن عباس أنهم الأنبياء والرسل وهو قول الضحاك ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ (١) وأخرج ابن المبارك عن سعيد بن المسيب قال: ليس من يوم إلا وتعرض على النبي ﷺ أمته غدوة وعشية فيعرفهم بسيماهم وأعمالهم فلذلك يشهد عليهم، وقال قتادة الخلائق كلهم، روى الشيخان في الصحيحين عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ: «إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستتره فيقول أتعرف ذنب كذا؟ فيقول نعم أي رب حتى قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم فيعطى كتاب حسناته وأما الكفار والمنافقون فينادي بهم على رؤوس الخلائق» ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (٢) فيه تهويل عظيم مما يحق بهم حينئذ بظلمهم على الله بكذبهم عليه، قلت وليست الأشهاد منحصرة في مَنْ ذكر بل من الأشهاد أعضاء المكلف قال: الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلَهُمْ﴾ (٣) الآية وقال الله تعالى ﴿حَمْرٌ﴾ (٤)، وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ﴾ (٥) الآية وستذكر، وفي حديث أنس عند مسلم: «يقول الله كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهيداً فيختم على فيه ويقال لأركانہ انطقي» (٦) الحديث، وسنذكر أحاديث الباب في تفسير الآيات المذكورة إن شاء الله تعالى، ومن الأشهاد الأمكنة والأزمنة وغير ذلك وقد ذكرنا بعض ما ورد فيها في سورة العاديات في تفسير قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَدْعُ نُحُودُهُمْ أَخْبَارَهَا﴾ (٧) قوله ﷺ: «أخبارها أن تشهد يعني الأرض على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها» (٧) وروى البخاري عن أبي سعيد الخدري أنه قال: «لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس إلا شهد له يوم القيامة» (٨) ورواه ابن خزيمة بلفظ «لا

(١) سورة النساء، الآية: ٤١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المظالم، باب: قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (٢٤٤١) وأخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٢٧٦٨).

(٣) سورة يس، الآية: ٦٥.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٢١.

(٥) سورة النور، الآية: ٢٤.

(٦) أخرجه مسلم في كتاب: الزهد والرقائق (٢٩٦٩).

(٧) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة إذا زلزلت الأرض (٣٣٥٣).

(٨) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: رفع الصوت بالنداء (٦٠٩).

يسمع صوته حجر ولا مدر ولا شجر ولا جن ولا إنس إلا شهد له» وفي حديث أبي هريرة مرفوعاً عند أبي داود وابن خزيمة «للمؤذن يغفر له مدى صوته وشهد له كل رطب ويابس» وأخرج ابن المبارك عن عمر من سجد عند موضع عند شجر أو حجر شهد له يوم القيامة، وعن عطاء الخراساني نحوه، وأخرج أبو نعيم عن معقل بن يسار عن النبي ﷺ قال: «ليس من يوم يأتي على ابن آدم إلا ينادي فيه يا ابن آدم أنا خلق جديد وأنا فيما تعمل عليك غداً شهيد، فاعمل فيَّ خيراً شهد لك به غداً، فإني لو قد مضيتُ لم ترني أبداً، ويقول الليل مثل ذلك» وأخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن هذا المال خضر حلو ونعم صاحب لمسلم وهو لمن أعطى منه الأسير واليتيم وابن السبيل شهيد، وإنه من يأخذ بغير حق كالذي يأكل ولا يشبع فيكون عليه شهيداً يوم القيامة»^(١) وأخرج أبو نعيم عن طاووس قال: «يُجاء يوم القيامة بالمال وصاحبه فيتحاجان» الحديث.

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي يمنعون الناس عن دينه ﴿وَيَبْغُونَ عِوَجًا﴾ أي يصفونها بالإنصراف عن الحق والصواب، أو يبغيون أهلها أن يعوجوا بالردة ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ يعني والحال أنهم كافرون بالآخرة وتكرير كلمة هم لتأكيد كفرهم واختصاصهم ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ قال: ابن عباس سابقين، وقال قتادة هاربين، وقال مقاتل فائتين، والمعنى واحد يعني ما كانوا يعجزون الله في الدنيا أن يعاقبهم ﴿وَمَا كَانَ لِمَنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني أنصاراً يحفظهم من عذاب الله ولكن الله أخر عذابهم إلى يوم القيامة ليكون أشدو أدوم ﴿يُضَعَّفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ استئناف، قرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب يَضَعَّفُ بالتشديد من التفعيل والباقون من المفاعلة، قيل تضعيف العذاب لإضلالهم الغير واقتداء الأتباع بهم ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ يعني استماع الحق فإن الله تعالى لم يخلق فيهم استعداد سماع للحق فهم صم لا يسمعون. ﴿وَمَا كَانُوا يَبْصُرُونَ﴾ الهدى لتعاميهم عن آيات الله لعدم خلق الله تعالى البصيرة في قلوبهم ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ حيث اشتروا عبادة الحجارة بعبادة الله تعالى واشتروا النار بالجنة ﴿وَضَلَّ﴾ أي فات ﴿عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أن الأصنام يشفع لهم عند الله ﴿لَا جَرَمَ﴾ فيه أقوال أحدها أن لا، لكلام سابق يعني ليس الأمر كما زعموا افتراءً، وجرم كلام مبتدأ معناه كَسَبَ وفاعله مضمر وقوله تعالى ﴿أَنْتُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِرُونَ﴾ في محل نصب على المفعولية يعني

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا (١٠٥٢).

كسب الحكم بخسرانهم، وقيل: معنى جرم وجب وحق فعلى هذا أنهم في الآخرة في محل الرفع على الفاعلية، ثانيها أن لآ جَرَمَ كلمتان ركبتا فصار معناهما حقاً وأنهم في الآخرة في محل الرفع على أنه فاعل يعني حق حقاً أنهم خاسرون، ثالثها أن معناه لا محالة، وفي القاموس لا جرم ولا إذا جرم ولا أن جرم ولا أن جرم ولا جَرَمَ كَجَرَمَ بالضم أي لا بد أو حقاً أو لا محالة، وهذا أصله ثم تحول إلى معنى القسم فلذلك يجاب عنه باللام يقال لا جرم لأتيتك، وكونهم من الأخسرين لأن خسران غيرهم بالكفر أو المعاصي وخسرانهم بالكفر وصد غيرهم عن الإيمان ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ قال: ابن عباس خافوا، وقال قتادة أنابوا، وقال مجاهد اطمأنوا، وفي القاموس أخبت خشع وتواضع والخبيث الشيء الحقيقير ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمون ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ المؤمنين والكافرين ﴿كَأَلْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ﴾ فإنه مثل الكافر فإن الكفار لا يستطيعون السمع يعني سماع الحق سماع قبول وما كانوا يبصرون الهدى ﴿وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ وذلك مثل المؤمن: ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾^(١) ويبصرون بنور الله في قلوبهم، فالكافر مشبه بالجامع بين العمى والصمم والمؤمن بالجامع بين ضديهما، والعاطف لعطف الصفة على الصفة ولذلك قال: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ ولم يقل هل يسترون كذا قال: الفراء ﴿مَثَلًا﴾ أي تمثيلاً أو صفة أو حالاً ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(٢) أي تتعظون بضرب الأمثال والتأمل فيها، فيه أدغمت التاء في الذال.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْآسْرِ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ أَنبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنَّا بَادِي الرَّاْي وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَنظُرُكُمْ كَذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ بِنَقْوَرِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْبَغٍ مِّن رَّبِّي وَءَالَسَنِي رَحْمَةً مِّن عِنْدِهِ فَعَمِيَّتْ عَلَيْكُمْ أَنْزَلِمُكُمْ وَمَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَبِنَقْوَرِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُّلْكُوا رَبِّهِمْ وَلِكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَبِنَقْوَرِ مَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَنْبَغُ قَدْ

(١) سورة الزمر، الآية: ١٨.

جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُمْ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بفتح الهمزة أي بآني والمعنى أرسلناه متلبساً بهذا الكلام وهو قوله إِنِّي ﴿لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ بالكسر فلما اتصل به الجار فتح كما فتح كَأَنِّي والمعنى على الكسر، والباقون بالكسر أي فقال: إِنِّي لأن في الإرسال معنى القول ﴿مُتَّبِعٌ﴾ أَيْبُنُ لَكُمْ موجبات العذاب والشواب ﴿أَنْ لَا تَقْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ بدل من إِنِّي لَكُمْ أو مفعول مُبَيَّنٌ ويجوز أن يكون مفسرة متعلقة بأَرْسَلْنَا أو بِنَذِيرِ ﴿إِنِّي﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ﴾ أن تشركوا به شيئاً، وألِيمٌ بمعنى مؤلم في الحقيقة صفة للمعذب يوصف به العذاب وزمانه على طريقة جَدَّ جِدُّهُ ونهارك صائم للمبالغة ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ﴾ يعني الأشراف والرؤساء لأنهم يملؤون القلوب هيبَةً والمجالس أبهة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَىٰ﴾ يا نوح ﴿إِلَّا بَشَرًا﴾ آدمي ﴿مِثْلَنَا﴾ لا مزية لك علينا حتى تكون نبياً واجب الطاعة، كأنهم أرادوا أن يكون ملكاً ﴿وَمَا تَرَىٰكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يَنْفِرُوا﴾ أي سفلتنا والردل الدون من كل شيء وجمعه أرذل ثم جمع على أرذال مثل كلب وأكلب وأكالب لأنه بالغلبة صار مثل الاسم قال: عكرمة يعني الحاكة والأساكفة ﴿بَادِي الرَّأْيِ﴾ الرأي النظر بالعين والقلب وأيضاً الاعتقاد كذا في القاموس، وبادي الرأي معناه ظاهر النظر من غير تعمق من البدو، أو أول الرأي من البدء، والياء مبدلة من الهمزة لانكسار ما قبلها، وقرأ أبو حمزة مفتوحة بعد الدال والباقون بالياء، وانتصابه بالظرف على حذف المضاف أي وقت حدوث بادي الرأي، والعامل فيه اتَّبَعَكَ وإنما استرذلوه لذلك أو لفقرهم فإنهم لما لم يعلموا إلا ظاهراً من الحياة الدنيا كان ذا حظ بها أشرف عندهم والمحروم فيها أرذل ﴿وَمَا تَرَىٰ لَكُمْ﴾ يا نوح مع من تبعك ﴿عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ في حال أو غير ذلك يوهلكم للنبوة واستحقاق المتابعة ﴿بَلْ نُنَظِّقُكُمْ كَدِّيبَاتٍ﴾ أنت في دعوى النبوة واتباعك في دعوى العلم بصدقك فغلب المخاطبين على الغائبين ﴿قَالَ﴾ نوح ﴿بِقَوْلِهِمْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ يَتَقَرُّوْنَ مِنْ رَبِّي﴾ حجة واضحة شاهدة بصحة دعوى ﴿وَأَلَّيْنِي رَحْمَةً﴾ أي بينة أو هدى ونبوة ﴿مِنْ عِنْدِهِ فَعَبَّيْتُمْ عَلَيْكُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص بضم العين وتشديد الميم من التفعيل بمعنى

أُخْفِيَتْ وَالْباقون بفتح العين وتخفيف الميم من المجرد بمعنى خَفِيَتْ عَلَيْكُمْ فلم تهتدوا إليها بالحجة، يقال بصيرة ومبصرة إذا يهتدي بها، ويقال عمياء إذا لا يهتدي بها، وتوحيد الضمير لأن البيئته في نفسها هي الرحمة، أو لأن خفاءها يوجب خفاء النبوة أو على تقدير فعميت به النبوة وحذفها للاختصار أو لأنه لكل واحد منهما ﴿أَنْزَلْنَاهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أي نلزمكم على الاهتداء بها أي بالبيئته أو الرحمة ونجبركم على قبولها ﴿وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾ لا تريدونها قال: فتادة لو قدر الأنبياء أن يلزموا قومهم الإيمان لألزموا ولكن لم يقدرُوا.

﴿وَيَنْقُورِ لَآ أَتْلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على التبليغ فهو وإن لم يذكر لكنه معلوم مما ذكر ﴿مَا لَآ﴾ أي جعلنا يثقل عليكم إن أدبتم أو علي إن لم تؤدوا ﴿إِنْ أَجْرِي﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وحفص بفتح الياء والباقون بإسكانها يعني ليس ثوابي ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ بناء على وعده تفضلاً ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ جواب لهم حين سألوا طردهم ليؤمنوا به أنفة من المجالسة معهم ﴿إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ﴾ فيخاصمون طردهم عنده، أو أنهم يلاقونه ويفوزون بقربه، فكيف أطرد أولياء الله ومقربيه ﴿وَلِكَيْفَ﴾ قرأ نافع والبخاري وأبو عمر بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا جَاهِلُونَ﴾ بلقائهم ربهم أو بمراتب قربهم من الله أو في التماس طردهم أو تتسفهون عليهم باز، تدعوهم أراذل أو تجهلون عاقبة أمركم ﴿وَيَنْقُورِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾ يدفع انتقامه مني ﴿إِنْ طَرَدْتُمْنِي﴾ وهم بتلك الصفة والمثابة ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ بإدغام التاء في الذال يعني أفلا تتعظون وتعقلون لتعرفوا أن التماس طردهم ليس بصواب ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أي خزائن رزقه وأمواله يعني لست مدعياً فضلي عليكم بالمال حتى تنكروني وتقولون وما زرى لكم علينا من فضلٍ ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾ عطف على عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَقُولُ أَنَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ حتى تكذبوني استبعاداً، أو حتى أعلم أن هؤلاء الذين اتبعوني بادي الرأي من غير بصيرة وعقد قلب، وعلى الثاني يجوز عطفه على أقول ﴿وَلَا أَقُولُ﴾ لكم ﴿إِنِّي مَلَكٌ﴾ حتى تنكروني وتقولون ما أنت إلا بشر مثلنا ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ أي تحتقره وتستصغره أعينكم يعني الذين قلتهم فيهم أراذلنا لأجل فقرهم، افتعال من ذرا عليه إذ عابه، قلبت تاؤه دالاً لتجانس الراء في الجهر، وإسناده إلى العين للمبالغة والتنبيه على أنهم استرذلوهم بادي الرأي من غير رؤية وبما عاينوا من رثاثة حالهم وقلة ما لهم دون تأمل في معانيهم وكمالاتهم وخصالهم لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا بَلْ مَا أَعْطَاهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْإِيمَانِ وَالْهُدَايَةِ، وفي الآخرة من الجنة والدرجات خير مما أعطاكم الله في الدنيا من المال ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ﴾ مني ومنكم ﴿بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من محبة الله ومحاسن الأخلاق والعقائد ﴿إِنِّي﴾ قرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء

والباقون بإسكانها ﴿إِذَا﴾ أي إذا طردتهم وقلت فيهم لن يؤتيتهم الله خيراً ﴿لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾
﴿قَالُوا يَنْتُوخُ قَدْ جَدَلْتَنَا﴾ خاصمتنا ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا﴾ فأطلتته إذا أتيت بأنواعه ﴿فَأَيْنَا يَمَا
تَعْدُنَا﴾ من العذاب ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعوى النبوة والوعيد على ترك الإيمان
فإن مناظرتك لا تؤثر فينا ﴿قَالَ إِنَّمَا يَايُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ ليس ذلك في وسعي لا إتيانه ولا
تعجيله ﴿إِنْ شَاءَ﴾ عاجلاً أو آجلاً ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ الله يدفع العذاب أو الهرب منه إذا
جاء عذابه ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي﴾ قرأ نافع بفتح الياء وكذا أبو عمرو والباقون بإسكانها ﴿إِنْ
أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾ شرط، والجملة دليل جواب لقوله ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾
وتقدير الكلام إن كان الله يريد أن يغويكم فأردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي فيه
دليل على أن إرادة الله يصح تعلقها بالإغواء وإن خلاف مراده تعالى محال وقيل: معنى
أن يغويكم أن يهلككم من غوى الفصيل إذ هلك ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ خالقكم وللتصرف فيكم
﴿وَالِيهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ يعني بل يقولون ﴿أَفَرَأَيْتُمْ﴾ قال: ابن
عباس يعني يقولون افتري نوح وقال مقاتل معناه تقولون افتري محمد ﷺ ﴿قُلْ﴾ يا نوح أو
يا محمد ﴿إِنْ أَفَرَأَيْتُمْ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي﴾ أي وبال إجرامي والإجرام كسب الذنب ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ
مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ من إجرامكم في إسناد الافتراء إليّ.

قال البغوي: روى الضحاك عن ابن عباس أن قوم نوح كانوا يضربون نوحاً ﷺ
حتى يسقط فيلقونه في ويبقونه في بيت يزعمون أنه قد مات فيخرج في اليوم الثاني
ويدعوهم إلى الله، وروي أن شيخاً منهم كان يتوكأ على عصا ومعه ابنه فقال: يا بني لا
يغرنك هذا الشيخ المجنون فقال: يا أبت أمكنني من العصا فأخذ العصا من أبيه حتى شج
شجة منكراً فأوحى الله تعالى إليه ما ذكر في كتابه.

﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ نُوحٌ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا يَتَّبِعِ بِمَا كَانُوا
يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعُ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ
﴿٣٧﴾ وَتَصْنَعُ الْفُلَّكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا
نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ نَعْلَمُوكَ مِنْ يَأْبِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ
مُقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ
إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنُ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾

﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ نُوحٌ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا يَتَّبِعِ﴾ افتعال من البؤس

وهو الحزن ومعناه لا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ من التكذيب والإيذاء، أقنطه الله من إيمانهم حتى لا يتعب نفسه في دعوتهم ونهاه أن يغتم حيث وعده بأني مهلكهم ومنقذك منهم، فحينئذ دعا نوح عليهم بقوله ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾^(١) وحكى محمد بن إسحاق عن عبيد ابن عمير الليثي أنه بلغه أنهم كانوا يبطنون بنوح فيخنقونه حتى يغشى عليه وإذا أفاق قال: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون، حتى إذا عادوا في المعصية واشتد عليه منهم البلاء انتظر النجل بعد النجل، فلا يأتي قرن إلا أخبث من الذي قبله، حتى كان الآخر منهم ليقولون قد كان هذا مع آبائنا وأجدادنا هكذا مجنوناً لا يقبلون منه شيئاً، فشكى إلى الله ﷻ وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾^(٢) حتى قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ فأوحى الله إليه ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ حال أي متلبساً بأعيننا، قال: ابن عباس بمراء منا، وقال مقاتل بعلمنا، وقيل: بحفظنا، عبر عن المبالغة في الحفظ بالأعين لكونها أكثر آلات الحفظ والمراعاة عن الاختلال من سائر الحواس ﴿وَوَحَيْنَا﴾ إليك كيف تصنع أو بأمرنا بصنعه ﴿وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني لا تدعني باستدفاع العذاب عنهم ﴿إِنَّهُمْ مُفْرَقُونَ﴾ بالطوفان حكمت عليهم في الأزل والإغراق فلا سبيل إلى كفه.

قال البغوي في القصة أن جبرئيل ﷺ أتى نوحاً فقال: إن ربك يأمرك أن تصنع الفلك، قال: كيف أصنع ولست بنجار؟ فقال: إن ربك يقول اصنع فإنك بعيني فأخذ القدم وجعل يصنع ولا يخطئ، وقيل: أوحى إليه أن يصنعها مثل جوء الطائر ﴿وَيَصْنَعُ﴾ نوح ﴿الْفُلْكَ﴾ حكاية حال ماضية، قال: البغوي أقبل نوح على عمل الفلك ولهي عن قومه، وأعقم الله أرحام نسائهم فلم يولد لهم ولد، وجعل نوح يقطع الخشب ويضرب الحديد ويهيء عدة الفلك من القار وغيره، وجعل قومه يمرون عليه وهو في عمله ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ استهزءوا به بعمله السفينة، فإنه كان يعملها في بركة لم يكن بقربها ماء وكانوا يضحكون منه ويقولون يا نوح قد صرت نجاراً بعدما كنت نبياً، وروي أنهم كانوا يقولون له يا نوح ماذا تصنع؟ فيقول: أصنع بيتاً يمشي على الماء فيضحكون منه ﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ إذا عاينتم عذاب الله في الدنيا بالفرق وفي الآخرة بالحرق، قيل: هذا على سبيل المشاكلة، والمعنى إن تستجهلونني فإني

(١) سورة نوح، الآية: ٢٦.

(٢) سورة نوح، الآية: ٥.

أستجهلكم إذا نزل العذاب، وقيل: معناه إن تسخروا منا فسترون عاقبة سخرتكم ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ يعني سخرية مثل سخرتكم منا عند رؤية الفلك ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ﴾ الموصول في محل نصب بتعلمون أي فسوف تعلمون الذي يأتيه ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ يهينه ﴿وَيَجْلُ عَلَيْهِ﴾ أي ينزل عليه أو يحل حلول الدين الذي لا انفكاك عنه ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم فحل بهم عذاب الغرق حتى ماتوا وصاروا معذبين في البرزخ إلى يوم القيامة ثم مردّهم إلى عذاب النار وبش المصير.

قال البغوي: زعم أهل التوراة أن الله أمره أن يصنع الفلك من خشب الساج وأن يصنعه أعوج أزور وأن يطلّيه القار من داخله وخارجه، وأن يجعل طوله ثمانين ذراعاً وعرضه خمسين ذراعاً وطوله في السماء ثلاثين ذراعاً، والذراع إلى المنكب، وأن يجعله ثلاث أطباق سفلاً ووسطاً وعلواً ويجعل فيه كوى، ففعله نوح كما أمره الله تعالى وأخرج إسحاق ابن بشر وابن عساكر عن ابن عباس بلفظ: إن نوحاً لما أمر أن يصنع الفلك، قال: يا رب وأين الخشب؟ قال: اغرس الشجر فغرس الساج عشرين سنة، وكف عن الدعاء وكفوا عن الاستهزاء، فلما أدرك الفجر أمره ربه فقطعها وجفّها، وقال يا رب كيف أجعل هذا البيت؟ قال: اجعله على ثلاث صور رأسه كرأس الديك وجوءه كجوء جوء الطير وذنبه كذنب الديك، واجعلها مطبقة، واجعل لها أبواباً في جنبها وشدها بدسّر يعني مسامير الحديد وبعث الله جبرئيل فعلمه صنعة السفينة وكذا أخرج ابن عساكر عن سعيد بن المسيب عن عبد الله بن عمرو بن العاص وكعب وقال البغوي قال: ابن عباس اتخذ نوح السفينة في سنتين وكان طول السفينة ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسين ذراعاً وطولها في السماء ثلاثين ذراعاً وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاث بطون، فحمل في البطن الأسفل الوحوش والسباع والبهائم، وفي البطن الأوسط الدواب والأنعام وركب هو ومن معه البطن إلا على مع ما يحتاج إليه من الزاد، وأخرج ابن مردويه عن سمرة بن جندب قال: طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسين ذراعاً وسمكها ثلاثين ذراعاً، وأخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس من غير ذكر العرض، وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة قال: ذكر لنا أن طول السفينة ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعاً وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً، وزاد إن بابها في عرضها، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس بلفظ كانت ثلاث طبقات فطبقة فيها الدواب والوحش وطبقة فيها الطير وفي شرح خاصة السير إن الطبقة السفلى للطيور والبهائم والوحش وغيرهم من الحيوانات والوسطى للطعام والشراب والثياب والعليا للناس،

وقال الشامي كان طول السفينة ثمانين ذراعاً وعرضها خمسين وسمكها إلى السماء ثلاثين ذراعاً والذراع إلى المنكب، وعن ابن عباس أن طولها ستمائة ذراع، قال: البغوي وروي عن الحسن قال: كان طولها ألفاً ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع والمعروف هو الأول أن طولها ثلاثمائة ذراع، وعن زيد بن أسلم قال: مكث نوح مائة سنة يغرس الأشجار ويقطعها ومائة سنة يعمل الفلك، وقيل: غرس الشجر أربعين سنة وجففه أربعين سنة وعن كعب الأحبار أن نوحاً عمل السفينة ثلاثين سنة، وروي أنها كانت ثلاث طبقات الطبقة السفلى للدواب والوحوش والطبقة الوسطى فيها الإنس، والطبقة العليا فيها الطير، فلما كثرت أرواث الدواب أوحى الله إلى نوح أن اغمز ذنب الفيل، فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث، فلما وقع الفأر تخرب السفينة تقرضها وحبالها فأوحى الله إليه أن اضرب بين عيني الأسد فضرب فخرج من منحزه سنور وسنورة فأقبلا على الفأر.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بالعذاب غاية لقوله ويصنع وما بينهما حال من الضمير فيه، لو حتى هي التي يبدأ بعدها الكلام ﴿وَفَارَ النَّتُورُ﴾ واختلفوا في التنور؟ أخرج أبو الشيخ عن عكرمة والزهري هو وجه الأرض كذا ذكر البغوي عنه، وكذا أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس، وذلك أنه قيل لنوح ﷺ إذا رأيت الماء فار على وجه الأرض فاركب السفينة، وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله تعالى ﴿وَفَارَ النَّتُورُ﴾ قال: أعلى الأرض وأشرفها، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿وَفَارَ النَّتُورُ﴾ قال: العين التي بالجزيرة عين الوردية، وروي عن عليّ قال: وَقَارَ النَّتُورُ يعني طلع الفجر ونور الصبح، وقال الحسن ومجاهد والشعبي إن التنور الذي تخبز فيه، وهو قول أكثر المفسرين ورواية عطية عن ابن عباس، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس بلفظ إذا رأيت تنور أهلك تخرج منه الماء فإنه هلاك قومك، قال: الحسن كان تنوراً من حجارة كانت حواء تخبز فيه فصارت إلى نوح فقيل لنوح إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت وأصحابك واختلفوا في موضعه قال: مجاهد والشعبي كان في ناحية الكوفة وكان الشعبي يحلف بالله ما فار التنور إلا من ناحية الكوفة، وقال اتخذ نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة وكان التنور على يمين الداخل مما يلي باب كندة، وكان فوران الماء من علماً لنوح أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عليّ بن أبي طالب قال: فار التنور من مسجد الكوفة من قِبَلِ باب كندة، وأخرج عنه أيضاً أبو الشيخ من طريق الشعبي بلفظ والذي فلق الحبة وبرئ النسمة إن مسجدكم هذا الرابع من أربعة مساجد المسلمين والركعتان فيه

أحب إليّ من عشر مما سواها إلا المسجد الحرام ومسجد رسول الله ﷺ وإن من جانبه الأيمن مستقبل القبلة فار التنور، وقال مقاتل كان ذلك تنور آدم وكان بالشام بموضع يقال له عين وردة، وروى عن ابن عباس إنه كان بالهند، أخرج عنه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه، والفوران الغليان ﴿قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا﴾ أي في السفينة ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾ الزوجان كل اثنين لا يستغني أحدهما عن الآخر فيقال لواحد من خف أو نعل زوج خف وزوج نعل والمراد بالزوجين ههنا الذكر والأنثى، يعني من كل ذكر وأنثى ﴿أَتَيْنِ﴾ منصوب على المفعولية لأحْمِلْ يعني إحمل إثنين من كل ذكر وأنثى أي من مجموعهما من كل واحد منهما واحداً، هذا على قراءة الجمهور بإضافة كل إلى زوجين، وقرأ حفص ههنا وفي سورة المؤمنين من كُلِّ بالتنوين يعني من كل نوع من الحيوان زوجين يعني ذكراً وأنثى، فهو منصوب على المفعولية واثنين على هذا تأكيد، قال: البغوي وفي القصة أن نوحاً ﷺ قال: يا رب كيف أحمل من كل زوجين اثنين؟ فحشر الله إليه السباع والطير فجعل يضرب بيديه في كل جنس فيقع الذكر في يده اليمنى والأنثى في يده اليسرى فيحملهما في السفينة ﴿وَأَهْلَكَ﴾ عطف على المفعول به أعني اثنين أو زوجين والمراد امرأته وبنوه ونساؤهم ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ من الله تعالى في الأزل بالهلاك يعني امرأته واعيلاً وابنه منها كنعان فإنهما كانا كافرين ﴿وَمَنْ ءَامَنُ﴾ من الناس غيرهم ﴿وَمَنْ ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ واختلفوا في عددهم فقال: قتادة وابن جرير ومحمد بن كعب القرظي لم يكن في السفينة إلا ثمانية نفر، نوح وامرأته وثلاثة بنين له سام وحام ويافث ونساؤهم، أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريج قال: حدثت أن نوحاً حمل معه بنيه الثلاثة وثلاث نسوة لبنيه، وأصاب حام زوجته في السفينة فدعا أن يغير نطفته، فجاءت بالسودان وقال الأعمش كانوا سبعة نوح وثلاث بنين له وثلاث كنانين، وهذان القولان يأباهما القرآن فإن عطف قوله ومن آمن على أهلك يدل على المغايرة والسبعة المذكورون كانوا من أهله وقال ابن إسحاق كانوا عشرة نوح وبنوه سام وحام ويافث وستة أناس ممن كان آمن به سواهم وأزواجهم جميعاً يعني كانوا عشرة من الرجال وعشراً من النساء، وقال مقاتل كانوا اثنين وسبعين نفراً رجلاً وامرأة، وبنيه الثلاثة ونساءهم، فجميعهم ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء، وعن ابن عباس قال: كان في سفينة نوح ثمانين رجلاً أحدهم جرهم، أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: حمل نوح معه في السفينة ثمانين إنساناً وكان لسانه عربياً، قال: ابن عباس أول ما حمل نوح الدرة وآخر ما حمل الحمار، فلما دخل الحمار ودخل صدره تعلق إبليس بذنبه فلم يستقل رجلاه فجعل نوح ﷺ يقول ويحك ادخل

فنهض فلا يستطيع حتى قال: ويحك ادخل وإن كان الشيطان معك، كلمة زلت عن لسانه فلما قالها نوح خلى الشيطان سبيله فدخل ودخل الشيطان فقال نوح: ما أدخلك عليّ يا عدو الله؟ قال: ألم تقل أدخل وإن كان الشيطان معك، قال: أخرج عني يا عدو الله؟ قال: مالك بد من أن تحملني معك وكان فيمن يزعمون في ظهر الفلك، وروي عن بعضهم أن الحية والعقرب أتيا نوحاً فقالتا احملنا، فقال: إنكما سبب الضر والبلاء فلا أحملكما قالتا: إحملنا فنحن نضمن لك أن نضر أحداً ذكرك، فمن قال: حين خاف مضرتهما ﴿سَلَّمْ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾^(١) ما ضرته، قال: الحسن لم يحمل نوح في السفينة إلا ما يلد ويبيض فأما ما يتولد من الطين من حشرات الأرض كالبق والبعوض فلم يحمل منها شيئاً.

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَحْرِبَهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٤١) رَحِيمٌ
 جَرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوْحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبُنَى ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا
 تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَتَأْوِي إِلَى جِبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ
 أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعُ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ
 وَبَسْمَاءَ أَقْلِي وَغِيصَ الْمَاءُ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ
 ﴿٤٤﴾ وَنَادَى نُوْحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ
 ﴿٤٥﴾ قَالَ يَبْنَوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَحْتَسِبْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّي
 أُعْطِكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ
 وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَبْنَوحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ
 عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُنَبِّئُهُم بِمِثْلِهِمْ مِمَّا عَذَابُ الْيَسْرِ ﴿٤٨﴾ نِلَكَ مِنْ
 أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيًّا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ
 لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا﴾ أي صيروا فيها وجعل ذلك ركوباً لأنها في الماء كالمركوب في الأرض ﴿بِسْمِ اللَّهِ جَحْرِبَهَا وَمُرْسَاهَا﴾ حال من الضمير المرفوع في اركبوا، يعني: اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين بسم الله وقت إجرائها وإرسالها، أو مكانهما على أن المجرى والمرس للوقت أو للمكان أو للمصدر والمضاف محذوف كقولهم آتيتك خفوق النجم،

(١) سورة الصافات، الآية: ٧٩.

وانتصابهما بما قدرنا حالاً ويجوز رفعهما بيسم الله على أن المراد بهما المصدر أو جملة من مبتدأ أو خبر أي إجراؤها بسم الله فبسم الله خبره أوصلته والخبر محذوف وهي إما جملة لا تعلق لها بما قبلها كأن نوحاً أمرهم بالركوب ثم أخبرهم بأن مجريها ومرسها بذكر اسم الله أي باسم الله إجراؤها وإرساؤها ولفظ الاسم مقحم، وإما حال مقدرة من الضمير المرفوع في اركبوا أو من الضمير المجرور في فيها قرأ حمزة والكسائي وحفص مجراها بفتح الميم من جرى، وقرأ محمد بن محيصة مجراها ومرساها بفتح الميمين من جَرَتْ وَرَسَتْ وكلاً يحتمل الثلاثة الزمان والمكان والمصدر، والباقون بضم الميمين من أُجْرِيَتْ وَأُرْسِيَتْ وإمال حفص مجراها خاصة في القرآن لا غير ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي لولا مغفرته لسيئاتكم ورحمته إياكم لما نجيتم، قال: البغوي قال: الضحاك كان نوح إذا أراد أن تجري السفينة فقال: بسم الله جرت، وإذا أراد أن ترسو قال: بسم الله رست.

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾ متصل بمحذوف دل عليه اركبوا يعني فركبوا مسمين وهي تجري بهم وهم فيها ﴿فِي مَوْجٍ﴾ جمع موجة كتمر وتمرة وهي ما ارتفع من الماء عند اضطرابه إذا اشتدت الرياح ﴿كَالْجِبَالِ﴾ يعني كل موجة منها كجبل في تراكمها وارتفاعها ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ كنعان وقال عبيد بن عمير يام وكان كافراً ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ عزل فيه نفسه عن أبيه أو عن دينه مفعول للمكان من عزله عنه إذا بعده ﴿يَبْنِي﴾ قرأ عاصم بفتح الياء اقتصاراً عليه بالألف المبدلة من ياء الإضافة من قولك يا بني والباقون بكسرها اقتصاراً عليه من ياء الإضافة ﴿أَرْكَبُ مَعْنًا﴾ في السفينة، قرأ ابن عامر وحمزة ويعقوب وأبو بكر عن عاصم بإظهار الباء والآخرين يدغمونها في الميم وفي التيسير أظهر ورش وابن عامر وحمزة واختلف عن قالون وعن اليزيدي وعن خلاد، والتقدير يا بني أسلم واركب معنا، فإن الركوب يدل على الإسلام لتوقفه عليه ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ في الدين والانعزال فتهلك ﴿قَالَ﴾ له ابنه كنعان لا أسلم ولا أركب معك ولكن ﴿سَأَوَى إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ يمنعني من الغرق ﴿قَالَ﴾ له نوح ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي من عذابه المأمور به ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ﴾ قيل: مَنْ في محل الرفع يعني لا مانع من عذاب الله إلا الله الراحم، أو الإمكان مَنْ رحمهم الله وهم المؤمنون، رد بذلك أن يكون اليوم معتصم من جبل ونحوه يعصم اللائذ به إلا معتصم المؤمنين وهو السفينة، وقيل: من في محل النصب معناه لا معصوم إلا من رحمه الله كقوله تعالى: ﴿تَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾^(١) وقيل: الاستثناء

(١) سورة الحاقة، الآية: ٢١.

منقطع يعني ولكن من رحمه الله يعصمه ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا﴾ أي بين نوح وابنه أو بينه وبين الجبل ﴿الْمَوْجُ فَكَانَ﴾ أي فصارا وكان في علم الله ﴿مِنَ الْمُفْرَقِينَ﴾ يروى أن الماء علا على رؤوس الجبال أربعين ذراعاً وقيل: خمسة عشر ذراعاً، قال البغوي: ويروى أنه لما كثرت الماء في السكك وخشيت أم صبي عليه كانت حبه حباً شديداً، فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء ارتفعت حتى بلغت ثلثيه فلما بلغها ذهبت حتى استوت على رأس الجبل، فلما بلغ الماء رقبتهما رفعت الصبي بيديها حتى ذهب بما الماء فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي، قلت: لكن هذه القصة ينافي ما روى أن الله سبحانه أعقم لرحام نساء قوم نوح قبل غرقهم سنين حتى لم يكن فيهم صبي حين أغرقوا.

﴿وَقِيلَ﴾ يعني قال: الله تعالى بعدما تناهى أمر الطوفان ﴿يَتَأَرَضُ آبُلَيْ﴾ إشرابي ﴿مَاءَكِ﴾ أي الماء الذي نبع منك فشربته دون ما نزل من السماء فصار أنهاراً وبهاراً ﴿وَنَسَمَاءَ آقِلِي﴾ أمسكي عن المطر يعني لا تمطري فأمسكت ﴿وَوَيْضَ الْمَاءِ﴾ يعني غاضه الله أي أنقصه الله وهو لازم ومتعد ﴿وَوَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي أنجز ما وعد الله من إهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين ﴿وَأَسْتَوَتْ﴾ أي استقرت السفينة ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾ وهو جبل بالجزيرة بقرب الموصل وقيل بالشام ﴿وَقِيلَ﴾ يعني قال: الله تعالى ﴿بَعْدَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي بعد القوم الظالمون بعداً من رحمة الله وهلكوا هلاكاً ثم حذف الفعل وجعل للقوم الظالمين وصفاً للمصدر، قال البغوي: روي أن نوحاً عليه السلام بعث الغراب ليأتيه بخبر الأرض فوقع علي جيفة فلم يرجع، فبعث الحمامة فيجاءت بورق زيتون في منقارها ولطخت رجلها بالطين فعلم نوح أن الماء قد نضب، فقيل أنه دعا على الغراب بالخوف فلذلك لا يألف البيوت، وطوق الحمامة الخضرة التي في عنقها ودعا لها بالأمان فمن ثم يألف بالبيوت، وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة قال: وذكر لنا أنها استقلت بهم في عشر خلون من رجب وكانت في الماء خمسين مائة يوماً ثم استقرت بهم على الجودي وأهبطوا إلى الأرض في عشر ليل خلون من الحرم، وأخرج ابن عساكر عن خالد الزيات بزيادة قال: في آخره فأرست السفينة يوم عاشوراء فقال: نوح لمن معه من الجن والإنس صوموا هذا اليوم، وكذا قال: البغوي إنه روي أن نوحاً ركب السفينة لعشر مضت من رجب وجرت بهم السفينة ستة أشهر ومرت بالبيت فطافت به سبعاً وقد رفعه الله من الغرق وبقي موضعه، وهبطوا يوم عاشوراء فصام نوح وأمر من معه بالصوم شكراً لله ﷻ، وقيل: ما نجى من الكفار من الغرق غير عوج بن عنق كان في الماء إلى حجزته. وكان سبب نجاته أن نوحاً احتاج إلى خشب الساج للسفينة فلم يمكنه نقلها

فحملها عوج إليه من الشام، فنجاه الله من الغرق لذلك قلتُ وقصة عوج ذلك يخالف ظاهر النصوص حيث قال: الله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِبَارًا﴾^(١) وقال: ﴿وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٢) وقال: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾^(٣) فتخصيص عموم من العمومات القاطعة لا يجوز إلا بقاطع ولم يوجد والقصة يأبى عنه العقل والنقل.

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ﴾ الفاء لتفسير النداء ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي﴾ يعني كنعان ﴿مِنْ أَهْلِ وَانَّ وَعَدَكَ الْحَقُّ﴾ لا خلف فيه وعدت أن تنجي أهلي فماله لم ينج، ويجوز أن يكون هذا النداء قبل الغرق ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ لأنك أعلمهم وأعدلهم ولا يجوز خليف في حكمك وقد حكمت بهلاك قوم ونجاة أهلي، أو المعنى إنك أكثر حكمة من ذوي الحكم والحكمة ﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿يَنْبُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ لقطع الولاية بين المؤمنين والكفار ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرٌ صَالِحٌ﴾ تعليل لنفي كونه من أهله، قرأ الكسائي ويعقوب عَمَلٌ بكسر الميم على الفعل الماضي وغير بالنصب على المفعولية أي عمل الشرك والتكذيب، والباقون بفتح الميم والتنوين على أنه مصدر فرفوع وهو خبر أن على حذف المضاف ونقل إعرابه إلى المضاف إليه، تقديره أنه ذو عمل غير صالح وفيه مبالغة حيث جعل ذاته ذات العمل، أو المعنى أن سؤالك إياي بإنجائه عمل غير صالح ﴿فَلَا تَتَلَوَّنِي﴾ يا نوح، قرأ نافع وابن عامر بفتح اللام وكسر النون المشددة على أن أصله تَسَلَّنَنِي بالنون المشددة ونون الوقاية فحذفت نون الوقاية لاجتماع النونات وكسرت المشددة للياء ثم حذفت الياء اكتفاء بالكسرة، وقرأ ابن كثير كذلك إلا أنه يفتح النون المشددة وليس في هذه القراءة نون الوقاية ولا ياء المتكلم للضمير المنصوب، وقرأ الباقر بإسكان اللام وكسر نون الوقاية وتخفيفها وحذف الياء وأثبت أبو جعفر وأبو عمرو وورش ويعقوب الياء في الوصل فقط ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أصواب هو أم خطأ سمي نداءه سؤالاً لتضمنه ذكر الموعد بنجاة أهله المشعر باستنجاهه في شأن ابنه أو استفساراً لمانع للإنجاز في حقه وسماء جهلاً وزجر عنه بقوله ﴿إِنِّي﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقر بإسكانها ﴿أَعْظَمَكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ لأن استثناء من سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ من أهله قد دل على الحال وأغناه

(١) سورة نوح، الآية: ٢٦.

(٢) سورة هود، الآية: ٤٤.

(٣) سورة هود، الآية: ٤٣.

عن السؤال، قال البغوي: اختلفوا في هذا الابن؟ قال: مجاهد والحسن كان ولد خبث من غير نوح ولم يعلم بذلك نوح ولذلك قال: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ وقرأ الحسن ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾^(١) وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام كان ابن امرأته ولذلك قال: من أهلي ولم يقل مني، وقال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك والأكثر أن كان ابن نوح من صلبه، قال: ابن عباس ما بغت امرأة بني قط وقوله ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي من أهل دينك لأنه كان كافراً، وقوله ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أي في الدين والعمل لا في الفراش، وقوله ﴿إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ يعني أن تدعو بهلاك الكفار ثم تسئل نجاه كافراً، وقال الشيخ أبو منصور لكان ابن نوح منافقاً لا يعلم نوح بكفره وإلا لا يحتمل أن يقول نوح ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ ويسئل نجاته وقد سبق من الله النهي عن سؤال مثله، بقوله ﴿وَلَا تَخْطُبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾^(٢) فأعلمه الله تعالى ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، وفي قول أبي منصور هذا نظر فإن قوله تعالى: ﴿يَبْنِيَّ أَرْكَبُ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾^(٣) قَالَ سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ^(٤) صريح في كونه مجاهراً بالكفر والله أعلم ﴿قِيلَ يَنْجُ أَهِيظُ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الباء والباقون بإسكانها ﴿أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَتَشَلَّكَ﴾ فيما يستقبل ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أي ما لا علم لي بصحته ﴿وَأِلَّا تَغْفِرْ لِي﴾ سؤال بنجاة الكافر بعد النهي عنه بخطاء في الاجتهاد ﴿وَتَرَحَّمْنِي﴾ بالتوبة والعصمة والتفضل علي ﴿أَكُنْ مِنَ الْخَيْرِينَ﴾ أعمالاً.

﴿قِيلَ يَنْجُ أَهِيظُ﴾ أي إنزل من السفينة ﴿يَسَلِّمْ مَنَّا﴾ أي مسلماً من المكاره من جهتنا، أو مسلماً عليك ﴿وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ﴾ البركة الخير النامي، والمراد بالبركات مراتب قرب الله تعالى ورحمته وفضله وكثرة ذريته وبقاؤهم إلى يوم القيامة وكون الأنبياء منهم والصالحين ﴿وَعَلَىٰ أُمِّرٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ من للبيان والمراد بالأمم الذين كانوا معه في السفينة لأنهم كانوا جماعات أو لتشعب الأمم منهم، أو لابتداء الغاية أي على أمم ناشية ﴿مِمَّنْ مَعَكَ﴾ قال: محمد بن كعب دخل فيه كل مؤمن إلى قيام الساعة فإن قيل: قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمُ الرُّبَابِينَ﴾^(٤) يدل على حصر البقاء في ذرية نوح دون من معه في

(١) سورة التحريم، الآية: ١٠.

(٢) سورة هود، الآية: ٣٧.

(٣) سورة هود، الآية: ٤٢ - ٤٣.

(٤) سورة الصافات، الآية: ٧٧.

الفلك؟ قلنا كان معه في الفلك بنوه الثلاثة فالمعنى على أمم تنشأ مِن مَعَكَ من أبنائك ﴿وَأُمَّمٌ﴾ مبتدأ حذف خبره يعني وَمِمَّن مَعَكَ أمم لا بركة عليهم بل ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ في الدنيا بما كتبنا لهم ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة لأجل كفرهم وقيل: المراد بهم قوم هود وصالح ولوط وشعيب والعذاب عذاب الدنيا ﴿تِلْكَ﴾ يعني قصة نوح مرفوع على الابتداء خبره ﴿ذَلِكَ أَنبَاءَ الْغَيْبِ﴾ أي ما غاب عنك يعني بعضها ﴿نُوحِيهَا﴾ الضمير للأنباء خبر ثان أو جال من الأنباء أو هو الخبر ومن أنباء متعلق به أو حال من الضمير المنصوب فيه ﴿إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ هذا خبر آخر أي مجهولة عندك وعند قومك من قبل إيحائنا إليك أو حال من الضمير المنصوب في نوحيتها، أو من الضمير المجرور في إليك أي جاهلاً أنت وقومك بها، تنبيه على كونه معجزة فإنه لم يتعلمه إلا من الله تعالى، فإنه لم يخالط غير قومه وقومه مع كثرتهم لما لم يسمعه فكيف بواحد منهم فمطابقة هذا النبا بالكتب المنزلة المتقدمة دليل واضح على نبوته ﷺ ﴿فَأَصْبِرْ﴾ بعد ظهور أمرك على تبليغ الرسالة وما يلقاك أذى من الكفار كما صبر نوح ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ﴾ في الدنيا بالظفر وفي الآخرة بالفوز ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك والمعاصي الجملة تعليل للصبر وعدم الجزع والاستعجال.

﴿وَالِى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥١﴾ يَنْقُورِ لَا اسْتَلْكَ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَنْقُورِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٣﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٤﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوْرٍ قَالَ إِنْ أَسْأَلُ اللَّهَ بِشَاهِدٍ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٥﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٦﴾ إِنْى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٧﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُمْ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا لِنَجِّنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجِّنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٩﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِبَايَتِ رَبِّيمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٦٠﴾ وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦١﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ عَادُوا﴾ عطف على قوله إلى نوح يعني وأرسلنا إلى عاد ﴿أَخَانَهُمْ﴾ في النسب ﴿هُودًا﴾ عطف بيان ﴿قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ إن أشتر إلا ﴿مُفْتَرُونَ﴾ على الله باتخاذ الأوثان شركاء له في العبادة وجعلها شفعاء ﴿يَنْقُورِ لَا أَشْتَكُرُ عَلَيْهِ﴾ أي لا تبليغ الرسالة ﴿أَجْرًا﴾ يمنعكم ثقل أدائه عن قبول الرسالة، أو يعيطني طعمه على الكذب ﴿إِنْ أَجْرِي﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وحفص بفتح الياء والباقون بإسكانها، يعني ما ثوابي ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي خلقتني قرأ نافع والبيزي بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أفلا تستعملون عقولكم فتعرفوا أن من هذا شأنه يجب تصديقه ﴿وَيَنْقُورِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ يعني أطلبوا منه تعالى مغفرة ما سلف منكم من الشرك والمعاصي، وذلك بالإسلام ﴿فَإِنِ الْإِسْلَامُ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ﴾^(١) رواه مسلم عن عمرو بن العاص في حديث مرفوع ﴿رَبِّكُمْ تَوْبُوا﴾ أي أرجوا ﴿إِلَيْهِ﴾ أي إلى ربكم بطاعته وترك عبادة غيره ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ كثير الدر أي السيلان ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ أي يضاعف قوتكم وذلك أن الله حبس عنهم المطر ثلاث سنين، وأعقم أرحام نسائهم كما ذكرنا القصة في سورة الأعراف، فقال: لهم هود إن تستغفروا ربكم وتوبوا إليه يرسل الله عليكم المطر فتزدادون مالا، يعيد أرحام النساء فيلدن أولاداً فتزدادون قوة بالأموال والأولاد، وقيل تزدادون قوة إلى قوة بدنكم ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مَنَاجِرَ مَنَاجِرِكُمْ﴾ عطف على استغفروا، يعني لا تعرضوا عما دعوتكم إليه مصرين على جرائمكم.

﴿قَالُوا﴾ يعني قومه ﴿يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي تدل على صحة دعواك، وذلك لفرط عنادهم بعد ما جاءهم به من المعجزات ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي﴾ عبادة ﴿الْإِلَهَاتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ أي بقولك فهو صلة، أو صادرين عن قولك فهو حال من الضمير في تاركي ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي بمصدقين إقناط من الإجابة والتصديق ﴿إِن نَقُولُ﴾ أي ما نقول قولاً ﴿إِلَّا﴾ قولنا هذا ﴿اعْتَرَيْكَ﴾ من عراه يعرفه إذا أصابه يعني أصابك ﴿بَعْضُ الْإِلَهَاتِنَا بِسُوءٍ﴾ أي بجنون وخبل حتى تتكلم بالخرافات، وذلك إنك تسب آلهتنا وتمنع عن عبادتهم فانتقم بعضهم منك بالتخييل، وجاز أن يكون معناه ما نقول في حقك قولاً إلا قولنا اعتراك يعني سيعتريك بعض آلهتنا لأجل سبك إياهم بسوء أي بإضرار وإهلاك، عبر عن المستقبل بالماضي مبالغة في التحقيق والتهديد يعني أنه واقع لا مجاله كأنه وقع، وهذا التأويل يناسب قول هود في الجواب حيث ﴿قَالَ إِنِّي﴾ قرأ نافع بفتح الياء والباقون بإسكانها

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج (١٢١).

﴿أَشْهَدُ اللَّهَ﴾ على ﴿وَأَشْهَدُوا﴾ أنتم يا قوم ﴿أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ به ﴿مِن دُونِهِ﴾ يعني من الأوثان لا أعبدهم ولا أخاف منهم أصلاً ﴿فَكِيدُونِي﴾ فاحتالوا في إضرارِي وإهلاكِي أنتم وشركاؤكم ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين يعين بعضكم بعضاً ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ﴾ أي تمهلوني، فيه استهانة لهم وثقة بالله تعالى وإظهار لعجز آلهتهم، فإنها حجارة لا تضر ولا تنفع وفيه معجزة فإنهم بعد هذه المقالة عجزوا عن آخرهم وهم الأقوياء الأشداء الجبابرة العطاش إلى أراقة دمه من أن يضروه ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أي اعتمدت عليه ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ﴾ يعني الله سبحانه ﴿ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ﴾ الأخذ بالناصية تمثيل لقهر القاهر على المقهور وذل المقهور بين يديه يتصرف فيه كيف يشاء، قال: البغوي خص الناصية بالذكر لأن العرب يستعمل ذلك إذا وصف إنساناً بالذلة فيقول ناصية فلان بيد فلان، قال: الضحاك يعني يميتها ويحييها، وقال الفراء مالكتها والقادر عليها، وقال القتيبي يقهرها لأن من أخذت بناصيته فقد قهرته ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يعني أنه على الحق والعدل فيجازي المحسن على إحسانه والمسيء على عصيانه ولا يضيع عنده معتصم به ولا يفوته ﴿فَإِنْ قَوْلًا﴾ حذف إحدى التائين يعني أن تعرضوا عما دعوتكم إليه ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يعني إن عرضتم يهلككم الله، ويستبدل بكم قوماً غيركم أطوع منكم يوحدونه ويعبدونه، حيث لم يبق لكم عذر بعدما ﴿أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ ولا بأس به علي فإني قد أدبت ما علي من البلاغ ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ﴾ تعالى بأعراضكم ﴿شَيْئًا﴾ من الضرر إنما تضررون أنفسكم، وقيل معناه لا تنقصونه شيئاً إذا أهلككم لأن وجودكم وعدمكم عنده سواء ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ رقيب لا يخفي عليه ما تصنعون ولا يغفل عن مجازاتكم أو حافظ مستول على كل شيء فلا يمكن أن يضره شيء.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بالعذاب أو عذابنا ﴿بَنَجِّنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ وكانوا أربعة آلاف ﴿بِرَحْمَتِهِ﴾ بنعمة ﴿مِنَّا﴾ أي بفضل منا لا بعملهم أو بالإيمان الذي أنعمنا عليهم ﴿وَنَجِّنَاكُمْ﴾ نجينا للتأكيد والتعظيم والتهويل ﴿مِن عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وهو الريح التي أهلك بها عاداً، وقد مر قصتها في سورة الأعراف ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ أنت اسم الإشارة باعتبار القبيلة، وقيل إشارة إلى آثار عاد يعني فسيحوا في الأرض وانظروا إليها ثم وصف إليها أحوالهم فقال: ﴿جَعَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ كفروا بها ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ يعني هوداً وغيره من المرسلين فإن كلهم يدعون إلى التوحيد ويصدق بعضهم بعضاً فعصيان واحد منهم عصيان جميعهم ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ﴾ متكبر ﴿عَنِيدٍ﴾ لا يقبل الحق يقال عند الرجل يعند عنوداً إذا أبى أن يقبل الشيء وإن عرفه، وقال أبو عبيد العنيد والعنود والمعاند المعارض لك بالخلاف،

يعني اتبعوا كبراءهم الطاغين يعني عصوا من دعاهم إلى الإيمان وتركوا ما ينجيهم وأطاعوا من دعاهم إلى الكفر وأتوا بما يهلكهم ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي دعاء باللعنة من الناس والملائكة ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أيضاً يتبعون باللعن من الله تعالى أي جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين واللعنة هي الإبعاد والطرده عن الرحمة ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ أي جحدوه أو كفروا نعمة فحذف الجار ﴿أَلَا بَعْدًا لِعَادٍ﴾ قيل: بعداً من رحمة الله وقيل هلاكاً، قال: البغوي: للبعد معنيان أحدهما ضد القرب والآخر بمعنى الهلاك، وكذا في القاموس والجمله دعاء عليهم باللعن والهلاك والمراد به الدلالة على أنهم كانوا مستوجبين لما نزل عليهم بسبب ما حكى عنهم، وإنما كرر ألا وأعاد ذكرهم تفضيلاً لأمرهم وحثاً على الاعتبار بحالهم ﴿قَوْمَ هُودٍ﴾ عطف بيان وفائدته الإيماء إلى أن استحقاقهم البعد بما جرى بينهم وبين هود عليه السلام.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَسْتَعْمَرُوا فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَنَّا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَنْفَوِرَ أَرْبَبُهُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَصْرِفِي مِنْ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُمْ فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَنْفَوِرَ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتُّوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرٌ مَكْدُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَنِيَّاتًا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٦٧﴾ كَانَتْ لَمْ يَنْفَوُوا فِيهَا إِلَّا إِنَّ تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدًا لِشَمُودَ ﴿٦٨﴾ .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَسْتَعْمَرُوا فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ وحده ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ﴾ أي بدأ خلقكم ﴿مِنْ الْأَرْضِ﴾ يعني خلقكم من آدم وآدم من التراب ﴿وَأَسْتَعْمَرُوا﴾ يعني عمركم واستبقاكم من العمر وقال الضحاک أطال عمركم حتى كان الواحد منهم يعيش ثلاثمائة سنة إلى ألف سنة، وكذلك قوم عاد ﴿فِيهَا﴾ أي في الأرض، وقيل معناه قدركم على عمارتها وجعلكم عمارها وسكانها وقال مجاهد استعمركم من العمري أي جعلها لكم ما عشتم ویرثها منكم بعد انصرام أعماركم، أو جعلكم معمرين دياركم

تسكنونها مدة عمركم ثم تتركونها لغيركم ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ﴾ من عباده قريباً لا كيف له حتى أفاض عليهم الوجود، أو قريب بالذات بلا كيف أو بالرحمة لا وليائه ﴿مُجِيبٌ﴾ لدعائهم ﴿قَالُوا يَنْصَلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ أي كنا نرجو أن تكون سيداً فينا، وقيل: أي كنا نرجو أن توافقنا في الدين وتعود إلى ديننا ﴿قَبْلَ هَذَا﴾ القول يعني دعائك إيتاناً إلى ترك عبادة الأثان، فلما سمعنا منك هذا القول انقطع رجاءنا عنك ﴿أَتْنَهِنَّا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ على حكاية الحال الماضية ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ من التوحيد والتبري عن الأوثان ﴿مُرِيبٌ﴾ أي ريبة على الإسناد المجازي من آراب في الأمور، أو موقع في الريبة من أرابه إذا أوقعه في الريبة وهي قلق النفس وانتفاء الطمأنية ﴿قَالَ يَنْقُورِ أَرَهَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَتِهِ﴾ أي بيان وبصيرة ﴿مِنْ رَبِّي﴾ أدخل حرف الشك باعتبار المخاطبين، وجاز أن يكون إن مخففة من المثقلة اسمه ضمير الشأن أو ضمير المتكلم محذوفاً يعني إني كنتُ أو إنه أي الشأن كنتُ على بينة من ربِّي ﴿وَأَتْنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ أي نبوة وحكمة ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي﴾ يمنعني ﴿مِنْ﴾ عذاب ﴿اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ في تبليغ رسالته والمنع عن الإشراك به ﴿فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أي غير أن تخسروني بإبطال ما منحني الله به والتعريض لعذابه، وقال الحسين بن الفضل لم يكن صالح في خسارة حتى قال: فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ وإنما المعنى ما تزيدونني بما تقولون إلا نسبتي إياكم إلى الخسارة فإن التفسيق والتفجير في اللغة النسبة إلى الفسق والفجور فكذلك التخسير النسبة إلى الخسران، وقال ابن عباس معناه ما تزيدونني غير بصارة في خسارتكم.

﴿وَيَنْقُورِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ انتصب آية على الحال وعاملها معنى الإشارة ولكم حال منها تقدمت عليها لتكثيرها، وذلك أن قومه طلبوا منه أن يخرج من صخرة معينة ناقة عشراء آية لنبوته، فدعا صالح فخرجت منها ناقة وولدت في الحال مثلها وقد مرت القصة في سورة الأعراف ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ﴾ ترع نباتها وتشرب ماءها ليس عليكم مؤنتها ﴿وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءَ فَيَأْخُذْكُمْ﴾ إن مسستموها بسوء ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ في ثلاثة أيام ﴿فَمَقَرُوهَا﴾ يعني عقر بأمرهم قدار بن سالف ﴿فَقَالَ﴾ لهم صالح ﴿تَمَتَّعُوا﴾ عيشوا ﴿فِي دَارِكُمْ﴾ أي في الدنيا أو في بلدكم ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ الأربعاء والخميس والجمعة تصبحون اليوم الأول ووجوهكم مصفرة وفي اليوم الثاني محمرة وفي الثالث مسودة ثم تهلكون ﴿ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرٌ مَكْذُوبٍ﴾ أي غير مكذوب فيه، أجرى الظرف مجرى المفعول به مجازاً، أو وعد غير كذب على أنه مصدر كالمجلود والمعقول، أو غير مكذوب على المجاز على أن الوعد كأنه قال: له أفي بك فإن وفي به صدقه وإلا كذبه، فكان كما

وعد، وأتاهم العذاب في اليوم الرابع ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ
 بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ يعني ونجيناهم من خزي يومئذ وهو هلاكهم بالصيحة
 بغضب الله، قرأ أبو جعفر ونافع والكسائي ههنا وفي المعارج ﴿مِن عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ بفتح يوم
 على اكتساب المضاف البناء من المضاف إليه والباقون بالكسر جرأ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ
 الْعَزِيزُ﴾ القادر على كل شيء والقاهر عليه ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي كفروا ﴿الصَّيْحَةَ﴾
 وذلك أن جبرئيل صاح صيحة واحدة، وقيل أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة
 وصوت كل شيء في الأرض، فتقطعت قلوبهم في صدورهم ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ
 جَثِيمًا﴾ صرعى هلكي ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا﴾ أي لم يقيموا ﴿فِيهَا﴾ أي في ديارهم ﴿أَلَا إِنَّ
 ثَمُودَ﴾ قرأ حفص ويعقوب وحمزة هنا والفرقان والنجم بفتح الدال من غير تنوين ووقفوا
 بغير ألف الباقون بالتنوين ووقفوا بالألف عوضاً عنه ﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُدَا لِثَمُودَ﴾ قرأ
 الكسائي ثمود بكسر الدال مع التنوين والباقون بفتح الدال من غير تنوين.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجَلٍ
 حَنِيدٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا
 أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرَانَهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ
 ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا بَوَلَّى أَيْدِيَّ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا
 أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُمْ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ
 عَنِ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلْنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾
 يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُمْ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَنِيبٌ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ من الملائكة قال: ابن عباس وعطاء كانوا ثلاثة جبرئيل
 وميكائيل وإسرافيل، وقال محمد بن كعب كان جبرئيل ومعه سبعة، وقال الضحاك كانوا
 تسعة وقال مقاتل كانوا إثني عشر ملكاً، وقال السدي كانوا أحد عشر ملكاً على صورة
 الغلمان الراضاء وجوههم ﴿إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ أي بالبشارة بإسحاق ويعقوب وقيل: بإهلاك
 قوم لوط ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ أي نسلم عليك سلاماً، ويجوز نصبه بقالوا على معنى ذكروا سلاماً
 ﴿قَالَ سَلَّمَ﴾ أي أمركم أو جوابي سلام، أو عليكم سلام رفعه إجابة بأحسن من تحيتهم،
 فإنه جملة اسميته يدل على الدوام والاستمرار بخلاف الفعلية، قرأ حمزة والكسائي ههنا
 وفي الداريت سلّم بكسر السين بلا ألف وهما لغتان نحو جلّ وحلال وجرم وحرام، وقيل

المراد به الصلح أي نحن صلح لكم غير حرب ﴿فَمَا لَيْتَ﴾ أي فما أبطأ إبراهيم ﴿أَنْ جَاءَ﴾ أي في أن، أو ما تأخر عن المجيء والجار مقدر أو محذوف، وجاز أن يكون إن جاء في محل الرفع على الفاعلية يعني فما أبطأ مجيء إبراهيم ﴿يَعْبَلُ حَنِيزٌ﴾ أي مشوي على الحجارة، في القاموس الشاة يحنذها حنذاً أو تحنذاً شواها وجعل فوقها حجارة محماة لتنضجها فهي حنيز، وقيل الحنيز ما تقطر ودكاً من حنذت الفرس إذ عرقت بالجلال، وفي القاموس الفرس إذا ركضه وأعداه شوطاً أو شوطين ثم ظاهر عليه الجلال في الغمس ليعرق فهو حنيز، فعلى هذا معناه السمين مجازاً فيوافق قوله ﴿فَجَاءَ يَعْجَلُ سَمِينٌ﴾^(١) قال: قتادة كان عامة مال إبراهيم البقر ﴿فَلَمَّا رَأَى﴾ إبراهيم ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ أي الرسل ﴿لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ يعني لا يمدون إليه أيديهم ولا يأكلون ﴿نَكَرَهُمْ﴾ يعني أنكروهم قال: البيضاوي نكروا نكر واستنكر بمعنى، وفي القاموس التَّنَكَّرُ التَّغَيَّرُ عن حال تسرك إلى حال تكرهاها ﴿وَأَوْجَسَ﴾ يعني أحس وأضمر كذا في القاموس، وقال مقاتل وقع في قلبه وقال البغوي أصل الوجوس الدخول كأن الخوف دخل قلبه ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من الأضياف حين لم يأكلوا ﴿خِيفَةً﴾ خوفاً، قال: قتادة وذلك أنهم كانوا إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يأت بخير وإنما جاء بشر، قيل وذلك لأنه كان عادتهم أنه إذا مس من يطرقهم طعامهم أمنوه وإلا خافوه، فخاف أن يريدوا به مكروهاً وظنهم لصوصاً، والظاهر أنه أحس بأنهم ملائكة وخاف أن يكون نزولهم لأمر أنكروه الله عليه، أو لتعذيب قومه ﴿قَالُوا﴾ يا إبراهيم ﴿لَا تَخَفْ إِنَّا﴾ ملائكة الله ﴿أُزِيلْنَا إِلَيْكَ قَوْمَ لُوطٍ﴾ بالعذاب ﴿وَأَمْرًا نُنَزِّلُ﴾ سارة بنت هاران بن ناخور وهي ابنة عم إبراهيم عليه السلام ﴿قَابِئَةٌ﴾ من وراء الستر تسمع كلامهم وقيل: كانت قائمة تخدم الأضياف وإبراهيم جالس معهم ﴿فَضَحِكْتُ﴾ قال: مجاهد وعكرمة أي حاضت في الوقت، تقول العرب ضحكت الأرنب أي حاضت وكذا في القاموس، ويقال ضحكت السمرة إذا سال صمغها، والأكثر على أن المراد منه الضحك المعروف. واختلفوا في سبب ضحكها؟ قيل: ضحكت سروراً بزوال الخوف عنها وعن إبراهيم حين قالوا: لا تخف، وقال السدي لما قرب إبراهيم الطعام إليهم فلم يأكلوا فخاف إبراهيم وظنهم لصوصاً، ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ قالوا: إنا لا نأكل الطعام إلا بثمان، قال: إبراهيم فإن له ثمناً، قالوا: وما ثمنه؟ قال: تذكرون اسم الله على أوله وتحمدونه على آخره، فنظر جبرئيل إلى ميكائيل عليه السلام وقال: حق لهذا أن يتخذه ربه خليلاً، فلما رأى إبراهيم وسارة أيديهم لا تصل إليه ضحكت سارة، وقالت: يا عجباً لأضيافنا إنا نخدمهم بأنفسنا تكرمة

(١) سورة الذاريات، الآية: ٢٦.

لهم وهم لا يأكلون طعامنا، وقال فتادة ضحكت من غفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم، وقيل ضحكت لإصابة رأيها فإنها كانت تقول لإبراهيم أضمم إليك لوطاً فإني أعلم أن العذاب ينزل بهذا القوم وقال مقاتل والكلبي ضحكت من خوف إبراهيم من ثلاثة وهو فيما بين خدمه وحشمه، وقيل ضحكت سروراً بالبشارة بالولد وولد الولد أو بهلاك أهل الفساد وقال ابن عباس ووهب ضحكت تعجباً من أن يكون لها ولد على كبر سنها وسن زوجها، وعلى هذا القول يكون في الآية تقديم وتأخير تقديره وامراته قائمة فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ فضحكت، قرأ ابن عامر وحمزة وحفص يَعْقُوبَ بالنصب بفعل مضمير يفسره ما دل عليه الكلام، وتقديره ووهبناها وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ وقيل: إنه معطوف على موضع بإسحاق أو على لفظ إسحاق وفتحته للجر فإنه غير منصرف ورد للفصل بينه وبين ما عطف عليه بالظرف، والباقون بالرفع على أنه مبتدأ خبره الظرف أي وَيَعْقُوبُ مولود من بعد إسحاق، وقيل: تقديره ومن بعد إسحاق يولد يعقوب، وقيل الوراثة ولد الولد ولعله سمي به لأنه بعد الولد، وعلى هذا إضافته إلى إسحاق ليس من حيث أن يعقوب وراءه بل وراء إبراهيم من جهته، قال: البيضاوي فيه نظر والاسمان يحتمل وقوعهما في البشارة كيحيى، ويحتمل وقوعهما في الحكاية بعد أن ولدا فسميا به، وتوجيه البشارة إليها وتخصيصها بها للدلالة على أن الولد المبشر به يكون منها، ولأن النساء تكون أعظم سروراً بالولد من الرجال، ولأنها كانت عقيمة حريصة على الولد فبشرت بالولد وولد الولد وعلى أنها يعيش ولدها حتى يولد له وتعيش هي حتى ترى ولد ولدها.

فلما بشرت بالولد صكت وجهها أي ضربت تعجباً و﴿قَالَتْ يَتُولى﴾ يا عجباً أصله كلمة ندبة يقال في الشر، فأطلق في أمر فظيع وعند رؤية ما يتعجب منه والألف مبدلة من ياء الإضافة يدل عليه قراءة الحسن يا ويلتي بالياء على الأصل، وقيل: الألف ألف الندبة أصله يا ويلتاه ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ كانت ابنة تسعين سنة في قول ابن إسحاق وتسع وتسعين سنة في قول مجاهد ﴿وَهَذَا بَعْلِي﴾ زوجي وأصله القائم بالأمر ﴿شَيْخًا﴾ ابن مائة وعشرين سنة في قول ابن إسحاق ومائة سنة في قول مجاهد، وكان بين البشارة والولادة سنة، ونصبه على الحال والعامل فيها معنى الإشارة ﴿إِنَّ هَذَا﴾ يعني الولد من الهرمين ﴿لَشَيْءٍ عَجِيبٍ﴾ يعني خلاف العادة ﴿قَالُوا﴾ يعني الملائكة منكرين عليها في الاستعجاب ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي من قضائه وقدرته، فإن الله إذا أراد شيئاً كان، فإن قيل العجب حالة يعتري للإنسان عند رؤية أمر بديع مخالف للعادة والأمر كذلك، وكونه مقدوراً الله تعالى

لا ينافي الاستعجاب، إذ كل شيء مقدور لله تعالى وإن كان بديعاً مخالفاً للعادة فما وجه إنكارهم عليها في الاستعجاب؟ قلنا: خوارق العادات باعتبار أهل بيت النبوة ومهبط المعجزات وتخصيصهم لمزيد النعم والكرامات ليس بديع، ولا حقيق بأن يستغربه عاقل فضلاً عن من نشأت وشابت في ملاحظة الآيات ﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ قيل: هذا على معنى الدعاء من الملائكة، وقيل على معنى الخبر، والرحمة النعمة أو المحبة من الله ﷻ، والبركة النماء والزيادة في كل خير، وقيل الرحمة النبوة، والبركات الأسباب من بني إسرائيل لأن أنبياء بني إسرائيل منهم وكلهم من أولاد سارة، وجملة رحمة الله وبركاته مستأنفة في مقام التعليل للإنكار على التعجب، كأنه قيل إياك والتعجب فإن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله تعالى عليكم، هذا على تقدير كونه خبيراً ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ منصوب على المدح أو النداء لقصد التخصيص كقوله اللهم اغفر لنا أيتها العصابة، وفي الآية رد على الروافض حيث لا يزعمون أزواج النبي ﷺ من أهل البيت مع أن أهل البيت من حيث اللغة هي الأزواج وغيرهن أتباع لهن ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ﴾ فاعل ما يستوجب به الحمد ﴿مَجِيدٌ﴾ في الصحاح المجد السعة في الكرم والجلالة، والكرم يوصف به الله تعالى لإحسانه وإنعامه للتظاهرة، ويوصف به الإنسان للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه، ولا يقال هو كريم حتى يظهر ذلك منه، قال: البغوي وأصل المجد الرفعة، وقال البيضاوي كثير الخير والإحسان وفي القاموس المجيد الرفيع العالي والكريم والشريف الفعال.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ أي الخوف والفرع ﴿وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَى﴾ بإسحاق ويعقوب بدل الروع ﴿يُجَادِلُنَا﴾ جواب لِمَا جِيءَ بِهِ مضارعاً على حكاية الحال، أو لأنه في سياق الجواب بمعنى الماضي كجواب لو، أو دليل جوابه المحذوف مثل اجترى على خطابنا أو شرع في جدالنا، أو متعلق بجواب محذوف أقيم مقامه مثل أخذ أو ظل أو أقبل يجادلنا، قيل معناه يكلمنا لأن إبراهيم لا يجادل ربه وإنما يسئله ويطلب، وقال عامة أهل التفسير معناه يجادل رسلنا ﴿فِي قَوْرِ لُوطٍ﴾ وكان مجادلته أنه قال: للملائكة أرايتم لو كان في مدائن لوط خمسون من المؤمنين أتهلكونهم قالوا: لا قال: أو أربعون قالوا: لا قال: أو ثلاثون قالوا: لا حتى بلغ خمسة قالوا: لا قال: أرايتم لو كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها قالوا: لا قال: إبراهيم ﷺ عند ذلك: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَايِبِينَ﴾^(١) ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَعَلِيمٌ﴾ غير عجول على

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٣٢.

الانتقام من المسيء ﴿أَوَّاهٌ﴾ كثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس، وفي القاموس الموقن أو الدعاء أو الرحيم الرقيق أو الفقيه أو المؤمن بالحشية ﴿مُنِيبٌ﴾ راجع إلى الله والمقصود من بيان صفاته ذلك بيان الحامل على المجادلة وهو رقة قلبه وفرط ترحمه وعدم إرادة الانتقام من المسيء فقالت الرسل عند ذلك المجادلة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَعْرَضَ عَنْ هَذَا﴾ الجدال ﴿إِنَّهُمْ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾ أي حكمه بمقتضى قضائه الأزلي بعذابهم وهو أعلم بحالهم ﴿وَأَنبَأَهُمُ عَذَابُ غَيْرِ مَرْدُودٍ﴾ (٧٦) غير مصروف بجدال ولا بدعاء ولا غير ذلك.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ (٧٧)
 وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوْرُ هُنَالَى بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُزِيدُ﴾ (٧٩) قَالَ لَوْ أَن لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (٨٠)
 قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ مَنضُودٍ﴾ (٨٢) مَنضُودٍ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (٨٣)

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ يعني تلك الملائكة ﴿لُوطًا﴾ على صورة غلمان مرد حسان الوجوه ﴿سِيءَ بِهِمْ﴾ أي ساء مجيئهم لوطاً، وحزن لوط بظنه إياهم أناساً، فخاف عليهم أن يقصدتهم قومه فيعجز عن مدافعتهم، قرأ نافع وابن عامر والكسائي ﴿سِيءَ بِهِمْ﴾ و ﴿سَيِّئَتْ رُجُوهُ﴾ بإشمام السين الضم هنا وفي العنكبوت والملك، والباقون بإخلاص كسرة السين ﴿وَضَاقَ﴾ لوط ﴿بِهِمْ﴾ أي بسببهم ﴿ذَرْعًا﴾ تمييز من النسبة يعني ضاق ذرعه قال: البغوي قلبه، وقال البيضاوي ضاق بمكانهم صدره، قلت والذرع في الأصل اليد إلى المرفق أو الساعد، ويطلق على القوة كاليد، والمعنى هنا ضاقت أي ضعفت بهم طاقته ولم يجد من المكروه مخلصاً كذا في القاموس، قال: البيضاوي هو كناية عن شدة الانقباض للعجز عن مدافعة المكروه والاحتياال فيه ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ شديد، قال: قتادة والسدي خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط، فأتوا لوطاً نصف النهار وهو في أرض له يعمل فيها، وقيل: إنه يحتطب، وقد قال: الله ﷻ لهم لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، فاستضافوه فانطلق بهم، فلما مشى ساعة قال: لهم

ما بلغكم أمر هذه القرية قالوا: وما أمرهم؟ قال: أشهد بالله إنها لشر قرية في الأرض عملاً، يقول ذلك أربع مرات فدخلوا معه منزله، وروي أنه حمل الحطب وتبعته الملائكة فمر على جماعة من قومه فغمزوا فيما بينهم، فقال: لوط إن قومي شر خلق الله، ثم مر على قوم آخرين فغمزوا فقال: مثله، ثم مر بقوم آخرين ففعل مثله، فكان كلما قال: لوط هذا القول قال: جبرئيل عليه السلام للملائكة اشهدوا حتى أتى قومه، وروي أن الملائكة جاءوا إلى بيت لوط عليه السلام ولقوه في داره ولم يعلم بذلك أحد إلا أهل بيت لوط، فخرجت امرأته فأخبرت قومها وقالت إن في بيت لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط.

﴿وَجَاءُ قَوْمَهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ قال: ابن عباس وقتادة يسرعون، وقال مجاهد يُهْرَوْنَ وقال الحسن مشي بين مشيين، وقال شمر بن عطية بين الهرولة والجفر، وفي القاموس مشيء في اضطراب وسرعة، وبناء الفعل للمفعول للدلالة على كمال الإسراع والاضطراب، فالمعنى يسرعون إليه كمال إسراع كأنهم يدفعون إلى الإسراع وذلك لكمال طلبهم للفاحشة ﴿وَمِنْ قَبْلُ﴾ ذلك الوقت ﴿كَأَنَّهُمْ يَفْعَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ كانوا يأتون الرجال في أدبارهم ويعملون الفواحش فتمرّون بها ولم يستحيوا منها حتى جاءوا يهرعون لها مجاهرين ﴿قَالَ﴾ لهم لوط حين قصدوا أضيافه وظنوا أنهم غلمان ﴿يَنْقُورِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ يعني فتزوجهن وكانوا يطلبونهن قبل فلا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاتهم، لا لحرمة المسلمات على الكفار فإنه شرع طارٍ، وكان في ذلك الوقت تزويج المسلمة من الكافر جائزاً، كما زوج النبي صلى الله عليه وسلم ابنته من عتبة بن أبي لهب وأبي العاص بن الربيع قبل الوحي وكانا كافرين، وقال الحسين بن الفضل عرض بناته عليهم بشرط الإسلام، وقال مجاهد وسعيد بن جبيرة قوله ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ أراد به نساءهم أضاف إلى نفسه لأن كل نبي أبو أمته، وفي قراءة أبي بن كعب النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم «وهو أب لهم» وهذا القول يرجح من حيث المعنى بأن ابنتيه لا تصلحان لنكاح جماعة من الرجال، وقيل في جواب هذا الترجيح إنه كان لقوم لوط سيدان مطاعان، فأراد لوط أن يزوجهما ابنتيه، وقيل إنما قال: لوط هؤلاء بناتي على سبيل الدفع مبالغة في تناهي خبث ما يقصدونه، يعني أن ذلك أهون عليه منه لا على التحقيق ﴿هِنَّ أَظْهَرُ لَكُمْ﴾ يعني أنظف لكم فعلاً أو أقل فاحشة كقولك الميتة أطيب من المغصوب وأحل منه وقوله هؤلاء مبتدأ أو بناتي عطف بيان وهن فصل وأظهر خبر المبتدأ أو بناتي خبر هؤلاء وهن أظهر مبتدأ أو خبر ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك الفواحش ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ قرأ أبو عمرو بإثبات الياء وصللاً فقط أي لا تفضحوني من الخزي أو لا تخجلوني من الخزية بمعنى الحياء ﴿فِي ضَيْفِي﴾ قرأ نافع وأبو

عمرو بفتح الياء والباقون بالإسكان يعني لا تخزونني في شأن أضيافي فإن إخزاء ضيف الرجل أخزأوه ﴿الْيَسَّ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ يهتدي إلى الحق ويجتنب عن القبيح وقال ابن إسحاق رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ يا لوط ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ يعني لسن أزواجاً لنا فنستحققهن بالنكاح، وقيل معناه ما لنا فيهن من حاجة ﴿وَأِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ﴾ وهو إتيان الذكران ﴿قَالَ لَهُمْ﴾ لوط حينئذ ﴿لَوْ﴾ ثبت ﴿أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ في البدن على دفعكم لوقيت بنفسي ﴿أَوْ آوَىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أي انضم إلى عشيرة مانعة قوية امتنع به عنكم لامتنعت به عنكم حذف جواب لو، شبه العشيرة بركن الجبل في شدته أي جانبه القوي قال: في القاموس الركن بالضم الجانب الأقوى وما تقوى به من ملك أو جند وغيره والعز والمنعة، روى الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «رحم الله أخي لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد» وفي لفظ «يغفر الله للوط إن كان ليأوي إلى ركن شديد»^(١).

أخرج إسحاق وابن عساكر من طريق جرير ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس وكذا أذكر البغوي عنه أنه قال: أغلق لوط بابَه وأضيافه يعني الملائكة في الدار وهو يناظرهم ويناشدهم من وراء الباب وهم يعالجون تسور الجدار فلما رأت الملائكة ما يلقي لوط منهم ﴿قَالُوا يَلُوطُ﴾ إن ركنك لشديد ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنَ بَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب ودخلوا فاستأذن جبرئيل ﷺ ربه في عقوبتهم فأذن له، فقام في الصورة التي يكون فيها فنشر جناحه، وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الشنايا أجلى الجبين ورأسه حُبُّك حُبُّك مثل المرجان كأنه الثلج بياضاً وقدماه إلى الخضرة، فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم، فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون إلى بيوتهم، فانصرفوا وهم يقولون النجاء النجاء، فإن في بيت لوط أسحر قوم في الأرض سحرونا، وجعلوا يقولون يا لوط كما أنت حتى تصبح ونصبح وسترى ما تلقى منا غداً، يوعدونه فقال: لهم لوط متى موعد هلاكهم، قالوا: الصبح، قال: أريد أسرع من ذلك فلو أهلكتموهم الآن فقالوا أليس الصبح بقريب ثم قالوا: ﴿فَأَسْرِبْ﴾ يا لوط ﴿بِأَهْلِكَ﴾ قرأ الحرميان فأسر وأن أسر بوصل الألف حيث وقع من المجرد والباء حينئذ للتعدي، والباقون بقطعها من الأفعال والباء زائدة ومعناه السير في الليل ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ قال: ابن عباس بطائفة من الليل، وقال الضحاك بقيته، وقال قتادة بعد ما مضى أوله، وقيل أنه

(١) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قوله عز وجل ﴿وَنَبِّئَهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾

(٢٣٧٢) وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة (١٥١).

السحر الأول ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أي لا ينصرف منكم أحد من السير فيختلف عنك، في القاموس لفته يلفته لواه وصرفه عن رأيه ومنه الالتفات والتلفت، قلت فالمجرد منه متعد والالتفات لازم بمعنى الانصراف، وقيل معنى لا يَلْتَفِتُ لا ينظر من ورائه، فالأمر بالإسراء متوجه إلى لوط والنهي عن الانصراف أو النظر إلى الورا متوجه إلى من تبعه ﴿إِلَّا أَمْرًا لَكَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالرفع على إنه يدل من أحد، فهي مستثناة من النهي عن الانصراف والتخلف أو من النظر إلى الورا، قال: البغوي معنى الآية على هذه القراءة لا يلتفت أحد إلا امرأتك فإنها تلتفت فتهلك، وكان لوط قد أخرجها معه ونهى من تبعه ممن أسرى بهم أن يلتفت سوى زوجته، فإنها لما سمعت هذة العذاب التفتت وقالت يا قوماء فأدركها حجر وقتلها، وقرأ أكثر القراء بالنصب على الاستثناء فاختلفوا فقال: البغوي وغيره استثناء من الإسراء أي فأسر بأهلك إلا امرأتك فلا تسر بها وخلفها مع قومها، فإن هواها إليهم وتصدقه قراءة ابن مسعود فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك ولا يلتفت منكم أحد ومقتضى هذا الكلام أن في إخراجها مع أهله روايتان، إحداهما أنه أخرجها معهم وأمروا أن لا يلتفت منهم أحد إلا هي فالتفت وقالت يا قوماء، وثانيهما أنه أمر بإسراء غيرها من أهله، فإن هواها إليهم فلم يسر بها، واختلاف القراءتين لاختلاف الروايتين، كذا قال: صاحب المدارك وهذا القول غير سديد فإن الروايتين متناقضتان لا يمكن جمعهما فإن خروجها وعدم خروجها نقيضان، فإحداهما باطل بيقين والقراءتان قطعتان ولا يصح حمل القواطع على المعاني المتناقضة، ولهذا قال: البيضاوي الأولى جعل الاستثناء في القراءتين عن قوله ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ ومثله قوله تعالى ﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(١) وإلا قليلاً على القراءتين، ويرد عليه أن مختار النحويين في كلام غير موجب البديل وإن كان الجائز النصب أيضاً، فحمل قراءة أكثر القراء على غير الأفصح غير ملائم، وأجاب عنه البيضاوي بأنه لا بعد أن يكون أكثر القراء على غير الأفصح لكونه فصيحاً أيضاً، ولا يلزم من ذلك يعني من الاستثناء من النهي عن الالتفات أمرها بالالتفات بل عدم نهيتها عنه استصلاحاً، ولذلك علله على طريقه الاستئناف بقوله ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ قلت وعلى ما ذكر البيضاوي محمل قراءة ابن مسعود أنه من كلام ابن مسعود قاله تفسيراً للقرآن على رأيه، يعني جعل الاستثناء من الأهل كما هو رأي أكثر المفسرين والله أعلم، قلت وجزاز أن يكون الاستثناء على قراءة النصب منقطعاً، فإن امرأة لوط لم تكن من أهله لأنها كانت كافرة على غير عمل صالح، وقد قال: الله تعالى لنوح

(١) سورة النساء، الآية: ٦٦.

في ابنه الكافر ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾^(١) فلم تكن من أهله في المخاطبين بقوله: ﴿وَلَا يَلْفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ وأما على قراءة الرفع فاعتبرت من أهله من زمرة المخاطبين نظراً على وصلة النكاح، ولا منافاة بين الاعتبارين، قلت: ويمكن أن يقال قراءة النصب على الاستثناء من الأهل وقراءة الرفع على الاستثناء من أحد ولا منافاة بينهما، وليس بناء القراءتين على روايتي خروج امرأة لوط وعدم خروجها بل يصح معنى القراءتين على كل من الروايتين فإنه على تقدير الاستثناء من الأهل معنى الآية أسر بأهلك إلا بامراتك ومقتضاه كون لوطاً فأموراً بحملهم جميعاً على السير غير امرأته وذاً لا يستلزم خروجهم ولا عدم خروجهم، فكيف يقتضي خروجها وهي لم تكن مؤتمرة بلوط، ولم يكن لوط مأموراً بإخراجها، ولا يقتضي أيضاً عدم خروجها وإن كان لوط لم يأمرها بالخروج، وعلى تقدير الاستثناء من الالتفات النهي من الالتفات متوجه إلى لوط ومن معه غير امرأته وذاً أيضاً لا يستدعي خروجها ولا عدم خروجها، فإن المستثنى في حكم المسكوت عنه فلعلها خرجت والتفتت كما روي ولعلها لم تخرج أصلاً، وإن كان لوط أمرها بالخروج فإنها لم تكن مؤتمرة له، ولعل البيضاوي نظر إلى ما قلت حتى قال: والأولى جعل الاستثناء في القراءتين عن قوله لا يلتفت ولم يقل فالواجب ذلك والله أعلم ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ وكان علة للأمر بالإسراء أي موعد هلاكهم وقت الصبح فقال: لوط أريد أسرع من ذلك فقال: ﴿الَّذِينَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أي عذابنا أو أمرنا به ويؤيده جعل التعذيب مسبباً عنه بقوله ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾ كان حقه جعلوا عَلَيْهَا أي الملائكة المأمورون به، فأسند إلى نفسه من حيث أنه المسبب تعظيماً للأمر، قال البغوي: وذلك أن جبرئيل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوى لمؤتفكات وهي خمس مدن وفيها أربعة مائة ألف وقيل أربعة آلاف ألف، فرفع المدائن كلها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونياح الكلاب ولم يكفأ لهم إناء ولم يتببه لهم نائم ثم قلبها فجعل عاليها سافلها، وكذا أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أي على المدن يعني على شواذها ومسافريها وقيل بعد قلبها أمطر عليهم ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ قال: ابن عباس وسعيد بن جبيرة معربة، سند كل، وقال قتادة وعكرمة السجيل الطين دليله قوله ﷺ: ﴿لِئَرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾^(٢) وقال مجاهد أولها حجارة وآخرها طين، وقيل

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٣٣.

(١) سورة هود، الآية: ٤٦.

الحسن كان أصل الحجارة طيناً فشدت، وقال الضحاك يعني الأجر، وقيل: إنه من أسجله إذا أرسله وإذا أعطيته، والمعنى من مثل شيء المرسل أو من مثل العطية في الإدراد، أو من السجل أي مما كتب الله أن يعذبهم به، وقيل: أصله من سجين أي من جهنم فأبدلت نونه لاماً، وقيل: السجيل اسم للسماء الدنيا، وقيل: هو جبال في السماء، قال: الله تعالى: ﴿وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِزَابًا مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾^(١) ﴿مَنْصُوبٌ﴾ قال ابن عباس متتابع مفعول من نضد وهو وضع الشيء بعضه فوق بعض ﴿مَنْصُوبٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ منصوب على الحال من حجارة ومعناه معلمة، قال: ابن جريج عليها سيما لا يشاكل حجارة الأرض، وقال قتادة وعكرمة عليها خطوط حمر على هيئة الجُرْع، وقال الحسن والسدي كانت مختومة عليها أمثال الخواتيم ومكتوب على كل حجر اسم من رمى به ﴿وَمَا هِيَ﴾ أي الحجارة ﴿مِنَ الظَّلِيلَاتِ﴾ أي من مشركي مكة، وقال البغوي قال: قتادة وعكرمة يعني من ظالمي هذه الأمة، وكذا أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة ﴿بِعِيدٍ﴾ فإنهم بظلمهم حقيق بأن يمتطروا حجارة، قال: قتادة وعكرمة والله ما أجاز الله منها ظالماً بعد، قال: البغوي وفي بعض الآثار ما من ظالم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة، وفي البيضاوي أنه ﷺ سأل جبرئيل فقال: يعني ظالمي أمتك ما من ظالم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة قال السيوطي ذكره الثعلبي بغير إسناد ولم أقف له على إسناد، وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الربيع في الآية قال: كل ظالم فيما سمعنا قد جعل بحذائه حجر ينتظر متى يؤمر أن يقع به، وقيل: الضمير للقري أي هي قريبة من ظالمي مكة يملون عليها في أسفارهم إلى الشام فليعتبروا بها، وتذكير البعيد على تأويل الحجر أو المكان.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرِيدُ عَلَيْكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُونَ﴾^(٨٧) وَيَقَوْمِ أَتَوْا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَشْعِيبُ أَسْلَوْنَاكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ يَتْنٍ مِّن رَّبِّي

(١) سورة النور، الآية: ٤٣.

وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ مِنْكَ مَالًا وَلَوْ أَنِّي رَأَيْتُ أَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْرًا فَإِنِّي لَمِنَ الْخَائِبِينَ ﴿٨٨﴾ وَيَقُولُ لَوْلَا رَبُّهُ إِذْ بَدَأَ الْبَشَرَةَ لَأَمْلَأَهُنَّ مِنْكَ إِنِّي لَهُ كَنُودٌ وَبَصِيرٌ ﴿٨٩﴾ وَأَسْتَفِرُّوهُ رَبِّكُمْ ثُمَّ نُؤْتُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَنْقَوِرَ أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَقُولُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَائِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَنَّتِيمٌ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا آلَا بَعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

﴿وَأَنَّ مَدِينًا﴾ أراد أولاد مدين بن إبراهيم عليه السلام أو أهل مدين وهو بلد بناه فسمى باسمه ﴿أَخَانُمْ﴾ في النسب ﴿شُعَيْبًا﴾ قال يَنْقَوِرُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴿أمرهم أولاً بالتوحيد فإنه ملاك الأمر، ثم نهاهم عما اعتادوه من البخس المنافي للعدل المخل بحكمة المعارضة ﴿إِنِّي﴾ قرأ نافع والبيزي وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَرَبَكُمْ بِخَيْرٍ﴾ قال: ابن عباس يعني مؤسرين في نعمة وسعة ليست بكم حاجة في أن تبخسوا حقوق الناس، أو المعنى أنتم في نعمة حقها أن تشكروا الله وتفضلوا على الناس لا أن تنقصوا حقوقهم، وقال مجاهد حذرهم زوال النعمة وغلاء السعر وحلول النعمة إن لم يتوبوا ﴿رَأَيْتُ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالإسكان ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ يحيط بكم ويهلككم جميعاً لا يشذ منه أحد منكم، وقيل: عذاب مهلك من قوله: ﴿وَأَحِيطَ بِشَعْرِي﴾^(١) والمراد عذاب يوم القيامة أو عذاب الاستئصال وصف اليوم بالإحاطة وهي صفة العذاب لاشتماله عليه ﴿وَيَقُولُ أَوْفُوا بِالْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانَ﴾ صرحا لأمر بالإيفاء بعد النهي عن ضده مبالغة وتنبيهاً على أنه لا يكفيهم الكف، عن تعمد التطفيف بل يلزمهم السعي بالإيفاء ولو بزيادة لا بتأني دونها، ولذلك قال: أبو حنيفة من اشترى مكيلاً مكائلةً أو موزوناً موازنةً لم يجز للمشتري منه أن يبيعه ولا أن يأكله حتى يعيد الكيل والوزن لما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع الطعام

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٢.

حتى يجري فيه الصاعان صاع البائع وصاع المشتري^(١) رواه ابن ماجه وإسحاق بن أبي شيبه من حديث جابر، وأعل بعبد الرحمن بن أبي ليلى، ورواه البزار من حديث أبي هريرة نحوه ومن حديث أنس وابن عباس من طريقين ضعيفين، قال: ابن همام هذا الحديث حجة لكثرة تعدد طرقه وقبول الأئمة إياه، فإنه قد قال: بقولنا هذا مالك والشافعي وأحمد، وقال رسول الله ﷺ «زن وأرجح فإننا معاشر الأنبياء هكذا نزن»^(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم وصححه وابن حبان من حديث سويد بن قيس ﴿قَائِمًا﴾ أي بالعدل ﴿وَلَا يَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ تعميم بعد تخصيص، فإنه أعم من أن يكون في المقدار أو في غيره وكذا قوله ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ﴾ فإن العتو يعم تنقيص الحقوق وغيره من أنواع الفساد، وقيل: المراد بالبخس المكس كأخذ العشور من المعاملات ومن العتو السرقة وقطع الطريق والغارة ﴿مُفْسِدِينَ﴾ قيل فائدته إخراج ما يقصد به الصلاح كما فعله الخضر ﷺ وقيل: معناه ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أمر دينكم ومصالح آخرتكم والظاهر إنه حال مؤكدة لمعنى عاملها لأن عتى بمعنى أفسد ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ قال: ابن عباس يعني ما أبقي الله لكم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن خير مما تأخذونه بالتطفيف وقال مجاهد بقية الله طاعة الله خير لكم، نظيره قوله تعالى ﴿وَالْبَقِيَّتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ﴾^(٣) ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني خيريتها مشروطة بالإيمان، إذ لا أجر على الخيرات إلا للمؤمنين ويحبط الله أعمال الكافرين، وقيل: معناه إن كنتم مصدقين لي في قولي لكم فافعلوا ما أمرتكم من إيفاء الكيل والوزن ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِمَفْظٍ﴾ أحفظكم عن القبائح أو أحفظ عليكم أعمالكم فأجازيكم عليها إنما أنا ناصح مبلغ وقد أعدرت حين أنذرت، أو لست بحافظ عليكم نعمة الله لو لم تتركوا سوء صنيعكم.

﴿قَالُوا يَسْئِبُ أَصْلُوكَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص على الأفراد والباقون

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب: التجارات، باب: النهي عن بيع الطعام ما لم يقبض (٢٢٢٨).

في الزوائد: في إسناده محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى وهو ضعيف.

(٢) عند أصحاب السنن «زن وأرجح» فقط.

أخرجه الترمذي في كتاب: البيوع، باب: ما جاء في الرجحان في الوزن (١٣٠٥) وأخرجه أبو داود

في كتاب: البيوع، باب: في الرجحان في الوزن والوزن بالأجر (٣٣٣٤) وأخرجه النسائي في

كتاب: البيوع، باب: الرجحان في الوزن (٤٥٨٩).

(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٦.

صَلَّوَاتِكَ عَلَى الْجَمِيعِ، قَالَ: ابْنُ عَبَّاسٍ كَانَ شَعِيبٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَثِيرَ الصَّلَاةِ لِذَلِكَ قَالُوا: هَذَا الْقَوْلُ وَقَالَ الْأَعْمَشُ يَعْنِي إِقْرَاءَتَكَ **﴿تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ﴾** عِبَادَةَ **﴿مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾** مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْمَعْنَى أَصْلَاتِكَ تَأْمُرُكَ تَكْلِيفَاتٍ إِيَّانَا أَنْ نَتْرَكَ فَحَذَفَ الْمُضَافَ، وَوَجْهٌ هَذَا التَّقْدِيرُ أَنَّ الرَّجُلَ لَا يُؤْمَرُ بِفِعْلٍ غَيْرِهِ أَجَابُوا أَمْرَهُمُ بِالتَّوْحِيدِ بِالاسْتِهْزَاءِ وَالتَّهْكَمِ بِصَلَاتِهِ وَالإِشْعَارِ بِأَنَّ مِثْلَهُ لَا يَدْعُو إِلَيْهِ دَاعٍ عَقْلِي وَإِنَّمَا دَعَاكَ إِلَيْهِ خَطَرَاتٌ وَوَسَاوِسٌ مِنْ جِنْسٍ مَا تَوَاطَبَ عَلَيْهِ، وَكَانَ كَثِيرَ الصَّلَاةِ كَذَا قَالَ: ابْنُ عَبَّاسٍ وَلِذَلِكَ جَمَعُوا لَفْظَ الصَّلَاةِ وَخَصَّوْهَا بِالذِّكْرِ **﴿أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُا﴾** عَطَفَ عَلَى الْمَوْصُولِ يَعْنِي أَوْ نَتْرَكَ أَنْ نَفْعَلَ مَا نَشَاءُ وَهُوَ جَوَابُ النَّهْيِ عَنِ التَّطْفِيفِ وَالأَمْرِ بِالإِيفَاءِ **﴿عَلَّمْتَنَا﴾** يَا شَعِيبُ **﴿لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾** قَالَ: ابْنُ عَبَّاسٍ: أَرَادُوا السَّفِيهَ الْغَاوِيَّ كَمَا أَنَّ الْعَرَبَ يَصِفُ الشَّيْءَ بِضَدِّهِ فَيَقُولُ لِلدَّبِغِ سَلِيمٌ وَلِلْفَلَاةِ مَفَازَةٌ، وَقِيلَ: قَالُوهُ عَلَى وَجْهِ الاسْتِهْزَاءِ وَقَصَدُوا وَصَفَهُ بِضَدِّهِ وَالفَرْقُ بَيْنَ التَّأْوِيلَيْنِ أَنَّ اللَّفْظَ عَلَى التَّأْوِيلِ الْأَوَّلِ مَجَازٌ وَعَلَى الثَّانِي حَقِيقَةٌ كِنَايَةٌ عَنِ الذَّمِّ، وَقِيلَ مَعْنَاهُ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ بِزَعْمِكَ، وَقِيلَ: هُوَ عَلَى الْحَقِيقَةِ مِنْ غَيْرِ كِنَايَةٍ وَالْمَعْنَى أَنْتَ أَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ فِي زَعْمِنَا مَا كُنَّا نَزْعَمُ بِكَ أَنْ تَقُولَ مِثْلَ مَا قُلْتَ كَمَا قَالَ: قَوْمٌ صَالِحٌ **﴿قَدْ كُنْتَ فِيْنَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾**.

﴿قَالَ يَقْوَرُ أَرَهَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَنْبَغٍ﴾ بَصِيرَةٌ وَبَيَانٌ وَاضِحٌ **﴿مِنْ رَبِّي﴾** بِالْوَحْيِ وَالنَّبْوَةِ **﴿وَرَزَقْنِي مِنْهُ﴾** أَي مِنْ اللَّهِ بَلَا كَدٍ مَنِي فِي تَحْصِيلِهِ حَالٌ مِنْ رِزْقًا قَدِمَ عَلَيْهِ لَكُونَ نَكْرَةً **﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾** حَلَالًا قِيلَ كَانَ شَعِيبٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَثِيرَ الْمَالِ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ فَهَلْ يَجُوزُ لِي أَنْ أَخُونُ فِي وَحْيِهِ وَأُخَالَفَهُ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَهُوَ اعْتِدَارٌ عَمَّا أَنْكَرُوا عَلَيْهِ مِنْ مَخَالَفَةِ دِينِ الْقَوْمِ **﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنهَيْتُمْ عَنْهُ﴾** يَعْنِي مَا أُرِيدُ أَنْ أُرْتَكِبَ مَا أَنهَاكُمْ عَنْهُ فَلَوْ كَانَ ثَوَابًا مَا تَرَكْتَهُ وَلَكِنِّي أَحِبُّ لَكُمْ مَا أَحَبُّ لِنَفْسِي وَأَكْرَهُ لَكُمْ مَا كَرِهْتُ لِنَفْسِي، يُقَالُ خَالَفْتَ زَيْدًا إِلَى كَذَا إِذَا قَصَدْتَ شَيْئًا وَهُوَ تَارِكُهُ، وَخَالَفْتَهُ عَدَمٌ إِذَا تَرَكْتَ مَا هُوَ فَاعِلُهُ **﴿إِنْ أُرِيدُ﴾** بِالنَّهْيِ عَنِ الإِشْرَاقِ وَالتَّطْفِيفِ وَالأَمْرِ بِالتَّوْحِيدِ وَالإِيفَاءِ **﴿إِلَّا الإِصْلَاحَ﴾** يَعْنِي إِصْلَاحَكُمْ وَإِخْلَاءَ الْعَالَمِ مِنَ الْفَسَادِ **﴿مَا اسْتَطَعْتُ﴾** مَا مَصْدَرِيَّةٌ وَاقِعَةٌ مَوْضِعَ الظَّرْفِ أَي مَدَّةَ اسْتَطَاعَتِي لِلإِصْلَاحِ وَمَا دَمْتُ مَتَمَكِّنًا مِنْهُ لَا أَلُو جَهْدًا، أَوْ مَوْصُولَةٌ بِدَلٍّ مِنَ الإِصْلَاحِ أَي الْمَقْدَارِ الَّذِي اسْتَطَعْتَهُ أَوْ إِصْلَاحِ مَا اسْتَطَعْتَهُ فَحَذَفَ الْمُضَافَ **﴿وَمَا تَوْفِيقِي﴾** قَرَأَ نَافِعٌ وَأَبُو عَمْرٍو وَابْنُ عَامِرٍ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَالبَاقُونَ بِإِسْكَانِهَا وَالتَّوْفِيقُ جَعْلُ الْأَسْبَابِ مُوَافِقًا لِلْمَطْلُوبِ الْخَيْرِ، يَعْنِي مَا يَتيسَّرُ لِي إِصَابَةُ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ **﴿إِلَّا بِاللَّهِ﴾** أَي بِهَدَايَتِهِ وَمَعُونَتِهِ **﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾** فَإِنَّهُ الْقَادِرُ الْمُتَمَكِّنُ عَلَى

كل شيء وما عداه عاجز في حد ذاته بل معدوم ساقط عن درجة الاعتبار، وفيه إشارة إلى محضر التوحيد الذي هو أقصى مراتب العلم بالمبدأ، والتوكل من مقامات الصوفية العلية رحمهم الله ﴿وَالَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي أرجع فيما ينزل بي من النوائب، وقيل: في المعاد وهو أيضاً يفيد الحصر بتقديم الصلة على الفعل، والإنابة طلب التوفيق لإصابة الحق فيما يأتي ويذر من الله والاستعانة في مجامع الأمور والإقبال عليه بشر أشره، وفيه قطع لإطماع الكفار وإظهار لعدم المبالاة بهم وتهديد لهم بالرجوع إلى الله للجزاء ﴿وَيَنْقُورُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي يكسبنكم ﴿شِقَاقِي﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها يعني خلافي وعدواتي ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ﴾ من العذاب ﴿مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ من الفرق ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ﴾ من الريح ﴿أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ من الرجفة والصيحة، وأن يصيبكم ثاني مفعولي بجرم فإنه يتعدى إلى واحد وإلى اثنين ككسب ﴿وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ بالزمان فإنهم أقرب الهالكين منكم زماناً حتى تعلمون ما حاق بهم، أو المعنى ما ديار قوم لوط منكم ببعيد بالمكان فإنهم كانوا جيرانهم، أو المعنى ما قوم لوط منكم ببعيد فيما تستحقون به العذاب من الكفر والمعاصي، وإفراد البعيد لأن المراد وما إهلاكهم أو ما هم بشيء بعيد أو ما مكانهم ببعيد، وقيل القريب والبعيد والقليل والكثير يستوي فيها المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التي هي الضهيل والنهيق ونحوهما ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ لما صدر منكم في الماضي بالإيمان والندامة على المعاصي وطلب المغفرة ﴿ثُمَّ تَوُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أي ارجعوا إليه وإلى امثال أو أمره الانتهاء عن مناهيه في المستقبل ﴿إِنَّ رَبِّيَ رَحِيمٌ﴾ عظيم الرحمة للمؤمنين التائبين ﴿وَدُودٌ﴾ فعول من الود يجيء بمعنى الفاعل والمفعول يعني محب للمؤمنين ومحبوبهم وعد على التوبة بعد الوعيد على الإصرار.

﴿قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ﴾ أي لانفهم ﴿كثيراً مِمَّا تَقُولُ﴾ كوجوب التوحيد وحرمة البخس وما ذكرت دليلاً عليهما، وذلك لقصور عقلهم وعدم تفكرهم، وقيل قالوا: ذلك استهانة لكلامه أو لأنهم لم يلقوا إليه أذهانهم لشدة نفرتهم، قلت: بل لما طبع الله على قلوبهم فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يطلعها على ما يشاء ويصرفها عما يشاء ﴿وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ لا قوة لك فتمنع منا إن أردنا بك سوءاً أو مهيناً لا عزلك فينا، قال: البغوي وذلك أنه كان ضرير البصر فأرادوا ضعف البصر، وقيل: الضعيف بلغة حمير هو الأعمى والتقيد بالظرف يأبى عن هذا المعنى فائدة: منع بعض المعتزلة كون الأعمى نبياً قياساً على القضاء والشهادة، والفرق بين، وذهاب بصر يعقوب عليه السلام

ثابت بالنص قال: الله تعالى: ﴿وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنْ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾^(١) وقال ﴿فَأَزْتَدَّ بَصِيرًا﴾^(٢) ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ يعني لولا قومك لقتلناك برمي الحجارة، قال: البغوي كان شعيب في منعة من قومه، وقال البيضاوي معناه لولا عزة قومك عندنا لكونهم على ملتنا لا لخوف من شوكتهم فإن الرهط من الثلاثة إلى العشرة، وقيل: إلى السبعة قلت ويؤيد الأول قوله تعالى: ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾^(٣) وفي الصحاح الرهط العصابة دون العشرة وقيل: بل إلى الأربعين وقال الجزري في النهاية الرهط من الرجال ما دون العشرة وقيل: إلى الأربعين ولا تكون فيهم امرأة، وفي القاموس الرهط قوم الرجل وقبيلته ومن ثلاثة إلى سبعة أو إلى عشرة أو ما دون العشرة وما فيهم امرأة ولا واحد له من لفظه، قلت: وكلام البغوي يشعر أنه قوم الرجل مطلقاً كما فسره صاحب القاموس أولاً والله أعلم ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ فيمنعنا عزتك عن الرجم وهذا دأب السفية المحجوج يقابل الحجج والبيانات بالسب والتهديد وفي إيلاء ضميره حرف النفي تنبيه على أن الكلام فيه لا في ثبوت العزة، وأن المانع لهم عن إيذائه عزة قومه ولذلك ﴿قَالَ﴾ شعيب ﴿يَنْقُورِ أَرْهَطِي﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن ذكوان بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ أَخْذُهُمْ وَرَاءَ كُمِ ظَهْرًا﴾ يعني تركتم قتلي لأجل رهطي وما باليتم بنسبتي من الله بالرسالة وجعلتم الله كالمنسي المنبوذ وراء الظهر بإشراككم به وإهانة رسوله، والاستفهام يحتمل الإنكار والتوبيخ والرد والتكذيب والظُّهْرِيُّ المنسوب إلى الظهر والكسر من تغيرات النسب ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء منها فيجازي عليها.

﴿وَيَنْقُورِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ﴾ على تمكنكم من عداوتي مطيعين لها ﴿إِنِّي عَاوِلٌ﴾ على تمكني ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ من استفهامية معلقة لفعل العلم عن عمله فيها كأنه قيل سوف تعلمون أي أتية عذاب يخزيه أنا وإياكم أي يفضحه وأينا هو كاذب، أو موصولة قد عمل فيها كأنه قيل سوف تعلمون الشقي الذي يأتيه العذاب، وقد سبق مثل هذه الآية في الأنعام، لكن أورد الفاء هناك للتصريح بأن الإصرار والتمكن فيما هم عليه سبب لذلك، وحذفها هنا فقال: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ لأنه جواب سأل كأنه قال: فماذا يكون بعد ذلك وهذا أبلغ في التهويل ﴿وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾ عطف على من يأتيه لا

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٤.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٩٦.

(٣) سورة النمل، الآية: ٤٨.

لأنه قسيم له بل لأنهم أوعدوه وكذبوه فقال: سوف تعلمون من المعذب والكاذب أنا أو أنتم، وقيل: كان قياسه ومن هو صادق لينصرف الأول إليهم والثاني إليه، لكنهم لما كانوا يدعونه كاذباً قال: ومن هو كاذب على زعمهم، وقيل محل من الرفع تقديره ومن هو كاذب يعلم سوء عاقبته ﴿وَأَرْتَقِبُوا﴾ وانتظروا والعاقبة وما أقول لكم ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ منتظر فعيل بمعنى الراقب كالصريم، أو المراقب كالعشير أو المرتقب كالرفيع ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ ذكر ههنا بالواو كما في قصة عاد، إذ لم يسبقه ذكر وعد يجري مجرى السبب له، بخلاف قصتي صالح ولوط فإنه ذكر بعد الوعد وذلك قوله: ﴿وَعَدُّ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾^(١) وقوله: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾^(٢) ولذلك جاء بفاء السببية ﴿بِحِجَّتِنَا شُعْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ قيل: إن جبرئيل ﷺ صاح صيحة فخرجت أرواحهم، وقيل أتاهم صيحة من السماء فأهلكتهم ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جُثُومًا﴾ ميتين وأصل الجثوم اللزوم في المكان ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ كأن لم يقيموا فيها أحياء متصرفين مترددين ﴿أَلَا بُعْدًا﴾ هلاكاً ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ ألا بعداً لمدن كما بعدت ثمود ﴿شَبَّهَهُمْ بِهِمْ﴾ لأن عذابهم كان أيضاً بالصيحة غير أن صيحة ثمود كانت من تحتهم وصيحة مدين كانت من فوقهم، أصله بُعِدَتْ بضم العين والكسر لتخصيص معنى البعد بما يكون بسبب الهلاك، والبُعد بضم الباء مصدر لهما وبفتح الباء والعين مصدر المكسور.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِنْ فِرْعَوْنُ وَمَلَائِيهٖ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَتَسَّ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَسَّ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهِمُّمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْسِيرٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَلِكَ أَخَذُ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنْ أَخَذَهُ ءَالِيٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّورٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُقُوتٌ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾

(١) سورة هود، الآية: ٦٥.

(٢) سورة هود، الآية: ٨١.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ أي بالمعجزات وليس المراد آيات التوراة لنزولها بعد هلاك فرعون ﴿وَمُسْلَطِينَ مُبِينِينَ﴾ أي غلبة ظاهرة غلب بها مع كونه رجلاً واحداً على فرعون وجنوده، ولم يقدر فرعون على إهلاكه مع حرصه على ذلك، قيل المراد به العصا وأفردها بالذكر لكونه أبهرها، ويجوز أن يراد بهما واحد، يعني ولقد أرسلناه بالجامع بين كونه آياتنا وسلطاناً له على نبوته وأضحاً في نفسه أو موضحاً إياه، فإن أبان جاء لازماً ومتعدياً، والفرق بين الآية والسلطان أن الآية يعم الإمارة والدليل القاطع، والسلطان يخص القاطع والمبين يخص بما فيه جلاء ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَمَلَأِيهٖ فَاتَّبَعُوْا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ في الكفر والطغيان والانهماك في الضلال ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي ذي رشد وإنما هو غي وضلال والرشد يستعمل في كل ما يحمد ويرتضى، ضد الغي فإنه يستعمل في كل ما يذم، وفيه تجهيل لمتبعيه حيث اتبعوه على أمره مع كونه بديهي البطلان، حيث ادعى الألوهية مع كونه بشراً مثلهم، وجاهر بالظلم والكفر والشرك، وترك متابعة موسى الهادي إلى الحق المؤيد بالعقل والنقل والمعجزات الظاهرة ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾ أي يتقدمهم يقال قدم بمعنى تقدم ﴿يَوْمَ الْفَيْصَمَةِ﴾ إلى النار كما كان يقدمهم في الدنيا إلى الضلال ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ ذكره بلفظ الماضي مبالغة في تحقيقه ونزل النار لهم منزلة الماء حتى سمي إتيانها وروداً ﴿وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ أي بشس الورد الذي وروده فإنه يراد لتبريد الكبد وتسكين العطش، والنار بالضد والآية كالدليل على قوله ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ فإن من هذا عاقبته لا يكون في أمره رشد أو تفسير له على أن المراد بالرشيد ما يكون مأمون العاقبة حميدها ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ﴾ الدنيا ﴿لَعْنَةُ﴾ يعني لعنوا على السنة الأنبياء والمؤمنين في الدنيا ﴿وَيَوْمَ الْفَيْصَمَةِ﴾ يلعنون أيضاً ﴿بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ اللعنة أي بشس العون المعان أو العطاء المعطي، وأصل الرfid ما يضاف إلى غيره ليعمده وفي القاموس الإرفاد الإعانة والإعطاء.

﴿ذَلِكَ﴾ مبتدأ وما بعده خبره يعني هذا النبا الذي أنبأناك ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى﴾ أي بعض أخبار القرى المهلكة ﴿نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ مقصوص نبأ عليك خبر بعد خبر ﴿مِنْهَا﴾ أي بعض ذلك ﴿قَتَائِمٍ﴾ أي باق آثارها ﴿وَحَصِيدٍ﴾ ومنها عافي الآثار كالزراع المحصود، قال مقاتل قائم يرى له أثر وحصيد لا يرى له أثر، وقيل: منها قائم يعني عامر وحصيد يعني خراب، والجملة مستأنفة وليس بحال من ضمير نَقُصُّهُ لعدم الواو والضمير ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ﴾ الضمير عائد إلى القرى والمراد بها أهلها يعني ما ظلمناهم بإهلاكنا إياهم ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بأن عرضوها له بارتكاب ما يوجهه من الكفر والمعاصي ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ﴾ يعني

ما نفعتهم ولا قدرت على أن يدفع عنهم العذاب ﴿ءَالِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ من الإغناء ﴿لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي عذابه ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْنِيبٍ﴾ غير تدمير وتخسير ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي مثل هذا الأخذ الذي ذكرنا في القصص المذكورة ﴿أَخَذَ رَبُّكَ﴾ مبتدأ كذلك خبره مقدم عليه ﴿إِذَا أَخَذَ الْقُرَى﴾ أي أهلها ﴿وَهِيَ ظَلِيمَةٌ﴾ حال من القرى وهي في الحقيقة لأهلها لكنها لما أقيمت مقامهم أجريت عليها، وفائدتها الإشعار بأنهم إنما أخذوا بظلمهم ﴿إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ وجيع لا يرجى الخلاص منه، عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملي الظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، قال: ثم قرأ ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَلِيمَةٌ﴾^(١) الآية رواه الشيخان في الصحيحين والترمذي وابن ماجه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي فيما نزل بالقرى الهالكة وما قصه الله عليك ﴿لَايَةً﴾ لعبرة ﴿لِمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ فإنه يعتبر به عظمته ويعلم بأن ما حاق بهم أنموذج مما أعد الله للبحر من أو المعنى ينزجر به عن المعاصي لعلمه بأنها من إله مختار ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾^(٢) وأما من أنكر الآخرة فهو كالأنعام لا بصر له ولا بصيرة فلا يعتبر بل يحيلها إلى الاتفاق ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى يوم القيامة دل عليه عذاب الآخرة ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ﴾ أي يجمع له الناس أي لما فيه من المحاسبة والمجازاة والتغير للدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم، وإنه من شأنه لا محالة وإن الناس لا ينفكون عنه ﴿وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٍ﴾ أي مشهود فيه يشهد فيه الشهداء على الناس، أو مشهود فيه الخلائق الموقف لا يغيب منهم أحد، واتسع فيه بإجراء الظرف مجرى المفعول ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ﴾ أي ذلك اليوم قرأ يعقوب بالياء على الغيبة أي ما يؤخر الله ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أي إلا لانتهاى مدة معدودة معلومة عند الله على حذف المضاف وأراد مدة التأجيل كلها بالأجل لا منتهاها فإنه لا تعدد فيه ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ أي الجزاء أو اليوم على اليوم بمعنى حين أو الله تعالى كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾^(٣) ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾^(٤) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة يأت بحدف الياء اجتزاء عنها بالكسرة ونافع وأبو عمرو والكسائي بالياء أصلاً فقط وابن كثير في الحالين، والظرف متعلق باذكر أو بانتهاى المحذوف أو بقوله ﴿لَا تَكَلِّمُ﴾ بحدف إحدى

(١) أخرجه البخاري في كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَلِيمَةٌ﴾ (٤٦٨٦) وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم (٢٥٨٣).

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٢١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٠.

(٤) سورة الفجر، الآية: ٢٢.

التائين أي لا تتكلم ﴿نَفْسٌ﴾ ما ينفع وينجي من جواب أو شفاعة ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي إلا إذن الله نظيره: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾^(١) ﴿فَمِنْهُمْ﴾ الضمير لأهل الموقف دل عليهم قوله ﴿لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ﴾ أو للناس في قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ﴾ ﴿شَقِيٌّ﴾ كتب عليه الشقاوة ﴿وَسَعِيدٌ﴾ كتب له السعادة عن علي بن أبي طالب قال: خرجنا على جنازة فيينا نحن بالبقيع إذ خرج علينا رسول الله ﷺ وبیده مخرصة، فجاء ثم جلس فنكت بها الأرض ساعة ثم قال: «ما من نفس منفوسة إلا قد كتب مكانها من الجنة أو النار وإلا قد كتب شقي وسعيد» قال: فقال: رجل ألا نتكل على كتابنا يا رسول الله وندع العمل؟ قال: «لا ولكن اعملوا فكل ميسر فأما أهل الشقاء فيسروا لعمل أهل الشقاوة وأما أهل السعادة فيسروا لعمل أهل السعادة قال: ثم تلا ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَكَى﴾ ﴿٥﴾ وَصَدَقَ بِالْحَسَنِيِّ ﴿٦﴾﴾^(٢) الآية رواه البغوي وفي الصحيحين نحوه.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ ﴿١٠٦﴾ خَلِيلَيْنِ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ ﴿١٠٧﴾ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَلِيلَيْنِ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُورٍ﴾ ﴿١٠٨﴾ ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ﴾ ﴿١٠٩﴾ ﴿نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ ﴿١١٠﴾ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَأَخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْ مُرِيبٍ﴾ ﴿١١١﴾ ﴿وَإِنَّ كَلَامَنَا لَيُوفِينَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ﴿١١٢﴾

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ ﴿١٠٦﴾ قال: ابن عباس الزفير الصوت الشديد والشهيق الصوت الضعيف، وقال الضحاك ومقاتل الزفير أول نهيق الحمار والشهيق آخره إذا رده في جوفه، وكذا في القاموس، وقال أبو العالية الزفير في الحلق والشهيق في الصدر، وقال البيضاوي الزفير إخراج النفس والشهيق رده واستعمالهما في أول النهيق وآخره، وفي القاموس أيضاً زَفَرٌ يَزْفِرُ زَفْرًا وَزَفِيرًا أخرج نفسه بعد مده إياه

(١) سورة النبا، الآية: ٣٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجنائز، باب: موعظة المحدث عند القبر وقعود أصحابه حوله (١٣٦٢).

وأخرجه مسلم في كتاب: القدر، باب: كيفية خلق آدمي في بطن أمه وكتابة رزقه (٢٦٤٧).

والجملة في موضع الحال والعامل فيها الظرف المستقر ﴿خَلِيدٌ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ
وَالْأَرْضُ﴾ قال: الضحاك أي ما دامت سماوات الجنة والنار وأرضهما، وكل ما علاك
سماء وكل ما استقر عليه قدمك أرض، ولا شك أن اجتماع الناس المذكور فيما سبق يدل
على أن لهم مظل ومقل، وقال أهل المعاني هذه عبارة عن التأييد على عادة العرب
يقولون لا يأتيك ما دامت السماوات والأرض يعنون أبداً ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ظاهر هذه
الآية يقتضي انقطاع استقرارهم في النار، ويؤيده ما روي عن ابن مسعود قال: «ليأتين
على جهنم زمان ليس فيها أحد وذلك بعدما يلبثون فيها أحقاباً» وعن أبي هريرة مثله وبه
قال: من الصوفية الشيخ محي الدين ابن العربي، لكن هذا القول مردود بالإجماع
والنصوص قال: الله تعالى: ﴿الصَّيْدُ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ﴾^(١) أخرج الطبراني وأبو نعيم وابن
مردويه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لو قيل لأهل النار إنكم ما كثون عدد كل
حصاة لفرحوا بها، ولو قيل لأهل الجنة إنكم ما كثون عدد كل حصاة لحزنوا ولكن جعل
لهم الأبد» وأخرج الطبراني في الكبير والحاكم وصححه عن معاذ ابن جبل أن رسول
الله ﷺ بعثه إلى اليمن فلما قدم عليهم قال: يا أيها الناس إني رسول رسول الله ﷺ إليكم
يخبركم أن المرء إلى الله إلى جنة أو نار خلود بلا موت وإقامة بلا ظعن في أجساد لا
تموت» وأخرج الشيخان عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «يدخل أهل الجنة الجنة وأهل
النار النار ثم يقوم مؤذن بينهم يا أهل النار لا موت ويا أهل الجنة لا موت كل خالد فيما
هو فيه»^(٢) وأخرج البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقال يا أهل الجنة
خلود ولا موت ويا أهل النار خلود ولا موت» وحديث ذبح الموت والنداء بقوله «يا أهل
الجنة لا موت ويا أهل النار لا موت»^(٣) أخرجه الشيخان عن ابن عمرو أبي سعيد
والحاكم وصححه عن أبي هريرة، قال: البغوي معنى قول ابن مسعود وأبي هريرة ليأتين
على جهنم زمان ليس فيها أحد عند أهل السنة إن ثبت أن لا يبقى فيها أحد من أهل
الإيمان، وأما مواضع الكفار فممتلئة أبداً وقد ذكرت في تفسير قوله تعالى ﴿لَيَبِثَنَّ فِيهَا
أَحْقَابًا﴾^(٤) أنها في حق أهل الأهواء من أهل القبلة وعند أكثر المفسرين المراد

(١) سورة المائدة، الآية: ٨٠.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب (٦٥٤٤) وأخرجه مسلم
في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٤٩).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْمَصْرَةِ﴾ (٤٧٣٠).

(٤) سورة النبأ، الآية: ٢٣.

بالأحقاب أحقاب غير متناهية، ولما كان الإجماع على خلود الكفار في النار اختلفوا في تفسير هذه الآية وتأويل هذين الاستثنائين.

والمختار عندي أن الاستثناء في هذه الآية محمول على أنهم يخرجون من الجحيم إلى الحميم ﴿يُتَحَبُّونَ﴾ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿١﴾ وهكذا أبدأ، قال: البغوي في تفسير قوله تعالى: ﴿يَطْرُقُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ﴾ (٤٤) ﴿٢﴾ إنهم يسعون بين الحميم وبين الجحيم، فإذا استغاثوا من النار جعل عذابهم الحميم الآتي الذي صار كالمهل قال: الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَفِيضُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ (٣) أو من النار إلى الزمهرير. روى الشيخان عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضاً فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر من حرها وأشد ما تجدون من الزمهرير من زمهريرها» (٤) وكذا أخرج البزار عن أبي سعيد وأخرج أبو سعيد مثله من حديث أنس، وقال بعض المحققين الاستثناء في أهل الشقاء يرجع إلى قوم مؤمنين يدخلهم الله النار بذنوب اقترفوها ثم يخرجهم منها، عن أنس أن النبي ﷺ قال: «ليصيبن أقواماً سفع من النار بذنوب أصابوها عقوبة، ثم يدخلهم الله الجنة بفضل رحمته فيقال لهم الجهنميون» (٥) رواه البخاري، وعن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: «يخرج قوم من النار بشفاعة محمد ﷺ فيدخلون الجنة ويسمون الجهنميون» رواه البخاري ونحوه عن المغيرة بن شعبة عند الطبراني وزاد «فيدعون الله أن يمحو عنهم الاسم فيمحو الله عنهم» وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ناساً من أمتي يعذبون بذنوبهم فيكونون في النار ما شاء الله أن يكونوا، ثم يعيرهم أهل الشرك ما نرى ما كنتم فيه من تصديقكم نفعكم، فلا يبقى موحد إلا أخرجه الله، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿زُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (٦) وقد روي معناه في حديث طويل عن أبي موسى الطبراني والبيهقي وابن أبي حاتم، وعن أبي سعيد الطبراني، وفي دخول

(١) سورة غافر، الآية: ٧٢.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٤٤.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: مواقيت الصلاة، باب: الإبراد بالظهر في شدة الحر (٥٣٧) وأخرجه

مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر (٦١٥).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب: التوحيد، باب: ما جاء في قول الله تعالى ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِمَّنْ

الْمُحْسِنِينَ﴾ (٧٤٥٠).

المؤمنين المذنبين النار وخروجهم منها أحاديث بلغت حد التواتر، قال: البيضاوي فساق المؤمنين يخرجون من النار وذلك كاف في صحة الاستثناء لأن زوال الحكم عن الكل يكفيه زواله عن البعض وهم المراد بالاستثناء الثاني فإنهم يفارقون عن الجنة أيام عذابهم فإن التأييد من مبدأ معين ينتقض باعتبار الابتداء كما ينتقض باعتبار الانتهاء وهؤلاء وإن شقوا بعصيانهم فقد سعدوا بإيمانهم، ولا يقال فعلى هذا لم يكن قوله تعالى فمنهم شقي وسعيد تقسيمًا صحيحًا لأن من شرطه أن يكون صفة كل قسم منتفية عن قسيمه، لأن ذلك الشرط إنما يكون في الانفصال الحقيقي أو مانع الجمع والمراد هنا منع الخلوة، والمعنى أن أهل الموقف لا يخرجون عن القسمين ولا يخرج حالهم عن الشقاوة والسعادة وذلك لا يمنع اجتماع الأمرين في شخص باعتبارين انتهى، وقيل ما شاء هنا بمعنى من شاء والمراد بهم أيضًا عصاة المؤمنين في الاستثنائين، ومرجع هذا القول إلى القول الثاني وقيل المستثنى في الفريقين زمان توقفهم في الموقف للحساب لأن الظاهر يقتضي أن يكونوا في النار أو في الجنة حين يأتي اليوم، أو مدة لبثهم في الدنيا والبرزخ إن كان الحكم مطلقًا غير مقيد باليوم، وعلى هذا التأويل يحتمل أن يكون الاستثناء من الخلود على ما عرفت في كلام البيضاوي المذكور سابقًا، وقيل: هو استثناء من قوله تعالى ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيْقٌ﴾، وقال السيوطي في البدور السافرة أشبه الأقوال بالصواب أنه ليس باستثناء وإنما إلا بمعنى سوى كما تقول لك علي ألف درهم إلا الألفان القديمان أي سوى الألفين، والمعنى خالدين فيها مدة دوام السماوات والأرض في الدنيا سوى ما شاء ربك من الزيادة عليها مما لا منتهى له، وذلك عبارة عن الخلود، والنكته في تقديم ذكر مدة السماوات والأرض التقريب إلى الأذهان بذكر المعهود أولاً، ثم أردافه بما لا إحاطة للذهن به، وقيل: إلا بمعنى الواو يعني ما دامت السماوات والأرض في الدنيا وما شاء ربك من الخلود وكقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾^(١) يعني ولا للذين ظلموا، وقال الفراء: هذا استثناء استثناء ولا يفعله كقولك والله أضربك إلا أن أرى غير ذلك وعزيمتك أن تضربه، فالمعنى إلا ما شاء ربك يعني لو شاء ربك لأخرجهم منها ولكنه لم يشأ، وقال قتادة الله أعلم بشيئه ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا﴾ قرأ حفص وحمزة والكسائي بضم السين على البناء للمفعول من سعد الله بمعنى أسعده، والباقون بالفتح على البناء للفاعل فهو لازم ومتعد ﴿فِي الْجَنَّةِ

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٠.

خَلْدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴿٢٣﴾ قد ذكرت الأقوال في هذا الاستثناء فيما سبق، والمختار عندي أن أهل الجنة ينعمون في بعض أحيانهم بما هو أعلى من الجنة، وذلك هو الاستغراق في رؤية الله تعالى، وكمال الاتصال بجناية بلا كيف قال: المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾^(١) إن تقديم الجار والمجرور يقتضي الحصر ويفيد أنهم إذا رأوا ربهم يستغرقون في رؤيته تعالى لا ينظرون حينئذ إلى غيره، وعن جابر قال: قال: رسول الله ﷺ: «أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع عليهم نور فرفعوا رؤسهم فإذا الرب تبارك وتعالى قد أشرف عليهم من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، وذلك قوله تعالى ﴿سَلِّمٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ قال: فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحجب عنهم ويبقى نوره وبركته في ديارهم»^(٢) رواه ابن ماجه وابن أبي الدنيا والدارقطني، وقال المجدد للآلف الثاني في المكتوب المائة من المجلد الثالث في تحقيق سر اشتغال قلب يعقوب بمحبة يوسف ﷺ: إن جنة كل رجل عبارة عن ظهور اسم من أسماء الله تعالى الذي هو مبدأ لتعين ذلك الرجل، وإن ذلك الاسم يتجلى بصورة الأشجار والأنهار والقصور والحدود والغلمان، واستحكم هذا المكشوف بقوله ﷺ: «إن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وإنها قيعان وإن غراسها هذه يعني سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»^(٣) ثم قال: المجدد إن تلك الأشجار والأنهار قد تصير في حين من الأحيان على هيئة الإجمام الزجاجية، فتصير وسيلة إلى رؤية الله سبحانه غير متكيفة ثم تعود إلى حالها الذي كانت عليه، فيشغل المؤمن بنفسها وهكذا إلى أبد الأبدين، وقد ذكرنا زيادة الكلام في المقام في تفسير سورة القيامة في شرح آية الرؤية ﴿عَطَاءٌ﴾ منصوب على أنه مصدر مؤكد يعني أعطوا عطاءً، أو على الحال من الجنة، قلت ويمكن أن يكون منصوباً على أنه مفعول به لقوله تعالى ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ يعني هم في الجنة إلا وقت مشيئة ربك ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ﴾ أي غير مقطوع يعني الوصال والرؤية بلا حجاب، ووجه تعبير ذلك بعطاء غير مجذود مع أن كل نعيم في الجنة عطاء غير مجذود، أن ذاته تعالى موجود متأصل بنفسه وغيره موجود بوجود ظل وجوده، فالموجود بنفسه هو الله وحده ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾^(٤)

(١) سورة القيامة، الآية: ٢٢ - ٢٣.

(٢) أخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب: فيما أنكرت الجهمية (١٨٤).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: الدعوات (٣٤٦٢).

(٤) سورة القصص، الآية: ٨٨.

كالمستعير ثوب غيره عار بالنسبة إلى المالك، فعطاؤه تعالى اتصالاً بذاته كأنه هو المتأصل الغير المنقطع وما عداه من النعيم مجذوذ وجوده في نفسه بالنسبة إليه والله أعلم، قال: ابن زيد: أخبرنا الله بالذي يشاء لأهل الجنة فقال: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوزٍ﴾ ولم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار بل قال: هناك ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾.

﴿فَلَا تَكُ فِي مَرْيَمَ﴾ شك بعدما أخبرناك من مال الناس ﴿مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ من عبادة هؤلاء المشركين في أنها ضلال مؤد إلى مثل ما حل بمن قبلهم ممن قصصته عليك سوء عبادتهم، أو من حال ما يعبدونه في أنه لا يضر ولا ينفع ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا﴾ كان ﴿يَعْبُدُ آبَاؤَهُمْ مِّن قَبْلُ﴾ حذف كان لدلالة قبل عليه، والجملة مستأنفة معناه تعليل النهي عن المرية في أنهم وأباؤهم سواء في الشرك أي ما يعبدون عبادةً إلا كعبادة آباؤهم، أو ما يعبدون شيئاً إلا مثل ما عبدوه من الأوثان، وقد بلغك ما لحق آباءهم فسيلحقهم مثله، لأن التماثل في الأسباب يقتضي التماثل في المسببات ﴿وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيْبِهِمْ﴾ من العذاب كآبائهم أو من الرزق فيكون عذراً لتأخير العذاب عنهم مع قيام موجهه ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ من النصيب تأكيد للتوفية، فإنك قد تقول وفيه حقه وتريد به وفاء بعضه ولو مجازاً.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ فأمّن به قوم وكفر به قوم كما اختلف هؤلاء في القرآن تسلية للنبي ﷺ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ﴾ الأنظار إلى يوم القيامة ﴿سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين المحق والمبطل بإنزال العذاب على المبطل ليميز به عن المحق ﴿أَمَانِي هُمْ﴾ يعني كفار مكة ﴿لَفِي شَكِّ مَنَّهُ﴾ أي من القرآن أو من العذاب ﴿مُرِيْبٍ﴾ موقع في الريب ﴿وَإِنْ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو بكر مخففة من الثقيلة عاملة اعتبار للأصل والباقون مشددة ﴿كَلَّا﴾ التنوين يدل من المضاف إليه يعني أن كل واحد من المختلفين المؤمنين منهم والكافرين ﴿لَمَّا﴾ قرأ عاصم وابن عامر وحمزة ههنا وفي يس ﴿لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا﴾^(١) وفي الطارق ﴿لَمَّا عَلَيْنَا حَافِظٌ﴾^(٢) بتشديد الميم، والباقون بتخفيفها، فمن قرأها بالتخفيف فلام الأولى موطية للقسم والثانية للتأكيد أو بالعكس، وما مزيدة بينهما للفصل، وقيل ما معنى مَنْ كما في قوله تعالى ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾^(٣) أي من طاب لكم، والمعنى والله ﴿لِيُوفِيَنَّهُمْ﴾ أو والله لمن ليوفينهم ﴿رَبِّكَ أَعْمَلَهُمْ﴾ أي جزاء أعمالهم، ومن

(١) سورة يس، الآية: ٣٢.

(٢) سورة الطارق، الآية: ٤.

(٣) سورة النساء، الآية: ٣.

قرأها بالتشديد فاصله لَمَنْ مَا، فقلبت النون ميما للإدغام فاجتمعت ثلاث ميمات فحذفت أولاً عن، والمعنى لمن ليوفيههم وما مزيدة، وقيل إنه من لامت لما أي جمعته، ثم وقف على الألف عوض التنوين فصار لَمَّا، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف، وجاز أن يكون مثل الدعوى والبشرى وغيرها من المصادر التي فيها ألف التانيث، وقرأ الزهري وَإِنَّ كَلًّا لَمَّا بالتنوين وهو يؤيد هذا القول، والمعنى وإن كلاً جميعاً، وقال صاحب الإيجاز لما فيه معنى الظرف وفي الكلام اختصار تقديره وإن كلاً لما بعثوا ليوفينهم ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من خير أو شر ﴿خَيْرٌ﴾ فلا يفوت منه شيء وإن خفي.

﴿فَأَسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فْتَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِنَاتٍ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾

﴿فَأَسْتَقِمْ﴾ استقامة ﴿كَمَا أَمَرْتَ﴾ أي مثل استقامة أمرت بها ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ من الشرك وآمن عطف على المستكن في استقم وإن لم يؤكد بمنفصل لقيام الفاصل مقامه، لما بين الله سبحانه أمر المختلفين في التوحيد والنبوة وأطنب في شرح الوعد والوعيد، أمر رسوله ومن تبعه بالاستقامة مثل ما أمر بها، وهي شاملة للاستقامة في العقائد كالوسط بين التشبيه والتعطيل، والجبر والاختيار وغير ذلك، والأعمال من تبليغ الوحي وبيان الشرائع كما أنزل، والقيام بوظائف العبادات من غير تفريط وإفراط مفوت للحقوق ونحوها، عن سفيان ابن عبد الله الثقفي قال: قلت يا رسول الله «قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك؟» وفي رواية غيرك، قال: «قل آمنت بالله ثم استقم»^(١) رواه مسلم، فالاستقامة لفظ جامع قال: عمر بن الخطاب الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي ولا تروغ وروغان الثعلب يعني لا تميل عن الطريق المستقيم ميلاً أصلاً، وهي في غاية العسر ولذلك قالت الصوفية الاستقامة فوق الكرامة قال: البغوي قال: ابن عباس رضي الله عنهما: ما نزلت على عهد رسول الله ﷺ آية هي أشد عليه من هذه الآية ولذلك قال: «شيببني سورة

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: جامع أوصاف الإسلام (٣٨).

هود^(١) قلت: قول ابن عباس يدل على أن اشتداد هذه السورة على رسول الله ﷺ حتى شيبته، إنما كان لأجل هذه الآية الأمرة بالاستقامة، فإنه ﷺ وإن كان نفسه الشريفة مجبولة على الاستقامة مخلوقة على خلق عظيم، لكنها شاقة على من تبعه فلذلك شيبته شفقة على أمته، والظاهر عندي إن قوله ﷺ «شيبني سورة هود» مبني على اشتغالها على قصص هلاك الأمم الشعر بالوعيد بالهلاك للظالمين من أمته وذكر يوم القيامة كما سنذكر في آخر السورة إن شاء الله تعالى ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ يعني لا تجاوزوا عن حدود الشرع، وقيل معناه لا تغلوا فتزيد واعلى ما أمرت ونهيته عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الدين يسد ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»^(٢) رواه البخاري والنسائي، قلت: وهذا الحديث أيضاً يدل على أن تشييب السورة رسول الله ﷺ ما كان لثقل الاستقامة والله أعلم ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قال: ابن عباس أي لا تميلوا والركون المحبة والميل بالقلب، وقال أبو العالية لا ترضوا بأعمالهم، وقال السدي لا تداهنوا الظلمة، وقال عكرمة لا تطيعوهم، وقيل لا تسكنوا إلى الذين ظلموا قال: البيضاوي لا تميلوا إليهم أدنى ميل فإن الركون هو الميل اليسير كالتزين بزيتهم وتعظيم ذكرهم ﴿فَتَسَكَّمُ النَّارُ﴾ بركونكم إليهم، قال: البيضاوي وإذا كان الركون إلى الظالمين كذلك فما ظنك بالميل كل الميل إليهم، ثم بالظلم نفسه والانهماك فيه، ولعل الآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم، روي أن رجلاً صلى خلف الإمام فلما قرأ هذه الآية غشي عليه فلما أفاق قيل له فقال: هذا فيمنز ركن إلى الظلم فكيف بالظالم، وعن الحسن جعل الله الدين بين لائين لا تطغوا ولا تركنوا، وعن الأوزاعي «ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور ظالماً» وعن أوس أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من مشى مع ظالم ليقويه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام» وعن أبي هريرة أنه سمع رجلاً يقول إن الظالم لا يضر إلا نفسه، فقال: أبو هريرة بلى والله حتى الحبارى لتموت في وكرها هزلاً بظلم الظالم، روي الحديثين في شعب الإيمان. قال: البيضاوي خطاب الرسول الله ﷺ ومن معه من

(١) الحديث المعروف «شيبني هود وأخواتها».

وروي بغير هذه الصيغة عند الترمذي والبيهقي، وأعله الدارقطني والصواب تحسينه.

انظر كشف الخفاء (١٥٧٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: الدين يسر (٣٩) وأخرجه النسائي في كتاب: الإيمان

وشرائعه، باب: الدين يسر (٥٠٣٢).

المؤمنين بهذه الآية للتثبيت على الاستقامة التي هي العدل فإن الزوال عنها بالميل إلى أحد طرفي إفراط أو تفريط ظلم على نفسه أو غيره بل ظلم في نفسه ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي من أنصار يمنعون عنكم العذاب والواو للحال من مفعول فتمسكم النار ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي ثم لا ينصركم الله إذ سبق في حكمه أن يعذبكم فيه وثم لاستبعاد النصر من الله تعالى، أو لاستبعاد النصر مطلقاً فإنه لما ذكر أنهم يعذبهم الله وكل من يعذبه الله لا يقدر على نصره أحد غيره أنتج أنهم لا ينصرون أحداً والله أعلم.

أخرج الترمذي والنسائي عن أبي اليسر قال: البغوي هو عمرو بن غزية الأنصاري، قال: أتني امرأة تبتاع تمرأ فقلت إن في البيت تمرأ أطيب منه، فدخلت معي البيت فأهويت إليها فقبلتها ثم ندمت فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك فقال: أستر على نفسك وتب، قال: فأتيت عمر فقال: أستر على نفسك وتب، فلم أصبر فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: «أخلفت غازيا في سبيل الله في أهله بمثل هذا» حتى ظن أنه من أهل النار فأطرق رسول الله ﷺ حتى أوحى إليه ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾ الآية^(١) فقال: أصحاب رسول الله ﷺ ألهذا خاصة أم للناس عامة؟ قال: بل للناس عامة، قال: صاحب لباب النقول: وورد نحو حديث أبي اليسر من حديث أبي أمامة وابن عباس وبريدة وغيرهم، وانتصاب طرفي على الظرف لأنه مضاف إليه ومعناه غدوة وعشية ﴿وَزُلْفًا مِنْ أَيْلٍ﴾ أي طائفة من الليل أو ساعات منه قريبة من النهار، فإنه من أزلفه إذا قربه وهو جمع زلفة، قرأ أبو جعفر بضم اللام، قال: ابن عباس طرفا النهار يعني صلاة الصبح والمغرب وزلفاً من الليل حينئذ العشاء، وقال الحسن طرفا النهار الصبح والعصر وزلفاً من الليل المغرب والعشاء، وهذا القول يشعر أن وقت الظهر والعصر واحد ولو عند الضرورة وكذا وقت المغرب والعشاء، ومن ههنا قال: مالك وأحمد والشافعي إذا أسلم الكافر أو طهرت الحائض أو بلغ الصبي آخر وقت العصر وجبت عليه الظهر والعصر، وإذا أسلم أو طهرت أو بلغ آخر وقت العشاء وجبت عليه المغرب والعشاء، خلافاً لأبي حنيفة فإنه لا يجب عنده إلا العصر والعشاء، لنا الأحاديث الواردة في أوقات الصلوات التي ذكرتها في سورة النساء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾^(٢) فإنها

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة هود (٣١١٣).

(٢) سورة النساء، الآية: ١٠٣.

تدل على أن وقت كل صلاة مباين للأخرى، ولأجل ذلك لا يجوز عند أبي حنيفة جمع صلاة الظهر والعصر ولا المغرب والعشاء بعلّة سفر أو مرض أو مطر كما لا يجوز جمعها بغير علة إجماعاً، وقال الشافعي ومالك وأحمد: يجوز الجمع في السفر، وعند مالك وأحمد يجوز الجمع لأجل المطر في العشائين خاصة، وعند الشافعي بين الظهرين أيضاً، وجاز عند أحمد الجمع لأجل المرض، احتجوا بأن رسول الله ﷺ أمر حمنة بنت جحش حين استحاضت بالجمع وقال: «تؤخرين الظهر وتعجلين العصر ثم تفتسلين وتجمعين بين الصلاتين»^(١) رواه أحمد والترمذي وقال حديث حسن صحيح، وأنه ﷺ جمع في السفر بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء، في الصحيحين عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يجمع بين الصلاتين في السفر المغرب والعشاء والظهر والعصر، وفيهما عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ إذا ارتحل قبل أن تزيغ الشمس أخر الظهر إلى وقت العصر ثم ينزل فيجمع بينهما، وإذا زاغت الشمس قبل أن يرتحل صلى الظهر ثم ركب»^(٢) وروى مسلم من حديث معاذ بن جبل قال: «جمع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء، قال: فقلت له ما حمله على ذلك؟ قال: أراد أن لا يخرج أمته»^(٣).

وأجاب أبو حنيفة عن هذه الأحاديث أن المراد من هذه الأحاديث الجمع الصوري، يعني كان يصلي الظهر في آخر وقتها والعصر في أول وقتها وكذا العشائين، فيجمع بينهما صورة وكان يصلي كل صلاة في وقتها كما هو مصرح في حديث حمنة، ويدل عليه ما في الصحيحين عن ابن عباس أن النبي ﷺ جمع بالمدينة من غير خوف ولا سفر، وفي بعض ألفاظ مسلم جمع بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء من غير خوف ولا مطر، قيل لابن عباس ما أراد إلى ذلك؟ قال: أراد أن لا يخرج أمته، وفي رواية للطبراني جمع بالمدينة من غير علة، قيل: ما أراد بذلك؟ قال: التوسع على أمته، فإن هذا الحديث محمول على الجسع الصوري البتة للإجماع على عدم جواز الجمع من غير

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: الطهارة، باب: ما جاء في المستحاضة أنه تجمع بين الصلاتين بغسل واحد (١٢٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: تقصير الصلاة، باب: يؤخر الظهر إلى العصر إذا ارتحل قبل أن تزيغ الشمس (١١١١) وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: جواز الجمع بين الصلاتين في السفر (٧٠٤).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الجمع بين الصلاتين في الحضر (٧٠٥).

علة، وقد جاء صريحاً في الصحيح عن عمرو بن دينار قال: قلت يا أبا الشعثا أظنه أخر الظهر وعجل العصر وأخر المغرب وعجل العشاء، قال: وأنا أظن ذلك فإن قيل: يمكن حمل ما يدل على جمع التأخير على الجمع الصوري ولكن من الروايات ما يدل على جميع التقديم ولا يمكن حملها على الجمع الصوري أما حديث ابن عباس فرواه أحمد والبيهقي والدارقطني من طريق حسين بن عبيد الله بن عبد الله بن عباس عن عكرمة وكريب عن ابن عباس قال: كان إذا زاغت الشمس في منزله جمع بين الظهر والعصر قبل أن يركب، وإذا لم تنزع له في منزله سار إذا جاء العصر نزل فجمع بين الظهر والعصر، وإذا جاءت في منزله جمع بينهما وبين العشاء، وإذا لم يجيء في منزله ركب حتى إذا جاءت العشاء نزل فجمع بينهما، وأما حديث أنس فرواه الإسماعيلي والبيهقي من حديث إسحاق بن راهويه بلفظ: كان رسول الله ﷺ إذا كان في السفر وزالت الشمس صلى الظهر والعصر جميعاً ثم ارتحل قال: النووي: إسناده صحيح، وأما حديث معاذ فرواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم والدارقطني والبيهقي من حديث قتيبة عن الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الطفيل عنه «أن رسول الله ﷺ كان في غزوة تبوك إذا زاغت الشمس قبل أن يرتحل جمع بين الظهر والعصر فإن ارتحل قبل أن تزيع آخر الظهر حتى ينزل للعصر» وفي المغرب مثل ذلك^(١) الحديث. قلنا: أما ما ذكرتم من حديث ابن عباس فحسين ضعيف كذا قال: ابن معين، وقال النسائي متروك وأما ما ذكرتم من حديث أنس فإنه وإن قال: النووي إسناده صحيح، لكن قال: الذهبي إن أبا داود أنكر على إسحاق لكن له متابع رواه الحاكم في الأربعين وفيه إذا زاغت الشمس قبل أن يرتحل صلى الظهر والعصر ثم ركب وهذه زيادة غريبة صحيحة الإسناد رواه الطبراني في الأوسط أن النبي ﷺ «كان إذا كان في سفر فزاغت الشمس قبل أن يرتحل صلى الظهر والعصر جميعاً، وإن ارتحل قبل أن تزيع الشمس جمع بينهما في أول العصر، وكان يفعل ذلك في المغرب والعشاء» وقال تفرد به يعقوب بن محمد الزهري وأما حديث معاذ قال: الترمذي تفرد به قتيبة والمعروف ما رواه مسلم، وقال أبو داود هذا حديث منكر وليس في جمع التقديم حديث قائم، وقال أبو سعيد بن يونس لم يحدث بهذا الحديث إلا قتيبة، ويقال إنه غلط وعلله أبو حاتم وأطنب الحاكم في بيان علته وأعله البخاري وابن حزم، وفي الجمع في السفر حديث علي رواه الدارقطني بسند له من حديث أهل البيت وفي إسناده من لا يعرف، وفيه أيضاً المنذر القابوسي

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: الجمع بين الصلاتين (١٢٠٧).

وهو ضعيف. واحتج أبو حنيفة بحديث ابن مسعود في الصحيحين قال: ما رأيت رسول الله ﷺ صلى صلاة لغير وقتها إلا بجمع فإنه جمع بين المغرب والعشاء بجمع وصلى صلاة الصبح من الغد قبل وقتها يعني غلس بها فكأنه أراد قبل وقتها المعتاد، وكأنه ترك ذكر جمع عرفة لشهرته، وبما روى مسلم في حديث ليلة التعريس قوله ﷺ «ليس في النوم تفريط إنما التفريط في اليقظة أن يؤخر الصلاة حتى يدخل وقت صلاة أخرى»^(١) والله أعلم.

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِيَّاتٍ﴾ أي يكفرنها أخرج الطبراني بسند ضعيف عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «لم أر شيئاً أحسن طلباً ولا أسرع إدراكاً من حسنة حديثة لسيئة قديمة، ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِيَّاتٍ﴾» وأخرج أحمد عن أبي ذر قال: «قلت يا رسول الله أوصني» قال: «إذا علمت سيئة فأتبعها حسنة تمحها، قال: قلت يا رسول الله من الحسنات لا إله إلا الله، قال: «هي أفضل الحسنات» عن ابن مسعود «أن رجلاً أصاب من امرأة قبله، فأتى النبي ﷺ فأخبره فأنزل الله تعالى ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾ الآية، فقال: الرجل ألي هذا؟ قال: «لجميع أمي كلهم» وفي آدابه «لمن عمل بها من أمي»^(٢) متفق عليه، وفي رواية لمسلم نحوه وفيه قال: له عمر لقد سترك الله لو سترت على نفسك الحديث، وأخرج الحاكم والبيهقي من حديث معاذ بن جبل نحوه، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنب الكبائر»^(٣) رواه مسلم، وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا»^(٤) متفق عليه ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى قوله فاستقيم فما بعده وقيل: إلى القرآن ﴿ذِكْرَى لِلذَّكِرِينَ﴾ أي عظة للمتعظين ﴿وَأَصْبِرْ﴾ يا محمد على الطاعات وعن المعاصي وعلى ما أصابك من الأذى، وقيل:

(١) أخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها (٦٨١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: مواقيت الصلاة، باب: الصلاة كفارة (٥٢٦) وأخرجه مسلم في كتاب: التوبة، باب: قوله تعالى ﴿الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِيَّاتٍ﴾.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر (٢٣٣).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب: مواقيت الصلاة، باب: الصلوات الخمس كفارة (٥٢٨) وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: المشي إلى الصلاة تمحي به الخطايا (٦٦٧).

على الصلاة نظيره: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾^(١) ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ عدل من المضممر ليكون كالبرهان على المقصود وفيه دليل على أن الصلاة والصبر أختان، وإيماء بأنه لا يُعْتَدُّ بهما بدون الإخلاص.

﴿فَلَوْلَا﴾ فهلا ﴿كَانَ مِنَ الْقُرُونِ﴾ التي كانت ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ﴾ أي أولو رأي وعقل وفضل، وإنما سمي بقية لأن الرجل يستبقي أفضل ما عنده، يقال فلان ذو بقية إذا كان فيه خير، ومنه ما يقال فلان من بقية القوم أي من خيارهم، ومنه قولهم في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا، وقيل: معناه أولو طاعة كما ذكرنا في ﴿يَقِيَّتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ﴾^(٢) ﴿وَالْبَقِيَّةُ الْمَصْلُوحَةُ خَيْرٌ﴾^(٣) وقيل: معناه أولوا بقية من الخير إذا كان على خصلة محمودة، ويجوز أن يكون مصدراً كالتقية، في القاموس بقى يبقى بقاءً وبقاءً وبقياً يعني ذو إبقاء على أنفسهم وصيانة لها من العذاب ﴿يَنْهَوْنَ﴾ الناس ﴿عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ ويأمرون بالمعروف ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ لكن قليلاً منهم أنجيناهم، وهم أتباع الأنبياء كانوا ينهون عن الفساد، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً إذا جعل من النفي اللازم للتحضيض، ومن في ﴿مِمَّنْ أَنْجَيْنَا﴾ للبيان لا للتبويض ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي التاركون للنهي عن المنكر ﴿مَا أَتَوْا فِيهِ﴾ ما أنعموا فيه من الشهوات، فاهتموا بتحصيل أسبابها واعرضوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقال مقاتل بن حبان ما حولوا، وقال الفراء ما عودوا جملة واتبع معطوف على فعل مقدر أي إلا قليلاً ممن أنجينا منهم نهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا شهواتهم ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ كافرين.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ ﴿١١٧﴾ ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ ﴿١١٨﴾ ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١١٩﴾ ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئْتُمْ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٢٠﴾ ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ ﴿١٢١﴾ ﴿وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ﴾ ﴿١٢٢﴾ ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٢٣﴾

(٢) سورة هود، الآية: ٨٦.

(١) سورة طه، الآية: ١٣٢.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٦.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ﴾ اللام لتأكيد النفي وأن المصدرية مقدره يعني ما كان صفة ربك إهلاك ﴿الْقُرَى﴾ أو ما كان ربك مهلكها ﴿يُظْلِمُ﴾ حال من ضمير الفاعل في يهلك أي ما كان الله مهلكهم ظالماً لهم ﴿وَأَهْلُهَا﴾ قوم ﴿مُصْلِحُونَ﴾ مسلمون تنزيه لذاته تعالى عن الظلم، وقيل: الظلم الشرك والمعنى وما كان الله مهلك القرى بسبب شركهم في حال يكون أهلها مصلحون فيما بينهم يتعاطون الإنصاف ولا يظلم بعضهم بعضاً، أخرج الطبراني وأبو الشيخ عن جرير بن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية قال: رسول الله ﷺ «وأهلها يُنصف بعضهم بعضاً»، وذلك لفرط رحمة ومسامحة في حقوقه ولذلك قدم الفقهاء عند تراحم الحقوق حقوق العباد، ومن ههنا قيل: الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ﴾ كلهم ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ مسلمين صالحين وهو دليل ظاهر على أن الأمر غير الإرادة، وأنه تعالى لم يرد الإيمان من كل واحد وأن ما أراد يجب وقوعه ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ عن الحق تاركه إلى الباطل على أنحاء شتى، فمنهم يهودي ونصراني ومجوسي ووثني، ومنهم جبري وقدري وروافض وخوارج وغير ذلك ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ﴾ هداهم الله من فضله إلى صراط مستقيم، فهم متفقون على أصول العقائد الصحيحة وامثال أوامر الله والانتها عن المناهي، عن ابن مسعود قال: خط لنا رسول الله ﷺ خطأ مستقيماً، ثم قال: «هذا سبيل الله» ثم خط خطأً عن يمينه وعن شماله وقال: «هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، وقرأ ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾»^(١) رواه أحمد والنسائي والدرامي ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال: ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك يعني للرحمة خلقهم، فالضمير راجع إلى من رحمهم والإشارة إلى الرحمة، وقال الحسن وعطاء وللإختلاف خلقهم، قال: أشهب سألت مالكا عن هذه الآية؟ فقال: خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير، وقال أبو عبيدة الذي اختاره قول من قال: خلق فريقاً لرحمته وفريقاً لعذابه وقال الفراء خلق أهل الرحمة للرحمة وأهل الإختلاف للاختلاف، فالضمير راجع إلى الناس والإشارة إلى الإختلاف والرحمة جميعاً، واللام للعاقبة ويؤيد هذا التأويل قوله تعالى ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي حكم ربك القديم أو قوله للملائكة ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ أي عصاتها ﴿أَجْمَعِينَ﴾ أو المعنى منهما جميعاً لا من أحدهما.

(١) رواه أحمد والبخاري وفيه عاصم بن بهدلة وهو ثقة وفيه ضعف. انظر مجمع الزوائد في كتاب:

التفسير، باب: سورة الأنعام (١١٠٠٥).

﴿وَكَلَّا﴾ أي كل نبي ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ أي أخبارهم ومن أخبار أممهم ﴿مَا نَثَبْتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ بيان لكلاً أو بدل منه، وفائدته التنبيه على المقصود من الاقتصار، وهو زيادة يقينه وتقوية قلبه على أداء الرسالة واحتمال أذى الكفار، أو مفعول وكلاً منصوب على المصدر أو الظرف، أي كل نوع من أنواع الاقتصار أو كل وقت من الأوقات نقص عليك ما نثبت به فؤادك من أنباء الرسل والأمم ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ﴾ قال: الحسن وقتادة في هذه الدنيا، وقال غيرهما في هذه السورة والظاهر أن الإشارة إلى الأناء، يعني جاءك في هذه الأنباء المقتصة عليك ﴿الْحَقُّ﴾ أي ما هو حق ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى سائر فوائده التامة العامة ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي حالكم وجهتكم التي أنتم عليها وعلى قدرتكم فيه تهديد ووعيد ﴿إِنَّا عَمِلُونَ﴾ على حالنا وقوتنا ﴿وَأَنْظُرُونَ﴾ بنا الدوائر ﴿إِنَّا مُنظِرُونَ﴾ أن ينزل بكم نحو ما نزل على أمثالكم إن لم تؤمنوا ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي له تعالى خاصة علم ما غاب عن العباد فيهما، لا يخفي عليه خافية مما بينهما فلا يخفى عليه أعمالكم ﴿وَالِيهِ يَرْجَعُ﴾ قرأ نافع وحفص بضم الياء وفتح الجيم على البناء للمفعول، والباقون بفتح الياء وكسر الجيم على البناء للفاعل ﴿الْأَمْرَ كُلَّهُ﴾ في العباد يعني يرجع إليه تعالى لا محالة أمرك وأمرهم فينتقم لك منهم يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ وفي تقديم الأمر بالعبادة على التوكل تنبيه على أنه إنما ينفع التوكل مع العبادة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ قرأ نافع وابن عامر وحفص ويعقوب هنا وفي آخر النمل بالتاء الفوقانية على الخطاب والباقون بالياء التحتانية على الغيبة فيهما.

قال البغوي: قال: كعب خاتمة التوراة خاتمة سورة هود، عن ابن عباس قال: قال أبو بكر يا رسول الله قد شئت، قال ﷺ: «شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت»^(١) رواه الترمذي والحاكم وصححه والبغوي، ورواه الحاكم عن أبي بكر وابن مردويه عن سعد ورواه ابن مردويه عن أبي بكر بلفظ: «شيبتني هود وأخواتها قبل المشيب» ورواه أبو يعلى بسند ضعيف عن أنس وابن مردويه عن عمران بلفظ «شيبتني هود وأخواتها من المفصل» ورواه ابن مردويه عن أنس بلفظ «شيبتني سورة هود وأخواتها الواقعة والقارعة والحاقة وإذا الشمس كورت وسأل سائل» وروى الطبراني في الكبير عن عقبة بن عامر وأبي جحيفة بلفظ «شيبتني سورة هود وأخواتها» وفي الطبراني

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الواقعة (٣٢٩٧).

عن سهل بن سعد بسند ضعيف بزيادة «الواقعة والحاقة وإذا الشمس كورت» وروى ابن عساكر عن محمد بن علي مرسلًا بلفظ «شَيَّبَتْنِي هود وأخواتها وما فعل بالأمم قبلي» وروى عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وأبو الشيخ في تفسيره عن أبي عمران الحونى مرسلًا «شَيَّبَتْنِي هود وأخواتها وذكر يوم القيامة وقصص الأمم» وألفاظ الأحاديث المذكورة صريحة في أن التشيب مبني على ذكر يوم القيامة وهلاك الأمم السابقة لا على الأمر بالاستقامة له ولمن تاب معه وإلا لاقتصر على سورة هود ولم يذكر معها أخواتها.

المحتويات

٥ سورة الأنفال
١١٨ سورة التوبة
٣١٣ سورة يونس
٣٧٣ سورة هود

